



خصائص التنظيم القرآني

في قصة إبراهيم عليه السلام

الدكتور الشوكان محمد بن يوسف

مضارص النظم القرآني
في
قصة إبراهيم عليه السلام

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الأمانة
٣ شارع جديدة بدران شبرا - مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقَدْحِ

الاحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين
والمرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه
أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .
أما بعد :

فيحظى المسلم في مكة المكرمة — حرسها الله تعالى — بفيض من
البركات الالهية ، وافتوحات الربانية ، حيث يحيا في حوى بلد الله
الحرام ، الذى أقسم به فى كتابه العظيم فقال جل شأنه : « لا أقسم
بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد » (١) وقال تعالى : « وهذا البلد
الأمين » (٢) .

وينعم بجوار بيت الله العتيق، أول بيت وضع للناس مثابة وآمنا،
وقبله المسلمين الى يوم الدين ، « ان أول بيت وضع للناس للذى
بمكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله
كان آمنا » (٣) .

ويشرف بالسير فى مدارج رسول الله ﷺ وصحابته الأولين ،
الذين نصر الله بهم الدين ، وأعلى على أيديهم راية الاسلام فى
العالمين .

ولما من الله تعالى على بمجاورة بيته الحرام ، طوفت بخاطرى
فى الماضى السحيق ، أتأمل تاريخ هذا البلد الأمين ، واتخيل

(١) البلد : ١ ، ٢ .

(٢) التين : ٣ .

(٣) آل عمران : ٩٦ ، ٩٧ .

صورته يوم أن كان وادياً مجدياً خالياً من الحياة وأسبابها ، ووجد
إليه إبراهيم عليه السلام من موضئه البعيد ، وترك فيه زوجته هاجر
وولدهما اسماعيل عليه السلام ، وتوجها إلى ربه داعياً صارخاً « ربنا
اننى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من
الثمرات لعلهم يشكرون » (٤) •

واستجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام ، فتداول الوادى
المهجور إلى بلد معمور ، ينعم أهله بالأمن والرخاء ، وتهوى إليه
أفئدة الناس من جميع الأرجاء •

وعلى أثر هذه الخواطر شرعت في تتبع قصة إبراهيم عليه السلام
في القرآن الكريم أعيش أحداثها ، وأحيا مشاهدتها ، وأتأمل نظمها في
كل حلقة من حلقاتها ، وأنعم النظر في خصائصه البلاغية ، وأسارته
الانتعيرية ، وأتدبر تأويله البديع في التعبير عن المعنى الواحد بأنماط
مختلفة طبقاً للملابسات المشاهد في كل حلقة ، وأبحث عن أسرار هذه
التنوع الأسلوبى المعجز •

ومن هنا كان هذا البحث « خصائص النظم القرآنى في قصة
إبراهيم عليه السلام » •

وقد بنيته على تمهيد وخمسة فصول وخاتمة •

التمهيد : وتحدثت فيه بإيجاز عن مفهوم القصة القرآنية
واختلافها عن القصة البشرية •

وعن حياة إبراهيم عليه السلام وملامح قصته في القرآن
الكريم •

والفصل الأول : الدعوة إلى عبادة الله تعالى •

وفيه تحليل بلاغى للحلقات التى تحكى جهاد ابراهيم عليه السلام فى دعوة أبيه وقومه الى عبادة الله الواحد القهار ، ونبذ عبادة الأصنام والكواكب وقد وردت هذه الحلقات فى سور : البقرة والأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصفات .

والفصل الثانى : ابراهيم عليه السلام والملائكة .

وفيه تحصيه للحلقات التى تروى قصة ابراهيم عليه السلام مع خُصيوفه من الملائكة وما جرى بينهما من محاورات ، وجاءت هذه الحلقات فى سور : هود الحجر والعنكبوت والذاريات .

والفصل الثالث : فى رحاب البيت العتيق .

وفيه تحليل للحلقات التى تعرض رفع ابراهيم عليه السلام لقواعد البيت الحرام . ودعائه فى هذا المكان المقدس ، ومايتصل بذلك من محاورات جرت بيه وبين الله عز وجل . ووردت هذه الحلقات فى سور : البقرة و ابراهيم والحج .

والفصل الرابع : عقيدة ابراهيم عليه السلام ومنزلته .

ويتضمن تحليل ما ورد من آيات فى بيان عقيدته ، وايضا منزلته عند الله عز وجل فى الدنيا والآخرة وجاءت فى سور : البقرة وآل عمران والسماء والتوبة والنحل وص والزخرف والمنتحنة .

وقد قدّمت بين يدي كل حلقة بمقدمة تثقى الضوء على موضوعات الحلقة ، وتبين تناسبها مع السورة ، ومع الآيات التى تسبقها ، وقسمت كل حلقة الى بداية ، وموضوعات نقل وتكرر طبقا لآياتها ، وخاتمة .

وأنبعت كل فصل من الفصول الأربعة السابقة يبحث خاص يبين أسرار التشابه والتنوع فى نظم الحلقات التى يتضمنها الفصل، وذلك من خلال المقارنة المفصلة بين نطلها مجتمعة . على أننا فى تحليلنا

البلاغى لكل حلقة على انفرادها قد عينا عناية خاصة ببيان أسرار التنوع فى نظمها ، وایضاح ما فيه من تلوين أسلوبى بدیع ، واطهار كثير من لطائف ترتیبه ونسقه الفريد .

والفصل الخامس : الخصائص البلاغية العامة فى قصة ابراهيم عليه السلام . وخصسته بالحديث عن الخصائص البلاغية الشائعة فى حاقيات قصة ابراهيم عليه السلام ، مع التركيز على الجانب الاحصائى ، وتحليل نتائجها وتعليلها ، لاعطاء صورة شاملة عن أهم الخصائص البلاغية فى القصة .

ونأتى الخاتمة لتلخص البحث وتبين أهم نتائجها . وينبغى أن تؤكد على أن المعالجة البلاغية للموضوعات القرآنية تتضاعف صعوبتها ، من حيث حاجتها الى التناهى فى الدقة والالتزام ، خشية أن يخط القلم ما تزل به القدم . كما أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز وهو الذى لا تقنى عجائبه ولا تتقضى غرائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يحيط بأسراره الا العليم الحكيم .

ومن ثم فلا ندعى أننا بلغنا فى بحثنا هذا درجة الكمال ، بيد أننا توخيناها وسعينا اليها مستمدين من الله تعالى انعون والمسداد ، فمنه التوفيق وعليه التوكل « ما يفتح الله للناس من رحمة نألا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

ونحن اذ نقدم هذا الجهد المتواضع راجين ثوابه من المولى عز وجل نضرع اليه جل شأنه بدعاء ابراهيم عليه السلام « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .

« ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » .

د/ الشحات محمد عبد الرحمن أبو سميت
الاستاذ المساعد للبلاغة والنقد
بجامعتى الأزهر وأم القرى

مسكة المكرمة
١١ شوال ١٤١١هـ
٢٦ ابريل ١٩٩١م

تمهيد

أولا : القصة في انقرآن الكريم

يزخر كتاب الله تعالى بألوان من قصص الأنبياء السابقين ، تحكى جهادهم في الدعوة الى الله تعالى ، وتصور ما نالوه من ايذاء وويلاء في سبيل ذلك ، وتبين مواقف أقوامهم من الدعوة ، وتمسكهم بالكفر والجهود ، وتربصهم بأنبيائهم الدوائر ، وفي ثنايا ذلك تسوقا للعبر والعظات ، وتوجه الى الطريق المستقيم الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين .

وانقصص شعبية جلية من شعب القرآن الكريم اختصه الله منه بنصيب كبير لكانه من الدعوة ، وحسن بلائه في المعاونة على أدائها ، فإن تكن شعبه الأخرى هدى وارشادا ، وشرعا ونظاما ، وتقويما واصلاحا ، فان القصص هو الزناد الالهى الذى يمد الله به رسوله في رحلته البعيدة المدى ، الكثيرة المهوم ، اثقيلة الأعباء ، التى تحف من حولها المكاره والشور (١) .

ومفهوم القصة في انقرآن الكريم يختلف عن مفهوم القصة البشرية بما فيها من ضوابط ، ومالها من أهداف ، فالقصة القرآنية ليست أثرا فنيا يقاس بمقاييس الفن القصصى ، إنما هى عرض لأحداث تاريخية حقيقية وقعت في زمن معين ، ومع أشخاص معينين ، تساق لأغراض دينية تالف وتدور حولها ، وهذه الأحداث ليست من نسج الخيال ، ولا من بنات العقول ، ولا من تصورات الأوهام ، إنها حقائق ثابتة ، ووثائق تاريخية صادقة ، تنبىء بما وقع في الزمان من

(١) مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة : ١٩ .

أحداث عظام ، وتشهد على أهله ومواقفهم منها « ان هذا هو القمص الحق » (٢) •

وهذا القمص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تاريخا للحياة كلها وأحداثها ، وانما هو عرض لبعض المواقف ، وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثرا ، وتقيم فى الضمير موازعا ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة العبرة والنعظة (٣) •
وتتلخص أهداف القصة القرآنية فيما يلى (٤) :

١ - اثبات الوحي والرسالة ، فذكر الرسول ﷺ لقصص السابقين وهو لم يكن كاتباً ولا قارئاً ولا جلس الى معلم ، يدل على أن القرآن الكريم وحي يوحى ، وقد جاءت الآيات دالة على ذلك منها قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (٥) وقوله تعالى : « وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك ننذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (٦) •

٢ - بيان وحدة الدين فى مصدره وجوهره ، فالدين كله من عند الله تعالى ، وهو قائم فى أساسه على عقيدة التوحيد التى تقتضى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة ما سواه من أصنام وأحجار ، وكواكب وأشجار ، وملوك وزعماء •

٣ - بيان وحدة المؤمنين على مر الزمان ، فالؤمنون أمة واحدة

(٢) آل عمران : ٦٢ •

(٣) لقصص القرآني : ٦٨ •

(٤) ينظر التصوير الفنى فى القرآن : ١٨ - ١٢٦ •

(٥) يوسف : ٣ •

(٦) القصص : ٥٦ •

تدين بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، مهما اختلفت أزمانهم وأماكنهم ، ومما يدل على ذلك أن القرآن الكريم يسوق تخصص عدد من الأنبياء ثم يعقب عليها بقوله : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٧) وفي موضع آخر يعقب عليها بقوله « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (٨) •

٤ - بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة وأساليبهم مشتركة وأن استقبال قومهم لهم متشابهة ، حيث عرضوا عن طريق الايمان ، وتشبهوا بالكفر والعصيان ، وتذرعوا بتقليد الآباء والأجداد ، وأعلنوا الحرب على رسالهم •

٥ - الوعظ والارشاد والنصح والتعليم ، بما فيها من مشاهد وأحداث ، وما تنتهي اليه من نتائج واعظات ، وما ينثر في ثناياها من تذكير وتبصر ، « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » (٩) « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (١٠) •

٦ - تسلية الرسول ﷺ ومواساته بأخبار الأنبياء السابقين ، وما لا قوه من ايداء وبلاء ، وضميرهم على المشقات حتى أتاها نصر الله تعالى ، وأهلك الكافرين ، وفي ذلك تثبيت للقلب النبي ﷺ والذين آمنوا معه ، وطمأنتهم بأن الله تعالى مظهر دينه ، وناصر عباده ، ومنزل بأسه بالقوم الظالمين « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » (١١) •

(٧) الأنبياء : ٩٢ •

(٨) المؤمنون : ٥٢ •

(٩) يوسف : ١١١ •

(١٠) الأعراف : ١٧٦ •

(١١) هود : ١٢٠ •

٧ - تصديق التبشير والانذار وعرض نماذج واقعية من أحداث السابقين ، وذلك أقوى وأكد في تأييد الدعوة ، وحث الناس على الايمان واتباع الطريق المستقيم .

٨ - بيان نعم الله تعالى على أنبيائه وأصفيائه وعباده المؤمنين ، واطهر قدرة الله تعالى على فعل ما يريد ، من المعجزات التي تؤيد أنبياءه ورسوله .

على ضوء هذه الأهداف الدينية تقاس أهمية القصة القرآنية ، وتقدر مكانتها ولا يصح الحكم على القصة القرآنية بمعيار اصطلاحي يشترط وحدة الموضوع ، واحكام التصميم ، وجودة الحكمة، والارتفاع بالحوادث الاستطراذية ، فالقرآن هو المرجع وهو الحكم في كل ما جاء فيه من قصص وغير قصص (١٢) .

ولا يجوز أن يؤخذ على القصة القرآنية أنها لا تتناول القصة من جميع أطرافها ، ولا أنها لا تتسلسل حوادثها مرتبة منظمة ، ذلك أن القرآن الكريم يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب وابعظ وغير ذلك ، فحينما يقص القصة كلها محبوكة الأطراف ، وموصولة الأجزاء ، مرتبطة بعضها ببعض ، في تسلسل واتساق يسلمك السابق منها الى لاحقه حتى تصل الى خاتمتها ، كما في سورة يوسف ، وفي معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها ، لأن في هذا البعض ما يحقق الهدف ، وقد يلمح القرآن ويشير الى القصة تلميحاً يستغنى به عن الاطالة اعتماداً على أن القصة معروفة مشهورة (١٣) .

(١٢) ينظر الاسلام في عصر العلم : ٢٥٣ .

(١٣) من بلاغة القرآن : ٣٦٨ .

وبناء على هذا نجد القرآن الكريم يبدأ قصة كز ببي من حيث تبدأ المواعظ والمعبر ، والأهداف المقصودة . فنراه يغفل المراحل الأولى في حياة كثيرة من الأنبياء لأنها لا تتعلق بذكرها وتفصيلها غرض ، ولعدم اشتمالها على ما يهدف اليه القرآن الكريم ، وعلى هذا طوى ذكر المراحل الأولى لحياة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وغيرهم .

بينما يذكر هذه المراحل عندما يتعلق بتفصيلها هدف ، وتشتمل على ما فيه عبر وعظات ، ودلالة على قدرة الله تعالى ، فذكر ولادة موسى وما تعرض له في بداية حياته حتى نزل عليه الوحي ، لأن ولادته وحياته الأولى فيها من العظات والمعبر ما فيها ، وهي أساس جهاده ضد فرعون وجنوده . وذكر ولادة عيسى وفصل في تناولها حيث احتوت على معجزة خارقة وكانت مثار اختلاف النصارى فيه ، وإخراجهم له عن نطاق البشرية الى مرتبة الأوهية ، وهذا ضلال ما بعده ضلال .

وعدم احتكامنا الى ضوابط القصة البشرية في الحكم على القصة القرآنية لا يعنى أن القصة القرآنية خالية من الضوابط ، فقد نددت كثير من الباحثين عن ضوابط القصة القرآنية ، وعلاقتها بضوابط القصة البشرية ، واهدوا في ذلك الى كلام دقيق (١٤) ، ليس هذا مجال تفصيله .

ونستطيع أن نؤكد في هذا المقام أن القصة القرآنية طالت أو قصرت فهي تشتمل على بداية مشوقة ، وقمة مثيرة ، ونهاية وأعظنة

(١٤) ينظر على سبيل المثال : سيكولوجية القصة في القرآن ومذبح القصة في القرآن . والقصص القرآني في منطق ومفهوه . والسرد القصصى في القرآن الكريم .

هادفة ، وسرى ذلك في تحايلنا لحلقات قصة ابراهيم عليه السلام .
 ففي كل حلقة منها نلاحظ البداية والقدمة والنهاية . ويستطيع الناظر
 في كل قصة من قصص القرآن الكريم أن يبشر على ذلك دون مجهود
 كبير ، ومن غير تحمل ، وهذا في نظرنا من دلائل اعجاز القرآن الكريم .
 وتبرز قضية أساسية تتعلق بتكرار القصة القرآنية في عدد من
 السور ، وحكمة ذلك ، وهي قضية أثارها العلماء من قديم .

فالباقلادى يرى أنها من دلائل اعجاز القرآن الكريم : فان اعادة
 ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا من الأمر الصعب ،
 انذى تظهر به الفصاحة ، وتبين به البلاغة ، وأعيد كثير من القصص
 في مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك على عجزهم
 عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا . ولو كان فيهم تكن من المعارضة
 لقصدا تلك القصة وعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها
 وجعلوا بازاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك الى تكذيبه والى مساواته
 فيما جاء به (١٥) .

فتكرار القصص بأساليب متنوعة ، وجه سام من وجود البلاغة ،
 ولون من ألوان التحدى للعرب ، وفيه تسهيل وتوسيع لأمر المعارضة .
 وكأنه يقال لهم : لم نضيق عليكم في المعارضة ، فان القصة الواحدة
 قد جاءت بأساليب متنوعة ، وان كان في استطاعتكم أن تأتوا بها
 في أى صورة وأى أسلوب مماثل فافعلوا ، وفي هذا مزيد من التحدى ،
 يظهر تمام عجزهم عن الاتيان بمثله مبتدأ به ومكررا .

وبين الزركشى بعض أسرار هذا التكرار ومنها أن القرآن الكريم
 يكرر القصة لفائدة خلت عنها في الموضع الآخر ، فاذا كرر القصة زاد

فيها شيئاً • كما أنه يبرزها في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ، ولا يخفى ما في ذلك من الفصاحة ، كما أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن وعجز القوم عن الاتيان بمثله ، نصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع اعلام بأنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأي نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا (١٦) •

فأشار الى أن القصة عندما تكرر لا تكون في جميع حالاتها على نمط واحد ، بل تختلف بالزيادة في تفاصيلها ، وتنوع أساليبها ، وفي ذلك مزيد من التحدى ، ومظهر من مظاهر الاعجاز •

وذكر السيوطى أن بدر الدين بن جماعة ألف كتاباً سماه : المقتضب في فوائد تكرير القصص ، وذكر في فوائده :

— أن في كل موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله ، أو ابدال كلمة بأخرى لذاتة وهى عادة البلغاء •

— أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ، ثم يعود الى أهله ، ويأتى بعده آخرون ، فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى الى قوم ، وقصة عيسى الى آخرين وكذا سائر القصص ، فأراد الله اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه افادة لقوم وزيادة تأكيد للآخرين •

— أن في ابراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة مالا يخفى من الفصاحة •

— أنه تعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الاتيان بمثله

تم أوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع اعلاما
بأنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأى نظم جاءوا وبأى عبارة عبروا •

— أنه تعالى لما تحداهم قال : « فأتوا بسورة من مثله » (١٧)
فأوردت القصة في موضع واحد ، واكتفى بها اقل العربى : اثنتونا
أنتم بسورة من مثله ، فأنزلهما سبحانه في تعداد السور دفعا لحدبهم
من كل وجه •

— أن انقصه الواحدة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع
زيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب
الأخرى ، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في اخراج الأمر الواحد في
صور متباينة في النظم ، وجذب النفوس الى سماعها لما جات عليه
من حب التنقل بين الأشياء المتجددة ، واستلذاذها بها ، واطهار خاصة
القرآن ، حيث لم يحصل مع ذلك التكرار هجنة في اللفظ ولا ملل عند
سماعه ، فباين بذلك كلام الخلوطين (١٨) •

ويستفاد من أقوال العلماء السابقة أن تكرر القصة القرآنية
وجه من وجوه البلاغة القرآنية السامية ، وزيادة في التحدى بالقرآن
الكريم ، ودلالة على اعجازه ، بجانب ما في ذلك من تعميم للفائدة
واشاعة للعظة والاعتبار •

كما أن القرآن الكريم عندما يكرر القصة يراعى ما يلي :

١ — زيادة تفاصيل ووقائع لم تذكر في موضع آخر وبذلك يتسع
مضمون المشهد الواحد ، ويراه المتأمل شيئاً جديداً •
نفى كل مرة تعرض فيها القصة تتكشف عن جانب من جوانبها .

(١٧) البقرة : ١٢٢ •

(١٨) معترك الأقران : ١/٤٣٧ : ٤٣٨ •

وتكتم حدثا من أحداثها ، الأمر الذى لا يمكن أن يتم فى عرض واحد مستقل دون أن يقع فى الأسلوب اضطراب وتناقض وثقل لهذا التكرار المتصل ، ولاختلاف المقولات فيما يبدو أنه موقف واحد (١٩) •

٢ - الاختلاف فى صياغة المشهد المكرر بالتفنن فى الأساليب ، والتنوع فى الخصائص التعبيرية ، مما يجعل المشهد مختلفا عن سابقه فى شكله وطريقة أدائه بعد أن تنوع فى مضمونه ومحتواه •

٣ - أن القرآن الكريم لا يكرر قصص الأشخاص والجماعات ، ولكنه يذكر كلا فى سورته مرة واحدة ، أما قصص الأنبياء فيكررها ويفرقها فى جمع من السور أجزاء تتفاوت فى الطول والقصر ، والذكر والحذف ، والتفصيل والاجمال ، وفى صور العرض وأساليب التعبير (٢٠) •

وعلى هذا فان النظرة المتعجلة تحكم على التخصص بالتكرار ، ولكن انعام النظر وطول التأمل وحصر انفروق ووجوه التنوع فى المشاهد ينطق بأن هذا التكرار الظاهر ليس تكرار على الحقيقة ، فالقصة فى كل موطن لها سماتها وطريقة عرضها ، ومشاهدها التى تختص بها ، وتتلاءم مع السورة التى وردت فيها • وفى حديثنا عن أسرار التنوع فى نظم الحاقات سنكتشف عن كثير من ذلك •

• (١٩) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه : ٢٣٣

• (٢٠) مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمه : ٣٣

ثانيا : ابراهيم عليه السلام

نسبه :

ذكر المؤرخون لابراهيم نسبا متصل الحاقات بنوح عليهما السلام :
فهو ابراهيم بن آزر بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر
ابن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام . وبهذا يكون نوح
هو الجد التاسع لابراهيم عليهما السلام (١) .

وتذكر التوراة أن اسم أبيه « تارح » ، وقد جاء اسمه في القرآن
الكريم « آزر » وذلك في قوله تعالى : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر
أنتخذ أصناما آلهة » الأنعام : ٧٤ .

وهو الصحيح الذي نأخذ به ، نظر لوروده في القرآن الكريم
وهو المهيمن على ما قبله من الكتب ، والمنزه عن التحريف والتبديل ،
وقد أيد ذلك ما جاء في الحديث الذي رواه البخارى عن النبي ﷺ أنه
قال : « يلقي ابراهيم أباه « آزر » يوم القيامة ، وعلى وجه « آزر »
قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصينى ؟ فيقول
نه أبوه : فاليوم لا أعصيك . . . فيقول ابراهيم : يارب انك وعدتني
ألا تخزنى يوم يبعثون ، وأى خزى من أبى الا بعد ؟ فيقول الله :
انى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول لابراهيم : انظر ما تحت
رجليك ، فيظن فاذا هو بذبح متأنخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في
النار . . . » (٢) فهذا الحديث نص في أن اسم أبيه « آزر » وهو
الحق الذى لا محيد عنه (٣) .

قال ابن جرير : والصواب أن اسم أبيه آزر ، وما نقله النسابون

(١) ينظر قصص الأنبياء : ٧٠ ، وتاريخ الانبياء : ٩٥ .

(٢) فتح البارى : ٢٨٧/٦ ، ومسنده أحمد : ٥٢/٤ .

(٣) النبوة والأنبياء : ٢٠٤ .

من أن اسمه تارح فقد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً (٤) . والظاهر حينئذ أن يكون تارح هو اللقب ، لأن معناه المتكاسل . وهو لقب قبيح قلما يطلقه أحد ابتداء على ولده ، وإنما يطلق مثله على المرء بعد ظهور معناه فيه أو رمية به (٥) .
ولادته ونشأته :

ولد ابراهيم عليه السلام في بلدة « فدان آرام » ببابل بالعراق قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وذلك بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة ، وكان هو الولد الأكبر لآزر ، وجاء من بعده أخوان « ناحور » و « هاران » وهو والد « لوط » عليه السلام (٦) .

وتذكر كتب الروايات وبعض التفاسير في ولادته أخباراً عجيبة . منها أن أمه خرجت ليلاً وولدت في مغارة في الجبل وأخذت تتعمده ، ومنها إدخال أبيه له السرب وهو رضيع وخروجه منه بعد أيام ليجادل تيممه في عبادة الكواكب . وهذه أسرائيليات لا وزن لها بين الروايات الصحيحة . قال ابن كثير : وما قصة كثير من المفسرين وغيرهم — من أخبار ولادته ونشأته — فعامتها أحاديث بنى إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك ردناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة نجعلُه وقفاً . وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين : ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة (٧) .

(٤) جامع البيان : ١٥٩/٧ .

(٥) المنار : ٤٤٧/٧ .

(٦) ينظر النبوة والأنبياء : ٢٠٥ ، والتحرير والتنوير ٧٠١/٦ .

(٧) تفسير ابن كثير : ٦٨١/٣ ، وينظر تاريخ الأنبياء : ٩١ .

(٢ - خصائص النبوة)

كان أهل بابل ينعمون برغد العيش ، ويتفيعون ظلال النعمة ، ولكنهم كانوا يتخبطون في دياجير الضلال ، يعبدون الأصنام التي ينحتونها بأيديهم ، ويعظمون ملكهم نمرود بن كنعان الذي نصب نفسه لها وأمرهم بعبادته (٨) . وكان والد ابراهيم « آزر » نجارا يصنع الأصنام ويبيعها القوم ، ويعطيها في بعض الأحيان لولده ابراهيم كي يبيعها للناس ، فكان ابراهيم يحملها ويسير في الأسواق ويقول من يشتري ما يضره ولا ينفعه ، فلا يشتريها منه أحد ، ثم ينطلق بعد ذلك الى الماء ويغمس رءوسها فيه ويقول : اشربي (٩) .

في هذه البيئة المفعمة بالفساد نشأ ابراهيم عليه السلام ، نشأة تختلف عن أبناء جيله ، لأن الله تعالى يعده لحمل رسالته الى قومه ، فكان مبغضا للأصنام ، موقنا أنها لا تنفع ولا تضر ولا تصلح لأن تكون لها يعبد ، انما الله هو خالق الكون ورب العالمين من بيده النفع والضر ، والحياة والموت ، والغنى والفقر ، المرض والشفاء ، والرحمة والعذاب ، واليه المرجع المسآب .

تزوج ابراهيم في شبابه بسارة وعاش معها ، وكانت عاتقرا لا تلد ، فظل سنين طويلة لم يررق منها بذرية ، حتى أذن الله بذلك فوهبه منها اسحاق عليه السلام بعد هجرته بمدة طويلة .

بعثته :

أرسل الله تعالى رسوله ابراهيم عليه السلام الى قومه يدعوهم الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويردهم عن عبادة الأصنام والكواكب التي لا تنفع ولا تضر .

(٨) قصص القرآن : ٥٣ .

(٩) تاريخ الانبياء : ٩٦ .

فبدأ بدعوة أبيه وعشيرته الأقربين ، ثم بدعوة قومه أجمعين ، وتأنطف
 في دعوتهم ، وأظور لهم الحجج والبراهين ، وبذل في سبيل هدايتهم كل
 سبيل ، ولكنهم عارضوه وكذبوه ، وسخفوا منه وآذوه ، وظلوا على
 أصنامهم عاكفين ، وفي ضلالهم ساديين ، ومنعوه من تبليغ دعوة ربه
 ونشرها بين الناس .

وتيقن ابراهيم عليه السلام أن الدعوة بالحسنى لم تؤت ثمارها
 بين هؤلاء الأضالين المتعنتين ، فعزم على أن يهز مشاعرهم الجامدة
 بفعل قوى يؤثر فيهم ، وينيح له عرش دعوتهم وحجته عنى الملائ ،
 فقام بتكسير أصنامهم وتدهير آلهتهم المزعومة ، وسرعان ما أقاموا
 له محاكمة علنية شهدها الملائ ، وكان هذا مما يقصده ابراهيم عليه
 السلام : حيث جهر فيهم بدعوة ربه ، وأعلن لهم حججه وبراهينه
 القاطعة على فساد ما هم فيه ، وحذرهم سوء العاقبة .

وقد أثر فيهم هذا الفعل تأثيرا قويا ، وبعثهم على التفكير في
 أمرهم واعترفوا بأنهم ضالون ، ولكنهم سرعان ما نكسوا على رؤسهم
 وعادوا للعصبية والجهل والضلال ، وتشاوروا في الانتقام منه ، وانتهى
 الأمر الى أن أقاموا له جحيما هائلا وطرحوه فيه ، ولكن الله تعالى
 أنجاه من النار وكان ذلك من آيات الله تعالى الباهرة ومعجزاته القاهرة
 التي أيد بها ابراهيم عليه السلام : « قلنا يانار كونى بردا وسلاما
 على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسون » الأنبياء : ٦٩ ، ٧٠
 وخرج ابراهيم عليه السلام من النار مؤيدا بنصر الله تعالى ،
 لم يهن عزمه ، ولم يضعف تصميمه على نشر الدعوة بين الناس .
 فاستمر في دعوة قومه الى عبادة الواحد القهار ، وتحدى طاغية عصره
 « النمرود بن كنعان » وأفحمه بالحجة القاطعة ، وظل يجاهد في سبيل
 الله بين قومه حتى شاء الله له أن يهاجر .

هجرته :

ظن القوم في طغيانهم وضلالهم ، ثم تجد معهم موعظة : وأنهم
تتفعهم نصيحة ، وازدادوا عداً وابتداءً لأبراهيم عليه السلام ، ومن
ثم قرر الهجرة فراراً بدينه ، لينتفعن من عبادة ربه وأنذوه اليه في
مكان آمن « وقال انى ذاهب الى ربي سيهدين » الصافات : ٩٩ •

رحل ابراهيم الى أرض فلسطين ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط
كما جاء في قوله تعالى : « فأمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربي انه
هو العزيز الحكيم » العنكبوت : ٢٦ • وعاشوا في فلسطين فترة من
الزمان ينعمون بالأمن والاطمئنان •

ثم خرج ابراهيم من فلسطين لقطع أصاب البلاد ، وولى وجهه
شطر مصر ، فأقام ما شاء الله له أن يقيم ، ورجع منها بالرزق الوفير
والخير الكثير ، واستقر ثابته في فلسطين مع الفئة القليلة التى آمنت
به واستجابت لدعوته (١٠) •

وكان ملك مصر قد أهدى « سارة » جارية مصرية تسمى « هاجر »
فبنى بها ابراهيم عليه السلام ، وولدت له اسماعيل سنة ١٩١٠ قبل
الميلاد ، وخرج ابراهيم بهاجر واسماعيل وأسكنهما بوادى مكة فى المكان
الذى أقام فيه بيت الله الحرام بعد ذلك ، ورجع الى فلسطين بعد أن
دعا الله قائلاً « رينا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك
المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعاً أفئدة من الناس تهوى اليهم
وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ابراهيم : ٣٧ •

وأقام اسماعيل وأمه بهذا الوادى الجديب ، وشانت إرادة الله
تعالى أن يعمر المكان ، فنبعت زمزم المباركة ، وأقبل الناس للعيش

حولنا ، والتنعيم بمائها ، وجاء ابراهيم بعد ذلك لزيارة ولده اسماعيل ، فرأى أن الله يأمره بذبحه وهو ابنه الوحيد ، فاستجاب لأمر الله تعالى ، وهم بفعل ما أمره الله به ، فأنزل الله تعالى الفداء العظيم الذى نجى اسماعيل عليه السلام ليتناسل منه النسل الكريم الذى توج بخاتم النبیین محمد ﷺ .

وفي احدى الزيارات بوأ الله تعالى لابراهيم مكان البيت فرجع قواعده بمعاونة اسماعيل ، وأذن فى الناس بالهج اليه استجابة لأمر الله تعالى الذى جعله مثابة للناس وأمنا .

وشاعت ارادة الله تعالى أن تحمل « سارة » ويرزق الله ابراهيم منها باسحاق عليه السلام سنة ١٨٩٦ قبل الميلاد ، وهو أصغر من اسماعيل بأربع عشرة سنة (١١) . وكان ذلك بعد حادث الفداء الذى وقع لاسماعيل عليه السلام . واكتملت النعم على ابراهيم بهبة الأولاد بعد الكبر ، وقد أثنى على الله تعالى وحمده على ذلك « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء » ابراهيم : ٣٩ .

وتوفى ابراهيم عليه السلام سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد ، ودفن فى مغارة المكفلية فى حبرون « بلد الخليل » أما اسماعيل عليه السلام فتوفى فى مكة المكرمة ودفن بالحجر الذى حول الكعبة . وأما اسحاق عليه السلام فتوفى فى فلسطين ودفن مع أبيه بمغارة المكفلية .

معالم قصة ابراهيم في القرآن الكريم :

ركزت قصة ابراهيم فى القرآن الكريم على جوانب أربعة :
الجانب الأول : دعوة ابراهيم الى الله عز وجل .

(١١) ينظر التحرير والتنوير ٧٣٤/١ .

والجانب الثاني : حوارهِ مع الملائكة .

والجانب الثالث : بناؤه للبيت العتيق ودعاؤه فيه .

والجانب الرابع : عقيدته ومنزلته .

فأما دعوته أنى الله تعالى فقد بدأها بدعوة أبيه خاصة وقد جاء

هذا في سورة مريم : ٤١ - ٥٠ .

ثم تأتي دعوته العامة لأبيه وقومه وقد حكى هذا في ست سور

هى حسب ترتيب المصحف : البقرة : ٢٥٨ ، والأنعام : ٧٤ - ٩٠ ،

والأنبياء : ٥١ - ٧٣ ، والشعراء : ٦٩ - ٨٩ ، والعنكبوت : ١٦ - ٢٧

والصافات : ٨٣ - ١١٣ . وفيها بجانب مشاهد الدعوة تفصيل لحادث

الابتلاء المبين والفداء العظيم .

وأما حوارهِ مع الملائكة فقد جاء في أربع سور : سورة

هود : ٦٩ - ٧٦ ، وسورة الحجر : ٥١ - ٦٠ ، وسورة العنكبوت

٣١ : ٣٣ ، وسورة الذاريات : ٢٤ - ٣٤ .

وأما بناؤه للبيت العتيق ودعاؤه فيه وما يتصل بذلك ، فقد ورد

ثلاث سور : البقرة : ١٢٤ - ١٣٤ ، وسورة ابراهيم . ٣٥ - ٤١ ،

وسورة الحج : ٢٦ - ٢٩ .

وأما عقيدته ومنزلته فقد ذكر ما يتصل بهما في ثمان سور :

البقرة : ٢٦٠ ، وآل عمران : ٦٥ - ٦٨ ، ٩٥ والنساء : ١٢٥ ،

والتوبة : ١١٤ ، والنحل : ١٢٠ - ١٢٣ ، وص : ٤٥ - ٤٧ ،

والزخرف : ٢٦ - ٢٨ ، والتمتحنة : ٤ - ٦ .

وقد ورد ذكر ابراهيم عليه السلام في سورة أخرى ولكن ذلك

لا يمثل طرفاً من قصته ، ومن ثم فسيفقتصر حديثنا في قصة ابراهيم

عليه السلام على تحليل الآيات التى أشرنا إليها في الجوانب الأربعة

السابقة طبقاً لمنهجنا في البحث .

الفصل الأول

الدعوة الى عبادة الله تعالى

أرسل الله عز وجل ابراهيم عليه السلام الى قومه ليدعوهم الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ويبين لهم طريق الفلاح في الدنيا والآخرة ، وكان من الطبيعي أن يبدأ بدعوة أقرب الناس اليه ، فهو مسئول عنهم مسئولية أولية ، وهم من المنتظر أن يسارعوا الى الاستجابة له في دعوته ، فهم أهله وعشيرته ، ومناصرته في دعوته نصره لهم وقوة وعزة ، وقد سلك رسولنا محمد ﷺ هذا المسلك استجابة لأمر الله تعالى له بقوله : « وأندر عشيرتك الأقربين » (١) .

بدأ ابراهيم عليه السلام بدعوه أبيه الى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الاصنام ، ولما لم يجد منه استجابة اتجه بالدعوة الى أبيه وقومه باذلا ما في وسعه لاقتناعهم بدعوته ، وهم مستمرون في ضلالهم وكفرهم ، لم يستجيبوا لنصحه ، ولم تردهم حججه ، وانتهى الأمر انى أن كسر أصنامهم ، وقاموا بالقائه في النار ، فنجاه الله منها ، وخرج قوى العزيمة ، ثابت الجنان ، فجليبه طاغية عصره « النمروذ » منتصرا عليه بالبرهان ، ثم هاجر من وطنه ، وألقى عصاه في « حران » (٢) ونزل بين أهلها فوجداهم يعبدون الكواكب من دون الله تعالى ، فجادلهم بالحجة وبين بطلان عبادتهم بالحوار ، ودعاهم الى عبادة الواحد القهار .

(١) الشعراء : ٢١٤ .

(٢) ينظر قصص القرآن : ٥٠ .

هذه المسيرة العظيمة المفعمة بالجهاد في سبيل الله تعالى هي
موضوع هذا الفصل ، حيث يتناول بالتحليل البلاغى المنظم القرآنى
الذى عرض هذه المسيرة الجليلة • وقد جاءت فى سبع حلقات :

- الأولى : فى سورة « مريم » وهى مختصة بدعوته لأبيه •
- والثانية : فى سورة الشعراء •
- والثالثة : فى سورة الصافات •
- والرابعة : فى سورة الأنبياء •
- والخامسة : فى سورة العنكبوت •

وهذه الحلقات الأربع فى دعوته لأبيه وقومه ، وتدور حول أبطال
عبادة الأصنام •

والسادسة : فى سورة البقرة وتحكى عواجهته لطاغية عصره
رتدديه له بالحجة والبرهان •

والسابعة : فى سورة الأنعام ، وتختص بأبطال ريبوية الكواكب
وعبادتها • وهى حسب النزول تأتى فى المرتبة الثالثة ، الا أننا أخرنا
الحديث عنها الى نهاية الفصل لكونها مرحلة متأخرة تاريخيا ، وهى
يختلف عن الحلقات السابقة التى تدور حول أبطال عبادة الأصنام •

وسنبدأ بتحليل النظم القرآنى فى هذه الحلقات تحليلا بلاغيا
مفصلا ، يبين ما فيه من أسرار البيان ، وخصائص التعبير ، ثم نعرض
للمقارنة بين النظم فى هذه الحلقات مبينين ما فيه من تشابه وتدرج ،
وهجهين ذلك فى ضوء ما نقف عليه من تراث العلماء . وما يظهر لنا
مما يفتح الله تعالى به علينا •

الدخلة الأولى

دعوة ابراهيم عليه السلام لابيه

قال الله تعالى :

« واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا • اد قال لابيه يا ايت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يعنى عنك شيئا • يا ايت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا • يا ايت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا • يا ايت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا • قال ارأغب اذت عن الهى يا ابراهيم لكن نم تنته لأرجمك واهجرنى مليا • قال سلام عليك سأسْتَغْفِرُكَ رَبِّىْ اِنَّهٗ كَانَ بىْ حَفِيًّا • وأَعْتَزَلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَأَدْعُو رَبِّىْ عَسَىٰ اَلَّا اَكُوْنَ بِدَعَاۗءِ رَبِّىْ شَقِيًّا • غلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا • ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا • « (١) »

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة « مريم » • وهذه السورة تبدأ بالتذكير برحمة الله تعالى عبده زكريا حين دعا ربه مستجلبا عطفة باظهار ضعفه وشيخوخته • طالبا من الله تعالى أن يهبه وليا تقر به عينه ويورثه «فهب لى من لدنك وليا • يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا» (٢) • واستجاب الله دعاه ووهبه « يحيى » غلاما عبدا زكيا تقيا بارا بالديه • ثم تنتقل الى التذكير بقصة مريم ، ومجى الروح اليها • وبشيره لها بعيسى عليه السلام ، وما كان من أمرها حين حمات به ، وحسرتها

(١) مريم : ٤١ - ٥٠ •

(٢) مريم : ٦ •

حين جاءها المخاض ، وموقف قودها منها عندما أنتهم تحملا . و«سلام عيسى عليه السلام في المهدي» قال انى عبد الله اتانى الذئب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا . وبرا بوالدنى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا» (٣) . وبعد أن تبين الآيات القول انفصل في عيسى عليه السلام ردا على مزاعم النصرارى في تأليهه وجعله ابنا لله تعالى ، تحذر الكافرين من يوم القيامة . وتؤكد رجوع الخلاق الى الله تعالى للحساب . وبعد هذا تأتى الآيات القرآنية التى سقناها وهى تحكى دعوة ابراهيم لأبيه خاصة . وتبين تطفه معه في الدعوة ، في الوقت الذى لم يجد من أبيه الا الانكار والجفاء والمقاطعة ، وهذه الحادثة من قصة ابراهيم عليه السلام لم ترد في القرآن الكريم الا في سورة مزيم ، ومناسبتها لما قبلها من آيات : أن سورة مريم اهتمت ببيان التوحيد ، وذكر النبوة : والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : منهم من أثبت معبودا حيا عاقلا فاهما وهم اليهود والنصارى ، ومنهم من أثبت معبودا جمادا ليس بحى ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان ، فلما بين الله ضلال الفريق الأول شفع ذلك ببيان ضلال الفريق الثانى (٤) .

كما أن الآيات التى تسبقها فيها أمر للرسول ﷺ أن ينذر قومه «وأندرهم يوم الحسرة اذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون» (٥) والعرب كانوا مقرين بعلو شأن ابراهيم ، ويعتبرونه أبا لهم ، ومن ثم أمر الله نبيه — بعد أن أذرهم — بذكر قصة ابراهيم عليه السلام وهو

(٣) مريم : ٣٠ - ٣٢ .

(٤) الرازى : ٥٤٤/٥ .

(٥) مريم : ٣٩ .

يدعو أباه الى عبادة الله عز وجل ، لتكون عبرة لهم ، ودافعا لأن يسلكوا نهج ابراهيم عليه السلام .

البداية :

استهلت هذه الحاقة بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » وهو معطوف على قوله تعالى : « واذكرهم بيوم الحسرة » ، فالمراد : أنذرهم ذلك ، واذكر لهم قصة ابراهيم عليه السلام ، فانهم ينتهون آية ، وعساهم باستماع قصته بقلوبهم عما هم فيه من القبائح (٦) .

وهذا الاستهلال فيه من البراعة ما فيه حيث يشوق النفس الى متابعة أحداث القصة : ويلفت الأسماع الى الأصغاء والمتابعة لنا برد من أمر عظيم وينبه الأذهان الى ما يأتي من حوار ابراهيم لأبيه في دعوته الى الطريق المستقيم ، ويبين مكانة ابراهيم العظيمة وقدره الجليل ، بما يشتمن عليه من ثناء جميل ، وشهادة عظيمة من رب العالمين في حقه عليه السلام .

وهذا البدء يتلاءم مع بدايات القصص المذكورة في السورة قبل قصة ابراهيم وبعدها ، فقبلها ذكرت قصة زكريا وقد بدئت بقوله تعالى : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » (٧) ، ثم ذكرت قصة مريم وابدئت بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب مريم » (٨) ، وبعدها جاء ذكر موسى واسماعيل وادريس عليهم السلام ، وخبر كل منهم يبدأ بقوله تعالى : « واذكر في الكتاب » (٩) .

(٦) الألوسى ٨/١٦/٩٥ .

(٧) مريم : ٢ .

(٨) مريم : ١٦ .

(٩) مريم : ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ .

والمقصود بالكتاب : سورة مريم ، أو القرآن الكريم ، والذكر هنا بمعنى التلاوة أى : اقل على الناس قصة ابراهيم كقوله تعالى : « واثبت عليهم نبأ ابراهيم » (١٠) لأن ذاك في الكتاب على الحقيقة هو الله تعالى ، ولأنه عليه السلام ناطق عن الله تعالى ، ومبلغ أوامره ونواهيه ، فكان كالذاكر في الكتاب ما ذكره الله تعالى .

والجملة التي بدىء بها تثير سؤالاً في النفس فحواد . ما علة ذكر ابراهيم في الكتاب ؟ ، وجاءت الجملة التي بعدها « انه كان صديقاً نبياً » ، لتجيب عن هذا السؤال النفسى ، وتعلل الأمر بذكر ابراهيم عليه السلام في الكتاب ، ومن ثم فصلت عن سابقتها للاستئناف البياني ، وجاءت هذه الجملة مؤكدة على النهج الأبلغ في الجمل المستأنفة التي تعلق كلاماً سابقاً ، وتجيب عن سؤال مقدر فيه ، اذ تكون من قبيل الخبر الطبى على سبيل تنزيل غير المسائل منزلة المسائل ، لتقدم ما يستدعى سؤالاً . و « ان » في مثل هذه المواقع بجانب افادتها التأكيد ، تربط الجملتين برباط قوى ، بحيث لا يستقيم الكلام بدونها ، ولا يصلح غيرها من أدوات الربط مكانها . « فهي تقييد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً ، فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ، ومقطوعاً موصولاً معاً . . . وترى الجملة اذا هي دخلت ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه . وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا أفرغاً واحداً ، وكان أحدهما قد سبق في الآخر ، حتى لو اسقطتها في مثل ذلك ، رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول ، وتجاوى عن معناه ، ورأيت لا يتصل به ، ولا يكون منه بسبيل ، حتى تجيء « بالفاء » . . . ثم لا ترى « الفاء » تعيد الجملتين الى ما كانا عليه من الألفة . ولا ترد عليك الذى كنت تجد « بان » من المعنى (١١) .

(١٠) الشعراء : ٦٩ .

(١١) دلائل الإعجاز : ٢٧٢ ، ٢١٦ .

والصديق من أبنية المبالغة ، ونظيره : الضحيك ، والمنطيق .
 والمبالغة فيه ، تشمل الكيف ، والكم ، فهو عليه السلام ملازم للصدق
 لا ينفك عنه ، وهو كثير التصديق : لكثرة ما صدق به من غيوب الله
 تعالى وآياته وكتبه ورسوله (١٢) . وكلا المعنيين يتناسب مع شخصية
 ابراهيم عليه السلام (١٣) .

و « صديقا » خبر كان ، و « نبينا » خبر آخر لها مقيد للأول
 مخصص له ، أى : كان ﷺ جامعا بين الصديقية والنبوة ، وترتيبهما
 مبنى على تقديم الأعم على الأخص ، « ولعل هذا الترتيب للمبالغة في
 الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة ، فان كل نبي صديق (١٤) ،
 وليس كل صديق نبيا .

وهذه الآية التى بدىء بها تمهيدا وتوطئة لما يأتى بعدها من دعوة
 ابراهيم عليه السلام لأبيه ، وموعظته له بلطف ولين ورفق .

دعوة ابراهيم لأبيه :

بدأ ابراهيم عليه السلام دعوته لأبيه بأن ناداه باللفظ نداء
 وأرقه وأحبه الى كل أب كما جاء في قوله تعالى : « اذ قال لأبيه
 يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » .

و « اذ قال لأبيه » بدل اشتمال من ابراهيم ، وما بينهما اعتراض
 مقرر لما قبله (١٥) ، و « يا أبت » أى : يا أبى والتاء عوض عن
 ياء الأضافة ، واذلك لا يجتمعان ، فلا يقال : يا أبتى ، لئلا يجمع

(١٢) ينظر الكشف : ٥١٠/٢ ، وحاشية الشهاب : ١٦٠/٦ .

(١٣) فى طلال القرآن : ٢٣١١/٤ .

(١٤) أبو السمعود : ٢٦٦/٥ .

(١٥) السابق .

بين العوض والمعروض عنه (١٦) • ونادى أباه مع أنه في حضرته
لاحضار سماعه وتهيئة ذهنه لتلقى ما سيلقيه اليه (١٧) •

واستعمل في نداء أبيه « يا » التي للبعيد ، مع أنه بجواره
للاشعار برفعته ، وعلو منزلته عنده ، وشدة حرصه عليه ، وليس هذا
نداء محض بل يحمل في طياته الاشفق والتطاف ، والامانة ، بتحريك
مشاعر الأبوة ، التي يمتلئ بها فؤاد الأب لابنه ، نيمتثال انصائحه ،
ويستجيب ادعوته •

وبعد أن لفت انتباهه ، وناداه بما يدفعه الى الاصغاء اليه ،
والاستجابة له ، سأله عن العلة التي جعلته يعبد ما ليس فيه من
خصائص الألوهية شيء البتة « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى
عك شيئاً » ، استفهم ابراهيم عن السبب الحامل لأبيه على عبادة
الصنم وهو منزه عنه السمع والبصر والاغناء عنه شيئاً ، تنبيهاً على
شنعة الرأي وقبحه وفساده في عبادة من انتفت عنه هذه الأوصاف (١٨) ،
والعبارة القرآنية تتميز أفضل تميز على ما لو قيل : لم تعبد الأصنام
لأن العبارة القرآنية فيها دليل قوى على بطلان ما يعبدده ، وبرهان
ساطع على فساد ألوهيته ، ودم له بنفى صفات الألوهية عنه •

والاستفهام ينطوى على تعجب من شأن أبيه وعبادته ، وتوبيخ
له ، عله يرجع الى نفسه ، فيدرك خطأ ما وقع فيه ، ومن ثم يثوب
الى رشده ، ويقطع عن جريمته •

وفي الكلام ايجاز بديع بترك مفعولى « يسمع ويبصر » وهذا
اما لتأقصد الى نفي الفعل عن الفاعل على الاطلاق من غير تعرض لذكر

(١٦) الكشف : ٥١٠/٢ •

(١٧) التحرير والتنوير : ١١٣/١٦ •

(١٨) البحر المحيط : ١٩٢/٦٠ •

المفعول كقولك : ليس به استماع ولا ابصار ، بتتزييل الفعل المتعدي منزلة اللازم مبالغة في نفى حقيقة الاستماع والابصار عنه ، واما للقصد الى افادة العموم والشمول مع الاختصار ، أى : لا يسمع شيئاً من المسموعات ، ولا يبصر شيئاً من المبصرات (١٩) .

وتتخصيص السمع والبصر من بين سائر الخصائص لأنها أظهرها وأكثرها تعلقاً بالعبادة في نظر الناس ، فعدم وجودهما فيمن يدعى له الألوهية ويعبده ، يعنى عدم صلاحيته لشيء أصلاً ، فضلاً عما يدعيه له ، فهو لا يسمع ولا يبصر شيئاً ومن ثم فلا يسمع منه دعاء ولا رجاء ، ولا يبصر له فعلاً ولا عبادة، ولا يرى ما يصدر عنه من طاعة أو معصية، فكيف يكون الها معبوداً يتوجه اليه بالدعاء والعبادة .

ولم يقتصر على سلب هاتين الصفتين بل عمم في سلب جميع القدرات عنه ، فهو لا يعنى عنه شيئاً ولا يقدر على شيء ، وجوده كعدمه ، لا يقدم منفعة ولا يؤخر ضرراً ، فكيف يكون الها معبوداً وهو معدوم القدرة على فعل شيء .

و « شيئاً » مفعول « يعنى » وايتار هذا اللفظ لافادة العموم في نفى الاغناء ، فهو لا يعنى عنه شيئاً في جلب نفع أو دفع ضرر ، وتتكبيره للتحقير والتقليل ، أى لا يعنى عنك شيئاً ما عن الأشياء مهما كان قليلاً أو حقيراً .

ولما بين له فساد عبادته ، دعاه الى اتباعه في الحق انذى جاءه من الله عز وجل ، ليهديه الى الصراط المستقيم ، وصدر دعوته باستعطافه مرة ثانية ، فربما تأثر بتكرار الاستعطاف « يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً » .

(١٩) ينظر دلائل الاعجاز : ١٥٤ ، والكشاف : ٢/٥١٠

ومفتاح العلوم : ٢٢٨ ، وما بعدها .

وأكد الكلام بأن وقد ، تجاوبا مع مقتضى المقام ، حيث يستدعى قوة التأكيد ، فالابن يبطل عبادة أبيه ، ويعزله ، ويبين له أنه جاءه علم لم يأتيه ، ويدعوه الى متابعتة ، وهذا داعية انكار من الأب ، ومن ثم أكد الكلام بأكثر من مؤكدا .

وفي اثناعبر « بجاعنى » و « لم يأتك » اشارة الى أن هذا العلم لم يصل اليه بتعب ومثابرة وجد واجتهاد ، ولكنه علم جاءه من الله عز وجل بطريق الوحي فهو علم صحيح واجب الاتباع .

وفي تغاير اللفظين مع اتحاد المعنى تفنن وتلوين فى الأسلوب حيث لم يكن التعبير : جاعنى من العلم مالم يجئك ، وبينهما طباق السنب ، وهو قائم هنا على الاثبات والنفى بين المعنيين لا بين اللفظين ، فان معنى مالم يأتك : مالم يجئك ، والطباق يكسب المعنى قوة وتأكيذا ، ويلبس اللفظ حسنا وجمالا .

و « من » فى قوله « قد جاعنى من العلم ما لم يأتك » للتبعيض ولام العلم للجنس ، وهذه الجملة تدل على كمال أدبه فى مخاطبته لأبيه ، وتظهر هضمه لنفسه مع ما أوتى من علم وفهم ، فلم ينعت أباه بالجهل المفرط ، ولا وصف نفسه بالعلم الفائق ، بل قال له : ان معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك (٢٠) .

وهذه الجملة مقدمة لحكم يترتب عليها ترتبا عقليا هو قوله : « فأتبعنى أهدك صراطا سويا » فان الواجب على من لم يأتيه العلم أن يتبع من جاءه العلم .

و « أهدك » مجزوم فى جواب الأمر ، والهداية هنا معناها الدلالة والارشاد وليس المراد ببناء التوفيق الى الصراط المستقيم فهذا

من أفعال الله تعالى كما قال جل شأنه « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » (٢١) •

ومجىء النظم على طريق الأمر وجوابه المقرون به من غير فاصل للإشارة الى أن فائدة اتباعه محققة وسريعة ، فبمجرد اتباعه تكون الهداية الى الصراط المستقيم ، وتتكبر « صراطا » ووصفه بـ « سويا » تعظيمه وتفخيمه بالتكبر والوصف معا ، والمراد بالصراط السوى : الدين الحق ، وأصله : الطريق المستقيم ، واستعماله في هذا على سبيل الاستعارة التصريحية لأنه يصل بالإنسان الى السعادة في الدنيا وأنفلاح في الآخرة •

وبعد أن دعا ابراهيم عليه السلام أباه الى اتباعه ليهديه الصراط المستقيم نهاه عن عبادة الشيطان ، مستمرا في ساوك منهج التلطف والاستعطاف بتكرير النداء المحبوب الى نفس كل أب : « ياأبت لا تعبد الشيطان » ، وأبوه كان يعبد الأوثان ، وإنما نهاه عن عبادة الشيطان ، لأن عبادة الأصنام في أصلها عبادة للشيطان ، فهو الأمر بهاء الموسوس باتباعها ، ومادام قد أطاعه في أمره ، وفقن بوسوسته وتربيته فهو عابد لها ، وعبادة الشيطان يستكرها العقلاء ، ويستقبحها الأسوياء ، وإذا تغلب الإنسان على وساوس الشيطان ومغرياته استقام على الطريق السوي •

واللهي يستدعي علة نستوجبه ، ومن ثم سارع ابراهيم ببيان علة نهى أبيه عن عبادة الشيطان : « ان الشيطان كان للرحمن عصيا » ، والجملة تذييل معتل للنهي ، ومقرر له ، ببيان أن الشيطان الذي تعبدوه قد استعصى على ربك الذي أنعم عليك بفنون النعم ، ولا يليق بك أن تلجأ الى عبادة من عصى ربه ، وخالف أمر خالقه •

(٢١) القصص : ٥٦ •

(٣ - خصائص النظم)

والفصل بين الجملتين للاستئناف . فان جملة « لا تعبد الشيطان »
تثير سؤالاً جاءت الثانية جواباً عنه ، واظهار الشيطان في موضع
الإضمار لزيادة التنفير منه ، واستبشاع عبادته من حيث ان اسمه
مستبشع وذكره مستفزع ، وللاشعر باستقلال جملة التذيين .

وذكر الله تعالى بالرحمن دون سائر أسمائه وصفاته لاظهار كمال
شناعة عصيانه ، حيث عصى الرحمن الذي عمت رحمته ونعمه العالمين ،
والاقتصار على ذكر عصيان الشيطان من بين سائر جنائياته الكثيرة
لأنه ملاكها ، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته ، فتذكيره
داع لأبيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته (٢٢) . وفي التعبير
بـ « كان » وصيغة المبالغة « عصيا » دلالة على أنه لا يفارق عصيان
ربه وأنه متمكن منه ، مبالغ فيه (٢٣) .

وبعد أن نهاء عن عبادة الشيطان ، وبين له سبب ذلك ، استمر
في مناداته بالرفق واللين محذراً إياه من عقاب الله تعالى : « يا أبت انى
أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون الشيطان وليا » .

وعنى ان رغم من أنه يحذره من عذاب الله تعالى الا انه استعمل في
أسلوب التحذير كل لطف ورقة ليناسب مقام شفقتة عليه . ورحمته به ،
فعبير بالخوف ، وهو توقع مكروه من أمانة مظنونة أو معلومة (٢٤) فهو
غير متطوع فيه بما يخاف ، ولم يذكر انه جازم بمس العذاب له مجاملة
له ، لأن ذلك أجمل من القطع بعذابه ، أو لاظهار ان عاقبة امره وخيمة
فيجوز أن يعذب وألا يعذب ، واستعمل المس المسعر بالثقليل المنبئ عن
قلة الاصابة ، بدلاً من ذكر ما يشعر بشدة عذابه ، ونكر العذاب

(٢٢) أبو السعود : ٢٦٧/٥ .

(٢٣) التحرير والتنوير : ١٦٧/١٦ .

(٢٤) المفردات : ١٦١ .

للتقليل (٢٥) ، ووصف العذاب بأنه من الرحمن ليكون مشعراً بالتخفيف
 وكل هذا يتلاءم مع نلففه بأبيه وحسن الأدب معه .
 وقيل ان تنكير العذاب للتعظيم ، والمراد بالمس مطلق الاصابة
 فيكون مقصودا به المبالغة فيها كما في قوله تعالى : « لاسكم فيما
 أفضتم فيه عذاب عظيم » (٢٦) ، والمقام مقام تخويف وتحذير
 فيناسبه ذلك (٢٧) .

قال الشهاب : والحاصل أن ههنا مقامين يمكن اعتبار كل منهما :
 مقام التخويف ، ومقام اظهار مزيد الشفقة وأدب المعاملة ، ومقتضى
 الأول جعل التنكير للتعظيم والمس لطلق الاصابة ، ومقتضى الثاني
 خلافه (٢٨) .

ومن ثم ذكر السكاكي أن تنكير « عذاب » اما للتهدويل واما
 بخلافه (٢٩) ، وعلق الخطيب على هذا فقال : والظاهر أنه لخلافه ، واليه
 ميل انزمخشري ، فانه ذكر أن ابراهيم عليه السلام لم يخل هذا الكلام
 من حسن الأدب مع أبيه ، حيث لم يصرح فيه بأن العذاب لاحق لاصق
 به ولكنه ذكر الخوف والمس ونكر العذاب (٣٠) .

وسوى السعد بين الغرضين ، واعترض على من يرجح التقليل ،
 فقال : وما يحتمل التعظيم والتقليل قوله تعالى : « انى أخاف أن يمسك
 عذاب الرحمن » أى : عذاب هائل ، أو شىء من العذاب ، ولا دلالة

(٢٥) ينظر الكشاف : ٥١١/٢ ، وحاشية الشهاب : ١٦١/٦ .

(٢٦) النور : ١٤ .

(٢٧) حاشية الشهاب : ١٦١/٦ .

(٢٨) السابق : ١٦٢/٦ .

(٢٩) مفتاح العلوم : ١٩٤ .

(٣٠) الاضاح : ١٢١/١ ، وينظر الكشاف : ٥١١/٢ .

للفظ المس واطرافه العذاب الى الرحمن على ترجيح كونه للتقليل كما ذكره بعضهم . لقوله تعالى : « لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » (٣١) .
والأن العقوبة من الكريم الحليم أشد لقوله عليه الصلاة والسلام :
« أعز بالله من غضب الحليم » (٣٢) .

والذى تستريح اليه النفس أن يكون التنكير المقتايل مراعاة لمقام الشفقة والتلطاف وحسن الأدب ، ولو كان المقصود التعتيم والتهويل لجاء التعبير بألفاظ ممدضة لهذا الغرض معبرة عنه تعبيراً ظاهراً ، وفي الكشف : أن الحمل على التفتيم في « عذاب » مما يباه المقام (٣٣) ، والله أعلم بمراده .

ولما بين له خوفه عليه من عذاب الرحمن ، أوضح النتيجة المترتبة على هذا العذاب (فتكون للشيطان ولياً) أى قرينا في اللعن أو العذاب تأيه وويليك ، أو ثابتاً في موالاته (٣٤) . كما يفهم من صيغة المضارع « تكون » الدالة على الاستمرار التجددى ومن صيغة الصفة المشبهة « ولياً » .

وقد جعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه مترتبة على العذاب فهي أكبر منه ، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم (٣٥) .

وقد حلل الزمخشري الآيات التي حكى دعوة إبراهيم لأبيه

(٣١) النور : ١٤ .

(٣٢) المطول : ٨٩ .

(٣٣) الألوسى ٩٨/١٦/٨ .

(٣٤) البيضاوى : ٤١٩ .

(٣٥) الكشف : ٥١١/٢ .

تحليلاً دقيقاً بين فيه روعة ترتيبها وحسن اتساقها وكمال الأدب فيها، مما يجدر بنا أن نسوق تحليله ، قال رحمه الله : انظر حين اراد أن يمسح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم ، والارنكاب المشنيع الذى عصى فيه أمر العقلاء ، وانسلخ عن قضية التمييز: .. كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق ، وساقته أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل ، .. وذلك انه طلب منه أولاً العلة فى خطئه ، طلب منه على تماديه موقظ لافراطه وتناهيه ، لأن الميبود لو كان حياً مميذا سميحاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب ، نافعا ضارا الا انه بعض الخلق لاستخف عقن من أهله للعبادة ، ولسجل عليه بانغى المبين ، والظلم العظيم...فما ظنك بمن وجه عبادته الى جماد ليس به حس ولا شعور... ثم ثنى بدعوتته الى الحق مترفقا به متلطفا ، فلم يسم أباه بالجهن المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : ان معى طائفة من العلم وشيئا منه ايس معك ... فابغى أنجك من أن تضل وتتيه ، ثم ثلاث بتثبيطه ونهييه عما كان عليه بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن ... هو الذى ورطك فى هذه الضلالة وأمرك بها زينها لك ، فأذت ان حقت النظر عابد الشيطان ... ثم ربع بتخوينه سوء العاقبة ، وبما يجدره ما هو فيه من التبعة والنوبال ، ولم يخُ ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به ، ولكنه قال : انى أخأت أن يمسك عذاب ، تذكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل بولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأروائيه أكبر من العذاب ... وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : يا أبت ترسلانى به واستعظافنا (٣٦) .

وقد ساق ابن الأثير الآيات السابقة التي تحكى موعظة ابراهيم لأبيه في باب « الاستدراج » وذكر انه استخرج هذا الفن من كتاب الله تعالى • وعرفه بأنه : التوصل الى حصول الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به • وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يوثق السامع ويطر به ، لأن مبنى صناعة التأليف عليه ومنشأها منه • وعلق على الآيات تعليقا مطولا لا يخرج في جوهره عما سبقناه للزمخشري آنفا (٣٧) •

رد الأب على ابنه :

بينما يبين ابراهيم عليه السلام لأبيه فساد ما هو فيه ، ، وي يدعو الى الحق في أحسن منهج وأقوم سبيل مع خلق عظيم وأدب جميل ، يبدو أن « آزر » كان صاهتا صهت الساخرين ، ينتظر انتهاء ابنه من هذا الكلام الذى لم يرق لديه • ويعد نفسه للرد عليه ردا غليظا قاسيا ، وما ان انتهى ابراهيم عليه السلام من موعظته حتى فاجأه أبوه برده اللفظ الجافى كما حكاه القرآن الكريم : « قال أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرحمنك واهجرنى مليا » •

وهذا الرد مرتبط بما قبله عن طريق الاستئناف الموجب للفصل ، كأنه قد قيل : فماذا قال أبوه عندما سمع منه هذه المواعظ ؟ فقيل : قال أرأغب أنت ••• وهو مشتعل على انكار ، وتهديد ، وأمر • فأما الانكار فهو : (أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) أى : أ معرض ومنصرف أنت عنها ؟ ما ينبغى أن يكون منك هذا ، وهو انكار تريبى ، فيه لون من التعجيب ، لرغبته عن آلهته وتحقيره لها ، وهو ابنه المطيع له •

(٣٧) الجامع الكبير : ٢٣٥ ، والمثل السائر ٢/٦٨ ، ٦٩ •

والرغبة عن الشيء تدل على الاعراض عنه ، وانما عبر بالرغبة
للاشارة الى أن اعراض ابراهيم عنها نابع من محض رغبته وقناعاته
هو ، لا من أمر أمرا مثلا ، وفي هذا تقوية للانكار والتوبيخ ، من حيث
انه ليس مجبرا من أحد على الاعراض عن آلهة أبيه ، ومن ثم ما ينبغي
له أن يعرض عنها •

وقد توخى في الانكار الشدة والقوة، فيجانب ما ذكرنا ، قدم
الخبر « راغب » على المبتدأ « أنت » للاهتمام بالخبر والعناية به وعدم
الانتفات الى المبتدأ ، وبذلك توجه الانكار الى نفس الرغبة ، كأن آلهته
ما ينبغي أن يرغب عنها أحد ، وأظهر « أنت » بدلا من اضماره لما في
اظهاره من الاستهانة به ، كأنه ليس أهلا لذلك ، وناداه باسمه مجردا
فقال : يا ابراهيم ، ونم يقل له : يا بنى في مقابل : يا أبت (٣٨) • وآخر
ذكره لعدم العناية به ، واستعمل في النداء « يا » التي لنداء البعيد ،
للاشعارم ببعده عن نفسه وقلبه ، وقال : عن آلهتي ، ليدل على جزمه
بأوهيتها ، وتمسكه بها ، ومنافحته عنها ، وأن مواعظ ابراهيم لم
تؤثر فيه •

والنداء في قوله « يا ابراهيم » تكةلة لجملة الانتار والتعجب ،
لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء
فعله ، كأنه في غيبة عن ادراك فعله ، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب
فيناديه لارجاع رشده اليه (٣٩) •

وأعرب الزمخشري الوصف « راغب » خبرا مقدما ، و « أنت »
مبتدأ مؤخرًا ، وهذا رأى الكوفيين ، وأجاز البصريون هذا الاعراب

(٣٨) ينظر الكشف : ٥١١/٢ ، وحاشية الشهاب : ١٦٢/٦ •

(٣٩) التحرير والتنوير : ١١٩/١٦ •

وعكسه ، بأن يكون « راغب » مبتدأ و « أنت » خبره ، واختاره كثير من النحاة (٤٠) .

وزيادة الانكار تنشأ من تقديم الخير ، كأنه قيل : أرغب أنت عنها ، لا طالب لها راغب فيها ، منبها له على الخطأ في ذلك ، ولو قيل : أترغب ، لم يكن من هذا الباب في شيء (٤١) . وفي التعبير باسم الفاعل بدلا من الفعل إشارة الى ثباته واستمراره على هذه الرغبة ، وأنها ليست أمرا جديدا لجأ اليه ، بل هي أمر متأصل فيه ، وصفة ثابتة له .

وأما التهديد فهو (لئن لم تنته لأرجمنك) ، وهو تهديد وتحذير لابراهيم عما كان عليه من العظة والتذكير ، أى : والله لئن لم تنته عما أنت عليه من النهي عن عبادتها ، والدعوة الى ما دعوتنى اليه لأرجمنك (٤٢) .

وقد شدد في التهديد كما شدد من قبل في الانكار ، فأتى به على سبيل الشرط والجواب للقطع بوقوع المهدد به وسرعته عند وقوع الشرط ، وأكد الشرط بالقسم واللام ، وأكد الجواب باللام وتون التوكيد الثقيلة ، وعبر بلفظ « تنته » بدلا من « تسكت » ونحوه لأغادة أن سكوته يجب أن يكون نهائيا فلا يعود الى الحديث في هذا الموضوع مرة أخرى ، ولم يذكر متعلق الانتهاء للتعميم والشمول فيما ينتهى عنه ، وعبر بالرجم بدل الرمي أو الضرب لشدته في التعبير عن العقاب ، ولم يبين أداة الرجم ولا نوعه ، وهل هو رجم بالحجارة أم . حم باللسان ؟ وذلك ليكون صالحا للتفسير بكل منهما ، فيكون رجما

(٤٠) ينظر شرح الأشموني وحاشية الصبان : ١٩٣/١ .

(٤١) حاشية الشماط : ١٦٣/٦ .

(٤٢) الألوسى ٩٩/١٦/٨ .

بالحجارة على سبيل الحقيقة ، أو رجما باللسان بمعنى الشتم والذم
على سبيل الاستعارة ، ولا مانع من ارادة المعنيين •

وأما الأمر فهو (واهجرني مايا) أى : ابتعد عنى واتركنى زمانا
طويلا ، وهو معطوف على محذوف يدل عليه لأرجمك ، أى فاحذرنى
واهجرنى(٤٣) •

وهو أمر شديد مثل سابقيه : الانكار والتهديد ، حيث عبر فيه
بالهجر بدلا من البعد أو الترك أو نحو ذلك لبيان أن المراد شدة
المفارقة وتتمام القطيعة ، ولم يحدد الهجر بزمن معلوم ولكن عبر عن
زمانه بلفظ «مايا» من الملاوة وهى الدهر الطويل ومنه الملوان وهما الليل
والنهار(٤٤) ، وبذلك يكون الهجر زمانا طويلا لا حدود له ، فهو هجر
دائم •

وهذا الأمر يدل على أن الأب قد بلغ منه الضيق منهتهامه، ولم يعد
يحتدل رؤية ابنه ، ولا يطيق بقاءه فى ياده ، وهذه طعنة فى غاية انقسوة
والغلظة ، ولا يقدم عليها أب تجاه ابنه الا اذا فقد مشاعر الأبوة
وروابط البنوة التى طبعت عليها النفوس وفطرت عليها القلوب •

هذا هو الرد الذى تلقاه ابراهيم من أبيه فى مقابل دعوته انجيلية
التي فيها سعادته فى الدنيا والآخرة ، ونصيحته المخلصة التى تفيض
رقة ، ونقطر حنانا وشفقة ، وقد زاد من شدته وقسوته على كل
ما قدمناه ، انه كان ردا فى المواجهة ، خطابا مباشرا فى جميع ما أحله،
لم يخف بالتفات ، ولم يرتق بكامة لينة ، ولا جديد فى ذلك، فهذه سنة
الكافرين مع أنبياء الله تعالى فى كل زمان ومكان •

(٤٣) الكشاف : ٥١١/٢ •

(٤٤) ينظر البحر المحيط : ١٦٥/٦ •

موقف ابراهيم عليه السلام :

ويعجب المرء أشد العجب من هذا الموقف ، ويتساءل في نفسه ، وماذا كان رد ابراهيم عليه السلام على أبيه ، في مقابل هذا الإنكار الشديد ، والتهديد والوعيد ، والأمر بالهجران ؟

ويأتى الجواب مخالفا لما تمليه أهواء النفوس • ونزغات الشيطان ، وموافقا لما توجبه شرائع الله تعالى ، وما عهدناه من أخلاق خليل الرحمن ابراهيم ، كما حكاه القرآن الكريم : « تمال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » •

ورد ابراهيم عليه السلام يشتمل على دعاء ، ووعد ، وأجوبة ، ومنهج :

فأما الدعاء فهو « سلام عليك » وهذا دعاء لأبيه بالسلامة من كل سوء ، تطيبيا لخاطره ، واستمائه له ، وهو في نفس الوقت سلام توديع ومشاركة ، ومقابلة للسيئة بالحسنة وكأنه يقول له : لأصيبك بمكروه ، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك (٤٥) •

ويتجلى الايجاز البديع في سلام ابراهيم عليه السلام مع قسوة المعنى والمبالغة فيه ، فقد جاء جملة اسمية تدل على ثبوت السلام ودوامه ، ونكر المبتدأ « سلام » للاشعار بتمام السلام وكماله. كأنه قيل : سلام كامل تام عليك ، وهذا ما سرغ الابتداء به وهو نكرة • وأما الوعد ، فهو : (سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا) ، وعد ابراهيم عليه السلام أباه أن يستغفر له ربه عز وجل ، لعله يوفقه للتوبة والايمان ، ويهديه الى الطريق المستقيم ، فحقيقة الاستغفار للكافر : استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرة الله سبحانه وتعالى (٤٦) •

(٤٥) ينظر الكشاف : ٥١٢/٢ ، والبيضاوى : ٤١٩ •

(٤٦) ينظر البيضاوى : ٤١٩ ، وأبو السعود : ٢٦٨/٥ •

وكان هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام قبل أن يعلم أن أباه يموت على كفره ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال الله سبحانه في موضع آخر (٤٧) : « فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه » (٤٨) .

وأكد الوعد بالنسب ، وذلك لأنها تفيد الوعد بحصول الفعل ، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى لتوكيده وتثبته ومعناه (٤٩) ، فالاستغفار كائن لا محالة ، وان تأخر الى حين ، وقدم الجار والمجرور « لك » على المفعول به « ربي » للمسارعة ببيان أن الاستغفار محض لأبيه ، وفائدته عائدة اليه ، وأوثر لفظ الرب لما فيه من معنى التربية والشفقة والعناية بابراهيم ، وهذا داع لاجابة استغفاره ، وأضيف اليه ضمير المتكلم لتشريف المضاف اليه وللاشارة الى أن الرب هو رب ابراهيم ، الذى هو الرب الحقيقى من بيده الخلق والأمر ، لا رب « آزر » الذى هو صنم لا ينفع ولا يضر .

وواعد ابراهيم عليه السلام بالإستغفار لأبيه مع فرط ما تقدم له من قسوة وغلظة ، يثير تساؤلا عن العلة فى ذلك ، وقد أجيب عن هذا التساؤل اجابة مؤكدة (انه كان بنى حفيا) ، والحفى : البر اللطيف ، يقال : أحفيت بنلان ، وتحفيت به ، اذا عنيت باكرامه (٥٠) ، والمعنى : سأطلب لك المغفرة من الله ، فانه كثير البر واللاطف بى ، يجيبنى اذا دعوته (٥١) .

فالجملة المذكورة تعليل لمضمون ما قبلها ، وفصلت عنه للاستئناف

(٤٧) التوبة : ١١٤ .

(٤٨) فتح البيان : ٣٠/٦ .

(٤٩) معنى اللبيب : ١٣٩/١ .

(٥٠) المفردات : ١٢٥ .

(٥١) فتح البيان : ٣٠/٦ .

وربطت به أقوى ريط بان المؤكدة ، وقدم فيها الجار والمجرور «بى» على المسند « خفيا » للمسرعة ببيان أن كرم الله تعالى حال به ، ولطفه ملازم له ، مع ما فى تقديمه من رعاية للفواصل ، ومحفوظة على نهجها المتميز الذى جاءت عليه فى هذه السورة ، وجىء بلفظ حفى على صيغة فعيل للمبالغة فى بيان لطف الله به ، وكرمه له ، فالطاف الله تعالى عليه كثيرة ، وير الله به وفير ، ووسطت « كان » فى الكلام لتأكيد الحفاوة ، وبيان تحقق وقوعها ، فالله عز وجل حفى به من قبل ذلك ، وليست حفاوته به أمرا جديدا ، إنما هى واقعة فى الماضى ، ومستمرة فى المستقبل .

وأما الأجابة فهى : (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) فبهذا يخون ابراهيم قد استجاب لأمر أبيه له بأن يهجره طويلا ، اذ أخبره بأنه سيبتعد عنه وعن قومه وما يعبدون من دون الله، وينتركهم وشأنهم بعد أن قائمهما عليه من نصحهم وتبليغهم ، ولم يستجيبوا لدعوته ، ولم يهتدوا بنصيحته .

وأجابة ابراهيم عليه السلام فيها من حسن الأدب وكماله ، وغزارة المعنى وتمامه ، ما ليس فى أمر أبيه ، ويتضح هذا من المقارنة بين ما حكاه القرآن الكريم عن كل منهما ، فقد حكى عن الأب قوله: « واهجرنى مايا » وعن ابراهيم قوله « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » .

فعبء الأب بالهجر ، وهو لفظ شديد الجرس ، يروحى بالفراق الشديد والمخاصمة والمقاطعة ، فمادته : هجر ، الدالة على القطيعة وانقطع ، ومنها : الهجر بضم الهاء وسكون الجيم وهو الانقشاش فى المنطق ، ورماه بالهاجرات وهى الفضائح (٥٢) .

(٥٢) مقاييس اللغة : مادة هجر .

وعبر ابراهيم بالاعتزال ، وهو لفظ معتدل الجرس ينطوى على المفارقة بالمعروف ، فمادته : عزل ، الدالة على التنحية والامالة ، تقول : عزل الانسان انشىء يعزله ، اذا نحاها في جانب ، وهو بمعزل وفي معزل عن أصحابه ، أى في ناحية عنهم (٥٣) ، والعزلة سلوك محمود عند الزهاد ، ومن ثم كان الاعتزال مستعملا في القرآن الكريم في حكاية عبارات الرسل والمؤمنين ومقامات التباعد بالحسنى ، فيحكي القرآن الكريم عن موسى قواه لقومه : « وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون » (٥٤) وعن أصحاب الكهف قولهم : « واذا اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله » (٥٥) .

ويقول في الأمر باجتناب الحائض : « فاعتزلوا النساء في الحيض » (٥٦) بينما يقول في الابتعاد عن الناشز « واهجروهن في المضاجع » (٥٧) وحينما أمر الله تعالى رسوله «حمداً صلى الله عليه وسلم بهجر الكافرين قال : « واهجروهم هجرا جميلا » (٥٨) نقيض الهجر بالجميل تخفيفاً لفهوميته ، وكل هذا يدل على أن الهجر أشد من الاعتزال .

وظلب « آزر » من ابراهيم أن يهجره عن طريق الأمر المباشر الذى يقتضى التنفيذ ، وخصه بذلك ليكون أشد وأقسى عليه ، بينما لم يطلب ابراهيم من أبيه أن يعتزله ، وجعل الاعتزال من جهته هو ، ونم يواجه أباه بالاعتزال ولم يخصه بذلك ، بل جعله اعتزالاً عاماً شاملاً لقومه الكافرين وما يعبدونه من دون الله ، وهو داخل في هذا العموم ، وفي هذا رفق بالأب لعدم مواجهته بابتعاده عنه ، وفيه إعلان

• (٥٣) السابق : مادة عزل .

• (٥٤) السخان : ٢٦ .

• (٥٥) الكهف : ١٦ .

• (٥٦) البقرة : ٢٢٢ .

• (٥٧) النساء : ٣٤ .

• (٥٨) المزمل : ١٠ .

عام بمقاطعة الكفر والكافرين ، وعبر عن الاعتزال بالخصارح الذى يتسع زمان تنفيذة لتخفيف وقع الخبر على أبيه •

وقيد « آزر » الهجر بزمان طويل لا حدود له ، بينما أطلق ابراهيم الاعتزال فلم يقيد بزمان ، والمطلق أهون من المقيد بزمان طويل غير محدد •

وعبر ابراهيم عن آلهتهم « بما » التى اغير اعاقل للإشارة الى فقدان معبوداتهم للعقل وغيره من صفات العقلاء ، وقال « وما تدعون » ولم يقف وآلهتكم للإشارة الى أن من شرط المعبود أن يكون أهلا للمناداة والدعوة فى الشدائد (٥٩) • وليسلب عنها صفة الألوهية التى يدعونها لها ، ويعظمونها بسببها ، ويشير الى أنه غير معترف بما يدعون لها من الألوهية ، ولا يجريه على لسانه ، وفى هذا تحقير لها ونهكها بها ، ووصفها بأنها (من دون الله) لمواجهة بفساد عقيدتهم التى تقوم على عبادة أصنامهم من دون الله ، ولينبههم على أن الذى ينبغى أن يعبد هو الله عز وجل •

وبهذا يتضح لنا الفرق الكبير بين أمر « آزر » واجابة ابراهيم عليه السلام •

وأما المنهج فهو (وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » فهذا بين ابراهيم طريقته ومنهجه القائم على عبادة الله الواحد القهار ، وأكد لأبيه وقومه أنه لن يجيد عن عبادة ربه وأن تمسكهم بعبادة أصنامهم واجباره على الهجرة من بلده ، ان يثنيه عن عبادة رب العالمين لا شريك له •

والمراد بالدعاء : العبادة ، لأنه منها ومن وسائلها (٦٠) ، فقد

• (٥٩) نظم الدرر : ٢٠٨/١٢ •

• (٦٠) الكشاف : ٥١٣/٢ •

قال عليه السلام : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » (٦١) ، ومما يرجح انه العبادة قوله تعالى بعد ذلك : « فلما اعتزلهم ودا يعبدون من دون الله » .

وقال : وأدعو ربي ، ولم يقل : وأدعو الله كما قال قبل ذلك : وما تدعون من دون الله ، لالتسار بالتغاير بين عبادتهم وعبادته (٦٤) ، وللاشارة بما في لفظ الرب من معانى التربية والعناية الى انه لطيف به مستجيب له ، والاضافة الى ضمير المتكلم للدلالة على انه الرب الحقيقى الذى يقبل دعاءه ويحقق رجاءه ، وليس ربهم العاجز الذى لا يملك ضرا ولا نفعا ولا يسمع دعاء ولا رجاء ، وفيه تعريض بربهم الذى يدعونه فلا يسمع ولا يبصر . وعلل عبادته لربه ودعائه له بعله مرغوبة ومطلوبة « عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا » ، أى : خائبا ضائع السعى ، وتصدير الكلام بعسى لظهار التواضع ، ومراعاة حسن الأدب ، والتنبية على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من العيوب المختصة بالعليم الخبير (٦٣) .

وفى العبارة الكريمة تعريض بشقاء أبيه وقومه فى عبادة آلهتهم ، حيث يرهقون أنفسهم بعبادتها ، وتقديم القرابين لها ، وهى لا تغنى عنهم شيئا ، بل وسيحل عليهم بسببها الشقاء والعذاب فى الدنيا والآخرة .

واظهار « ربي » فى موضع اضماره لالتسار بعله الحكيم الذى هو عدم الشقاء ، والتعبد والتشرف بذكره تعالى .

(٦١) رواه الحاكم وصححه الجامع الصغير ١٧/٢ .

(٦٢) الألوسى : ١٠٢/١٦/٨ .

(٦٣) أبو السعود : ٢٦٩/٥ .

وبهذا حسم إبراهيم عليه السلام الموقف مع أبيه وقومه ، بأن
قرر اعتزالهم واللجوء الى حمى القوي العزيز ، لينعم بعبادته ، ويهنا
مدعائه بعبدا عن اقوام الظالمين •

الخلاصة :

وبعد أن بيّدت الآيات موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ،
وقراره باعتزالهم وما يعبدون من دون الله تعالى ، تطوى مرحلة حدث
له فيها ما حدث ، ونفذ فيها قرار اعتزاله ، وتأتى الآيات لتبرز لنا
نتيجة اعتزاله ، وما جناه من نعم جليلة أعدقها الله عليه ، لتكون هذه
النتيجة خاتمة حسنة لهذه الحلقة من حلقات قصة إبراهيم عليه السلام
« فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب
وكلا جعلنا نبيا ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم نسان صدق عليا » ،
أى فلما فارقهم بالمهاجرة الى الشام لم يتركه الله تعالى وحيدا ، انما
وهب له اسحاق ومن بعده حفيده يعقوب عليهما السلام بدل من
فارقهم من أهله وقومه ، وأنتم عليهم النعمة بأن جعلهم من أنبيائه ،
وأعطاهم من رحمته كل خير ديني ودنيوي ، وجعل لهم ذكرا حسنا
بين الناس ، وهذه عاقبة حسنى ، ونهاية طيبة لاعتزاله الكفر
والكافرين •

وقد جاءت عبارة القرآن الكريم عن هذه النهاية الطيبة منطوية
على كثير من اللطائف البلاغية ، حيث عطف على ما قبلها بفاء التفرع
للدلالة على أن مضمونها متفرع على مضمون ما قبلها ، وأنها مبنية
على مقدمة سابقة هي « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » ، وكرر
هذا القول بعد الفاء لتحقيق التلاحم بين المشاهد ، بجعل بداية هذا
المشهد هي نهاية المشهد السابق عليه ، فتبدو أجزاء الحلقة شديدة
الترابط ، رغم اختلاف أزمنة وأمكنة حدوثها ، وعطف اعتزاله ما يعبدون

من دون الله علي اعترالهم مع انه داخل فيه ، للنص عليه صراحة
تاكيدا له ، لأنه في إحقيقه هو سبب الخصومة بينه وبين قومه ،
وداعية اعتراله لهم .

ورثت هبة اسحاق ويعقوب على اعتراله قومه لبيان كمال النعم
التي أعطاهما الله تعالى اياه بمقابلة من اعترلهم من الأهل والأقرباء(٦٤)،
وجاء النظم على صورة الشرط وجوابه مع كون أداة الشرط « لما » التي
هي حرف وجود لوجود ، أو وجوب لوجوب كما يقول بعض
النفحة(٦٥) ، للاسعار بتمتق هذه الهبة العظيمة بعد تحقق الشرط ،
وهذا لا يمنع من وجود فترة زمنية فاصلة بين الاعترال والهبة المذكورة،
فالمشهور عند العلماء انه رزق باسمايل أولا ثم رزق باسحاق بعد
ذلك بمدة طويلة(٦٦) .

والوهب والهبة : اعطاء شيء بلا عوض ، وهو هنا مجاز في
التفضل والتيسير ، وعبر بالهبة للإشارة إلى أن اعطاء اسحاق ويعقوب
وإن كان مترتبا تاريخيا على الاعترال الا انه ليس أجرا مستحقا في
مقابل الاعترال ، فما فعله من المهجرة بدينه ، طاعة لله تعالى يرجوا
بها رضوانه ، وما رزقه الله تعالى من البنين ، هبة وتفضل من الرزاق
الوهاب جل شأنه ، وجمع بين الابن والحفيد دلالة على انه عاش مدة
طويلة من الزمان بعد الاعترال حتى أدرك حفيده يعقوب ، كما نقل
عن العلماء ، وتخصيص اسحاق ويعقوب بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء
في بنى اسرائيل ، ولأن اسماعيل عليه السلام قد ذكر وبين فضله على
انفراد(٦٧) في آية تالية هي قوله تعالى : « واذكر في الكتاب اسماعيل

(٦٤) أبو السعود : ٢٦٩/٥ .

(٦٥) مغنى اللبيب : ٢٨٠/١ .

(٦٦) يراجع ما ذكرناه في التمهيد عن ذلك .

(٦٧) البيضاوى ٤١٩ .

انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا • وكان يأمر أهاه بالصلاة
والزكاة وكان عند ربه مرضيا « (٦٨) » •

وبعد بيان نعمة الله تعالى عليه بالذرية التي كان يتسوق اليها من
زمن بعيد ، عقب ذلك ببيان نعمة جليلة أخرى من نعم الله تعالى
عليه ، (وكلا جعلنا نبيا) ، أى كل واحد منهم اصفاه الله وجعله
نبيا وهذا شرف عظيم لا يعادله شرف آخر ، (وكلا) مفعول أول
اجعلنا نبيا ، قدم عليه للتخصيص ، لكن لا بالنسبة الى من عداهم ،
بل بالنسبة الى بعضهم ، أى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم
دون بعض (٦٩) •

و « كل » يقتضى استغراق ما أضيف اليه ، وحكم الاستغراق
أن يثبت الحكم لكل فرد فرد لا للمجموع ، والتتوين فيه عوض عن
المضاف اليه •

وهو لفظ حكمه الأفراد ، والتذكير ، ومعناه يكون بحسب
ما يضاف اليه ، وان غطح عن الاضافة لفظا ، يجوز مراعاة لفظه فيأتى
بعده مفرد ، ويجوز مراعاة معناه فيأتى بعده جمع (٧٠) ، تقول : كل
قائم ، وكل قادمون ، وقد روعى فيه هنا جانب اللفظ ومن ثم جاءت
الفاصلة « نبيا » مفردة لتتلاءم مع قواصل السورة الكريمة التي جاءت
على نهج فريد ، وفى سورة الأنبياء روعى فيه جانب المعنى فقيس :
« وكلا جعلنا صالحين » (٧١) فتلاءمت الفاصلة مع ما قبلها وما بعدها
من قواصل •

(٦٨) مريم : ٥٤ ، ٥٥ •

(٦٩) أبو السعود ، ٢٦٩/٥ •

(٧٠) معنى اللبيب ١/٢٠٠ •

(٧١) الأنبياء : ٧٢ •

وأُتبعَت النعمة الثانية بنعمة ثالثة « ووهبنا لهم من رحمتنا »
 وعبر عنها بالهبة للإشارة الى أنها عطاء خالص من الله تعالى ، وحذف
 المفعول وهو الموهوب ، فلم تذكر الهبة ، وذكر مصدرها وهو انجار
 والمجرور « من رحمتنا » ومصدر الشيء يدل على الشيء ، ومن ثم أفاد
 نظم الجملة أنها من رحمة الله تعالى التي هي أساس انبهاة ، وأصل
 العطايا ، فهي هبة عظيمة عامة شاملة ، تتناول كل خير ديني ودنيوي ،
 وتخصها على النبوة أو الملك أو الولد كما ذهب بعض المفسرين (٧٢)
 تضيق لهبة الله الواسعة ، التي منحها لهم بلا حدود .

وختمت النعم بنعمة رابعة (وجعلنا لهم لسان صدق غيا) أى
 جعلنا لهم بين الناس ذكرا حسنا وثناء جميلا ، ظاهرا لا يخفى أمره ،
 والمراد باللسان : ما يوجد به من الكلام والثناء ، ولسان القوم
 اغنهم قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » (٧٣) أى
 بنعتهم ، ففى اللسان مجاز مرسل ، علاقته الآلية ، من اطلاق اسم
 الآلة وإرادة ما ينشأ عنها ، وقال الشهاب : أطلق اللسان على ما يوجد
 به من الكلمات والحروف ، كما تطلق اليد على العطية بعلاقة
 السببية (٧٤) ، فراعى سببية اللسان للكلام ، ولا اشكال فى ذلك ،
 فالعلاقتان واردتان ويمكن اعتبار واحدة منهما ، والمشهور عند البلاغيين
 اعتبار الآلية (٧٥) .

واضافة اللسان الى الصدق باعتبار حقيقته اضافة مجازية ،
 وباعتبار المراد منه اضافة حقيقية ، وعلى كل ففى وصف اللسان

(٧٢) ينظر الألوسى : ١٠٢/١٦٦/٨ .

(٧٣) ابراهيم : ٤ .

(٧٤) حاشية الشهاب : ١٦٤/٦ .

(٧٥) ينظر المطول : ٣٥١ .

بالمصدر مبالغة بجعله نفس الصدق و « عليا » أى انه ظاهر واضح لا يخفى على الناس ، واستعماله في ذلك على سبيل الاستعارة ، لأن أصل العلو : الارتفاع ، وما ارتفع مكانه ظهر ووضح كأنه نار على علم (٧٦) ، فاستعير العلو لظهور محامدهم ، وشيوع ذكركم ، والثناء عليهم بين الناس .

ونعود لتأمل آيتى الخاتمة ، ودقة نظمهما ، فنرى انهما قد اشتملتا على أربع نعم جلييلة هى :

- ١ - هبة اسحاق ويعقوب .
- ٢ - جعلهم أنبياء .
- ٣ - اعطاؤهم كل خير من رحمة الله .
- ٤ - ابقاء ذكركم والثناء عليهم بين الناس .

وتضمنت كل آية من الآيتين نعمتين من النعم الأربع ، وعبر في النعمة الأولى والثالثة بالهبة ، وفي الثانية والرابعة بالجعل ، فجمعت كل آية بين هبة وجعل ، ولعل السر في ذلك أن النعمتين الأولى والثالثة تحويان منحا حسية وعطايا ملموسة ، تتعلق بهم وحدهم ، فناسب ذلك أن يعبر عنهما بالهبة وأن النعمتين الثانية والرابعة تحويان فضائل عقلية تتعلق بالهداية وتعود عليهم وعلى غيرهم ، ويبقى الانتفاع بها بين الناس ، فناسب ذلك أن يعبر عنهما بالجعل المشعر بالدوام والبقاء ، كما أن ابراهيم عليه السلام لما دعا الله تعالى أن يرزقه بالذرية قال كما حكى القرآن الكريم « رب هب لى من الصالحين » (٧٧) فَعَبَّرَ بالهبة ، وعندما دعا الله أن يمن عليه بالذكر

(٧٦) ينظر حاشية الشهاب : ١٦٤/٦ .

(٧٧) الصفات : ١٠٠ .

الحسن والثناء الجميل قال « واجعل لى لسان صدق فى الآخريين » (٧٨) فعبّر بالجعل ، وبهذا تناسبت الاجابة مع الدعاء •

ولما كانت النعمة الأولى خاصة بابراهيم عليه السلام قيل فيها « وهبنا له » ، ولما كانت النعمة الثانية تتعلق بكل منهم فردا فردا ، ويمكن صرفها اليهم أو صرفها الى اسحاق ويعقوب باعتبار أن ابراهيم عليه السلام نيوته سابقة ، وجمع بينها وبين الرسالة ، عبر عنها بما يتناول التفسيرين فقيل فيها (وكلا جعلنا نبيا) أى وكلا منهم أو وكلا منهما ولما كانت النعمتان الثالثة والرابعة عامتين للجميع قيل فيهما « وهبنا لهم » « وجعلنا لهم » •

وأسندت جميع النعم الى نون العظمة « وهبنا » « جعلنا » « رحمنا » لتعظيم أمرنا ، وتفضيم شأنها حيث انها من نبيص الرزاق الذى له انخلق الأمر ولا معقب لحكمه وفيه أيضا دلالة على أن هذه النعم لا تصدر الا من الله عز وجل ، اذ الأفعال المسندة اليه لا يمكن ولا يعقل أن تصدر الا من الله سبحانه وتعالى (٧٩) •

وعطفت النعم على بعضها بالواو للاستعارة بتغايرها واستقلالها فى العظم والفقامة ، فكل نعمة منها جديرة بأن تذكر على انفراد ، ويمتن بها على حدة •

ورقت هذه الذم ترتيبا دقيقا ، فلما كان ابراهيم عليه السلام مشغولا بأمر الذرية ، ويتوق اليها من زمن بعيد ، بشر بهذه النعمة أولا ، باعتبارها تشغل فكره ، وتملأ وجدانه ، وعقبت بما يسر خاطره بأبنائه ، ويحقق له ولهم الشرف العظيم ، وهى نعمة اختيارهم للنبوة ،

(٧٨) الشعراء : ٨٤ •

(٧٩) الاسلام فى عصر العلم : ٢١٤ ، وينظر ٣٢٤ ، ٢٤٦ •

وجعلهم أئمة للناس ، وأتبعته هذه النعمة بنعمة الخير العام السامع
الذي لم يحد ولم يعد ، وختمت النعم بنعمة هي مسك الختام، وغاية
المرام ، انها الذكر الحسن والثناء الجميل ، وتلك نعمة باقية مستمرة
بعد مماتهم ، حيث بقى ذكرهم نورا يضيء بين الناس على تجديد
الأعمار وتباين الأمصار •

وبهذه النهاية البديعة ، التي تشعر بانقضاء الأعمار ونهاية
المسوار ، بعد نيل المطالب وتحصيل الرغائب ، تختتم هذه الحلقة من
قصة ابراهيم عليه السلام •

الحلقة الثانية

وأتل عليهم نبأ إبراهيم

قال الله تعالى :

« وأتل عليهم نبأ إبراهيم • إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون • قانوا نعبد أصناما فنظلك لها عاكفين • قال هل يسمعونكم إذ تدعون • أو ينفعونكم أو يضرون • قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآبائكم الأقدمون • فانهم عدو لى الا رب العالمين • الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطمعنى ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين • والذى يميئتنى ثم يدين • والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين • رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين • واجعل لى لسان صدق فى الآخرين • واجعلنى من ورثة جنة النعيم • واغفر لأبى انه كان من الصالحين • ولا تخزنى يوم يبعثون • يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (١) •

بين يدى الآيات :

هذه الآيات من سورة الشعراء • وتتناول دعوة إبراهيم عليه السلام أباه وقومه الى عبادة الله عز وجل ونبذ عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر •

وهى تعتبر الحلقة الثانية بين الحلقات التى تدور فى محيط الدعوة الى الله تعالى وابطال عبادة الأصنام •

وسورة الشعراء تبدأ بالاشفاق على النبى ﷺ من شدة أساه وحرزته على عدم ايمان قومه « لعلك باضع نفسك ألا يكونوا

مؤمنين» (٢) ، وتبين أن الله عز وجل لو شاء اجبارهم على الهداية لأنزل « عليهم من السماء آية فضلت أعناقهم لها خاضعين » (٣). على أن هؤلاء القوم معروفون بالأعراض عن آيات الله تعالى وتكذيبها ، وسينالون جزاء ذلك « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين • فقد كذبوا فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون » (٤)

وتمضى السورة في ذكر قصص الأنبياء السابقين مركزة على بيان عناد أقوامهم ، وتمردهم على ما جاءوا به ، ومناصبتهم العداوة وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ ، وحث له على الصبر حتى يأتيه نصر الله تعالى •

وتبدأ بتفصيل قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملائه ، وذلك اقرب زمانه من زمن الرسول ﷺ ، ولكن قصته مشتملة على كثير من الآيات والمعجزات ومع ذلك لم يتأثر بها فرعون وقومه ، وظلوا على عنادهم ومكابرتهم حتى أهلكهم الله بالغرق في البحر • وهذا يشين إلى أن كفار قريش لو جاءتهم الآيات التي دأبوا على طلبها من الرسول ﷺ فان يتراجعوا عن كفرهم وعنادهم •

وتأتي بعد ذلك قصة ابراهيم عليه السلام لصلته الوثيقة بالعرب وبني اسرائيل معا ، فهو الجد الأعلى للطائفتين ، وفي ذكر قصته للعرب عظمة وعبرة ، لما بينهم وبينه من صلة يفخرون بها ، ولما بينهم وبين قومه من شركة في عبادة الأصنام ، وفي القصة احتجاج على بطاآن عبادتها وفساد اللجوء إليها •

(٢) الشعراء : ٣ •

(٣) الشعراء : ٤ •

(٤) الشعراء : ٥ ، ٦ •

البداية :

تبدأ القصة بداية مثيرة فيها لفت للانتباه ، واستدعاء للانصات « وائل عليهم نبأ ابراهيم »، وهي بداية تختلف عن بدايات كل القصص في السورة لما فيها من عظات بالغات لقوم النبي ﷺ نظرا لصلاتهم بإبراهيم عليه السلام ، وتشابهم مع قومه في عبادة الأصنام ودفاعهم عنها .

والتلاوة : القراءة ، و « نبأ ابراهيم » خبره العظيم الشأن المتضمن للعظات والعبر . والأمر بتلاوة هذا الذبأ على انقوم لما فيه من تذكير لهم بسيرة أبيهم الذي يفتخرون بالانتساب اليه ، لعلمهم يعتبرون بعداوتته للأصنام وابطاله لعبادتها ، ويشوبون الى رشدهم . وأضيف الذبأ الى ابراهيم عليه السلام دون قومه مع أنهم طرفه فيه ، لما أنه الأصل فيه : إذ كان المبادئ بالدعوة الى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الأصنام . كما أن العرب يقدرون ابراهيم عليه السلام نفسه ، ويرغبون في سماع أخباره .

حوار ابراهيم مع قومه :

وبعد هذه البداية المشوقة تبدأ الآيات في سرد الحوار الذي دار بين ابراهيم عليه السلام وقومه « إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » و « إذ » منصوب على الظرفية انبأ : أى نبأ حين قال لأبيه وقومه ما تعبدون . وبدء الحوار بسؤال ابراهيم عليه السلام انساره الى أنه كان مهموما من ضلال قومه ، وفي شغل شاغل عليهم ، ومن ثم بدأ بالحوار معهم ، ودعوتهم الى عبادة الواحد القهار . وتخصيص « أبيه » بالذكر مع أنه من قومه لأن أمره يهده قبل غيره ، ومسئوليته عنه مقدمة على مسئوليته عن سواه .

و « ما » اسم استفهام يسأَل به عن تعيين الجنس ، وكان ابراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولذنه سألتهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر : ما مالك ؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم نقول له : الرقيق جمال وليس بمال (٥) • فالاستفهام صوري أراد به افتتاح المجادلة معهم فألقى عليهم السؤال ليكونوا هم المتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم ، فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من قساة ، لأن الذي يتصدى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه ، ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم (٦) •

وأجابه قومه بتعيين نوع معبوداتهم « قالوا نعبد أصناما فنظلم لها عاكفين » والفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستئناف البياني • على أنها جواب عن سؤال تقديره فماذا قالوا في جوابه ؟ وعلى هذا كل ما فيه القصة من قال وقالوا ، وهذا نهج مسلوكة في حكاية الحوارات (٧) •

وأطالوا في الجواب ولم يقتصروا على قولهم : أصناما ، كما هو مقتضى السؤال ، ابتهاجا بعبادتها وافتخارا بها باطالة الحديث عنها • قال الزمخشري : فان قلت : « ما تعبدون » سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا أصناما • كقوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٨) قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كأنه

(٥) الكشف : ١١٦/٣ •

(٦) التحرير والتنوير : ١٣٨/١٩ •

(٧) ينظر دلائل الاعجاز : ٢٤٠ ، ٢٤١ •

(٨) البقرة : ٢١٩ •

كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب ابراهيم وعلى ما قصده من اظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار ، الأتواهم كيف عطفوا على قولهم « نعبد » « فنظّل لها عاكفين » ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده ، ومثاله أن تقول لبعض السطّار : ما تلبس في بلادك ؟ فيقول : ألس البرد الأنحى ، فأجر ذيله بين جوارى الحى (٩) . وهذا الجواب من قبيل الاسلوب الأحمق كما في الكشف (١٠) .

والمعهود في مثل هذه الحالات أن المتكلم بالجواب يكون واحدا نائبا عن الجميع ، وباقى القوم يستمعون ، وانما أوتر التعبير بصيغة الجمع في « قالوا نعبد » وما بعدها للإشارة الى رضاهم عن الجواب فأجريت الاجابة على لسانهم جميعا ، كأنهم قالوا في نفس واحد « نعبد أصناما ... » وفي ذلك اشعار باجماعهم على الضالان ، وتوحدهم في نصرته .

وتكبير « أصناما » لتعظيم شأنها ، فهي معظمة عندهم ، ولها مكانتها الجليلة في نفوسهم . و « نظّل » بمعنى ندوم ، وهى بعمل ناقص دال على القتران مضمون الجملة بالنهار ، أو بمعنى صار . ويحتمل أن تكون تامة بمعنى دام كقولهم : لو ظل الظلم لهلك الناس . وعاكفين على الأولين خبر ، وعلى الثانى حال (١١) . وعلى كل ففى التعبير بنظّل اشعار باستمرارهم على عبادتها .

و « لها » متعلق بنظّل أو بعاكفين ، والعكوف يتعدى بعلى ، وإنما ضمن معنى العبادة ، فعدى باللام ، وهى تنيد معنى زائدا ، كأنهم قالوا : فنظّل لأجلها مقبلين على عبادتها ، أو مستديرين حولها ،

(٩) الكشف : ١١٦/٣ . وينظر مفتاح العلوم : ١٧٨

(١٠) ينظر الألوسى : ٩٣/١٩/١٠ .

(١١) حاشية الشهاب : ١٦/٧ .

وهذا أيضا من جملة اطنابهم (١٢) ، وايثار « عاكفين » على عابدين لما فيه من دلالة على الحبس (١٣) ، فهو مشعر بشدة اقبالهم عليها ، وعدم انصرافهم عنها ، وانحباسهم على عبادتها •

ولما بينوا نه حقيقة معبرياتهم تدرج معهم في الكلام لييطل عبادتها، بما لا يمارون فيه ، من عجزها التام ، وهو مما ينأى ريبينتها « قال يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » • وسلك في بيان حجته مسلك الاستفهام دون أن يبين لهم عجزها بأساوب خبرى ، ليتوصلوا الى النتيجة بأنفسهم ، ولتكون اجابتهم اقرارا منهم بعجزها، اذ لن يستطيعوا اثبات أى قدرة لها ، وبذلك تلزمهم الحجة •

وحذف المسموع مشعر بعموم عدم سماعهم لأى شىء ، فهم لا يسمعون دعاءهم ولا يسمعون غير ذلك ، والسماع مؤد الى الاجابة، وانما قيل « يسمعونكم » دون يجيبونكم لا أن السماع أقل من الاجابة فاذا عجزت الأصنام عن السماع فعى عن الاجابة أعجز •

و « اذ » ظرف لما مضى ، وانما جىء بالمضارع دون الماضى المناسب لها ، فام يقل : يسمعونكم اذا دعوتهم ، لاستحضار الحال الماضية ، وحكايتها ، أى : استحضروا الأحوال الماضية التى كنتم تدعونها ، وقبلوا : هل سمعوا أو أسمعوها تط ؟ وهذا أبلغ فى التبكيت (١٤) •

وتقديم السمع على النفع والضر لأن عدمه أدل على العجز منهما كما أن النفع والضر بينيان على السمع ، اذ يكون السمع أولا ثم يقرتب عليه الفعل • وتقديم النفع على الضر لأن تحقيق النفع أهم

(١٢) أبو السعود : ٢٤٧/٦ •

(١٣) ينظر مقاييس اللغة : مادة عكف •

(١٤) الكشاف ١١٦/٣ ، وحاشية الشهاب : ١٧/٧ •

بالنسبة لهم ، والنفوس مولعة بما يحقق لها نفعاً ، ومن ثم خوطبوا بالنفع فقيل « ينفعونكم » ولم يخاطبوا بالضر . وفي ترك مفعول « يضر » دلالة على العموم ، فهم لا يضررونهم ولا يضررون غيرهم . بجانب ما في ذلك من مراعاة الفواصل .

وبين « ينفعون » و « يضررون » طباق يؤيد تمام عجز الأصنام ، وذلك بارتفاع انقيضين عنها ، فهي لا تنفع ولا تضر .

ووجد القوم أن اجابتهم عن سؤال ابراهيم عليه السلام ستلزمهم الحجة ، فانقلوا بالكلام الى سبيل آخر « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » ، فأضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر ، اعترافاً بما لا سبيل لهم الى انكاره ، واضطروا الى اظهار أن لاسند لهم سوى التقليد ، فكأنهم قالوا لا يسمعونا ولا ينفعونا ولا يضرروننا ، وانما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فافتدنا بهم (١٥) .

ووجدان الشيء يدل على الفائه بعد بحث عنه ، ووجدت الضالة أى ألفتها بعد بحث عنها (١٦) وفي التعبير بوجدنا اشارة الى انهم ألفوا ذلك بعد بحث فيما كان عليه آباؤهم ، ومعانيتهم له في سيرتهم ، ومن ثم فهم متمسكون به . وفي التعبير بالآباء اشعار بأنهم يطيعون آباءهم وينهجون نهجهم كما هو حق الوالد على الولد ، فلا عتاب عليهم في ذلك ولا مؤاخدة .

و « كذلك يفعلون » تشبيهه لفعل الآباء بفعلهم و « كذلك » صفة لمصدر محذوف والتقدير : يفعلون كذلك الفعل . وقدم الجار

(١٥) أبو السعود : ٢٤٨/٦ ، والألبوسي : ٩٤/١٩/١٠ .

(١٦) ينظر مقاييس اللغة : مادة وجد .

والجور على « يظلمون » للاهتمام بمدلول اسم الإشارة (١٧) • وفي اسم الإشارة ايجاز أغنى عن التطويل ، وتفخيم لما يفعلون وما كان يفعلونه آبائهم •

ويكر ابراهيم على القوم بالانكار عليهم ما يببدون هم وآبائهم دون نظر وثأمن في فساد ما هم عليه « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآبائهم الأقدمون • فانهم عدو لى الارب العالمين » أى أنظرتهم فأبصرتهم ، أو أتأملنتم فعلمتم أى شىء استدمتم على عبادته ، فانهم أعداء لى ، لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولى فى الدنيا والآخرة لايزان يفضله على بالنافع (١٨) •

والاستفهام للانكار التوبيخى ، وهو يتضمن بطلان آلهتهم وبطلان عبادتها وانه ضلال قديم لا فائدة فى قدمه الا ظهور بطلانه (١٩) • وجملة « أفرأيتم ما كنتم تعبدون » مفرعة على جمل كلام القوم المتضمنة عبادتهم الأصنام وانهم مقتدون فى ذلك بآبائهم ، فالفاء فى « أفرأيتم » للتفريع ، وتقدم عليها همزة الاستفهام لصدارتها ، وفعل الرؤية قلبى • ومثل هذا التركيب يستعمل فى التنبية على ما يجب أن يعنى على ارادة التعجيب مما يعلم من شأنه ، ولذلك كثر اردافه بكلام يشير الى شىء من عجائب أحوال مفعول الرؤية كقوله تعالى : « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلاً وأكدى » (٢٠) ومنه تعقيبه هنا بقوله « فانهم عدو لى » (٢١) •

(١٧) التحرير والتنوير : ٦٤٠/١٩ •

(١٨) أبو السعود : ٢٤٨/٦ ، والألوسى ٩٤/٩/١٠ •

(١٩) حاشية الشهاب : ١٧/٧ •

(٢٠) النجم : ٣٣ ، ٣٤ •

(٢١) التحرير والتنوير : ١٤٦/١٩ •

والتعبير بالرؤية دون العلم ونحوه لما في الرؤية من قوة في اثبات
البحلان لقيامها على المشاهدة والتأمل • و « كنتم » تشعر باستقامتهم
على عبادتها ، فعبادهم لباطل قديمة مستديمة • و « أنتم » تؤكد
مخاطبتهم بالفعل و صرفه اليهم على وجه الخصوص • وعطف آبائهم
عليهم لما أنهم تعلموا في عبادتها بتقليد آبائهم، فكان الاهتمام ببيان بطلان
ما عليه آباؤهم ، كي لا تبقى لهم شبهة في ذلك ، وفي وصفهم بالأتدمين
إشارة الى أن عبادتها باطلة مهما كانت قديمة متوارثة ، اذ لا عبرة
بالقدم في ذلك • وهذا إيغال في قلة الاكتراث بتقليد آبائهم لأن عرفه
الأمم أن الآباء كلما تقدم عهدهم كان تقليدهم أكيد (٢٢) •

وبعد أن وجههم الى النظر والتأمل فيما يعبدون منكرًا عليهم هذه
العبادة ، بين لهم حال ما يعبدونه « فانهم عدواي » أي فاعلموا
أنهم أعداء لعابديهم لما أنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل
من جهة عدوه (٢٣) • وإنما قال « عدواي » تصويرا للمسألة في نفسه
على سبيل التعريض ، على معنى أنني فكرت في أمرى فرأيت عبادتى
لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك
أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا
ما نصحتنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا الا ما أراد
لروحه ليكون أدعى لهم الى القبول وأبعث على الاستماع منه •
ولو قال : فلننه عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، وهذا باب من التعريض ،
وقد يبلغ التعريض للنهوض ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فربما قاده
التأمل الى التقيا (٢٤) • وهذا التعريض يحتمل الكناية والمجاز ، فان نظر الى

(٢٢) السابق •

(٢٣) أم السعود : ٢٤٨/٦ •

(٢٤) الكشاف : ١١٦/٣ •

أن الأصنام لا تصلح لعداوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مجازاً ،
والإ فيكون كناية (٢٥) •

ويمكن أن يكون اطلاق العدو عليهم من باب التشبيه البليغ ،
أي فانهم كالعدو لى فى أنى أبغضهم وأحاريمهم • وتأكيد الخبر لتحقيق
مضمونه فى مقام الإنكار من المخاطبين ، واستعمال ضمير العقلاء فى
« فانهم » مع أنها لا تعقل ، جرياً على معاملتهم لها حيث يعتبرونها
من جملة العقلاء • والعدو : فعول بمعنى فاعل يلزم الأفراد والتذكير ،
ويجىء هو والصديق فى معنى الوحدة والجماعة قال الشاعر :

وقوم على ذوى مئرة أراهم عدوا وكانوا صديقا

شبهها بالمصادر نمنوازنة كالتقبول والولوع والحزين والصهيل (٢٦) ،
والنتعبر بهذه الصيغة دون أعداء مشعر بوحدتهم تجاه عداوته ، فهم
مجتمعون ومكتليون على عداوته ، وجميعهم على صفة واحدة من
العداوة له •

ولما بين عداوة أصنامهم له ، دلهم على ولاية رب العالمين له ، عن
طريق الاستثناء « الا رب العالمين » والاستثناء منقطع من ضمير
« أنهم » كأنه قال : لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو ونبيى فى
الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بالإنافع (٢٧) ، والتعبير
بـ « رب العالمين » دون ربى ، لاثبات ربوبية الله تعالى للعالمين ، فى
مواجهة أريابهم الذين لا حول لهم ولا طول • وفى هذا الإستثناء
تخلص لى الأثناء على الله تعالى بعد ذم آلهتهم وابطال عبادتها •

(٢٥) حاشية الشهاب : ١٧/٧ •

(٢٦) الكشاف : ١١٦/٣ •

(٢٧) الكشاف : ١١٦/٣ وأبو السعود : ٢٤٨/٦ •

ولما أظهر ابراهيم ولاية رب العالمين له أخذ في الثناء على هداية
 ببعض ما أفاض عليه من نعم تستوجب تخصيص العبادة به عز وجل
 وتبين لقومه بقدرة ربه المطلقة على فعل ما يريد ، في مقابل عجزنا
 آلهتهم عن فعل شيء من نفع أو ضرر •

فذكر خمس صفات جليلة تتضمن نعماً عظيمة أفاضها الله تعالى

عليه :

الأولى : « الذي خلقني فهو يهدين » غرّب العالمين هو الذي
 خلقه وسواه ، وهذه أول النعم وأسما ، وفرع عليها ما يتصل بها
 وهي انه يهديه إلى ما يصلحه من أمور المعاش والمعاد ، فالخالق يدبر
 أمر مخلوقاته ويرشدهم كما جاء في قوله تعالى : « انذى أعطى كل
 شيء خلقه ثم هدى »

والموصول وصلته صفة لرب العالمين ، وجملة « فهو يهدين »
 معطوفة على الصلة ، ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ وجملة « فهو
 يهدين » خبراً ، وجيء بالفاء لتضمن الخبر معنى الشرط •

وتقديم المسند اليه على خبره الفعلي في قوله « فهو يهدين »
 معيد للقصر ، وهو قصر صفة على موصوف قصرها اضافياً على سبيل
 القلب ، أي : هو يهديني لا غيره • وإلفاء تدل على معاقبة الهداية
 للخلق ، فانه تعالى يهدي كل ما خلقه إلى أمور معاشه ومعاده •

وجيء في الخلق بلفظ الماضي وفي الهداية بلفظ المضارع لما أن
 خلق الذات لا يتجدد في الدنيا ، بل لما وقع بقى إلى الأمد المعلوم •
 أما الهداية فهي مما يتكرر ويتجدد كل حين وأران ، فبين بذلك أنه
 سبحانه خلقه في الماضي دفعة واحدة ، وانه يهديه إلى مصالح الدين
 والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولحظة (٢٨) •

وإطلاق الهداية عن التقيد لأفادة العموم والشمول لكل ضروب الهدايات ، فإنه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له هداية مستمرة متدرجة من مبتدأ إيجاده إلى منتهى أجله (٢٩) •

والثانية : « والذي هو يطعمني ويسقين » وهي تستعمل على معنيين : الاطعام والسقيا وبهما يبقى الخلق وتدوم الحياة الى الأجل الذي حده الله تعالى • وتكرير الموصول هنا وفي النعم التالية مع كفاية عطف ما وقع في حيز الصلة على صلة الموصول الأول للايذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى ، مستعمل في استيجاب الحكم ، تحقيق بأن يجرى عليه تعالى بحياله ولا يجعل من روادف غيره (٣٠) •

وتقديم المسند إليه « هو » على خبره الفعل « يطعمني ويسقين » يفيد القصر كما سبق في النعمة الأولى • أي : هو يطعمني ويسقين لا غيره • والتعبير بالفعل المضارع لما أن الطعام والشراب متجددان مستمران • وبين الفعلين مراعاة نظير وتناسب تام • واسناد الطعام والسقيا الى الله تعالى باعتبار الخلق والإيجاد والتمكين منهما فهو الرزاق القادر على تمكينه من ذلك • ولم يصرح بذلك ردا على ما يشيع بين الناس من اسنادهما الى غير الله تعالى •

والثالثة : « وإذا مرضت فهو يشفين » وعطفت على « يطعمني ويسقين » ونظمت معها في سلك الصلة لموصول واحد ولم تفرد

(٢٩) ينظر الآلوسی : ٩٥/١٩/١٠ •

(٣٠) أبو السعود : ٢٤٩/٦ •

بموصول على حدة ، لما أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب
غالباً (٣١) •

كما قبل :

فإن إلقاء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ولأن الأمور الأربعة مما يخص الأجسام ومطالبها وعوارضها •
وصيغت هذه النعمة على هيئة الشرط والجزاء لأن إبراهيم عليه السلام
لم يكن مريضاً حين قال ذلك ، ولأن المرض ليس مجزوماً بوقوعه ،
فتقد يقع وقد لا يقع ، فعندما يقع مستقبلاً يدون الشفاء من الله تعالى •
ومن ثم جرى في الشرط بـ « إذا » التي تخاض الفل الذي بعدها
للمستقبل • وإنما عبر بـ « إذا » المشعرة بوجوه وقوع المرض دون
« ان » لأن الإنسان في حياته معرض لمن المرض عادة ، وإن كان غير
مجزوم بوقوعه •

وأسند المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما
منه عز وجل مراعاة لحسن الأدب بإسناد النعم إلى الله تعالى دون
النقم كما جاء في قوله تعالى حكاية عن الخضر « فأردت أن أعيبها »
وقوله « فأراد ربك أن يبليهما » (٣٢) ، ولأن مقصود إبراهيم
عليه السلام تعديد النعم التي أفاض الله تعالى بها عليه ، فأصاب
إليه النعم دون النقم • ولا ينتقض ذلك بإسناد الامانة إليه ، فإن
الموت من حيث أنه لا يحس به لا ضرر فيه ، وإنما الضرر في مقدرته
وهي المرض ، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحقها
دونها الحياة الدنيوية ، وخلص من أنواع المحن والبليّة (٣٣) •

• (٣١) أبو السعود : ٢٤٩/٦

• (٣٢) الكهف : ٧٩ ، ٨٢

• (٣٣) البيضاوي : ٤٩٨ ، وأبو السعود : ٢٤٩/٦

وقال الزمخشري : وانما قال مرضت دون أمرضني لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك (٣٤) .

وحكى ابن المنير رأى الزمخشري السابق ، ورأى غيره في جعله من باب حسن الأدب ، وتعقب الزمخشري في رأيه فقال : ولعل الزمخشري إنما عدل عن رأى الآخرين ، لأن ابراهيم عليه السلام قد أضاف الامانة الى الله تعالى ، وهي أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور ، ولكن المعنى الذى أبداه الزمخشري أيضا في المرض ينكسر بالموت ، فان المرض كما يكون بسبب تفريط الانسان في نفسه كذلك الموت الفاشيء عن سبب هذا المرض الذى يكون بتفريط الانسان ، وقد أضافه الى الله تعالى (٣٥) .

ثم بين ابن المنير رأيه فقال : ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض ، فكم معاني منه قد بغته الموت ، فالتأسي بعموم الموت لعملة يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ ، في الأدب نسبه الى الله تعالى ، وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض كان بلاء محققا ، فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الانسان الى نفسه باعتبار ذلك النسب الذى لا يخاو منه ، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بقا وجزما لأنه أمر لا بد منه ، وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا يتفق أورده مقرونا بشرط، وكان ممكنا

(٣٤) الكشاف ١١٧/٣ .

(٣٥) الانصاف . بهامش الكشاف ١١٧/٣ .

أن يقول : والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره : فما عدل عن المطابقة والمجانسة الماثورة الا لذلك والله أعلم (٣٦) •

وتقديم المسند اليه على خبره الفعلي في قوله « فهو يشفين » يفيد انقصر على الحد الذي بيناه في النعمة الأولى • أى فهو يشفيني لا غيره •

والفاء في « فهو » تشعر بمعاقبة الشفاء من الله تعالى للمرض لظنا به وشفقة عليه • حيث لا يتركه جل شأنه فريسة للمرض • وبين المرض والشفاء طباق يؤكد المعنى ويبرزه بجانب ما فيه من تناسب وتناسق بديع •

والرابعة : « والذي يمينتى ثم يحيين » • ولما كانت الامامة من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدءا واعادة ، وقد نيطت أمور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمها في سمط واحد (٣٧) • وقد سبق ايراد ما قيل في وجه اسناد الامامة اليه سبحانه وتعالى • وتقديم الامامة على الإحياء يدل على أن المقصود بالاحياء هو البعث ، والموت متقدم عليه وجودا وزمانا ، ومن هنا عطف الاحياء على الامامة بـ « ثم » اشعارا بالتراخي الزمني بين الموت والبعث • وبين الامامة والاحياء طباق بديع يظهر المعنى ويقويه ، ويضاءف من حسن الاسلوب بما فيه من وقع أخذ وتناسب دقيق •

ولم يعبر هنا باسلوب الحصر كما في النعم السابقة ، لأن قومه لم يكونوا يزعون أن الأصنام تميت أو تحيي ، بل يزعمون أنها

(٣٦) السابق •

(٣٧) أبو السعود : ٢٤٩/٦ •

قادرة على الاعانة أو الاعاقة في أعمال الناس في حياتهم (٣٨) • فالمقام لا يقتضى الحصر •

وقد تأمل ابن الزمكاني الآيات الأربعة السابقة من حيث اختلاف التعبير بالفعل الماضى والمضارع ، واختلاف حروف العطف فقال : انظر في قوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين » كيف أوقع كل لفظ في محله الذى يجب له ، فأتى بالماضى في « خلق » لأن خلقه مفروغ منه وأتت الفاء دون الواو لأنه كالجواب ، اذ من صور المعنى قادر على أن يصيره ذا معنى ، وهو للحصر ، لأنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم تهديهم • ثم قال : « والذى هو يطعمنى ويسقين » فأتى بالمضارع لبيان تجدد الاطعام واتسقيا ، وجاءت الواو دون الفاء لأنهم كانوا لا يفرقون بين المطعم والساقى ، ويعلمون انهما من مكان احد وان كانوا يزعمون أنه غير الله • وأتى بـ « هو » لدفع ذلك ، ودخبات الفاء في « فهو يشفين » لأنه جواب ، ولم يقل « واذا مرضت يشفينى » اذ يفوت ما هو موضوع لافادة التعقيب ، ويذهب الضمير المعطى معنى الحصر ، وكانوا يقولون : المرض منا ومن الزمان ومن الأعذية ، والشفاء من الأطباء ومن الأدوية ، ولم يكونوا ينكرون أن الموت من الله ، وإنما أنكروا البعث ، ودخلت « ثم » لتراخى ما بين الاماتة والاحياء (٤٢) •

وفي تحليلنا للآيات اشارة الى ما ذكره ابن الزمكاني ، ولكننا سبقنا كلامه لنبين وجهة عالم فذا من علماء البيان الذين تأملوا نظم القرآن الكريم •

(٣٨) التحرير والتنوير ١٩/١٤٣ • وينظر درة التنزيل : ٣٢٢ •

(٤٢) البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن : ١٤٢ •

والخامسة : « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين »
 وذكر عليه السلام ذلك هضماً لنفسه ، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا
 المعاصي ، ويحذروا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم ، وتلافياً
 لما عسى يندر منه عليه السلام من خلاف الأولى ، وتنبهاً لأبيه وقومه
 على أن يتأملوا في أمرهم ، فيقفوا على أهم من سوء الحال في درجة
 لا يقادر قدرها ، فان حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه في طاعة
 الله وعبادته في الغاية القصوى ، حيث كانت بتلك المثابة ، فما ظنك
 بحالك أولئك العموميين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا (٣٩) .

وعبر بالطمع في مغفرة الله تعالى دون أن يقول : والذي يغفر
 لي ، توأصاً لله تعالى ومباعدةً لنفسه عن هاجس استحسانه المغفرة ،
 وإنما طمع في ذلك لوعده الله تعالى بذلك (٤٠) . ويوم الدين هو يوم
 الجزاء ، وتعليق المغفرة بيوم الدين لأن أثرها يتبين في هذا اليوم ،
 ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر (٤١)
 وفي الاتيان بالجار والمجرور (لي) وتقديمه على المفعول مع امكان
 التعبير بدونه اهتماماً بايقاع المغفرة عليه ، وعناية بابرار كونها له .

وتقييد المغفرة بالمفعول « خطيئتي » لا يدل على أن له خطيئة
 معينة يطلب مغفرتها ، فقد يكون ذلك على سبيل التواضع وهضم
 النفس ، وانسان مفتقر الى مغفرة ربه عز وجل سواء أخطأ أم لم
 يخطئ ، وقد قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : « ليغفر لك الله
 ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٤٣) ، وعلى كل فلفظ الخطيئة مشعر

• (٣٩) أبو السعود ٢٤٩/٦ ، والكشاف : ١١٧/٣ .

• (٤٠) التحرير والتنوير ١٤٣/١٩ .

• (٤١) الكشاف : ١١٧/٣ ، وأبو السعود ٢٥٠/٦ .

• (٤٣) الفتح : ٢ .

يكرن الانسان عرضة للوقوع في الخطايا مهما علت رتبته، وذلك محدود في حق الأنبياء بما لا يتنافى مع عصمتهم المقررة شرعا .

وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث : « انى سقيم » - « بن فعله كبيرهم » - وقوله لسارة : « هي أختى - مما لا سبيل اليه ، لأنها مع كونها معارض كلام لا من قبيل الخطايا المغترة الى الاستغفار انما صدرت عنه بعد هذه المقابلة التجارية بينه وبين قومه . لان الأولين وقعنا مكتنفتين بكسر الأصنام ، ومن البين أن هذا الحوار كان في مبادئ الأمر قبل أن يفكر في ذلك ، والثالثة - ان صحت - فكانت بعد مهاجرته عليه السلام الى الشام (٤٤) .

ونتأمل النعم التي أثنى بها ابراهيم على ربه عز وجل ونعته بها ، فزأها تعمه في حياته وآخريته ، فقد خلقه الله وسواه ، وأرشده وهداه ، وهياً له عوامل الحياة ، من الطعام والشراب والشفاء مما يعبث به من أسقام ، وفي نهاية حياته يميته ثم بعد ذلك يحييه للبعث والحساب ، وفي الآخرة يغفر له ويشمله برحمته يوم الدين . وهي ذنوب تقرد بها المولى سبحانه وتعالى لا يشاركه في فعلها أحد ، وهذا يستوجب عبادته وحده لا شريك له .

وقد رتبت هذه النعم والنعوت ترتيباً طبيعياً يلي اللاحق فيها السابق وجوداً وزماناً ، حيث بدىء بالخلق الذي هو أول وجود الانسان ، ونقب بارشاده وهدايته ، وهذا يعنى تكوين عقله واحساسه ، وهدايته الى المحسات ثم المعنويات هداية متدرجة في أطراف حياته . يلي ذلك اطعامه وسقايته ليستقيم على درب الحياة ومواصلة العيش فيها ، ويتصل به شفاؤه مما قد يعرض له من حال

(٤٤) أبو السعود : ٢٤٩/٦ ، والألوسى : ٩٧/١٩/١٠

ومرض • يأتي بعد ذلك امامته عند انقضاء أجله المحدد ثم احياؤه للبعث والحساب ، ثم المغفرة له وادخاله في رحمة الله تعالى يوم الدين •

وقد وقع الفصل بين هذه الجمل لاتحادها في الخبرية مع تمام التناسب بينها في المعنى والصياغة • وسبكت هذه الجمل على نمط واحد مما جعل لها وقعا أخاذا ونسقا مؤثرا • وجاءت فواصلها منتهية بالنون الساكنة بعد حذف ياءات المتكلم منها تخفيفا وتناسبا للوقوف عليها • وبذلك توافقت فواصلها مع فواصل السورة التي ختمت بالنون غالبا •

الخلاصة :

وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه جل شأنه مبينا نعمه عليه من مبدأ خلقه الى المغفرة له يوم الدين ، ختم حوارهم مع قومه بمناجاة لربه بدعاء جليل ، استجلابا للمزيد من نعمه ورحمته •

ومناسبة هذا الدعاء لما قبله ظاهرة ، وذلك أنه ﷺ لما أبلغ قومه دعوة ربه ، وأثنى عليه بنعمه الجليلة ، ناسب ذلك أن يتنهّل لربه بالدعاء فمثل هذا المقام مما يرجى فيه قبول الدعوات ، واجابة التضمرات •

وتتضمن مناجاته سنة أدعية (٤٥) :

الأول : « ربّ هب لي حكما » والحكم : هو الحكمة والنبوة ، وقد كان إبراهيم حين دعا نبيا ، وعلى هذا فالسؤال يعني طلب

(٤٥) يرى بعض المفسرين أن حكاية حوار إبراهيم تنتهي بنهاية هذا

=

الازدياد من ذلك ، لأن مراتب الكمال لا حد لها ، أو يعنى طلب الدوام على ذلك (٤٦) • وفي بدء الدعاء بالنداء مزيد خراعة وابتتهال لله تعالى ، وحذف حرف النداء مشعر بقرب ابراهيم من ربه عز وجل وفي نداءه باسم الرب اشارة الى انه مستجيب له ، فهو مربيه وراعيه ومتولى أمره • ولفظ الهبة يشير الى أن استجابة الله تعالى له محض فضل منه عليه ، ومنحة يمنحها اياه وليست بالأمر المستحق • وتقديم الجار والمجرور « لى » على المفعول « حكما » للاهتمام بكون الهبة له ، مع ما فى ذلك من التشويق الى المفعول المؤخر • وتتكير « حكما » للتفخيم والتعظيم ، أى حكما كاملا شاملا •

والثانى : « وألحقنى بالصالحين » وهو طلب كمال القود العملية بأن يكون موقفا لأعمال ترشحه للانتظام فى زمرة الأكاملين الراسخين فى الصلاح (٤٧) • وفيه دلالة على أن صلاح الانسان لا يكون الا بتوفيق من الله تعالى • والوصل بين الجملة وما قبلها للتوسط بين

الدعاء ، حيث يعرض بعد ذلك مشهد من مشاهد يوم القيامة ، اذ ختم ابراهيم دعاءه بالأى يخزيه الله تعالى فى هذا اليوم • ويرى آخرون أن مشهد يوم القيامة داخل فى حكاية كلام ابراهيم عليه السلام • وقد آثرنا الرأى الاول ، لما أن مشهد القيامة لم يرد محكيا عنه كما فى الآيات السابقة له ، وآياته تنطق بأنه مشهد علم يبين ثواب المنتفين ، وعقاب الكافرين ، وليس محكيا عن قول ابراهيم عليه السلام • وينظر : الألوسى : ١٠/١٩/١٠ ، والتحرير والتنوير : ١٩/١٤٧/١٩ وفى ظلال القرآن ٢٦٠٥/٥

• (٤٦) التحرير والتنوير ١٩/١٤٥

• (٤٧) الألوسى : ١٠/١٩/٩٨

الكمالين حيث اتحدتا في الإنشائية مع التناسب ، وكذلك سر الوصل بين الجمل التالية ، والتعبير بالحقنى دون اجعلنى متسع بتواضعه ﷺ حيث يعتبر الصالحين طائفة سبقت الى رضوان الله تعالى ويطلب من ربه عز وجل أن يلحقه بهم •

والثالث : « واجعل لى لسان صدق فى الآخريين » أى اجعل لى ذكرا حسنا فى الأمم الآتية يبقى أثره الى يوم الدين • ولقد استجاب الله تعالى له ، فما من أمة من الأمم الا وهم محبوبون له مثنون عليه • فاللسان على هذا مراد به الفكر والثناء ، ففيه مجاز مرسل علاقته الآتية • وقيل المعنى : اجعل لى صادقاً من ذريتى يحدد أصل دينى ويدعو الناس الى ما كنت أدعوهم اليه ، وهو محمد ﷺ (٤٨) • وعلى هذا ففى الكلام ايجاز بحذف المضاف أى صاحب لسان صدق ، أو فى اللسان مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء على الكل (٤٩) • وفى الايتان بانجار والمجرور « لى » وتقدمه على المفعول « لسان » اهتمام بتمحيض الدعاء له وعودة أثره اليه ، مع ما فى ذلك من التثويق الى المؤخر •

واضافة « لسان » الى « صدق » من اضافة الموصوف الى المصفة ، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر ، أى لسانا صادقاً ، والصدق هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه ، لأنه يرغب فى تحقيقه ووقوعه فى نفس الأمر (٥٠) ، وتعريف (الآخريين) للاستغراق •

والرابع : « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » أى اجعلنى من المستحقين لجنة النعيم ، والمورثة مستعار لأهل الاستحقاق ، لأن

(٤٨) البيضاوى : ٤٩٨ •

(٤٩) حاشية الشهاب : ١٩/٧ •

(٥٠) التحرير والتنوير : ١٤٦/١٩ •

الموارث ينتقل اليه ملك الشيء الموروث بمجرد موت المالك السابق ،
ولما لم يكن الجنة مالكون تعين أن يكون الوارثون المستحقين من وقت
تبرؤ أهل الجنة الجنة (٥١) •

والتعبير بذلك مشعر باستحقاقهم وتملكهم الدائم لها ، إذ الارث
من أقوى أسباب الملك • وهذا لا ينافي تفضل الله تعالى عليهم بها • وفي
قوله « من ورثة » دون « وارثا » هضم لنفسه وتواضع جم ، حيث دعا
أن يكون من هؤلاء الورثة مع ما له من الزلفى عند الله تعالى • وتقييد
الجنة بالنعيم دلالة على أنها جنة خاصة تكثر فيها الفيوضات الإنيية ،
وتتم فيها النعم الربانية ، إذ الجنة درجات ومراتب •

والخامس : « واغفر لأبى انه كان من الضالين » وطلب المغفرة
يجوز أن يكون على حقيقته ، ويذكر ذلك قبل أن يبين له أنه عذر الله
كما في الآية الكريمة « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة
بوعدها اياه فلما تبين له أنه عذر الله تبرأ منه » (٥٢) • ويجوز أن يكون
تكنية عن سبب العفران ، وهو التوبة والهداية ، أى وثقه للتوبة التي
يهدى بها مغفرتك ، وعال هذا الطلب بكرمه من الضالين طريق الحق (٥٣) •
وتأكيد التعليل التقريية مضمونة ، وربطه بما قبله عن طريق الاستئناف
اللياني المؤكد ، وهذا سر الفصل بينه وبين ما قبله • و « كان » تشعر
بقدمه في هذا الوصف وثبوته فيه • وفي قوله « من الضالين » دون
أن يقول : ضالا ، دلالة على حسن أدبه مع أبيه رغم ضلاله ، فلم
يصفه بالضلال مباشرة ، ولكن جعله من جماعة ضالين •

والتعبير باسم الفاعل مشير الى ثبوتهم في هذا الوصف

(٥١) السابق •

(٥٢) أبو السعود : ٢٥٠/٦ •

(٥٣) السابق : ٢٥١/٦ •

وأستتارهم فيه وهو معهم • وترك تقييده بمتعلق أو وصفهم بالضلال على الإطلاق ، مع أفادة العموم والشمول ، فهم ضالون عن كل حق وهداية ونفع •

والسادس : « ولا تخزنى يوم يبعثون » طلب من الله تعالى ألا يعرضه لما يخزيه ويهينه ويكسر خاطره يوم البعث • والتعبير بالخزى مع إطلاقه عن القيد بفيد العموم والشمول لئلا ما يسبب له تأثيرا لا يرضاه ، فهو يرجو ربه ألا يعرضه لأى شىء يتسبب عنه مساسا به • والضمير فى « يبعثون » للناس كافة ، والإضمار قبل الذكر لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه (٥٤) •

وتخصيص البعث بالذكر دون سائر ما يقع فى هذا اليوم اثبات للحقيقة التى ينكرها قومه وهى بعثهم بعد موتهم ، ولعن هذا هو السر فى إيقاع البعث على جميع الناس بما فىهم قومه ، دون أن يوقعه على نفسه فيقول : يوم أبعث ، كما أن البعث مقدمة يترتب عليه ما يحدث بعد ذلك من حشر وحساب وثواب وعقاب •

والتعبير بالمضارع لما أن يوم البعث سيقع مستقبلا فى الوقت الذى حدده الله تعالى له ، بجانب ما فى ذلك من محافظة على الفواصل بمجيئها على نمط واحد مختومة بالنون •

وزاد هذا اليوم تهريلا بذكر ما ينفع الناس فيه وما لا ينفعهم « يوم لا ينفع دأب ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » • والجملة بدل من « يوم يبعثون » قصد به اظهار أن الالتجاء فى ذلك اليوم الى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس فى الدنيا من أسباب الدفع

عن أنفسهم (٥٥) • وفي ذلك تذكير لقرمه بأن أصنامهم التي يعبدونها من د ن الله تعالى لا تنفعهم ولا تغني عنهم من عذاب الله شيئاً •

والفصل بين هذه الجملة وما قبلها لتكمال الانصاف • وإيثار « ينفع » على يغني أو يشفع ونحو ذلك لعموم النفع وتناوله لكل ما يحقق نفعاً بأي وجه من الوجوه ، فنفي النفع يعني نفي كل ذلك • ويتخصيص المال والبنين بالذكر مع عدم نفع أشياء كثيرة غيرهما ، لانهما معتقد الناس في دنياهم ، ومستندتهم ومجال خرمهم ، وهما زينة الحياه الدنيا كما قال جن شأنه « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٥٦) • وفيه إشارة الى أن ابراهيم عليه السلام حين حرم من نعمة البنين فان ذلك لا يضره شيئاً ، ولا ينقص من قدره عند الله تعالى ، فهذا مما لا نفع له ولا اعتداد به في موازين الرحمن جل شأنه • وتذكيرهما التعظيم والتكثير أى لا نفع لهما مهما كانت عظمتها وكثرتهما وشأنهما بين الناس •

والاستثناء في قوله تعالى « الا من أتى الله بقنب سليم » فيه كلام كثير للعلماء ، والراجح أنه استثناء من مفعول « ينفع » أى يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر أحداً الا أحداً أتى الله بقلب سليم (٥٧) •

وسلامة القلب تعنى السلامة المعنوية ، وهى خلوصه من الكفر والنفاق والأمراض القلبية على العموم ولعل هذا هو السر في اطلاق « سليم » عن القيود • وهذه السلامة مجازية في مقاباة المرض

(٥٥) التحرير والتنوير : ١٤٧/١٩ •

(٥٦) الكهف : ٤٦ •

(٥٧) التحرير والتنوير : ١٤٨/١٩ ، وينظر الكشاف ١١٧/٨ ،

وأبو السعود ٢٥١/٦ •

المجازى المذكور في قوله تعالى : « في قلوبهم مرض » (٥٨) • وفي صيغة « فعيل » مبالغة في وصف القلب بالسلامة ، وتمكّده من ذلك • وسلامة القلب من العقائد الباطلة تبعث صاحبه على الأعمال الصالحة ، ومن ثم اقتصر في التعبير على سلامة القلب ، لأن سلامته تعنى صلاح صاحبه • وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (٥٩) •

ونتأمل الدعوات السابقة فنراها رتبت ترتيبا دقيقا ، حيث بدئت بما يكون في حياته ، ثم بما يكون بعد مماته ثم بما يكون في الآخرة • فطلب من الله تعالى الحكمة ليتحقق له بذلك الكمال العلمى ، تلا ذلك طلب الصلاح ليتحقق له بذلك الكمال العلمى ، ثم سأل بقاء ذكر حسن له بعد موته في الأمم التالية ، ثم دعا الله أن يدخله جنات النعيم في الآخرة • ولما دعا لنفسه تضرع الى الله تعالى أن يغفر لأبيه ، وأن يجنبه كل ما يسبب له خزيا بين الناس يوم القيامة •

وقد جاءت الدعوات موصولة للتوسط بين الكمالين حيث تتحدد جملها في الانشائية مع تمام التناسب • وزاد الوصل حسنا أن بدئت الجمل بأفعال أمر ونهى على سبيل الدعاء ، وتوالت أفعال الأمر ، وجاء النداء الأخير في صورة النهى • وقد أدى هذا الى التناسق التام •

ووقف جار الله الزمخشري أمام آيات هذه الحلقة مبينا حسن ترتيبها فقال : وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا يستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر

(٥٨) البقرة : ١٠ •

(٥٩) صحيح البخارى : ١٩/١ •

ولا تسمع ، وعلى تقليد آباؤهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون
شبهة فضلا أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى
تتخلص منها الى ذكر الله عز و علا فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن
خلقه وانشائه الى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم
أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهاجا
الأوابين (٦٠) •

الحلقة الثالثة

وإن من شيعته لإبراهيم

قال الله تعالى :

« وإن من شيعته لإبراهيم • إذ جاء ربه بقلب سليم • إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون • أفكأ آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب العالمين • فنظر نظرة في المجوم • فقال إني سقيم • فتولوا عنه مدبرين • فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون • ما لكم لا تنطقون • فراغ عليهم ضرباً باليمين • فأقبلوا إليه يرفهين • قال أتعبدون ما تتحدثون • والله خلقكم وما تعملون • قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم • فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين • وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين • رب هب لي من الصالحين • فبشرناه بغلام حليم • فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين • فلما أسلما وتله لجبين • وناديناه أن يا إبراهيم • قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين • إن هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه في الآخرين • سلام على إبراهيم • كذلك نجزي المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين • وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لننسه مبین • ﴿١﴾

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الصافات ، وهي تشتمل على حلفتين من قصة إبراهيم عليه السلام الأولى تحكي دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى

(١) الصافات : ٨٣ - ١١٣ •

(٦ - خصائص النظم)

وتكسيه لأصنامهم ، والقائه في النار ، والثانية تحكى تبشيره
باسماعيل عليه السلام وحادث الابتلاء المبين والفداء العظيم ، وقد
أدمجت الحاقتان في نسق واحد على نمط فريد .

وتأتى هذه الحلقة ثالثة الحقائق التى تناولت موضوع الدعوة
الى الله وإبطال عبادة الأصنام .

وتبدأ سورة الصافات باقسام من الله تعالى بالملائكة على
وحدانيته سبحانه ، ذاكرة بعض الأدلة على ذلك ، من ربوبيته تعالى
للسموات والأرض وما بينهما ، وترينه السماء الدنيا بالكواكب ،
وجعلها رجوما للشياطين .

وتنتقل الى الحديث عن المشركين وسخرينهم من آيات الله تعالى،
وقولهم أنها سحر مبين ، وانكارهم لعقيدة البعث « إذا متنا وكنا
ترابا وعظاما أئنا لبعثون . أو أبأؤنا الأولين » (٢) . ويوجه
الرسول ﷺ الى الرد عليهم « قل نعم وأنتم دائرون » (٣) .

وتعرض مشهدا لبعث الظالمين وحشرهم وما كانوا يعبدون ،
وحسابهم على ما قدمت أيديهم ، وخذلانهم وعدم قدرتهم على
التناصر ، واتهام بعضهم لبعض بأنهم اتسبب في هذا المصير المهين ،
وتجفأهم في ذلك ، وانتهائهم الى العذاب الأليم يذوقونه جزاء
بما كانوا يعملون .

ثم يعرض مشهد لعباد الله المخلصين وما أعد الله لهم من جنات
النعيم فيها من ألوان الرزق العميم وصفوف التنعيم والتكريم ، ومن
ذلك تسليهم بالحديث وتساؤلهم عن قرنائهم الذين ظلوا في كفرهم

(٣) الصافات : ١٨ .

(٢) الصافات : ١٦ ، ١٧ .

سادرين ، واطلاعتهم عليهم وهم يعذبون في الجحيم ، واعترافهم لهم
بنعمة الله تعالى عليهم ، وذلك الفوز العظيم •

ويقارن بين نعيم المؤمنين وبين عذاب الكافرين ، حيث طعامهم
الزقوم ، وشرابهم الحميم ، ومرجعهم الى الجحيم ، اذ قلدوا آباءهم
في ضلالهم ، وهرعوا على آثارهم •

وتتخلص الآيات بذلك الى ضلال أكثر الأولين ، وارسال الرسل
اليهم منذرين ، وعقاب المكذبين ونجاة المخلصين ، وتبدأ بذكر قصة
نوح عليه السلام مع قومه باعتباره أبا البشرية الثانية بعد آدم عليهما
السلام ، ولكونه أول الرسل أولى العزم ، فتأتى على قصته في ايجاز
بديع ، وكأنما تمهد بذلك لتفصيل قصة ابراهيم عليه السلام مع قومه ،
فوى أشد لصوقا بالعرب ، وأوعظ لهم ، لما بينهم وبين ابراهيم من
صلة الدم والنسب •

البداية :

تبدأ الحاققة بداية موصولة بقصة نوح عليه السلام « وان من
شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم » وهذا تخلص بديع الى
قصة ابراهيم عليه السلام • فابراهيم من شيعه نوح على تباعد
الزمان بين الرسولين والرسالتين ، نظرا لما بينهما من صلة العقيدة
والدعوة والطريق ، فالنهج الالهي الواحد الذي يلتقيان عنده
ويرتبطان به ويشتركان فيه (٤) •

وقد أفاد هذا التخلص تأكيد الثناء على نوح وابتداء الثناء على
ابراهيم عليهما السلام ، وتخليد منقبة لنوح أن كان ابراهيم الرسول
العظيم من شيعته وفاديك به (٥) • وتأكيد الخبر بان اللام
تتحقق ضمنونه ، وتأكيد مخالفة ملة ابراهيم عليه السلام لما عليه

المشركون الذين يزعمون أنهم على ملته ، وفي « من » أشعار بأن شيعية نوح عليه السلام تشمل كثيرين من الأنبياء والمرسلين والصالحين ، وإبراهيم عليه السلام منهم •

والشيعية : الأعوان والأنصار ، وأصله « شيع » وهو يدل على معاضدة ومساندة ، كما يشعر بتأخر ولحاق ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع (٦) • وعلى هذا فالتعبير بالشيعية دون الأعوان والأنصار يشعر بالاشتراك في الفكر والرأى والاتجاه دون اتحاد المكان والزمان ، بخلاف الأعوان والأنصار حيث يشعران بالمعاضدة المادية واتحاد الزمان والمكان • وفي تقديم المسند « من شيعته » على المسند إليه « إبراهيم » اهتمام بالمقدم ، وتشويق إلى المؤخر ، مع رعاية حق الفواصل من التناسب •

و « إذ » ظرف للماضي ، متعلق بـ « شيعية » لما فيه من معنى المشايعة ، يعنى : وان ممن شايعه على دينه ، وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم ، أو متعلق بمحذوف تقديره اذكر كما هو المهود في نظائره (٧) • وفي « إذ » معنى التعليل لكونه من شيعته ، فان معنى التعليل غالب في استعمال « إذ » و « حيث » دون سائر الظروف (٨) • والياء للمصاحبة ، أى جاء معه قلب صفته السلامة ، وهو القلب الخالى من العلك والأمراض ، وإطلاق الوصف « سليم »

(٤) فى ظلال القرآن : ٢٩٩٢/٥ •

(٥) التحرير والتنوير : ١٣٦/٢٣ •

(٦) ينظر الصحاح ، ومقاييس اللغة مادة : شيع •

(٧) الكشف : ٣٤٤/٣ •

(٨) السابق : ٤٤٩٦/٣ • وينظر دراسات لاسلوب القرآن الكريم

متدبر الى سلامته من جميع الآفات القلبية كالشرك والذفاق والنيات
النسيئة والعجب والغرور والكبر والحقد والحسد وما أشبه ذلك .
وسلامة القلب تعنى سلامة صاحبه ، وإنما اقتصر على ذكر القلب لأنه
أساس هذه السلامة كما جاء في حديث الرسول ﷺ « ألا وإن في
الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله
ألا وهى القلب » (٩) . وتكثير « قلب » للنوعية والتفخيم ، وفي
وصفه بالسلامة تخصيص له وتفخيم لشأنه ، فهو مفخم بالتكثير
ويأتى وصف ، ومجئ الوصف على صيغة « فعيل » فيه مبالغة في بيان
خلوص القلب وسلامته ، والتعبير باسم الرب مضافا الى ضمير
ابراهيم عليه السلام مشعر بعناية المولى به ورعايته له ، مع تشريفه
وتكريمه .

وأصل التعبير : جاء ربه سليم القلب وايشار التعبير القرآنى
لما فيه من بيان أنه أخلص لله قلبه وعلم سبحانه ذلك الاخلاص منه .
وعلى هذا ففى التعبير القرآنى استعارة تمثيلية ، بأن تشبه الهيئة
المنترعة من اخلاص ابراهيم عليه السلام قلبه لربه تعالى وعلمه
سبحانه ذلك الاخلاص منه موجودا بالهيئة المنترعة من المجيء بالغائب
بمخضر من الشاهد ومعرفته اياه وعلمه بأحواله (١٠) .

ويمكن أن يكون في « جاء » استعارة نصريحية تبعية مبنية على
تشبيه اخلاصه قلبه لله تعالى بمجيئه اليه بتحفة في أنه فاز بما يستجلب
رضاه (١١) .

وتعليق كونه من شيعه نوح بحين مجيئه بقلب سليم كناية عن

(٩) البخارى : ١٩/١ .

(١٠) الكشاف : ٣٤٤/٣ . والالوسى : ١٢/٢٣/١٠٠ .

(١١) حاشية الشهاب ٢٧٥/٧ .

وصف نوح بسلامة القلب أيضا ، فحصل من قوله « وان من شيعته لابراهيم » اثبات مثل صفات نوح لابراهيم ، ومن قوله « اذ جاء ربه بقلب سليم » اثبات صفة مثل صفة ابراهيم انوح على طريق الكناية في الاثباتين (١٢) .

انكاره عبادة الأصنام :

وبعد بيان مجيء ابراهيم ربه بقلب سليم تبين الآيات أثرًا من آثار هذه السلامة ، حيث أنكروا على أبيه وقومه عبادتهم الأصنام . ودعاهم الى عبادة الله رب العالمين « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » يو « إذ » بدن من « إذ » الأولى ، أو ظرف نجا ، أو لسليم (١٣) ، وتخصيص أبيه بالذكر مع دخوله في القوم اهتمام بذكر قلبه لأبيه ، وتقديمه على القوم مشعر بأنه قال له ذلك قبل أن يقوله لقومه ، حيث دعا أباه أولا ثم اتجه بالدعوة الى القوم عامة وفيهم أبوه .

و « ما » استفهامية مبتدأ ، و « ذا » اسم اشارة أو موصول خبره ، والاستفهام للانكار التوبيخي ، أنكروا عليهم أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله تعالى ، ومشاهدته لأصنامهم ، اشارة اليها دليل على أن الاستفهام مراد به الانكار عليهم ، والتبكيك والتقريع لهم (١٤) . والتعبير بالمضارع « تعبدون » يصور حالتهم وتلبسهم بعبادة الأصنام واستمرارهم على ذلك .

وأتبع الانكار بانكار آخر دون انتظار لاجابتهم « أفكأ آلهة دون الله تريدون » . والهمزة للاستفهام و « أفكأ » مفعول له ،

(١٢) التحرير والتنوير : ١٣٨/٢٣ .

(١٣) أبو السعود : ١٩٧/٧ .

(١٤) ينظر : درة التنزيل ٣٣١ . وملاك التأويل ٤٧٦/٢ .

والتقدير : أتريدون آلهة من دون الله إفاكا • وتقديم المفعول « آلهة » على الفعل للعناية والاهتمام لأن إنكاره هو المقصود • وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفاك وباطل في شركهم • ويجوز أن يكون « إفاكا » مفعولا به بمعنى أتريدون إفاكا ، وتكون « آلهة » بدلا منه بدل كل من كل ، عني أنها عين الإفاك فهي أفك في نفسها • ويجوز أن يكون حالا من ضمير « تريدون » أي أتريدون آلهة من دون الله أفكين ، أو حالا من آلهة أي : آلهة مأفوكة مكذوبة (١٥) • وفي تقديم الحال على صاحبها اهتمام بتعجيل وصفهم بالإفك والضلال •

وأيثار اسم الجلالة « الله » على غيره لما فيه من تفخيم وترهيب وتصريح بالألوهية في مقام يقتضى ذلك ، حيث اتخذوا آلهة مكذوبة على سبيل الأفك والبهتان • وإرادة الشيء : ابتغاؤه والعزم على تحصيله ، والتعبير بالإرادة مشعر برغبتهم في عبادة هذا الأفك من دون الله تعالى ، واختيارهم طريق الضلال •

وفرع على الاستفهام الإنكارى استفهام إنكارى ثالث «فما ظنكم برب العالمين» أي فما ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رب العالمين، حتى تركتم عبادته ، وأشركتم به غيره (١٦) • وما هو تصوركم لله — عز وجل — وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذى تنكروه المظفرة لأول وهلة (١٧) • وقال الرازى فيه وجهان . أحدهما : أنظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات شراكة له في العبودية • وثانيهما : أنظنون برب العالمين أنه من جنس هذه

(١٥) الكشف : ٣/ ٣٤٤ ، والالوسى : ١٢/ ٢٣/ ١٠٠ •

(١٦) البيضاوى ٥٨٧ •

(١٧) فى ظلال القرآن : ٥/ ٢٩٩٢ •

الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في العبودية ، فذبهم بذلك على أنه ليس كمثلته شيء (١٨) •

والمراد بالظن الاعتقاد الخاطئ الذي هم عليه ، وسمى ظنا لأنه مخالف للحقيقة ، وفي تسميته ظنا مبالغة في الإنكار عليهم ، حيث أنكز ما يوجب ظنا فضلا عن قطع يصد عن عبادته ، أو يجوز الأثراك به ، أو يقتضى الأمن من عقابه (١٩) •

وفي التعبير برب العالمين تهويل لجريمتهم • وتشنيع لخطأ معتقدهم ، إذ هو خطأ في حق رب العالمين ، الربنى لهم ، والمهتم بأمرهم • والاضهار في موضع الاضمار لبيان شدة خطئهم ، وعظم ضلالهم •

وهكذا توالت الاستنكارات العنيفة من ابراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، دون انتظار لردودهم فهو غير طالب لها لأنها معروغة لديه وفي طي ردودهم عليه ايجاز بديع في القصة القرآنية وهو يشير الى كبتهم وعدم قدرتهم على النطق في مواجهة تقاريعه النازلة عليهم نزول الصواعق ، ويشعر بضيق صدره من تماديهم في الكفر والضلال ، ونفاد صبره عن سماع جوابهم ، بجانب ما فيه من اهتمام بذكر مواطن العظة والعبرة في القصة دون سرد دقائقها وتفصيلها •

تدبير وتدبير :

ويمضى اللفظ القرآنى طاويا حوارهم معه الى ذكر تدبير ابراهيم عليه السلام للقضاء على أصنامهم ، ليقوم بذلك الحجة على

• (١٨) الرازى ١٤٤/٧

• (١٩) البيضاوى ٥٨٧

ضلالهم ، بعد أن ثبت لديه عنادهم واصرارهم على الكفر والضلال .
 « فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم » .
 والفاء لعطف مشهود على مشهود سابق نظرا لما في السياق من ايجاز ،
 وهى نشعر بترتب تفكره في هيئة للانتقام منهم على استنكاره
 لمعتقداتهم وضيقه بعنادهم ، والتعقيب فيها منظور اليه باعتبار توالى
 الأحداث المذكورة وتتابعها دون نظر انى ما بينها من أحداث مطوية ،
 فهو تعقيب نسبي .

وقوله « فنظر نظرة في النجوم » أى قلب نظره في السماء متفكرا
 في جوابهم ، حيث دعوه للخروج الى عيدهم ، وهديرا أمرا يستطيع
 به الكيد لأصنامهم . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في
 النجوم ، يعنى بذلك : أنه نظر الى السماء متفكرا فيما يلهيهم به (٢٠) .
 ونقل القرطبي عن الخليل والمبرد قولهم : يقال للرجل اذا فكّر في
 الشئ يدبره نظر في النجوم (٢١) .

ونظره الى السماء ونجومها جعلهم يصدقون خبره بأنه سقيم ،
 حيث توهموا أن النجوم دلته على ذلك حسب معتقداتهم الباطلة .
 وهذا من معاريف الأفعان وهو نظير ما وقع في قصة يوسف عليه
 السلام من تفتيش أوعية اخوته بنى علاقته قبل وعاء شقيقه ، فان
 المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أن الصاع ليس فيها ، وأخر تفتيش وعاء
 أخيه مع علمه بأنه فيها تعريضا بأنه لا يعرف في أى وعاء هو ، ونفيا
 للثمة عنه لو بدأ بوعاء الأخر (٢٢) .

واسم المرة « نظرة » مشعور بقله مدة نظره ، حيث ألهمه الله

(٢٠) ابن كثير : ١٣/٤ .

(٢١) القرطبي : ٥٥٣٦/٧ .

(٢٢) الألوسى : ١٠١/٢٣/١٢ .

تعالى على الفجر ما يعتذر به قومسه ، وما يعينه على تنفيذ ما عزم عليه .

والفاء في قوله « فقال انى سقيم » تدل على ترتب القول على النظر . وعلى حدوده عقبيه ، اذ جاءته لفكرة اثر النظر الى السماء . وتأكيد الخبر لتحقيق مضمونه في مقام يحتاج الى ذلك ، فالمخاطبون ماضون لدعوته ، ومعرضون عن اخباره وآرائه .

وكان للقوم عيد يخرجون فيه الى الخلوات بعد أن يضعوا الطعام بين يدي آلهتهم لتباركها ، ثم يعودون بعد المرح غياخذون طعامهم المبارك ، وان ابراهيم عليه السلام بعد أن ينس من استجاباتهم له وأيقن بانحراف فطرتهم ، اعتزم تكسير أصنامهم ، وانتظر هذا اليوم الذى يعودون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم ، وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه ، فلما دعى الى الخروج معهم قلب نظره في السماء متفكرا وقال انى سقيم ، لا طاقة لى بالخروج معكم (٢٣) . فاعتذر لهم بذلك لئيمه من تنفيذ ما عزم عليه عندما يخلو المكان وينفرد بأصنامهم .

وقوله : « انى سقيم » من المعاريض في الكلام المقصد شرعى دينى كما جاء في الحديث « ان في المعاريض اندوحة عن الكذب » ويمكن أن يكون المقصد انى سقيم القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى (٢٤) . وعلى هذا يكون الكلام من قبيل التشبيه يجعل سقم القلب مرضا ، أو هو مجاز باستعماله في لازمه وهو الخروج عن حد الاعتدال ، فان الاعتدال الحقيقى غير موجود (٢٥) . والخطب

(٢٣) فى ظلال القرآن : ٢٩٩٢/٥

(٢٤) ابن كثير : ١٣/٤

(٢٥) حاشية الشهاب : ٢٧٦/٧

في هذا سهل ، وإن كان المفسرون أجهدوا أنفسهم في تخريجه . فمثل هذا القول شائع على ألسنة الناس ، فيقول أحدهم اني متعب ، وانى مرهق ونحو ذلك ولا يعد هذا كذبا ولا خروجا عن الحقيقة . وقد قال ابراهيم ذلك معبرا عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليتركوه وشأنه ، ولم يكن هذا كذبا منه ، انما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم ، وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه (٢٦) .

وعلم القوم من خبر ابراهيم عليه السلام أنه لن يستطيع الخروج معهم « فتركوا عنه مدبرين » أي أداروا له ظهورهم وأسرعوا الى عيدهم دون تأمل في كلامه وحالته . فهم مشغولون بفرحتهم وسرورهم . والتولى : الاعراض والمفارقة ، و « مدبرين » حال مؤكده ، وهو من التوكيد الملازم لفعل التولى غالبا لدفع توهم أنه تولى مخالفة وكراهة دون انتقال (٢٧) . وفي التعبير بالتولى والادبار اشعار بما تنطوى عليه نفوس القوم من عدم مبالاة به واهتمام بأحواله ، وبذهابهم بعيدا عنه الى حيث يستمتعون بعيدهم .

وتأكد ابراهيم عليه السلام من تولى القوم وخلو الجوى له « فراغ الى آهتهم فقد ألا تأكلون » . أي ذهب الى آهتهم في خفية وسرعة ، وأمامها ما تركوه من طعام غقال لهم على سبيل الاستهزاء والتهم « ألا تأكلون » . والفاء تحل على أن ذهابه اليها عقيب تولىهم مدبرين . حيث سنحت له الفرصة للخلو بها . والروغ : أنين على سبيل الاحتياك . ومنه راغ الثعلب يروغ روغانا . وراغ فلان الى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتياك (٢٨) . فاستعماله

(٢٦) في ظلال القرآن : ٢٩٩٣/٥ .

(٢٧) التحرير والتنوير : ١٤٢/٢٣ .

(٢٨) المفردات : ٢٠٨ .

في الذهاب في خفية وسرعة على سبيل الاستعارة ، لما أن المتخفى يميل إلى جانب عادة ليتم له الاختفاء والتلبس • وتسمية أصنامهم آلهة فيه مراعاة لمعتقدهم فيها ، وتسميتهم لها ، وهذا منه على سبيل الاستهزاء والتحقير لها ، وفي اضافتها الى ضميرهم الإشارة الى ذلك فهي آلهتهم المزعومة وهم أصحابها ، وليست آلهة لجميع الناس •
والهمزة في « الا تأكلون » للعرض على سبيل الاستهزاء والتهكم ، حيث عرض على آلهتهم الادل مع علمه بانها لا تستطيع ذلك ولا تقدر عليه • ويمكن أن تكون للانكار ، بأن أنكر عليهم عدم الأكل من الطعام الشهي الذي وضعه القوم أمامهم • وفي الانكار توبيخ لهم وتعجيب من شأنهم •

ولم يسمع من الأصنام جوابا كما هو معلوم له ، فاستمر في تهكمه بها واستخفافه بشأنها ، وتعجيبه من عجزها « مالكم لا تنطقون » • وتهكمه المتوالى بالأصنام يشعر بشدة غيظة منها • فهو يشفي غليله بمزيد من الاستخفاف بها قبل أن يقوم بتحطيمها ، بجانب ما في ذلك من شحذ همته وتقوية عزيمته على تنفيذ ما خطط له •
وانتعبير بالنطق دون الجواب لما أن في عدم نطقهم نفي لجوابهم وزيادة • وعدم تقييد الأكل والنطق بالمفعول للقصد الى ذات الفعل ونفيه نفيًا عاما ، مبالغة في نفي قدرتها على ذلك • واستعمال ضمير العقلاء في مخاطبة الأصنام مبنى على تسميتها آلهة وهعامتها معاملة عدتها ، امعانا في الاستهزاء بها من حيث ان القول مخالف للاعتقاد والحقيقة •

ولم تجب الأصنام ابراهيم عليه السلام ، وألهمه عجزها القام على الانتقام منها بالفعل بعد أن سخر منها بالقول « فراغ عليهم ضربا باليمين » أي مال مستعليا عليهم ضاربا باليمين ، فضربا منصوب

على الحائية من ضمير « فراغ » (٢٩) • والفاء تشير الى حدوث الضرب والتكسير عقب استفهامه التوكمي دون تراخ في ذلك ، وتقيد انضرب باليمين كناية عن شدته وقوته ، لأن اليمين أقوى الجارحين ، أشدهما عادة ، وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته ، ومن ثم جعلهم جذابا كما في سورة الأنبياء ، ويجوز أن تكون اليمين مجازا عن القوة (٣٠) •

وأيثار التعبير القرآني على أن يقال : فضربهم باليمين ، لما في اليروغان من دلالة على الميل في جوانب مختلفة ، فيشعر التعبير به بأنه أخذ في ضربهم على مختلف الجوانب والجهات حتى قضى عليهم • مع ما في التعبير القرآني من جزالة وفخامة لا تتأتى في سواه • ولفظ الاستعلاء « عليهم » مشعر بتمكثه منهم وتفوقه عليهم ، فلم يحركوا تجاهه ساكنا ، ولم يستطيعوا دفع شيء من الضرب الشديد النازل عليهم •

هواجهة وانتقام :

حطم ابراهيم عليه السلام الأصنام مبقيا على كبيرها ، وجاء القوم فرأوا ما فعل بأصنامهم ، وتساءلوا عن الفاعل ، ووجهوا أصابع الاتهام الى ابراهيم ، وأمر كبارؤهم باحضاره أمنم الناس ليشهدوا ما كان وما يكون • ويطوى السياق كل هذا في ايجاز بديع ليعرض علينا أسرعهم اليه لاحتضاره « فأقبلوا اليه يرفون » • وفي طي ما سبق إشارة الى تيقنهم من أن الفاعل هو ابراهيم عليه السلام ، ومن ثم أسرعوا اليه على الفور وبمجرد وعرفهم على ما جرى

(٢٩) أبو السعود : ١٩٨/٧ •

(٣٠) دظن • المسألة ١١

لأصنامهم • قبل أن يحققوا في الحادث • والفناء نشعر بالعمورية وتدلل على التعقيب ، وهو هذا تعقيب نسبي منظور فيه الى نتائج ما ذكر من أحداث • والتعبير بـ « أقبلوا » يشير الى تدافعهم نحوه ، ويتسقى مع ما سبق من ادبارهم عنه في قوله تعالى « فتولوا عنه مدبرين » لقد أدبروا عنه منذ قليل ذاهبين الى لهوهم ، وهاهم يقبلون عنه في غضب وهياج مما فعله بأصنامهم • و « يزفون » حال من فاعل أقبلوا ، أى يسرعون ، وأصل الزفيف في هبوب الرياح ، وسرعة النعام التي تخطط الطيران بالمشى ، وزفzf النعام أسرع (٣١) • ولهذا الفعل دلالة صوتية فالتعبير به يشير الى ما في اسراعهم من جلبة وضجيج ، وما هم عليه من غضب وهياج •

وأثنا بابراهيم عليه السلام على أعين الناس ، ودار من الحوار بينهم وبينه ما دار ، مما هو مفصل في سورة الأنبياء • ويضم هذا في سياق الحلقة ، ويظهر توبيخ ابراهيم لهم وابطالهم بالحنة العقلية « قال أتعبدون ما تتحتون والله خالقكم وما تعملون » • وفي اضمار ما دار من حوار مسارعة الى بيان قوة ابراهيم عليه السلام وشجاعته في اعلان الحق ، وعدم خوفه منهم حيث قابلهم بالحنة الدامغة على بطلان عبادتهم في أسلوب توبيخي تقريعي •

والفصل بين « قال » وما قبلها للاستئناف البياني ، لأن اقبال القوم الى ابراهيم بحانة تندر بحنقهم واردة البطش به يشير في نفس السامع تساؤلا عن حال ابراهيم في تلقيه بأولئك وهو فاقد للنصير معرض النكال وجاء « قال أتعبدون ما تتحتون » جوابا عن هذا السؤال (٣٢) •

(٣١) المفردات : ٢١٣ •

(٣٢) التحرير والتنوير : ١٠٤ / ٢٣ •

والاستفهام للانكار التوبيخى . بمعنى لا ينبغي أن يكون ذلك منكم ، وفيه حث لهم على الرجوع الى أنفسهم ، والتفكير فيها هم عليه من ضلال ، وعند ذلك يخطبون مما يرتكبون ، ويستحقون مما يفعلون ، ويثوبون الى رشدهم ، والمضارع « تعبدون » يسور حالهم في عبادتهم الباطلة ، واستمرارهم عليها .

والنحت : تسوية الشئ ونجده على شكل مقصود (٣٣) . و « ما » موصولة ، والعائد محذوف أى الذى تحتونه ، والتعبير بـ « ما تحتون » دون أتعدون الأصنام ، فيه تحقير لشيئانها بابهامها وعدم ذكرها باسمها الصريح . واشعار بعلّة الانكار والتوبيخ حيث يعبدون ما ينحتونه ويصورونه بأيديهم .

وبجانب ذلك فهو مدار الاستدلال على بطلان عبادتهم ، ووجه الاستدلال أن الخشب والحجر قبل النحت والأصلاح ما كان معبودا ثلاثان ألبتة ، فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبودا عند ذلك لكان معناد أن الشئ الذى ما كان معبودا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك . وفساد ذلك معلوم ببديهية العقل (٣٤) .

والواو في قوله « والله خافكم وما تعبدون » واو الحال ، والجملة حال من فاعل تعبدون وهى مؤكدة لانكار والتوبيخ ، ومفيدة للتعجب من أمرهم ، حيث يعبدون ما ينحتون ولا يعبدون الله الذى خلقهم وخلق ما يعملون .

وتقديم المسند اليه على خبره الفعلى يفيد التخصيص ، فالله خلقهم وما يعملون لا غيره ، والمراد بما يعملون ما ينحتون ، والتعبير

(٣٣) ينظر مقاييس اللغة مادة : نحت .

(٣٤) الرازى ١٤٦/٧ .

بالعمل لافادة العموم والشمول ، فاشه تعالى خلقهم وخلق سائر
أعمالهم ، فيدخل في ذلك نحتهم للأصنام .

والتعرض لخلقهم أولاً مع كَوْن الكلام في عبادتهم ما ينحتون
لاظهار قدرة الله تعالى واثبات عجزهم ، فليس لهم من الأمر شيء اذا
هم وما يعبدون من خلق الله تعالى . ومك له جن شأنه ، فكيفة
يعرضون عن عبادته .

ولما أورد عليهم ابراهيم هذه الحجة القوية التي تبطل عبادتهم
وتلزّمهم بعبادة الله تعالى خالقهم وخالق أعمالهم ، وبهتوا فلم يقدرُوا
على جوابه بمثل حجته ، عدلوا الى سبيل الايذاء ونهج العدوان
والانتقام « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » .

انه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة سواء ، عندما
تعوزهم الحجة . وينقصهم الدليل ، حينما تخرجهم كذمة الحق
الخالصة ذات السلطان المبين (٣٥) .

والفصل بين « قالوا ... » وما قبلها للاستئناف البياني ،
فهى بمثابة جواب عن سؤال مقدر ، وهذا ما درج عليه القرآن
الكريم في حكاية المحاورات وذلك نهج مسلوک في البيان العربى .

والقائلون كبر القوم كما عليه المفسرون ، والتعبير عنهم
بضمير الجمع وعدم تسميتهم فيه افعال لشأنهم وتحقير لهم ، كما
أن فيه اشعارا بكثرتهم واجماع القوم على ذلك . و « بنيانا »
مفعول « ابنوا » وتقديم الجان والمجرور « له » عليه مشعر
بالتحخيص ، أى ابنوا بنيانا خاصا به ليعذب فيه . وفى الأمر بالبناء

مع تخصيص البنيان به يشير الى شدة كيدهم منه ، واستعدادهم
لفعل كل شاق في سبيل الانتقام منه .

والجحيم : النار الشديدة الاتقاد ، وكل نار عظيمة في مهواة
فهى جحيم (٣٦) . واللام عوض على المضاف اليه ، أو للعهد ،
والمراد جحيم ذلك البنيان التى هى فيه (٣٧) . والشاء مشعرة
بالتعقيب والمسارة بالقائه . و « فى » دالة على كون الالتقاء فى
داخل الجحيم ومعظمه لا فى طرف منه ، وهذا من تشديدهم فى
الانتقام منه .

ويطوى السياق مشهد بنائهم لبنيان ، والقائه فى الجحيم ،
وما حدث له بعد ، ليوجز كل ذلك ونتيجته فى جملتين « فأرادوا به
كيدا فجأناهم الأسفاين وقد تحدثنا عن نظير هذه الآية فى حلقة سورة
الأنبياء التالية ، وقد عبر فيها بـ « الأخسرين » وعبر هنا
بـ « الأسفلين » والأسفل هو المغلوب لأن الغالب يتخيل معتليا على
المغلوب ، فهى استعارة للمغلوب (٣٨) .

الهجرة والبشرى :

ولما نجى الله ابراهيم عليه السلام من الجحيم الذى ألقوه
فيه ، ورأى أن قومه مصرى على كفرهم ولن تؤثر فيهم دعوة الى
الله تعالى ، عزم على الخروج من بلده الى حيث يتمكن من عبادة
الله تعالى « وقال انى ذاهب انى ربى سيهدين » . أى مهاجر الى
حيث أمرنى ربى ، أو الى حيث أتجد فيه لعبادة ربى بعيديا عن

(٣٦) الصحاح . مادة : ججم .

(٣٧) الألوسى : ٢٦/٢٣/١٢ .

(٣٨) التحرير والتنوير : ١٤٦/٢٣ .

(٧ - خصائص النظم)

موطن الفتنة (٣٩) • جعل الذهاب الى المكان الذي أمره ربه بالذهاب اليه ذهبا اليه ، وكذا الذهاب الى مكان يعبد فيه (٤٠) • وهذا مشعر بأن مقصوده بالذهاب ليس هو المكان ، وإنما المقصد الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ومن ثم لم يحدد المكان الذي سيذهب اليه ، لأن الله تعالى موجود في كل مكان ، فحيثما ذهب وتمكن من عبادة ربه فهذا هو المقصد •

وتأكيد الجملة بان لتحقيق مضمونها لدى قومه ، ومهاجرة الانسان عن وطنه من الأمور الصعبة على النفس الغريبة عن العادة فتحتاج الى تأكيد • والمراد بالذهاب المهاجرة ، والتعبير باسم الفاعل « ذاهب » مشعر بتصميمه على الذهاب الى ربه وأخذه في ذلك دون تردد أو تراجع •

وفي اسم الرب المضاف الى ضميره اشارة الى أنه لن يكون وحيداً أو غريباً في مهاجرة ، فهو ذاهب الى من ربه ويتولى أمره ، ويعنى بمصالحه •

وقوله « سيهدين » بيان لسبب هجرته الى ربه ، أى سيرشدني الى ما فيه صلاحى في دينى ودنياى (٤١) • والسين لتأكيد الوقوع في المستقبل ، لأنها في مقابلة نفى لن المؤكدة للنفى (٤٢) • وبت القول بذلك لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، أو للبناء على عاداته تعالى معه ، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال « عسى ربي أن يهدينى سواء السبيل » (٤٣) ولذلك أتى بصيغة التوقع (٤٤) •

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| • (٤٠) حاشية الشهاب ٢٧٨/٧ | • (٣٩) أبو السعود : ١٩٩/٧ |
| • (٤٢) حاشية الشهاب ٢٧٨/٧ | • (٤١) البضاوى : ٥٨٨ |
| • (٤٤) أبو السعود ١٩٩/٧ | • (٤٣) القصص : ٢٢ |

ولما كان إبراهيم عليه السلام في هذه اللحظة وحيدا لا عتب له ، وهو يترك وراءه أوامر الأهل والقربى والصحة والمعرفة ناسب ذلك أن يتوجه الى ربه الذى أعلن أنه ذاهب اليه يسأله الذرية الصالحة والخاف المؤمن (٤٥) « رب هب لى من الصالحين » • أى رب هب لى ولدا من الصالحين ، وحذف مفعول « هب » لدلالة الهبة عليه ، فأنها فى القرآن وكلام العرب غلب استعمالها مع انعقلاء فى الأولاد (٤٦) • ولدلالة البشرى بالغلām بعد ذلك عليه وفى حذف المفعول اطلاق للهبة المطلوبة دون تحديدها بعدد معين ، فهى من فضل الله تعالى الذى لا يحده ولا يعد •

وفى حذف حرف النداء اشعار بقربه من ربه عز وجل ، واىثار اسم الرب لما فيه من اىحاء بالتربية والرحمة والعناية ، وهذا ادعى لأن يجيب طلبه والتعبير بالهبة مشير الى أنها نعمة مسداة من الله دون مقابل • ووصفه بأنه من الصالحين لأن نعمة الولد لا تكتمل الا اذا كان صالحا ، لأنه عند ذلك يكون بارا بوالديه ، دعينا لهما على طاعة الله عز وجل ، قائما بشؤونهما • واىثار « من الصالحين » على صالحا، لما فى ذلك من تعيين الصلآح المطلوب ، بجعله من جنس الصالحين المعروفين بصلاحهم ، والتميزين به عن سواهم •

وفى هذه الجملة الدعائية ايجاز واختصار وهو مناسب لتلايجاز فى لفظ « رب » واختصار مقدمة الكلام تنبىء عن الايجاز فى كلام قال السكاكى فى قوله تعالى « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيئا » (٤٧) واعلم أن الذى فتق أكمام هذه الجهات عن ازاهير

• (٤٥) فى ظلال القرآن : ٢٩٩٤/٥

• (٤٦) حاشية الشهاب : ٢٧٩/٧

• (٤٧) مريم : ٤

القبول في القلوب ، هو أن مقدمة هايين أنجلنسين وهي « رب » اختصرت ذلك الاختصار ، بأن حذفتم كلمة انداء وهي « يا » وحذفت كلمة المضاف وهي « ياء المتكلم » واقتصر من مجموع الكلمات على كلمة واحدة هي المنادى ، والمقدمة للكلام نازنة منزلة الأساس للبناء فكما أن البناء الحاذق لا يرمى الأساس الا بقدر ما يقدر من البناء عليه ، كذلك البليغ يصنع بمبدأ كلامه ، فمتى رأيت اختصار المبدأ فقد آذنتك باختصار ما يورد (٤٨) •

كما أن هذه الجملة الدعائية تخلص بديع الى ذكر قصة اسماعيل عليه السلام بعد ذكر قصة ابراهيم عليه السلام ، مع قوميه ، وقد مهد لهذا التخصيص بقوله « انى ذاهب الى ربي سيهدين » وبذلك ترابط النظم ترابطاً قوياً ، فلا شعور بفجوة في الانتقال ، ولا احساس بتباعد في الأحداث •

واستجاب الله دعاء ابراهيم « فبشرناه بسلام حليم » وان شاء الله التعقيب ، والبشارة الاخبار بخير وورد عن قرب أو بعد • فان كان الله بشر ابراهيم بأنه يولد له نسل عقب دعائه كما هي الظاهر فالتعقيب على ظاهره ، وان كان الله بشره بسلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر بعد خروجه بمدة طويلة ، فالتعقيب نسبي ، وعلى الاحتمالين فالسلام الذى بشر به هو الولد الأول الذى واد له ، وهو اسماعيل لامحالة ، وهو غير الغلام الذى بشره به الملائكة الذى هو اسحاق (٤٩) •

وقد ساق ابن كثير أدلة كثيرة على أن هذا السلام هو اسماعيل عليه السلام ، وهو الذى وقعت معه قصة الذبح والأنداء ، وروى ذلك

(٤٨) مفتاح العلوم : ٢٨٧ •

(٤٩) التحرير والتنوير : ١٤٨/٢٣ •

عن جمهور من العلماء والمحققين (٥٠) •

وفي التعبير بالبشارة مسارعة الى بيان أن الهبة كانت بشرى
تشرح صدره وتسر خاطره • وقد تضمنت الآية بشارات هي : أن
الولد غلام ذكر ، وذلك لأختصاص العلامة بذلك • وأنه يبلغ أوان
الحلم ، لأن ذلك ملازم لوصفه بالحليم ، إذ الحلم لازم لذلك السن
بحسب العادة ، إذ قلما يوجد في الصبيان سعة صدر ، ، وحسن صبر ،
واغضاء في كل أمر • وأنه يكون حليما ، وأي حلم أعظم من حلمه
حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : «ستجدني ان شاء الله من
الصابرين» (٥١) •

ابتلاء وفداء :

وقرت عين إبراهيم عليه السلام بولده اسماعيل الذي وهبه الله
له على الكبر ، ونساءت اراد الله تعالى أن يبتلى إبراهيم ويختبره
في ولده الذي سئل جزءا كبيرا من قلبه وتفكيره • « فلما بلغ معه
السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال
يا أبت ان فعل ما تؤول مستجدني ان شاء الله من الصابرين » •

والفاء في قوله « فلما » فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا
على شهادة الحال ، وايدانا بعدم الحاجة الى التصريح به ، لاستحالة
التخاف والتأخر بعد البشارة والتقدير : فوهبنا له ولدا فنشأ ويفع
ويبلغ رتبة أن يسعي معه في أشغاله وحوائجه ، فلما بلغ السعي (٥٢) •
وتقديم الظرف « معه » على المفعول للتخصيص ، وذلك لأن الأب

(٥٠) ينظر ابن كثير : ١٤/٤ ، وقصص الأنبياء له : ١٦٢ •

(٥١) ينظر الكشاف : ٣٤٧/٣ ، وحاشية الشهاب ٢٧٩/٧ •

(٥٢) ينظر الكشاف ٣٤٧/٣ ، وأبو السعود ١٩٩/٧ ، ٢٠٠ •

أكمل في الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه قبل أوائله • وكان
لاسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة (٥٣) •

وندأؤه بأداه البعيد « يا » مع قربه لمزيد تنبيهه واستدعاه
إصغائه • والتعبير بينى دون اسمه الصريح منسج برحمته ولطفه به
وخوفه عليه ، ليطمئنه بأن ما يقوله له إنما هو أمر لا دخل له
فيه • وتأكيد الخبر بان الحاجة المقام الى التأكيد نظراً لغرابة الأمر
وبخروجه عن العادة • وإيثار صيغة المضارع « أرى » لاستحضار
الصورة الماضية التي رآها في منامه ، وكأنه يراها الآن بعينها ، وفيه
اشعار بأنه مستمر في رؤيتها ، وأن الرؤيا متكررة •

وتقبيد الرؤية بانجار والمجور « في المنام » يبين أن ما رآه
ليس من عند نفسه ولكنه من الله تعالى فرؤيا الأنبياء حق • ولعل
السر في كون الأمر به في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهم الى
الامتثال أدل على كمال الانقياد والاخلاص لله تعالى (٥٤) • وإيثار
« أنى أذبحك » على ذبحك لما فيه من تأكيد محقق لهذا الخبر الغريب
المستبعد فعلاه من أب بوحيدة ، واستحضار للصورة الماضية بالفعل
المضارع ، كأن ذبحه له متمثل أمامه وهو يحكى لابنه •

وبعد أن حدثه برؤياه العجيبة حثه على أن يتدبر ويقول رأيه
فيها وموقفه منها « فانظر ماذا ترى » أى : فانظر ما الذى تراه من
الرأى فى ذلك •

وأمره بالنظر أولاً لما أن الأمر هام ، وينبغى أن يتدبره ويقلب
نظره فيه قبل أن يبين موقفه منه • وفى هذا إرشاد الى تدبر الأمور
والتفكر فيها قبل اصدار الأحكام بشأنها •

وإنما شاوره فى ذلك وهو أمر محتوم ، ليعلم موقفه فيما نزل

من بلاء الله تعالى ، فيثبت قدمه ان جزع ، ويأمن عليه ان سلم ، وليوطن نفسه عليه فيهبون البلاء ، ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد لأمر الله تعالى قبل وقوعه (٥٥) . وفي هذا ارشاد وتعليم للتساور واستطلاع المرأى فى الأهور ألهامة ، وامتناع المأمور بما يؤمر به ليفعله طواعية واختياراً .

وأجاب اسماعيل على الفور « قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » وبدأ جوابه بالنداء بأداة البعيد تعظيماً له وتفضيماً ، ونداءه بوصف الأبوّة توقيراً وتعظيماً ، مع ما فيه من اشعار بعدم المخالفة لأن الأبوّة تقتضى الطاعة من الابن ، وتحريك سلسلة الرحمة فى قلب أبية بدافع الأبوّة ، ومراعاة التناسب بين نداء الأب له بقونه « يابنى » . وأضاف الأب الى ياء المتكلم المأمور عنها التاء مشعر بمزيد من الترقق والتحنن .

والأمر « افعل » يفيد الاذن والسماح والرضى بما سيفعله أبوه . وايقار « افعل ما تؤمر » على اذ بحنى لأمر : تحاشى نفض الذبح لما فيه من تهيج لشاعر الأب ، واستعماله فى مخاطبة الابن لتوضيح الرؤيا والمطلوب فيها حيث لا يتضح الأمر الابيه . والتعميم فى السماح بفعل كل ما يؤمر به ذبحاً أو غيره ، عن طريق الموصول المجهم وصيغة المضارع « تؤمر » الدالة على التجدد والاستمرار ، فتشمل ما يؤمر به الآن وما يؤمر به بعد ذلك .

والجمع بين الاذن بالذبح وعلّة الرضى بهذا الأمر الغريب . والأشارة الى فقه اسماعيل عليه السلام ، حيث فهم أن هذا أمر من الله تعالى ، لأن رؤيا الأنبياء حق ، ومن ثم عبر عن ذلك بالأمر .

(٥٤) البيضاوى ٥٨٩٤ .

(٥٥) البيضاوى ٥٥٨٠ وأبو السعود ٢٠٠/٧ .

وهذا من دواعي بناء الفعل للمفعول ، إذ الأمر معلوم وهو الله عز وجل •

وبعد أن أذن له بفعل ما أمر به وعده بالأمثال لما سيفعله به تنفيذاً لأمر الله تعالى « سجدني إن شاء الله من الصابرين » والسين لتأكيد وجده من الصابرين عند تنفيذ ما أمر به • وعق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتهيؤ ، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله (٥٦) •

وأيثار « من الصابرين » على صابراً لما فيه من البانغة في انصافه بالصبر ، لأنه يفيد أنه سيجده في عداد الذين أشتهروا بالصبر وعرفوا به (٥٧) •

وتيقن إبراهيم من استجابة اسماعيل ، وصبره على قضاء الله تعالى ، وحن موعده بالتنفيذ « فلما أسلما وتاه للجبين » و « لما » حرف وجود لوجود لوجود ، و « أسلما » فعل الشرط ، ومعناه : استسماً وانقاداً وخضعا لأمر الله تعالى • وجواب الشرط محذوف وسيأتي الحديث عنه في موضعه •

وأيثار « أسلما » على غيره مما يؤدي معناه ، إما فيه من دلالة على قبول أمر الله تعالى بارتياح وصفاء وإخلاص ، بخلاف الانقياد والخضوع فقد يكون عن قسر والجزاء وبعد إباء وامتناع • ولتناسبه مع ما وصف الله به إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : « ولكن كان حنيفياً مسلماً » (٥٨) وما وصى به إبراهيم بنيه كما في قوله تعالى : « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (٥٩) واستناد الاستسلام لهما معاً لأنهما مشتركان فيه ، فإبراهيم خضع

• (٥٦) الرازي ٦٥٣/٧

• (٥٧) التحرير والتنوير ١٥٢/٢٣

• (٥٨) آل عمران ٦٧

يأمر الله تعالى بذبح ولده مع ما في ذلك من المشقة والألم ، واسماعيلين
أطاع والده فيما أمره به الله تعالى وصبر على ذلك •

« وولته للجبين » معطوف على « أسلما » و « تله » أى صرعه ،
وأصله : الرمي على التل وهو التراب المجتمع . ثم عمم في كل
أصرع (٦٠) • والجبين : أحد شقي الجبهة ، واللام بمعنى على ،
والمعنى : وألقاه على الأرض على جانب بحيث كان جيبه يلامس
الأرض • والتعبير بالتل دون الالتقاء ونحوه ، لأنه مشعر بقوة
الالتقاء ، وهذا يشير إلى الاقتراب على تنفيذ أمر الله تعالى دون كسل
أو تردد • والتعبير بالجبين دون الجذب فيه دلالة على شدة الصاقه
بالأرض ، وأنه فعّل به ما يفعل بالشاة حيث تلقى على جنبها ، ويصق
جيبها بالأرض فمتضح صفحة عنقها ، وتظهر أوداجها ، ويتمكن الذابح
من إجراء الذبح في موضعه بيسر •

وبذلك أصبح الغلام معدا لأمرار الشفرة على عنقه ليسيل دمه
الذكي طاعة لأمر الله تعالى ، وعند ذلك صدر النداء الإلهي « وناديناه
أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا » • ومناداة الله إبراهيم بطريق الوحي
بارسائ الملك ، وأسندت المناداة إلى الله تعالى لأنه الأمر بها • وأن
مفسرة ، وتصديق الرؤيا تحقيقها في الخارج بأن يعمل صورة العمل
الذي رآه (٦١) •

وقد أخذ إبراهيم في تحقيق ما رآه حيث أتى بالمقدمات وأقبل
على الذبح وفي اللحظة الحاسمة جاءه النداء من الله تعالى مانعاً له
من مواصلة الفعل ، فقد صدق الرؤيا ونجح في الابتلاء • وتأكيد
الجملة بقدر تحقيق مضمونها ، والمقام في حاجة إلى تأكيد لطبيعة

(٥٩) البقرة ١٢٢ •

(٦٠) حاشية السهباب ٢٨٠/٧ •

(٦١) التحرير والتنوير ١٥٣/٢٣ •

الفعل الخارجة عن العادة • وفي الجملة ثناء من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام لقيامه بتنفيذ أمر الله تعالى على الرغم مما فيه من مشقات لا يطيقها الا من عصمه الله •

وجواب « لما » محذوف وموضعه بعد « صدقت الرؤيا » والتقدير : « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقتا الرؤيا » كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيد به الوصف ، من استبشروهما واعتباطهما ، وحمدهما لله تعالى وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والاعواض ، ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب (٦٢) • وفي حذف الجواب اشعار بأنه مما لا يفنى به المقال ولا تزديده العبارة • مع ما فيه من الایجاز •

وبذلك جعل الله لهما من الضيق فرجا ، ومن الشدة مخرجا فقد وفيا بعهدهما مع الله تعالى وكانا من المحسنين كما تبين الآية « انا كذلك نجزي المحسنين » فهذا تعليل لتحويل ما حولهما الله تعالى من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبعية بعد اليأس (٦٣) •

ولما كان الجزاء عظيما لا يقادر قدره شبه بمشار اليه بأشارة البعيد للشعار بعلو قدره وبعد مرتبته في الكمال والفضل • أي مثل ذلك الجزاء الكامل العظيم نجزي الكاملين في الاحسان • وتأكيد الجملة مع جعل المسند اليه نون العظمة فيه مزيد تحقيق لمضمونها وتعظيم له • وجاءت الجملة عامة في الافادة لتشمل ابراهيم واسماعيل وكل المحسنين لئلا ينسأ الله تعالى مع عباده ، في مجزاتهم بالاحسان احسانا كما قال جل شأنه « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (٦٤) •

• الكشاف ٣/٣٤٨

• السابق ٣/٣٤٨

• ٦٠٠

وتبين الآيات صعوبة ما كلف به إبراهيم وابنه عليهما السلام ، وما فيه من مشقة وشدة عثيها « ان هذا لهو البلاء المبين » • أى الاختبار المبين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم ، أو المحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها (٦٥) •

والآية فى غاية التأكيد والقوة بما اشتملت عليه من مؤكّدات وإشارة وقصر ، فقد اجتمع فيها ان واللام والضمير ، وتعريف المسند باللام ، ووصفه بالمبين ، والإشارة اليه بما يميزه ويعظمه ، وهى كلها خصائص قوة وتأكيد ، وبها صار المعنى : ان هذا البلاء العظيم المميز هو البلاء المبين لا غيره •

وإيثار البلاء على الاختبار ونحوه لما يشعر به من وقوع مصيبة فادحة ، ونزول كرب شديد لا يطاق •

ولما كان البلاء شديدا ونهايته غير محتملة رفعه الله تعالى برحمته قبل وقوع نهايته التى لا تطاق ، وذلك بفداء اسماعيل « وفديناه بذبح عظيم » • والفادى فى الحقيقة هو إبراهيم عليه السلام لأنه المباشر له ، واسناده الى الله تعالى على سبيل المجاز العقلى ، لأنه الأمر به • ويجوز أن يكون المجاز فى فدينا بمعنى أمرنا أو أعطينا ، والعدول عن الحقيقة الى المجاز لما فيه من تعظيم للفداء (٦٦) •

والذبح بكسر الهمزة : المذبوح ، ووصفه بعظيم لأن الله فدى به ابن رسول وأبقى به من سيكون رسولا ، فَعَظَمَهُ بعظم أثره (٦٧) • والتعبير بذبح دون ذكر الحيوان نفسه فيه إيجاز حيث دل على الحيوان وما فعل به من الذبح •

(٦٥) الكشاف ٣/٣٤٩ •

(٦٦) ينظر حاشية الشهاب ٧/٢٨١ •

(٦٧) التحرير والتنوير ٢٣/١٥٦ •

الختامة :

وتختتم الختمة ببيان النعم التي توالى على ابراهيم عليه السلام
لقاء جهاده في الدعوة ، وهجرته الى ربه ، وصبره على أشد البلايا ،
وذلك بعد الثناء عليه وبيان تفريج كربته بالفداء العظيم . وقد جاءت
النعم على النحو التالي :

١ - الذكر الحسن والثناء الجميل بين الأمم على مر الزمان .
« وتركنا عليه في الآخريين . سلام على ابراهيم » أى وأبقينا له
في الناس الآخريين على مر العصور دعاءهم له ، وتسايمهم وثناءهم عليه .
وفي « تركنا » أشعار بأن هذا السلام من جانب الله تعالى ، وقد
تركه في الباقيين ليثبثوا به على ابراهيم عليه السلام .

والضمير في « عليه » لابراهيم عليه السلام بدليل ما بعده .
والتعبير بقى دون بين يشعر بأن السلام عليه متعكن في داخلهم ،
مستمر فيهم ، غير منفصل عنهم . وفي لفظ « الآخريين » إشارة الى
أن الثناء عليه مستمر الى آخر الناس .

و « سلام على ابراهيم » مبتدأ وخبر ، وجاز الابتداء بالنكرة
لما فيها من معنى الدعاء والوصفية . والكلام وارد على الحكاية
كقولك : قرأت « سورة أنزلناها وفرضناها » بالرفع على الحكاية ،
أى : تركنا عليه في الآخريين هذا الكلام بعينه وهو « سلام على
ابراهيم » . وتتكبر « سلام » لتعظيمه وتفضيحه .

وقيل في قصة نوح « سلام على نوح في العالمين » ولم يذكر هنا
لما أن نوحا عليه السلام به ثابة آدم الثاني للبشر ، فقد تداست
البشرية منه ومن نجا معه من الطوفان ، ثم فذكره سائر في العالمين
لانتمائهم اليه . واظهار « ابراهيم » في موضع الاضمار لتعظيمه
بذكر اسمه ، مع ما في ذلك من بيان التضمير السابق .

٢ - ثناء الله تعالى عليه بالاحسان والايمان • « كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين » • و « ذلك » اشارة الى ابقاء الذناء الجميل عليه فيما بين الأمم ، وهو ما يتضمنه قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم » • أما الآية السابقة « انا كذلك نجزي المحسنين » فالاشارة فيها الى الجزاء الذي يتضمنه جواب « لما » كما مر آنفا ، فلا تكرار ، لأن كلا من الآيتين تشير الى جزاء يختلف عن الآخر • وفي الاشارة الى الجزاء بالتمساراة البعيد لتعظيمه وتفضيحه وبيان علو فضله وبعد مكانته •

ولم تصدر هذه الآية بـ « انا » كما في غيرها من القصص ، وكما في الآية السابقة ، للاذنتفاء بالتأكيد في الآية السابقة عن التأكيد هنا ، والمجزي في الآيتين ابراهيم عليه السلام ، وللإشارة الى أن قصة ابراهيم عليه السلام لم تنته بعد ، فقوله تعالى « وبشرناه باسحاق » الخ من تكلمتها (٦٨) • وللمغايرة بين النظم في القصيدة الواحدة •

والآية تذييل تليق لمجازاة ابراهيم عليه السلام بابقاء ذكره الجميل بين الأمم ، فقد جوزى بذلك لأنه من المحسنين ، والله يجزي المحسنين • وفي ذلك ثناء جميل على ابراهيم بأنه من المحسنين •
وعك جزاؤه بهذا الجزاء بتعليق آخر « انه من عبادنا المؤمنين » وهو ثناء عظيم على ابراهيم عليه السلام ، وصرح به خلافا لسابقه المفهوم من الكلام لما أنه من أهمية ، فهو ثناء بالايهان الذي هو أساس العلاقة بين العبد وربيه ، وعليه مدار صحة الأعمال • والتأكيد لتحقيق اتصافه عليه السلام بهذا الوصف العظيم ، وفي الاتيان بـ « عبادنا » دون أن يكون التعبير : انه من المؤمنين ، لما في افظ

(٦٨) ينظر الكشف ٣/٢٤٣ ، وأبو السعود ٧/٢٠٢ • والأوسى

اليهودية المضاعف الى ضمير الجلالة من تشریف ابراهيم والتنبيه على
عزو منزلته ، وقربه من الله تعالى •

٣ — البشارة باسحاق • «وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين» وهذه
البشارة غير البشارة السابقة بالغلام الحليم ، وهى متأخرة عنها بزمن
طويل ، وعلى هذا يتأون اسحاق المبشر به هنا غير الغلام الحليم ،
الذى جرت معه قصة الذبح والفداء ، وهو اسماعيل عليه السلام (٦٩)
و « نبيا من الصالحين » حالان من « اسحاق » أى : مقصيا
بنيوته مقدراً كونه من الصالحين • ولا حاجة الى وجود المبشر به
بوقت البشارة ، فان وجود ذى الحال ليس بشرط ، وانما اشترط مقارنة
تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال ، فلا حاجة الى تقدير مضاف ،
وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وايماء الى انه الغاية لها ،
لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق » (٧٠) •

وقد تضمنت هذه البشارة على ايجازها ثلاثة أشياء : ولادة
اسحاق عليه السلام ، واستمرار حياته ليبلغ مبلغ الرجال ، وجعله
نبيا من الصالحين، وهذا وحده غاية البشارات، ونهاية الشرف والفضل •
٤ — اسباغ البركة عليه وعلى اسحاق • «وباركنا عليه وعلى
اسحاق » أى ائضنا عليهما بركات الدين والدنيا • وافراد كل منهما
بالذكر دون أن يقال : وباركنا عليهما للتخصيص على أن الله تعالى
بارك على كل واحد منهما على سبيل الاستقلال مما يضاعف من شأن
ما نال كل واحد منهما من البركة •

(٦٩) ساق المفسرون أدلة كثيرة على أن الغلام الحليم هو اسماعيل
عليه السلام ، وهو الذبيح ، وتقدمت الاشارة الى ذلك • وينظر
الالوسي ١٢/٢٣/١٣٣ - ١٣٦ ، والتحرير والتنوير ٢٣/١٥٦ - ١٥٩
وقصص الأنبياء ١٠٢ - ١٠٣ • النجار •
(٧٠) أبو السعود ٧/٢٠٢ •

و « على » للاستعلاء المجازى ، أى تمكن البركة من الاحاطة بهما (٧١) • والتعبير بها مثلهنر بنزول البركة عليهما من السماء ، أى بركة علوية غمرتهم وعمتهم •

وبعد تعداد ما أنعم به عليهما عقب الكلام ببيان موقف ذريتهما من الهداية « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » • أى ومن ذريتهما من هو عامل بالعمل الحسن ، فهو من المحسنين المجزيين باحسنهم • ومن هو مشرك أو غير مستقيم على طريق الخير فهو من الظالمين المعاقبين بظلمهم •

وفى هذا تنبيهه على أن انذبيث وانطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر ، والفاجر البر ، وعنى أن فساد الأعتاب لا يعدد غضاضة على الآباء ، وان مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات • وفى هذا أيضا ابطال لغرور المشركين الذين كانوا يفخرون بأنهم من ذرية ابراهيم ولا يتبعون دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم (٧٢) •

والتعبير باسم الفاعل « محسن وظالم » يفيد الثبوت والاستمرار ، فمنهم الثابت على الاحسان المستمر فيه ، ومنهم الثابت على الظلم المستمر فيه • وتقييد الظالم بالجار والمجور « لنفسه » لأنه اذا ظلم نفسه كان حريا بظلم غيره من باب أولى ، ولبيان أن من ظلم غيره فهو فى الحقيقة ظالم لنفسه حيث أوردنا ذلك مورد التهكة • وترك تقييد « محسن » بذلك لأن الانسان قد يكون محسنا لنفسه غير محسن لغيره • ووصف « ظالم » بـ « مبين » مشير الى ظهور ظامه ووضوحه • ويتوضيح أحوال ذريتهما من بعدهما تنتهى هذه الحلقة ، وهذا من حسن الخاتمة ، حيث ختمت الحلقة بختام حياتهما وبيان أحوال خلفهما

(٧١) التحرير والتنوير ١٦٢/٢٣ • (٧٢) التحرير والتنوير ١٦٢/٢٣ •

الذاقة الأربعة

ولقد آتينا إبراهيم رشده

قال الله تعالى :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين • إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون • قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين • قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين • قالوا أحيئنا بالحق أم أنت من الملاحين • قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين • وتالله لأكيـدن أصناءكم بعد أن تولوا مدبرين • فجعلهم جذاذاً ألا كبيراً لهم لعنهم إليه يرجعون • قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين • قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم • قالوا فأتوا به على أعين الناس لعنهم يـشهدون • قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم • قال ب فعله كبيرهم هذا فامألوهم ان كانوا ينطقون • فرجوا إلى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون • قال أفتعبدون من دون الله مآلاً ينفعكم شيئاً ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون الله أغلاً تعقأون • قالوا حرقوه وانصروا آلهتنا ان كنتم فاعلين • قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم • وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين • ونجيناه ولوفاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين • ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين • وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين • » (١) •

(١) الأنبياء : ٥١ - ٧٣ •

بين بين الآيات :

تحكى هذه الآيات مجادنة أبراعيم عليه السلام لأبيه وقومه في شأن الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى ، وإبطاله لعبادتها بالدليل العقلي ، والفعل العملي المؤيد له ، وما ترتب على ذلك من القائهم له في النار ، ونجاته منها بقدره الله تعالى ، وانعام الله عليه بالذرية الصالحة .

وتمثل هذه الآيات الحلقة الرابعة في المحاقات التي تتناول تفصيل هذا الموضوع تبعا لترتيب نزول السور فيها ، فهي من سورة الأنبياء المسبوقة بهريم والشعراء والصفات .

وتبدأ هذه السورة بتحذير الناس من التماذى فى الضلال والعصيان ، ببيان اقتراب يوم القيامة والحساب مع غفلتهم عنه « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » (٢) . وتحكى اعتراض المشركين على رسول الله ﷺ بأنه بشر مثلهم ، ووصفهم لما يتلوه من وحي الله تعالى : تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أضغاث أحلام ، وثالثة بالافتراء ورابعة بالشعر . وتوضح رد الله تعالى عليهم بأن كافة المرسلين قبله ما كانوا الا رجلا مثلا أوحى الله انبيهم بآيات ، وصدقهم وعده بنصرهم ، واهلاك المسرفين .

وتذكر هؤلاء المشركين بالأمم السابقة الذين قصمهم الله تعالى بانعذاب لظالمهم وكفرهم دون أن ينقذهم من عذاب الله شىء ، وتحذيرهم من تعرضهم لمثل ذلك .

ثم تعرض لقضية التوحيد عرضا مفصلا ، فتثبت وحدانية الله تعالى بالأدلة القاطعة وانحجج الدامغة « لو كان فيهما آهة الا الله

لنفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (٣) • وتطالب
المشركين ببرهان على شركهم ان كان ادبهم برهان « أم اتخذوا من
دونة آلهة مثل هاتوا برهانكم هذا ذكر من • وذكّر من قبلي بل
أكثرهم لا يعلمون الحق فهم دمرضون » (٤) •

وتسوق السورة عددا من الآيات الكونية الدالة على قدرة الله
تعالى ووحدانيته ، تنتقل بعدها الى بيان وقوع الموت على كل نفس ،
ورجوع الناس الى الله تعالى ، حيث لا تستطيع قوة ما منع أحدهم
من ذلك المصير المحتوم ، في يوم الحساب الذي توضع فيه الموازين ،
ويحكم الله عز وجل بين الناس بالقسط ، وكفى بالله حسيبا •

ثم تعرض السورة قصص بعض الأنبياء تسنية للرسول ﷺ
فيما يناله من قومه ، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة ، وانصبر على كل
عارض دونها (٥) • حتى يأتيه نصر الله تعالى الذي نصر الرسل
السابقين على المستهزئين بهم « ولقد استهزىء برسول من قبلك فحاق
بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (٦) • وفي هذا القصص
نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك الا رجالا
نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (٧) • وقوله
تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله
الا أنا فاعبـدون » (٨) •

(٣) الأنبياء : ٢٢ •

(٤) الأنبياء : ٢٤ •

(٥) الرأى : ١٠٨/٦ •

(٦) الأنبياء : ٤١ •

(٧) الأنبياء : ٧ •

(٨) الأنبياء : ٢٥ •

وتبدأ النقصن بأشارة موجزة الى انزال الفرقان على موسى وهارون عليهما السلام « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين » (٩) ، ولعل البداية بذلك للقرب الزمانى بين رسالتى موسى وهحمد عليهما الصلاة والسلام ، واشترك الرسالتين فى القيام على وحي من الله تعالى بذكر عظيم ، ومعرفة كثير من العرب بأخبار موسى عليه السلام من خلال التقائهم باليهود المجاورين لهم ، والآيات السابقة تخاطب الرسول ﷺ وقومه « قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما يندرون • ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقمزلن ياويلنا انا كنا ظالمين » (١٠) •

وأعقبت قصة موسى وهارون بقصة ابراهيم عليه السلام التى يقاوم فيها الشرك ويبين الحجة على بطلانه ، لأن ابراهيم كان هو المثل الأول قبل مجيء الاسلام فى مقاومة الشرك ، اذ قاومه بالحجة ، وبالقوة ، وباعلان التوحيد قولاً وعملاً حين أقام الكعبة بمكة المكرمة ••• فكانت قصته مع قومه شاهداً على بطلان الشرك الذى كان مماثلاً لحال المشركين بهكة ، وقد جاء الرسول محمد ﷺ ليقطع دابره • وفى ذكر قصته تعريض بالمشركين من أهل مكة وذم لهم ، اذ كانوا على الحالة التى نعاها جدهم ابراهيم على قومه ، وكفى بذلك ذم لهم ، وحجة على ابطال معتقداتهم • كما أن شريعة ابراهيم أشهر شريعة يعرفها العرب بعد شريعة موسى عليهما السلام (١١) •

وقدمت قصة ابراهيم على قصة نوح عليهما السلام لانهما النوثيقة بالعرب ، فهو أبوهم الذى يقدرونه ويفخرون بالانتماء اليه ، وقصته مع قومه شديدة الشبه بقصة الرسول ﷺ ، فقاموا انورا

(٩) الأنبياء : ٤٨ •

(١٠) الأنبياء : ٤٥ ، ٤٦ •

(١١) التحرير والتنوير : ٩٢/١٧ •

يعبدون الأصنام ، والعرب كانوا كذلك ، وقد خاض في سبيل ابضال عبادتها جهادا مريرا ونال كثيرا من الأذى والضرر ، وتحمل ذلك بصبر جميل ، وحاله في هذا يشبه حال الرسول ﷺ في محاربه عبادة الأصنام ، وتعرضه لصنوف من الأذى ، وصبره الطويل على ذلك ، فنذكر الرسول ﷺ بقصة ابراهيم عليه السلام ، وتسليته بها أدخل وأعظم في هذا الباب ، لما بين حالهما من تشابه كبير ، ولعلك هذا من أ سرار البسط والتفصيل في قصة ابراهيم عليه السلام ، والايجاز في غيرها من القصص في هذه السورة .

وقد سلك هذا الترتيب في سورة الشعراء ، حيث بدى فيها بقصة موسى ، وتلتها قصة ابراهيم ، وجاءت بعدها قصة نوح عليهم السلام .

البداية :

تبدأ القصة بداية تعلق فيها نبرة التأكيد ، حيث أكدت بلام القسم وقد « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » وذلك لتتحقيق مضمونها لدى المخاطبين ، وتقريره في أذهانهم ، لما أنه من الأمور الهامة التي يجب أن يعلموها عن يقين . ولتنزيل العرب في مخالفتهم لشريعة أبيهم ابراهيم منزلة المنكر لكون ابراهيم أوتى رشدا وهديا (١٢) .

وفي التعبير بالآيتاء اشعار بأن الرشد منحة وعطية من الله عز وجل لابراهيم عليه السلام لم ينلها بمحض كسبه . وأسناد الايتاء الى نون العظمة فيه تفخيم لشأن الرشد وتعظيم له ، فهو من لدن العليم

الحكيم ولا يقدر عليه غيره . وفي اتحاد هذه البداية مع بداية قصة موسى وهارون مع عطفها عليها تناسب بديع بين المعطوف والمعطوف عليه .
والرشد : الاهتداء بوجوه الصلاح ، قال الله تعالى : «فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم» (١٣) . واضافته اليه من اضافة المصدر الى مفعوله ، أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة بالوحي ، والاقترار على اصلاح الأمة باستعمال النواميس الالهية (١٤) . وفي اضافة الرشد اليه اشارة الى عظم شأن هذا الرشد وغضاهته ، وتنبيه على اختصاصه وانفراده به ، وفي هذا ايماء الى ما انفرد به ابراهيم عليه السلام من الهداية بين قومه (١٥) .

و « من قبل » أي من قبل أن نؤتى موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا ، وهذا هو الأوقت والمناسب للمقام لفظا ومعنى . وقيل من قبل استنبائه ، أو من قبل بلوغه وهذا مما ياباه المقام (١٦) . ويدل على المعنى الأول ما ورد بعد ذلك في قصة نوح عليه السلام « ونوحا اذا نادى من قبل فاستجبنا له » (١٧) فهذا صريح في القبيضة الزمانية ، ويفسر ما سبق في قصة ابراهيم عليه السلام . وفي تقييد ايتائه الرشد بالقبليّة المذكورة اشارة الى سبق رسالته لرسالة موسى عليه السلام ، فعلا لتوهم سبق موسى انزمنى بناء على سبقه في الذكر ، وقد ذكرنا آنفا ما ظهر لنا من سر في تقديم قصة موسى وهارون على قصة ابراهيم عليهم السلام .

(١٣) النساء : ٦ .

(١٤) الكشاف : ٥٧٥/٢ ، وفتح البيان : ١٦٣/٦ .

(١٥) ينظر التحرير والتنوير : ٩٣/١٧ .

(١٦) ينظر : الرازي : ١٠٩/٦ ، وأبو السعود : ٧٢/٦ .

(١٧) الأنبياء : ٧٦ .

وذيلت الآية بجملة « وكنا به عالمين » ، والضمير في « به » يعود الى ابراهيم عليه السلام ، والجملة معترضة ، وفيها زيادة تفخيم وتعظيم لشأن ابراهيم ، أى : آتيناها رشدا عظيما على علم منا بأنه أهل لما آتيناها ، وجدير بما أعطيناه من الرشد والهدى •

وهذا العلم الإلهي متعلق بالنفسية العظيمة التي كان بها محصل ثناء الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم • أى علم من سريرته صفات قد رضىها وأحمدها فاستأهل بها اتخاذه خليلا (١٨) • والتعبير بـ « كنا » يشعر بسبق العلم به على ايتائه الرشد ، وفي نون العظمة تعظيم لشأن العالم والعلم وتفخيم لحال المعلوم • وتقديم الجار والمجرور « به » على متعلقه للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر • وفي التعبير باسم الفاعل « عالمين » اشارة الى ثبوت العلم واستمراره • ومن هذا يتجلى فضل الجملة القرآنية على أن يقال : وعلمنا به ، وما أشبه ذلك •

جدال ابراهيم لقومه :

وبعد هذه البداية المؤكدة التي تضمنت الثناء على ابراهيم عليه السلام ، وبينت أهليته للدعوة الى الله تعالى ، تعرض الآيات ما دار من حوار بين ابراهيم وقومه في شأن عبادتهم الأصنام وابطالها « اذا قال الأبويه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » • وفي بدء الحوار من جانب ابراهيم اشعار باقباله على الدعوة الى الله تعالى ، وحرصه على هداية قومه وانقاذهم مما هم فيه من ضلال ، وجده في ابطال عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر •

و « إذ » ظرف متعلق بآتيننا على أنه وقت متسع وقع فيه الإيتاء وما يترب عليه من أتعوانه وأفعاله • أو متعلق برشده ، أو بمحذوف ، أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت (١٩) •

واختار ابن عاشور أنه ظرف لآتيننا ، أى كان أيتاؤه الرشد حين قال لأبيه وقومه « ما هذه التماثيل » الخ • نذاك هو الرشد الذى أوتيه ، أى حين نزول الوحى إليه بالدعوة الى توحيد الله تعالى ، فذلك أول مبدء به الوحى (٢٠) •

وفى بيانه نلمعنى نظر ، لأن أيتاءه الرشد لم يكن حين قال لأبيه وقومه ما قال فقط ، فقد أوتى الرشد قبل ذلك ، وما قاله لأبيه وقومه مثل للرشد الذى أوتيه ، وليس هو ذلك الرشد • ولم يكن هذا بدء الوحى والدعوة بالنسبة له ، فقد سبق ذلك دعوته لأبيه وحده كما جاء فى سورة مريم ، وليس من الحكمة فى الدعوة أن تبدأ بهذا الجدال القوي الذى انتهى باقائه فى النار •

والظاهر أن هذا الجدال كان مع قومه مجتمعين ، وتخصيص أبيه بالذكر مع اندراجه فيهم ، وتقديمه عليهم ، للإشارة الى اهتمامه بنصحه وإنقاذه من الضلال ، نظرا لمسئوليته الخاصة عنه لما بينهما من رابطة قوية تستدعى حذبه عليه واهتمامه به قبل غيره •

والاستتهام فى قوله « ما هذه التماثيل » من باب تجاهل العارف أو سوق المعلوم مساق غيره ، حيث سألهم عن أصنامهم بـ « ما » التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم ، كأنه لا يعرف أنها ماذا ، مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا ، والنكته فى

(١٩) بنظر الكشاف : ٥٧٥/٢ ، والألوسى : ٥٨/١٧/٩

(٢٠) التحرير والتنوير : ٩٣/١٧ •

ذلك التمهيد لتخطئتهم بعد أن يجيبوه ببيان حقيقتها (٢١) • بجانب
 ما يحمله من تحقير لشأنها ، وتوبيخ لهم على عبادتها •
 والجملة الاستهامية تحمل ألوانا من انتهوين والتحقير
 لأصنامهم ، والتوبيخ والتفريع لهم من خلال الخصائص التالية :
 — السؤال عن شيء معلوم بالنسبة للسائل ، وفي هذا تصغير
 وتحقير لشأن المسئول عنه ، وتهكم وتوبيخ للمسؤولين •

— التعبير باسم الإشارة « هذه » وفيه تحقير للأصنام بواسطة
 الإشارة القريبة التي تميز حقيقتها المهانة المنحلة عن رتبة الألوهية •
 — ذكر آلهتهم باسم « التماثيل » • جمع مثال ، وهو اسم للشيء
 المصنوع منسبها بخلق من خلق الله تعالى ، من مثلت الشيء بالشيء
 إذا شبهته به (٢٢) •

وفي هذه التسمية أفعال بعدم استقلالها ، وإثبات لتتمام عجزها ،
 إذ هي صور مصنوعة لا حقائق موجودة ، وفي هذا زيادة تحقير لها •
 — وصفها بجمنة « التي أنتم لها عاكفون » مما يزيد من توبيخهم
 على فساد تفكيرهم حيث يعكفون على تماثيل لا حقائق •
 — خطابهم بـ « أنتم » وفيه استهانة بهم وتوقيف على سوء
 صنيعهم (٢٣) ، وإشارة إلى عدم مشاركة أحد لهم في هذه الشغلة
 أنشعاه •

— تقديم الجار والمجرور « لها » على متعلقه ، وفي هذا مزيد
 تخصيص لهم بهذا الفعل القبيح مما يضاعف من ذمهم وتوبيخهم •

(٢١) ينظر أبو السعود : ٧٢/٦ ، والتحرير والتنوير : ٩٤/١٧ •

(٢٢) الرازي : ١١٠/٦ •

(٢٣) البحر المحيط : ٣٢٠/٦ •

– التعبير عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذي هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء الغرض من الأغراض ، قصدا الى تحويرها واذلالها ، وتوييها لهم على اجلائها (٢٤) •

– الاتيان بالعكوف على صيغة اسم الفاعل للإشارة الى استمرارهم ودوامهم على ذلك ، مما يقتضى مزيد الذم والتوبيخ لهم • وأجاب القوم على ابراهيم عليه السلام « قاتلوا وجدنا آباءنا لها بما بدين » • والفصل بين قاتلوا وما قبلها للاستئناف البياني ، على السبيل المسلوک في حكاية المحاورات والمجادلات ، وهذا جار فيما يتبع ذلك من بقية الحوار •

وجوابهم ليس جوابا عن سؤال ابراهيم ، وإنما هو جواب عما لزمه من السؤال عما اقتضى عبادتها وحملهم عليها (٢٥) • اذ لما سألهم عنها وهى مشاهدة معلومة حملوا كلامه على السؤال عن سبب عبادتها بقرينة توصيفها بالتي أنتم لها عاكفين (٢٦) •

وهذا من الأسلوب الحكيم – وإن كانت لا حكمة فيما يقولون ولا فيما يفعلون – حيث أجابوه عن سبب عبادتها لا عن حقيقتها وما هيتهما كما هو مقتضى سألته • وفى هذا هروب من الوقوع فى طوق الحجة المألزمة ، اذ لو أجابوه ببيان حقيقتها ، لزمتهم الحجة حيث عبدوا أصناما صنعوها بأيديهم من الحجر أو الشجر ، وبطلان هذا من الوضوح بمكان •

والتعبير بـ « وجدنا » يشعر بتحقيقهم من كون آباءهم على ذلك وتآذدهم منه ، لما أن الواو والجيم والنون أصل يدل على

• (٢٤) أبو السعود : ٧٢/٦

• (٢٥) البضاوى : ٢٤٢

• (٢٦) حاشية الشهاب : ٢٥٩/٦

لقيام الشيء، والمظفر به، وغالبا ما يكون هذا بعد جهد وبحث، ووجدت
الضامة وجدانا، أي اقيمتها بعد بحث عنها (٢٧) •

وأيثار لفظ ابائنا على قومنا وما في معناه لما يشير اليه من
وجرب طاعتهم والافتداء بهم وعدم مخالفتهم، فالابن مطيع لأبيه،
وناشيء على ما رباه عليه :

ويؤنسأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وفي هذا تعريض منهم بابراهيم عليه السلام حيث لم يتبع
ما وجد عليه آباءه، ولم يطعه في ذلك •

وتقديم الجار والمجرور « لها » على متعلقة للتخصيص أي
عابدين لها لا لغيرها فقلدناهم في ذلك • وفي تعبيرهم بالعبادة
لا العكوف كما ورد في السؤال اشارة الى تخرجهم من وصف آبائهم
بما وصفهم به من العكوف، الذي فيه تحقير وتوبيخ اهم • وفي
استعمال اسم الفاعل « عابدين » دلالة على استمرارهم وثبوتهم على
ذلك، وهم سائرون على طريقتهم •

وبذلك جاءت اجابتهم على السؤال مشتملة على عدد من
الخصائص التي تؤكد اقتناعهم باتباع آبائهم، وتقليدهم فيما
درجوا عليه •

لقد تشبثوا في جوابهم بعضا التقليد التي يتوكأ عليها كل عاجز،
وما أغبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان
للقائلين، حين استدرجهم الي أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل،
وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شيء (٢٨) •

(٢٧) ينظر مقاييس اللغة، والصحاح • مادة : وجد

(٢٨) الكشاف : ٥٧٥/٢، وفتح البيان : ١٦٤/٦ •

ومن ثم جاء رد إبراهيم عليهم ردا قويا « قال اقد كنتم أنتم
 وآباؤكم في ضلال مبين » فوصفتهم بالضللال المبين هم وآباؤهم •
 ولما كان المقام في حاجة الى مضاعفة التأكيد والتقوية بسبب انكارهم
 لما وصفهم به ، فقد جمع في الرد بين عدد من الخصائص المؤدية
 لذلك •

حيث جاء مؤكدا بالقسم وقد لاثبات مضمونه بقوة ، وتقريره
 بوضوح • وعبر بـ « كنتم » للاثعار بقدمهم وعراقتهم في هذا
 الضلال هم وآباؤهم • وأكدت نسبه اليهم بالضمير « أنتم » وهو
 من التأكيد الذي لا يصح انكلام مع الاخلال به لأن العطف على ضمير
 هو في حكم بعض الفعل ممتنع (٢٩) • وفي التأكيد به امعان في
 مواجهتهم بهذا الحكم الشديد ، ونعتهم به على سبيل الخصوص •

وعطف آباؤهم عليهم لاشراكهم معهم في الضلال المبين ، فهم
 سبب وقوع آباءهم فيه ، فحكم بالضللال على المقلدين والمقتدين (٣٠) •
 وفي هذا مزيد اثبات لاضلالهم اذ ورثوه كابرا عن كابر • وقدم
 الأبناء على الآباء خلانا للترتيب الوقوعي ، لأن الأبناء هم المخاطبون
 والمواجهون بهذا الرد تشديدا في النكير عليهم ، وجعل الضلال مستندا
 لهم ، وهم متمكنون فيه عن طريق الظرفيه « في ضلال » ، ونكر
 « ضلال » اشعارا بشيوعه وكبره وعجب أمره • فهو ضلال عجيب
 كبير ، لا يقادر قدره • ويوصف الضلال بأنه « مبين » لادانة على
 أنه ظاهر جلي لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك (٣١) •

(٢٩) الكشاف : ٥٧٥/٢ •

(٣٠) البحر المحيط : ٣٢٠/٦ •

(٣١) أبو السعود : ٧٢/٦ •

وعبر بمبين وهو بمعنى بين ، وفيه إشارة الى أن ضلالهم كما هو ظاهر في نفسه ، مظهر انفساد عقولهم وتخطبهم في عمية التقليد .
 ولاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلال ، بقوا متعجبين من تضليله اياهم ، وحسبوا أن ما قاله انما كان على سبيل المزاح والمداعبة لا عن طريق الجسد (٣٢) ، ومن ثم سألوه « قالوا أجدتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » والاستفهام يفيد التعجب عن وصفه لهم ولآبائهم بالضلال البين ، واستبعاد أن يكونوا كذلك .

وفي التعبير بالنجى اشعار بأن ما يدعوهم اليه من عبادة الله تعالى قد جاء به من عند نفسه . والمراد بالحق انجاد الذى هو ضد اللعب ، المعبر عنه في المعادل بـ « أم أنت من اللاعبين » . وعلى هذا فبينهما تضاد في المعنى . والمراد باللعب هنا اللعب بالكلام وهو المرح والهزل . والمعنى : أجدتنا بالجد أم بالهزل واللعب .

وقد اختلف التعبير في الجملة المعادنه عنه في الجملة الاستفهامية ، فجاءت الجملة الاستفهامية فعلية تفيد التجدد والحدوث مما يتسرع بحدوث ما جاء به ان كان حقا ، وجاءت الجملة المعادنه اسمية تفيد الثبوت والاستمرار مما يدل على رجحانها عندهم ، فهم يرجحون أن ما جاء به هزل ولعب ، ومن ثم عبروا عن ذلك بالجملة الاسمية المؤكدة بتذكير الضمير « أنت » . وخاطبوه بالضمير « أنت » على نمط خطابه لهم بالضمير « أنتم » وبذلك واجهوه بالحكم على سبيل الخصوص كما واجههم قبل ذلك . وفي هذا تناسب بديع في الكلام .

وهذا ما أشار اليه السكاكي بقوله : المعنى : أجددت وأحدثت عندنا تعاطى الحق فيما نسمعه منك ؟ أم اللعب أى أحوال الدنيا

يُعد على استمرارها عليك ، استبعاداً منهم أن تكون عبادة الأصنام
من الضلال (٣٣) •

والعدول عن وصف لاعب الى جعته من زمرة اللاعبين فيه مبالغة
في توغص كلامه ذلك في باب المزح • بحيث يكون قائمه متمكناً في اللعب ،
ومعدوداً من الفريق الموصوف باللعب (٣٤) • والتعبير مع هذا فيه
تلطف في وصفه باللعب حيث لم ينسبوه اليه صراحة ، لمعرفة
بقوة حجته • ورغبة في استمالة جانيه اليهم ، وعدم اغضابه •

وهذا كلام منصف ، وان أيمأوا فيه الى ثبوت الوجه الثاني (٣٥) •
والمنصف من ألوان الكلام البديع وقد أشار اليه السكاكي في
حديثه من تقييد الفعل بالشرط والجزاء ، وبين أنه يقول على ترك
المواجهة بالفعل وعدم التصريح بنسبته الى المخاطب • ومنه قوله
تعالى : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » (٣٦) •
فحق النسق من حيث الظاهر : قل لا تسألون عما عملنا ولا نسأل
عما تجرمون وكذا ما قبله « وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال
مبين » (٣٧) • وهذا النوع من الكلام يسمى المنصف (٣٨) • وسمى
بذلك لأن كل من سمعه قال للمخاطب قد أنصفك المتكلم به ، أو لأن
المتكلم قد أنصف من نفسه حيث حط مرتبته عن مرتبة المخاطب ، ويسمى
أيضاً الاستدراج ، لاستدراجه الخصم الى الأذعان والتسليم ، وهو
من لطائف الأساليب : يكثر في التزليل والأشعار والمحاورات (٣٩) •

(٣٤) التحرير والتنوير : ٩٦/١٧ • وحاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ •

(٣٣) مفتاح العلوم : ٢٧٢ •

(٣٥) الألوسى : ٦٠/١٧/٩ •

(٣٦) سبأ : ٢٥ • (٣٧) ميبأ : ٢٤ •

(٣٨) مفتاح العلوم : ٢٤٥ ، ٢٤ •

(٣٩) المطول : ١٦٤ ، ١٦٥ •

والاستدراج كلما عرفه ابن الأثير هو : التوصل الى حصول المعرض من
المخاطب . والملاحظة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا
يشعر به (٤٠) .

وذكر الدكتور أحمد مطلوب أن السكاكي ذكر « المنصف »
ولم يعرفه (٤١) ، وهذا غير دقيق لظهور المراد بهذا النوع من الكلام
في حديث السكاكي الذي سقناه آنفا ، وهو بمثابة تحديده وتعريفه .
وفي حديث السكاكي عن البديع جعل قوله تعالى « وأنا أو اياكم
لمعنى هدى أو في ضلال مبين » من باب «سوق المعلوم مساق غيره »
وهو ما سماه البلاغيون « تجاهل العارف » ولم يرتض السكاكي هذه
التسمية (٤٢) وعندى أن استعمال مصطلح « المنصف » في هذه الآية
أدق وأوقع وأشبه بمضمونها .

رد إبراهيم عليه السلام :

ولما كشفت عبارة القوم عن توهمهم أن إبراهيم عليه السلام
لثما يمازح بما خاطبهم به ، رد عليه السلام عليهم بما يعلمون به أنه
مجد في اظهار الحق وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وذلك بالقول
والفعل (٤٣) .

فإنما الرد بالقول فهو : « قال بل ربكم رب السموات والأرض
الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

و « بل ربكم » اضراب لابطال كونه من اللاعبين ، كما جاء في
قولهم ، وذلك باقامة البرهان على ما ادعاه ، من كونهم وآبائهم في

(٤٠) الجامع الكبير : ٢٣٥ .

(٤١) معجم المصطلحات البلاغية : ٣/٣١٥ ، ٣١٦ .

(٤٢) ينظر مفتاح العلوم : ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، والتلخيص : ٣٨٥ .

(٤٣) الرازي : ١١٠/٦ .

ضلال مبين (٤٤) ، وأنه جاءهم بالحق وهو عبادة الله تعالى خالق السموات والأرض • وقال أبو السعود انه اضراب عما بنوا عليه مقالهم من اعتقاد كون تلك التماثيل أربابا لهم ، كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل ربكم رب السموات والأرض (١) • وعلى هذا ففى الذلالم قصر موصوف على صفة طريقه العطف ببل ، والمنفى محذوف مفهوم من الكلام أى ليست التماثيل أربابا لكم بل ربكم رب السموات والأرض • وجعل الطيبي هذا الجواب من قبيله الأسلوب الحكيم ، فقد كان الظاهر أن يجيبهم عليه السلام بقوله : بل أنا من المحقين ولست من الالاعبين ، ولكنه جاء بقوله « بل ربكم » الآية ، لينبه على أن ابطاله لما هم ، عاكفون عليه ، وتضليله اياهم مما لا حاجة فيه الى الدليل لوضوحه ، ولكن عليهم أن ينظروا الى هذه العظيمة وهى تركهم عبادة خالقهم ، ومثلك أمرهم ورازقهم ، ومالك العالمين ، والذي فطر ما هم عليه عاكفون ، ويشغلون بعبادتها دونه ، فأى باطل أظهر من ذلك ، وأى ضلال أبين منه (٤٥) •

ورد الشيخ ابن عاشور وجهة نظر الطيبي وقال ان جواب ابراهيم ابطال لقولهم « ام أنت من اللاعبين » مع مستند الابطال باقامة اندليل على أنه جاءهم بالحق ، واثبات أن ربهم هو الرب الذى خلق السموات والأرض ، وليست تلك التماثيل المصنوعة المنحوتة التى لا ينكرون عدم قدرتها على خلق السموات والأرض ، فالجواب على هذا ليس فى طريقة الأسلوب الحكيم كما ظنه الطيبي (٤٦) •

وايثار التعبير القرآنى على أن يقال : ربكم الله الذى خلق

• (٤٤) ينظر البيضاوى : ٤٤٣ •

• (٤٥) الالوسى : ٦١/١٧/٩ •

• (٤٦) التحرير والتنوير : ٩٦/١٧ •

النسموات والأرض ، للإشارة باتحاد اللفظين « ربكم » و « رب » الى وحدة الربوبية ، والاتحاد في الربوبية ، فربهم هو رب السموات والأرض وهم وانسموات والأرض مربوبون له • مع ما في لفظ الرب من اشعار بالعناية والرعاية والحفظ للمربوب •

وتخصيص ربوبيته للنسموات والأرض بالذكر دون غيرهما من المخلوقات لأنهم لم يثبتوا لأصنامهم ربوبيتها للسموات والأرض ، ولم يندروا أنها غير خالقة لهما ، فهم في ذلك يشبهون عموم الكافرين « واثن سأتقهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٤٧) • وعلى هذا فالأخبار عن ربهم بأنه رب السموات والأرض وخالقهن ، الزام لهم بما يعرفون والجام لهم بما يعلمون • و « فطرهن » أى خلقهن وأنشأهن ، والفطر من معانيه : الشق ، والابتداء والاختراع ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فلقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأتها (٤٨) • وإيثار « فطرهن » على خلقهن لما فيه من الابتداء والاختراع على غير مثال سابق ، مع القوة في الخلق ، حيث شق بهما ظلمة العدم •

والضمير في « فطرهن » للسموات والأرض ، ووصفه تعالى بإيجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن ، تحقيقا للحق ، وتذنيها على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية ، وقيل : الضمير للتماثيل ، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم ، وأثبت للاحتجاج عليهم ، لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل في كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات (٤٩)

(٤٧) الزخرف : ٩ •

(٤٨) الصحاح : مادة : نظر •

(٤٩) انكشاف : ٥٧٦/٢ ، وأبو السعود : ٧٣/٦ •

وقوله « وأنا على ذلكم من الشاهدين » تذييل للجواب به، هو مقابل لقولهم: « أم أنت من اللاحقين » كأنه قال: لست من اللاحقين في الدعاوى بن من العالمين فيها بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدعاوى (٥٠) .

وبناء الخبر على الضمير « أنا » فيه اهتمام بابرار شهادته على ذلك وتأكيدا، واسم الإشارة « ذلكم » راجع إلى قوله « ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن » وفي الإشارة إليه باسم الإشارة للبعيد مع قربته تفخيم وتعظيم له، بجانب ما أسبغته الإشارة على العبارة من اختصار حقي لها الجزالة والفضامة . وفي خطابهم باسم الإشارة عناية بتوجيه الإشارة إليهم مباشرة ليتأملوا المشار إليه وهو واضح أمام أعينهم .

وتقديم الجار والمجرور « على ذلكم » على متعلقه يفيد التخصيص، أي وأنا على ذلكم من الشاهدين لا على غيره . والشاهد يكون عالما بالشيء على سبيل الحقيقة ومن ثم يدلي بشهادته على ما شهد عليه، وتكون شهادته حجة وبرهانا عليه، وإذا أوشر التعبير بالشاهدين على غيره . وجعله من الشاهدين يشير إلى وجود كثير من الشاهدين على قضيته في مختلف الأعصار والأمصار، وهو من جملة هؤلاء الشاهدين .

وقوله تعالى: « وأنا على ذلكم من الشاهدين » اعلام لهم بأنه مرسل من الله تعالى لاقامة دين التوحيد، لأن رسول كل أمة شهيد عليها (٥١) .

(٥٠) الألوسى : ٦١/١٧/٩ .

(٥١) التحرير والتنوير : ٩٦/١٧ .

وأما الرد بالفعل فهو : « وثانئ لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا
 هديرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعنهم اليه يرجعون » • وهو يمثل
 تطوره في الدعوة حسب المقتضيات فقد تدرج ابراهيم من تغيير المنكر
 بالقول الى تغييره بالفعل ، بعد ما رأى من اصرارهم على الضلال ،
 ونفورهم عن الحجة الواضحة •

وهو ينطوى على العزم على تحطيم الأصنام ، والقيام بتنفيذ
 ما عزم عليه ، وجاء الاعلان عن عزمه في غاية القوة حيث أكد بالقسم
 واللام والنون المشددة ، لاطهار جديته في تنفيذه مع صعوبته ومشقته •
 والمقام مقام انكار من المخاطبين لزعمهم أنها أرباب لا يلحقها الضرر
 ولا يصل اليها الأذى •

وجيء بحرف التاء في القسم وهي تثني في أمر متعجب منه ،
 وكأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه ، لأن ذلك كان أمرا
 مقنوطا منه لصعوبته وتعذره ، مع ما فيه من مخاطرة (٥٢) • وعبر عن
 تكسير الأصنام بالكيد ترشيحا لصعوبته وعدم انجزه الا بالاحتبال نه
 وعبر عن آلهتهم بالأصنام مع اضافتها اليهم تحقيرا لثأتها وشأنهم
 فهي أصنامهم التي يملكونها ومع هذا يعبدونها •

والكيد للأصنام يعنى الاجتهاد في كسرها وأصل الكيد الاحتيال
 في ايجاد ما يضر مع اظهار خلافه ، وهو يستلزم الاجتهاد في ذلك ،
 فتجاوز به عنه على سبيل الاستعارة ، أو استعمال في لازمه على سبيل
 الكناية (٥٣) •

(٥٢) انكشاف : ٥٧٦/٢ •

(٥٣) حاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ •

وأجاز الشيخ ابن عاشور جعل ذلك من قبيل المناكحة التقديرية،
لاعتقاد المخاطبين أنهم يزعمون أن الأصنام تدفع عن أنفسها . فلا
يستطيع أن يمسها بسوء الا على سبيل الكيد (٥٤) . وهو وجه بعيد
يحتاج الى تقدير بعد تقدير ، مما يؤدي الى خفاء القرينة وعدم ظهور
التساؤل كما أن اعتقادهم أنها أرباب تدفع عن أنفسها ، يجعلهم
يرقنون بعدم وصول الضرر اليها مواجهة أو كيدا ، اد ستدفع كل
ذلك .

وتقييد الكيد بما بعد انصراف المخاطبين اشارة الى أنه سينفذ
عزمه في أول وقت التمكن منه حتى يكون كيده مجدياً ، اذ لا يتمكن من
تأنيذه مع حضورهم (٥٥) . وفيه دليل على دوام مباشرتهم لها ،
وجودهم بجانبها ، وحراستهم لها .

والتعبير بالاولى يشير الى مسارعتهم في الذهاب عنها الى شيء
يتلهفون للقائه ، ويشتاقون اليه ، وهو عيدهم الذي يخرجون اليه ،
وينشغلون فيه باللهو واللعب . و « مدبرين » حال مؤكدة لعاملها ،
وفي الجمع بين التولى والادبار دلالة على بعدهم الشديد عنها ، وأنه
سيختار لتفويض كيده وقتا يتخلون فيه عن آلهتهم ، ويديرون لها
ظهورهم مولين الى ما يشغلهم .

وفي الروايات أنه جعلهم يخرجون في يوم عيدهم ودخل على
الأصنام ، فوجدوها سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم من
الباب ، فكسرها بفأس في يده حتى لم يبق الا الكبير فعلق الفأس
في عنقه (٥٦) .

(٥٤) التحرير والتنوير : ٩٧/١٧ .

(٥٥) السابق .

(٥٦) الرازي : ١١١/٦ .

والفاء في قوله « فجعلهم جذاذا » فصيحة . تفصح عن سلام مقدر طوى لدلالة الحال عليه ، أى فتولوا الى عيدهم فأتى ابراهيم الأصنام فجعلهم جذاذا (٥٧) .

والجذ : الكسر والقطع ، وجعلهم جذاذا أى كسرهم قطعا ، وإيثار « جذاذا » على غيرها مما هو بمعناها لما فيها من اشعار بشدة تكسيرها الى قطع صغيرة ، ومن ثم يقال للحب الذى يجذ ويجعل سويقا جذيذا (٥٨) .

واجراء ضمير العقلاء على الأصنام فى « جعلهم » وفى « الأكبيرا لهم » جري فى التعبير على مزايم القوم فى معاملتها معاملة العقلاء ، من تعظيمها والتقرب اليها . وتتكبير « ككبيرا » يشير الى عدم اختصاصه بهذه الصفة وحده بل كان فى الأصنام من يشاركه فى الكبر لكن حطم معها .

حطم ابراهيم الأصنام واستبقى الصنم الكبير « لعلهم اليه يرجعون » ، وانجمله مستأنفة لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير ، والضمير فى « اليه » عائد على ابراهيم عليه السلام عند الجمهور ، أى لعلهم يرجعون الى ابراهيم لا الى غيره ؛ لما سمعوا من انكاره لدينهم وسبه لألهتهم فيحاجهم ويكننهم ، وتقديم الجار والمجرور لافادة الاختصاص ، أى يرجعون اليه لا الى غيره (٥٩) .

وقيل : الضمير راجع الى الكبير الذى استبقاه ، والمعنى : لعلهم يرجعون الى هذا الكبير كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات ، فيقولون له ما لهؤلاء دكسورة ومالك صحيحا ، وهذا مبنى على علمه

(٥٧) البحر المحیط : ٣٢٢/٦ .

(٥٨) مقاييس اللغة : مادة جذ .

(٥٩) الكشاف : ٥٧٦/٢ ، وحاشية الشهاب : ٢٥٩/٦ .

أن جهلهم سيؤدى بهم الى استشارته • والفائدة التى ينشدها ابراهيم
من ذلك أنهم اذا رجعوا اليه تبين لهم أنه عاجز لا ينفذ ولا يضر ،
وظهر أنهم فى عبادته على ضلال عظيم (٦٠) • ويحتمل أنه عليه
السلام يعلم أنهم لا يرجعون اليه لكن ذلك من باب الاستهزاء
والاستجهال (٦١) •

وقين الضمير فى « اليه » راجع الى الله تعالى أى لعلمهم يرجعون
الى الله تعالى وتوحيده حين يسألونه عليه السلام فيجيبهم ، ويظهر
عجز آلتهم عن دفع ما يصيبها من ضرر ، وعلى الوجهين الأخيرين فى
مرجع الضمير ، يجوز أن يكون تقديم الجار والمجرور للحصر
ويجوز أن يكون للتأيد والتقوية وأداء حق الفاعلة (٦٢) •

البحث عن الفاعل :

رجع القوم من عيدهم ، وذهبوا الى بيت أصنامهم ، فرأوا ما
حدث لها ، فانه تفهموا على سبيل البحث والانكار عن ائدى فعل ذلك
« قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين » • وفى السياق ايجاز
بطى ما سبقت الإشارة اليه لاتصاله من القرائن (٦٣) ، ولو صرح
به لترهل المشهد ، وأفسده التطويل المخل • وفى الحذف مسارعة الى
ذكر الشئ المهم •

والاستفهام لانكار التوبيخى والتشنيع على من فعل هذا الفعل
الشائن ، والتعبير بفعل دون كسر لأغماض الفعل نكبرا للجريمة

(٦٠) الكشف ٥٧٦/٢ ، والبحر المحيط : ٣٢٣/٦ ، والتحرير

والتنوير : ٩٨/١٧ •

(٦١) الآلوسى : ٦٢/١٧/٩ •

(٦٢) انساب •

(٦٣) ينظر البحر المحيط : ٣٢٣/٦ •

وتفخيزها لها ، وليتناول الكسر والاستبقاء وتعليق الفأس • وفي اسم
الإشارة تعظيم الفعل ، وتهويل لشأنه ، فهو فعل يعاين بالإشارة ،
ولا يستطاع وصفه •

وفي التعبير عنها بالآلهة دون الأصنام وما أشبه ذلك لأنه بالغة في
الإنكار والتشنيع على من فعل هذا المنكر بالهتهم (٦٤) •

وقوله تعالى « انه لمن الظالمين » استئناف مقرر لنا قبله من
الإنذار والتوبيخ والتشنيع • وتأكيده بان واللام لتحقيق مضمونه في
مقام التعليل والتقرير لفعل غريب منكر ، وفي اسمية الجملة وجعله من
الظالمين وتعريف الظالمين باللام والاتيان بها على صيغة اسم الفاعل
مزيد وصف له بالظلم ، وإشارة الى أنه من الثابتين فيه ، المستهزئين
عليه ، المعروفين به • وفي اطلاق الظلم اشعار بعموم ظلمه وتناوله
لكل ألوانه •

ورد على السائلين بعض منهم « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال
له ابراهيم » والذين قالوا ذلك جماعة سمعوا ابراهيم عليه السلام
وهو يتهدد الأصنام ويقسم على الكيد لهما ، وقد ردوا بذلك على
السائلين الذين لم يسمعوا تهديد ابراهيم عليه السلام •

و « فتى » مفعول « سمعنا » • والفتى : واحد الفتيان وهو
الشباب ، وقد يطلق على من استكمل خصال الرجال المحمودة شابا أو
رجلا قان طرفه :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنى دعيت فلم أكسل ولم أتبدأ
وتنكيره لتصغيره وتهوين شأنه بواسطة التكرار بعد تصغيره
وتهوين شأنه بلفظ فتى نفسه • ولم يعظمود مع شهرته بينهم ليجترى
عليه من يسمع وصفه المذكور •

وجملة « يذكرهم » صفة لفتى ، والمعنى يتحدث عنهم بالذم ويتهددهم وأطلق الذكر لظهور المراد به من القرينة وفي أئصار « يذكرهم » على يعيهم أو يتوعدهم ونحو ذلك مع اطلاقه عن القيود تعظيم منهم لآلئتهم بتنزيهها عن الألفاظ الموحية بالذم ، وإشعار بأن مجرد ذكره لآلئتهم وهو غير مؤمن فيه ما فيه من الخطأ في حقها ، وكاف في توجيه الاتهام إليه ومحاسبته .

والتركيب انقرآني « سمعنا فتى يذكرهم » أبلغ من قولنا : سمعنا ذكر فتى ونحوه ، لما أن « سمعنا » لنا تعلق بفتى أفاد أجمالاً أن المسموع نحو ذكره ، إذ لا معنى لأن يكون نفس الذات مسموعاً ، ثم إذا ذكر « يذكرهم » علم ذلك مرة أخرى ولما فيه من تقوى الحكم بتكرار الاسناد ، حيث أسند « يذكرهم » إلى « فتى » ثم إلى ضميره الذي يقع فاعلاً (٦٤) .

ووصف « فتى » بجملة أخرى هي « يقال له ابراهيم » وفيها تصغير لشأنه وتحقير له زيادة على ما سبق ، فهم لا يعرفون عنه سوى أنه فتى مجهول مذكر يدعى أو يسمى ابراهيم . وفي بناء الفعل للمجهول مزيد تنكر له ، وتهوين لشأنه ، فهم لا يقولون له ولا تدعوه ألسنتهم ولا يخطر على بالهم ، وإنما يناديه مجهولون .

ولما سمع السائلون هذا الاتهام الموجه إلى ابراهيم « قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون » . أي أحضروه مشاهداً معيناً للناس حيث ينظرون إليه نظراً لاختفاء معه (٦٦) . وفي الأمر بالاتيان به دلالة على أن القائلين من تكبراء القوم ووجهائهم ، وإشارة إلى وجوب احضاره مقاداً ، كما يؤتى بالمتهم إلى المحكمة مما يشعر بقوتهم وجبروتهم .

(٦٥) ينظر الألوسى : ٦٣/١٧/٩

(٦٦) ينظر نظم الدرر : ٤٣٩/١٢

و « على أعين الناس » في محل الحال بمعنى معينا مشاهدا أي
بدرأى منهم ومنظر ، و « على » للاستعلاء المجازي ، كأنه لتحديقهم
اليه وارتفاع أبصارهم لرؤيته مستعل على أبصارهم ، والمراد أن يثبت
اقيانه في الأعين ، ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه ،
فعلى مستعارة لتمكن الرؤية وانكشافها (٦٧) •

والمراد بالناس قوم ابراهيم عليه السلام ، والتعبير بالناس يفيد
تأثير المعانين له ، والتوسع في حشد المشاهدين له ، مبالغة في التشهير
به وإشاعة فعلته النكراء لاستجلاب سخط الجميع عليه حتى لا يتعاطف
مع أحد •

وذاوا أمرهم باحضاره أمام الناس بـ « لعنهم يشهدون » أي
يلعنون عليه بما سمع منه وبما فعله ، أو يحضرون عقوبتهم له (٦٨) •
وفي التعبير بينشهدون دون يحضرون اشعار بأنهم شهود على ما فعله
يجذب حضورهم عقابه • وفي حذف مفعول « يشهدون » ايذان
بالعموم في الفعل مما يجعله شاملا لجميع التفسيرات • وفي المجيء
لمعل المفيدة للرجاء اشارة الى وجود بعض غير منساقين في التيار
المعادي لابراهيم عليه السلام وان لم يؤمنوا بما يدعو اليه ، وهؤلاء
يكون شهودهم لتأليبهم عليه ، فالأصل في الرجاء طلب أمر غير حاصل
يتوقع حصوله ، وهذا يجعله موحيا بما ذكرناه •

وحشد الناس للمعينة والمشاهدة كان مطلب كبار القوم كما بينا،
عنى أنه في ذات الوقت مراد ابراهيم عليه السلام ومرامه ، حيث كان

(٦٧) ينظر الكشاف : ٥٧٧/٢ ، والبحر المحيط : ٣٢٠/٦ ،

وحاشية الشهاب : ٢٦١/٦ •

(٦٨) الكشاف : ٥٧٧/٢ •

يود اجتماعهم في محفل حاشد لا يوجد مثله ، ليعين لهم على رموس
الأشهاد ما هم عليه من واضح الجهل المتضمن قلة العقل (٦٩) •

محاكمة ابراهيم وظهور حجته :

وأتى القوم بابراهيم عليه السلام الى ساحة التحقيق ، حيث
احتشد الناس لشهود ما يجرى ، وبدأوا تحقيقهم معه بحمله على
الاعتراف بأنه الذي كسر أصنامهم « قالوا أنت فعلت هذا بأنهننا
يا ابراهيم » • وفي السياق ايجاز بطل مشهد الاثيان به ، والاقتصار على
ذكر سؤالهم له ، وذلك للتنبية الى أن اثباتهم به ومسارعتهم الى ذلك
أمر محقق غنى عن البيان (٧٠) • وللتعجيل بحكاية ما عليه مدار القصة •
والفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستئناف البياني المبني على
سؤال مقدر ناشئ من حكاية أمرهم باحضاره أمام الناس ، كآه قيل :
فماذا فعلوا به بعد ذلك ؟ • • وهذه طريقة متبعة في حكاية المصاورات
في القرآن الكريم (٧١) • وقد أشرفنا اليها في مناسبات عدة •

والاستفهام للتقرير بالفاعل ، كما هو مقتضى تقديمه وليس
للتقرير بالفعل ، فتم يريدون حمله على الاقرار بأنه هو الذي كسر
أصنامهم وجعلها جذاذا ، قال الشيخ عبد القاهر : لا شبهة في أنهم
لم يقولوا ذلك نه عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر
الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، وكيف — يريدون
الأول — وقد أشاروا له الى الفعل في قولهم « أأنت فعلت هذا » وقال
هو عليه السلام في الجواب « بل فعله كبيرهم هذا » • ولو كان التقرير
بالفعل لكان الجواب : فعلت أو لم أفعل (٧٢) •

(٦٩) ينظر نظم الدرر : ٤٤٠/١٢ •

(٧٠) أبو السعود ٧٤/٦ •

(٧١) نظر دلائل الإعجاز : ٢٤٠ ، ومفتاح العلوم : ٢٦٥ . ٢٦٦ •

(٧٢) دلائل الإعجاز : ١١٣ •

وللخطيب نظر في كون الاستفهام للتقرير ، فيرى أن الاستفهام يجوز أن يكون على أصله من قصد السؤال لا التقرير ، إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام (٧٣) • حتى يمتنع حمله على حقيقة الاستفهام •

وأجيب عن هذا بأن في السياق ما يدل على علمهم بذلك وهو أنه عليه الصلاة والسلام قد حلف بقوله « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ثم لما رأوا كسر الأصنام « قالوا من فعل هذا بالهتتا أنه لن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » فالظاهر أنهم قد علموا ذلك من حلفه وذمه للأصنام (٧٤) ، فلا يصح حمل استفهامهم على حقيقته (٧٥) •

والتعبير باسم الإشارة « هذا » لتحويل الفعل وتعظيم أمره ، فهو من شدته وفظاعته يشار إليه ولا يعبر عنه ، بجانب ما فيه من تمييز للفعل بالإشارة المحسوسة مع الإيجاز • وفي التعبير « بالهتتا » زيادة تكبير للفعل ، وتعظيم للجريمة ، ونداؤه بأداة البعيد « يا » مع قرينه للدلالة على أنه بعيد عن قلوبهم ، غير عالق بأذهانهم ، لا تربطهم به صلة تستوجب قرينه •

وجاء سؤال القوم لإبراهيم عليه السلام على ما يريد ويتوقع ، ومن ثم كان قد أعد جوابه سلفاً بالفعل حين علق الفأس في عنق الصنم الكبير ، ولما جرى به في مجمع الناس أجابهم عنه بالقول المحم المؤسس على فعله السابق « قال بل فعنه كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » •

(٧٣) بغية الايضاح : ٤٥/٢ ، ٤٦ ،

(٧٤) المطول : ٢٣٦ •

(٧٥) بغية الايضاح : ٤٦/٢ •

وقد اهتم الزمخشري بتخريج جواب ابراهيم عليه السلام بكلام لايد من ذكره فقال : هذا من معارضض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها الا اذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه ان قصد ابراهيم صلوات الله عليه لم يكن الي أن ينسب الفعل الصادر عنه الي الضم ، وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما او قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت نسهر بحسن الخط : أنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة ماسدة ، فقلت له : بل كتبت أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك واثباته للامي أو الخرمش ، لأن اثباته والأمر دار بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر . ونقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل اليه ، لأنه هو الذى تسبب لاستهانتها بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند الي مباشرة يسند الي الحامل عليه . ويجوز أن يكون حكاية لما يقود الي تجويزه هذبيهم ، فكأنه قال لهم : ما تذكرون أن يفعله كبيرهم ، فان من حق من يعبد ويدعى لها أن يقدر على هذا وأشد منه (٧٦) .

والزمخشري يخرج جواب ابراهيم عليه السلام على ثلاثة أوجه :

الأول : انه وارد على سبيل التعريض ، فمقد قصد اثبات الفعل

بأنفسه من حيث أثبتته للصنم الكبير وهو عاجز عنه تهكماً واستهزاءً ، به
وبعباديه ، والزاماً لهم بالحجة عندما يتيقنون بعجزه عن ذلك •

والثانى : أنه من الاسناد المجازى ، حيث أسند الفعل الى سببه ،
فقد غاظه الأضنام وبخاصة كبيرها ، وكان هذا سبباً في تكسيره لها •
والثالث : أنه من قبيل التزام الخصم بمقتضى مذهبه ، توضيحاً
عليه ، لينبين ما فيه من باطل ، وما يجرد عليه من حرج غير جمع عنه (٧٧) •
وقال أبو السعود في تخريج هذا الجواب : سلك عليه السلام
مسلكاً تعريضياً يؤديه الى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على اللطف
وجه وأحسنه ، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقى
من الكذب ، حيث أبرز الكبير قولاً في معرض المباشر للفعل بإسناده
اليه ، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلاً بجعل الفأس في عنقه ، وقد قصد
اسناده اليه بطريق التسبيح (٧٨) •••

والفرق بين الزمخشري وبين أبى السعود أن الزمخشري يفصل
فكرة التعريض عن فكرة المجاز العقلى ، ويجعل كلا منهما أساساً
لتخريج مستقل ، أما أبو السعود فلا يفصل بينهما ، وإنما يوظفهما معا
في اتجاه نحو غاية واحدة هي الزام الحجة على اللطف وجه وأحسنه (٧٩)
ولأبى السعود وجهة نظر في كلام الزمخشري فصلها بقوله :
وأما ما قيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه
الى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وأثبتته لها على أسلوب تعريضى
يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل ذلك : بصاحبه

(٧٧) التعريض فى القرآن الكريم : ٢٤ •

(٧٨) أبو السعود ٧٤/٦ •

(٧٩) التعريض فى القرآن الكريم : ٢٥ •

اللفظ الحسن والأهمل... فمبعض عن التحقيق ، لأن خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله في السؤال لابتدائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالة عندك ، ولا ريب في أن مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم في سؤالهم لابتدائه على احتمال صدور عن غير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبغي ، عنه قوله « فاسألوهم ان كانوا يذلقون » (٨٠) .

ورد الدكتور الخولى علي أبي السعود فقال : انه التمس عليه بيان الغرض ببيان وجه الدلالة في حديث الزمخشري ، وكان المنل الذي ضربه جار الله انما هو لبيان الغرض وليس كذلك ، وانما ساقه لبيان وجه الدلالة التعريضية ، وهذا بين من قوله : لأن اثباته — الفعل — والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر ، أما الغرض من الآية فقد صرح به الزمخشري في قوله : وانما قصده تقريره الفعل لنفسه واثباته لها على وجه تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهو نفس ما قاله أبو السعود : سلك بهم مسلكا تعريزيا يؤديه الى غرضه ، وهو الزامهم الحجة على اللفظ وجه وأحسنه (٨١) .

ونعود التأمّن في جواب ابراهيم عليه السلام لتنتبين ما فيه من خصائص : ففي التعبير — « كبيرهم » — مزيد تهكم بالأصنام وبعابديهم ، لأن الكبير — وهو الذي له عندهم من المكانة ماله — اذا كان عاجزا فالصغار منه أعجز .

(٨٠) أبو السعود : ٧٥/٦ .

(٨١) التعريضي في القرآن الكريم : ٧٩ .

وفي تنبيده بالاشارة دلالة على أن الأصنام كان فيهم كبير غير
الذي تركه بغير كسر (٨٢) وعن ثم ميز المقصود بالاشارة أكمل تمييز ،
ولم يكتب بتدريسه بالاضافة « كبيرهم » •

والأمر في قوله « فاسألوهم » للتعجيز والتهكم ، لأنه عليه السلام
يعلم أن الأصنام لن تجيبهم ، وأن النجوم لن يسألوهم لعلمهم بذلك •
والضمير للأصنام ما تحطم منها وما بقى قائما ، وضمير الجمع
لاجرائهم مجرى العقلاء مجارة لهم في زعمهم •

والاثنيان بان التي للشك في قوله « ان كانوا ينطقون » من قبيل
مجاراتهم في زعمهم حتى يفهمهم بالحجة ، حيث لم يجزم بعدم
قدرتها على النطق ، ولم ينف فلك عنها نفيا صريحا ، وترك الأمر مشكوكا
فيه وهو على يقين من عدم نطقها كي يتوصلوا الى ذلك بأنفسهم بعد
مراجعتها ، فلا يدرون جوابا ويكتبون •

وقيل « ان كانوا ينطقون » دوزن ان كانوا يسمعون أو يعقلون
مع أن السؤال موقرّف على السمع والعقل أيضا لما أن نتيجة السؤال
هو الجواب ، وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل (٨٣) ولم يقل
يجيبون مراعاة للفظ. « اسألوهم » لما في النطق من عموم يشمل
الاجابة وغيرها ، فهو أنسب لبيان عجزهم التام عن النطق بالاجابة
أو بغيرها ، وهذا من أسرار عدم تقييد النطق بمفعول ونحوه •

وايثار « ان كانوا ينطقون » على ان نطقوا ونحو ذلك ، لما فيه
من اشارة الى قدم عهدهم في عدم النطق ، وأنه ليس أمرا جديدا
عليهم •

• (٨٢) نظم الدرر : ٤٤٠/١٢

• (٨٣) أبو السعود : ٧٥/٦

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هذا ، وردهم الى شيء من التدبر والتفكير (٨٤) ، « فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » • أى فتفكروا وتدبروا وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ، ولا على الاضرار بمن كسره بوجهه من الوجوه ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أو جلب منفعة له فحيف يستحق أن يكون معبودا (٨٥) •

وذكر الشيخ ابن عاشور أن قوله تعالى : « فرجعوا الى أنفسهم » يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم الى بعض ، أى أقبل بعضهم على خطاب بعض وأعرضوا عن مخاطبة ابراهيم عليه السلام ، فقال بعضهم لبعض انكم أنتم الظالمون ، وضمائر الجمع على هذا مراد منها التوزيع كما فى : ركب القوم دوابهم •

ويجوز أن يكون معناه فرجع ذلك واحد الى نفسه ، أى ترك التأمل فى تهمة ابراهيم ، وتدبر فى دفاع ابراهيم ، فلاح لكل منهم أن ابراهيم برىء فقال بعضهم لبعض انكم أنتم الظالمون ، وضمائر الجمع على هذا جارية على أصلها المعروف (٨٦) •

وانتعبير بالرجوع الى أنفسهم ، مجاز عن التفكير والتدبر على سبيل الاستعارة ، حيث شبه تحولهم من الحديث مع ابراهيم عليه السلام الى التدبر والتفكير فيما هم عليه بالرجوع ، بجامع التحول من شيء الى شيء آخر • وفى ايثار الرجوع ائثار بأنهم تبيينوا خطأ ما هم فيه فرجعوا عنه • وفى ايثار « أنفسهم » على الى بعضهم اشارة الى أن الحق مستقر فى أنفسهم قابض فيها ، لا يحتاج فى اظهاره

(٨٤) فى ظلال القرآن : ٢٣٨٧/٤ •

(٨٥) الألوسى : ٦٦/١٧/٩ •

(٨٦) التحرير والتنوير : ١٠٣/١٧ •

الا رجعة تأمل مع النفس • ويمكن أن يكون رجوعهم الى أنفسهم كناية عن استقامة تفكيرهم ، وتدبرهم فيما هم عليه •

وقد حكموا على أنفسهم بالظلم على أقوى نهج ، فأتدوا حكمهم بان ، وقصروا أنفسهم على الظلم عن طريق ضمير الفصل « أنتم » وتعريف المسند باللام ، وأطلقوا الظلم لافادة أنهم موصوفون به على العموم فمهم ظالمون لابراهيم عليه السلام ، وهم ظالمون في عبادة ما لا ينطق ، وغير ذلك من ألوان الظلم ، والقصر اضافي بالنسبة الى ابراهيم عليه السلام ، أى أنتم الظالمون لا ابراهيم ، حيث اتهمتموه بالظلم •

وكانت بادرة خير أن يرجعوا لأنفسهم ويستشعروا ما في موقفهم من سخف وما في عبادتهم لهدد انتمثيل من ظلم •• ولكنها لم تكن الا ومضة واحدة أعقبها الظلام (٨٧) « ثم نكسوا على رؤوسهم لقد غمتم ما هؤلاء ينطقون » • أى استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة وأخذوا في المجادئة بالباطل والمكابرة (٨٨) •

والنكس : قلب الشيء على رأسه (٨٩) • و « نكسوا على رؤوسهم » استعارة تمثيلية ، شبه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل انشىء مستعليا على أعلاه (٩٠) ويجوز أن يكون كناية عن انقلابهم الى الجدل والمكابرة ، أو كناية عن تطلعيء رؤوسهم وتكيسها الى الأرض

(٨٧) فى ظلال القرآن : ٢٣٨٧/٤ •

(٨٨) الكشاف : ٥٧٧/٢ •

(٨٩) مقاييس اللغة ، ولسان العرب مادة : نكس •

(٩٠) البيضاوى : ٤٤٣ •

على سبيل الخجل والاندسار مما بهتهم به ابراهيم من قول الحق ،
 ودمغهم به فلم يطيعوا جوابا (٩١) .

وعلى كل فنى العبارة تصوير لهم في رجوعهم عن الفكر المعتدل
 الى المجادلة والمكابرة بصورة المنقلب على رأسه بعد أن كان منتصبا
 على قدميه في وضع معتدل ، وفي هذا مزيد تشسيع بهم ، وتنديد
 بعقولهم وفكرهم المقلوب .

وفي العطف بثم اشارة الى أن رجوعهم عن التفكير المعتدل وبعد
 الاقرار الصريح بما هم عليه من ظلم - أمر بعيد عجيب (٩٢) وفي بناء
 الفعل « نكسوا » للمفعول اشارة الى أنهم قلبوا قلبا لا اختيار لهم فيه
 ولا حيلة لهم في دفعه ، مما يدل على شدة تأثرهم بالضلال ،
 وانقيادهم له .

وجملة « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » مقول محذوف أى
 قائلين لقد علمت أنه ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم (٩٣)
 والتأكيد باللام وقد ، والتعبير بالعلم ، لاثبات علمه بعدم نطق
 الأصنام على وجه اليقين الذى لا شك فيه ، وفي هذا اشعار بزيادة
 لومهم له على أمرهم بسؤالهم ، واستنكارهم لذلك .

وتقديم المسند اليه المسبوق بالنفى على خبره الفعلى « ما هؤلاء
 ينطقون » يفيد تخصيصهم بعدم النطق ، واثباته لغيرهم ، كما هو
 مذهب الامام عبد القاهر (٩٤) . وفي اسم الاشارة تعظيم لهم حسب

(٩١) البحر المحيط : ٣٢٥/٦ .

(٩٢) ينظر نظم الدرر : ٤٤٢/١٢ .

(٩٣) أبو السعود ٧٥/٦ .

(٩٤) ينظر دلائل الاعجاز : ١٢٤ ، ١٢٥ .

زء،هم ، مع كونه مخرجا للقيوم من دائرق تعبيري ، اذ لو ذكروهم
بالآلهة لنتائ ذلك مع عدم نطقهم ، ولو ذكروهم بالأصنام أو التماثيل
لكان تحقيرا لهم •

ولما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق ، انتهز ابراهيم
الفرصة لارشادهم مع التوبيخ والتعنيف ، مفرعا على اعترافهم بأنها
لا نطق استفهاما انكاريا على عبادتهم أياها ، وزائدا بأن تلك الأصنام
لا تنفع ولا تضر (٩٥) « قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا
ولا يضركم • أف، لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » •

ورد ابراهيم عليه السلام يتضمن ثلاثة أمور :

الأول : ابطال عبادة الأصنام بالدليل « أفتعبدون من دون الله
مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم » فهذا ابطال عبادة الأصنام بالحجة
المقنعة ، لأن حالها تنطق بعجزها ومهانتها وعدم صلاحيتها للألوهية ،
وهم يعلمون ذلك وقد أقروا به أمام ابراهيم ، وهذا يوجب اجتناب
عبادتها قطعاً •

والاستفهام للانكار التوبيخي ومجىء الجملة على صيغة
الاستفهام لما في ذلك من توبيخ وتقريع لهم ، بجانب أنه يحثهم
على التأمل ويدعوهم الى النظر والتدبر فيما يعبدون ، ومدى استحقاقه
العبادة ، مما يجعلهم ينتهون عما هم فيه من ضلال بين • والفاء عاطفة
على مقدر أى : أتعلمون ذلك فتعبدون ••• وفي الحذف ايجاز ،
• أحكام للعبارة • والتعبير بالمضارع « تعبدون » يدل على استمرارهم
فى عبادتها • والتعبير عن الأصنام بالوصول المبهم « ما » يشير الى
جهاتها ، واستهجان التصريح باسمها ، وليدخل فى ذلك كل ما يعبد
من دون الله تعالى •

و « شيئاً » تفيد العموم ، وتفكيرها يفيد التحقير ، فهذه الأضنام لا تتفهم شيئاً م من الأتسياء • وحذف « شيئاً » في حان الضرر لعلمه مما سبق ، وفي حذفه اشعار بمزيد العموم ، فهي لا تلحق بهم ضرراً أياً كان • وبين النفع والضرر طبق بديع أظهر المعنى وأكده • وتقديم النفع على الضرر لما أن الانسان ميال بطبعه الى ما يعود عليه بالنفع ويحقق له المصلحة ، ولكون النفع أدل على القدرة من حيث انه يكون عادة بالايجاد ، والضرر يكون عادة بالسلب • وايتار التعبير بـ « ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضر دم » على ما لا ينطقون كما هو المتبادر من كلامهم السابق ، لاطهار عموم عجزها وشموله ، اذ لا يقتصر عجزها على عدم النطق فقط ، بل هو عجز كلي عن فعل ما ينفع أو يضر ، ولا رجاء لأحد الا بواحد منهما كما قال الشاعر :

إذا أدت لم تنفع فضر فانما يرجى الفتى كيما يضر وينفع

والثانى : اعلان تضجره وغضبه من قومه ومعبوداتهم « أف لكم ولما تعبدون من دون الله » وهذا استئناف لتبكييتهم بعد أن أثبت لهم عجز معبوداتهم وعدم أحقيتها بالعبادة ، وقد استعمل فيه أعلى كلمات التحقير التي لا تقال الا لما هو غاية في القذارة (٩٦) •

و « أف » اسم فعل بمعنى أضجر ، دال على تضجره واستفذاره منهم ومن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى • وأصله صـجرت المنضجر الذي ضاقت نفسه من شيء ، وقد أضجره ما رأى من شائهم على عبادة الأضنام بعد انقطاع عذرهم بوضوح الحق وزهوق الدال • واللام لبيان المتأفف به ، أى لكم ولآلهتكم هذا التأفف (٩٧) •

(٩٦) نظم الدرر : ٤٤٣/١٢ •

(٩٧) الكشاف : ٥٧٧/٢ •

وقيل « ولما تعبدون من دون الله » دون أن يقال : ولأنهم يتقدمون أو لأصنامكم ونحو ذلك في الجملة القرآنية من تشنيع بهم ونسبهم بجريرتهم ، حيث عبدوا الأصنام من دون الله القادر الحكيم ، كما أن فيها اشعاراً بعلّة التأنف منهم ، إذ تشبثوا بعبادة باطلة ، وتلك جريمة تدعو إلى تضجره منهم واحتقاره لهم ولعبوداتهم .

وأظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لزيادة البيان ، وتشنيع عبادة غيره (٩٨) وهو الله الذي بيده ملك السموات والأرض .

والثالث : توبيخهم على عدم تدبرهم وتعقلهم « أفلا تعقلون » وهذا استنهام عن انتفاء تعقلهم ، مستعمل في الإنكار والتوبيخ . نزلوا منزلة من انقضى تعقله فأُنكر عليهم ذلك (٩٩) . والغاء عاطفه على مقدر دل عليه ما عطف عليه ، أي ألا تتفكرون فلا تعقلون . والفعل « تعقلون » منزل منزلة اللازم ، وذلك لوصفهم بعدم التعقل على الإطلاق فهم لا يعقلون شيئاً ما ، وهذا أبلغ في الإنكار عليهم والتوبيخ لهم . وإيثار « تعقلون » على تتفكرون ونحوها ، لأن عدم تعقلهم يلزم منه عدم تفكرهم وتدبرهم ، إذ العقل أداة التفكير والتدبر ، فعدمه عدم لها ، كما أن نفي التعقل عنهم يثبت ضده لهم وهو الجنون ، وهذا أبلغ في التشنيع عليهم والذم لهم .

وما سبق نرى أن رد إبراهيم عليه السلام عليهم جاء رداً قوياً جامعاً لخصائص الإنكار والتوبيخ والذم والتشنيع ، حيث اشتمت على إنكارين بينهما تأنف واستنقار منهم ومن معبوداتهم مع تضمينها العناصر التعبيرية التي بينهاها .

(٩٨) التحرير والتنوير : ١٧/١٠٥ .

(٩٩) السابق : ١/٤٧٧ .

وقد رتب هذه الأمور الثلاثة ترتيبا طبيعيا ، حيث بدئت بابطال عبادتهم ، تلا ذلك تأففه من هذا الباطل وتشبثهم بعبادته ، وخدمته ببيان سبب ذلك وهو عدم التعقل . وفصلت جملة « أف لكم . . . » و « أفلا تعقلون » عن سابقتها لأنها متفرعتان عليها لزيادة الذم والتوبيخ . فعبادة ما لا ينفع ولا يضر تقتضى تحقير فعلهم واستقذاره ، وهما يقتضيان عدم التعقل والتفكر .

ويصور انفس الحالة النفسية التى كان عليها ابراهيم عليه السلام ، اذ كان قد بلغ به الضيق منهم مبلغه ، لاعراضهم عن الحجة الواضحة وتمسكهم بالباطل ودفاعهم عنه ، فانطلق انطلاق الغيظ الذى ينفث عن نفسه بتقريع معانده ، فى جمل متواليات لا عطف بينها كى لا يعطيه فرصة يقطع من خلالها تقريعه وتفريغ شاحنته النفسية .

الذكم والنجاة :

ولما دمع ابراهيم عليه السلام القوم وباطلهم بالحجة القامرة ، وقدنفهم بسهام التوبيخ والتقريع القاتلة ، وعجزوا عن مواجهته بباطلهم ، ثارت عصبيتهم ، وهاجت حميتهم ، وانذنفوا الى الانتقام منه وايقاع أقصى العقوبات به ، « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » . أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضافت عليهم انحيل حرقوه وهكذا المبطل اذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ثم يكن أحد أبغض اليه من الحق ، ولم يبق له مفرع الا مناصبته ، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة (١٠٠) .

واسناد القول اليهم بضمير الجمع مشعر باتفاق كلمتهم على التحريق ، وأن القول بذلك كان دفعة واحدة ودون مواربة . والأمر

في « حرقوه » مستعمل في المشاورة (١٠١) • ومما دل على ذلك ما جاء في قوله تعالى : « فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه » (١٠٢) •

وفي صيغة فعل بالتشديد مبالغة في حرقه حتى لا يبقى له أثر يذكر ، ودلالة على شدة حنقهم عليه ، وغيظهم منه • وضمير الغائب مشير الى تحقيرهم له وتهوينهم لشأنه •

وانما اختاروا اهلاكه بالنار ليكون عقابهم له أشد مما فعله بالهتهم ، وبذلك يأتي ردهم العملى عليه أفضح من رده العملى عليهم حين كسر أصنامهم ، وهكذا شأن الظلمة الكافرين على مدى العصور • وحرصوا على التحريق وحثوا عليه بأمر آخر هو « وانصروا آلهمكم » التي حطها ففي **تحريككم** نصر مؤزر لها • والتعبير بـ « انصروا » مشعر بأن ابراهيم يحارب آلهم ، ولا بد لهم من نصرتها في هذه المعركة • وذكرها باسم الآلهة مع اضافتها اليهم مزيد اثاره وتحريض على نصرتها ، فما أغير العابد على معبوده •

ويؤكد التحريض ويتقوى الالهاب بجملته « ان كنتم فاعلين » أي: كنتم فاعلين النصر ، أو ان كنتم ناصرين آلهمكم نصرا مؤزار ، فاختراروا له أهول المعاقبات وهي الاحراق بالنار ، والا فرطتم في نصرتها (١٠٣) وعلى هذا فجواب الشرط محذوف لدلالة ما سبق عليه ، وفي حذفه ايجاز بديع يشعر بضيق وقتهم عن تكلمة العبارة ، فلم يعد للكلام متسع ، والمطلوب المسارعة الى تنفيذ الحكم •

• (١٠١) التحرير والتنوير : ١٧/١٠٥ •

• (١٠٢) العنكبوت : ٢٤ •

• (١٠٣) الكشاف : ٢/٥٧٨ •

ويطوى السياق مشهد اعداد النار بجمع الحطبي ، وبناء الينيان ،
 واخترام النار ، وتحولها الى جحيم ، والمقاء ابراهيم عليه السلام
 فيها • ويذكر أمر الله تعالى للنار بالابراء والسلام « قلنا يا نار كوني
 بردا وسلاما على ابراهيم » • وانما طوى ما سبق لاتضاحه من القرائن
 والأحوال ، وفي طيه اشارة الى السرعة التي تم بها تنفيذ الحكم
 ونجاته منه ، اذ يوحي بعدم وجود فاصل زمني بين الأمر بتحريقه
 والنقائه في النار وأمر الله تعالى بنجاته •

واسناد القول التي نون العظمة لما أنه لا يصدر الا عن الله تعالى
 ولأ يقدر عليه سواء ، وفيه دلالة على عظمته ، وفخامة مضمونه ،
 وتحقيقته الفوري • وفي نداء النار وأمرها تصوير لها بصورة مأمور
 مطيع لأمر سيده • والأمر بمعنى التسخير كما في قوله تعالى :
 « كونوا قردة خاسئين » (١٠٤) اذ جعلت النار المسخرة لقدره الله
 تعالى مأمورة مطاوعة (١٠٥) •

و « كوني بردا وسلاما » أي كوني ذات برد وسلام : أي أبردى
 بردا غير ضار ، واقامة « كوني بردا » مقام أبردى لما فيه من
 الاجمال بكان والتفصيل بخبرها ، وافادة دوام بردها لجعلها مكونة
 له (١٠٦) •

وذكر « سلاما » بعد ذكر البرد كلاحتراس لأن البرد مؤذ بدوامه
 اذا اشتد ، فعقب ذكره بذكر السلام لذلك (١٠٧) • والتقييد بالجار
 والمجرور « على ابراهيم » لما أن جعل النار ذات برد وسلام كان

(١٠٤) البقرة : ٦٥ •

(١٠٥) ينظر أبو السعود : ٧٦/٦ حاشية الشهاب : ٢٦٣/٦ •

(١٠٦) حاشية الشهاب : ٢٦٣/٦ •

(١٠٧) التحرير والتنوير : ١٠٦/١٧ •

من أجله ، بوغن ابن عباس رضى الله عنهما : لو لم يقل « وسلاما »
لهلك ابراهيم من البرد ، ولو لم يقل « على ابراهيم » لما أحرقت
نار بعدها ولا انتقدت (١٠٨) •

وكانت النار — كم أمرها خالقها جل شأنه — بردا وسلاما على
ابراهيم ، فمكث فيها مدة اختلفت في تحديدها الآراء ، رأى فيها من
رحمة الله ما رأى ، حتى خمد لهيبها وصارت رمادا ، وطلع ابراهيم
عليه السلام ساطع البرهان باهر الحجة ، بينما أصيب القوم بانذهول
وبدهوا بالخيبة ، ويطوى السياق القرآنى هذه التفاصيل ليعزز موطن
العظة والعبرة « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين » وفى ترك
التفاصيل ما حدث بعث للنفس على التأمل فى أمر هذه المعجزة الباهرة
لتتصور ما دار فيها وما كان ، مما يعجز عن وصفه اللسان ، ولا يحيط
بكنهه بيان •

و « كيدا » أى مكرا عظيما فى الأضرار به • وتسمية عزمهم على
أحرقه كيدا يقتضى أنهم دبروا ذلك خفية منه ، ولعل قصدهم من ذلك
ألا يفر من الباد فلا يتم الانتصار لآلهم (١٠٩) • وانما ذكرت الآية
إرادة الكيد ولم تصرح بما فعلوه به مع قيامهم بالقائه فى النار حقيقة ،
لأن الأمر عند التحقيق لم يتعد مرحلة الإرادة ، حيث أبطل الله تعالى
ما دبروه له ، فلم يكن الفعل ذا أثر عليه ، ومن ثم لم يعتقد بذكره
وكأنه لم يكن ، وتقديم الجار والمجرور « به » على المفعول يفيد
تخصيصه بهذا الكيد ، فقد أرادوا كيدا به لا بغيره •

وقوبلت ارادتهم بالجمعن من الله تعالى ، فمبلغ كيدهم كان
بالإرادة ، إذ الفعل لم يكن له تأثير لأن الله أبطله ، وفى مقابل ذلك :

(١٠٨) البحر المحيط : ٣٢٨/٦ •

(١٠٩) التحرير والتنوير : ١٠٧/١٧ •

جذبهم الله الأخرسين ، و « الفاء » مشعرة بمعاقبة خسارتهم وخيبتهم لارادتهم الكيد ، مما يدل على أن الله تعالى كان لهم بالمرصاد ، فلم يمهلمهم لتحقيق مأربهم • وفي اسناد الفعل الى نون العظمة تفخيم لشان هذا الجعل ، فهو من العظيم الذى لا يقدر عليه الا هو •

و « الأخرسين » جمع أخسر اسم تفضيل يشعر بأن خسارتهم فوق كل خسارة ، حيث خسروا كيدهم وتدبيرهم ، وخسروا بانتقام الله منهم بعد ذلك ، وفي حذف المفضل عليه اشارة الى أنهم الموصوفون بهذا الوصف على الاطلاق ، فهم الأخرسون من كل خاسر على العموم • وتعريف « الأخرسين » باللام يفيد القصر ، أى جعلناهم الأخرسين لا غيرهم ، فخصهم الله بالخسران البالغ ، فى مقابل أنهم خصوا ابراهيم عليه السلام بالكيد والانتقام •

وهكذا نجى الله ابراهيم من النار ، وأظهر حجته ، ونصره على انقوم الكافرين ، وجعلهم الأخرسين ، وتلك عقبى كل جبار عنيد •

الخاتمة :

ولم تترك الآيات ابراهيم عليه السلام عند هذا المشهد البالغ التأثير ، وانما وأصلت عرض نعم الله تعالى التى توالت عليه بعد ذلك فى سبيل اظهار الخاتمة العظيمة لقصة جهاده من أجل عبادة الله الواحد النقيض ، لتشرح بذلك صدور المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، ويتيقن من نهاية هائلة بالنصر ، مفعمة بالاهدادات الالهية، والبركات الربانية •

وتذكر الآيات ست نعم جلية :

الأولى : « ونجيناه ولو طأ الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » وبدىء بهذه النعمة لأنها تمثل نهاية مشواره مع أبيه وقومه ، وبداية مشوار جديد فى الدعوة فى ظلال حياة عامرة بالخيرات والبركات •

وعطف « لوط » عليه لما أنه ابن أخيه الذي آمن به وصدقته
وهاجر معه .

وعدى « نجينا » بالى لتضمينه معنى الاخراج ، وقين ان « الي »
معلقة بمحذوف وقع حالا أى منتهى الى الأرض ، فلا تضمين (١١٠) .
و « الأرض » هى أرض فلسطين ، ووصفت بأن الله يبارك فيها للعالمين
لكثرة خصبها وثمرها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء (١١١) .
والمقصود بالعالمين الناس ، أو الساكنون فيها (١١٢) ، وفى إطلاق
العالمين عليهم اشعار بكثرتهم . وفى اسناد برك الى نون العظمة
تفخيم لسانها فهمى من لدن العظيم الكريم الذى يقدر على ذلك دون
سواه .

والثانية : « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة » . وهبة اسحاق
له كانت على الكبر وبعد أن يئست زوجه سارة من الولاد ، وهبة يعقوب
كانت لاسحاق فى حياة والده ابراهيم عليه السلام . والنافلة الزيادة
غير الموعودة ، و « نافلة » منصوبة على الحال من اسحاق ويعقوب ،
شأن الحال الواردة بعد المفردات اذ تعود الى جميعها (١١٣) . والتعبير
بالهبة لما أنه كان محض تفضل من الله تعالى اذ ولد له فى حال
شيخوخته وكون امرأته عجوزا عقيما . وتقديم الجار والمجرور « له »
على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ، ولأن فى تأخيره
اخلالا بجزالة انظم الكريم لما فى المفعول وما عطف عليه من طول .
والثالثة : « وكلا جعلنا صالحين » أى كل واحد من هؤلاء المذكورين :
ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب عليهم السلام جعلنا صالحين ، بأن

(١١٠) الألوسى : ٧٠٧/١٧/٩ .

(١١١) القرطبي : ٤٣٤٤/٦ .

(١١٢) ينظر التحرير والتنوير : ١٠٨/١٧ .

(١١٣) التحرير والتنوير : ١٠٩/١٧ ، وينظر أبو السعود : ٧٧/٦ .

وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كأميين (١١٤) • وتنبؤين
« كلا » عوض عن المضاف إليه ، وتقديمه على الفعل لتخصيص المصالح
بالكل لا ببعضهم دون بعض •

والرابعة : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » وتكرار الجعل
للاهتمام بابرار هذه النعمة على وجه الاستقلال تأكيدا لفخامة مضمونها
وأهميتها • و« أئمة » جمع امام وهو القدوة والمثل لغيره : وفي إثاره
على ما يشبهه لما يلابسه من دلالة دينية ، فهم أئمة يقتدى بهم في
أمور الدين ، وبين ذلك بجملة « يهدون بأمرنا » فهم أئمة هدى ورشاد
بما أمرهم الله تعالى به عن طريق وحيه •

وفي إطلاق امامتهم عن القيد ، وحذف فاعول « يهدون » تعميم
يبين عظمة هذا الجعل ، وفخامة شأن هؤلاء الأئمة • وقوله « يأمرنا »
فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور
هو بها ليس له أن يخجل بها ويتثاقل عنها • وأول ذلك أن يهتدى بنفسه
لأن الانتفاع بهداه أعم والنفوس التي الاهتداء بالمهدي أميل (١١٥) •

والخامسة : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وأيتاء
الزكاة » ، و« فعل الخيرات » اقامة شرائع الدين بين الناس من
العبادات والمعاملات • وهو مصدر مضاف الى مفعوله ، فالصدر
هنا بمنزلة الفعل المبني للمجهول لأن المقصود هو مفعوله ، وأما الفاعل
فتقع له ، أى أن يفعلوا هم ويفعل قومهم الخيرات ، حتى تكون
الخيرات مفعولة الناس كلهم ، فحذف الفاعل لتعميم مع الاختصار
لاقتضاء المفعول اياه • ويجوز أن يكون « فعل الخيرات » هو الموحى

• (١١٤) أبو السعود : ٧٧/٦

• (١١٥) الكشاف : ٥٧٨/٢

به . أى أوأوحينا اليهم هذا الكلام ، فيكون المصدر قائما مقدم الفعل مرادا به الطلب ، والتقدير : افعلوا الخيرات ، كقوله تعالى : « فاذا لتيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب » أى : فاضربوا الرقاب (١١٦) .

وفى « فعل الخيرات » ايضاح بعد اجمال ، وهو يؤكد الموضح ويثبتته فى النفس بعد أن تشوقت اليه فى الاجمال . وعطف « اقام الصلاة وايتاء الزكاة » على « فعل الخيرات » من قبيل عطف الخاص على العام ، دلالة على فضل الخاص ، واعتناها بشأنه ، واعتناء بتحصيله . والبداية باقامة الصلاة لأنها افتتحتها على سائر الأعمال . والأصل اقامة الصلاة وحذفت التاء وعوض عنها بالاضافة ، وفى حذفها تناسق فى النظم ، تتشاكل بين الألفاظ « فعل واقام وايتاء » كما هو ظاهر بين الألفاظ « الخيرات والصلاة والزكاة » . وبذلك تحقق للجمل الثلاث جرس بديع .

والسادسة : « وكانوا لنا عابدين » وهى خاتمة النعم فى الآيات ، وأسند فعلها اليهم لنا أنها شكر منهم لواهب النعم على ما أنعم به وتفضل ، مع كونها فى ذات الوقت نعمة كبرى وفقهم الله تعالى اليها ، فتميزوا بها على غيرهم .

وقد اختلفت فى صياغتها لاختلافها عن بقية النعم فى كونها شكرا ونعمة ، ولتكرين شهادة من الله تعالى لهم بالمداومة على العبادة والاخلاص فيها .

ونقدم الجار والمجرور « لنا » يفيد التخصيص ، أى وكانوا لنا عابدين لا لغيرنا ، غلم يخطر ببالهم غير عبادتنا . والتعبير بالكون

مشعر بأنهم جبلوا على ذلك ، وتمكن فيهم ، وفي صيغة أسم الفاعل دلالة على أنهم في العبادة ثابتون وعليها مستتمون .

ونظرة تأمل في نظم النعم الست ترى أنها جاءت في جمل موصولة انطوشت بين الكمالين ، حيث تتحد في الخبرية مع التناسب البديع واتحاد بدايتها بالأفعال الماضية المسندة الى نون العظمة مما جعل لها وقعاً آخذاً . وفي اسناد هذه النعم الى نون لعظمة تفخيم نشأته ، فهي نعم عظيمة امتن بها العظيم جل شأنه ، ولا يقدر عليها أحد غيره . وقد رتبت هذه النعم ترتيباً دقيقاً ، فلما كان الحديث قبلها في احراق ابراهيم عليه السلام وانقاذ الله له من النار كان من المناسب أن تبدأ بنعمة نجاة من قومه وأرضه الى أرض جديدة بارك الله فيها . ولما كان قد خرج معتزلاً قومه وأصبح في أمس الحاجة الى الدرية التي تروضه عن قومه تلتها نعمة هبة الأولاد التي كان يتوق اليها من قديم ، ، وتلا ذلك النعم الشاملة له ولذريته وهي الصلاح والامامة والنبوة والعبادة ، وبدى بالصالح لما فيه من تكميل للنفس ، ثم بالامامة التي هي تكميل للغير ثم بالنبوة التي هي أعلى درجات الامامة ، وأسمى تكليف الهى ، وختمت ببيان محافظتهم على هذه النعم عن طريق شكر المنعم وتلك نعمة جليلة .

وقد اختلف المخاطب بهذه النعم تبعاً لما فيها من عموم وخصوص ، فلما كانت نعمة النجاة متعلقة بابراهيم عليه السلام أصلاً أوقعت عليه ، وعطف لوط عليه لأنه لم يكن محارباً مثل ابراهيم عليهما السلام . ولما كانت نعمة الهبة مما يخصه ، وقد دعا الله تعالى بها فقال « رب هب لى من الصالحين » (١١٧) أوقعت عليه خاصة . أما بقية النعم فهي عامة لهم جميعاً ومن ثم أوقعت عليهم .

وقد عبر في كلِّ نعمة بما يناسبها ففي نعمة الأمن والاستقرار قيل « ونجيناها » وفي نعمة الانجاب قيل « ووهبنا له » • وفي نعمتى الصلاح والامامة قيل « جعلنا » لما تتطلبه النعمتان من جعل وتحويل من حال الى حال • وفي نعمة النبوة قيل « وأوحينا » لما فى الالفاظ من اشعار بنبوتهم ، أما نعمة العبادة فأثبتت لهم على نمط خاص لما أشرنا اليه قبل ذلك ، والله أعلم •

وبهذه الخاتمة العظيمة تنتهى حلقة مسورة الأنبياء التى حفلت بالمشاهد والأحداث ، واشتملت على عبر جليلة وعظات بليغة « ومن أصدق من الله قيلا » (١١٨) •

الحلقة الخامسة

اعبدوا الله واتقوه

قال الله تعالى :

« وَاِبْرَاهِيمَ اِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • اِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ اَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ افْكَا اِنْ الدِّينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَكُنْ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهٗ اِلَيْهِ تَرْجِعُونَ • وَاِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ اَمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلٰى الرَّسُولِ اِلَّا الْبَلٰغُ الْمُبِينُ • اَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ اِنْ ذَلِكَ عَلٰى اللَّهِ يَسِيرٌ • قُلْ سِيرُوا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَا الْاَخْلَاقَ ثُمَّ اِنَّ اللَّهَ يَنْشِئُ النَّشْءَ الْاٰخِرَةَ اِنْ اللَّهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • يَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَاِلَيْهِ تُقْلَبُونَ • وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وٰلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ • وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ اُولٰٓئِكَ يُسَبِّحُوْنَ مِنْ رَحْمَتِيْ وَاُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ • غَمًا كَانَ جِبَابٌ قُوْدِهِ اِلَّا اَنْ قَالُوْا اُقْتُلُوْهُ اَوْ حَرِّقُوْهُ فَاَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ اِنْ فِيْ ذَلِكَ لَآيٰتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ • وَقَالَ اِنَّهَا اِتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ اَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْتُرُ بِعُضُوكُمْ بِيَدِيْكُمْ وَيُلْعَنُ بِعُضُوكُمْ بَعْضًا وَمَا وَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نٰصِرِيْنَ • فَاَمِنْ لَهٗ لَوْظٌ وَقَالَ اِنِّىْ مَهٰجِرٌ اِلَى رِبِّىْ اِنَّهٗ هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ • وَوَهَبْنَا لَهٗ اِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَجَعَلْنَا فِيْ ذُرِّيَّتِهٖ النَّبُوَّةَ وَالْكِتٰبَ وَآتَيْنَاهُ اَجْرَهٗ فِي الدُّنْيَا وَاِنَّهٗ فِي الْاٰخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ » (١) •

(١) العنكبوت : ١٦ - ٢٧ •

بين يدي الآيات :

تمثل هذه الآيات الحلقة الخامسة من الحلقات التي تحكى دعوته

قرمه الى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الأوثان •

وتركز سورة العنكبوت في بدايتها على اختبار الله تعالى لمن يدعون

الايمان ، ليظهر الصادقون من الكاذبين في دعواهم • فلا يحسبن من

يدعون الايمان أن الله تاركهم دون فتنه واختبار ، فقد فتن من قبلهم •

ولا يحسبن من يفعلون السيئات أنهم يفوتون من عذاب الله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا

الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين • أم حسب

الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » (٢)

وتبين أن أجل الله آت لا محالة ، فمن جاهد في طاعة الله تعالى

فتواب جهاده عائد لنفسه ، فانه غنى عن العالمين • وهو يحزى

الصالحين بأحسن أعمالهم • وتوصى الانسان بوالديه احسانا فيما

لا يخالف أمر الله تعالى ، فان أرغماه على اشرك بالله فعليه بمخالفتهما

وعدم طاعتهما ، وهذا من ألوان الفتن والاختبارات التي يتعرض لها

المؤمنون •

ويتصل الحديث عن الفتنة والاختبار في دين الله ، فتبين السورة

أن بعض من يدعون الايمان لا يثبتون أمام هذه الفتن ، ويترددون

في مسلكتهم ، وتصم هؤلاء بالنفاق ، وتؤكد علم الله تعالى بهم : « ومن

الناس من يقول آمنا بالله فاذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله

ولئن جاء نصر من ربك ليقولن أنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في

صدور العالمين • وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » (٣)

(٢) العنكبوت : ٢ - ٤ •

(٣) العنكبوت : ١٠ ، ١١ •

وكان الحديث عن الفن والصبر عليها مناسبة لعرض قصص بعض الأنبياء وبيان صبرهم على إيذاء قومهم ، وتحملهم لما يتلبون به في سبيل الدعوة الى الله تعالى . وتلتزم السورة الترتيب الزمني فيما ذكرته من قصص ، فتبدأ بقصة نوح عليه السلام وتعرض الجانب المناسب منها لجو السورة في ايجاز دقيق بديع . « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث معهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناها وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » (٤)

وتنتقل السورة الى قصة ابراهيم عليه السلام فتفصل دعوته الى عبادة الله تعالى ، ونبذ عبادة الأوثان ، وتحكى ما لاقاه من قومه من إيذاء شديد انتهى بالقاءه في النار ، وهجرته بعيدا عن قومه ووطنه بعد أن نجاه الله منها .

وفي تفصيل ما لاقاه ابراهيم من استهزاء وإيذاء وصبره عليه ، ومهاجرته بعيدا عن وطنه وقومه الى حيث يتمكن من عبادة ربه والدعوة الى دينه مثل بين للرسول صلى الله عليه وسلم ، يقتدى به في مسلكه مع قومه الذين تعقبوه بصنوف الأذى ، ويوطن نفسه به على ما سيكون في القريب من اذن الله تعالى له بالهجرة . وهذه السورة آخر ما نزل من السور بمكة والرسول ﷺ على مشارف الهجرة (٥) . وكان حديثها عن هجرة ابراهيم عليه السلام كان تمهيدا واعادا نفسيا لهجرته ﷺ .

البداية :

تبدأ هذه الحلقة بالدخول في الموضوع مباشرة دون تمهيد ، فتحكى ما قاله ابراهيم لقومه « و ابراهيم اذا قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذاكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

(٤) الزمكوت : ١٤ ، ١٥ . (٥) نظر الايتان : ٩/١ - ١١ .

(١١ - خصائص النظم)

لقد بدأ ببيان حقيقة ما يدعوهم اليه ، وما تتضمنه هذه الحقيقة
من خير لهم ، فأظهر لهم الحقيقة وغايتها ليقبلوا عليها •

« وإبراهيم » نصب عطفا على « نوحا » والتقدير : وأرسلنا
إبراهيم ، و « أذ » ظرف متعلق بأرسلنا المقدر . أى : أرسلنا إبراهيم
وقت قوله لقومه « اعبدوا الله وانقوه » وقيل : نصب باضمار اذكر ،
و « أذ » بدل اشتمال من إبراهيم ، لأن الأحيان تشتمل على ما فيها (٦)

و « اعبدوا الله وانقوه » أمران فيهما إشارة إلى الذوحيد • نفى
الأول إشارة إلى الأتيان بالواجبات ويدخل فيه الاعتراف بالله ، وفي
الثانى إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل فيه الامتناع عن
النسك (٧) • وعطف التقوى على العبادة من عطف العام على الخاص
لأن التقوى أشمل من العبادة ، إذ هي فعل المسامرات ، واجتتاب
المزهيئات والبعد عن المنشابهات • وتقديم العبادة على التقوى
لخصه صيتها فيما يتعلق بأمر الدين •

وعلى الأمر بالعبادة والتقوى بقوله « ذلكم خير لكم » ، وأشير
اليهما بإشارة البعيد لتنظيم أمرهما وتفخيم شأنهما ، مع الإيجاز المعنى
عن تكرار الفعلين • ومخاطبة الجميع ضمن الإشارة لتبنيه قومه إلى
أن الفائدة التالية تعود عليهم جميعا • وتذكير « خير » تعظيمه وتفخيمه
وتقييده بالجار والمجرور « لكم » لتمحيص خيريته لهم وصرافها اليهم ،
وأنه لن يجنى من وراء ذلك فائدة لنفسه •

وفي حذف المفضل عليه اشعار بالعموم والشمول ذعبادة الله وتفواه
خير لهم من كل شيء سواها وجعل عبادة الله وتفواه خيرا لهم م يقتضى

(٦) ينظر الكشاف : ٢٠٠/٣ . وأبو السعود : ٣٤/٧ •

(٧) ينظر الرازى : ٤٧٦/٦ •

أن ما هم عليه من عبادة الأصنام شرًا لهم ، لأن العبادتين «تضادتان» فإذا مات الأثرى خيرا محضًا كان ضدها شرًا محضًا .

وانتهبهم على التيقن من خيرية ذلك نهم ، وحظهم على الاستجابة لب أمرهم به عن طريق الشرط « أن كنتم تعلمون » وإذا كانوا موصوفين بضد ذلك من الجهل الشنيع • ومفهوم « بعثون » موصوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : أن كنتم تعلمون الخير والشر ، أو أن كنتم تعلمون شيئًا من الأثام - أياء بوجه من الوجوه • أو أن كنتم تنظرون في الأمور بنظر العلم وعلى هذا الوجه يكون العلم بمعنى النظر والفكر ، فإن اختار سبب العلم مستلزم له ، فأطلق التزم بأريد التزم على سبيل الكناية (٨) • ويجوز أن يكون « تعلمون » مفرًا من التزم - أي أن كنتم أهل علم ونظر وتفكر • وعلى كل فترك المفعول مشيرًا إلى العموم والشمول ، وفي ذلك بجانب حذف جواب الشرط مزيد من التوبيخ والحث على الاستجابة لب فيه خيرهم كي لا يتصفوا بالجهل الشامل المطبق مع ما في الحذفين من الإيجاز الذي لا يخفى سر جماله .

إبطال عبادتهم الأصنام :

وبعد أن أمرهم بعبادة الله ونقروا ، بين لهم بطلان عبادتهم وعجز معبوداتهم ، وبنى على ذلك دعوتهم إلى عبادة الله القادر الذي إليه يرجعون • « إنما تعبدون من دون الله آوثانًا وتخلقون أفكًا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فبتعوا عند الله الرزق وعنده واشكروا له إليه ترجعون » •

وقوله « إنما تعبدون من دون الله آوثانًا وتخلقون أفكًا » من غير الفاعل على المفعول ، وللبلاغيين في هذا اللون من القصر ثلاثة اعتبارات:

(٨) حاشية زاده : ٦/٤ •

الأول : قصر الفعل الصادر من الفاعل على المفعول بعد تأويل الفعل باسم مفعول ، فيكون قصر صفة على موصوف • والثاني . قصر الفاعل على الفعل المتعلق بالمفعول ، فيكون قصر موصوف على صفة • والثالث : قصر الفعل نفسه على التعلق بهذا المفعول ، فيكون قصر صفة على موصوف ، وهو مختار الشيخ سليمان نزار رحمه الله تعالى (٩) • وعلى هذا فالقصر في الآية يمكن تخريجه على الوجوه السابقة • فعلى الأول يكون المعنى : ما معبودهم الا أنا وما مخلصهم الا افكاً وعلى الثاني يكون المعنى : هم مقصرون على عبادة الأوثان وخلق الافك • وعلى الثالث يكون المعنى : عبادتهم مقصورة على تعلقها بالأوثان وخلقهم مقصور على تعلقه بالافك • والقصر على الوجهين الأول والثالث قصر صفة على موصوف ، وعلى الوجه الثاني قصر موصوف على صفة •

وفي جعل طريق القصر « انما » اشعار بأن عبادتهم الأوثان وخلقهم الافك من الأمور المعلومة الواضحة التي لا تجهل ولا يشك فيها • فهو موضوع « انما » على أن تجيء لخبر لا يجهه المخاطب ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة (١٠) •

وصيغة المضارع في « تعبدون » و « تخلقون » لتصوير حالهم الواقعة بما هم مستمررون عليه من ضلال وبهتان • والتعبيد بالجار والمجرور « من دون الله » مع تقديمه على المفعول الصريح للمساواة ببيان المعبود الحق الذي ضلوا عن عبادته وذكيرهم به قيل بيان معبوداتهم المفتراة التي لا تنفع ولا تضر •

(٩) مذكرة في القصر : ١١ •

(١٠) دلائل الاعجاز : ٢٣٠ •

والأوثان . بجمع وثن بثنتين ، وهو صورة من حجر أو خشب مجسمة على صورة انسان أو حيوان . والوثن أخص من الصنم ، لأن الصنم يطل على حجارة غير مصورة أم الوزن فيطلق على المصور . وكانت أصنام قوم ابراهيم مصورة قال تعالى(١١) « قال أتعبدون ما تتحترن »(١٢) .

و « تخلقون » مضارع خلق الخبر أى اخلقه ووضع كذبا ، والخلق فى الأصل : التقدير المستقيم ، ويستعمل فى ادعاء الشئ من غير أصل ولا احتذاء ، والخلق لا يستعمل فى كافة الناس الا على وجهين : أحدهما معنى التقدير ، والثانى فى الكذب كما فى هذا الموضع(١٣) . والافك : كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه . ويطلق على الكذب لأنه مصروف عن الحق(١٤) .

واختلافهم الافك : تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء الله أو شفعاء إليه ، أو سمى الأصنام اثنا وعملهم لها ونحتهم خاقب للافك(١٥) . وفى ذلك مبالغة بجعل الأوثان هى افك . وفى ألفاظ الجملة اشارة الى باوهم النغاية فى الكذب والافتراء ، حيث جمعت بين الاختلاف وهو محض كذب وافتراء ، وبين الافك وهو كذب شنيع فهم يكذبون الكذب ويفترون الافتراء .

ولما أبطل عبادتهم ببيان أنها لأوثان يخترقون لها الأكاذيب ، أبطلها عن طريق عدم نفع ما يعبدونه لهم « ان الذين تعبدون من دون

(١١) الصافات : ٩٥ .

(١٢) التحرير والتنوير : ٢٢٥/٢٠ .

(١٣) المفردات : ١٥٧ .

(١٤) السابق .

(١٥) الكشاف : ٢٠١/٣ .

الله لا يملكون لكم رزقا » • وتأكيده الجملة لتحقيق مضمونها في مقام يقتضى التأكيد لكون المخاطبين غير مقرين به • والتعبير بالوصول المستعمل في جماعة العقلاء مبنى على ما جرى عليه انقوم من معاملة الأوثان معاملة العقلاء • وفي تكرير «تعبدون من دون الله» مزيد تشنيع بهم ، وفضح اضلالهم ، باظهار جريمتهم النكراء ، حيث يعبدون الأوثان من دون الله وهي لا تنفع ولا تضر •

وتنكير « رزقا » للتخثير والتقليل ، ووقوعه في سياق النفي يدل على عموم نفي تدره أصنامهم على أى رزق مهما كان قليلا وتخصيص الرزق بالذكر لأهميته الكبيرة لجميع الناس ، فهو محصلة سعيهم وكفاحهم في الحياة ، وبه تقوم حياتهم • وهم في أمس الحاجة اليه • والتقييد بالجار والجرور « لكم » مع تقديمه على المفعول للمساواة ببيان أن الأصنام لا تملك لهم رزقا مع أنهم عابدها ، وهذا يقتضى أنها لا تملك رزقا لغيرهم من باب أولى • وقيل « لا يملكون لكم رزقا » دون : لا يرزقونكم لما في نفي الملكية من مبالغة في نفي قدرتهم على الرزق ، إذ قد يملكون رزقا ولا يرزقونهم كما يملك البخيل المال ولا يعطى المستحقين • فنفي عنهم السبب وهذا يقتضى نفي السبب • والجملة تتضمن دعوة القوم الى ترك عبادة الأوثان وتحثهم على ذلك ، إذ الأصنام لا تملك لهم رزقا ، فليسوا في حاجة اليهم ، ولا يتقدمهم من جانبها شيء ، فعليهم أن ينبذوا عبادتها ويتحلوا من ارتباطهم بها ، ولما نفي عن الأصنام ملكية رزقهم ذكرهم بالرازق الحقيقي ، وحثهم على طلب الرزق منه « فابتغوا عند الله الرزق » والجملة تقتضى توجيه العبادة لله تعالى وتخصيصه بها ، لما أنه مالك الأرزاق دون ما سواه • وإيثار الابتغاء على الطلب لما فيه من اشعار برغبتهم في الرزق ، فنو بعينهم وهدقتهم •

و « عند » ظرف مكان وهو مجاز • شبه طلب الرزق من الله تعالى بالبحث عن شيء في مكان يختص به فاستعير له « عند » ابدالة على المكان المختص بها يذنب اليه انظر (١٦) • والتعبير بالمعدنية منسعر بوجود الرزق في خزائن الله تعالى التي لا تنفذ كما قال جل شأنه « ما عندكم ينفذ وما عند الله باق » (١٧) •

و «م التعريف في « الرزق » لام الجنس المفيدة للاستغراق بمعرنة المقام ، أي فاطلبوا كل رزق قل أو أكثر من الله تعالى دون غيره ، والمعرف بلام الجنس في قوة النكرة : فكأنه قيل : فابتغوا عند الله رزقا ، ولذلك لم تكن إعادة لفظ الرزق بالتعريف مقتضية كونه عين الأول (١٨) ، وتقدير اللفظ « عند » على المفعول الصريح يفيد الاختصاص ، أي فابتغوا عند الله الرزق لا عند غيره •

ثم صرح بمقتضى الجملة السابقة وهو عبادة الله تعالى وشكره على نعمه « واعبوه واشكروا لله » وهذه الجملة مرتبطة بما قبلها ارتباط وثيقا فهي من مقتضياته كما بينا ، كما أنها من أسبابه ووسائله ، إذ العبادة والشكر من أسباب استجلاب الرزق وزيادته ، وهي أيضا مرتبطة بجملة « اليه ترجعون » التي بعدها ، لأنها معللة بماز إذ لما أمرهم بعبادة الله وشكره على ذلك برجعهم الى الله تعالى ليحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم بها فليعبدوه ويشكروه لينالوا ثوابه • والشكر من شعب العبادة فعطفه عليها من قبيل عطف الخاص على العام اهتماما بشأن الشكر لأن المقام مقام حديث عن الرزق وابتغائه وتقديم العبادة لأنها الأصل ، والمشتمة على جميع الشعب ، والمنظوية في كل حال •

(١٦) التحرير والتنوير ٢٠/٢٢٦ •

(١٧) النحل : ٩٦ •

(١٨) التحرير والتنوير : ٢٠/٢٢٦ •

وتقديم الجار والمجرور « اليه » على الفعل « ترجعون » لافادة التخصيص ، أى اليه ترجعون لا الى غيره • فيجازيكم على ما قدمتموه فافعلوا ما أمرتكم به • وبذلك أدمج تعليل العبادة باثبات البعث (١٩) والفصل بين الجملة وما قبلها للاستئناف البياني فى تعليل لما قبلها، وجواب عن سؤال متضمن فيها •

وقد استتمت الآيه التى حللناها على ابطال مذهب القوم فى عبادة الأوثان بأبلغ الرجحان ، وذلك لأن المعبرد انما يعبد لأحد أمور : ا، لكونه مستحقا للعبادة بذاته ، واما لكونه نافعاً فى الحال ، واما لكونه نافعاً فى المستقبل ، واما للخوف منه • فقوله . « انما تعبدون من دون الله اوثانا » اشارة الى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها اوثانا لا شرف لها • وقوله « ان الذين تعبدون من دون الله ، الخ الآية ، اشارة الى عدم نفعها فى الحال وفى المآل وأنه لا خوف منها (٢٠) •

وبالنظر فى الآيتين السابقتين نرى أن ابراهيم عليه السلام دعا قومه دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، وعرضها عرضاً دقيقاً مرتباً ، فبدأ ببيان حقيقة الدعوة التى يدعوهم اليها « اعبدوا الله واتقوه » وثنى بتبويب هذه الحقيقة اليهم وما تتضمنه من الخير لهم لو كانوا يعمنون أين يكون الخير « ذلكم خير اذم ان كنتم تعلمين » • فى الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه : اولها : أنهم يعبدون من دون الله اوثانا • وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستنادون الى برهان أو دليل وانما يخلقون افكا وينشئون باطلا • وثالثها : أن هذه الأصنام لا تقدم لهم نفعاً ولا ترزقهم شيئاً •

(١٩) ينظر التحرير والتنوير : ٢٠/٢٢٦ •

(٢٠) ينظر الرازى : ٦/٤٧٧ •

وفي الخطوة الرابعة يوجههم انى الله ليطلبوا منه الرزق ، وهو الأهر الذى يهتهم ويمس حاجتهم • وفي النهاية يهتف بهم الى واهب الأرزاق المنفض بالنعمة ليعبدوه ويشكروه • وأخيرا يكتشف لهم أنه لا مفر من الله تعالى ، فمن الخير أن يثوبوا اليه مؤمنين عابدين شاكرين (٢١) •

ولما دعاهم الى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الأوثان الباطلة بين لهم عقبة اعراضهم وتكذيبهم « وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما عنى الرسول الا البلاغ المبين » •

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية والآيات التى بعدها الى قوله تعالى « فما كان جواب قومه » محتملة أن تكون من جملة ما حكى من قول ابراهيم عليه السلام لقومه ، وأن تكون آيات في شأن رسول الله ﷺ ومشركى قريش وقعت معترضة بين أول قصة ابراهيم وآخرها ، ووجه توسطها بين طرفى قصة ابراهيم واتصالها بها وقعت معترضة فيه : ان ايراد قصة ابراهيم للتنفيس عن رسول الله ﷺ وتسليته والتفريج عنه بأن أباد ابراهيم خليل الله منى بمثل ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان وتكذيبهم له فالحال ان متشابها ، فاعترض بقوله « وان تكذبوا ••• » على معنى أنكم يا معشر قريش وان تكذبوا محمدا فقد كذب ابراهيم قومه ، وكأمة كذبت نبيها (٢٢) •

ويرى بعض المفسرين أن آية « وان تكذبوا ••• » من حكاية قول ابراهيم عليه السلام لقومه ، وأن آية « أو لم يروا كيف بيدي، الله

(٢١) فى ظلال القرآن : ٢٧٢٨/٥ •

(٢٢) الكشاف : ٣/٣٠٩ •

الخلق .. » وما بعدها كلام مستأنف من الله تعالى للافتكار على تكذيب
قوله بالبعث مع وضوح دليله وسفوح سبيله (٢٣) .

ونعيد الى الرأى الثانى لأن آية « وان تكذبوا ... » مبدوءه
بالخطاب عند جميع القراء ، وهذا ما يرجح كونها من حكاية كلام
ابراهيم حيث ورد جزء منه بطريق الخطاب فى الآيتين السابقتين .
أما آية « أو لم يروا ... » فالكلام وارد فيها بطريق الغيبة وهو
ما يرجح كونه كلاما مستأنفا فيه افكار على قوم ابراهيم ولا مانع من
سحبه على مشركى قريش وغيرهم ممن كفروا بالله وأنكروا البعث .
وعلى هذا الرأى تكون الآيات متصلة اتصالا ظاهرا وسياق
القصة متوال ولا اعتراض بين طرفيها ، وهذا أولى من تكلف البحث
عن وجه لتوسط الاعتراض بين طرفى القصة .

ونعود الى التأمّن فى نظم الآية ، وعلى الرأى الذى رجحناه
تكون جملة « وان تكذبوا » معطوفة على مقدر يقتضيه المقام ، والتقدير
فان تصدقونى فقد فزتم بسعادة الدارين ، أو نحو ذلك . وفى طى
هذا اشعار بأن تصديقهم أمر ليس فى الحسبان ، هم معروفون سلفا
بأنهم سيكذبونه ، مع ما فى ذلك من الايجاز .

وحذف مفعول « تكذبوا » لم يقيد تكذيبهم بما كذبوا به ، وأصل
الكلام : وان تكذبونى فيما أخبرتكم به . وفى حذف المفعول والتقيد
اشارة الى تعميم تكذيبهم له ولغيره ، وشموله لكل الحقائق . ويهكن
أن يكون الفعل منزلا منزلة اللزوم ، لوصفهم بمطلق التكذيب للحقثق
الايمانية .

وجواب الشرط محذوف وقوله « فقد كذب أمم من قبلكم » تعويل
للجواب ، والتقدير : وان تكذبونى فلا تضروننى بتكذيبكم ، فان من

قبلكم من الأمم كذبوا رسلكم • فإم يضرهم تكذيبهم شيئاً ، وإنما صر
أنفسهم حيث تنديب إما حل بهم العذاب فكأنما تكذبتكم (٢٤) ، وفي
حذف الجواب تشويق إلى معرفته وبعد للتعقل على التفكر فيه •

وأند انتعنين بقدر لتحقيق مضمونه ، وحذف مفعول « حذب »
وقيده والتقدير : فقد كذب آدم من قبلكم رسلكم فيما أخبروهم به •
وسر الحذف مشابه لما ذكرناه آنفاً في « تكذبوا » ، وفي الحذف في
الموضعين تناسب وتلاؤم في التعبير ، وتسوية بين ما فعله إبراهيم
وما فعلته الأمم التي قبلهم برسلكهم ، وتذكير أمم مفيد للتأثير •

وختمت الآية ببيان وظيفة الرسول في قومه تأكيداً لما ذكر من
أن تكذبتهم لا يضره بشيء « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » •
والمراد بالرسول على الرأي الذي رجحناه إبراهيم عليه السلام ، وعلى
هذا ففي الجملة اظهر في موضع اضمار وهو يفيد وصفه بالرسالة ،
وهذا يقتضى تصديقه فيما أخبر به ، كما يبين وظيفة الرسول على
العموم ، فليس عليهم إلا البلاغ • ووصف البلاغ بالمبين لبيان أن
المطلوب منهم هو التبليغ الواضح الذي لا تخفى معه حقيقة من حقائق
الإيمان •

وفي الجملة قصر للخبر على المبتدأ ، وهو قصر صفة على موصوف
قصرأ اضافياً ، ويفيد قصر وظيفة الرسول على التبليغ الواضح الذي
لا يبقى معه شك ، وما عليه أن يصدقه قومه ألبتة • ويفهم من هذا
أنه خرج من عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه ، فلا ضرر عليه من تكذبتهم
له بعد ذلك (٢٥) •

• (٢٤) أبو السعود : ٣٤/٧

• (٢٥) أبو السعود : ٣٤/٧

وبعد بيان تكذيبهم بالحقائق الايمانية عامة يأتي الإنكار على تكذيبهم بالبعث المشار اليه بقوله « اليه ترجعون » وهو من أعظم الحقائق الايمانية وأصلها من أصول الدين « أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » • وهذا كلام مستأنف مسوق من جهة تعالى للاذكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله (٢٦) • وقرئ بصيغة الخطاب « أولم تروا » وفي ذلك تشديد للإنكار عن طريق مواجهتهم به •

والاستفهام لانكار عدم رؤيتهم كيف يبدئ الله الخلق ، وتقريرهم بهذه الرؤية ، أى قد رأوا ذلك ، حيث يشاهدون ولادة المخلوقين ، وظهور النباتات والثمار • والواو للعطف على مقدر أى أنم ينفخروا ولم يعلموا عما جاريا مجرى الرؤية فى انجلاء والظهور كيف يبدئ الله الخلق • و « كيف » اسم استفهام وهى معلقة فعل « يروا » عن العمل فى معونه أو معموله • والمعنى : ألم يتأملوا فى هذا السؤال ، أى فى الجواب عنه • والاستفهام بكيف مستعمل فى التنبيه ولفت الأنظار فى طلب الاخبار (٢٧) •

وبصيغة المضارع « يبدئ » لتصوير بدء الخلق حال آثره ماثلا وواقعا أممهم ، فهو متجدد فى كل وقت • وفى الجملة تخريج على خلاف الظاهر والظاهر أن يقال تكيف أبداً الخلق ثم أعيده ، واطهار اسم الانجلاء فيه تدليل لما تضمنته الجملة ، واطهار لفظة المطلق ، وتربية لمنهابة والخشية • والخلق : مصدر خالق ، وهو بمعنى مفعول أى المخلوق ، وفى التعبير به إشارة الى الحقيقة نفسها على سبيل العموم •

وجملة « ثم يعيده » معطوفة على جملة قوله « أولم يروا »

(٢٦) السابق

(٢٧) التحرير والتنوير : ٢٢٩/٢٠ •

لا على « ييدى » لعدم وقوع الرؤية على الاعادة . فهي اخبار بأذه
تمالى يعيد الخلق قيسا على الابداء . ونحوه قولك : ما زلت أوتر
فلانا وأستخلفه على من أخافه ، فقولك : وأستخلفه معطوف على جملة
قولك : ما زلت أوتر فلانا (٢٧) .

و « ثم » للتراخي المرتبى ، لأن أمر اعادة الخلق أهم وأرفع
رتبة من بدئه لأنه غير مشاهد ، ولأنهم يذنبونه لا ينكرون بدئه
الخلق (٢٩) .

وقيل يجوز عطف « ثم يعيده » على « ييدى » بتأويل الاعادة
بانشائه تعالى كل مدة مثل ما أنشأه في السنة السابقة من النبات
والثمار وغيرهما (٣٠) . وهو كما ترى لا يحل مشكلة اعادة الخلق
في الانسان لادى المخاطبين لاختلافها عن اعادة الانشاء المذكورة .
وعلى هذا تكون جملة « ثم يعيده » داخلة في حيز الانكار كسابقتها .
وتختتم الآية بتذييل مقرر لقدرة الله تعالى على الاعادة والبعث
« ان ذلك على الله يسير » . وتأكيد الجملة لتحقيق مضمونها .
و « ذلك » إشارة الى ما ذكر من اعادة الخلق ، أو البدء والاعادة
معا . وتذكيره على تأويله بما ذكر . والإشارة الى الاعادة بالإشارة
لمبدأ لتسميم شأنها . وتقديم الجار والمجرور على الخبر « يسير »
يفيد التخصيص . وهذا كقوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده
وهو أهون عليه » (٣١) . في اظهر اسم الجلالة في موضع الاضمار
اشعار بجملة الحكم الذى تضمنته الجملة ، وتربية للمهابة والخشية ،
فالفاعل الله الذى لا يعجزه شيء ، والمسالك لكل شيء .

(٢٨) الكشاف : ٢٠٢/٣ .

(٢٩) التحرير والتنوير : ٢٢٨/٢ .

(٣٠) أبو السعود : ٨٥/٧ .

(٣١) الروم : ٢٧ .

٣٢٠ - إلى الدمر والتفكر :

ويذكر عليهم عدم رؤية بدء الخلق ثم اعادته • أمروا بالسير في الأرض لتأمل في احوال الأمم المنسية وتسميها • وانظر في قدرة الله تعالى على ايجاد المخلوقات وانها كما ايجد غيرها ليقتنوا بتمتة ما على اعادتها وبمها « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يبدئ ان شاء الله من كل شيء كما يشاء » •

وعلى الرأي الذي رجحناه يكون المأمور بـ « قل » هو ابراهيم عليه السلام ، وعلى الرأي القائل أن هذا القدر معترض بين طرفين « ابراهيم يكون المأمور بالتدول هو رسولنا محمد ﷺ » وأما كان فأمير الرسول أن يقول لهم « سيروا » • دون توجيه الأثر اليهم مباشرة ، لما أن الخصومة قائمة بينه وبينهم فهو في حاجة إلى تأييد من الله تعالى يظهر دعوته •

كما أن الأمر منه فيه ، ووجهة لهم بحل من الطول التي توجههم إلى الاستدلال على قدرة الله تعالى ، ليطرحه عليهم فيما يجري بينهم عن مناقشات ، فيكون تأثيره فيهم أبلغ وأوقع •

رائد أمروا بالسير في الأرض لأن السير فيها يطلعهم على مشاهد مختلفة من آيات الله في الكون ، ويريههم تاريخ الأمم حاضرها وغابرها ، وغير ذلك مما لم يعتادوا رؤيته في أوطانهم ، فينشط تفكيرهم إلى البحث في وجود الخلق وفنائه واعادته ، بسبب ما شاهدوه من مناظر لم يألفوها ، والتجديد يبعث على التفكير • فالسير في الأرض وسيلة جامعة الهتوف على دلائل قدرة الله تعالى (٣٢) •

ولما أمرهم بالسير في الأرض عتبه ببيان الغاية منه « فانظروا كيف بدأ الخلق » فغيته الظر في أسوال الخلق ، وكيف خلقهم الله تعالى ابتداء ، « الاعتبار بأمرانهم ، وليس المراد منه اللغو والتعجب كما هو مضد كثير من السائر في عسيرنا ، وعطف على جملة «سيروا في الأرض » قوله « ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » وهو داخل في حيز القول ، ثم للتراخي الرتبى ، وفيها إشارة الى أهمية النشأة الآخرة والتعبير عن الاعداء التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بحون البدء نشأة أولى للتبنيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة ونسبا من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من المدم التي الى الشهود ، ولا فرق بينهما الا بالأولية والآخيرية (٣٣) .

واظهار الاسم الجليل في موضع الأسمار فيه مزيد اهتمام ببيان تحقيق النشأة الآخرة ، والأشعار بعلة الحكم واستقلال الجملة . وتقديمه على الخبر الفعلي يؤكد الحتم ويقويه . وذيلت الآية بقوله « ان الله على كل شيء قدير » ، وهو تذييل يؤكد لقدرة الله تعالى على الاعداء ، وتعليل لها . وتأكيده التذييل للاهتمام بتحقيق مضمونه . واظهر الاسم الجليل في موضع الأسمار مشعر بعلة الحكم ومغيب لامتياز جملة التذييل . والتعبير بلفظ « شيء » مسبقا بلفظ العموم « كل » فيه بيان لشمول قدرة الله تعالى وعمومها فهو سبحانه قادر على الاعداء وغيرها من الأمور . وتقديم الجار والمجرور على الخبر « قدير » للاهتمام ببيان محل القدرة واظهار عمومها وشمولها .

وهذه الآية والتي قبلها تتحدثان عن بدء الخلق واعدائه ، وقد اختلف ضمهما تبعاً لوضع كل منهما وغايتها ، والمرادى وقفة متأنية أمام الآيتين قارن فيها بين نظميتهما من جهات هي (٣٤) :

(٣٣) أبو السعود : ٣٥/٧ .

(٣٤) الرازى : ٤٧٨/٦ ، ٤٧٩ .

١ - أن الآية الأولى اشارة الى العلم الحدسي ، وهو الحاصل من غير طلب ففيل « أولم يروا » على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقيل في هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري . وهذا لأن الانسان له مراتب في الادراك ، بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم واقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بابتنة ، وبعضهم لا يفهمه أصلاً .

٢ - جاءت الآية الأولى بنفط الرؤية وهذه بلفظ النظر ، وذلك لأن العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين ، وان رؤية أتم من النظر ، لأن النظر يفضى الى الرؤية يقال : نظرت فرأيت ، والمفضى الى الشيء دون ذلك الشيء .

٣ - جاءت الآية الأولى بصيغة الاستفهام والثانية بصيغة الأمر لأن العلم الحدسي ان حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وان لم يحصله فلا يحصل الا بالطلب وبالطلب يصير الحاصل فكثيراً فيكون الأمر به تكليف مالا يطاق ، وأما العلم الفكري فهو مقادير غورد الأمر به .

٤ - أبرز اسم الله تعالى في الآية الأولى عند البدء حيث قيل « كيف يبدىء الله » وأضمر عند الاعادة . وفي هذه الآية أضمر عند البدء وأبرز عند الاعادة فقيل « ثم الله ينشئ الانشاء الأخضر » . لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقيل « كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » كما يقون القائل : ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ، ولا يحتاج الى اظهر اسم زيد كالتعساء بالأول . وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً الى الله تعالى عما ذكرى به ولم يبرزه كقول القائل : أما علمت خرج زيد . اسمع منى كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد : « أما اظهاره عند الانشاء ثانياً حيث قيل « ثم الله ينشئ » فالحكمة بالغة هي أن مع اقامة البرهان على امكان

لإعادة أظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كماله وذوات جلالة
يقطع بجواز الاعددة •

٥ - جاءت الآية الأولى بلفظ المستقبل « كيف يبدىء » وهذه
الآية بلفظ الماضي « كيف بدأ » وذلك لأن الدليل الأول هو الدليل
النفسي الموجب للعلم الحدسي • وهو في كل حال يوجب العلم ببدا
انخلق فقيل : ان كان ليس لكم علم بأن الله تعالى في كل حال يبدأ
خالقا فانظروا الى الأنبياء المخلوقه ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خالقا
يحصّل المطلوب من هذا القدر ، فانه ينشئ كما بدأ •

٦ -- ختمت الآية الأولى بقوله « ان ذلك على الله يسير » وختمت
هذه الآية بقوله « ان الله على كل شيء قدير » وفي ذلك غائدتان :
أحدهما : أن الدليل الأول هو الدليل النفسى • وهو وان كان موجباً
العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم
العام ، فقال عند تمام ذكر الدليلين « ان الله على كل شيء قدير » وقال
عند ذكر الدليل الواحد « ان ذلك على الله يسير » •

وثانيهما : أن العلم الأول أتم وأن الثانى أعم ، وكون الأمر يسيراً
على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له ، بدليل أن القائل يقول في حق من
يحمل مئة من ، انه قادر عليه ، ولا يقول انه سهل عليه ، فاذا سئل
عن حمله عشرة أمان يقول : ان ذلك عليه سهل يسير •

وكلام الرازى وان كان مشرباً بالفكر الفلسفى الا أنه يطعننا على
أسرار دقيقة لما يبين نخم الآيتين من فروق •

ولما ذكرت النساء الآخرة عقبته بذكر ما يتبعها ويترتب عليها
وهو تعذيب المكذبين واثابة المحققين « يعذب من يشاء ويرحم من
يشاء واليه تالبون » وبين « يعذب » و « يرحم » ذباق بديع فيه إبراز
للمعنى وتقوية له ، وتجميل للأسلوب • وتقديم التعذيب على الرحمة
(١٢ - خصائص النظم)

لما أن المقام مقام ترهيب إذ الحديث مع المكذبين المستحقين للعذاب .
 والتعبير بـ « من يشاء » دون يعذب الكافر ويرحم المؤمن أو نحو
 ذلك لأن التعبير بالشيئة فيه مزيد من التخويف ، والرجاء ، وإثبات
 لنفوذ مشيئة الله تعالى فإذا أراد تعذيب شخص أو رحمته فلا يمنعه
 من ذلك مانع . وفيه أيضا تعميم الخوف والرجاء ، لأن الأمن الكلي
 من الله يوجب الجراءة فيغضى الى صيرورة المطيع عاصيا (٣٥) .

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه « تفتلبون » لتأكيد الحكم
 وتقويته ، والجملة تقرير للاعادة التي بينتها الآية السابقة حيث أكدت
 أن الرجوع في النهاية الى الله سبحانه وتعالى . وفيها تلويح باربعيد
 والعذاب الذي أعده الله لهؤلاء المكذبين . كما أنها تمهيد وتوطئة
 لكآية التي بعدها وهي قوله تعالى « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا
 في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » .

والمعجز حقيقته : هو الذي يجعل غيره عاجزا عن فعل ما ، وهو
 هنا مجاز في الغلبة والانفلات من المكة . فالمعنى : وما أنتم بمفليتين
 من العذاب . ومفعول « معجزين » محذوف للعلم به ، أى بمعجزين
 الله تعالى (٣٦) والتعبير باسم الفاعل معجزين دون الفعل لأن نفي
 الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فان من قال : ان فلانا لا يخيط
 لا يدل على ما يدل عليه قوله انه ليس بخياط (٣٧) . وبذلك أفاد اسم
 الفاعل نفي صلاحيتهم للاعجاز والفوت .

وفي نفي كونهم معجزين لله تعالى في السماء بعد نفيه في الأرض
 مع أن هروبهم في السماء غير محتمل البتة ، احتراس فيه قطع لأطماعهم

(٣٥) الرازي ٤٨٠/٦ .

(٣٦) التحرير والتنوير ٢٣٢/٢٠ .

(٣٧) الرازي ٤٨٠/٦ .

في الفوت من عذاب الله تعالى في أى مكان كان • وتقديم الأرض على السماء لأن فوتهم مع استحالته أو فرض امكانه فيكون في الأرض أولا لأنهم عليها ومتمكنون منها • وتكرار اللفظ مع اللفظ دون عطفها على الأرض للتخصيص على نفي الفوت فيها على سبيل الاستقلال •

ولما بين لهم أنهم بانفسهم لا يمكنهم الا نفلات من عذاب الله تعالى أتبعه ببيان عدم استطاعتهم بمساءمة غيرهم حيث لا يجدون من يعينهم « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » ، والولى من يتولى الأمر ، ووليت أمر فلان أى قهت به ، وهو فعيل بمعنى فاعل على سبيل المبالغة ، والنصير هو الناصر والمعين ، وتدمر وينصره إذا أعانه ، وهو أيضا فعيل بمعنى فاعل على سبيل المبالغة (٣٨) • والفرق بينهما : أن تولى بمعنى الوالى والمسالك ، والنصير المعين ، والمالك قد لا يقدر على النصره أو قد يقدر ولا يفعل ، والمعين قد يكون مالكا وقد لا يكون بن أجنبيا عنهم ، فيبينهما عموم ، خصوصا وجهى (٢٩) • وقد أتت نفيهما معا عدم وجود من يشفع لهم بالقبول أو ينصرهم بالقبول • وتقديم الولى على النصير لكثرة وجوده في واقع اناس خلافا للنصير • وتكثيرهما في سياق اللفظ مفيد للعموم ، وادخال « من » عليهما للتخصيص على العموم ، فان الكلام قبل دخولها يحتسب نفي الجنس ونفي الوحدة فاذا دخلت « من » على الذكر المنفردة نفي الجنس (٤٠) • وفي الجملة قصر بطريق النفي والاستثناء ، مستناد من قوله « من دون الله » لأنه بمعنى سوى الله (٤١) •

(٣٨) ينظر لسان العرب في مادتي : نصر وولى •

(٣٩) حاشية الشهاب : ٢٢١/٢ •

(٤٠) معنى اللبيب : ٣٢٣/١ • ودراسات لاسلوب اللفظ : ١٠٠/١ •

• ٤١٠/٣/١

(٤١) حاشية الشهاب : ٢١٢/٢ •

اسم الجلالة في موضع الاضرار لتربية المهابة ، والاشعار بعنة الحكم
الذى تضمنته الجملة .

وبعد بيان عدم فوتهم من الله تعالى أتبعه ببيان استبعادهم من
رحمته ، ودخولهم في العذاب الأليم « والذين كفروا بآيات الله ولقائه
«ونك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب اليم » . وفي الأسلوب
النفات من الخطاب في « أنتم » و « لكم » في الآية السابقة الى الغيبة
في هذه الآية ، حيث عبر عنهم بـ « الذين كفروا » وفي الانفات
تعميم للحكم باجرائه على كل الكافرين مثلهم دون المخاطبين وحدهم ،
وبيان لسبب مآلهم المهين بالاعلان عن جريمتهم النكراء ، وهي كفرهم
بآيات الله تعالى ولقائه . وفي تعريفهم بالموصول ايما الى وجه بناء
الخبر وأنه مما يسيئهم ويؤلمهم ، جزاء ما وحشوا به في الصنة .

واظهار اسم الجلالة في موضع الاضرار مع اضافة الآيات اليه
للاشعار بعظمة الآيات ، وشناعة الكفر بها . وعطف اللقاء عليها لبيان
جريمة أخرى لهم حيث لم يقتصر جرمهم على الكفر بآيات الله التذالة
على ذاته ورحمته وأفعاله ، وإنما ضموا الى ذلك كفرهم بالبعث .
والتعبير باللقاء دون البعث لما فيه من دلالة على البعث والمقصود منه
وهو لقاء الله تعالى للحساب والجزاء . واسم الاشارة « أولئك »
وشعر بترتيب ما بعده على قبالة ، فالكفر سبب في يأسهم من رحمة
الله ونيل عذابه الأليم ، مع ما فيه من تمييزهم أكمل تمييز ، وتحقيقهم
باشارة البعيد .

والياس : قطع الرجاء (٤٢) . و « يئسوا من رحمتي » أي
يئسوا منها يوم القيامة ، فيبدون وعيدا لهم . وصيغة الماضي للدلالة
على تحقيق الوقوع . أو هو وصف لحالهم لأن المؤمن انما يكون راجيا

خشياً ، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف • أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة (٤٣) ، فيكون على سبيل الاستمارة • وفي التعبير باليأس إشارة الى أنهم يتمنون الرحمة يوم القيامة ولكنهم يصابون باليأس لعدم استحقاقهم لها •

وفي التعبير التقات من النعية في الاسم الظاهر « الله » الى التكلم في « رحمتي » والتعبير بضمير التكلم مع افراده ، شعر بملكية هذه الرحمة لله وحده ، فهو يمنحها من يشاء ويمنعها عن يشاء •

ثم ذكر ما يترتب على يأسهم من رحمة الله تعالى « وأولئك لهم عذاب أليم » وفي تكرير اسم الإشارة ، وتكرير الاسناد ، وتكرير العذاب ، ووصفه بالأليم من الدلالة على كمال نذاعة حالهم ما لا يخفى (٤٤) • وتقديم الجار والمجرور « لهم » للاحتمام ببيان كون العذاب لهم • وجاء خبر الإشارة في الجملة السابقة جملة نعية لما أن الرحمة قد يئسوا منها بعد تمنيتهم لها ، وجاء الخبر هنا جملة اسمية لأن العذاب ليس أمنية لهم بل هو معدلهم وثابت في حقهم •

جواب القوم :

ويعد بيان مصير المكذبين وتقرير أنهم لا يفلتون من عذاب الله الأليم ، عاد الكلام الى حكاية جواب القوم لابراهيم عليه السلام عن دعوته لهم الى عبادة الله وتقواه « فما كان جواب قومهم الا أن قتلوا اقتلوه أو حرقوه فأجابه الله من النذر ان في ذلك آيات لقوم يؤمنون » • وفي القصة ايجاز بطى ما جرى بينه وبينهم في شأن أصنامهم وعزمه على تكسيها وتفتيدها ، وإيهامهم له وغير ذلك مما فصل في حلقات أخرى •

(٤٣) الكشاف : ٢٠٣/٣ •

(٤٤) أبو السعود : ١٣٦/٧ •

وحكى جواب القوم بطريق القصر للدلالة على أن هذا هو الذى استقر عليه جوابهم أخيراً بعد اللثيا والثنى ، ونيس المراد بالقصر أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عليه السلام الا هذه المقلة ، فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى • (٤٥) •
والفائون طائفة من القوم لعلم أصحاب الرأى فيهم ، وأسناد القول الى جميع انقوم دلالة على انفاق كلمتهم على الانتقام منه ، ورغبة جميعهم في ذلك •

وتبين الآية أنهم أشاروا بقتله أو تحريقه ، واستقر أمرهم في النهاية على تحريقه بالنار ، وقد دل على ذلك قوله تعالى « فأنجاه الله من النار » بجانب ما فصل في حلقات أخرى • وأنشديد في « حرقوه » يشير الى شدة غيظهم منه وحرصهم على الانتقام منه أشد انتقام بتحريقه في نار هائلة شديدة ، وتسمية قتلهم « اقتلوه أو حرقوه » جوابا مع أنه ليس بجواب لأمرين : أحدهما : أنه خرج مخرج كلام المتكبر ، كما يقول الملك لرسول خصمه : جوابكم بالسيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه : أقبله بالسيف ، فكذلك قالوا لا تجيبوه عن براهينه واقتلوه أو حرقوه • والثانى : أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فغيب عنهم لم يكن لهم جواب أصلا ، وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الألفات ، أما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (٤٦) •

وتطوى الآية مشهود القائه في النار لتسارع ببيان نجاته منها «فأنجاه الله من النار» وكان النجاة من النار كانت أسرع من القائه فيها نظرا

(٤٥) أبو السعود : ٣٦/٧ •

(٤٦) الرازى : ٤٨١/٦ •

لأن النار لم تدمسه بسوءه ، والفاء فصيحة ، أى نالقره في النار فأدجاء
الله تعالى منها بأن جعلها بردا وسلاما عليه .

ورحتم الآية بقوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون »
وتأكيد لجملة بان وانلام لحاجة المقام الى مزيد من التأكيد نظرا لكون
نجاته من النار بعد القائه فيها أمرا عجيبا وفعلا خارجا عن العادة .
واسم الإشارة « ذلك » مفيد لتعظيم تكرار المشار اليه . وتقديم
الخبر « في ذلك » على اسم ان فيه اهتمام ببيان موطن الآيات ومحلها
وهو النجاة ، وانما كان في ذلك آيات لا آية واحدة لاحتوائه على
دلائل قدرة الله تعالى ، وتضمنه نصر رسوله ، وإظهار صدقه ، وخذلان
عدوه ، وغير ذلك من العبر .

وتشديد الآيات بكونها لقوم يؤمنون لما أنهم المنتفعون بها .
والمتبرون بما فيها ، وتكثير « قوم » لتعظيم . والفعل المضارع
« يؤمنون » فيه تصريح لحالهم ، وبيان لاستمرارهم على الأيمان .
ووصفوا بالإيمان دون غيره من الصفات لأن الايمان تصديق ، وباعت
على التصديق بآيات الله تعالى ، غير أكثر ملاءمة للاعتبار بهذه المعجزة ،
وفي قوله « لقوم يؤمنون » تعريض بقوم ابراهيم الذين لم ينتفعوا بها
في هذه الآيات ، من عبر وعظت لأنهم غير مؤمنين .

ابراهيم يواصل الدعوة :

ولم يؤثر انتقامهم من ابراهيم شيئا فيه ، ولم يصرفه عن غايته ،
فبعد أن نجاه الله من النار عاود الكرة بدعوتهم الى عبادة الله تعالى
وابطال عبادة الأصنام ، وبيان مآلهم المهين بسببها ، لعلمهم يشوبون الى
رشدهم بعد ما رأوا من الآيات في نجاته من النار « وقال انما اتخذتم
من دون الله آيوتا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر
بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وماواكم النار وما لكم من ناصرين » .

والمودة : المحبة ، وهي على قراءة النصب مفعول لأجله ، والمعنى
 إنما اتخذتم من دون الله أوثانا لتتوادوا بينكم وتتراصوا لاجتماعكم على
 عبادتها واتفاقكم عليها ، واتلافكم ، كما يتفق الناس على هذهب فيكون
 ذلك سبب تحابهم وتصادقهم ، فالمفعول له غاية مترتبة على الفعل ومعلول
 له في الخارج ، أو المعنى : أن مودة بعضكم بعضا هي التي دعنتم الى
 اتخاذها بأن رأيتم بعض من تودونه اتخاذها ، فاتخذتموها موافقة له
 لودنكم اياه ، وهذا كما يرى الانسان من يرده يفعل شيئا فينعله مودة
 له ، فالمفعول له على هذا علة باعثة على الفعل وليس معلولا له في
 الخارج (٤٧) .

ومحط التصرب « إنما » هو المفعول لأجله ، أى . ما اتخذتم
 أوثانا الا لأجل مودة بعضكم بعضا (٤٨) . والمراد نفى أن يكون فيها
 إثارة من نفع أو ضرر تلجئهم الى عبادتها ، وإنما الداعى الى بقائهم على
 عبادتها هو مودة بعضهم بعضا . وجاء أقصر بانما مع كونهم ينكرون
 ذلك تنزيلا له منزلة الأمر المعلوم الذى لا ينكر ، دلالة على أنه من
 التسبيح والشهرة بحيث لا محل لأنكاره .

وفعل « اتخذتم » مراد به الاستمرار والبقاء على اتخاذها بعد
 وضوح بطلان استحقاتها لعبادة (٤٩) . ومفعول اناننى محذوف تقديره
 آلهة ، ويجوز أن يكون « مودة » هو المفعول بتقدير مضاف أى سبب
 مودة ، أو بتأويله بمودودة ، أو بجعلها نفس المودة مبلغة (٥٠) .

وقوله « من دون الله » قيد فيه تذكير لهم بالاله المعبود بحق ،
 والذى من الواجب عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له . وتقييد المودة

(٤٧) الا لرسى : ١٥٠/٢٠/١٠ .

(٤٨) التحرير والتنوير : ٢٣٤/٢٠ .

(٤٩) السابق .

(٥٠) الكشف : ٢٠٣/٣ .

بقوله « في الحياة الدنيا » اشارة الى زوالها وانتهائها بنهاية حياتهم الدنيا ، ولن يبقى لها اثر في الحياة الآخرة ، حيث يلحقهم الندم والخزي ، وتتبدل المودة الى تقاطع وتلاعن ، وقد بين ذلك بقوله « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » وبين هذه الجملة وسبققتها تقابل معنوي باعتبار أن الأوثان في الحياة الدنيا سبب المودة ، وفي الحياة الآخرة سبب المقاطعة والمخالفة .

والتعبير بـ « يوم القيمة » دون الحياة الآخرة لما فيه من تخويف واثارة الى البعث والقيام للحساب ، وتقديمه على متعلته للاهتمام ببيان الوقت المحدد لتتذكرهم وتلاعنهم ، بجانب ما في ذلك من تشويق الى المؤخر .

وفي لفظ « ينقر » دلالة على شدة انحدار والفتور والمخاضون يكفرون بأصنامهم ، ويجحدون عبادتها ، ويفكرون معرفتهم بها . وفي « يلعن » دلالة قوية على شدة الخصومة بين الفريقين : العبد والمعبودين . ويجوز أن يكون ذلك بين العبد وحدهم حيث ينقسمون الى فريقين : ضالين ومضلين ، ويشهد التناكر والتلاعن بينهما ، على حد ما جاء في قوله تعالى « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » (٥١) وهذا هو الأظهر . وصيغة المضارع في الفعلين تصور حالهم وتسير الى استمرار التناكر والتلاعن وتجديده بينهم .

وبعد بيان الخزي الذي يلحقهم من جهة أنفسهم أتبعه بذكر ما يلحقهم من خزي العذاب الشديد « ومأواك النار » وفي جعل النار مأوى لهم تهكم لاذع بهم وسخرية منهم إذ المعتاد أن يأوى الانسان الى مكان يحتمى فيه ويستريح ، أما هم فمأواهم النار يحرقون بلظاها ،

ويشويهم لهيبها • وفي الجملة قصر ، أى : مأواكم النار لا غيرها ، وفيه تأكيد لعدم خروجهم من النار اذ لا مأوى لهم غيرها ، والانسان لا يبقى بدون مأوى • وفي جعل النار مأواهم تناسب بديع بين ما فعلوه بإبراهيم وما يفعل بهم يوم القيامة ، فقد ألقوه فى النار وجعلوها مأوى له واكن الله تعالى نجاه منها ، وها هم يكبون فى النار لتكون مأواهم ، وحسبهم نار السعير مأوى ، ولكن لن يجدوا من ينقذهم منها •

وقد جاءت الجملة التالية مبينة ذلك « ومالككم من ناصرين » يخلصونكم من النار كما خلصنى ربى من النار التى ألقىتمونى فيها ، وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع ، أى ما لأحد منكم من ناصر أصلا (٥٢) • وتذكير « ناصرين » مع ايقاعها فى سياق النفس مفيد للعموم ، وادخال « من » عليها للتخصيص على العموم •

ومجىء هاتين الجملتين اسميتين مفيد لثبوت هذا الجزاء لهم ، وتقرره فى حقهم واستمرارهم فيه ، أما التناكر والتلاعن فهو أمر متجدد بينهم ، ومن ثم عبر فيه بالمضارع كما بينا آنفا •

الهجرة :

وجد إبراهيم أن القوم مصرون على كبرهم وعنادهم ، وأن الدعوة لن تثمر بينهم ، فقرر الهجرة الى حيث يتمكن من عبادة ربه « فأمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى أنه هو العزيز الحكيم » • وجملة « فأمن له لوط » معترضة بين الاخبار عن إبراهيم اعتراض التفريع (٥٣) • وفائدة الاعتراض بيان من آمن به بعد طول دعوته وشدة ما ناله من اذى ، وكان رجلا واحدا هو لوط ابن أخيه • وفى

(٥٢) ينظر أبو السعود : ٣٧/٧ •

(٥٣) التحرير والتنوير : ٢٣٦/٢٠ •

هذا اشارة الى أن هجرته كانت ضرورية نظرا لعدم وجود مناخ صالح
للدعوة بين قومه •

وتأكيد الجبهة بان لتحقيق مضمونها نظرا لأن هجرة الانسان من
قومه ووطنه تعد أمرا صعبا على النفس ، واتخاذ قرار بذلك يحتاج الى
تأكيد وحسم • وايتار « مهاجر » على أهاجر لما فيه من دلالة على
ثبوت هجرته وتصميمه على تحقيقتها •

وحرف « الى » في قوله « الى ربي » للانتفاء المجازي ، اذ
جعل هجرته الى الأرض التي أمره الله بأن يهاجر اليها كأنها هجرة
الى ذات الله تعالى فتكون « الى » تخبيلًا لاستعارة مكثية • أو جعل
هجرته من المكان الذي لا يعبد أهله الله لطالب مكان ليس فيه مشركون
بأنه كأنه هجرذ الى الله ، فتكون « الى » عنى هذا الوجه مستعارة لمعنى
لام التعليل استعارة تبعية (٥٤) • وعلى كل فالتعبير يصور اقباله على
الله تعالى بكنيته ، وهو شغله الشاغل حتى انه تارك وطنه وقومه لذلك •
وفي ايثر لفظ « ربي » مضافا الى ضميره اشعار بأنه ناصره ومؤازره
ولن يتركه وحيدا فهو مربيه ومالك أمره ومتوليّه •

وتذييل الآية بقوله « انه هو العزيز الحكيم » وهو تذييل تعليلي
لضمون قوله « انى مهاجر الى ربي » لأن من كان عزيزا حكيمًا يعتر به
من هاجر اليه وأقبل عليه • وقد تضمن التذييل جملة من الخصائص
المؤكدة لمضمونه وهى التأكيد بان ، وضمير الفصل ، وتعريف المسند
بائلام وهما يفيدان القصر فصار المعنى : انه هو العزيز الحكيم
لا غيره • واتباع وصف « العزيز » بـ « الحكيم » للدلالة عنى أنه
لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة ، فعزته محكمة وواقعه موثعا •

الخاتمة :

وتختتم الحلقة ببيان النعم التي أسبغها الله تعالى على إبراهيم عليه السلام بعد هجرته « ووهبنا له اسحاق ويعقوب رجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » . وفي ذكر هذه النعم اثر عزمه على الهجرة وربطها بها اشارة الى انها كانت مكافأة له من الله تعالى على جهاده في الدعوة الى الله وهجرته في سبيلها .

وقد تضمنت الآية أربع نعم عظيمة :

الأولى : هبة الوند وهو ما طال شوقه اليه « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » وتقدم شرح ذلك في حلقة الأنبياء .

والثانية : « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » واللام في الكتاب للجنس فيتناول الكتب الأربعة : التوراة والانجيل والزيور والقرآن ، فهي كلها كتب نزلت على أنبياء من ذرية ابراهيم عليهم السلام . وتقديم الجار والمجرور « في ذريته » للاهتمام ببيان محل النبوة والكتاب وهو ذريته .

والثالثة : « وآتيناه أجره في الدنيا » فقد أنعم الله تعالى عليه بنعم كثيرة في الدنيا منها نجته من النار ، وتصرته على أعدائه ، وهبة الذرية ، واستمرار النبوة في ذريته وغير ذلك . والتعبير عن ذلك بالأجر وواصفته الى ضميره — مع كونه فضلا من الله تعالى — للاشارة الى كونه قد استحق ذلك بما عمله من أعمال صالحة .

والرابعة : « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وبذلك جمع له فضل الدنيا والآخرة . وتأكيد الجملة بان واللام لتحقيق مضمونها نظرا لكونه من أمور الآخرة المستقبلية . وتقديم الجار والمجرور « في الآخرة » للاهتمام ببيان كبر ذلك في الآخرة التي هي الدار الباقية . وجاءت

هذه الجملة اسمية خلافا للجملة السابقة لافادة ثبوت مضمونها وتحققه .
بينما النعم التي تحتوى عليها انجمل السابقة حدثت على فترات
زمنية فالتجدد فيها ظاهر •

وقد عبر في النعمة الأولى بالهبة للإشارة الى أن منحه الذرية
كان عطاء خلصا ليس له فيه اجتهاد ، فهي نعمة جاءت خارجه عن
نطاق العادة ، وفي أحوال يستحيل فيها ذلك عدة • وعبر في الثانية
بانجعل لها فيها من تحويل من بشرية عادية الى بشرية متصفة بالعبوة
وتبليغ الرسالات • وعبر في الثالثة بالايلاء ليتناسب مع الأجر ،
اذ يؤتى الأجر في مقابل العمل • وعبر في الرابعة بالجملة الاسمية
لإفادة تحقيق مضمونها وثبوتها ، على الرغم من كونها في الآخرة •

وأشدت الأفعال التي نون العظمة ، وفي ذلك دلالة على أنها
عظيمة لا تصدر الا عن العظيم جل شأنه ، ولا يقدر عليها أحد سواه •
ورتبب النعم ترتيبا دقيقا ، حيث بدىء بالنعمة التي كان يتمدها
ويتوق اليها من زمن بعيد وهي نعمة الذرية ، وأتبع بما يتصل بها
ويكملها ، وهو جعل هذه الذرية من الأنبياء والمرسلين المبلغين عن الله
تعالى ، فهي ذرية من نوع خاص لها مكانتها ومنزلتها • وتلتها النعمة
التي تتصل به في الدنيا وهي ايتاؤه الأجر • وأعقبها النعمة التي تتعلق
به في الآخرة « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وبهذه النعمة الأخروية
التي تشعر بالنهاية العظيمة ، تختم الحلقة ، ليكون ذلك من حسن الختام
وجودة النهاية •

العقبة السادسة

إبراهيم عليه السلام وأنتموه

قال الله تعالى :

« ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين » (١) •

بين يدي الآية :

تتناول هذه الآية الكريمة مشهداً من قصة إبراهيم عليه السلام، يحكى ما دار بينه وبين طائفة عصره « النمرود بن كنعان » • والمنسوبة بينها وبين ما قبلها جلية، فالآية التي قبلها تبين ولاية الله تعالى للمؤمنين وأخراجهم من الظلمات إلى النور ، وولاية الطاغوت للكافرين وأخراجهم من النور إلى الظلمات • قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) •

وجاءت الآية التي نحن بصدد الحديث عنها شاهداً على ذلك . كأنه قيل : انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدى بولاية الله له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عليه ، فيظل على نور

(١) البقرة : ٢٥٨ •

(٢) البقرة : ٢٥٧ •

من ربه ، ويطي الذي حاجه كيف كان برؤية الطاغوت له يعمى عن نور النجاة ، وينتقل من ظلمة من ظلمات الشبه والشكوك الى أخرى (٣) .

ويطى هذا الشاهد شاهدان آخران أولهما يتعلق بالرجل الذي مر على قرية ضاوية على عروشها ، وثانيهما يتصل بابراهيم عليه السلام عندما طالب من الله عز وجل أن يريه هيئة أحيائه الموتى ، ويبدى بهذا المشهود أولاً لأنه لأجلها وأجمعها ، لاشتمائه على ضلال الكافر وهدى المؤمن ، واستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به الكلام . وهو اجترأوه على المحاجة في الله عز وجل ، وما أتى به في أثناءها من العظمة المنادية بكمال حماقة (٤) وفساد عقاه وتفكيره .

• البداية

يبدأ هذا المشهود بداية فيها لفت للعقول ، وتشويق للأسماع ، وحث على النظر في هذا الأمر العجيب المتمثل في محاجة نمرود في الله تعالى وكفره به « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك » . ولم يعطف الكلام على سابقه ، لأنه دليل عليه وبيان له بشاهد عملي جرت أحداثه على أرض الواقع .

وهمة الاستفهام للتقرير بالرؤية لا للتقرير بعدمها ، ومن البلاغيين من يجعلها للانكار ، أى انكار عدم الرؤية ، والرؤية مثبتة على الوجهين ، وقد أشرنا الى ذلك مفصلاً في موضع آخر (٥) .

وقد جمع أبو السعود بين القولين فقال : وهمزة الاستفهام لانكار أدنى ، وتقرير المنفى ، أى ألم تنظر أو ألم ينته علمك الى هذه الطاغوت المارد كيف تصدى لاضلال الناس ، وانفراجهم من النور الى

(٣) المنار : ٣/٣ .

(٤) أبي السعود : ٢٥١/١ .

(٥) بنظر ابراهيم والبعث « أو لم تؤمن » .

الظلمات . أى : قد تحققت الرؤية وتقرر بناء على أن أمره من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب (٦) .
وفي الاستفهام تعجيب من محاجة هذا الطاغية في الله عز وجل ، وكفره به ، وتجبره بقوته (٧) .

وقد شاع تركيب « ألم ترا الى ... » في القرآن الكريم ، وهذا التركيب اذا جاء فعل الرؤية فيه متعديا الى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه ، كان كلاما مقصودا منه التحريض على علم ما عدى اليه فعل الرؤية ، ومن ثم تكون همزة الاستفهام غير مستعملة في الاستفهام الحقيقي ، بل في معنى من معانيه التي يخرج اليها ، كما أسلفنا ، ويذون الخطاب به غالبا موجها الى غير معين فيشمل تن من يصح اه الخطاب (٨) .

وقد اشتهر هذا التركيب في ذلك حتى أجرى مجرى المث في هذا الباب ، بأن شبه حال من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ، وأنه ينبغي أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ، قصدا الى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب (٩) .

والرؤية يمكن أن تكون علمية ، ضمنت معنى الوصول والانتها ، أى : ألم ينته علمك الى الذي حاج ... ، ويمكن أن تدون بصرية ، ضمنت معنى النظر ، أى : ألم تنظر الى الذي حاج ... ، وهن ثم عدت الرؤية يائى ، لتضمينها أحد المعنيين السابقين (١٠) .

(٦) أبو السعود : ١٥١/١ وينظر الفتوحات الالهية : ١٩٧/٠ .

(٧) ينظر الكشاف : ٣٨٧/١ ، وينظر الفتوحات الالهية ، ٢١٠/١ .

(٨) ينظر التحرير والتنوير : ٤٧٦/٢ .

(٩) الالوسى : ١٦٠/٢/١ .

(١٠) ينظر السابق نفسه ، والتحرير والتنوير : ٧٦/٢ .

قال الراغب : ان الفعل مما يتعدى بنفسه لكن لما استعير ليعنى
 ألم تنظر ، عدى بالى ، وفائدة استفادته أن النظر قد يتعدى عن
 الرؤية ، فاذا أريد الحث على نظر ناتج لا محالة لها استعيرت نه ،
 وقلما استعمل ذلك في غير التقرير ، فلا يقال : رأيت الى كذا (١١) .

وتعريف الطاغية الاسم الموصول دون التصريح باسمه ، لما في
 اخفاء اسمه من تحقيره وإعماله ، ولأن اسمه لا يهم المخاطبين في نسيء
 لحصول الافادة والعبارة دون الحاجة الى معرفته ، وللتمكن من وصفه
 بجملة الصلة ، لكشف جريمته التي التصقت به ، وأصبح معروفا
 ومشهورا بها بين الناس على مر العصور .

والمحاجة : المغالبة بالحجة ، يقال : حاجبت فلانا فحججته أى
 غلبته بالحجة ، وذلك يكون عند الخصومة (١٢) . والأغلب أنها تفيده
 الخصام بباطل (١٣) .

واختلفوا في وقت هذه المحاجة ، فقيل انها وقعت عند كسر
 الأصنام قبل الاقواء في النار ، وقيل وقعت بعد القائه في النار ونجاته
 منها (١٤) .

والضمير في « ربه » راجع الى ابراهيم عليه السلام ، وفي
 التعبير بلفظ الرب اشعار بأنه مؤيده ونصره في هذه المحاجة ، فهو ربه
 وممثل أمره ، وفي اضافته الى ضميره عليه السلام تشريف وتكريم له .
 واشارة الى أنه الرب المعبود بحق جل شأنه ، لا من يتخذ هذا الطاغية
 وقومه الها لهم بالباطل .

(١١) المفردات : ٢٠٩ .

(١٢) مقاييس اللغة : مادة « حج » .

(١٣) التحرير والتنوير : ٣٢/٣ .

(١٤) الرازى : ٢١٧/٢ .

وبعد التعجب من حاجة هذا الطاغية ، ذكر سبب حاجته ،
 ويدفعه اليها وهو « أن آتاه الله الملك » وجاءت هذه الجملة منفصلة
 عما قبلها للاستئناف البياني ، حيث انما علة لما قبلها • وعليتها
 تفسر على وجهين : اما أن تكون علة محضة واردة على سبيل الحقيقة ،
 أي أن ايتاء الملك أورشه الكبر والبطر والعتو ، فحاج في ربه بسبب ذلك
 واما أن تكون علة عائية واردة على سبيل التهكم من باب عكس الكلام ،
 أي أنه وضع الحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن
 آتاه الله الملك ، كما تقول : غداً فلان لأنى أحسنت اليه ، تريد أنه
 عكس ما كان يجب عليه من الموالاة لأجل الاحسان (١٥) •

قال ابن المنير : والوجهان قريبان من حيث المعنى ، الا أن بينهما
 فرقاً في الضاعفة وهو انما استعمل المصدر في الأول مفعولاً لأجله ، وفي
 الثاني ظرفاً (١٦) •

ونفى بعضهم أن يكون المصدر مفعولاً لأجله ، لعدم اتحاد الفاعل
 وانما الكلام على حذف اللام وهو مطرد في « أن » و « أن » أي لأن
 آتاه ، كما اعترضوا على الظرفية بأن الحاجة لم تقع وقت ايتاء الملك ،
 بل الايتاء سابق عليها ، وينص النحاة على أنه لا يقوم مقام الظرف
 الزماني الا المصدر الصريح بلفظه ، كجئت خفوق النجم وصياح
 الديك (١٧) •

والتعبير بلفظ الجلالة دون لفظ الرب المتقدم ، واطهاره صريحا ،
 لثربية المهابة والخشية ، والتذكير بالقدرة الماطقة للمؤتى جل شأنه ،
 مع ما في هذا المسلك من تلوين للأسلوب والنأى به عن وقوع التكرار

(١٥) ينظر الكشاف : ٣٨٨/١ ، والتحرير والتنوير : ٣٢٦/٣ •

(١٦) الانصاف • بهامش الكشاف : ٣٨٨/١ •

(١٧) ينظر الألويسي : ١٦٠/٣/٢ •

فيه وانلام في الملك للعهد ، أى الملك المعهود لدى المخاطبين عن طريق علمهم به .

ما دار في الحاجة :

وبعد هذه البداية المشوقة لما بعدها ، المشتمة على تعجيب منه ، وحث على معرفته ، تذكر الآية ما دار في هذه الحاجة العجيبة « اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت » وفصل هذا عما قبله لكمال الاتصال فهو بيان وتوضيح لما دار في الحاجة . والبداية بقول ابراهيم عليه السلام ، دليل على أنه هو الذى بدأ بالدعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له محتجا بهذه الحجة الواضحة التى يدركها كل عاقل (١٨) .
وقيل ان ابراهيم عليه السلام قال ذلك اجابة عن سؤال من نمرود له : من ربك الذى تدعو اليه (١٩) ؟ وبهذا يكون نمرود هو الذى بدأ بالحاجة .

ولا تعارض بين الرأيين ، فدعوة ابراهيم الى ربه سابقة ومستمرة لم تنقطع ، حيث دعا قومه مرارا ، وجادلهم فى شأن أصنامهم ، وصار مشهورا بذلك ، وبناء على هذه السوابق أرسل اليه الطاغية ليجادله فيما يدعوا اليه ، فلما مثل بين يديه سألته من ربك الذى تدعو الناس اليه وتحثهم على عبادته (٢٠) .

وطرى هذا القدر من الحاجة لظهوره من جواب ابراهيم عليه السلام ، وفى ذلك ايجاز لا يخفى أثره فى تقوية المشهد المبرهن ، بالاقصص على ذكر ما فيه عظة وعبرة ، وطى ما يفهم من التفسير .

• (١٨) التحرير والتنوير : ٣٣/٣

• (١٩) ينظر الألوسى : ١٦/٣/٢

• (٢٠) ينظر قصص القرآن : ٤٨

و « ربي » مبتدأ ، و « الذي » خبره ، و « يحيى ويميت » صلة الموصول ، وأيثار لفظ الرب لما فيه من الأشعار بتربيته والعناية به وتسيده ، وما يحققه من ترابط للنظم بمراعاة انتناسب بين (حاج ابراهيم في ربه) و (تان ابراهيم ربي) والاضافة فيه للتشريف ، وتعريف الخبر لافادة التخصيص ، فهو الذي يحيى ويميت دون غيره وعبر بانذى الدال على المعهود المعروفة صنته دون « من » التى غيرها الابتهام ، وبالمضارع الدال على التجدد والاستمرار ، لافادة ان هذا شأنه دائما كما هو معهود معروف لمن نظر فى الأكوان نظر المفكر المستدل(٢١) .

وقدمت الحياة على الموت على خلاف ما فى كثير من الآيات ، لأن ابراهيم يدعو الى الله بالدليل ، والدليل يجب أن يكون فى غاية الوضوح ولا شك أن عجائب الخلقه حال الحياة أكثر ، واطلاع الانسان عليها أتم ، فلا جرم تقدمت الحياة فى الذكر(٢٢) .

وفى تقديم الاستدلال بخلق الحياة ادماج لاثبات البعث ، لأن الذى حاج ابراهيم كان من عبده الأصنام ، وهم ينكرون البعث وذلك موضع العبرة من سياق الآية فى القرآن التذريم على مسامح أهل الشرك(٢٣) . والادماج لون من ألوان البديع عرفه ابن أبى الاصبغ بقوله : أن يدمج المتكلم غرضا له فى ذم من معنى قد نحاه من جملة المعانى ، ليوهم انسامع أنه لم يقصده ، وانما عرض فى كلامه لتتمة معناه الذى قصد اليه(٢٤) . وعرفه الخطيب بقوله : أن يضمن كلام سيق

(٢١) النار : ٣٩/٣ .

(٢٢) الرازى : ٣١٨/٢ .

(٢٣) التحرير والتنوير : ٣٣/٣ .

(٢٤) بديع القرآن : ١٧٢ وينظر خزانة الأدب : ٥٩٤/٢ .

المعنى معنى آخر (٢٥) •

وحذف مفعولى « يحيى ويميت » تزيلا للمتعدى مذلة اللازم ،
لاثبتا المعنى فى نفسه لله جل شأنه على الاطلاق من غير اعتبار تعنته
بمن يقع عليه ، أى يوجد الحياة والموت • وبين « يحيى ويميت »
طباق بديع يقوى المعنى بذكر الشئ وضده ، كلما يحسن الأسلوب بما
له من وقع مؤثر •

ولما ذكر ابراهيم عليه السلام هذه الحقيقة الثابتة مدعمة
بالحجة القوية ، حازه الطاغية فيها « قال أنا أحيى وأميت » • والفصل
بين قال وما قبلها للاستئناف المبنى على سؤال ناشئ مما سبق ، كأنه
قيل : كيف حازه فى هذه المقالة القوية ، فقيل : قال أنا أحيى
وأميت (٢٦) • وهذا سبيل مسلوك فى حكاية المحاورات والمجادلات •

واجابة « نمرود » تعتبر مقدمة ثانية فى قياس وردت مقدمته
الأولى فى كلام ابراهيم عليه السلام ، وتفهم نتيجته من سياقه • فهو
يريد أن يقول : ربك يحيى ويميت ، وأنا أحيى وأميت ، فأنا رب كذلك •
وهو قياس غير صحيح لاختلاف معنى الاحياء والأمانة فى كل من
المقدمين ، فقد أراد ابراهيم بيحيى ويميت : أنه الذى يخلق الحياة
والموت فى جميع الكائنات ، وأراد الطاغية غير ذلك ، فقد روى أنى
برجلين فقط أحدهما وعفا عن الآخر (٢٧) وهذا ليس ايجادا للحياة
والموت فى جميع الكائنات ، وأراد الطاغية غير ذلك ، فقد روى أنه أتى
أسباب •

• (٢٥) تلخيص المفتاح : ٢٨٣ •

• (٢٦) أبو السعود : ٢٥١/١ •

• (٢٧) الأثرى : ١٧/٢/٢ •

وهذه الاجابة من « نمرود » حماقة ما بعدها حماقة ، حيث اجاب بما يكذبه العقل ، وهو ضد الأسلوب الحكيم ، وقد سماه الطيبي وغيره : الأسلوب الأحمق (٢٨) • وهى اجابة منقطعة عن الدليل الذى أتى به ابراهيم عليه السلام ولذلك لم يقل : فقال أنا أحيى وأميت • فقد أراد أن يكون سببا للاحياء والاماتة ، والكلام فى الانشاء والتكوين ، لا فى اتخاذ الأسباب ، والترسل فى الشئ المكون (٢٩) •

وتقديم المسند اليه على خبره المفعلى فى حكاية كلام الطاغية لتقوية الحكم وتأكيدده لا للتخصيص ، اذ لو كان للتخصيص لكان الكلام : أنا الذى أحيى وأميت ، فيكون ردا للدليل السابق •

ومنشأ التقوية والتأكيد فى هذا الأسلوب على ما يرى الامم عبد القاهر : ما فيه من تشويق المخاطب ، بسبب تقديم المسند اليه على الخبر ، وتبنيه على أن حديثا سيدور بشأنه ، ليلتفت اليه ، فيدخل على قلبه دخول المأنوس به ، ويقبله قبول المهيا له ، وذلك أشد لثبوته ، وأدخل فى تحققه ، وهو بمثابة التكرير فى تأكيد الكلام (٣٠) • وقد تبعه الرازى فى هذه العلة (٣١) •

وعلم السكاكى ذلك : بأن المبتدأ يستدعى أن يستند اليه شئ فاذا جاء بعده ما يصلح أن يستند اليه صرفه الى نفسه ، فينعقد بينهما حكم ، فاذا كن ما بعده متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير اليه ثانيا فيكتسى الحكم قوة (٣٢) • لما فى الكلام من تكرار الاسناد • وعلى هذا سار الخطيب القزوينى (٣٣) •

• (٢٨) حاشية الشهاب : ٢/٣٣٧

• (٢٩) المنار ٣/٣٩

• (٣٠) ينظر دلائل الاعجاز : ٦٧

• (٣١) ينظر نهاية الايجاز : ١٢٣

• (٣٢) مفتاح العلوم : ٢٢١

• (٣٣) رغبة الاضمار : ١/١٤٤

سمع ابراهيم عليه السلام محاجة « النمرود » فعلم أنه مكابر يجادل بالباطل في حقيقة جليلة ، فلم يعبا بايطل صلالته الحمقاء ، لظهور بطلانها . بحيث لا يكاد يخفى على أحد ، ونم يتصد لابطلها ، لأنه من قبيل السعى في تحصيل الحاصل ، وأتى بمثال لا يجد فيه الطاغية مجالا للتمويه والتلبيس (٣٤) . « قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » . وفصلت جملة قال عن سابقتها للاستئناف البياني كما سبق تفصيله . واظهار ابراهيم وعدم اضماره كما في كثير من الحوارات المحكية عنه في قصته ، للعناية باظهار كلامه وتمييزه ، حيث ان المقام يقتضى توضيح القائل أمنا من عروض لبس لأن طرفي الحوار هفردان .

رجمة « فان الله يأتي بالشمس ... » مقبول القول ، ودخلت إلقاء على « ان » أي إذا ما بتعلق هذا الكلام بما قبله ، والمعنى : اذا ادعيت الأحياء والأمانة ولم تفهم ، فالحجة ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب (٣٥) . وتأكيده الكلام لما أن المقام يقتضى التأكيد . والتعبير باسم الجلالة دون لفظ « ربي » المستعمل في الدليل الأول ، لما فيه من بعث المهابة والخشية ، والترقى في التعبير بذكر الله تعالى بالاسم المختص به ، الذي لا يشترك معه أحد فيه . والتعبير بالمضارع « يأتي » للدلالة على التجدد والاستمرار ، فالأتيان بالشمس من المشرق أمر مستمر ومتجدد كل صباح . والبناء للتعدي ، ومن في الموضوعين لابتداء الغاية وهي متعلقة بالفعل الذي يتقدمها .

والأمر لتحدى الطاغية وتعجيزه والقامه الحجر ، لأنه لن يستظلم أن يفعل ذلك ، مهما أوتى من قوة ، بل لا يمكن أن يفكر في فعله إلا

(٣٤) أبو السعود ٢٥٢/١ .

(٣٥) املاء ما من به الرحمن : ٥٠٨/١ .

يعلم مقدما من استحالته عليه ، ويعين المشرق والمغرب طباق يوضح المطلوب منه أتم توضيح ، اذ عليه أن يفعل عكس ما تجرى به السنة الإلهية في الكون ، وهذا محال .

واختلفت نظرة المفسرين الى هذا القول ، فقل بعضهم ان ابراهيم عليه السلام لما رأى نمرود جادل في الدليل الأول عدل عنه الى دليل آخر أوضح منه ، ولا يقال الجدل ، وقال آخرون ان هذا ليس انتقالا من دليل الى دليل آخر ، بل الدليل واحد في الموضوعين ، وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على أحداثها ، فلا بد من قادر آخر يتولى أحداثها وهو الله سبحانه وتعالى

قال الرازي وهذا الوجه أحسن من الأول وأليق بكلام أهل التحقيق منه (٣٦) . وسار على هذا صاحب المنار فقال : هذا ايضاح لقوله الأول وازالة لشبهة الخصم ، لا أنه جواب آخر والمعنى : ان ربي الذي يعطي الحياة ويسبها بقدرته وحكمته هو الذي يطلع الشمس من المشرق ، أى هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها ، فان كذت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طلوع الشمس ، واثت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى بظهورها منها (٣٧) .

ولامراء في أن هذين القولين وان كنا حجة على شيء واحد هو وجود الله القادر الحكيم الا أنهما ليسا شئيا واحدا ، وفي ترتيبهما على هذه الطريقة ترق مما أثار الخصم فيه شبهة باطلة على سبيل المكابرة ، الى ما لا يمكن أن يثير شبهة فيه ، وبذلك تلزمه الحجة .

• (٣٦) الرازي : ٣١٩/٢ .

• (٣٧) المنار : ٣٩/٣ .

وقد اختلفا في نظميهما ف جاء الأول خبرا لا يستعمل على تحد الطاغية ، ولعل هذا كان ايدانا بمكابرتة فيه ، وجاء الثانى خبرا مؤكداً ، يعقبه تحد قوى للطاغية عن طريق الأمر ، لاثبات عجزه و اعلانه على الملأ . وجاء الأول باسم الرب المشعر بالتربية والرحمة واللفظ ، وجاء الثانى باسم الجلالة المشعر بالمهابة والخوف والقوة ، وفي هذا انتقال فى أسلوب الحاجة الى الأقوى لانزام الخصم وانحامه .

ولكن هذا التحدى قاطعا فى افحام الطاغية واخراسه عن الكلام، فلم يستطع جوابا كما قال جل شأنه « فبهت انذى كفر » أى : ذهش وتحير ، وأخذة الحصر من نصوع الحجة وسطوعها فلم يحس جوابا (٣٨) . يقال : بهت الرجل يبهت بهتا ، وهو من الأفعال التى جاءت على صورة المبنى للمفعول والمعنى فيها على البناء على التعلل ، فالذى كفر فاعل لا نائب فاعل (٣٩) .

والتعبير عنه بالموصول بوصلته للإشارة الى أنه مبهود ومعروف بهذه الصلة ، لا باسم آخر ، وللتوصل الى ذمه بما فى حيزها من الكفر . وايراد الكفر بدلا من الصلة الأولى « حاج ابراهيم فى ربه » للإسعار بعلة الحكم ، والتنصيص على أن الحاجة اتى قالها من تبديل الكفر (٤٠) ، وتعميم الحكم على كل كافر ، واطلاق الكفر عن التقييد بمتعلق ليتناول الكفر بكل ما يجب الايمان به ، وفى مقدمة ذلك كفره بالله عز وجل .

والايتان بالفاء للشعر بسرعة ادابته بالبوت عقيب التحدى مباشرة دون وجود زمن ولو قليل يخضر له فيه أن يكفر فى فعل الأمر المتحدى به ، لتيقنه من أنه لن يمكاه القيام به .

(٣٨) ينظر المفردات : ٦٣ ، والنار : ٣٩/٣ .

(٣٩) الفتوحات الالهية : ٢١١/١ .

(٤٠) أم السعود : ٢٥٢/١ .

الخاتمة :

وبعد أن بينت الآية نهاية محاجة الطاغية باصابته بالالجام ، والحصر من جراء صدمته الشديدة بالحجة الدامغة ، ختمت بقوله تعالى « والله لا يهدى القوم الظالمين » وهو تذييل مقرر لأصمون ما قبله ، وعبرة مستفادة من هذه المحاجة ، ونتيجة عممة لها تؤيد الحكم المذكور في الآية السابقة « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى انظلمات » •

ووصل التذييل بما قبله للتوسط بين الكمالين مع التناسب ، فالجملتان متحدتان في الخبرية وتبينان عدم توفيق الله تعالى للكافرين • وتقديم المسند إليه - لفظ الجلالة - على خبره الفعلى لتأكيد الحكم وتقويته ، والأسعار بأنه حكم ثابت ومستمر ، عن طريق اسمية الجملة • وترك متعلق يهدى لاثبات المعنى لله تعالى على الاطلاق من غير اعتبار تعاقبه بشيء ، وفي ذلك تعميم لعدم هداية الظالمين الى شيء من الخير ، وقيل في تقديره : الى مناهج الاستدلال ، أو الى سبيل النجاة ، أو الى طريق الجنة (٤١) ••• والأولى جعله عاما وشاملا لما ذكر وغيره ، وتخصيصه بشيء من ذلك تضيق للواسع •

والتعبير في الفاصلة بالظالمين بدلا من الكافرين كما هو متبادر الى الذهن من قوله « فبهت الذى كفر » لافادة العموم والشهول في عدم هداية من لا يستحقون الهداية ، فالظالم أشم من الكافر ، وهو

أنواع ، وأشدّه ظلم النفس بالكفر ، وعبادة غير الله تعالى ، والاتسرك
 به ، قال تعالى « ان الشرك لظلم عظيم » (٤٢) •

وانما انتفى هدى الله للقوم الظالمين ، لأن الظلم حائل بين صاحبه
 وبين التنازل الى التأمل من الحجج ، واعمال النظر فيما فيه النفع ،
 اذ الذهن في شغل عن ذلك بزهو وغروره (٤٣) •

(٤٢) لقمان : ١٣ •

(٤٣) التحرير والتنوير ٢٤/٣ •

الحلقة السابعة

ابطال عبادة الكواكب

قل الله تعالى :

« واد قال ابراهيم لأبيه آزر أنتخذ أصناما آلهة انى أراك وفومك فى ضلال مبين • وكذلك نرى ابراهيم منكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين • فلما جن عليه اللين رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لعن لمن يهدنى ربى لأكونن من القوم الخالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفنت قال يا قوه انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين • وحاجه قومه قال أتحتاجونى فى الله وقد عدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يئس ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون • وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركت بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فإى المقريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون • الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون • وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم • ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا مدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وإيوب يوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين • وزكريا ويحيى وعيسى والياس ذله من الصالحين • واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين • ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديتناهم الى صراط مستقيم • خلقك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده واو أشركوا ليط عنهم ما كانوا يعملون • أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ان يكفر

بها هؤلاء فقد وكانا بها قوما نيسوا بها بكافرين • أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين» (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الأنعام ، وهي كغيرها من السور الملكية تهتم بارساء دعائم عقيدة التوحيد . واثبات البعث والحساب ، وذلك عن طريق تدبر آيات الله تعالى في الكون • وقد بدأت بذكر خلق الله للمسوات والأرض والظلمات والنور • وخلق الانسان من طين ، وقضائه الآجال وعلمه بالسر والجهر • •

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون • هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون • وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » (٢) •

وانتقلت الى بيان تكذيب المشركين بالرسول ﷺ والحق الذى جاءهم به ، وعنادهم وتكذيبهم له أن يأتيهم بكتاب من السماء ، أو ملك يكن معه نذيرا ، وردت عليهم فى هذا العناد « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين • وقالوا لو لا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا للقى الأمر ثم لا ينظرون • ولو جعلناه ملكا لجذناه رجالا لالبسنا عليهم ما يلبسون » (٣) •

ثم بينت ملكية ما فى السموات والأرض لله تعالى ، وجمعه الناس ليوم القيامة الذى لا ريب فيه ، وقهره لعبده ، وأنزله القرآن على

(١) الأنعام : ٧٤ - ٩٠ •

(٢) الأنعام ١ - ٣ •

(٣) الأنعام ٧ - ٩ •

الرسول ﷺ لا نذار الناس به • وعدم فتح الكافرين له وبهدمهم عنه
ونهيهم الناس عن سماعه •

وعرضت موقف الخافرين يوم القيامة وتمنيهم الرجوع الى الدنيا
ليكونوا من المؤمنين وانتقلت الى تسليمة الرسول ﷺ عن تذبذب
المكذبين ، والمزام الحجة على الكفار ، وأقرارهم بقدره الله تعالى ،
وبيان استعجالهم العذاب •

وذكرت احتصاص الله تعالى بعلم الغيب ، وقهره وغلبته على
المخاوقات ، ونهت عن مجالسة المكذبين الذين يخوضون في آيات الله
تعالى ، ويتخذون الدين لعباً ولهوا • ووصفت حيرة المشركين في شركهم
واستهواء الشياطين لهم ، وأمرت باسلام الوجه لله رب العالمين ،
وحثت على اقامة الصلاة وتقوى الله تعالى الذى يقول للشيء كن فيكون
، قوله الحق وله الملك •

ويعد هذا تذكر جابا من قصة ابراهيم عليه السلام يحكى
استدلانه على استحالة ربوبية الكواكب ، وعلى بطلان عبادتها من دون
الله تعالى ، ويفصل محاورته لقومه في ذلك ، وتعقب عليها ببيان ما
أنعم الله تعالى به عليه من الذرية الصالحة التى جعل الله فيها النبوة
والرسالات • وفى ذكر هذه القصة تذكير لمشركى قريش وحث لهم على
النظر فى تاريخ أبيهم ابراهيم ، والاهتداء بهديه ، واتباع الرسول
محمد ﷺ الذى سار على نهجه واهتدى بهداه • وهذا الجانب من
قصة ابراهيم عليه السلام هو موضوع هذه الحلقة •

البيدانية :

لما كانت هذه الحلقة مبنية على مجازاة الخصم لابتنال شبيته
جاءت بدايتها دالة على النهاية ليعرف من أول الأمر رأى الجبراهيم فى
عبادة أبيه وقومه ، حتى لا تكون هناك شائبة فى عقيدة ابراهيم عليه

السّلام بسبب ما سيصدر عنه بعد ذلك من أقويل يجارى بها خصومه
لابطال شبههم ومزاعمهم « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما
آلهة انى أراك وقومك فى سلال مبين » •

« واذ » منصوب على المفعولية بمضمر فوطب به النّبي ﷺ
معطوف على قوله تعالى « قل أندعوا ... » (٤) أى : اذكر لهم -
بعدهما أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على نفع وضرر وحققت أن الهدى
تهدى الله ، وما يتبعه من شئونه تعالى - وقت قول ابراهيم لأبيه
أنتخذ أصناما آلهة ، مويخا له على عبادة الأصنام ، فان ذلك مما
بيّنت المشركين وينادى بفساد عبادتهم (٥) •

وتوجيه الأمر بالذّكر الى الوقت دون ما وقع فيه من أحداث مع
أنها المقصود الأصلي ، للمبالغة فى ايجاب ذكراها ، لما أن ذكر الوقت
ذكر لما وقع فيه بطريق البرهاني ، ولأن الوقت مشتمل عليها فاذا
استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا (٦) •

و « آزر » عطف بيان لأبيه أو بدل منه • والصحيح أنه اسم
أبيه خلافا لما فى التوراة من أن اسم أبيه تارح • قال ابن جرير :
والصواب أن اسم أبيه آزر ، وما قاله النّسابة من أن اسمه تارح •
فقد يكون له اسمان كما لكثير من الناس • أو يكون أحدهما لقباً (٧) •
قال ابن كثير : وهذا الذى قتله جيد قوى (٨) • وقال البخارى فى
التاريخ الكبير : ابراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارح والله سبحانه

(٤) الأنعام ، ٧١ •

(٥) أبو السعود : ١٥١/٣ •

(٦) السابق : ٧٩/١ •

(٧) جامع البيان : ١٥٩/٧ •

(٨) ابن كثير : ١٥٠/٣ •

آزر • وعلق الشيخ رشيد رضا على هذا بقوله : فقد اعتمد أن آزر هو اسمه عند الله أي في كتابه ••• والقرآن هو المهيمن على ما قبله ، نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه ، ونلزم الوقف فيما سكنت عنه حتى يدل عليه دليل صحيح (٩) •

والاستفهام في قوله « أتتخذ أصناما آلهة » للافتكار التوبيخي أي . لا ينبغي أن يكون منك هذا • وفي ذكرها باسم الأصنام اشعار بتحقيرها ، وإبطال لاتخاذها آلهة ، فهي في الحقيقة أصنام ، والأصنام لا يمكن أن تكون آلهة •

ولما ويخه عن طريق الاستفهام ، صرح برأيه فيما هو وقومه عليه ، ليجمع بين الإنكار بالمفهوم والإنكار بالمنطوق « انى أراك وقرمك في ضلال مبين » • وتأكيد الجملة لتحقيق مضمونها في مواجهة المخاطبين المنكرين له ، والتعبير بأراك دون أجرك ونحوه لنا في البرية من دلالة على اليقين التام عن طريق المشاهدة ، وإشارة إلى أن ضلاله ظاهر للعيان • وفي اسناد القوم إلى أبيه دلالة على أنه قائدهم في ذلك وهم أتباعه في عبادتها •

والضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، ويقال لكل عدول عن المنهج عهدا كان أو سهوا ، يسيرا كان أو كثيرا (١٠) • والتعبير بفى مشعر بغرقهم في هذا الضلال • وإحاطته بهم • وتذكيره لتفخيمه وتحويله فهو ضلال هائل مطبق ، ووصفه بمبين لبيان أنه ظاهر وأصح لا شبهة فيه عن طريق البرهان ، لأنه إذا كان مبينا لضلالهم وغيرهم فهو بين في نفسه من باب أولى •

وعقب هذا الإنذار القوي من إبراهيم لأبيه وقومه ببيان فضل

(٩) المنار : ٤٤٧/٧ •

(١٠) المفردات : ٢٩٧ •

الله تعالى على ابراهيم في تبصيره طريق الحق، وتعريفه أسرار السموات والأرض « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » • قال الشيخ رشيد رضا : أى وكما أرينا ابراهيم الحق فى أمر أبيه وقومه وهو أنهم كثروا على ضلال بين فى عبادتهم للأصنام كذا نريه المرة بعد المرة ملكوت السموات والأرض على هذه الطريقة التى يعرف بها الحق (١١) • وعلى هذا فالكاف لتبسيه هذه الآراء بآراء أخرى مفهومة من الآية السابقة •

وكلام الزمخشري يدل على أن « ذلك » إشارة الى مصدر « نرى » لا الى آراء أخرى مفهومة مما سبق اد قال : ومثل ذلك التعريف وانتبصير نعرف ابراهيم ونبصره ملكوت السموات والأرض (١٢) • ولا يلزم منه تشبيه الشيء بنفسه لأن المثل غير مراد ، وإنما جرى به مبالغة كما يقال : ذلك كذلك (١٣) • وعلى هذا فالكاف لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ، ومحطها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير : نرى ابراهيم آراءه كائنه مثل تلك الآراء ، فقدم على الفعل لافادة القصر ، والمشار اليه نفس المصدر المؤنث لا نعتا له (١٤) •

وما فى اسم الإشارة من معنى البعد مؤذن بعنو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ، وفى صيغة المضارع « نرى » حكاية للنحال المنخبة لاستحسان صورتها •

(١١) النار : ٤٦٢/٧ •

(١٢) الكشاف : ٣٠/٢ •

(١٣) حاشية الشهاب : ٦٩/٤ •

(١٤) أبو السعود : ١٥٢/٣ •

والملكوت مصدر ملك كالرغبت والرحموت ، وتأؤه زائدة للمبالغة وهو مختص بملك الله تعالى (١٥) •

وقوله تعالى « وليكون من الموقنين » متعلق بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر لما قبلها ، أى وليكون من زمرة الراضين فى الإيقان بمعرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر ، وتقديم المتعلق يفيد التقصر ، وهو لا يدل على انحصار فائدة التبصير فى ذلك بل يدل على أن ذلك هو الأصل الأصيل والباقى من مستتبعاته ، فان ارشاد الخلق والزام المشركين بالحجة من فوائده بلا مرية • فالقصر اضافى بالنسبة الى شىء معين • وقيل انه متعلق بالفعل السابق والجملة معطوفة على علة أخرى محذوفة ينسحب عليها الكلام أى : ليستدل وليكون من الموقنين (١٦) •

واليقين : هو الاعتقاد الجازم المبني على الأمارات والدلائل والاستنباط ، وقال الراغب : هو سكون مع ثبات الحكه ، وهو من دفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها ، يقال : علم يقين ولا يقال معرفة يقين (١٧) •

وأيثار « من الموقنين » على موقنا لما فيه دن اثبات اليقين الكامل له بجملة من زمرة الموقنين المعروفين بهذا الوصف دون غيرهم ، وإطلاق اليقين لوصفهم باليقين المطلق ، أو لتعميم اليقين وشموله •

الاستدلال على بطلان ربوبية الكواكب :

وتبدأ الآيات فى عرض استدلال إبراهيم على استنحلة الوهية الكواكب وبطلان عبادتها ، من خلال نظره فيها وافقراض ربوبيتها

(١٥) المفردات : ٤٧٢ •

(١٦) أبو السعود ١٥٢/٣ •

(١٧) المفردات : ٥٥٢ •

مجازاة أقرمه ثم بيان استحالة ذلك على كواكب يعترريها التغيير
والتبديل ، وهذا مما يتنافى مع الألوهية •

وتحكى الآيت ثلاث وقفات لأبراهيم عليه السلام ، نظر وتأمل
فيها بعض النيرات انتى خلقها الله تعالى فى الكون ، حيث شاهد بزوغها
نارة وأقولها نلرة أخرى ، واطلع على تحولها وتغيرها من حال الى
حال ، وهذا دليل على استحالة ألوهيتها ، وبه واجه قومه وبأبطل
عبادتهم للكواكب والنجوم •

وكانت الرفقة الأولى نظره الى الكوكب « فلما جن عليه الليل
رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » • والآية —
على جعل « وليكون من الموقنين » متعلقا بمحدوف مؤخر — تكون
معطوفة على « واذ قال ابراهيم » داخلة تحت ما أمر بذكره ، وقوله
تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ... » اعترض مقرر لما سبق وما
لحق ، فان تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والأرض
وما فيهما ، وكرمه من الراسخين فى معرفة شعبونه تعالى مما يقضى ان
يحكم عليه السلام باستحالة الهية ما سواء سبحانه من الأصنام
والكواكب • وفى الاعتراض أيضا تنويه باستدلال ابراهيم عليه
السلام وأنه تبصير له من الله تعالى وتسييد (١٨) •

وعلى جعل قوله « وليكون من الموقنين » متعلقا بالفعل السابق
تكون الآية تفصيلا لما ذكر من اراءة ملكوت السموات والأرض ،
وبيانا لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله الى رتبة الايقان (١٩) •
وجن عليه الليل أى ستره بظلمته ، وأصل الجن المستر عن الناس ،
يقال : جنه الليل وأجنه وجن عليه فجنه : ستره ، وأجنه : جعله

(١٨) ينظر الكشاف ، والانصاف : ٣٠/٢ • وأبو السعود ١٠٤٣-١٠٤٤

(١٩) ينظر الفيضوى والشهاب : ٨٥/٤ ، وأبو السعود ١٠٣٣/٣

ما يجنه ، وجن عليه كذا : ستره (٢٠) • وايتار « جن » على غيره لب يتضمنه من اشعار بالحماية المؤدية الى السكنية والهدوء وشفاء الفكر للتدبير في الكون • وقوله تعالى « رأى كوكبا » جوابا لما ، وبتكبير « كوكبا » لعدم الحاجة الى تعيينه فهو كوكب من الكواكب السيارة في الأفق ، ومن ثم فلا داعى الى البحث في اسمه كما فعل كثير من المفسرين •

وقوله « قال هذا ربي » استئناف مبنى على سؤال نشأ من الجملة السابقة ، كأنه قيل : فماذا فعل عليه السلام حين رأى الكواكب؟ فقيل : قال هذا ربي • وفي اسم الإشارة تمييز له أكمل تمييز بواسطة الإشارة ، وما فيه من معنى القرب مشعر بنفخيمه وتعضيمه • وايتار « ربي » على الهى لما فيه من اشعار بأنه مربيه ومدبر أمره ورحيم به في مقام يفتقر الي هذه المعانى •

وقد اختلف العلماء في هذا القول وما يليه في القمر والنمس ، فأكثرهم على أنه قل ذلك وهو عارف لربه تعالى عابد له ، وانما قاله على سبيل الفرض والتقدير مجازاة لأبيه وقومه في مناظرته لهم كي يمهّد بذلك لابطال مزاعمهم في هذه الكواكب • واقامة الحجّة عليهم ، فإن المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ثم يكر عليه بالابطال (٢١) •

وقيل انه قل ذلك في مقام النظر والاستدلال لنفسه ، وكان ذلك في زمان مراهقته وأوان بلوغه (٢٢) •
ورجح الرازى الرأى الأول بأدلة هى :

(٢٠) بصائر ذوى التمييز : ٣٥٣/٢ •

(٢٢، ٢١) ينظر الرازى : ٧٥/٤ • وأبو السعود : ١٥٣/٢ •

والمنار : ٤٦٤/٧ ، والتحرير والتنوير : ٢٢٤/٧ •

- ١ - أنه قال قبل هذا لأبيه « أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك
فى ضلال مبين » •
- ٢ - أنه رأى ذلك بعد رؤية ملكوت السموات والأرض ليكون
من الموقنين •
- ٣ - أن الفاء تقتضى الترتيب فتدل على أن هذا كان بعد الاراءة
التي كان بسببها من الموقنين •
- ٤ - أن هذه الواقعة حصلت بسبب مناظرة ابراهيم مع قومه ،
حيث قيل فى آخر القصة « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه »
ولم يقل على نفسه ، فعلم من ذلك أن هذه المباحثة إنما جرت مع
قومه (٢٣) •
- يضاف الى ذلك قول ابراهيم فى مشهد القمر « لئن لم يهدنى ربى
لأكون من القوم الضالين » فهذا تصريح منه بمعرفة الرب الحقيقى
الذى بيده الهداية والتوفيق الى الطريق المستقيم •
- ولعل سلوك هذه الطريقة مع قومه فى بيان استحالة رموبية
الكواكب دهن بيان استحالة الهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلان
هواستحالة من الأول ، فلو مدد بالحق من أول الأمر كما فعله فى حق
عبادة الأصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد واجروا فى طغيانهم
يجمعون (٢٤) •
- والأقول : غيبوبة النيرات كالقمر والنجوم (٢٥) • وقوله « لا
تأحب الآفلين » على تقدير مضاف عند الزمخشري ولذلك قال فى معناه :

(٢٢) الرازى : ٧٦/٤ •

(٢٤) أبو السعود : ١٥٣/٣ •

(٢٥) المفردات : ٢٠ •

لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حال الى حال ، المنتقلين من مكان الى مكان ، المحتجبين بستر ، فان ذلك من صفات الأجرام (٢٦) •

وام يقدر البيضاوى مضافا ، وقال « لا أحب الآملين » فضلا عن عبادتهم ، وقوله فضلا عن عبادتهم اما اشارة الى عدم العبادة بالبرهان ، أو اشارة الى أنه كنى بعدم المحبة عن عدم العبادة ، لأنه يلزم من نفى المحبة نفى العبادة بالطريق الأولى (٢٧) •

والتعبير بعدم المحبة عن عدم العبادة مشعر بأن العبادة يجب أن تؤسس على المحبة المتمكنة في قلب العابد ، ليكون اقباله على العبادة بشغف •

وتأتى التوقف الثانية ، وفيها تأمل القمر وهو على ما يظهر للناس أقوى نورا وأكبر حجما وأكثر نفعا فيكون أحق بالربوبية من سابقه ، ولكنه أيضا سرعان ما يأمحل ويحتجب ، فربوبيته مستحيلة ، وعبادته باطلة « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال ان لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين » •

والبزوغ : ابتداء الطلوع ، يقال : بزغت الشمس بزغا وبزوغا أى شرقت ، وبزغ ناب البعير : طلع و « رأى القمر بازغا » أى طالعا منتشرا الضوء (٢٨) •

وفي تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد وتعليق الضلال على عدم هداية الله تعالى تقرير وتحقق لا يدع مجالاً للشك في أن مصدر الهداية هو الله عز وجل •

وقوله « لأكونن من القوم الضالين » تعريض بقومه وتبئيه لهم

(٢٦) الكشف : ٣١/٢ •

(٢٧) البيضاوى والشهاب : ٤ •

(٢٨) بحائر ذوى التمييز ١/٢٤٤ •

على أن من اتخذها قمرا وهو نظير الكواكب في الأغول فهو ضال •
 والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله أولا « لا أحب
 الآفلين » وإنما ترقى الى ذلك لأن الخصوم قد قامت عليهم باستدلال
 الأول حجة • فأنسوا بالقدح في معتقدهم . ولو قيل هذا في الأول
 فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون الى الاستدلال ، بما عرض صاوات
 الله عليه بأنهم في ضلالة الا بعد أن وثق باصغائهم الى تمام المقصود
 واستماعهم الى آخره ، والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة
 الى التصريح بالبراءة منهم ، والتفريع بأنهم على شرك حين تم قيام
 الحجة عليهم ، وتبليغ الحق وبلغ من الظهور غايته (٢٩) •

وفي التعبير القرآني معنى لا يوجد فيما لو قيل : لأكونن ضالا ،
 حيث سيكون موسوما بالضلال معروفا به ، لأنه من جنس المعروفين
 بالضلال المشهورين به •

وفي الوتفة الثالثة نظر ابراهيم الى الشمس وتأملها مفترضا
 ربوبيتها بل أحقيتها بالربوبية من الكوكب والقمر لأنها أكبر جرما
 وأقوى ضوءا وأعظم نفعا ، ولكنها تأفل كما أفل الكوكب والقمر ، فلا
 يمكن أن تكون ربا ، ولا يمكن أن يكون شيء من الكواكب والنجوم
 بهذه الصفة ، الذين يزعمون ربوبيتها مشركون ضالون ، وهو برىء منهم
 ومن مزاعمهم •

« فلما رأى الشمس بزغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال
 ينقوم انى برىء مما تشركون » •

وتدوير اسم الاشارة « هذا » دون تأنيثه لما أن المشار اليه
 والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث
 هو مسمى بالشمس ، أو لتذكير الخبر روعى تذكير المتبدأ لأنهما شيء •

وَاحِدٌ . وَفِي التَّذْكِيرِ صِيَانَةَ الرَّبِّ عَنْ وَصْمَةِ اتِّقَانِيثَ (٣٠) .

وجملة « هذا أكبر » جارية مجرى العلة لجملة « هذا ربي » وفيها تأكيد لما رآه من اظهار النصفة للقرين ومجازاتهم في مزاعمهم، تمهيدا لدحضها بالحجة البالغة . كما أن فيها إشارة خفية الى فساد دينهم ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر (٣١) وحذو . المفضل عليه مشعر بكبوره العظيم ، فهو أكبر مما سبق ومن غيره .

ولما أفلت الشمس كما أفل ما قبلها لم يبق أمام ابراهيم الا أن يصدع في قومه بالحق الذي لا محيد عنه « يا قوم انى برىء مما تشركون » وفي الجملة من خصائص التعبير وعناصر انقوة ما يلى :

النداء ، وفيه تنبيه وإيقاظ لهم ، ليتهيئوا لتلقى حكمه القطع بشركهم وبرأته من هذا الشرك . واستعمال أداة العيب مع قربهم منه ، وهو مشعر بقوة نداءه لهم ، وعلو صيخته عليهم ، لما هم فيه من غفلة ولهو واعراض عن الحق الواضح . ونداءهم بياقوم دون يابنى فلان ونحو ذلك ، وفي هذا إشارة الى أنه حريص عليهم ، مهتم بأمرهم مخلص في نصيحتهم ، فهم قومه وأهله : وما أشد حرص الانسان على قومه .

تأكيد الخبر لتحقيق برأته وتخليصها من كل شائبة . وانتمام في حاجة الى ذلك ، بعد ما قال هذا ربي على سبيل الفرض والمجازاة لقومه واظهار النصفة في مقام الاستدلال . والأتيان بانخير جملة اسمية للدلالة على أنه ثابت على هذه البراءة مستمر عليها ، وهي ليست جديدة في حقه .

(٣٠) ينظر أبو السعود : ١٥٤/٣ .

(٣١) السابق .

ابهام ما يشركون عن طريق المرصول ، وفيه تعميم لبراءته من الكواكب ومن كل ما يشركون من أصنام وغيرها • وايشتر الشرك على العبادة لذمهم بالشرك والاشارة الى علة البراءة ، وصيغة المضارع لتصوير حالهم ، ودوامهم على هذا الشرك •

لم يقتصر ابراهيم على التبرؤ مما يشركون بل أتبع ذلك ببيان عقيدته التي يدين بها وهي التوحيد الخالص لله تعالى خالق السموات والأرض « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » • والفصل بين « انى وجهت » وما قبلها نكمال الاتصال ، فهي بمنزلة بدل اشتمال من جملة « انى برىء مما تشركون » لأن البراءة من الأشرار تشتمل على توجه الوجه الى الله تعالى (٣٢) • وتأكيد الكلام لتحقيق مضمونه وتقريره في مقام يحتاج الى ذلك كما بينا آنفا •

والنعل « وجه » يتعدى الى المكان المقصود بالى وقد يتعدى باللام اذا أريد أنه انصرف لأجل ذلك الشيء فيحسن ذلك اذا كان الشيء المقصود مراعى ارضائه وطاعته كما تقول : ترجعت للحبيب ، ولذلك عدى هنا باللام لأن في ذلك التوجه ارضاء وطاعة • و « وجهت وجهى » : صرفته وأدرته ، وهذا تمثيل : شبهت حالة اعراضه عن الأصنام وقصده الى افراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئا وقصده وانصرف عن غيره (٣٣) • وتخصيص الوجه بذلك لأنه أساس التوجه والمقابلة ، وبين الكلمتين جناس الاثباتى ، وفيه اظهار للمعنى وتقريبه له بجانب ما فيه من تحسين العبارة وابرار تلاؤمها •

(٣٢) التحرير والتنوير : ٣٢٣/٧ •

(٣٣) السابق •

والفطر : الشق طولاً ، وفطر الله الخلق : ايجاد الشيء وابداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال • وفطر السموات والأرض : ابتدأ خلقهما بما فُتق من رتق مادتهما وهي دخان وأدمل خلقهن أطواراً (٣٤) •

وايثار « لئذى فطر السموات والأرض » على اسم الجلالة لما فيه من اشعار بعلّة التوجه اليه وافراده بالعبادة ، فهو خالق السموات والأرض ومدبر الكون فهو الاله الحقيقي بالعبادة • ولأن قومه كانوا يعتقدون أن هذا الكون من صنع الله تعالى ولكنهم يشركون بالله الهة أخرى ، مثلهم في ذلك مثل مشركى قريش الذين قال الله فيهم : « ونسألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (٣٥) •

و « حنيفاً » حال من الضمير في « وجهت » ، والحنف : الميل عن الضلال الى الاستقامة ، والجنف : ميل عن الاستقامة الى الضلال • وحنيفاً : أى مائلاً عن العقائد الباطلة الى الطريق المستقيم (٣٦) وفي الناحى تأكيد لتوجهه الى فاطر السموات والأرض وبرأته مما يشركون • وختم دلامه بالبراءة منهم بعدما تبرأ من شركهم « وما أنا من المشركين » ، والمراد بالمشركين قومه وايثار وصفهم بذلك على أن يقال: وما أنا منكم لدمهم بالشرك ، وليبيان العلة التى دعتهم للبراءة منهم ، ولتعميم براءته من كل مشرك ، من قومه أو من غيرهم • وفي الجملة تعريض شديد بهم ، وتعريض بمشركى قريش الذين كانوا يدعون أنهم على ملته • وفيها أيضاً تأكيد لتوجهه الى فاطر السموات والأرض عن طريق نفى كونه من المشركين •

(٣٤) ينظر المفردات : ٢٨٢ ، والمنار : ٤٦٩/٧ •

(٣٥) الزخرف : ٩ •

(٣٦) ينظر المفردات : ١٣٣ •

وبهذا ينتهي النظم القرآني من عرض الوقفات التأملية لأبراهيم عليه السلام في الأجرام السماوية ، حان ما نظرت له لقومه بطلان مزاعمهم في ربوبيتها وعبادتها •

وقد رتبت هذه الوقفات ترتيبيا تصاعديا فيه ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، فبدأت بالتأمل في الكوكب وهو أصغر الأجرام الثلاثة في مرأى العين ، ثم بالتأمل في القمر الذي يكبره ، ثم بالتأمل في الشمس التي هي أكبر من سابقتها •

وبنى افتراض ربوبية هذه الأجرام اظهارا للنصفة على أساس واحد ، هو بزوغها نيرة مشرقة ، وذلك لأن البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ملائمة لتوهم استحقاق الربوبية •

وبنى استحالة ربوبية هذه الأجرام عقلا على أساس واحد هو أقولها واحتجابها ، وذلك لأمر :

أن الاحتجاج بالأقول أظهر لأنه انتقال إلى خفاء واحتجاب ، ففيه نقص بعد كمال • وأن الأقول حالة مقتضية لانطماس الآثار ، ويطلان الأحكام ، المنافيين لاستحقاق الربوبية منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد • وأن الأقول السابق على البزوغ غير مشاهد لهم حال الاستدلال ، فكان الأقول بعد البزوغ أخصر في الاحتجاج من أن يقال : ان هذا البازغ كان أفلا من قبل (٣٧) •

وقد روعي في ختام الوقفات الثلاث الترقى من التعريض الخفي ، إلى التعميم الظاهر ، إلى التصريح الجلي ، فخدمت وقفته مع الكوكب بقوله « لا أحب الآفلين » وفيه تعريض خفي بقومه الذين يدينون بعبادة الآفلين ويهيمون بهم •

(٣٧) ينظر : الكشف : ٣٢/٢ • وأبر السعود : ١٥٤/٢ •

والتحرير والتنوير : ٣٢١/٧ •

وختمت وتمتته مع القمر بقوله « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » وفيه تعريض ظاهر قوى بقومه حيث وسمهم بالضالين • وجاء ختام الوقفة الثالثة مع الشمس صدعا بالحق وجهرا بالحقينة « يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » وبذلك بين لهم عقيدته الصحيحة ادراا لما قد يعلق فى أذهانهم من أثاره من شك فيه بسبب ما صدر عنه مجاراة لهم فى مقام الاستدلال • وجاء بيانه لعقيدته بين براعتين : الأولى برأئته من شركهم ومما يشركون ، والثانية برأئته منهم وهم المشركون الضالون • وبهذا جلى لهم عقيدته الصحيحة المبنية على التوحيد الخالص لله رب العالمين •

مجادلة القوم وجواب ابراهيم عليه السلام :

ثم يدع القوم ابراهيم وشأنه بعد أن أثبت لهم استحالة ربوبية الكواكب وبطلان عبادتها ، وبين لهم عقيدة التوحيد ، اذ جادلوه بأدلة فاسدة مبنية على التقليد ، وخبروه بالكهنتهم أن تصيبه بسوء ، « وحاجه قومه » أى شرعوا فى مغابته بمخاضته فى أمر التوحيد ، المطالبة مفاعلة من الحجة والصيغة تدن على أنهم بدعوا بالمغالبة والمخاصمة ، فصيغة المفاعلة تقتضى أن المجول فيها فاعلا هو التبادىء بالحاجة •

وتطلق الحجة على كل ما يدلى به أحد الخصمين فى اثبات دعواه أو رد دعوى خصمه ، فتقسم الى حجة ناهضة يثبت بها الحق ، وحجة داحضة يموه بها الباطل ، وهذه تسمى حجة على سبيل ادعاء الخصم حثاية اقواه (٣٨) • وقد طويت حججهم فى هذا المقام حيث فصلت فى الشعراء والأنبياء ، وهى تقوم على ادعاء تقليد الآباء واتباعهم ،

وهى حجة واهية وفي حذفها ايجاز بديع ، واهمال لها وعدم اعتداد بها ، لأنها ليست حجة صحيحة •

ورد ابراهيم عليهم ردا مفصلا مدحا بسياح من الانكار الشديد والتوبيخ اللاذع ليقاسب مع حجتهم المتهاففة ومزاعمهم الباطلة ، وقد رد عليهم في شيئين : مجادلتهم في شأن الله تعالى ، وتخويفه وتهديده بالهتهم •

فأما مجادلتهم له في شأن الله تعالى فقد جاء رده عليهم فيها مجزا اكتفاء بتفصيله في مواضع أخرى « قال أحتاجونى فى الله وقد هذان » ، والفصل بين « قال » وما قبلها للاستئناف البيانى ، ففى بمثابة جواب عن سؤال مقدر نشأ من حكاية محاجتهم ، كأنه قيل : فماذا قال عليه السلام حين حاجوه ؟ فقيل : قال أحتاجونى ... والاستفهام للانكار التوبيخى والتعجيب من محاجتهم مع جهلهم الشديد بالله تعالى وصفاته المقدسة •

و « فى » للظرفية المجازية • وفى الكلام ايجاز بحذف المضاف ، أى فى شأن الله تعالى ، وفى حذف المضاف تهويل لمحاجتهم وتفضيع لهما وتشنيع بها ، حيث كانت فى الله تعالى الذى له الخلق والأمر • وفى ايثار اسم الجلالة على الرب المتقدم فى الآيات لما فيه من تربية للهابة والخشية ، وتهويل لأمر محاجتهم المنكرة •

وأكد الانكار التوبيخى بالجملة الحالية « وقد هذان » مع ما فيها من التأييس لهم من مجادلته ومحاجته بغية ارجاعه الى الصلال • فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومريدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام (٣٩) ويقضى بانهادم أى محاولة لاثنائه عن الهداية •

رأها بالفسبة تخريبه وتهديده بآلتهنم فقد جاء رده عليهم في ذلك مفصلاً لعدم وروده في غير هذا الموضع ، وقد استعمل الرد على جانبين :

الأول فيه نفى الخوف بطريق مباشر ، والثاني فيه نفى للخوف بحريث برهاني دقيق • ويقتضئ الجانب الأول في قوله « ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون » أى لا أخاف آلهتكم التى تشركونها بالله تعالى لأنها لا تنفع ولا تضر ، لكن اذا شاء ربي وقوع شيء بى فانه يقع لا محالة بشيئته تعالى لا بمشيئة آلهتكم ، فهو الذى يحيط بكل شيء علماً •

و « م » موصولة حذف عاندها ، والضمير المجرور لله تعالى ، أى لا أخاف الذى تشركونه به سبحانه • وفي ابهام ما يشركون وعدم ذكرها باسمها الصريح تجاهل لها ، وتحقير شأنها ، فهى غير جديرة بأن يصرح باسمها ، بجانب ما في ذلك من افادة العموم في نفى الخوف عنه من كل ما يشركون من أصنام وكواكب وغيرها ، والتعبير بما يشركون دون ما يعبدون لذهمهم بالشرك ، وبيان جريمتهم النكراء والتشنيع عليهم بها •

وقوله « الا أن يشاء ربي شيئاً » استثناء مفرغ من عموم الخوف في عموم الأوقات ، أى لا أخاف ما تشركون به سبحانه في وقت من الأوقات الا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من اصابة مكروه بى من جهتها وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً • وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلامه لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته (٤٠) •

وبين « يشاء » و « شيئاً » جناس يضفى على العبارة قوة
وجمّالاً ، و « شيئاً » يقصد به مكروه ما ، وقال « شيئاً » تحانياً
للفظ المكروه لأنه راجع إليه .

وأنتج الاستثناء بما يؤكد ويغله « وسع ربي كل شيء علماً »
أى أحاط بكل شيء علماً فلا يبعد أن يكون في علمه تعالى أن يحق
بى مكروه من قبلها بسبب من الأسباب .

والجملة استثناء بياني يجيب على ما قد يختلج في نفوسهم :
كيف يشاء ربك شيئاً تخافه وأنت تزعم أنك قائم بمرضاته ، ومؤيد
لدينه (٤١) .

وفي أظهر الرب في موضع الاضمار تأكيد لاسننلامه لأمره
واعترافه بأنه تحت ملكوته وربوبيته ، بجانب ما فيه من تاذذ بشكره
تعالى ، واستجلاب لعطفه ورحمته .

و « علماً » تميز محوّل عن الفاعل وأصل التعبير : وسع علم
ربي كل شيء ، وفي التعبير القرآني اسناد للفعل إلى فاعله وهو الرب
سبحانه وتعالى وهذا مشعر بعلّة الحكم ، ففاعل الفعل هو الرب عز
وجل الذي لا يعجزه شيء . وفي الجملة تعريض بأربابهم التي
يعبدونها ، إذ هي لا تعلم ولا تحقل شيئاً .

وبعد أن نفى عن نفسه الخوف من جهة آلهتهم وبخيم توبيخاً
شديداً على عدم ادراكهم أن آلهتهم لا ترفع ولا تنزل « أفلا تتذكرون »
أى أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء
ما من نفع أو ضرر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على أضرارى . وفي
إيراد الذكر دون التفكير ونظائره إشارة إلى أن أمر أصنامهم مركز
في العقول لا يتوقف إلا على الذكر (٤٢) .

(٤١) التحرير والتنوير ٣٢٩/١ - (٤٢) تيسر السعود : ١٥٣/٢ .

وفي الجملة بجذب التوبيخ ذم شديد لهم بالعفلة ونسيان ما هو ظاهر للعيان ومشاهد للجميع من عجز آلهتهم وعدم قدرتها على فعل شيء •

أما الجانب الثاني من الرد فيشتمل على جملتين استنهاميتين : الأولى « وكيف أخاف ما أشركتم ولا تحافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » أى وكيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلا وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخزوغات وأهولها وهو اشراككم بالله تعالى • والاستنهام لانكار وقوع خوفه من آلهتهم ونفيه عنه بالكافية • وفي توجيهه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس في توجيهه الى نفسه بأن يقال : أخاف ، لما أن كى موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعا ، فإذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهاني (٤٣) •

وقرر انكار الخوف ونفيه عنه بالجملة الحالية « ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » فذلك مما يؤكد عدم خوفه . ويثبتته عندهم فانهم حيث لم يخافوا في محل الخوف بل لأن لا يخاف عليه السلام في محل الأمن أولى وأحرى • وكأيه قال : وما لكم تتكرون على الأمن في هوضع الأمن ولا تتكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف (٤٤) •

وفي الجملة ما يجعل عدم خوفهم من أعذب العجائب ، وأقبح الذكرات ، فقد أشركوا بالله تعالى الذى ليس كمثله شيء بعض مخلوقاته بل أقلها شأنًا وأنم يأتهم في ذلك برهان ولا حجة ولم ينزل به عليهم

(٤٣) السابق •

(٤٤) الكشاف : ٣٢/٢ •

سلطان ، وفي هذا تهكم لاذع بهم ، وإشارة الى أن الأمور الدينية لا يعول فيها الا على الحجج المنزلة من عند الله تعالى (٤٥) .

وقد صرح في الجملة الحانية بما لم يصرح به في الجملة الاستفهامية حيث جرى فيها بمتعلق الاشرار وهو اسم الجلالة ، كما جرى بالفعل به « ما لم ينزل ... » لأن الجملة الاستفهامية مبنية على الاختصاص لسبق قوله « ولا أخاف ما تشركون به » ، ولأنها راجعة الى ابراهيم عليه السلام والمهم عنده انكار الخوف من غير الله تعالى سواء كان مما يشركه الكفار أولا ، وفي حذف اسم الجلالة إشارة الى بعد وجدانيتها عن الشرك ، فلا ينبغي عنده نسبتها الى الله تعالى ولا ذكره معه ، أما الجملة الحالية ففيها بيان لحال المشركين ، وهم لا ينزهون الله تعالى عن الشرك ومن ثم صرح باسم الجلالة ، وفي التصريح به تهيؤ للأمر وتفضيحه ، فان المنكر المستبعد عند العقل السليم هو الاشرار بالله تعالى لا مطلق الاشرار (٤٦) .

والايتان بالفعل اسما موصولا مبهما دون ذكره باسمه الصريح لتحقير آلهتهم بعدم التصريح باسمها ، ولذمها بجملة الصلة التي تبين أن اتخاذها شريكا كذب وبيهتان لا أساس له . وتقديم الجار والمنجور على المفعول « سلطانا » للاهتمام ببيان عدم نزول حجة عليهم بما يشركون حتى يتخذوه شريكا ، وفي نفى نزول سلطان به عليهم نفى لنزوله على غيرهم ، لأنهم أصحاب الشأن في ذلك ، فاذا لم ينزل عليهم السلطان قلا محل انزوله على غيرهم ممن ليست لهم مصلحة فيه ، وقوله تعالى « أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا » قائم على الأيجاز ، لأن المعنى : أشركتم بالله شركاء لا ثبوت لها أصلا ، ولا

(٤٥) ينظر أبو السعود : ١٥٥/٣ .

(٤٦) بنظر حاشية الشهاب : ٨٨/٤ . والألوسي : ٢٠٦/٧/٤ .

(١٥٠ - خصائص النظم)

أقول انه باثرائها حجة ، أي تثبت الشركاء ، وإذ ان الحجة قاطعة هاتفت تماما ، حيث انتهى المازوم بانتفاء اللازم (٤٧) .

والجملة المنتهية الثانية « فأى الفريقين أحق بالأمن ان كُتبت تعلمون » وهي مفرعة على الإنكار السابق بالفناء ، مسرفة لالجاهل الى الاعتراف باستحقاقه عليه السلام لما هو عليه من الأمن وعدم استحقاقهم لما هم عليه . ولم يعين عليه السلام الأحق بالأمن مع يقينه ألا أحق به الا هو ، وهذا الكلام يسمى عند السكاكي بالمتصف ، أو سوق المألوم مساق غيره ، ويسمى عند غيره بتجاهل العارف (٤٨) وفيه تعريض بهم ، وبعث لهم على التثكير في حالة وحالهم ، وحث على التأمل فيما هو عليه وما هم عليه ، ليتفوا بأنفسهم على خطأ ما هم فيه ، ويعلموا بالبرهان أنهم على ضلال ولا يستحقون الأمن ، وأن ابراهيم عليه السلام هو الأحق به .

ولم يقل فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ، احترازا عن تركية نفسه ، فعدل عنه الى قوله « فأى الفريقين » يعنى فريق المشركين وفريق الموحدين . وكذلك ليعم بالأمن كل واحد وبالخوف كل مشرك ويندرج هو في حكم الموحدين ، وقومه في حكم المشركين (٤٩) . وفي هذا المسلك أيضا تأكيد لالجاهل الى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم ، والنقادي عن التصريح بتخطئتهم التي قد تدعى الى العناد واللاجاج . ومن ثم جرى بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له في الجملة وذلك لاستئزازهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سبيل الانصاف (٥٠) .

(٤٧) مفتاح العلوم : ٢٨٠ .

(٤٨) ينظر مفتاح العلوم : ٢٤٦ ، ٤٢٧ ، وبغية الايضاح : ٦٦/٤ .

(٤٩) الكشاف والانصاف : ٢٣/٢ .

(٥٠) أبو السعود : ١٥٦/٣ .

وهيجهم وألهيهم على الاثتبار والجواب بالجملة الشرطية « أن كنتم تعلمون » لأنهم ان عجزوا عن الاجابة أو تباطخوا فيها وسدوا بالجهل • ومفمول تسلمون اما محذوف تعويلا على ظهوره ، بمعونة المقام أى ان كنتم تعلمون من أحق بذلك ، أو قصدا الى التعميم أى ان كنتم تعلمون شيئا • واما متروك بالمرّة تنزيلا للفعل المتعدى منزلة اللازم أى أن كنتم من أولى العلم (٥٢) •

والتعبير بان دون اذا مشعر برجحان عدم علمهم ، فهم يتجاهلون الحقائق أو يجهلونها • وجواب الشرط محذوف أى « أخبروني ، وفي حذفه ايجاز ، وتبويه ليم على المسارعة الى الجواب ، فان المقام في حاجة ماسة اليه حتى تتضح الحقيقة •

وبعد السؤال عن الفريق الأحق بالأمن يأتي الجواب عنه « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلام أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » • وفي هذا الجواب احتمالات :

الأول : أنه من قبل ابراهيم عليه السلام ، صرح به إذ سئلا عن الجواب مفهمين مبالغة في تبكيتهم •
والثاني : أنه من الله عز وجل فصل به القضاء بين ابراهيم ومن أحبه من قومه •

والثالث : أنه من قوم ابراهيم ، حيث تذكروا لما ذكرهم ، ورجعوا عقولهم وفطرتهم ، فاعترفوا بالحق كما اعترفوا حين كسروا أصنامهم(٥٢) •

والأول رأى الجمهور ، فيكون من حكاية كلام ابراهيم ، تدواى جواب نفسه ولم ينتظر جوابهم ، لكن الجواب مما لا يسع المسئول

(٥١) يظن السابق : ١٥٦/٣ •

(٥٢) يظن جامع البيان : ١٦٧/٧ ، والبيضاوي والشهاب ٨٩/٤ •

والألوسي : ٢٠٧/٧/٤ ، والمنار : ٤٨٢/٧ •

الا أن يجيب بمثله ، وفي ذلك تبكيت لهم وافحام (٥٣) • ولم يذكر
الزمخشري غير هذا الرأي (٥٤) •

ومجىء الجواب على ضرورة اثبات الأمن للمؤمنين لبيان المستحقين
للأمن على العموم ، وفيه اثبات الأمن لأبراهيم بالطريق البرهاني لأنه
من المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، فيكون داخلًا في المستحقين
للأمن ، وفيه بيان لعلّة استحقاق الأمن ، ترغيبًا للقوم في النظر إليها
والسير عليها ، ليكونوا من الأمنين • والاثنيان بالمسند إليه - ما
موصولًا للإيماء إلى وجه بناء الخبر وأنه شيء عظيم ، نظرًا لما في
جملة الصلة من صفات تؤهل لذلك ، وفي الموصول وصلته الطوية
تشويق إلى الخبر •

وقيد الإيمان الموجب للأمن بقوله « ولم يلبسوا إيمانهم بظلم »
أي لم يخلطوه بشرك ، وأصل اللبس : ستر الشيء ، ويقال ذلك في
العانى ، فيقال : لبست عليه الأمر ، وفي الأمر لبسة أى التباس ••
ولابست فلانا خالطته (٥٥) • وهو هنا مجاز في الاعمى بتسيئين
متناسبين في شيء واحد ، بخلط الأجسام (٥٦) • وفي التعبير به دون
الخط إشارة إلى أن الظلم إذا اختلط بالإيمان يستتره ويغطي عليه
فيظهر الشخص وكأنه غير مؤمن •

والجمهور على أن الظلم في الآية مراد به الشرك في التعمية أو
العبادة ، واستدلوا بالحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وأحمد
وغيرهم : أن الآية لما نزلت شق ذلك على الناس ، فقاؤا يارسول
الله : أينا لا يظلم نفسه ، فقال : انه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا

• (٥٣) التحرير والتنوير : ٣٣٢/٧

• (٥٤) ينظر الكشاف : ٣٣/٢

• (٥٥) المفردات : ٤٤٧

• (٥٦) التحرير والتنوير : ٣٣٢/٧

« ما قال العبد الصالح » يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم »
 انما هو الشرك (٥٧) •

وفى تنكير الظلم اشعار بأن يسيره وقليله اذا خاننا الايمان منع صاحبه من استحقاق الأمن ، ومن ثم يجب على المؤمن أن يحذر قليله وكثيره ، وأن ينتزه عنه بالكلية فلا يقرب شيئاً منه •

وجيء بالخبر جملة اسمية المبتدأ فيها اسم اشارة « أولئك لهم الأمن » للإشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة من صفات تؤهله لاستحقاق الخبر ، وفى الاشارة اليه بعد وصفه بما ذكر ليذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم ، وانتظموا بسببه فى سلك الأمور المشاهدة • وما فى اسم الاشارة من معنى البعد مشعر بعارو درجتهم وبعده منزلتهم فى الشرف (٥٨) •

و « لهم الأمن » جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر هى خبر اسم الاشارة ، وتقديم الخبر على المبتدأ ينفيد القصر أى لهم الأمن لا لغيرهم • واللام فى الأمن للجنس وهى تشير الى أنه هو الأمن أسابق المسؤل عنه بزاء على أن المعرفة اذا أعيدت كان الثانى عين الأول • وانجملة تشير الى أن الأمن ثابت لهم ومختص بهم ، من حيث كونها اسمية وتقدم فيها المسند على المسند اليه •

ولم يقتصر فى الجواب على المطلوب فقط بل أضيف اليه وصف جليل مستحق لهؤلاء المؤمنين « وهم مهتدون » وانجملة يمكن أن تكون معطوفة على قوله « لهم الأمن » و « مهتدون » خبراً ثانياً عن اسم

(٥٧) ابن كثير : ١٥٣/٢ •

(٥٨) أبو السعود : ١٥٦/٣

الإشارة ، والضمير للفصل ، فيفيد قصر المسند على المسند إليه أي
الاهتداء مقصور عليهم دون غيرهم • ويمكن أن تكون معطوفة على
« أولئك لهم الأمن » فيكون ضمير الجمع مبتدأ ، ومهندون خبره ،
ولا قصر في الجملة (٥٩) • ولكن فيها تأكيد وثقوية ، من حيث تقدم
المسند إليه على خبره الفعلي •

الخاتمة :

وتأتي خاتمة الحلقة مشتملة على ثلاثة موضوعات :

- ١ - تعقيب على القصة •
- ٢ - بيان ما وهبه الله تعالى من الذرية الصالحة •
- ٣ - الثناء عليهم ، والحث على الاقتداء بهداهم •

فأما التعقيب على القصة فيتمثل في قوله تعالى : « وتلك حجتنا
آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » •
« وتلك » مبتدأ و « حجتنا » خبره ، والإشارة إلى جميع ما
احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله تعالى « فلما جن
عنه الليل » إلى قوله « وهم مهندون » (٦٠) • وأثبت الإشارة لما
أن المشار إليه هو الحجة ، وما في اسم الإشارة من معنى البعد مشعر
بتفخيم الحجة ورفعة شأنها وعلو منزلتها في الفضل والشرف • وإضافة
الحجة إلى نون العظمة لتفخيمها وتعظيمها وبيان صحتها لكونها حجة
لله تعالى •

و « آتيناها إبراهيم على قومه » أي أرشدناه إليها وعلّمناه
إياها • و « آتيناها » في محل نصب على أنها حال من « حجتنا »

(٥٩) ينظر التحرير والتنوير : ٣٣٣/٧ •

(٦٠) الكشاف : ٣٧/١ •

والعامل فيها معنى الإشارة ، أو في محل الرفع على أنها خبر ثان ،
أو هي الخبر و « حجتنا » بدل أو بين للمبتدأ • و « إبراهيم » مفعول
أول لأننا تقدم عليه المفعول الثاني « ها » كقولهم ضميراً ، و « على
قومه » متعلق بحجتنا ان جعل خبراً لتلك ، أو بمحذوف ان جعل
بدلاً • و « على » للاستعلاء المجازى المبنى على تشبيهه الغالب المستعمل
المتكمن من المألوف • وفيها دلالة على رفع درجة إبراهيم على قومهم
وغلبيته لهم •

ولما أشير الى الحجة وأنها من الله تعالى وقد رفع بها إبراهيم
على قومهم ، بين أن ذلك سنة الله تعالى المستمرة في عبادة الصالحين
« نرفع درجات من نشاء » • ورفع الدرجات تمثيل لتفضيل الشان
ورفعته ، شابت حالة المفضل على غيره بحال المرتقى في سلم اذا
ارتفع من درجة الى درجة وفي جميعها رفع ، والدرجات مجاز في
الغضائل المتفاوتة (٦١) •

وصيغة المضارع « نرفع » تدل على أن ذلك سنة الله تعالى الجزائية
في عبادة الصالحين ، وفي ذون العظمة تعظيم شأن الرفع واثعاز
بعلته فهو من فعل القادر الحكيم • و « درجات » نصب على المصدرية
بذأويك رفعات ، أو على الظرفية ، أو على نزع الخلف أي الى
درجات ، أو على التمييز • و « من نشاء » مفعول « نرفع » وتأخيره
على الأوجه الثلاثة الأخيرة للاعتناء بالمقدم والنشوي الى المؤخر (٦٢) •
ومفعول المشيئة محذوف أي من نشاء رفعه ، وفي مضمعه ايجاز
بديع • ونقييد الرفع بالمشيئة دال على أنه ليس لكل أحد من الناس ،
وانما هو خاضع لمشيئة الله تعالى الذي لا اراد لمشيئته ولا معقب لحكمه ،

(٦١) التحرير والتنوير : ٣٣٥/٧ •

(٦٢) ينظر أبو السعود : ١٥٧/٣ •

ثم علل هذا الحكم بقوله « ان ربك حكيم عليم » وفصله عما قبله للامتنان انبىانى اذ ان قوله « نرفع درجات من نشاء » يثير سؤالاً : لماذا يرفع بعض الناس دون بعض ، فأجيب بأن الله تعالى يعلم مستحق ذلك ومقدار استحقاقه •

والتأكيد بان لربط الكلام بما قبله ربطاً قوياً ، وتقرير مضمونه . وفي السياق المتواتر من التكلم في « نرفع » الى العيبة في « ربك » • وفي وضع الرب مضافاً الى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال ابراهيم عليه السلام اظهر تزييد لطف وعناية به عليه السلام (٦٣) • وفيه أيضاً تربية المهابة ، واشعر بعلّة الحكم الذي تضمنته الجملة ، وايدان باستقلال جملة الذليل • وتقديم « حكيم » على « عليم » لما أن رفع درجات بعض الناس مظهر للحكمة التجارية وفق علم الله تعالى بمن يستحق التفضيل ومن لا يستحق •

وأما بيان الذرية الصالحة التي وهبها الله تعالى لابراهيم عليه السلام فقد جاء في أربع آيات هي « ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هديتاً ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين • وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين • واسماعيل وإئيسع ويونس وأوداً وكلاً فضلنا على العالمين • ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم • » •

وقد ذكر من ذريته في هذه الآيات ستة عشر نبياً ، وبدى بذكر اسحاق ويعقوب لأن اسحاق ابنه ويعقوب حفيد ، وعبر فيها بالهبة التي هي مجاز في التفضل لأنهما جاءا على الكبر وبعد انقطاع الأمل

حسب أنقوانين العادية ، فكاننا هبة أعطيت له بلا جهد منه . وفصل بينهما وبين ما يليهما بالجملة الاعتراضية « كلا هدينا » و « كلا » مفعول لهدينا ، ونقدمه عليه للتقصر ، لكن لا بالنسبة الى غيرهما مطلقا بل بالنسبة الى أحدهما ، أى كل واحد منهما هدينا لا أحدهما دون الآخر (٦٤) . وفي الاعتراض بذكر هدايتهما بيان لحالهما وتثويه بسألهما ، لما لهذا الوصف من تعظيم للمتصفين به .

وعطف « نوح » على الاعتراض لما له من شهرة في باب الهداية ، ومكانة بين الأمم ، ولكونه الأصل الذى تتأسل منه هؤلاء وغيرهم ، فهو الأب الثانى للبشرية .

وقد جرى ذكر الأنبياء في الآيات على غير ترتيب تاريخى ، ونحن لمعان جامعة بينهم كما يرى الشيخ رشيد رضا (٦٥) .

فالآية الأولى : جمع فيها بين الذين أتاهم الله الملك والامرة والحكم والجاه والسيادة مع النبوة والرسالة، فجمع لهم بين نعم انديا وهداية الدين ، ولذلك ختمت بقوله تعالى « وكذلك نجزي المحسين » . « وكذلك » اشارة الى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام ، ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير : نجزي المحسين جزاء مثل ذلك الجزاء والتقديم لتقصر .

وعلى هذا يكون المراد بالمحسنين الجنس ، وبمماثلة جزائهم لجزائه مطلق المشبهة في مقابلة الاحسان لا المماثلة من كل وجه . وقيل ان ذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى يده . وهو عبارة عما أوتى المذكورون من فنون الكرامات، وما فيه من معنى البعد للايدان بعلو طبقتة ، وانكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ، ومحلها

(٦٤) السابق .

(٦٥) ينظر المنار : ٤٨٩/٧ ، ٤٩٠ .

النصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، ولأم المحسنين للعود ،
 والتقدير : نجزي المحسنين المذكورين جزاء كافئا مثل ذلك الجراء ،
 فقدم على الفعل لافادة القصر ، وبذلك يكون المشار إليه نفس
 المصدر المؤد لانعته ، أى وذلك الجزاء البديع نجزي المحسنين
 المذكورين لاجزاء آخر أدنى منه • والاظهار فى موضع الأضمار لثناء
 على المذكورين بالاحسان(٦٦) •

والآية الثانية : جمع فيها بين الأنبياء الذين شهروا بشدة الزهد
 فى الدنيا والاعراض عنها ، ولذلك خصهم الله بوصف الصالحين
 بقوله « كل من الصالحين » أى كل واحد من المذكورين من الكاملين فى
 الصلاح • وذلك لأن « كل » يقتضى استغراق ما أضيف إليه ، وحكم
 الاستغراق أن يثبت الحكم لكل فرد فرد لا للمجموع (٦٧) •

والآية الثالثة : جمع فيها بين من أم يكن لهم شهرة فى الملك أو
 الزهد ، إذ لم يكونوا من ملوك الدنيا ولا من ذوى السلطان فيها ،
 كما كان من فى الآية الأولى ، ولم يكونوا مبالغين فى الاعراض عن
 الدنيا والزهد فيها كما كان من فى الآية الثانية ، ولذلك وصفوا بالتفضيل
 على العالمين الذى جعله الله تعالى لكل نبي على عالمى زمانه ، ف قيل
 فيهم « وكلا فضلنا على العالمين » • أى وكل واحد من أولئك
 المذكورين فضلنا بالنبوة لا بعضهم دون بعض ، فتقديم المفعول «كلا»
 مفيد للقصر لكن لا بالنسبة الى غيرهم مطلقا ، بل بالنسبة الى كل
 واحد منهم •

وأتبع تفصيل أسماء بعض ذريته بذكر عروم ذريته اجمالا لتناول
 من لم يرد اسمه فى التفصيل « ومن آباءهم وذرياتهم براخه وانهم

(٦٦) أبو السعود : ١٥٨/٣ •

(٦٧) التحرير والتنوير : ٣٤٢/٧ •

واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » • واجتنبوا الله العبد :
تحصيله اياه بفيض الهوى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى
من العبد ، وذلك للأبياء وبعض من يقتربهم من الصديقين
والشهداء (٦٨) • « واجتبيناهم » عطف على « فضلنا » « وهديناهم »
تكرير للتأكيد على اثبات الهداية لهم ، وتمهيد لبين ما هدوا اليه
وهو الصراط المستقيم • والصراط المستقيم تمثيل لما يكون به الفوز
وانجاة من أعمال بينها الله تعالى له باده ، تشبيها لهذه الأعمال بالطريق
المستقيم الذى يوصل من سار عليه الى قصده فى أسرع وقت ودون
تحير أو ضلال • والمهتدى الى هذه الأعمال مهتد الى الصراط المستقيم •
وتنكير « صراط » لتفخيمه وتعظيمه ، وقد أضيف الى ذلك تفخيمه
بالوصف « مستقيم » فحصلت له الفخامة الذاتية والفخامة الوصفية •
ثم بين أن هذا الهدى من الله تعالى ان يشاء من عباده ، بياناً
لفضله وعظمته ، واختصاصه بمن شاء الله هدايتهم اليه « ذلك هدى
الله يهدى به من يشاء من عباده ولم أشركوا بحبظ عنهم ما كانوا
يعملون » • و « ذلك » إشارة الى الهدى الى الصراط المستقيم ، وما
فيه من معنى البعد لتعظيم شأنه وتفخيمه •

واضافة الهدى الى الله لتشريفه وتعظيمه ، وبيان أنه الهدى الذى لا
لا ضلال معه ، وفيه ترويض بما عليه المشركون من ضلال يزعمونه
هدى وفى السياق الالتفات من التكلم فى « وهديناهم » الى انجوبة فى
« هدى الله » ولولا سار الكلام على مقتضى الظاهر لقيت : ذلك هدانا • •
وفى اظهار اسم الجلالة على سبيل الالتفات تربية لهابة والخشية ،
وتعظيم لشأن الهدى ، وحث على اتباعه •

وفى تعليق الهداية بالشيئة إشارة الى أنه تعالى مقتضى بالهداية

على من يشاء من عباده وهم المستعدون لقبول الهداية • وفي آياتهم من
يشاء الله تعالى هدايتهم بعث للنفوس على طلب الهدى والسعى في
سبيل الرشد •

وختمت الآية بتحذير شديد « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا
يعملون » فهوؤلاء المذكورون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، الذين
اجتنبهم الله تعالى وهداهم إلى الصراط المستقيم إن ينزعهم عن
مسألتهم وسمو منزلتهم لو أشركوا ، إذ تحبط أعمالهم مع ما لهم من الفضل
والمكانة • وفي هذا نفي عن الأمر الشرك وتحذير منه . لأنه لا ينفع لأحد
مهما كانت مكانته •

والحبرط : البطلان ، وأحبط الله عن الكافر أى أبطنه ، والحبط
أيضا : أن تأكل الذبابة حتى تنتفخ بطنها فتهلك وفي الحديث الشريف :
إن مما يذبت الريح ما يفتك حبطاً أو يلم « (٦٩) » وإيثار « حبط » لنا
فيه من دلالة على البطلان مع لحوق الضرر والألم والعذاب الشديد
بهم من جراء ذلك ، حيث كانوا يطمعون في نفع هذه الأعمال فبطت •
وفي اطلاق الفعل « يعملون » أشعار ببطلان كافة أعمالهم ، وعدم
انفعائهم بشيء منها لو حدث منهم شرك • وفي التعبير بـ « لو »
إشارة إلى امتناع ذلك منهم ، واستحالة دوره عنهم بعد أن اصطفاهم
الله تعالى وهداهم إلى صراطه المستقيم • وفي الجملة توبيخ شديد
لشركى قريش ، وبيان لبطلان كافة أعمالهم •

وأما الشاء عليهم والنحت على الاقتداء بهم فيتمثل في آيتين :
الأولى قرنه تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والذبيرة فان
يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » و « أولئك »
إشارة إلى المذكورين من الأنبياء والمعطوفين عليهم باعتبار اتصافهم

بما وصفوا به من الذنوت الجائلة • وفيه تمييز لهم أكمل تمييز • وما فيه من معنى البعد مشعر بعلو شأنهم وسمو منزلتهم •

واللام في « الكتاب » للجنس ، أي جنس الكتاب المتحقق في ضمن أي فرد كان من أفراد الكتب السماوية • « والحكم » أي الحكمة أو فصل الأهر على ما يقتضيه الحق والصواب • « والنبوة » أي الرسالة (٧٠) وفي الأخبار بيتائهم هذه الأشياء العظيمة من الثناء عليهم ما لا يخفى • وتعريف المسند بالموصول والمسند اليه بالإشارة يفيد التخصيص أي أولئك الذين أتييناهم الكتاب والحكم والنبوة لا غيرهم ، والتصر اضافي بالنسبة إلى الموجودين في زمانهم وبعد النداء عليهم بما أوتوه من كتاب وحكمة ونبوة ، وجه الكلام إلى كفار قريش « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » والتعبير بان مع أن الكلام في الكافرين المقطوع بكفرهم لتوبيخهم على هذا التفر ، والإشارة إلى أنه ما كان ينبغي حدوثه إلا على سبيل الفرض لا على سبيل التحقيق • والضمير في « بها » راجع إلى الثلاثة المذكورة أو إلى النبوة • وهي جامعة لكل •

واسم الإشارة « هؤلاء » راجع إلى كفار قريش ، وفيه تحقير لهم ، ودلالة على أنهم ليسوا أهلاً لتصريح باسمهم • وتقديم الجار والمجرور على الفاعل الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر • وجه اب الشرط محذوف يدل عليه قوله « فقد وكلنا ••• » والتقدير : فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلاً فقد وكلنا ••• والفاء لربط الجملة بما قبلها ، وقد لتحقيق مضمون الجملة وتأكيد حصوله • وصيغة الماضي « وكلنا » تدل على قيام المؤمنين بذلك دون انتظار لكفر هؤلاء •

و « وكُنَّا » أى أمرنا بمراعاتنا ووقفنا للإيمان بها والقيام بمقتضاها ، فالوكيل هنا استعارة ، لأن التوكيل أسناد صاحب الشيء تدبير شبيهة الى من يولى تدبيره . ويكفيه كلفة حفظه ورعاية ما به بناؤه وصلاحه واملأه ، وقد استعير في الآية للتوفيق الى الإيمان بالعبادة والسواب والحكم ، والنظر فيما تدعو اليه ورعايته ، تشبيها لتلك الرعاية برعاية الوكيل ، وتشبيها للتوفيق اليها بأسناد النظر الى الوكيل ، لأن التوكلة تقتضى وجود الشيء الموكل بيد الوكيل مع حفظه ورعايته ، فكانت استعارة وكُنَّا لهذا المعنى ايجازا بديعا يقابل ما يتضمنه معنى الكفر بها من انكارها الذى فيه أضاعة حدودها (٧١) .

و « قوما » مفعول به • وتكثيره للتفخيم والتعظيم ، وتقديم الجار والمجرور « بها » عليه وهو المفعول الصريح للاهتمام بالقدم ، والنشويق الى المؤخر ، ولأن فيه نوع طول ربما يؤدي تقديمه الى الاخلان بتجاوب النظم الكريم (٧٢) • والبناء في قوله « ليسوا بها » صلة لكافرين ، قدمت عليها للاهتمام بالقدم ، ومراعاة للفواصل • و« بناء في » بكافرين » لتأكيد النفي • والجملة الاسمية المنفية تنيد دوام النفي للكفر عنهم بمعونة المقام لأنفى الدوام ، مثلما تنيد الاسمية الموجبة دوام الثبوت ، أى ليسوا بها بكافرين في وقت من الأوقات ، بل مستمرين على الايمان بها •

والآية الثانية « أولئك الذين هدى الله فبإذاهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين » • و « أولئك » إشارة الى الأنبياء المذكورين في الآيات السابقة ، وفي اسم الإشارة تمييز لهم أكمل تمييز ، وما فيه من معنى البعد مشعر بعلو درجتهم وسماو

منزلتهم في الشرف والنزل • وتكرير الإشارة لتأكيد المعاني المستفادة منها • والجملة ابتدائية قصد من استئنافها استقلالها • لئلا اهتمام بمصروفها ، ولأنها وقعت موقع التكرير باضمون الجمليتين اللتين قبلها وحق التكرير أن يكون مفصلاً ، ولعيني عليه التفريع التام في قوله « فبهدهم اقتده » • وتعريف المسند والمعناد اليه لقصر جنس الذين هداهم الله على المذكورين تفصيلاً واجمالياً (٧٣) •

وفي أظهار اسم الجلالة التفتت من التكلم في الآية السابقة إلى الإجابة ، وفي الالتفات إلى الاسم الجليل تربية لاهابه والخشية ، وإشعار بكمال هدايتهم لأنهم اهدوا بهدى الله • وفي حذف المنعول إيجاز بديع •

وقوله « فبهدهم اقتده » تفريع على قوله « هدى الله » وتخصص إلى ذكر حذ محمد ﷺ من هدى الله ، وفي هذا إشارة إلى عاب منزلته ﷺ ، وأنها منزلة جديدة بالتخصيص بالتفكير ، حيث لم يذكر مع الأنبياء المتقدمين ، وأنه جمع هدى الأولين ، وأكملت له الفضائل ، وجمع له ما تفرق من الخصائص والمزايا (٧٤) •

وتقديم أفعال الجار والمجرور على الفعل في قوله « فبهدهم اقتده » يفيد اختصاص هداهم بالافتناء ، ولا تنقد إلا بهم (٧٥) • والمراد بهداهم طريقهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصوات الدين دون الشرائع القابضة للنسخ • والهاء في « اقتده » هاء السكت التي تزداد في الوقف ساكنة (٧٦) •

(٧٢) نأبر السعود : ١٦٠/٣ •

(٧٣) التحرير والتنوير : ٣٥٥/٧ •

(٧٤) السابق •

(٧٥) الكشاف : ٣٤/٢ •

(٧٦) الألوحي : ٢١٧/٧/٧٤ •

ولما أمر الرسول ﷺ بالاعتداء بهداهم ، عقب بذكر مثل من هذا
الاعتداء وهو ابلاغ قومه بألمه لا يسألهم عن القرآن الكريم أجرا كما
لم يسأل الأنبياء السابقون أهمهم أجرا على الهداية « قل لا أسألكم
عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين » • وفي أمره ﷺ بـ « قل »
اشارة الى أهمية المأمور به • والتعبير بـ « لا أسألكم » مشعر بأنه
لا يفتاحهم في مجرد سؤال الأجر ، فكيف يأخذه • والصير في « عليه »
للقرآن الكريم ، واضماره مع عدم تقديم ذكره ادلالة سياق الكلام
عليه ، وفي ذلك اشارة الى وضوحه واشتهاره بين المخاطبين • وتتكبر
« أجرا » مفيد للعموم والشمول ، أى أجرا ما قبله أو كثيرا •

وفي قوله تعالى « ان هو الا ذكرى للعالمين » اشارة الى العلة في
عدم سؤال الأجر ، أى : ما القرآن الا تذكير للعالمين كافة ، ومن ثم
لا أسألكم عليه أجرا • وفي الجملة قصر موصوف على صفة ، طريقة
الغنى والامتثناء ، وهو يؤكد كون القرآن الكريم عظة وتذكرا للعالمين
كافة ، لا يختص بقوم دون قوم • وبهذا البيان العظيم لمكانة القرآن
الكريم تنتهى هذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام •

أسرار التشابه والتنوع في النظم

وبعد أن انتهينا من التحليل البلاغي للنظم القرآني في الحلقات السبع التي تدور في محيط الدعوة الى الله تعالى ، نأتى إلى التأمل في نظم هذه الحلقات للكشف عما فيه تشابه وتنوع ، محاولين الوقوف على أسرار ذلك من الوجهة البيانية .

الموضوع والنظم :

تدور هذه الحلقات في مجال دعوة ابراهيم الى عبادة الله تعالى ، وابطال ربوبية الأصنام والكواكب وعبادتها . وهي تتخذ أربعة محاور : المحور الأول : دعوة ابراهيم عليه السلام لأبيه ، ويتمثل ذلك في حلقة واحدة في سورة مريم وهي توضح أربعة أمور : تلتف ابراهيم مع أبيه في الدعوة ، في محاولة متأنية لإقناعه بالحجة العتقية ، ثم بيان الضرر الذي سيلحقه من جراء عبدة الأصنام ، وتخويفه من عذاب الله تعالى . يلي ذلك رد جاف غليظ من أبيه ، يتضمن التهديد والوعيد ، والأمر بالهجر والمفارقة . يعقبه لين وسماحة وسلام من ابراهيم ، وقران بالعزلة . وتختتم الحلقة ببيان نعم الله تعالى عليه بعد العزلة .

ولغة النظم في هذه الحلقة على نمطين : نمط لين سهل يفيض رحمة وعطفاً وثففة ، وهو ما يجري على لسان ابراهيم عليه السلام ممثلاً حلمه ورفقه بأبيه وخوفه عليه . ونمط يتسم بالجزالة والقوة ، ويغص بالتهديد والوعيد ، وهو ما يجري على لسان أبيه ممثلاً غلظته ، وتعتته في التمسك بالضلال .

والمحور الثاني : دعوة ابراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، ويظل عبادة الأصنام . ويمثل هذا المحور أربع حلقات : الأولى في سورة الشعراء ، والثانية في سورة الصافات ، والثالثة في سورة الانبياء ، والرابعة في سورة العنكبوت . وهي وإن اتحدت في موضوعها العام

(١٦ - خصائص النظم)

لا أنها تتنوع في تنصياها وطريقته عرضة ، وما تتضمنه من زيادات
وإضافات .

فحلقة الشعراء تتضمن ثلاثة مشاهد : حيث تبدأ بإبطال عبادة
الأصنام عن طريق حوار هادئ مع قومه يظهر عدم قدرتها على السمع
والفهم أو الضر • ويتوسطها ثناء إبراهيم على الله تعالى بأعماله
العظيمة وبعونه الجليلة التي تظهر قدرته المطلقة في مقابل عجز الأصنام
المطلق ، ويعرف قومه من خلاله بصفات رب العالمين ، وتنتهي بدعاء
خاشع من إبراهيم عليه السلام يسأل الله تعالى فيه الحكم والصلاح
والذكر الحسن ووراثة الجنة ، والمغفرة لأبيه ، وعدم الخزي يوم
القيامة ، وكأنه بهذا يقول لقومه ان ربي سميع الدعاء مجيب الرجاء
بينما لا تسع آلهتكم دعاء ولا تحقق رجاء .

ونعنة النظم في الحلقة تجمع بين السهولة والجزالة في آيات
قصيرة ، ذات صياغة هادئة ، تعتمد على أساليب ثلاثة : أسلوب
الاستفهام في البداية ، وهو يحقق لإبراهيم ما يرجوه من الإنكار
على قومه وإرشادهم إلى الصواب دون إثارة مشاعرهم وتنجير غيظهم
وأسلوب الخبر في الوسط ، وعن طريقة أمكنه التثناء على ربه بأفعاله
وجفاته ، وعرف قومه برب العالمين القادر الحكيم • ونأتي الخاتمة
بأسلوب الدعاء الخاشع الذي يركز على صيغة الأمر منتهيا بصيغة
النهى .

وحلقة الصافات تتضمن قسمين : الأول يتعلق بدعوة إبراهيم
إلى الله تعالى وإبطال عبادة الأصنام ، والثاني فيه تفصيل لقصة
إسماعيل عليه السلام وتعداد نعم الله تعالى على إبراهيم • وفي هذين
القسمين توضيح لأربعة مشاهد : أولها : يبطل فيه إبراهيم عبادة
الأصنام عن طريق تساؤلات من جانبه وحده لقومه تارة وللأصنام أخرى
بينما يلوذ قومه بالصمت ، ويتولون عنه مدهربين فيستنطق الأصنام

تهكما وسخرية ، وتعجز الأصنام عن النطق فيقوم بتفسيرها ، يحرك مشاعر القوم فيواجهون حججه ويردون عليه • وثانيها : يصور مجيء القوم اليه في صياح ولغط غير مفهوم ، وافحام ابراهيم لهم بالدليل • وثالثها : يوجز انتقامهم منه ببناء البنيان والقائه في الجحيم • ونجاته منه وقراره بالهجرة التي ربه • ورابعها : ذكر النعم التي وهبها الله له اثر ذلك ، وهي تبدأ بتفصيل نعمة كبرى لم تذكر في غير هذه السورة وهي هبة اسماعيل وذكر ما جرى معه من ابتلاء وفداء ، وتختتم بتعداد نعم جليلة أخرى في ايجاز بديع •

ونظم هذه الحلقة يتنوع تبعاً لقسميها : ففي قسمها الأول يميل الى الجزالة والقوة ، ويقع في آيات قصيرة عالية انبرة ، تعبر عن الانكار الشديد ، والتوبيخ العنيف ، وشدة العجب والغيظ من جانب ابراهيم عليه السلام وهو يواجه قومه لادوا بالصمت ، واصناداً لا تنطق ، كما تعبر عن الحقد الدفين من جانب القوم وقد اتوا صائحين مصممين على الانتقام بأفظع الوسائل • وفي قسمها الثاني يميل الى اللين والسهولة ، ويقع في آيات بعضها طويل وبعضها قصير ، مع هدوء نبرتها في كل ، إلا أنها تستجلب الاثماق والعطف في عرض حادث الابتلاء ، وتعلن البشر والفرحة في عرض الفداء وبقيّة النعم •

ويحقة الانبياء خالصة لحكاية مجادلته لقومه في عبادة الأصنام وابطالها بالحجة العقلية ، وما ترتب على ذلك • ومن ثم اهتمت بتفصيل هذا الموضوع ، ويبين مراحلته عن طريق الحوار المستمر بين ابراهيم وقومه من أول الحلقة الى آخرها تقريبا • وأطلعنا على تفاصيل دقيقة عن تساؤلات ابراهيم عليه السلام للقوم ، وردودهم عليه ، وتهديده بالكيد للأصنام ، وقيامه بتفسيرها وترك كبيرها ، وحدث القوم عن الفاعل ، وشكهم في ابراهيم ، واحضاره للتحقيق والمحكمة أمام الجمهور ، والزائم بالحجة على فساد عبادتهم ، وتنجير غيظهم وانحسار

عليه بالتدرييق ، ونجاته من النار بأمر الله تعالى لها - أن تكون بردا وسلاما عليه • وما أصابهم من خزي وخسران بعد ذلك • وتختتم الحلقة بتعداد موجز لبعض ما أنعم الله به عليه اثر هجرته •

ونظم هذه الحلقة آياته متوسطة الطول ، ولغته تميل الى السهولة ايضاها للحوار المتتابع بين الفريقين ، والذي يستولى على معظم الحلقة ، ونبرته هادئة وان كانت تشتتد في المواطن المعبرة عن الغيظ كما في قوله « وتالله لأكيدن أصنامكم » وقوله « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » ، وقولهم « حرقوه وانصروا آلهمكم » •

وحلقة العنكبوت تتحو في عرض القضية منحي مختلفا عن الحلقات السابقة ، حيث تمزج بين الأمر والخبر والاستفهام في نمط متكامل يؤدي انقصود ، فتبدأ بأمر ابراهيم قومه بعبادة الله وتقواه ، معللا بالأسلوب الخبري • يتبع ذلك بيان خبري يكشف حقيقة عبادتهم الفاسدة التي هي لأوثان لا فائدة منها • يعقبه أمر بابتغاء الرزق عند الله وعبادته وشكره معلل بالجملة الخبرية التي تبين رجوعهم اليه للحساب • يلي ذلك لفت لمظاهر القدرة في الخلق والاعادة عن طريق الاستفهام التقريري ، لا يتبعه تذييل خبري يؤكد يسر ذلك على الله تعالى • وأمر بالسير والنظر في بدء الخلق واعادته وتذييل خبري يقرر قدرة الله على ذلك وعلى غيره • يليه تهديد ووعيد وبيان لعدم تفاتهم من عذاب الله تعالى • ثم يساق رد موجز للقوم مبني على الأمر بقتله أو حرقه ، وخبر موجز بنجاته من النار • ويعاود ابراهيم عليه السلام تذكيرهم بأنهم على ضلال في اتخاذهم الأوثان آنية ، ويحذرهم من موقفهم السيء يوم القيامة • وتأتي بعد ذلك مهاجرة الى ربه وفي اثرها نعم الله التي توالى عليه •

وآيات هذه الحلقة يغلب عليها الطول ، ولغتها تميل الى الجزالة والقوة لخلوها من الحوار وقيامها على الأوامر القوية والأخبار المؤددة

وفي نظرها هزج بين الأمر والخبر والاستفهام كما أشرنا آخفا ، ونبرته هادئة الا في الأمر بالانتقام من ابراهيم « اقتلوه أو حرقوه » وفي بيان مصير اقنوم يوم القيامة « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويعلمن بعضهم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » •

والمحور الثالث : مواجهة ابراهيم عليه السلام للنمرود بن كنعان طاغية عصره • ويمثله حلقة سورة البقرة وهي تتكون من آية واحدة طويلة تبدأ باستفهام تقريرى تعجيبى ، ثم حوار يبدؤه ابراهيم عليه السلام بقراره أهم انك أن الله هو الذى يحيى ويميت ، فيرد عليه المنك أنه هو الذى يحيى ويميت ، فيفحمه ابراهيم بطالب لا يقدر عليه « ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » فيبيت الطاغية ولا يستطيع جوابا ، وتختتم الحلقة بتذييل يبين عدم هداية الله للظالمين •

فدوضوع التحفة ليس في ابطال عبادة الأصنام كالحلقات السابقة، ولكنه في ابطال ألوهية الطاغية الذى يدعى الألوهية • ونظمها يميل الى السهولة التى يتطلبها الحوار الهادىء الذى تبنى عليه الحلقة •

والمحور الرابع : ابطال ربوبية الكواكب وعبادتها • ويمثله حلقة واحدة في سورة الأنعام • وهى تصم ثلاثة مشاهد :

الأول : يحكى استدلال ابراهيم على بط-ان ربوبية الكواكب وعبادتها ، ويتكون من وقفات ثلاث أمام الكوكب والقمر والشمس ، والاستدلال بأفولها على استحالة ألوهيتها ، وعدم أحقيتها بالعبادة ، ويختتمها بالتبرؤ من شرك قومه ، ويبين للمته انصافية التى تقوم على توحيد الله تعالى •

والثانى : يبين محاجة القوم لابراهيم عليه السلام ، وتخويقه بالكهنتهم • ورد ابراهيم عليهم في ذلك •

والثالث : خاتمة طويلة تتضمن تعقيباً على القصة ، وسرداً مفصلاً لذرية ابراهيم من الأنبياء والمرسلين ، وبياناً لمكانتهم وما أوتوا من حكم ونبوة ، وحثاً على الاهتداء بهداهم .

وآيات هذه الحلقة متوسطة الطول ، ونظمها يجمع بين السهولة والجزالة ، ويبنى في المشهد الأول على حوار لابراهيم مع نفسه ، يفتى باعلان البراءة من شرك قومه . ويعتمد في المشهد الثاني على الاستفهام الانكارى بجانب الجمل الخبرية ، والمواجهة فيه من طرف واحد هو ابراهيم عليه السلام ، رداً على محاجتهم التي لم تفصل . ويقوم المشهد الثالث على الأسلوب الخبرى المؤكد في كثير من جملة .

البدايات :

تتشابه انحلقات في بداياتها من حيث ما تتضمنه من تنبيه للأذهان ، وايقاظ للاسماع ، لتلقى ما يعرض عليها باهتمام ، وتستوعبه شكلاً ، ودوراً ، ويتنوع السبيل الى ذلك ، فينأتى عن طريق كلمة ، كما في بداية حلقة العنكبوت « و ابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله وانقره » فالبدء بالاسم « ابراهيم » فيه تشويق وتنبيه لما يأتى بعده من أحداث تخصه وتتعلق به . ويكون عن طريق جملة في الآية ، كما في بداية حلقة البقرة « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه » . ويأتى عن طريق آية تمهيدية ، وهو ما نراه في أكثر الحلقات ، فبتبدأ حلقة مريم بقوله تعالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً » ، وحلقة الشعراء بقوله تعالى « واتل عليهم نبأ ابراهيم » ، وحلقة الصافات بقوله تعالى : « وان من شيعته ل ابراهيم » ، وحلقة الأنبياء بقوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » . ونجده عن طريق آية تشترك مع صلب الحلقة في الموضوع العام وهو الدعوة ، وتذلل عنه في محورها ، وذلك في حاشية الأنعام

حيث تبدأ بآية في الابتكار على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة ، بينما موضوع حلقة الأعمام في أبطال عبادة الكواكب « واذ قال إبراهيم لأبيه أزرأ اتخذنا آلهة أناى أراك وقومك فى ضلال مبين » وضاعف من التنبيه فى هذا الوطن شدة لهجة الآية وعلو نبرتها ، ثم ما تلاها من آية تمهد لظرفه فى النيرات السماوية « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين » •

وبداية كل حلقة تتخذ نسقا يتلاءم مع ما فى السورة بوجه من الوجوه • فحلقة سورة مريم تبدأ بالأمر بذكر إبراهيم فى الكتاب « واذكر فى الكتاب إبراهيم » وهذا يتلاءم مع بدايات القصص الواردة فى السورة ، وبداية قصة زكريا « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » (١) وبداية قصة مريم « واذكر فى الكتاب مريم » (٢) ثم تأتى قصة إبراهيم تليها قصة موسى وبدايتها « واذكر فى الكتاب موسى » (٣) ثم قصة اسماعيل وبدايتها « واذكر فى الكتاب اسماعيل » (٤) وتخدم القصص بقصة ادريس وبدايتها « واذكر فى الكتاب ادريس » (٥) •

وحلقة الشعراء تختلف فى بدايتها عن بدايات القصص التى فى السورة ، فأول قصة فيها هى قصة موسى عليه السلام وتبدأ بقوله تعالى « واذ نادى ربك موسى » (٦) ، وتأتى بعدها قصة إبراهيم عليه السلام وبدايتها « واتل عليهم نبأ إبراهيم » ، يليها قصص : نوح وهود وصالح

(١) مريم : ٢ •

(٢) مريم : ١٦ •

(٣) مريم : ٥١ •

(٤) مريم : ٥٤ •

(٥) مريم : ٥٦ •

(٦) الشعراء : ١٠ •

ولوط وشعيب عليهم السلام : وهى مبدوءة جميعها بنسبة التكذيب الى اقوام هؤلاء الرسل (٧) . ولعل السر في الاختلاف بداية قصة ابراهيم عما قبلها وما بعدها من قصص ، هو ارتباطها الشديد ببداية سورة ، اذ تبدأ سورة الشعراء بخطاب للرسول ﷺ ، وحديث عن المكذبين من قريش وعنادهم ، وهؤلاء ينتسبون الى ابراهيم عليه السلام ، ويعتبرونه جدالهم ، ويوعدون أنهم يسرون على نهجه ، فلما عرضت قصة ابراهيم ناسب هذا أن يؤمر الرسول ﷺ بتلاوتها على قومه على سبيل الخصوص ، ليلفت أذهانهم اليها ، ويعلموا منها محاربة ابراهيم للأصنام وعابديها ، ويتيقنوا أنهم ليسوا على نهجه ، وقلنا يدفعهم ذلك الى متابعة الرسول ﷺ . كما أن جريمة قوم ابراهيم المذكورين في الشعراء هى عبادة الأصنام ، والعرب يشتركون معهم في ذلك ، فتلاوة هذه القصة عليهم فيها عظة واعتبار لهم أكثر من غيرها . نظراً للاشتراك في الجرم زيادة على ذلك أن قوم ابراهيم في حلقة الشعراء لم يكذبوه ولم يسخروا منه وانما عللوا فعلهم بتقليد الآباء ، ومن ثم لم تبدأ القصة باسماد التكذيب اليهم كما في القصص التي كُذِب فيها الأقبام أنبياءهم .

وحلقة الصافات ترتبط فيها قصة ابراهيم بقصة نوح عليهما السلام بتفاصيل بديع وقد مهد لذكر القصص في هذه السورة بقوله تعالى « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم موزرين . » (٨) . ثم جاءت قصة نوح كأحد هؤلاء المذخرين على نفس المنهج « ولقد نادانا نوح فلنعم المنجيون » (٩) ثم ربطت قصة ابراهيم بنوح عليه السلام باعتبار أن ابراهيم من شيعته « وان من شيعته لابراهيم » .

(٧) الشعراء : الآيات : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٦٠ ، ١٧٦ .

(٨) الصافات : ٧١ ، ٧٢ .

(٩) الصافات : ٧٥ .

وهي بداية لا تختلف كثيراً عن بدايات قصص أخرى نليناها في السورة « وان انبىاس لمن المرسلين » ، « وان لوطا لمن المرسلين » ، « وان يونس » ، « وان يونس لمن المرسلين » (١٠) .

وحلقة الأنبياء متلاءم بدايتها مع بداية قصة موسى وهارون التي تسبقها وهي أول قصة في السورة « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء » (١١) وعلى هذا النهج بدئت قصة ابراهيم « ولقد آتينا ابراهيم رشاده » .

وحلقة العنكبوت عطفت بدايتها « و ابراهيم » على « نوحا » في القصة التي تسبقها حيث بدئت بقوله تعالى « ولقد أرسلنا نوحا » (١٢) فنلتها قصة ابراهيم معطوفة عليها والفقير : « وأرسلنا ابراهيم ، وبذلك اتصلت القصتان ، ثم جاءت القصة التي بعد ذلك على نفس النهج « ولوطا اذ قال لقومه » (١٣) .

وحلقة البقرة تبدأ بداية تقريرية تعجيبية « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه » وهي بداية تتناسب مع بدايات القصص التي سبقتها قبل آيات ، والتي تبدأ بقوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » ، وقوله تعالى : « ألم تر الى الملائكة من بنى اسرائيل من بعد موسى » (١٤) .

وسريرة الأنعام تخار من القصص المفصل الأنبياء السابقين ، نالا من قصة ابراهيم عليه السلام فسلك في بدايتها النهج المشابه في

(١٠) الصافات : الآيات : ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٩ .

(١١) الأنبياء : ٤٨ .

(١٢) العنكبوت : ١٤ .

(١٣) العنكبوت : ٢٨ .

(١٤) البقرة : ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

كثير من قصص القرآن الكريم • وأخباره وهو البدء بـ « إذ » كما أن قبلها أمر للرسول ﷺ بترك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وأمر بالتذكير بالقرآن الكريم في قوله تعالى : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » (١٥) ثم أمر له بالانكار عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر « قل أئذعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا » (١٦) وبعد ذلك جاءت قصة ابراهيم عليه السلام مبدوءة بالأمر بالتذكير الذي تقصح عنه « إذ » الظرفية « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر » وهذا يتلاءم مع ما سبق من الأمر بالتكفير والانكار : أى اذكر لهم — بعد — ما سلف — قول ابراهيم لأبيه ••• فهم أقرب الناس اليه ويدعون أنهم على نهجه ، وتذكيرهم بقصته أبلغ في وعظهم وزجرهم وحثهم على اتباع نهجك المستقيم •

السؤال الأول وجوابه :

وبعد البداية المشوقة يأتي أول حدث في الحلقة ، ويتمثل في حكاية ما قاله ابراهيم عليه السلام لأبيه أو لقومه ، وجواب هذا القول • و ابراهيم عليه السلام هو الذى يبدأ الحوار في الحلقات السبع ، وذلك باعتباره مكلفا بدعوة قومه الى عبادة الله تعالى ، ومهتما بتغيير الباطل المسائد بينهم ، وحريصا على اخراجهم مما هم فيه من ضلال ، وهن ثم فهو الذى يملك زمام المبادأة •

ويتنوع الأسلوب الذى يبدأ به الحوار : فهو استفتاء موجه لأبيه في مريم والأنعام ، واستفتاء موجه لأبيه وقومه في الشعراء

• (١٥) الأنعام : ٧٠

• (١٦) الأنعام : ٧١

والصافات والأنبياء ، وأمر لقومه في العنكبوت ، وجملة خبرية في البقرة .
كما تتنوع صيغة الاستفهام في الحلققات التي بدأت به ، وانجواب
عنه ، وسوف نوضح كل ذلك فيما يلي :

- ١ - في حاقة مريم « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا
يبرأ ولا يغنى عنك شيئاً » •
وفي حلقه الأنعام « واذ قال إبراهيم لأبيه أزر أنتخذ أصناماً
ألهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين » •

والتنوع فى الآيتين يبدو من وجوه :

الأول : فى الآية الأولى أضمر القائل وهو إبراهيم عليه السلام ،
وذلك لتقدم ذكره فى الآية السابقة عليها • وفى الآية الثانية أطول
انقائى لعدم تقدم ذكره فى الآيات السابقة •

والثانى : فى الأولى قيل « لأبيه » ، وفى الثانية قيل « لأبيه أزر »
ولعل السر فى ذلك أن الكلام جرى فى الآية الأولى على منهج الرفع
والأمانة كما هو مطلوب فى مخاطبة الأب فعلم من ذلك أنه أبوه الحقيقى
بدلاله الأسلوب وقرر ذلك بندائه « يا أبت » ، وتكرار هذا النداء فى
الآيات التالية • وفى الآية الثانية علت فبرة التوبيخ والتعنيف بسبب
أن تعيين اصرار الأب على الكفر والعناد مع القوم ، وهذا غير معتاد
فى مخاطبة الآباء ، فصرح باسم الأب دلالة على أنه الأب الحقيقى لا
على سبيل المجاز الذى بوحى به الأسلوب التوبيخى • وهذا فى نظرنا
يسقط ما قاله بعض المفسرين من أن « أزر » ليس الأب الحقيقى ،
بدليل مخاطبته بالغلظة والجفاء (١٧) • فعلى ما بيناه تكمن الغلظة

(١٧) ينظر الأوسى : ١٩٥/٧/٤ • وينظر ما كتبناه عن اسم أبيه

فى تحليلنا لهذه الحاقة •

التي يحتجون بها داعية لظاهر اسم الأب ، ليعين بوصفه واسمه كى لا يصرف الى المجاز ، والغلظة هنا من مقتضيات المقام بعد ظهور اصرار الأب على العناد والكفر ، على أن ما فى الآية ليس من غيبيل الغلظة المحرمة ، فهى فى سبيل الله تعالى لا فى سبيل مصلحة دنيوية ، ولم تزد على كونها مصارحة بالحقيقة ، وحكاية للحال القائمة •

والثالث : جاء الاستفهام فى الآية الأولى رقيقا لينا ، فهو وإن كان مفيدا للتوبيخ والتعجيب ، إلا أنه ورد فى صيغة سؤال عن العلة فى عبادة ما يعبد ، وكأنه بذلك يتيح لأبيه فرصة يجيب عليها ، ويبين عذره فى هذه العبادة ، فيتواصل الحوار بأن يبطل ابراهيم عذره وبزيمته ، وهذا يتلاءم مع جو الحلقة المفعم باللطف واللين فى دعوة أبيه • وجاء الاستفهام فى الآية الثانية منظويا على تزييح شديده وتهكم وتعجيب ، حيث جاء بالهمزة وهى أضل فى هذا الباب ، ولم يكن عن العلة ، وإنما كان عن وصف للضع المتلبس به واللوم عليه ، وعبر فيه بالاتخاذ الابنى على الاختيار ، فهو الذى يتخذها باختياره دون أن تفرض عليه ، أو يكون له عذر فى عبادتها ، وتسمية المعبودات باسمها الذى يبين أصلها الجمادى الذى لا حول له ولا طول ، ففيتنافى اتخاذاها آلهة مع أبسط مقررات العقول • وهذا يتلاءم مع جو الحلقة ، حيث يشتد ابراهيم فى إعلان البراءة من قومه المشركين ومن شركهم ، ويصرح بعدم خوفه من تهديدهم •

والذى يبدو لى - والله أعلم - أن اللطف واللين فى حلقة مريم استجيبه بجنوب الأبروة أنه يعرض على أبيه الدعوة ويبين له مضار عبادة الأصنام ، وهذا يستدعى التلطف فى العرض ، مع انفصبل فيه بأساليب متنوعة • أما آية الأنعام فهى فى صدر حلقة موضوعها ابطال عبادة الكواكب وهو مختلف عن موضوع آية مريم الذى يدرج فى محيط عبادة الأصنام ، والآية ليس فيها عرض للدعوة ، بل وصف وتقرير

حالة وجوده مع القوم والتذليل عليها ، فبذيت على المصارحة بالحقيقة مهما كانت شديدة ومؤلمة .

٢ - في حلقة الشعراء قيل في حكاية كلام ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » وقيل في جواب القوم « قالوا نعبد أصناما فننطق لها عاكين » .

وفي حلقة الصافات قيل في حكاية كلام ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » ولم يرد جواب للقوم عن هذا .

وفي حلقة الأنبياء قيل في حكاية كلام ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » وقيل في جواب القوم « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » .

وتتفق الحلقات الثلاث في أن القول كان من ابراهيم لأبيه وقومه ، والاهتمام بالنص على أبيه مع أنه يدخل في القوم لظهار العناية بتبليغه أكثر من غيره ، حيث دعى على انفراد ودعى مع القوم ، وللاشارة بأن أباه كان مشاركا القوم في ناديمهم ومصرا معهم على عبادة الأصنام .

وتتنوع الحلقات الثلاث في السؤال والجواب : ولعل السر في ذلك أن دعوة ابراهيم لأبيه وقومه لم تكن مرة واحدة بل تكررت في فترات مختلفة وبأساليب متنوعة ، اذ لا يعقل أنه دعاهم مرة واحدة وكان بعدها ما كان من القائه في النار ، وبهذا يضعف ما قيل من أن القصة واحدة وقد اختلف المحكى (١٨) .

نعم القصة واحدة من حيث دورانها في محيط دعوة أبيه وقومه الى عبادة الله تعالى ونبد عبادة الأصنام ، لكن عرض الدعوة على القوم

(١٨) ينظر ملك التأويل : ٨٣٨/٢ .

والحوار معهم في شأن الأصنام متكرر ومتعدد ، ودانت نتيجته النهائية تسيره الأصنام ثم القاء في النار ، فالفصّة واحدة من حيث هو صيرها للعم ، وواحدة في نتائجها النهائية ، ومتعددة في أحداثها الداخلية نتيجة لتكرار عرض الدعوة ، ومن ثمّ ثلا تكرار لفصّة على سبيل الحقيقة .

وحلقة الشعراء هي أولى الحلقات نزولا ، وتحكى أولى مراحل الدعوة (١٩) ومجرد انتبيه والايقظ الى ما يعبدون كاف فيها ، فجاء السؤال فيها عن ما هية ما يعبدون بقوله « ما تعبدون » أي : أي شيء تعبدون ؟ وكأنه عليه السلام لم يشاهدها ، وعلم أنهم يعبدون أصناما لا تعقل عبادتها . ومن ثمّ أجروه مجرى المستفهم حقيقة عنها ، فأجابوه مبينين حقيقة ما يعبدون ؟ وكيفيه عبادتهم له « قالوا نعبد أصناما فظل لها عاكفين » وبذلك طابق جوابهم سؤاله (٢٠) .

وحلقة الصافات تمثل مرحلة تالية لالتى قبلها ، ومن ثمّ كان السؤال فيها ممحضا للإنكار بما فيه من دلالات ، حيث قلنا « ما تعبدون » فجاء بما الاستفهامية داخلية على اسم الاشارة « ذا » المشرب معنى الموصول ، وتعبدون صلته وهذا يقتضى أن ما يعبدونه مشاهد ومعروف لابراهيم عليه السلام ، فانصرف الاستفهام بذلك عن معناه الحقيقي الى معنى الإنكار ، ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيتهم لم يجيبوه كما أجابوه في الحلقة السابقة ، ومن ثمّ استمر في توبيخهم وتبكيتهم فقال « أفكأ آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين » (٢١) . والمقرر عند الفحويين أن « ماذا » اما مركبة من « ما » الاستفهامية و « ذا » التى هي اسم اشارة أو اسم هوصل ، أو هي

(١٩) ينظر التحرير والتنوير : ١٣٨/٢٢ .

(٢٠) ينظر درة التنزيل ٣٣١ ، وملاك التأويل ٨٢٩/٢ .

(٢١) ينظر درة التنزيل : ٣٣١ ، والتحرير والتنوير : ١٣٨/٢٣ .

كلها اسم استفهام ، وهي على كس حاك أقوى وأركن من « ما » وحدها .
فلمّا كان القصد في حلقة الشعراء هو تنبيههم كانت « ما » كافية في
أداء المقصود ، ولما اشتمد في التوبيخ والتفريع في مرحلة تالية كانت
« ماذا » هي الأقوى والأبلغ والأنسب بالمقام (٢٢) .

وحلقة الأنبياء تمثل مرحلة ثانية في الدعوة لمرحلة حلقة الصالحات ،
فجاء سؤال إبراهيم فيها أشد في التوبيخ وأقوى في السخرية والتهكم
بهم وبمعبوداتهم حيث قال « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون »
فمعبور باسم الإشارة منفصلا عن « ما » الاستفهامية لا مركبا معها ،
وألحق به هاء التثنية ، فأكمل في الدلالة على حقارة المعبودات وضععتها ،
وسماها « تماثيل » خلافا لما يسمونها به ، سخرية واستهزاء بها ،
ووصفهم بالعكف عليها والملازمة لها زيادة في التهكم بهم ، حيث
يعكفون على تماثيل صنعوها بأيديهم . وقد دفعهم هذا التوبيخ الشديد
والتهكم اللاذع الى البحث عن اجابة تدرء ما حل بهم ، فلم يجدوا
الا أن يلجأوا الى التقليد ، ويتشبثوا باتباع الآباء « قالوا وجدنا آباءنا
لها عابدين » .

ولما كان في سؤاله إشارة تحقيرية الى تماثيلهم التي يعبدونها ،
مما يدل على معرفته الغامرة بها ، وأن السؤال ليس حقيقيا ، بل على
سبيل الإنكار والتهكم ، لم يجابوه ببيان حقيقتها كما هو ظاهر سؤاله ،
بل أجابوه ببيان سبب عبادتها ، وهو تقليد الآباء . وبذلك اختلف
الجواب هنا عنه في الشعراء ، إذ ورد السؤال في الشعراء خاليا من
الإشارة الى الأصنام ومما يدل على معرفته بها ، فأجابوه ببيان حقيقتها
« قالوا نعبد أصناما فنظن لها عاكفين » .

(٢٢) ينظر الجني الداني : ٢٤١ . ودرة التنزيل : ٣٢١ .

الاعتزاز بتقليد الآباء :

علل انقوم عبادتهم للأصنام بتقليد آباءهم ، وقد جاء هذا في حلقتي الشعراء والأنبياء ففي الشعراء : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » •

وفي الأنبياء : « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » •

والتنوع يظهر من وجهين :

الأول : وجود « بل » في آية الشعراء دون آية الأنبياء • وسر ذلك راجع إلى اختلاف السؤالين ، ففي حلقة الشعراء كان السؤال « هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » وانجواب عن هذا السؤال اما أن يكون بالاثبات أو بالنفي ، فلو أجابوا عنه بالنفي كما هو الحق ، لاعترفوا بأنهم يعبدون آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، وبذلك تنزهم الحجة ببطان هذه العبادة ، ولو أجابوا عنه بالاثبات لكانت اجابتهم مخالفة للحقيقة المشاهدة المحسوسة ، فيظهر كذبهم ، ومن ثم لم يجنوا ما ينتقدهم من الاجابة عن هذا السؤال الذي سيورطهم ويوقعهم في الحرج الا أن يضربوا عن الاجابة عنه الى ما يروونه عذرا وعللة لهم في عبادتها ، وهو تقليد الآباء فجاءت الاجابة مصدرة بـ « بل » لتفديد آخرابهم عن السابق الى كلام جديد ، وكانهم قالوا لا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون • وبذلك كانت « بل » هنا لازمة للجواب ، ولا يمكن أن يتأتى بدونها •

أما في حادثة الأنبياء فقد كان السؤال « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » وهذا سؤال على سبيل التوبيخ والتهكم ، وكانه يقول لهم : لم تعبدونها وتمكفون عليها وأنتم تعماون أنهما تماثيل صنعتها بأيديكم ولا حياة فيها ولا ضر • فقلوا دببنا العاة والسبب

في عبادتها: «وجدنا آباءنا لها عابدين» ، فلا محل للاضراب هنا .
والجواب لا يقتضى وجود «بل» لأنه لا اضراب عن كلام سابق (٢٢) .
والثانى : في آية اشعراء قيل « كذلك يفعلون » وفي آية الانبياء
قيل « لها عابدين » . والذى يظهر لنا في سر ذلك هو تلوين الاسلوب ،
ومجانبية التكرار من غير فائدة ، ففي حلقة الشعراء تقدم ذكر العبادة
والعكوف ، اد كان السؤال الأول « ما تعبدون » وكانت الاجابة « نعبد
أصناما فنظّل لها عاكفين » ومن ثم عبر في الجواب الثانى بالفعل نظراً
لتقدم العبادة والعكوف ، مع الاكتفاء بدلالة الكاف التشبيهية واسم
الاشارة على تعيين الفعل المقصود وهو « نعبد أصناما فنظّل لها
عاكفين » .

أما في حلقة الانبياء فلم يتقدم سوى ذكر العكوف في السؤال
« ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » ولم تذخر عبادة ، ومن ثم
ذكرت في جوابهم « وجدنا آباءنا لها عابدين » لاختصاصها بالدلالة على
المقصود ، مع عدم تقدم ذكرها ، والتعابير موجود في الأسلوب مع
التعبير بها .

إبطال عنتهم :

ولما تعلن القوم بتقليد آباءهم في عبادة الأصنام رد ابراهيم
عليهم عنتهم وقد جاء رده متنوعا .
ففي حلقة الشعراء « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤكم
الأقدمون • فأنهم عدو لى الا رب العالمين » .
وفي حلقة الانبياء « قل لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » .
وهذا راجع الى أن حلقة الشعراء تهتئ مرحلة البدايه في الدعوة

(٢٢) ينظر درة التنزيل ٢٢٩ ، وملاك التأويل ٨٤٠ .

ففيها تخفيف من حدة الإنكار والتوبيخ ، وبعد عن الذم المباشر ، حتى لا يصددهم عنه ويؤلبهم عليه من أول الأمر ، فناسب هذا أن يشرفهم الى حكمه على أصنامهم عن طريق الاستفهام الطويل ، وبعد التشويق ، انى الحكم أخبرهم بأنها عدو له ، ولم يذم القوم بنعت ما من النعوت ، ولكن تخلص من ذلك الى ذكر ربه رب العالمين ، وأخذ في الثناء عليه ليعرفهم ببعض نعمه وفضائله •

أما حلقة الأنبياء فظاهر أنها كانت في مرحلة متأخرة من الدعوة وذلك بعد أن لاقى منهم ما لاقى من اعراض وايداء واصرار على العباد والكفر ، ومن ثم اشد عليهم فيها بالتوبيخ ، يدمهم ذمًا مباشرًا هم وآباؤهم بالخبر المؤكد بعدة تأكيدات فقال « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » • وقد هزمهم هذا الذم المباشر هزا عنيًا وحرك مشاعرهم ، ودعاهم للسؤال عن حقيقة ما جاءهم به « قالوا اجئتنا بالحق أم أنت من الالاعين » • فأضرب ابراهيم عن كلامهم مبطلاً كونه من الالاعين ، ببيان الرب الحقيقي مع الدليل على ربوبيته ، وهو خلقه السموات والأرض « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى غطرن وأنا على ذلكم من الشاهدين » ، وأتبع ذلك بتهديد أصنامهم ، والحلف على الكيد لها والانتقام منها « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » •

تكسير الأصنام :

وتكسير ابراهيم عليه السلام للأصنام مشهد واحد كما أشرنا انى ذلك آفا ، وهو مشهد متسع المساحة ، وقد جاء فى حلقتى الصفات والأنبياء محكيا بعبارة متنوعة ، تعطيه من جميع جوانبه ، بالاجابة عن الأسئلة التالية :

متى عزم على التكسير ؟ وم الوقت الذى حدهه اذلك ؟ وما الحيلة التى لجأ اليها لتنفيذ مرادة ؟ وكيف ذهب الى الأصنام وكسرها ؟ وما

بمواصفات التكسير وحدوده ؟ وما موقف انقوم من ذلك ؟ وكيف واجهوا ابراهيم وحققوا معه ؟ وما جوابه عليهم ؟ وما موقف انقوم بعد جوابه ؟ وما الرد النهائي من ابراهيم عليه السلام ؟ وهذه الأسئلة العشرة لم تجب عنها حاقا واحدة ، ولا كررت الاجابة عنها في الطلقتين ، بل ان كل حلقة منهما أجابت عن عدد منها يجعل المشهد فيها كامل الافادة دالا على المقصود .

ي . عن السؤال الأول والثاني تجيب حلقة الأنبياء : « وثالثه لأبيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » فقد عزم على كسر الأصنام بعد المناقشة الحامية معهم ، وعندها أقسم قسما مؤكدا بأن يكيد لأصنامهم ، وحدد رقت ذلك بذهابهم مدبرين بعيدا عنها ، كي لا يرده أحد عن تنفيذ ما عزم عليه .

وعن السؤال الثالث تجيب حلقة الصافات : « فنظر نظرة في النجوم . فقال أنى سقيم . فترأوا عنه مدبرين » لقد جاءه انقوم ليخرجهم الى عيدهم فجال ببصره في السماء مفكرا فيما يقول ، وسرعان ما اعتذر لهم بالسقم ، فأسرعوا الى عيدهم مدبرين عنه . تاركين أصنامهم من غير حراسة بعد أن تركوا أممهم أطيب الطعام لتباركه .

وعن السؤال الرابع تجيب حلقة الصافات : « فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تتطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين » . لقد تدال الى آلهتهم في خفية كي لا يشعر به أحد ، فوجد الأظعمة وقد صفت ، أممهم ، فوبخهم وسخر منهم لعدم قدرتهم على الأكل وانطق ، ثم انهال عليهم ضربا قويا للقضاء عليهم .

وعن السؤال الخامس تجيب حلقة الأنبياء : « فجعلهم جذاذا ألا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » لقد حولهم من شدة الضرب الى قطع صغيرة ، وترك صما كبيرا من غير تكسير ، قاصدا توبيخهم عندما يرجعون اليه لسؤاله عما حدث .

وعن السؤال السادس تجيب حلقة الأنبياء : « قالوا من فعل هذا بالهتتا انه لمن الظالمين • فانوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم • قالوا نأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون » •

وعن السؤال السابع تجيب حلقة الصافات في ايجاز : « غافقنوا اليه يزفون » ولم تفصل سؤالهم له ، وقد فصلته طقه الأنبياء « قالوا أنت فعلت هذا بالهتتا يا ابراهيم » •

وعن السؤال الثامن تجيب حلقة الأنبياء : « قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألهم ان كانوا ينطقون » •

وعن السؤال التاسع تجيب حلقة الأنبياء : « نرجعوا الى انفسهم فقلوا انكم أنتم الظالمون • ثم نكسروا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » •

وعن السؤال العاشر تجيب حلقة الصافات : « قال أتعبدون ما تتحقرن • والله خلقكم وما تعملون » كما تجيب حلقة الأنبياء : « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم آف لكم ولما تعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم آف لكم ولما اذلهجة ، فيها تضجر منهم ومن آلتهم ، وتوبيخ لهم بعدم التمثل • وفي اجابة كل من الحلقتين الزام بالحجة على فساد عبادتهم •

ومن هذا العرض رأينا كيف تبادلت الحلقتان تفصيل المشهد بتفنن وانقان ، وبهذا انتفى التكرار في المشهد وتفصيل أحداثه ، حيث اقتصرت كل حلقة بتفصيل جانب من جوانبه • ومن جمع ما في الحلقتين معا يتم عرض المشهد عرضا مفصلا حاويا جميع جزئياته ، والاكتفاء بما في حلقة واحدة مهما يتم عرض المشهد عرضا موجرا مؤديا للمقصود • ففى جمع ما في الحلقتين معا تفصيل وتوضيح ، وفي الاقتصار على ما في واحدة منهما ايجاز واختصار ، والفائدة محققة بكاملها في كلا

الوجهين ، وهذا من عجيب نظم القرآن الكريم • وبه تنتفى نسبة
القرار التي يرجف بها بعض قصار النظر •

وقد اختصت كل حلقة من الحلقتين بعرض الأحداث التي تناسبها،
والتي يتون من عرضها مشهد متكامل ، وبأسلوب يقتاسب مع جو
الحاقة •

فحلقة انصافات مبنية على الحوار من جانب واحد هو ابراهيم
عليه السلام ، حيث طويت فيها اجابات القوم عن أسئلته ، ومقولاتهم
له ، فبدت وكأنها تساؤلات نفسية ، يليقها ابراهيم عليه السلام على
نفسه متفكرا فيها ، غير منتظر اجابة أحد عنها • لذا نجد تفصيلا في
عرض الأحداث التي من جانبه ، ويغلب عليها طابع التأمل والتفكر ،
كالتساؤلات المتتابعة في توبيخهم على عبادة الأصنام « ماذا تعبدون •
أفكأن آلهة دون الله ترديدون • فما ظنكم برب العالمين » • وانظر والتفكر
في النجوم « فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم » والذهاب الى
آلهتهم ، ومساءلتها وتوبيخها لها وهى لا تجيب « فراغ الى آلهتهم فقال
ألا تأكلون • مالكم لا تتطقون » •

ولم تفصل حلقة الأنبياء هذه الجوانب ، اقيام الحلقة على الحوار
من الجانبين : سؤال من ابراهيم وجواب من القوم ،
أو سؤال من القوم وجواب من ابراهيم عليه السلام • ولذا
وجدنا فصلت الأحداث التي يلزمها حوار من جانبين ، كالسؤال عن
المفاعل ، والاشارة الى ابراهيم بالاتهام ، والأمر باحضاره على أعين
الناس ، والتحقيق معه في الحادث ، ورحمةهم الى أنفسهم للومها بعد
تبيين الحق ، ثم ما عرض لهم من نكسة عن الحق قلبهم الى طريق
الباطل • وهذه الأحداث لم تفصلها حلقة الصافات لاهتمام الحاقفة
بحداية ما صدر عن ابراهيم عليه السلام دون ما صدر عن القوم •

وتشابه نهاية هذا المشهد في الحلقنتين من حيث بذائه في كل مذهبا
على الاستفهام التوبيخي المسلط على فعل العبادة ، مع بيان معبوداتهم
الفاصلة بوصف يبطل عبادتها ، ويلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر .
نفى الصافات : « قال أتعبدون ما تنحتون • والله خالقكم وما
تعملون » •

وفي الأنبياء « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا
يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » •

والتنوع في النهايتين يبدو من وجوه :

الأول : قيل في الصافات « أتعبدون » من غير « غاء » ، وقيل
في الأنبياء « أفتعبدون » بالفاء • والسبب في ذلك أن الاستفهام في
الأنبياء مبني على قول سابق لهم ، ومفزع عليه ، وهو قوله « لقد
علمت ما هؤلاء ينطقون » فجاء قوله « أفتعبدون » عقيبة مباشرة ،
ومبني عليه ومن ثم صدر بالفاء ، وكأنه قال : إذا كان هؤلاء ينطقون
كما أقررتم فلماذا تعبدون من دون الله وهم لا يقدمون لكم نفعاً
ولا ضراً؟! أما الاستفهام في الصافات فليس مفزعا على محيئهم اليه
ولا كان عقيبة مباشرة ، بل بينهما أحداث مطوية ، وهو التحقيق معه ، وما
تبعه من رجوعهم الى أنفسهم ، ثم نكسهم على رؤوسهم ، حسبما
مصل في سورة الأنبياء •

والثاني : في الصافات قيل « ما تنحتون » ، وفي الأنبياء قيل
« مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم » ولعل السبب في ذلك أن حجة الصافات
لم يتقدم فيها ذكر لبيان حقيقة هذه المعبودات ، ولم يعترفوا فيها بأنها
جمادات لا تتلطف ، فتناسب ذلك أن يكشف عن حقيقتها ، ويبين أصلها •
أما حجة الأنبياء فتقدمت فيها الإشارة الى أنها تماثيل صنعوها بأيديهم ،

وأقروا بهم بأنها جمادات لا تتنطق ، فناسب ذلك وصفها بوصف لم يتقدم ذكره ، هو عدم قدرتها على نفعهم أو ضرهم .

والثالث : قيل في الصفات : « والله خلقكم وما تعملون » ولم يرد نصر هذا في الأنبياء ، والسر في ذلك أن هذه الجملة الحالية من تكلمة الدليل ومن موجبات التوبيخ ، لأن الله الذي خلقهم وخلق ما ينجحون وما يعملون على العموم هو الأولي بالعبادة . ولم يتقدم في هذه الحلقة بيان لقدرة الله تعالى يعرفون من خلاله الاله الحق . بينما في حلقة الأنبياء ورد في الآية نفسها قوله « من دون الله » ، كما تقدم في الحلقة ما يعرفهم بالاله الحق من خلال بيان قدرته في خلق السموات والأرض « بن ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن » فناسب ذلك عدم تكرار ما يدل على قدرة الله تعالى نظرا لتقدمه .

وختم المشهد في حلقة الأنبياء بالتضجر منهم ومن آلهتهم ، وتوبيخهم بعدم التعقل للحقائق ، وهذه اللهجة الشديدة مناسبة لجسور الحلقة ، حيث ظل يجادلهم ويحاوهم طويلا بدون فائدة ، كما أنهم عابوا الحق واعترفوا به ثم انقلبوا عنه الى الباطل ، وهذا مما يثير غضب الحليم ، ويستوجب شدة التعنيف .

القائه في النار ونجاته منها :

ومشهد القاء ابراهيم عليه السلام في النار ونجاته منها مشهد واحد في القصة ، وعرض في ثلاث حلقات بعبارات متنوعة :

ففي الصفات : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » .

وفي الأنبياء : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » قلنا يانار كونى برذا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين » .

وفي العنكبوت : « فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو
 حرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك آيات لقوم يؤمنون » •
 وبالنظر في الآيات السابقة نرى أن كل حلقة فيها زيادة ليست
 في الأخرى :

فحلقة الصافات تبين أنهم بنوا بنيانا وأوقدوا فيه النار وألقوه
 فيها •

وحلقة الأنبياء تبين كيف نجاه الله من النار ، وذلك بأن أمرها
 أن تكون بردا وسلاما على ابراهيم •

وحلقة العنكبوت تبين أن القوم تشاوروا في كيفية الانتقام منه،
 أبقتله أم بتحريقه ؟ وانتهى الأمر الى القائه في النار •

وهذه الزيادة التي اختصت بها كل حلقة لا تؤثر في الافادة ،
 ولا تؤدي الى الاخلال في واحدة منها ، فكل مشهد في حلقة يؤدي
 المعنى المقصود ، وهو القاءه في النار ونجاته منها بقدره الله تعالى ،
 ومجموع ما في الحلقات فيه تفصيل للمشهد بجزئياته •

وهن مجموع ما في الحلقات الثلاث يكون المشهد قد تم على النحو
 التالي :

تشاور القوم فيما يفعلونه بابراهيم أيقنونه أم يحرقونه ؟
 واستقر الأمر على حرقه ، فقالوا حرقوه وانصروا الهكم ، وبنوا
 بنيانا وأوقدوا فيه النار حتى صارت جحيما ، وألقوه فيها فقل الله
 تعالى لنار كبرنى بردا وسلاما على ابراهيم ، فأجابه منها ورد كيدهم
 الى نحورهم فكانوا خاسرين •

وقد أدى التنوع في انظم ووجود زيادات في كل حلقة عن الأخرى
 مع وفاء كل ماها بالمقصود الى انتفاء التكرار في عرض المشهد ، والى
 أن يكتسب القارئ حقائق جديدة عندما ينتقل من حلقة الى حلقة ،

فلا يحس بأنه يقرأ ما قد سبقت قراءته ، ولا يشعر بأنه يرتل نظاما منبثق له ترتيبه .

وبين خاتمة المشهد في الصفات وفي الأنبياء تشابه وتنوع . ففى الصفات « فأرادوا به كيذا فجعلناهم الأسفلين » وفي الأنبياء « وأرادوا به كيذا فجعلناهم الأخرين » . والتنوع يظهر من وجهين :

الأول : فجىء الفاء في الصفات ومجىء الواو في الأنبياء . وسر ذلك فيما يبدو لى : أن أرادة الكيد في الصفات بمثابة تنفيذ الأمر بالقائه في الجحيم ، فجىء بالفاء لتشعر بأن القاءه في النار كان بمجرد صدور الأمر بذلك ، وكأنه قيل : فنفذوا الأمر بالقائه في الجحيم فجعلناهم الأسفلين . كما أن آية الصفات هي التي بينت نجاة إبراهيم عليه السلام ، فلا تنهم النجاة بدونها ، فعقبت على ما قبلها بالفاء مسارعة الى بيان نجاته ، وإشارة الى أنها كانت عقيب القائه في النار ، فلم يكن لئلاز تأثير فيه .

أما في الأنبياء فنجاته من النار مصرح بها في قوله تعالى : « قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » وجاء قوله « وأرادوا به كيذا ... » بمثابة تعقيب على ما حدث ، وتخصيص لموطن العلة والعبرة فيه ، وهذا لا يحتاج الى بيان ترتبه على القائه في النار ، ومن ثم جىء فيه بالواو .

والثانى : جاء في الصفات « الأسفلين » وجاء في الأنبياء « الأخرين » وقد بين الاسكافي سر ذلك : بأن الله تعالى أخبر في سورة الأنبياء عن إبراهيم أنه قال « وتالله لأكيدن أصنامكم » ثم أخبر عن الكفار لما ألقيوه في النار « وأرادوا به كيذا فجعلناهم الأخرين » فذكر مكيدة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام ، فكادهم ولم يكيدوه ، فخرت تجارتهم ، وعادت عليهم مكيدتهم ، لأنه كسر أصنامهم ، ولم

يبلغوا من احراقه مرادهم ، فذكر الأخسرين لأنهم خسروا فيما عاملهم به وعاملوه من المكيدة التي أضيفت إليهما .

وأما التي في سورة الصافات ، فإن الله تعالى أخبر عن الكفار فيها بما اقتضى من الأسفلين ، وهو أنه قال « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » فبنوا له بناء عائيا ، ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك الى النار التي أجبوها ، فلما علوا ذلك البناء وحطوه منه الى أسفل ، عادوا هم الأسفلين ، لأنهم أهلكوا في الدنيا ، وسفل أمرهم في الأخرى ، والله تعالى نجى نبيه وأعلاه عليهم ، فالتقلب على أمرهم في صعود البناء وسافل أمر ابراهيم عليه السلام لما حط الى النار ، أن صار ذاك سافلا ، وأمر النبي عليه السلام عاليا ، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله « فجعلناهم الأسفلين » (٢٤) .

ويرى الغرناطي : أن الخسران والسفالة غاية حال الكافر ، ومن كان من الأسفلين فقد خسر خسرانا مبينا ، فلا تضاد بين الصفتين ، سوى أن السفول لا حق في ذات السفل ، والخسران حقيقة في خارج عنه ، فالسفول أبلغ ، فقدم ما هو لاحق خزرجي ، وآخر ما لا يتعدى ذات المتصف تكملة وتتمة ، إذ هو أبلغ على ما يجب ، وعلى ما قدمنا من رعي الترتيب ، فورد كل على ما يجب ويناسب (٢٥) .

ويفهم من كلامه أن الأنبياء متقدمة على الصافات ، وهذا صحيح ان كان قصده في ترتيب المصحف ، أما ان كان القصد في ترتيب النزول فإنصافات متقدمة على الأنبياء ، وبذلك فلا وجه لما ذكره . بتعليل الاسكافي أظهر وأدق . ويضاب اليه أن حلقة الأنبياء قائمة على الحوار المستمر بين الطرفين ، وكل طرف يريد أن ينتصر ويفوز بمبتغاه ، وقدنا فاز ابراهيم عليه السلام ، ولم يحصل الكفرون من جدالهم على

(٢٤) درة التنزيل : ٣٠٠ .

(٢٥) ملاك التأويل : ٢/٨٤١ ، ٨٤٢ .

بغيتهم ، فخسروا في مقابلة فوز ابراهيم عليه السلام ، فناسب هذا وصفهم بالأخسرين •

ويختلف ختام المشهد في حلقة العنكبوت عن ختامه في حلقتي النصافات والأنبياء ، حيث ختم بقوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » وهذا ختم يتناسب مع الجو العام للحلقة ، حيث سبق فيها اظهار لقدرة الله تعالى ، وحث على السير في الأرض للنظر في كيفية بدء الله تعالى الخلق واعادته ، واخبار عن سوء مصير الكافرين بآيات الله تعالى ولقائه ، ونجاة ابراهيم عليه السلام من النار بعد أن لقي فيها آية كبرى من آيات الله تعالى اذالة على قدرته ، لا تختلف عن آياته الكريمة التي دعوا الى النظر فيها والاعتبار بها •

قرار الاعتزال :

وبعد نجاة ابراهيم من النار يتبين أنه ان يهاجرت بعبادته ربه بين هؤلاء القوم ، وأن الدعوة بينهم لا مستقبل لها ، حيث أصروا على العناد والكفر ، فقرر اعتزالهم بالهجرة الى مكان آمن يستطيع فيه عبادة ربه وتبليغ دعوته • وقد ورد قرار الاعتزال صريحا في ثلاث سور بعبارات متنوعة •

ففى مريم قيل : « وقال انى ذاهب الى ربي سيهدين » •

وفى العنكبوت قيل : « وقال انى مهاجر الى ربي انه هو العزيز

الحكيم » •

فعبّر في مريم بالاعتزال وهو مناسب لما يسود الحلقه من تلمذ ابراهيم عليه السلام ، وترفقته في دعوة أبيه ، فهو ينطوي على المفارقة بالمحروف ، فمادته عزل الدالة على التحيية والامالة (٢٦) • والعزلة سلوك محمود عند الزهاد ، وهى لا تقتضى الهجرة ، وأخف منها

(٢٦) ينظر مقاييس اللغة مادة : عزل •

على النفس ، ومن ثم واجه ابراهيم عليه السلام أباه بها رأفة به وشفقة عليه ، في الوقت الذي أمره فيه الأب بالهجرة قائلا « واهجرني مليا » .
وعبر في الصلوات بالذهاب ، وهو أخص في الدلالة على مفارقتهم والبعد عنهم من العزلة إلا أنه أخف من الهجرة ، وهو ملائم لما قبله من اخبار بأن قومه أرادوا به كيذا فجعلهم الله الأسفلين ، فان الله تعالى الذي نصره عليهم وأبطل كيدهم لواجب أن يذهب اليه ، ويلجأ الى كنفه في بلد آمن يتمكن فيه من عبادته والدعوة اليه .

وعبر في العكوبات بالمهاجرة ، وهذا أشد في الدلالة على مفارقتهم وتركهم وهذه الشدة ملائمة لما قبلها من تشدده في ذمهم وبيان مصيرهم المزلم يوم القيامة « وقال انما اتخذتم من دون الله مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » .

ولم تذكر الهجرة صراحة في حلقة الأنبياء ، وانما تفهم من قوله تعالى « ونجيناه وابطا الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » حيث يفيد أن الله نجاه بالهجرة الى أرض مباركة هو وابن أخيه لوط ، نعمة من الانعم التي أعدها الله عليه .

ولعل السر في ذلك أن التصريح بالمهاجرة كان يقتضى وروده على لسان ابراهيم عليه السلام كما في الحلقات التي ورد فيها ذلك ، وسياق حلقة الأنبياء لا يلائمه حكاية كلام على لسان ابراهيم في هذا الموضع ، لأن الآيتين السابقتين على قوله « ونجيناه » مسندتان الى نون العظمة « قلنا يانار ... » « فجعلناهم ... » وفيهما نعمتان جليلتان على ابراهيم عليه السلام ، فتروالت النعم معطوفة بالواو حتى آخر الحلقة فقيل « ونجيناه ... » « ووهبنا له اسحاق ... » « وجعلناهم ... » ولم يقطع السياق بحكاية قرار ابراهيم بالمهاجرة .

أما السياق في مريم والعنكبوت فليس فيه ذكر للنعم قبل حكاية قرار الاعتزال وإنما ذكرت النعم تالية له .

وأما في الصافات فقد جاءت حكاية قرار الاعتزال تخلصاً من قصة ابراهيم مع قومه الى فضته مع ولده اسماعيل عليهما السلام ، وفيها تفصيل للحوار الذي دار بينهما في شأن ذبح اسماعيل ، وبيان لنعمة الأعداء العظيمة ، وما أعقبها من نعم جنيلة وبذلك تنتهي الحلقة . فليس في ذكر قرار الاعتزال قطع للسياق ، وإنما مهد به للانتقال من قصته الى قصه .

ختم الحاقات :

وتشترك جميع الحاقات ما عدا حلقتي الشعراء والبقرة في ختمها بتعداد النعم الجليلة التي أنعم الله بها عليه ، بعد اعتزاله قومه ، مسندة الى ذنوب العظمة ، ومبدوءة بنعمة هبة الأولاد ، وتقديم هذه النعمة على ما سواها لأنها هي النعمة التي كان يتوق إليها من زمن بعيد ، وبعد هجرته أصبح في أمس الحاجة إليها ، ليأنس بالأولاد والذرية بعد أن هجر أهله ووطنه في سبيل الله تعالى .

وقد عبر عن هذه النعمة — فيما عدا حلقة الصافات — بفعل الهبة واقعاً على اسحاق ويعقوب عليهما السلام .

ففي مريم « وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً » .
وفي الأنبياء « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين » .

وفي العنكبوت « ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » .

وفي الأنعام « ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا » .

والتعبير بالهبة وشعر بأن الله منحه هذه النعمة دون مقابل منه ،
 غمى تفضل عليه من الله تعالى ، ومشير الى أن الله تعالى راض عنه
 محب له ، لأن الواهب يكون عادة راضياً عن الموهوب له وحانياً عليه .
 ويزون العظمة تشير الى اختصاص الله بذلك ، حيث لا يقدر على هذه
 الهبة سواه .

أما في الصافات فعبر عن ذلك بالتبشير ، فقيل في اسماعيل «بشرناه
 بغلام حلیم» وقيل في اسحاق « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين» .
 ولعل السر في ذلك : أن الاخبار عن اسماعيل ورد عقيب دعائه
 « رب هب لي من الصالحين » فكأنه بذل في ذلك جهداً ما ، ودعا ربه
 وانتار نتيجة الدعاء فناسب ذلك لفظ التبشير . كما أن الاخبار عن
 اسحاق جاء عقيب الانتهاء من أزمة كبيرة كانت تنقضى عليه وهي
 أمره بذبح اسماعيل ، ونجاته من هذه الأزمة يناسبه التبشير ، وكأنه
 قد قيل له : نجينا لك اسماعيل وغديناه ، وبشركناك بأخيه اسحاق
 مثوبة لك على صبرك وطاعتك .

وبهذا نصل الى ختام حديثنا عن أسرار التشبيه والتنوع في نظم
 حلتقات الدعوة وبه ينتهي هذا الفصل .

الفصل الثاني

ابراهيم عليه السلام والملائكة

هاجر لوط مع عمه ابراهيم عليهما السلام ، وانتهى به المقام في أرض سدوم وكان أهلها على جانب كبير من الضلال والادحان وفساد الاخلاق ، وقد أرسل الله تعالى اليهم لوطا عليه السلام يدعهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن فعل المنكرات • ولئنهم لم يستجيبوا له وآذوه وسخروا منه ، وظلوا في ضلالهم ، وانكبوا على الفواحش والمنكرات • حتى اذا أذن الله تعالى بالانتقام منهم أرسل ملائكته الى لوط عليه السلام لانزال العذاب على قومه الظالمين •

وفي الطريق مر الملائكة على دار ابراهيم عليه السلام في صورة ضيوف ، فأسرع لآكرامهم ، ولكن أيديهم لم تمتد الى طعامه ، فأوجس منهم خيفة ، فطمأنوه وبشروه بسلام عليم ، وجاءت امرأته فأخذها العجب من البشرى ، ودار بينها وبين الملائكة حوار قصة القرآن الكريم • وأخبر الملائكة ابراهيم بذهابهم الى قوم لوط لانزال العذاب عليهم ، فجادلهم في شأنهم ، ورجا منهم تأخير البلاء لعلمهم يتوبون ، وبين لهم أن بينهم لوطا ومن آمن معه من أهله ، فقطعوا له بنجاته ومن معه من المؤمنين وايقاع العذاب بالقوم المجرمين •

واقدم حكي القرآن الكريم تفاصيل قصة ابراهيم عليه السلام مع الملائكة في أربع حلقات ، تختلف في نظمها وما تتضمنه من وقائع وأحداث ، بحيث تفصل هذه الحلقات القصة كاهنة ، مع استقلال كل حلقة منها في الافادة •

وقد وردت هذه الحلقات في أربع سور مكية هي حسب ترتيبها
الآزول كما يلي :

- الأولى : في سورة هود
- والثانية : في سورة الحجر
- والثالثة : في سورة الذاريات
- والرابعة : في سورة العنكبوت (١)

وجاءت هذه الحلقات في طولها على نفس الترتيب السابق تقريبا ،
فأطول هذه الحلقات هي التي وردت في سورة هود ، تليها التي وردت
في سورة الحجر ، وتتساوى معها التي جاءت في سورة الذاريات ،
ثم تأتي أقصر الحلقات في آخر السور المكية نزولا وهي سورة
العنكبوت •

وسنتناول في هذا الفصل تحليل الأنظم القرآني في هذه الحلقات
تحليلا بلاغيا يكشف عما فيه من أسرار البيان ، ثم نعرض للمقارنة
بين نظم الحلقات مجتمعة للوقوف على ما فيه من تشابه وتنوع ،
ونتهي الفصل ببيان تكامل هذه الحلقات واشتراكها في عرض القصة عرضا
مفصلا دون تكرار فيها •

(١) بنظر الاثنان : ٩/١ - ١١ •

الحلقة الأولى

مجىء الرسل بالبشرى

قَالَ اللهُ تَعَالَى :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ • فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف أنا أرسلناك الى قوم لوط • وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراءه اسحاق يعقوب • قالت يا ويلتنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب • قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد • فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • إن إبراهيم لحليم أواه منيب • يا إبراهيم عرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود • « (١) •

بين يدي الآيات :

هذه هي الحلقة الأولى من الحلقات التي تحكى مجىء رسل الله تعالى الى إبراهيم عليه السلام ، لتبشيره بالولد ، وما دار بينهم وبينه ، وتبين موقف امرأته من البشرى ، ورد الملائكة عليها • وقد وردت قصص الأنبياء في سورة هود مرتبة ترتيبا زمنيا حيث ذكرت قصة نوح مع قومه ، وتلتها قصة هود مع قومه عاد ، وتبعتها قصة صالح مع قومه ثمود ، ثم جاءت قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة •

وقصته بمثابة تمهيد لقصة لوط عليه السلام مع قومه ، نظرا لما بيئنا من صلة الدم والقربان ، فلوط ابن أخيه وآمن به ، وفحصته

(١) هود : ٦٩ - ٧٦ •

(١٨ - خصائص النظام)

مع قومه جرت عقيب حديث الملائكة مع ابراهيم عليه السلام من غير فاصل ، اذ بشروا ابراهيم بالولد ، وأخبروه بما أرسلهم انه به من عذاب قوم لوط ، وجادلهم ابراهيم في أمر هؤلاء القوم ، ثم خرجوا من عنده ، فازلوا على لوط وجرى بينهم وبينه ما جرى مما قصه القرآن الكريم .

البداية :

تبدأ هذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام بقوله تعالى : « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » وهي بداية مختلفة عن بداية قصتي هود وصالح الحكيمتين قبلها ، كما تختلف عن بداية قصة شعيب، الآتية بعدها ، ولعل السر في ذلك أنه لما كان المقصود في السورة للكرامة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسل اليهم ، ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ، ولم يكن جميع غرم ابراهيم عليه السلام ممن لحق بهم العذاب ، بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة ، تغير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى : « والى عاد آخاهم هودا ٠٠٠ (٢) » والى ثمود آخاهم صالحا ٠٠٠ » (٣) ، ثم رجع اليه بعد ذلك حيث قيل (٤) : « والى مدين آخاهم شعيبا » (٥) .

وفي تشابه هذه البداية مع بداية قصة نوح عليه السلام « ولقد أرسلنا نوحا ٠٠٠ » (٦) إشارة الى ما بينهما من مماثلة في كون كل منهما من أولى العزم من الرسل ، وجدان كل منهما في شأن الكافرين ، شفقة عليهم ورجاء لنجاتهم حيث تكلم نوح في شأن ابنه « غفل ربى

(٢) هود : ٥٠ .

(٣) هود : ٦١ .

(٥) أبو السعود : ٢٢٤/٤ .

(٦) هود : ٢٥ .

«ان ابني من أهلي» (٧) وتكلم ابراهيم في شأن قوم لوط كما في الآيات التي نحن بصدد تحليلها .

وذكر قصة ابراهيم عليه السلام مع عدم اشتغالها على أخبار المكذبين وعذابهم كما في القصص السابقة واللاحقة لأنها - كما ذكرنا - بمثابة تمهيد لقصة لوط عليه السلام وذكر جرائم قومه وما نزل بهم من عذاب شديد على نمط غير مسبوق وفي ذلك أعظم موعظة ومزدجر . كما أن في قصة ابراهيم عليه السلام ردا على المشركين الذين تحدوا الرسول ﷺ ، بما حكى عنهم في أول السورة من قولهم «اولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك» (٧) وذلك لما فيها من ذكر مجيء الملائكة الى ابراهيم عليه السلام ، ومحاورتهم معه ، وكان الآية تقول للمشركين ان طلبكم مجيء ملك مع الرسول ﷺ ليس عزيزا على الله تعالى ، فقد جاءت الملائكة كثيرا الى الرسل ، ولكن فزعولهم مرهب ، وأمرهم عند الكاشفة مرعب (٨) .

ودخلت «قد» هنا لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع ، فجاءت تؤذن بأن السامع في حال توقع لذلك ، ودخلت عليها اللام لتأكيد الخبر (٩) ، لاشتغاله على أمر عجيب هو مجيء الرسل الى ابراهيم وتجاوزهم معه .

والمقصود بالرسول الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى الى ابراهيم عليه السلام ، وفي أضافتهم الى نون العظمة تشريف لهم ودلالة على عظم مكانتهم المستمدة من كونهم رسل الله تعالى .

(٧) هود : ٤٥ .

(٨) هود : ١٢ .

(٨) نظم الدرر : ٣٢٨/٩ .

(٩) الرازي : ٧٢/٥ .

واسناد مطلق المجيء بالبشرى اليهم دون الارسال ، لأنهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام ، بل الى قوم لوط لقوله تعالى : « انّا أرسلنا الى قوم لوط » وانما جاءوه لداعية البشرى (١٠) .
 والباء في قوله « بالبشرى » للملابسة ، أى متلبسين بالبشرى ، واطلاق البشرى يؤهلها لانتظام كل ما ذكره العلماء من البشرى بانولده ، والبشرى بعدم لحوق الضرر به ، وغير ذلك .
 قال الزمخشري والظاهر أنها البشرى بالولد ، وقال في الكشاف ، انه الظاهر من اطلاقها ، ولقوله تعالى (١١) : « وبشروه بغلام عليم » (١٢) .
تحية وحوار :

وبعد هذه البداية التى أثبتت مجيء الرسل الى ابراهيم عليه السلام تذكر الآيات ما دار بينهم وبينه ، وأول ذلك التقاؤهم التحية عليه ، ورده على هذه التحية « قالوا سلاما قال سلام » . حيوه بالسلام الذى هو تحية الاسلام ورد عليهم بمثل ذلك ، وانما بادروه بالفاء التحية كما هي عادة الضيوف ليطمئنوه بأنهم لا يقصدون به سرا ، وان اختلفوا في مظهرهم عن أهل بلاده ، فهم ضيوف مستنون .
 والفصل بين « قالوا ... » وما قبلها للاستئناف ، فان جملة « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » يخبرها الغريب المخالف للعادة تغير سؤاله في النفس فحواه : فماذا قالوا له ؟ نجاء الجواب : « قالوا سلاما » ، وكذلك سر الفصل بين جملة « قال سلام » وما قبلها . وهذا ما قرره البلاغيون في سر الفصل بين جمل المحاورات التى وردت في الترتيب مبدوءة بقال وقالوا ونحو ذلك (١٣) .

(١٠) أبو السعود : ٢٢٤/٤ . (١١) الذاريات : ٢٨ .

(١٢) ينظر الكشاف : ٢٨٠/٢ وحاشية الشهاب : ١٣/٥ .

(١٣) ينظر دلائل الاعجاز : ٢٤٠ .

و « سلاما » منصوب بفعل محذوف ، والجمة مقول القول أى :
سلمنا أو تسلم عليك سلاما ، أو منصوب بنفس القول أى قالوا قولاً
ذا سلام .

و « سلام » بالرفع مبتدأ خبره محذوف أى عليكم سلام ، أو
سلام عليكم ، وسوغ الابتداء به أن تتكبره لافادة الكمال والتمام ، أى
سلام كامل تام عليكم ، وأكثر ما يستعمل سلام عليكم بغير ألف
ولام ، وذلك لأنه فى معنى الدعاء كقولهم : خير بين يديك (١٤) .

قالوا حياهم ابراهيم عليه السلام بأحسن من تحيتهم ، لأن
تحيتهم وردت جملة فعلية تفيد التجدد ، وتحيته وردت جملة اسمية
تفيد الدوام والثبوت ، فهى أبلغ من تحيتهم (١٥) . وفى هذا ارشاد
للقدامين بالقاء التحية والسلام ، وتعليم للمستقبلين برد التحية بأحسن
منها كما قال جل شأنه : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو
ردوها » (١٦) .

وبعد أن رد ابراهيم التحية أسرع الى أهله وعجن بأعداد الطعام
لضيوفه بناء على ما جبل عليه من كرم ومعرفة بواجبات الضيافة
« فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » . أى فما أبطأ ابراهيم عليه السلام فى
الحىء بعجل مشوى على الحجارة المحماة يقطر دسمة (١٧) . وفى
الجملة ايجاز بطنى ذهبه الى أهله واعداد الطعام . وأصل حنيذ :
منضج على الحجارة ، قال ابن فارس : الحاء والنون والذال أصل واحد

(١٤) الرازى : ٧٣/٥ .

(١٥) حاشية الشهاب : ١١٣/٥ وينظر المطول : ٢٥٩ .

(١٦) النساء : ٨٦ .

(١٧) الكشاف : ٢/٢٨٠ ، والبيضاوى : ٣١٣ .

وهو انضاج الشيء ، يقال شواء حنيذ أى منضج ، وذلك أن تحمى
الحجارة وتوضع عليه حتى ينضج (١٨) •

وفى دخول الفاء على « ما » إشارة الى اسرعه وتعجيله بالذهاب
الى أهله واعداد الطعام • وفى مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب
الظاهر يكفيهم بعضه دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر
مما يأكل (١٩) •

وقرب ابراهيم الطعام لضيوفه ، فلم يمدوا أيديهم اليه ،
« فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » ورأى
ان كانت بصرية فجملة « لا تصل » حال ، وان كادت علمية فمفعول
• ثان •

ومعنى « لا تصل اليه » لا تمتد الى العجل للتناول منه كما
يمد الأكل يده الى الطعام (٢٠) فالجملة كناية عن أنهم لا يمدون اليه
أيديهم ، ويلزم منه أنهم لا يأكلون •

و « نكرهم » أى اشتدت نكارته لهم ، وانفعل لذلك ، ونكر أبلغ
من أنكر كما ذكر بعض العلماء وقيل نكر فيما يرى وأنكر فيما لا يرى
من المعانى (٢١) والانتكار ضد العرفان ، يقال أنكرت كذا ونكرت ،
وأصله أن يرد على القلب مالا يتصوره ، وانما أنكروهم لأنهم كانوا اذا
نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظفوا أنه لم يجنى ، بخير (٢٢) •

(١٨) مقاييس اللغة : مادة « حنن » •

(١٩) الالوسى : ٨٤/١٢/٦ •

(٢٠) المنار : ١٠٦/١٢ •

(٢١) نظم الدرر : ٣٣٠/٩ ، والبحر المحيط : ٢٤٢/٥ •

(٢٢) المفردات : ٥٠٥ ، وأبو السعود : ٢٢٤/٤ •

و « أوجس منهم خيفة » أى أدرك أو أضمر ، أو أحس من جهتهم خوفاً ، والوجس الصوت الخفى ، والايحاس وجود ذلك فى النفس ، والوجس حالة تحصل من النفس بعد الهاجس ، لأن الهاجس مبدأ التفكير ، ثم يكون الواجهس خاطر (٢٣) .

والخيفة الخوف ، وأصلها الحالة التى عليها الانسان من الخوف واختيار هذه الصيغة لما فيها من المبالغة أى خيفة عظيمة . وتأخيرها عن الجار والمجرور « منهم » لأن المراد الاخبار بأنه غيبه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم لا من جهة غيرهم ، كما أن فى تأخيرها تشويقاً إليها ، لأن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس إليه فينتهز عذره وروده عليها فضل تمكن (٢٤) .

ولما رأى الرسل ما ظهر على ابراهيم عليه السلام من الخوف « قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط » فطمأنوه ونفوا عنه الخوف ، وعللوا ذلك بأنهم مرسلون الى قوم لوط لانزال العذاب بهم ، فجملته « انا أرسلنا . . . » استئناف فى معنى التعليل لانهى عن الخوف . وذهب أبو السعود الى أنها ليست كذلك إنما قالوها جواباً عن سؤال صريح ورد فى سورة الذاريات « قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » (٢٥) ، ولم يصرح به هنا اكتفاء بما هناك (٢٦) .

وتعقب بأن ذلك لا يقترح فى كونها استئنافاً تعينياً ، لجوار أن يكونوا قالوا ذلك على معنى التعليل لانهى عن الخوف ، ولم يذكرها

(٢٣) المفردات : ٥١٢ .

(٢٤) أبو السعود : ٢٢٥/٤ .

(٢٥) الذاريات : ٣١ ، ٣٢ .

(٢٦) أبو السعود : ٢٢٥/٤ .

العذاب الذي أرسلوا به ، ولا نوعه ، فسألهم بعد ذلك عن الأمر العظيم الذي أرسلوا من أجله كما ورد في الذاريات (٢٧) •

حوار مع امرأته :

وتنتقد الآيات للحديث عن امرأته سارة وما كان من امرها في ذلك « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » ، وجملة « وامرأته قائمة » في موضع الحال من ضمير « قالوا » واختلف في قيامها فقيل كانت قائمة على خدمتهم ، وقيل قائمة وراء الستر للمعاونة في خدمتهم عندما يطلب منها ، وقيل غير ذلك (٢٨) •

والمقصود بالضحك هنا حقيقته المعروفة ، وقيل المراد به التبسم وطلاقة الوجه فيكون مجازا (٢٩) ، واختلف في سبب ضحكها فقيل ضحكت سرورا بزهر الخيفة ، أو بهلاك أهل الخيانت ، وقيل لبشرى زوجها بالولاد ، حيث تقدمت البشرى قبل مجيء امرأته (٣٠) ولعل في ضحكها نونا من ألوان التعجب من هذا الخبر العجيب •

وكان ضحكها مناسبة لتبشيرها هي أيضا بالولد ، لترداد سرورا على سرورها ، حيث وقع عقوبة ، كما تشير انفاء في ذيله « فبشرناها باسحاق » والتبشير كان من الرسل ، وانما أسند الى الله عز وجل لأنه الأمر بذلك ، وما عليهم الا التبليغ • وفي هذا تلويح للأسلوب من خلال اسناد الأفعال تارة الى الله تعالى وتارة الى ملائكته •

(٢٧) ينظر الالوسي : ٩٦/١٢/٦

(٢٨) الكشف : ٢٨١/٢ ، والبحر المحيط : ٢٤٢/٥

(٢٩) حاشية الشهاب : ٦١٤/٥

(٣٠) ينظر الكشف : ٢٨١/٢ ، ونظم الدرر : ٢٣٦/٩

و « يعقوب » بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله « فبشرناها » أى ووهبنا لها من وراء اسحاق يعقوب ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ ومن وراء خبره ، أى من بعد اسحاق يعقوب كائن ، أو مولود ، أو موجود ، وكلا الاسمين داخل في البشارة : أى فبشرناها باسحاق متصلاً به يعقوب (٣١) و فى تبشيرها بـيعقوب من بعد اسحاق إشارة الى أن اسحاق سيعيش ويكون له عقب وذرية •

وتوجيه البشارة اليها مع أن الأصل فى ذلك ابراهيم عليه السلام وقد وجهت اليه فى مواضع أخرى ، للايدان بأن ما بشر به يكون منهما ، ولكونها عجوزاً عقيماً حريصة على الولد ، فتبشيرها بصاعف سرورها ، ولأن المرأة أعجل فرحاً بالولد •

وتمضى الآيات تبين موقفها من هذه البشارة العظيمة « قالت ياويلتا أألد وأذا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب » لقد أخرجتها الفرحة الغامرة بهذه البشرى العظيمة عن طبيعتها ، وعى وان كانت تتمنى الولد الا أنها تعلم أن العادة لم تجر بأن تلد امرأة فى مثل سنها ، ومن ثم كان منها هذا العجب الشديد ازاء ما بشرت به من الولد وقد صورت الآية نعجبها الشديد عن طريق ثلاثة أساليب :

الندبة ، والاستفهام ، والخبر •

فالندبة فى « يا وينتا » وأصلها ياويلتى بالياء ، فابدلت ألفاً لأنها أذف من الياء والكسرة ، وأصل الويل الخزي ، ثم شاع فى كل أمر فظيع ، والمعنى : ياويلتى احضرى فهذا أو ان حضورك ، وهذه الكلمة خف استعمالها على أفواه النساء اذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، والمراد بها هنا التعجب لا معنى الويل ، لأنه لا يناسب المقام ، كما يدل عليه الاستفهام وقولها « ان هذا لشيء عجيب » (٣٢) •

(٣١) ينظر أبو السعود : ٢٢٥/٤ ، والالوسى : ٩٩/١٢/٦ •

(٣٢) ينظر القرطبي : ٣٢٩٧/٥ ، وحاشية الشهاب : ١٦١/٥ •

واصل النداء أن يكون لمن يعقل ، وقد ينادى ماذا يعقل على سبيل
المجاز ، وفي ندائه تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه ان كان
ثم سامع (٣٣) •

والاستفهام في « أألد وأنت عجوز وهذا بعلى نسيخا » وهو
استفهام يحمل معنى التعجب والاستبعاد المعتقد ، وقد تفرر هذا وعكس
بالجملتين الواقعتين حالا من الضمير في « أألد » وهما « وأنا عجوز
وهذا بعلى نسيخا » والجملة الأولى منهما تبين حالها المنافية للولادة
الموجبة للتعجب ، وهي كونها عجوزا عقيما كما صرح بذلك في الذاريات .
والجملة الثانية تبين حال زوجها التي يقل معها احتمال الانجاب وان
كانت لا تنافية ، وهي أيضا من موجبات التعجب ، وفي اسم الإشارة
تميز له أكمل تمييز بالإشارة الحسية ، ووصف لحاله من الشيخوخة
وصفا مرثيا مشاهدا ، وهذا أبلغ في وصفه مما لو قيل وبعلى شيخ .

وانما قدمت بيان حالها علي بيان حاله عليه السلام ، لأن مباينة
حالتها لما ذكر من الولادة أكثر ، اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب ،
أما المعجزة فلا ، ولأن البشارة متوجبة اليها صريحا ، ولأن العكس في
البيان ربما يرههم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة الى جانب
ابراهيم عليه السلام وفيه مالا يخفى من المحذور (٣٤) •

وأما الخبر فهو « ان هذا لشيء عجيب » وهو خبر مؤكد بان واللام
لتقوية مضمونه ، واسم الإشارة يعود الى ما ذكر من حصول الولد من
عجوز عقيم وشيخ كبير • والتعبير به أبلغ مما لو قيل « انه » بالضمير
لما في اسم الإشارة من وصف كامل محسوس ، وتميز مبنى على

(٣٣) دراسات لاسلوب القرآن الكريم : ٦٣٤/٣/١

وينظر الكتاب لسبويه : ٢٢٠/١ ، والبحر المحيط : ٤٦٦/٣

(٣٤) أبو السعود : ٢٢٦/٤

المشاهدة ، كما أن فيه استعظاما للإشارة إليه وتفخيمه لسانه مما يزيد العجب ، وهذا الخبر مع كونه مثبتا للتعجب مما ذكر ، فهو أيضا تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي للتعجب والاستبعاد المستفاد من طريق الاستفهام ، وتأكيده له •

وتعجبها واستبعادها لحصول الولد مع الأسباب المنافية لذلك ليس بالنسبة الى قدرة الله تعالى فهي تعلم أنه على كل شيء قدير ولكنه بالنسبة الى ما جرت عليه العادة وتواتر بين الناس •

وعجبها الشديد وتعبيرها عنه بصور مختلفة يثير سؤالاً في النفس عن موقف الملائكة منها ، وجوابهم على تعجبها ، وقد جاء جوابهم مفعولاً للاستئناف البياني « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » •

ورد الملائكة يتكون من ثلاثة أساليب : استفهام وخبرين :
فلا استفهام « أتعجبين من أمر الله » وهو استفهام انكاري تعجبي ، فيه تعجب وانكار لتعجبها ، أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله تعالى الذي لا يعجزه شيء ، لأنك معتادة على رؤية الخوارق والمعجزات في بيت النبوة ، والعجب إنما يكون ممن حفى عليه مثل ذلك (٣٥) •

وفي الجملة ايجاز بطي موطن تعجبها الحقيقي ، أي أتعجبين من حصول الولد مع الملابسات المنافية لذلك ، وهو أمر الله تعالى ، وفي طي ذلك وإيقاع التعجب على « من أمر الله » زيادة انكار لتعجبها ولوم لها ، ورد عليها بأن هذا الشيء المنافي للعادة من أمر الله تعالى ولسانه وقدرته وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ، فلا ينبغي التعجب من ذلك •

والخبر الأول « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » ، وهو خبر مستأنف علل به انكار تعجبها : كأنه قيل : ليس المقام مقام استعجب ، فإن الله تعالى على كل شيء قدير ، ولستم يا أهل بيت النبوة والخزامة والزلفى كسائر الطوائف ، بل رحمته المستبعدة لكل خير ، الواسعة لكل شيء وبخيرانه المتكاثرة الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (٣٦) •

وقيل الجملة دعائية ، والأزل ما عليه جمهور المفسرين (٣٧) • وفي « رحمة الله » وضع للمظهر ووضع المضمرة ، لاطهار شرف الرحمة وعظمتها باضافتها الى اسم الجلالة ، وفي ذلك تشريف لأهل البيت ؛ الذين عمتهم هذه الرحمة العظيمة •

و « أهل البيت » نصب على المدح أو اختصاص أو النداء ، وفي حذف حرف النداء اشعر بخصوصيتهم وفضلهم وقربهم من الله عز وجل فمهم أهل بيت النبوة • وقد جاء الخطاب في الاستثناء موجهاً اليها وحدها لأنها كانت المتعجبة ، ثم انتقل الكلام في هذه الجملة الى خطاب الجميع اشعاراً بعموم الحكم على أهل البيت ، وفيه مع ذلك تلوين للأسلوب وتزيين له ، ووجه الخطاب الى جمع المذكر تالياً كما هو متبع في الأساليب •

والخبر الثاني « انه حميد مجيد » وهو تذييل يعلل الخبر الأول المتضمن افاضة الله عليهم رحمته وبركاته ، وقد أكد بان نسق ما يشعر به ، ويهيئ النفس لاستقباله ، وهذا سبيل مسلوک في الأساليب البليغة ، والتأكيد مفيد لاستقلال التذييل التعليلي ، وهو في نفس الأمر رابط له بما قبله ربطاً معنوياً دقيقاً •

(٣٦) أبو السعود : ٢٢٦/٤ •

(٣٧) الألوسی : ١٠٢/١٢/٦ •

و « حميد » أى فاعل ما يستوجب به الحمد ، و « مجيد » واسع الخير والكرم والاحسن (٣٨) ويبين اللفظين جناس أوجد في الجملة جرسا مؤثرا ، وأسبغ على المعنى قوة ، وفي المجيء بكل منهما على صيغته المذكورة تقوية للمعنى ، وابرار له في أبلغ صورة .

جدال ابراهيم عن قوم لوط :

ويرد الملائكة على امرأة ابراهيم عليه السلام ينحى الموقف لدى ابراهيم وأهل بيته ، ويذهب عنهم الخوف ، ويبدأ موقف جديد . هو جدان ابراهيم في شأن هلاك قوم لوط ورد الملائكة عليه « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط » .

ونفقاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه السلام ببعض غيب افسالها بما ليس بأجنبي من كل وجه ، بل له مدخل تام في انسيان والسياق (٣٩) وهو الحوار مع امرأته بشأن الولاد . و « لك » حرف وجود لوجود ، تقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما (٤٠) .

و « الروع » الخوف والفرع ، يقال : روعت فلانا ورعته : أفزعته وأخفته (٤١) . والمعنى : ذهب ما أوجس منهم من الخيفة ، واطمأن قلبه بعرفانهم ، وعرفان سبب مجيئهم . و « الروع » فاعل « ذهب » وتأخيره عن الجار والمجرور لأنه مصب الفائدة ، وتأخيره مع أن حقه التقديم يشوق النفس الى وروده ويجعلها تنتظر مجيئه ، فإذا ورد عليها تهكن فيها فضل تمكن (٤٢) .

(٣٨) البيضاوى : ٣١٣ .

(٣٩) أبو السعود : ٢٢٦/٤ .

(٤٠) معنى اللبيب : ٢٨٠/١ .

(٤١) مقاييس اللغة مادة : روع .

(٤٢) أبو السعود : ٢٢٦/٤ .

« وجاءته البشرى » بدل الروع حيث تبدل خوفه بالسرور
 والبشارة (٤٣) • « ذهب عن ابراهيم الروع رجاءته البشرى »
 مقابلة بديعة توضح المعنى وتبرزه ، وتضفى على الأسلوب روعة وبهاء ،
 نقد ذهب الخوف وحل محله السرور والأمن والبشرى ، وفي تقديم
 ذهب الروع على مجيء البشرى مراعاة للترتيب الطبيعي ، ولأن
 التدخلية مقدمة على التحلية •

وفي الجملتين استعارة مكنية مبنية على تشبيه كل من الروع
 والبشرى يعاقل يذهب ويحذف المشبه به وإثبات لازم من
 لوازمه للمشبه • وفي ذلك تصوير للروح والبشرى بصورة محسوسة •
 وجواب « لما » قوله « يجادلنا في قوم لوط » والأصل ، جادلنا
 لأن جواب « لما » يكون فعلا ماضيا ، وإنما قيل « يجادلنا » بصيغة
 المضارع لتصوير حالة الجدل كأنها حاضرة ، وللإشارة الى تكرر
 المجادلة أى جادلنا فيهم جدالا كثيرا (٤٤) •

وقيل جواب لما محذوف وقوله « يجادلنا » كلام مستأنف دال
 على الجواب ، والتقدير : قال كيت وكيت أو فطن لجادلتنا (٤٥) •••
 والرأى الأول أظهر لأنه لا يحتاج الى تقدير •

وجدا له كان لرسول الله ، وإنما قيل « يجادلنا » على تنزيل مجادلة
 الرسل منزلة مجادلة الله عز وجل ، لأنهم رسله المرسلون بأمره وحكمه
 ففى الكلام مجز في الاسناد (٤٦) • وفيه ايجاز بالحذف والأصل « فى
 شأن قوم لوط » فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، للإشارة
 الى مدى اهتمامه بهم وشفقته عليهم حيث جادل الرسل فيهم •

(٤٣) حاشية الشهاب : ١١٧/٥ •

(٤٤) ينظر المنار : ١٠٨/١٢ ونظم الدرر : ٣٣٣/٩ •

(٤٥) دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ٦٢٦/٢/١ •

(٤٦) حاشية الشهاب : ١١٧/٥ •

ومجادنته اياهم ذكرها القرآن الكريم في سورة العنكبوت في قوله تعالى : « قال ان فيها لوطا قتلوا نحن أعلم بمن فيها » (٤٧) • وقد أفاضت كتب التفسير في الحديث عن هذا الجدل وتفصيل جوانبه نقلًا عن التوراة (٤٨) ، والأولى الاقتصار على ما ورد في كتاب الله الكريم، ومنه نفهم أن المسألة لم تكن جدالا كبيرا كما تصوره كتب العهد القديم وإنما كان سؤالاً منه عن مصير المؤمنين من قوم لوط قتلنا وخوفا عليهم وهذا هو المناسب لجلال النبوة وتسليمها لأمر الله تعالى دون مناقشة •

وبين الآيات باعثة على الجدل في شأن قوم لوط « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » والجملة خبر مستأنف يعطل جداله في شأن هؤلاء القوم ، ويبين أن الذي حمله على ذلك ما فطر عليه من رقة القلب والرأفة والرحمة • و « حليم » غير عجزل على الانتقام من المسيء اليه ، و « أواه » كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ، و « منيب » تائب راجع الى الله بما يجب ويردى (٤٩) •

وتأكيد الخبر بان واللام لتقوية مضمونه ، وربطه مع ما قبله ربطا معنويا عن طريق أداة التأكيد « ان » • والفصل بين الصفات لأنها صفات لموصوف واحد وردت على نمط التعداد دون نظر الى ما بينها من اختلاف •

الذاتمة :

ونأتى خاتمة هذه الحلقة ردا حاسما على ابراهيم عليه السلام في جداله عن قوم لوط « يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر

(٤٧) العنكبوت : ٣٢ •

(٤٨) ينظر الألوسى : ١٠٣/١٢/٦ ، ونظم الدرر : ٢٤٤/٩ - ٣٢٧

وقصص الأنبياء : ٩٥ • النجار •

(٤٩) الكشف : ٢٨٢/٢ ، والبيضاوى : ٣١٣ •

ريك وانهم آتيهم عذاب غير مردود » • وهذا بيان مستأنف يوضح ما أجابته به الرسل عن الله تعالى ، وهو مرتبط بما قبله لأنه على تقدير القول أى قال الرسل يا ابراهيم أعرض •••

والبدء لشدة انتباهه وإيقاظه لتلقى الأمر الوارد عقبيه بالاعراض عن الجدال في شأن هؤلاء القوم : لأن الله قد حكم عليهم بالهلاك حكماً محتوماً لا رجعة فيه • وفي استعمال أداة البعيد « يا » مع قرب ابراهيم عليه السلام منهم اشعار بتعظيم شأنه ، واعلاء منزلته •

والاعراض عن الشيء : التصد والانصراف عنه (٥٠) • وفي استعمال صيغة الأمر « أعرض » حسم للجدال بالتشديد في الانصراف عنه • واسم الاشارة « هذا » يعود على الجدال ، وفي ايجاز تمييز المشار اليه أكمل تمييز ، مع الاغضاء عن ذكره وعدم الاهتمام بشأنه لأنه لا فائدة منه •

وهذا الأمر بشدته مثير لسؤال في النفس جوابه « انه قد جاء أمر ريك ••• » وقد جاء الجواب مفصلاً للاستئناف البياني • وهذا الجواب تعليق للأمر بالاعراض ، وقد جاء مؤكداً بان وقد لوروده عقيب السؤال المقدر ، والأمر المثير إلى الخير ، ومثل هذا يؤكد في الأساليب البليغة •

وانقصود بـ « أمر ريك » قضاؤه وحكمه ، وفي التعبير عنه بالأمر اشارة إلى أنه واجب النفاذ وبلا راد له ، وما في لفظ « ريك » من معنى اقربية والرعاية يشير إلى أن أمره بالاعراض لا ينافي رده به ورعايته له ، وفي اضافة ذميره إلى الرب تشریف له ، واشارته إلى ما يعرفه من صفات ربه الرحيم بعباده •

« وانهم آتيتهم عذاب غير مردود » معضوف على سابقه والوصف المتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجملةان في الخبرية مع التناسيع وقد أكدت الجملة لتقوية مضمونها واثبات أنه أمر محتوم .

وفي تنكير « عذاب » اشارة الى فخامته وشدته وكونه عذابا من نوع خاص لم يعهدوه . وفي وصفه بـ « غير مردود » بيان لحنميته ونفاذه لا محالة ، وأنه لا يرد بجداى ولا بدعاء ولا بغيرهما .

وبهذا الرد الحاسم الذى يغلغ باب المناقشة ، وينهى أسباب الحوار ، نختم حلقة هود ، وهو ختام حاسم وقاطع ، لا يترك شبهة وراءه .

الحلقة الثانية

نبأ ضيف ابراهيم

قال الله تعالى :

« ونبئهم عن ضيف ابراهيم • اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون • قالوا لا تجل انا نبشرك بغلام عليم • قال ابشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون • قالوا بشرتك بالحق فلا تكن من القانطين • قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون • قال فما خطبكم أيها المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • الا آل لوط انا لنجوهم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » (١) .

بين يدي الآيات :

هذه هي الحلقة الثانية من الحلقات التي تنقص نبأ ابراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أرسلهم الله اليه لتبشيره بالولد ، واخباره بانزال العذاب على قوم لوط •

وسورة الحجر تبدأ بوصف الكتاب الكريم ، وتقدير أسر النبوة ، وتتفق الى ذكر دلائل قدرة الله تعالى في الكون من خلق السموات والأرض ، وما فيهما من آيات ، وخلق آدم وتفصيل ما جرى بشأنه ثم تذكر أحوال القيامة ، ومصير الأشقياء والسعداء ، وتتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء لتعريف العرب بأحوال من يعرفونه ممن عصى وكذب المرسل وما حل بهم من عذاب ، ليكون سماعها مرغبا في الطاعة المنجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذرا عن المعصية التي تهبط بأصحابها الى دركات الأشقياء (٢) •

(١) الحجر : ٥١ - ٦ •

(٢) ينظر الرازي : ٢٧٥/٥ •

وتبدأ هذه القصص بقصة ابراهيم عليه السلام ، لأنه انجد
 الأعلى للعرب وهم يفتخرون بالانتساب اليه وذكر قصته تجعلهم يعتبرون
 بما فيها من هواعظ ، لأنها قصة جدهم ، كما أن فيها تبشيرا لابراهيم ،
 وتعذيبا لثقوم لوط ، فهي بمثابة دليلين على الحكم السابق لها في قوله
 تعالى : « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب
 الأليم » (٣) •

كما أنها تدور حول حوار الملائكة مع ابراهيم عليه السلام بعد
 مجيئهم اليه ، وهذا مناسب لطب العرب من رسول الله ﷺ في أول
 السورة أن يأتيهم بالملائكة « وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك
 لمجتون • لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (٤) وكان القصة
 تقول لهم ان الاتيان بالملائكة ليس مطلباً صعباً على الله تعالى فقد أتت
 الملائكة التى رسل الله تعالى ومنهم ابراهيم جدكم الأعلى •

وهذه الحلقة تتسم بالايجاز وسرعة الايقاع اتساقاً مع سورة
 الحجر المبنية في عمومها على ذلك ، كما سنبينه في موضعه •
البداية :

بداية هذه الحلقة معطوفة على ما تقدمها من قوله تعالى : « نبيء
 عبادى أنى أنا الغفور الرحيم • وأن عذابى هو العذاب الأليم » • وهى
 مع كونها معطوفة على ما تقدمها الا أنها بداية فيها تتسويق وتبنيه
 لما يأتى بعدها ، حيث لم يجر ذكر إرسال الرسل وحوارهم مع ابراهيم
 عليه السلام مباشرة ، بل مهد لذلك بما يبعث الشوق فى النفس لمعرفة
 وهو قوله تعالى : « ونبئهم عن ضيف ابراهيم » فان النفس عندما تتأمل
 هذا الأمر تشتاق الى معرفة هذا النبأ وتفاصيل ما جرى فيه •

• (٣) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ •

• (٤) الحجر : ٦ ، ٧ •

والنبا : الخبر : و « نبئهم » أي خبرهم اخبارا عظيما (٥) ، وهذا الفعل يدل بمادته على وجود خبر هام ينبغي أن يقصر ويستمع له ، فهو مشوق لما يأتي بعده ، ويدل بصيغته المشددة على عظمة الخبر وأهميته • والضيف : في الأصل مصدر ضاف يضيف ، إذا أتى انسانا لطاب اقربى ، ثم سمي به ، ولذلك وحده في اللفظ وهم جماعة والتعبير عنهم بافظ الواحد اشارة الى اتحاد كلمتهم (٦) وسموا ضيفا : لأن من يدخل دار الانسان ويلتجئ اليه يسمى ضيفا (٧) ، ولأنهم كانوا على صررة الضيف ، وأضيفوا إلى ابراهيم عليه السلام وان لم يكونوا أضيافا لأنهم أتوا انبياه ، ولأنهم كانوا في صررة من كان ينزل به من الأضياف إذ كان لا ينزل به أحد الاضافه، وكان يكثر أبا الضيفان (٨) ولم يذكروا بعنوان الرسالة ، لأنهم لم يكونوا مرسلين الى ابراهيم عليه السلام بل الى قوم لوط (٩) •

تحية وحوار :

وبعد هذه البداية المشوقة يبدأ سرد الحوار الذي دار بين الملائكة و ابراهيم عليه السلام « اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما » واذ ظرف نصب على المفعولية بفعل محذوف معطوف على « نبئ » أي واذكر وقت دخولهم عليه ، أو ظرف « لضيف » بناء على أنه مصدر في الأصل (١٠) •

-
- (٥) نظم الدرر : ٦٥/١١
 - (٦) نظم الدرر : ٤٦١/١٨
 - (٧) الرازي : ٢٧٩/٥
 - (٨) البحر المحيط : ٤٥٨/٥
 - (٩) أبو السعود : ٨١/٥
 - (١٠) الألوسى : ٦٠/١٤/٧

وفي قوله « دخلوا عليه » اشعار بأنهم جاءوه بلا مقدمات ، ودخلوا عليه دخولا مفاجئاً غير متوقع كما أنه دخول مشوب بالاستعلاء لا كالدخول المعهود للضيوف ، على حد ما يتشير اليه قوله « عليه » ؛ وهذا مما زاد في خوفه بجانب كونه لا يعرفهم . والفاء تدل على أن انقاء انسلام عليه كن عقيب الدخول مباشرة بلا تأمل بينهما . و « سلاما » منصوب بفعل مقدر أى : نسلم سلاما ، أو سلمنا سلاما . ولم يذكر رده عليهم ولا بقية القصة ، لأن المقصود هنا الترغيب والترهيب فاقترن من القصة على ما يؤدي ذلك ، حيث فصلت القصة في موضع آخر (١١) . ولا يقدر ذلك فيما ذكر في هود والداريات ، فان « اد » ظرف زمان بمعنى حين ، والحين قد يكون واسعا ، فيذكر ما فيه ، نارة جميعه على ترتبيه ، وأخرى على غير ذلك وتارة بعضه مع اسقاط البعض ، مع صدق جميع وجوه الاخبار ، لكونه كان مشتملا على الجميع ، وتكون هذه التصرفات على هذه الوجوه لمعان يستخرجها من أراد الله (١٢) .

وجملة « قال انا منكم وجلون » مفصولة عما قبلها للاستئناف البياني ، غنى جواب عن سؤال مقدر تشيره الجملة التي قبلها ؛ وهذه طريقة سلكها القرآن في عرض المحاورات ، وفي التأكيد بأن تقوية لمضمون الجملة وتحقيق له . وتقديم الجار والمجرور على الخبر لافادة أن الرجل منهم لا من شيء آخر ، وفيه أيضا تشويق للخبر . والرجل : استشعار الخوف ، أو اضطراب النفس لتوقع مكروه ، و « وجلون » أى خائفون ، وكان خوفه لعدم معرفته بهم ، وامتاعهم عن الأكل ، ودخولهم عليه بلا مقدمات (١٣) . وفي الأتيان بوجلون على صيغة

(١١) ينظر حاشية الشهاب : ٢٩٨/٥ .

(١٢) نظم الدرر : ٦٦/١١ .

(١٣) المفردات : ٥١٣ ، والكشاف : ٣٩٢/٢ ، وأبو السعد : ٨١/٥ .

المبالغة « فعل » بكسر العين أشعار بشدة الخوف • وفي مجيء الجنة اسمية اثبات للخوف وتحقيق لوجوده •

ويجيئه الرسل مطمئنين قلبه ، ومبشرين له بالولد « قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم » • والفصل بين « قالوا » وما قبله للاستئناف البياني ، وقد نهوه عن الوجل ردا على خبره ، وفي النهي مزيد طمأنة له ، حيث جعل قادرا على الانتهاء عنه ، وإطلاق الوجل دون تقييده بالجوار والمجور « هنا » كما ورد في خبره التعميم في نفى الوجل عنه ، سواء أكان منهم أم من غيرهم •

ولما كان نهيه عن الوجل يثير سؤالا عن سبب ذلك ، علاوا هذا النهي بقولهم « انا نبشرك بغلام عليم » فان البشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن ، كيف لا وهي بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمنا طويلا (١٤) •

وتأكيد الخبر بان تحقيقه وتقويته ، لما يتضمنه من أمر سيكون مثار عجب لديه عند سماعه ، ولتلاءم خبرهم المؤكد مع خبره المؤكد « انا منكم وكنون » • وإيثار البشارة على غيرها من الألفاظ لما في هذا اللفظ السار من المسارعة بطمأنته ، والتعجيل بادخال السرور على نفسه ، وفي مخاطبته بالبشرى مزيد مسرة له ، ولأن الحوار كان معه •

وقد بشروه بشيئين : أنه سيكون ذكرا ، وأنه سيصير عليما (١٥) . وهذه أعظم بشرى يتلقاها الإنسان بعد حرمانه من نعمة التولد حتى صار شيخا هرما •

(١٤) الألوسى : ٦١/١٤/٧ •

(١٥) أبو السعود : ٨١/٥ •

والغلام : هو الذي طرئ شاربته ، أى طاع وظهر (١٦) . وفى إطلاق لفظ الغلام على الطفل الذى سيولد له مجاز مرسل علقته اعتبار ما سيكون . وفى ذلك إشارة الى أنه سيكبر ويبلغ مبلغ العلمان . كما أن فيه إشارة الى أن هذا المولود سيكون طفلاً مكتملاً قويا ، وليس كأولاد الشيوخ ضعيفا (١٧) وفى لفظ « عليم » إشارة الى أنه سيكون رجلاً عظيم القدر ذا علم كثير عزيز . وتذكير « غلام » للمتظيم ، أى غلام عظيم الشأن ، ووصفه بـ « عليم » زيادة تعظيم له وبذلك عظم بالتذكير وبالوصف .

ويتصل الحوار فيرد ابراهيم عليه السلام على بشارة الملائكة « فإن أبشرتهونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون » ورده يشتم على استفهامين :

الأول : « أبشرتهونى على أن مسنى الكبر » والاستفهام للتعجب و « على » بمعنى مع وإيثار على لادلالة على شدة اقتران البشارة بمس الكبر اياه (*) ، وتمكن مس الكبر منه . والجار وانجوز الى هو وضع الحال ، فيكون عليه السلام قد تعجب من بشارتهم اياه مع هذه الحال المتناقضة لذلك ، أى أن الولادة أمر عجيب فى العادة مع الكبر ، ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار ، والمعنى : لا ينبغي أن تكون البشارة مع الحال المذكورة (١٨) .

والثانى : « فبم تبشرون » و « ما » استفهامية ، والاستفهام للتعجب كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرونى . ويجوز أن يكون للانكار ،

(١٦) مقاييس اللغة : مادة غلم .

(١٧) ينظر نظم الدرر : ٦٦/١١ .

(*) التحرير والتنوير : ٩/١٤ .

(١٨) ينظر : الكشاف ٣٩٢/٢ ، وحاشية الشهاب : ٢٩٨/٥ .

والالتوسى ٦١/١٤/٧ .

والمعنى : أنكم تبشرونى بما هو غير متصور فى العادة ، غباى شىء تبشرونى ، يعنى : لا تبشرونى فى الحقيقة بشىء ، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شىء ، ويجوز أن نكون الباء للملابسة والاستفهام سؤال عن الوجه والطريقة ، يعنى بأى طريقة تبشروننى بالولد ، والبشارة به لا طريق لها فى العادة (١٩) •

واختار الشيخ ابن عاشور أن يكون الاستفهام الأول للتعجب ، وقد أكد هذا التعجب باستفهام تعجب آخر « فبم تبشرون » وفيه نزل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم ، لأنه يكاد يكون غير معلوم • وقد علم إبراهيم عليه السلام من الإشارة أنهم ملائكة صادقون ، فتعین أن الاستفهام للتعجب (٢٠) •

وتعجب إبراهيم عليه السلام عن طريق الاستفهامين السابقين مبنى على استبعاد البشارة حسبما جرت به العادة ، وما درجت عليه السنن الكونية ، لا باعتبار القدرة الانهية ، إذ لا شك فى إيمانه بقدرة الله تعالى ، ويؤيد أنه يقول بشىء كمن فيكون • ويرد الملائكة على تساؤلات إبراهيم عليه السلام « قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من المقاتلين » والفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستفهام البيانى كما سبق مراراً •

وبالبناء فى « بالحق » للتعدية ، كما فى بشرته بقدوم زيد ، فيكون المعنى : بشرناك بالأمر الواقع لا محالة ، بناء على أن الاستفهام للتعجب ، أى أن البشر به أمر لا بد من وقوعه فكيف يتعجب منه • أو يكون المعنى : بشرناك باليقين الذى لا لبس فيه ، بناء على أن الاستفهام للانكار ، أى أن البشر به أمر محقق متيقن ، فكيف يذكر •

(١٩) الكشف : ٣٩٢/٢ ، والألوسى : ٦١/١٤/٧ •

(٢٠) التحرير والتنوير : ٥٩/١٤ •

ويجوز أن نكولن الباء لئلا كما في ضربه بالسوط ، فيكون المعنى :
بشركك بطريق هو حق ، وهو أمر من له الأمر القادر على خلق الولد
من غير أبوين فكيف بايجاده من شيخ فان وعجوز عاقر (٢١) .

وتعريف الحق واطلاقه يشعر بأنه الحق الثابت المقطوع به ، الذي
لا حق سواه في هذه القضية . ورد الملائكة عند التحقيق ليس جوابا
على استفهام ابراهيم عليه السلام لأنه استفهام غير حقيقي ، بل هو
رد لكلامه وتعجبه (٢٢) .

وبعد أن بينوا له أنهم يتسروه بالحق نهوه عن أن يكون من
الأيسين بقولهم « فلا تكن من القانطين » والقنوط : اليأس . ونهيهم
له لا يدل على تلبسه بالقنوط ، لأن النهي عن الشيء لا يدل على تلبس
المنهي عنه به ولا بمقاربتة (٢٣) . فالنهي هنا على سبيل الالهاب والتهيبج
حشا له على ادوام التمسك ببيقيته الثابت في أن الله عز وجل لا يعجزه
شيء ، فهو يشبه النهي في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ « ولا تكونن
من المشركين » (٢٤) .

وفي صياغة النهي على هذه الصورة بدلا من أن يكون : فلا تكن
قانطا مثلا ، اشعار بعدم قنوطه ، حيث لم يخبر عنه بالقنوط : بل
نهى عن أن يكون من جماعة القانطين وهو ليس داخلا فيهم .

ولما ألهموه بهذا النهي ، رد عليهم منكرا أن يكون من القانطين
« قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » ، والاستفهام انكارى ،

(٢١) البيضاوى : ٣٥٧ ، وحاشية الشهاب : ٢٩٩/٥ ، والالوسى

• ٦٢/١٤/٧

• (٢٢) التحرير والتنوير : ٩٥/١٤

• (٢٣) البحر المحيط : ٤٥٩/٥

• (٢٤) انقصص : ٨٧

أى لا يقنط من رحمة ربه الا المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته ، ومراده بذلك نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه ، أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى ، وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على (٢٥) •

وانما كان رده أبلغ فى نفى القنوط عن نفسه من أى أسلوب آخر لأنه نفاه عن طريق الحجة والبرهان حيث نفى القنوط عن غير الضالين وأثبتته للضالين ، وبما أنه ليس من الضالين فهو من غير القانطين •

كما أن رده جاء مؤكدا عن طريق القصر بالنفى المستفاد من الإنكار والاستثناء بالا ، وهذا من أقوى طرق القصر فى تأكيد الحكم الذى تتضمنه الجملة •

و فى التعرض لوصف الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة (٢٦) لما فيهما من معاني التربية والعذبة واللطف والشفقة ، وذلك مما ينافى القنوط ولما ريد عليهم أبلغ رد وآكده ، وتحقق من البشرى وعلى أنهم ملائكة الله تعالى ، ورأى أن اتيانهم مجتمعين على غير الصفة التى يأتى عليها الملك للوحى ، كان ذلك سببا لأن يسألهم عن أمرهم وشأنهم (٢٧) « قال فما خطبكم أيها المرسلون » وفاعل قال هو ابراهيم عليه السلام وتوسيط القول بين كلامه السابق والملاحق صريح فى أن بين القولين مقالة مطوية لهم ، فان توسيط قال بين قوليه للايدان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتناؤه عليه بن على غيره • ثم ان خطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالته المطوية كانت متضمنة لبيان أن

• (٢٥) أبو السعود : ٨٢/٥

• (٢٦) السابق

• (٢٧) نظم الدرر : ٦٧/١١

مجيبهم ليس لمجرد البشارة : بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا فنأثنه
قال عليه السلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو؟ (٢٨) •

وانفاء في « فما خطبكم » لا تدل على اتصال الكلامين ، لجواز أن
تكون دالة على أن ما بعدها انتقال الى بحث آخر ، ومثله كثير في الكلام ،
أز أن تكون فصيحة على معنى اذا تحقق هذا فأخبروني ما أمركم الذي
جئتم له سوى البشارة؟ (٢٩) •

والخطب : الأمر ، ولا يكاد يقال الا في الأمر الشديد (٣٠) •
وايثاره على غيره من الألفاظ لما فيه من شدة تناسب مقام الوجع منهم
وتقلاص مع مجيئهم الغريب الذي ليس بمعتاد ، مما يدل على أنه مجيء
لأمر جليل وقد فصل الرازي ذلك فقال : فان قلت هل في الخطب فائدة
لا توجد في غيره من الألفاظ فنقول نعم ، وذلك من حيث ان الألفاظ
المفردة التي يقرب منها وهي : الشغل ، والأمر ، والفعل وأمثالها لا تدل
على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل
على عظم من على يده ينقضى فقال « ما خطبكم » أي لعظمتكم لا ترسلون
الا في عظيم ، ولو قال بافظ مركب بأن يقول : ما شغلكم الخطير وأمركم
العظيم للزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الايجاز (٣١) •

• واستأثرت اليهم لما أنهم مبالغوه وحاملوه الى قوم لوط •

وحذف حرف النداء من « أيها المرسلون » لقرينهم منه قريبا حسيا
وقريبا معنويا حيث أنس بهم بعد أن عرفهم وتحقق منهم ، ومن ثم
ناداهم بصفاتهم الحقيقية وهي الرسالة •

• (٢٨) أبو السعود : ٨٢/٥

• (٢٩) الالوسي : ٦٣/١٤/٧

• (٣٠) البحر المحيط : ٤٥٩/٥

• (٣١) الرازي : ٦٤٥/٧

ويجيب الرسل على سؤال ابراهيم عليه السلام مبينين الأمر الذي أرسلوا من أجله « قالوا ان أرسلنا اتي قوم مجرمين • الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » •
 وانفصل بين « قالوا » وما قبلها للاستئناف ، وتأنييد الخبر بان لتحقيق مضمونه ، وليرقوعه في جواب السؤال المقدر ، وبناء الفعل « أرسلنا » للمفعول لكونه عليه السلام عالما به رسالهم وهو الله سبحانه وتعالى • وتتكير « قوم » لتحقيقهم والاستهانة بهم ، ووصفهم بـ « مجرمين » مزيد ذم لهم بالوصف الصريح بعد ذمهم بالتكثير ، وبيان لجنايتهم التي تسببت في ارسال الرسل اليهم بالعذاب ، وفي مجيء الوصف اسم فاعل يشعر بعراققتهم في الاجرام وأصالتهم فيه ، والمراد بالقرم المجرمين قوم لوط • والتعبير عنهم بذلك فيه مسارعة الى ايضاح فسادهم وبيان علة عذابهم ، واشعار بأنهم معروفون بهذا الوصف ، مشهورون به بين الناس •

ونظم الآيات يشتمل على استثنائين دار حولهما كلام المفسرين:
 الأول : « الا آل لوط » وهذا استثناء يجوز أن يكون منقطعا ، على أنه استثناء من « قوم » لأن انقوم هو وصفون بالاجرام ، فاخذله ، لذلك الجنسان ، وعلى هذا فآل لوط مخرجون من حكم الارسال ، ويكون الملائكة أرسلوا الى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا • ومعنى ارسالهم على هذا كارسال الحجر أو السهم الى المرعى ، فهو في معنى التعذيب والاهلاك ، كأنه قيل انا أهاننا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم ، وعلى هذا يكون قوله « انا لمنجوهم » يجري مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط ، لأن المعنى : لكن آل لوط منجون •

ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا ، على أنه استثناء من الضمير في مجرمين ، كأنه قيل : الى قوم قد أجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم

وعلى هذا فالقرم والارسل شاملان للمجرمين وغيرهم ، ويكون الملائكة أرسلوا اليهم جميعا ايهلكوا الأولين ، وينجوا الآخرين ، فلا يكون الارسال مخلصا بمعنى الاهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول ، وعلى هذا يكون قوله « انا لمنجوهم » كلاما مستأنفا كأن ابراهيم عليه السلام قال لهم : فما حال آل لوط ؟ فقالوا انا لمنجوهم أجمعين (٣٢) .

والاستثناء الثاني قوله « الا امرأته » ويرى الزمخشري أنه استثناء من الضمير المجرور في قوله « لمنجوهم » وليس استثناء من الاستثناء السابق ، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وأن يقال . أهكتاهم الا آل لوط الا امرأته ، كما اتحد الحكم في قول المطلق . أنت طالق ثلاثا الا اثنتين الا واحدة ، وفي قول المقر : فلان على عشر دراهم الا ثلاثة الا درهما ، فأما في الآية فقد اختلف الحكمان ، لأن آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين ، والا نهرأته متعلق بهاجرهم ، ومن ثم فليس هنا استثناء من استثناء (٣٣) .
وقيل انه استثناء من الاستثناء ويصحح هذا أنه لما كان الضمير في « لمنجوهم » عائداً على « آل لوط » وقد استثنى منه المرأة ، صار كأنه مستثنى من « آل لوط » لأن المضمرة هو الظاهر في المعنى (٣٤)

وبعد توجيه الاستثناءين نعود للتأمل في خصائص النظم ، فنرى تعدد التأكيد في قوله « انا لمنجوهم أجمعين » حيث أكدت الجملة بان واللام وأجمعين ، مع مجيء « منجوهم » مشددة العين تعظيماً لهذه النجاة وعلى صيغة اسم الفاعل الدالة على ثبوتها ، وتقدم استثناء

(٣٢) ينظر الكشف : ٣٩٣/٢ ، والبحر المحيط : ٤٦٠/٥ ،

وأبو السعود ٨٢/٥ ، ٨٣ .

(٣٣) الكشف : ٣٩٣/٢ ، ٣٩٤ .

(٣٤) البحر المحيط : ٤٦٠/٥ .

هؤلاء الناجين بقوله « ألا آمل لوفا » وهو لافت للانتباه مثير للتساؤل، وكل هذه الخصائص تثبت مضمون الجملة وتحققه على أبلغ وجه وأكده وأقواه •

« على هذا النمط البديع من اثار الانتباه ، والتعدد في التأكيد ، وحشد مختلف عناصر التقوية تأتي جملة الاستثناء الثاني « الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » حيث تضمنت الخصائص التالية :

استثناء امرأته من الناجين مما يثير الانتباه ، ويشوق لمعرفة مصيرها الذي لم يعرف بعد ، والبدء في بيان مصيرها بفعل « قدرنا » الدال بمآنته على أنه قضاء وقدر محترم ، واندال بصيغته الماضية على أنه قضاء أبرم ولا راد له ، والشوق بحاجته الى التفسير والايضاح الى ما يأتي بعده من أحكام ، واسناد التقدير الذي هو فعل الله تعالى الى الملائكة على سبيل المجاز العقلي بناء على أنهم المنفذون له ، وفي هذا اشارة الى حضور المقدرين والمنفذين بأنفسهم مما يصعب معه رد تقديرهم •

وتعليق فعل التقدير عن العمل في قوله « انها لمن الغابرين » بسبب وجود لام الابتداء التي لها صدر الكلام ، وفي هذا ما يجعل فعل التقدير المعلق مثيرا لتساؤلات نفسية عن ماهية هذا التقدير ، كما يجعل الجملة المتضمنة للحكم مستقلة ببيانه وايضاحه •

وتأكيد الخبر المقصود بأن واللام ، والاتيان بلفظ « الغابرين » على صيغة اسم الفاعل الدالة على الثبوت ، وتعريفه واطلاقه للأشعار بأنهم مهودون ومعروفون بهذا الوصف المطلق •

و « الغابرين » جمع غابر وهو الماكت بعد مضي ما هو معه • • ومنه العبرة وهي البقية في الضرع من اللبن ، والغبار ما يبقى من

التراب المشار (٣٥) : الا امراته ترضينا انها من الباقيين مع الكفرة في

العذاب لتهلك معهم (٣٦) .

وببيان الصير المحتوم لقوم لوط وامراته ، وايضاح نهايتهم
المؤلة ، يختم حوار الملائكة مع ابراهيم عليه السلام ليبدأ عقبيه حوارهم

مع لوط عليه السلام .

(٣٥) المفردات : ٣٥٧ .

(٣٦) ينظر العرطبي : ٣٦٥٣٦٥ .

الحفنة الثالثة

حديث ضيف ابراهيم

قال الله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المذرمين • اذ دخلوا عليه فقالوا
سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين •
فقريه اليهم قل ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف
وبشروه بسلام عليم • فأقبات امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت
عجوز عقيم • قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم • قال فما
خطبكم أيها المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • نرسل
عليهم حجارة من طين • مسومة عند ربك للمسرفين » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الحلقة الثالثة من الحلقات التي تعرض قصة ابراهيم عليه
السلام مع الملائكة الذين جاءوه بالبشرى وأخبروه بهلاك قوم لوط •
وسورة الذاريات التي منها هذه الآيات ، مقصدها الأول الدلالة
على صدق قضية الألوهية ، وصدق ما وعد به الله سبحانه وتعالى ،
وأخبر به في كتابه ، من مشاهد يوم القيامة ، وما فيه من أحوال وأهوال •
ومن ثم بدأت السورة بالاقسام بآيات الله الكونية على صدق
ذلك ووقوعه ، ثم عرضت للمكذبين الخراصين ، الذين هم في غمرتهم
ساهون ، ينكرون يوم الدين ، حتى اذا فاجأهم ذاقوا فيه العذاب الأليم
وعرضت في اثرهم للمتقين وثوابهم العظيم ، وأعمالهم التي نالوا بها

(١) الذاريات : ٢٤ - ٣٤ •

هذا الثواب ، ثم أشارت الى آيات الله تعالى في الأرض وفي الأنفس
وفي السماء مبينة أنها حجة — ان ينظر فيها — على صدق ما أخبر به
الله عز وجل .

وانتقلت السورة بعد ذلك الى ذكر قصص بعض الأنبياء عليهما
سبيل الايجاز مؤكدة على ما فيها من هلاك المكذبين ، لتكون عبرة
وموعظة لمشركى قريش الذين يكذبون بيوم الدين .

وبدئ بذكر قصة ابراهيم عليه السلام لصلته الوثيقة بالعرب ،
حيث يعتبرونه أباهم الأعلى ، وقد جرى الحديث عن مشركيهم في صدر
السورة ، وخوطبوا بجرائمهم وشنائعهم ، وفي ذكر قصته «زيد تعريض
بهم ، لأنهم لم يتبعوا أباهم ولم يسيروا على نهجه في توحيد الله تعالى
وعبادته .

كما أن قصة ابراهيم عليه السلام أطول القصص المعروضة في
السورة ، وتشتمل على خبر عجيب وحوار غريب لم يحدث لنبي من
الأنبياء المذكورين فيها ، ففى أدل على قدرة الله تعالى التى تهتم السورة
بإبرازها وذكر مظاهرها .

البداية :

تبدأ هذه الحلقة بداية مثيرة للانتباه ، مشوقة للنفس باعثة لها
على ترقب ما يأتى بعدها « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين » .

والاستفهام هنا للتشويق للنفس وإثارة معرفته ما يأتى بعده من
حديث عجيب ، ومن ثم يتيقظ السمع ويتنبه الذهن للترقب على
تفاصيله ، والتثبت منها . ويرى أبو حيان أن الاستفهام تقريرى ،
(٢٠ — خصائص النظم)

فَتَجْتَمِعُ نَفْسُ الْمُخَاطَبِ، كَمَا تَبْدَأُ الْمَرْءَ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تُحَدِّثَهُ بِهِ، جَبِيفْتَقَرُّهُ هَلْ سَمِعَ ذَلِكَ أَوْ لَا ، فَكَأَنَّكَ تَقْتَضِي أَنْ يَقُولَ لَا وَيَسْتَطْعَمُكَ الْحَدِيثُ (٢) .
 وَفِي هَذَا الْاسْتِفْهَامِ تَفْخِيمٌ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ ، لِأَنَّ يَحْمَلُهُ مِنَ التَّعْجِيبِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَأَنَّهُ مِمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ لِأَهْمِيَّتِهِ (٣) .
 وَالمُخَاطَبُ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ ، وَفِي لَفْظِ « أَتَاكَ » إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَإِنَّمَا عَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ . وَفِي مُخَاطَبَتِهِ بِذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِقَلْبِهِ بِبَيَانِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَرَضَ لَهُمْ مِثْلُ مَا يَعْصُرُ لَهُ (٤) . مَعَ مَا فِيهِ مِنْ عِظَةِ وَاعْتِبَارٍ . وَفِي الْكَلَامِ اسْتِعَارَةٌ مَكْتَبَةٌ مَبْنِيَةٌ عَلَى تَشْبِيهِ الْحَدِيثِ بِقَادِرٍ عَلَى الْإِتْيَانِ ، وَحَذْفُ الْمَشْبَهِ بِهِ وَاثْبَاتٍ لَازِمَةٌ لِلْمَشْبَهِ . وَفِي ذَلِكَ تَصْوِيرٌ لِلْحَدِيثِ بِصُورَةٍ قَادِرٍ بِأَتْبَعِهِ وَيُنَحِّدُتْ إِلَيْهِ بِمَا فِي نَفْسِهِ .

وَالْحَدِيثُ : الْخَبْرُ ، مَا خُوِذَ مِنْ حَدَثٍ ، الدَّالُّ عَلَى كَوْنِ الشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ كَلِمَةٌ يَحْدُثُ مِنْهَا الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ (٥) .
 وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ حِوَارٌ دَارٌ وَحَدَّثَ شَيْئًا فَشَيْئًا .
 وَأَضَافَةَ الْحَدِيثِ إِلَى ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّهُمْ الْبَادِئُونَ بِهِ ، وَالسَّبَبُ فِي جَرِيَانِهِ . وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ عَنْ لَفْظِ « ضَيْفٌ » فِي الْحَلْقَةِ السَّابِقَةِ ، فَلَا دَاعِيَ لِتَكَرُّرِهِ .

و « الْمَكْرَمِينَ » وَصَفَ لَهُمْ ، وَقَدْ وَصَفُوا بِذَلِكَ لِكِرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » (٦) ، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ

(٢) البحر المحيط : ١٣٨/٨

(٣) ينظر الكشف : ١٧/٤ ، وحاشية الشهاب : ٨/٩٧ .

(٤) الرازي : ٦٤٠/٧ .

(٥) مقاييس اللغة ، والصحاح : مادة : حدث .

(٦) الأنبياء : ٢٦ .

من أكرام ابراهيم عليه السلام لهم • وفي وصفهم باسم المفعول
إشارة إلى ثبوت هذه الصفة وبرسوخها فيهم •
تحذية وحوار :

وبعد البداية المشوقة للحديث ، يعرض الحوار الذى بدأه الملائكة
مع ابراهيم عليه السلام بالتحذية مبدؤوا ببيان وقته « إذ دخلوا عليه
فقالوا سلاما » ورد ابراهيم عليهم بأحسن من تحذيتهم « قال سلام »
وقد سبق الحديث عن ذلك مفصلاً حلقتى « هود » و « الحجر » •
ويرد رده السلام فى هذه الحلقة بقوله « قوم منكرون » أى
جماعة غير معروفين أنا معرفه يسكن اليها القلب قال ابن فارس :
النون والكاف وانراء أصل صحيح يدل على خلاف المعرفة التى يسكن
اليها القلب ، وفكر الذى ، وأنكره لم يقبله ولم يعترف به أسننه (٧) •
وفى ايثار منكرون على غيره من الألفاظ اشعار بعدم اطمئنان قلبه
من جهتهم •

« قوم خبر مبتدأ محذوف وانتقدير : هؤلاء قوم منكرون وحذف
المسند اليه مشعر بما اعتراه من خوف وبلبله وضيق من عدم معرفتهم
وقيل التقدير : أنتم قوم منكرون ، وأراه بعيدا لما يوحى به من
أنه واجههم بذلك ، وفى هذا من عدم اللياقة التى ينتزه عنها ابراهيم
عليه السلام ما فيه • والذى يبدو أن هذا كان حديثا نفسيا لابراهيم
لم ينطق به وأظهره العليم الخبير (٨) ، أو حديثا هامسا قاله لمن
بجواره لم يسمعه القادسون ، وبهذا تجرى العادة التى يومنا هذا ،
فَعَندما يأتى الى أحدنا غرباء يقول فى نفسه : من هؤلاء ؟ ومن أين
أتوا ؟ وماذا يريدون ؟ وكلها أسئلة نفسية لا يجهر بها •

(٧) مقاييس اللغة : مادة نكر •

(٨) بنظر البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، ونظم الدرر : ٤٦٢/١٨ •

ولما حياهم بأحسن من تحيتهم مضى على عجل الى أهله لاحضار
 القرى « فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قتل ألا تأكلون ،
 والروغ : الميث على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب يروغ روغاناً ،
 وراغ فلان الى فلان مائل نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، والمنى :
 فذهب اليهم في خيفة من ضيوفه ، وخفة وسرعة ، ومن آداب
 المضيف أن يخفى أمره وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف
 حذرا من أن يكفه ويعذره (٩) .

والفاء في قوله « فراغ » تدل على اسرعه وتعجيله بالقرى ،
 وعدم المهلة في ذلك ، والفاء في قوله « فجاء » فصحة من جمل قد
 حذف ثقة بدلالة الحد عليها ، وايدانا بكمال السرعة في المجيء
 بالطعام . أى فذبح عجلا فحذذه فجاء به (١٠) . وفي ذلك من الايجاز
 بطى الأحوال المفهومة مالا يخفى . ووصف العجل بسمين يعنى أنه
 كثير اللحم والشحم ، وهذا يدل على أنه أحضر أجود ما عنده ، وهذا
 من آداب الضيافة .

وقوله « فقربه اليهم » أى وضعه بين أيديهم ، وفيه من آداب
 الضيافة تقديم الطعام الى الضيف في مكانه لا نقله الى موضع الطعام .
 وفي ايثار « قرب » على « قدم » لاشعاره بأنه وضعه في غاية القرب
 منهم ، بخلاف « قدم » فإنه لا يدل على القرب ، فقد يقدمه اليهم
 وهو غير قريب منهم .

ثم دعاهم للأكل « قال ألا تأكلون » وألا للعرض وهو الطيب
 بلين ورفق ، عرض عليهم تناول طعامه ، ولم يأمرهم بذلك بأن
 يقول لهم كنوا مثلاً ، وذلك من آداب الضيافة ، وفي هذا العرض تأنيس

(٩) انفرادات : ٢٠٨ ، والكشاف : ١٨/٤ .

(١٠) الألوسى : ١٢/٢٧/١٤ .

لهم وتشجيع على الأكل ، لدلالته على أنه راغب في أن يأكلوا مسرور
 بذلك ، وهذا بخلاف من قدم طعاما ولم يدع ضيفه الى الأكل منه ،
 فقد يفهم الضيف أن هذا على سبيل التجميل لا رغبة في الاكرام (١١) .
 وقيل الهمزة في ألا لانكار ، وكأن في الكلام حذفاً والتقدير
 فامتنعوا من الأكل فأنكر عليهم ترك الأكل فقال : ألا تأكلون (١٢) .
 وعلى هذا فمى الكلام ايجاز بالحذف .

ولما دعاهم للأكل فلم يهتدوا أيديهم اليه أضمر في نفسه خوفا
 منهم « فأوجس منهم خيفة » فطمأنوه وبشروه بالولد « قالوا لا تخف
 وبشروه بغلام عليم » . وقد مر الكلام في ذلك مفصلا في حلقتي هود
 والحجر .

الحوار مع امرأته :

وتنتقل الآيات الى وصف حال امرأته ، وكانت على مقربة منهم
 فلما سمعت ذلك عجبت أشد العجب « فأقربت امرأته في صرة فصعدت
 وجهها وقلبت عجوز عقيم » . وقوله « فأقربت امرأته » قيل : أى
 أقبلت الى بيتها وكانت في زاوية تنظر اليهم وتسمع كلامهم (١٣) .
 وقيل الرازى : أى أقبلت على أهلها ، وذلك لأنها كانت في خدمتهم فلما
 تكلموا مع زوجها بولادتها استحييت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى
 ذلك بلفظ الاقبال على الأهل ولم يذكره بلفظ الادبار عن الملائكة (١٤) .
 قال الأوسى : وفي الكلام على هذا استعارة ضدية ، ولا قرينة
 هنا تصححها (١٥) .

(١١) ينظر الرازى : ٦٤٣/٧ ، والبحر المحيط : ١٣٩/٨ ك

(١٢) ينظر الكشاف : ١٨/٤ ، والبحر المحيط : ١٣٩/٨ .

(١٣) البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، والأوسى : ١٣/٢٧/١٤ .

(١٤) الرازى ٦٤٤/٧ .

(١٥) الأوسى : ١٣/٢٧/١٤ .

والاستعارة الضدية هي المشهورة عند البلاغيين بالعنادية ، وهي ما لا يجتمع طرفاها في شيء واحد لتنافييهما ، وسميت عنادية اتعاند طرفيها في الاجتماع (١٦) •

وأرى أنه لا استعارة هنا ، لأن الاقبال مستعمل في معناه ، وكلام الرازي لا يدل على أنه مستعمل في ضده فيكون استعارة ، بل ظاهر كلامه أن حالها يمكن التعبير عنه بلفظين باعتبارين ، فهو اقبال باعتبار ذهابها الى بيتها أو أهلها ، وهو ادبار باعتبار ذهابها عن الملائكة • وايشار لفظ من اللفظين لا يعنى أن فيه استعارة وإنما أوثر الاقبال على الادبار مراعاة للمقام وما يليق به من الألفاظ ، وفي لفظ الادبار ايحاء لا يليق بالمقام •

وفي النفس شيء من تفسيرهم الاقبال بأنه اقبال الى بيتها أو أهلها ، وأرى أنه اقبال على الملائكة ، كما يدل على ذلك النظر في حلقات القصة مجموعة في حلقة متكاملة ، فمن ذلك يتبين لنا أنها كانت قائمة بقربهم فسمعت البشارة ، فأقبلت عليهم مسرورة متعجبة ، فبشروها هي ، فازداد عجبها وفعلت ما فعلت •

كما أن في اقبالها الى بيتها وأهلها اعراض عن الملائكة بعد معرفتهم ، وقطع للحوار معهم ، علماً بأن حوارها مع الملائكة لم ينقطع ، وكلام الملائكة معها لم ينته بمجرد البشارة كما ترشد الى ذلك آيات سورة هود ، وبقية الآيات في هذه الحلقة •

والصرّة : الصيحة ورفع الصوت ، من صر الاجتدب وصر القلم والباب صرياً ، و « صرة » في موضع النصب على الحال ، أى فجاءت صارة (١٧) • والظاهر أن هذه الصرة كانت مصاحبة لقولها : « ياويلتنا »

كما في سورة ممدود • ويؤيد هذا عادة النساء المشاهدة الى اليوم في
النصائح مع التويل •

وقوله « فصكت وجهها » أي ضربت يدها على وجهها على عادة
النساء عند استداد تعجبهن (١٨) • ومادة صك تدل على تلاقى شيئين
بقوة وبشدة حتى كأن أحدهما يضرب الآخر (١٩) • وابتداء الصك على
الضرب لما فيه من دلالة على ظهور صوت مسموع من ضرب يدها على
وجهها وان لم يكن الضرب شديدا ، بخلاف الضرب فقد لا يظهر له
صوت رغم شدته • والفاء تشعر بمقارنة الصك للصيحة دون فاصل
زمني يعتد به •

وبين الصر والصك تناسق صوتي بديع أبرزه اتحاد فائيهما في
انصاف المستعابية المطبقة ذات الصفير ، واتحاد عينيهما في التضعيف ،
مما أدى الى قوة الأسلوب وجزالته •

وانما صاحت وصكت وجهها من جراء الدهشة الشديدة التي
امتلكتها لما بشرت بالولد وهي غير مؤهلة لذلك بحكم العادة • وقد
أفصحت عن ذلك « وقالت عجوز عقيم » وعجوز خبر مبتدأ محذوف،
والنقدير : أنا عجوز عقيم • وفي حذفه اشعار بضجرتها وضيق صدرها
من شدة ما ألم بها ، وما أخبرت به من أمر عجيب يتنافى مع حالها •
والمسند اليه يحذف لضيق المقام ، وتجد لهذا مذاقا حسنا في سياق
الضجر والشدة ، حين ينزع المتكلم الى الاشارات اللامحة لفرط ما يجد،
ويلجأ الى الايجاز لثقل الكلام عليه (٢٠) •

ولما كان ما فعلته وما قانتة مثيرا للتساؤل عن رد فعل الملائكة،
فقد بينت الآية التالية ذلك «قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم»

(١٨) القرطبي : ٦٢١٧/٩ •

(١٩) مقييس اللغة : مادة صك ج

(٢٠) خصائص التراكيب : ١٣٠ •

أى مثل ذلك الذى بشرناك به قال ربك ، وإنما نخبرك به عنه لا نقونه من تلقاء أنفسنا (٢١) •

وقد أفاد اسم الاشارة الايجاز ، ودل على تفخيم البشرى وتعظيمها ، ولفظ الرب بما فيه من معانى التربية والعناية والرافة يشعر بعنايته ولطفه بها ، وأنه منعم عليها بما هي في شوق اليه ، وممدها به • وازافة ضميرها الى الرب تعظيم لشأنها ، واشعار بما يخصها به من الخيرات والبركات •

وعلوا كلامهم بتذييل مؤكد « انه هو الحكيم العليم » أى ان الله سبحانه وتعالى قال ذلك ، لأنه وحده الحكيم فيما يفعله ، العليم بمصالح خلقه ، فقوله عز وجل حق ، وفعله جل شأنه متقن لا محالة • وقد جاء هذا التذييل التعليلي مؤكدا بان وضمير الفصل ، وعرف فيه المسند باللام لامفاده التصر ، وهذا يؤكد تفرد سبحانه وتعالى بالحكم والعلم دون غيره ، فلا يعجزه شيء •

وابراهيم عليه السلام يعلم أن نزول الملائكة واجتماعهم على هذه الصفة لا يكون الا لأمر جليل ، وهن ثم وجه اليهم سؤالاً « قال فما خطبكم أيها المرسلون » • وقد سبق تفصيل ما في هذا السؤال من أسرار تعبيرية في حلقة سورة الحجر السابقة •

وأجابه الملائكة عن سؤاله « قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين » • وتعد بينا في حلقة سورة الحجر ، ما في قولهم « غاثوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » من خصائص النظم ، وهذه الآية قد نلتها هناك آيات تبين نجات آل لوط ، واستثناء امرأته من ذلك حيث بقيت في الهالكين •

أما هنا فقد أعقبها بيان علة إرسالهم الى هؤلاء القوم المجرمين « لارسل عليهم حجارة من طين » ، واللام للتعليل والفعل المضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، والتعبير بنرسن بدلا من نلقى وما أشبه ذلك ، يشعر بأنها حجارة مرسله اليهم من السماء خاصة بهم لهلاكهم وليست ككل الحجارة ، وفي مجيء الارسال في الآية السابقة ماضيا مبنيا للمفعول « أرسلنا » إشارة الى وقوع هذا الارسال ، وأتهم مرسلون من لدن القادر القاهر لا من عند أنفسهم ، وفي مجيئه هنا فعلا مضارعا مبنيا للفاعل إشارة الى أن إرسالهم للحجارة لم يتع بعد . وأنهم المباشرون لإرسالها المنفذون لهذا العمل كما أمرهم الله تعالى .

وفي تكرار الارسال مع اختلاف النصيغة والمتعلق به ، تناسق صوتى فيه ربط قوى للأسلوب بجعل الملائكة في آن واحد مرسلين بفتح السين ، ومرسلين بكسرها . و « عليهم » تدن على العلو ، فالحجارة ترسل عليهم من أعلى كالمطر الشديد لتعميم وتعم قراهم بالهلاك ، دون أن تترك عاليا أو واديا .

وقوله « حجارة من طين » أى طين متحجر ، وهو السجيل كما ذكر في آيات أخرى ، وهو طين يطبخ كما يطبخ الأجر حتى يصير نالحجارة (٢٢) . قال الألوسى : وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها بردا ، فان بعض الناس يسمى البرد حجارة (٢٣) .

وهذا فى نظرى ليس بوجه ، ولعل الوجه فى ذلك هو بيان أنها ليست حجارة صخرية وإنما من نوع الأجر الذى يكون طينا وييطبخ فيكون أشد تأثيرا من الحجارة الملساء ، وفيه إشارة الى أنه كلما تحول باحراقه الى حجارة ، فسرها لهم ويمزق أجسادهم ، وقد عبر القرآن الكريم

(٢٢) البحر المحيط : ١٤٠/٨ .

(٢٣) الألوسى : ١٤/٢٧/١٤ .

عن الآجر بقوله « حجارة من طين » كطريقته في ذلك دائما ، حيث لم يستعمل الآجر اذ ليس فيها من خفة التركيب الا الهزمة وسائرهما نادر متقلقل لا يصلح مع هذا المد في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، ولكن عبر عن معناها بالطف عبارة وأرقها وأعذبها في فوهه تعالى: « فأوقد لى ياهامان على الطين فأجعل لى صرحا » (٢٤) • وقد ضاعفه من حسنها القلقلة التي هي في اندال من قوله « فأوقد » وما يتلوها من رقة اللام ، فانها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه ، وكأنما تنتزع النفس افتزاعا (٢٥) •

ومهما قيل في وصف هذه الحجارة وبيان ماهيتها فهي حجارة خاصة بهم ليست كحجارة الدنيا ويدل على هذا أعظم دلالة قوله تعالى في وصفها « مسومة عند ربك للمسرفين » • أى معلمة معروفة قد أعدها الله للمجاوزين الحد في الكفر والنجور (٢٦) • والتعبير باسم المفعول « مسومة » فيه دلالة على سبق تعليمها ، وثبوت علامتها لا أنها جديدة حادثة •

و « عند ربك » فيه اشعار بفخامتها وهول تأثيرها ؛ ناز الله عز وجل قد أعدها لهم ، وخصها بهم • وفي لفظ الرب المصاف الى ضميره اشعار بعنايته به وحفظه له ، فلن يمسسه ولا تذين آمنوا ممسه شيء من هذا السوء •

واللام في المسرفين للعهد ، أى لهؤلاء المسرفين المعهودين الذين هم قوم لوط المعبر عنهم بالقوم المجرمين • وفي وضع الظاهر موضع

(٢٤) القصص : ٣٨ •

(٢٥) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٣٣ ، ٢٣٤ •

وينظر المثل السائر : ٢٠٠/٧ •

(٢٦) ينظر القرطبي : ٦٢١٨/٩ •

الأضمير ذم لهم بالاسراف ومجاوزة الحد في الفجور بعد ذمهم بالاجرام،
 واشعار بعلّة الحكم الذي تضمنته الجملة (٢٧) • وفي التعبير بنسب
 الفاعل اشارة الى أنهم ثابتون في الاسراف موصوفون به وصفا
 دائما •

وبتفصيل المهمة التي جاء من أجلها الملائكة ، وبيانهم لنهاية قوم
 لوط المسرفين ينتهي حوار الملائكة مع ابراهيم عليه السلام ليبدأ
 بعده ذكر ما جرى لقوم لوط عليه السلام •

الحلقة الرابعة

جدال إبراهيم عن لوط عليهما السلام

قال الله تعالى :

« ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلبا كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا قلوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين • » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الحلقة وردت في ثنايا قصة لوط عليه السلام مع قومه ، وبذلك تختلف في موقعها من النظم عن الحلقات الثلاث السابقة التي وردت مستقلة قبل قصة لوط ثم عقبته بذكرها • وهي أوجز الحوادث التي عرضت خبر ابراهيم عليه السلام مع الملائكة حيث اقتضت على ما يخص لوطا وقومه •

وقصة لوط في هذه السورة مسبوقه أيضا بملقة من قصة ابراهيم عليه السلام ، ولنتها خاصة ببيان دعوته لقومه وهجرته بدينه ، وليس فيها ذكر لحديث الملائكة معه • وقد جاءت بعدها قصة لوط وهي تبدأ ببيان ما قاله لوط عليه السلام لقومه « ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (٢) وتذكر جواب قومه وتحتويهم له بقولهم « آتينا بعذاب الله ان كنتم من الصادقين » (٣) وتوجه لوط الى ربه داعيا « رب انصرني على القوم المفسدين » (٤) •

(١) العنكبوت : ٣١ ، ٣٢ •

(٢) العنكبوت : ٢٨ •

(٣) العنكبوت : ٢٩ •

(٤) العنكبوت : ٣٠ •

واستجاب الله عز وجل دعاء لوط وبعث إليه الملائكة لتنزل العذاب بقومه
المفسدين ، وقبل مجيء الملائكة اليه مروا على خليل الله ابراهيم عليه
السلام لتبشيره بالولد ، واخباره بهلاك قوم لوط ، وقد جادلهم ابراهيم
في شأن لوط لما علم بنزول العذاب على القرية ، وطأئوه بأنه باج
هو ومن آمن معه من أهله ثم ذهبوا من عنده الى لوط عليه السلام ،
وجرى بينهم وبينه ما جرى مما ورد في باقى القصة •

ولعل هذا ما جعل هذه الحلقة ترد في ثنايا قصة لوط عليه السلام

بداية وحوار :

بداية هذه الحلقة تشبه بداية حلقة « هود » الا أن بداية حلقة
« هود » بداية مستقلة وقائمة بذاتها ، ومؤكدة باللام وفند « وينفد
جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » (٥) • أما بداية هذه الحلقة فغير
مستقلة ، حيث تتصل وترتبط ارتباطا وثيقا بالحوار الوارد في الحلقة ،
اذ تقع البداية شرطا للما الحيزية ، ويقع الحوار جوابا لها « ولما
جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهاكوا أهل هذه القرية ان
أهلها كانوا ظالمين » •

ويربط مجيء الرسل بهلاك القرية التى فيها قوم لوط بواسطة
« لما » التى تدل على وجود الجواب لوجود الشرط ، فيه اشعار بأن
ذلك هو المقصد الأصلى من مجيئهم ، والهدف الأساسى من ارسالهم •
وفي بدء الحوار هنا بقرن الملائكة « قالوا انا مهاكوا أهل هذه
القرية » مع عدم تفصيل المشاهد التى تتعلق بابراهيم عليه السلام
وامراته ايجاز بديع بطى هذه المشاهد ، نظرا لورودها فى حلقات
سابقة ، ولأن هذه الحلقة عارضة فى ثنايا قصة لوط ، فالتمام يقتضى

ايراد ما يخص هؤلاء القوم فيها ، وطمى ما يخص ابراهيم عليه السلام ،
 وادراؤه لعدم الحاجة الى ذكره •

وأكد الكلام بان التأكيد الحكم وتقويته في مقام المحاوره ، وغرابه
 الحكم ، وعبر باسم الفاعل « مهلكوا » دون الفعل للاشارة الى أن
 اهلاكهم أهل القرية ثابت محقق ، فهم مهلكوها لا محالة ، وفي ايفاع
 الاهلاك على أهل القرية لا نفس القرية اشارة الى أن المقصود أهل القرية
 المفسدون ، وليس القرية بذاتها •

والقرية هي قرية سدوم وهي أكبر قرى قوم لوط ، ومركز
 تجمعهم ، ولذا خصت بالذكر دون غيرها (٦) • وفي اسم الاشارة
 « هذه » تعيين للقرية وتمييز لها بواسطة الاشارة المحسوسة ، والشعار
 بحقارتها وضعتها ودنو منزلتها من خلال اسم الاشارة بقريب •

وقوله تعالى : « ان أهلها كانوا ظالمين » تعليل للاهلاك باصرارهم
 على الظلم ، وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي (٧) • وقد
 علم الاهلاك لأن الاخبار باهلاكهم مثير للتساؤل عن سبب ذلك ، ومن
 ثم جاء التعليل مفصولا عما قبله للاستئناف البياني •

وتأكيد التعليل لتحقيق مضمونه ، وابرار تعلقه بما قبله عن
 طريق الربط المعنوي بان • واطهر الأهل في موضع الاضمار لزمهم
 بالظلم ، وللشعار باستقلال الجملة التعليلية لا • والتعبيي بـ « كانوا »
 فيه اشارة الى قدم ظلمهم ، وعراقتهم في الاتصاف به • • التعبير
 باسم الفاعل « ظالمين » للدلالة على ثبوت ظلمهم واستمراره •

وكان تعييمهم في الاخبار باهلاك أهل هذه القرية مبعث لتساؤل
 لابراهيم عليه السلام عن لوط ومصيره ، بسبب وجوده في هذه القرية

(٦) ينظر الألوسى : ١٠ / ٢٠ / ١٥٤ •

(٧) أثير السعود : ٢٨ / ٧ •

« قال ان نبيها لوطا » أى فكيف تهلكونها مع وجوده فيها ؟ وكأنه عليه السلام أراد أن يطمئن اطمئنانا كاملا على ابن أخيه الذى يهتم بأمره وتزداد شفقتة عليه .

وتأكيد الخبر بان لتحقيق مضمونه ، وزيادة تبيينهم على وجوده فيها . وفى التعبير بفيها دون منهم أو من أهلها ، اشعار بأنه يعلم أن لوطا غير هالك مع أهلها ، ولكن لما كان هالك أهلها يعنى تدمير القرية بكاملها ، وكان لوط موجودا فيها ، دفعه ذلك الى تحاوره مع الملائكة بشأنه كى ينبههم الى وجوده فيها ، وليطمئن على مصيره ، وهذا سر جداله معهم من وجهة نظرنا ، والله أعلم .

ورد الملائكة على قول ابراهيم عليه السلام « قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين » . وبالتأمل فى هذا الرد نراه يشتمل على أربع جمل :

الجملة الأولى : « نحن أعلم بمن فيها » وهذا تسليم منهم لقوله عليه السلام فى لوط ، والمراد أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام (٨) . وهذا يقتضى نجاته من الهلاك عن طريق الكفاية .

والتعبير باسم التفضيل « أعلم » فيه دلالة على مزيد علمهم بلوط عليه السلام ووجوده فى هذه القرية ، وفى حذف المفضل عليه اشعار بتعميم مزيد علمهم ، نعمهم بمن فيها زائد على علمه وعلى علم غيره . والتعبير بمن فيها دون التعبير بنحن أعلم بلوط ، فيه اشارة الى عموم علمهم ، فهم عالمون بلوط عليه السلام والمؤمنين من أهله ، وعالمون بالفسدين من أهله ومن غيرهم ، وعالمون بجميع من فى القرية .

والجملة الثانية : « لننجينه وأهله » وهذه الجملة بيان صريح وتفصيل لصبر لوط عليه السلام والمؤمنين معه ، بعد بيان مصيره عن

(٨) ينظر الكشاف : ٢٠٥/٣ ، والالوسى : ١٥٥/٢٠/١٠ .

طريق الكتابة في الجملة الأولى ، وفي هذا مزيد طمأنة لبراهيم عليه السلام وتسكين لقلبه •

واللام واقعة في جواب القسم ، والتقدير : والله لننجبته وأهله ، وفي تأكيد الوعد بالنتيجة بالقسم ونون التوكيد الثقيلة تحقيق له ، وإشارة الى اعتنائهم بشأن نجات لوط والمؤمنين من أهله أنهم اعتناء (٩) •

وفي عطف أهله عليه تأكيد لعموم علمهم به وبغيره ممن في القرية ، حيث يبدو بذلك أنهم غير غافلين عن لوط وعن غيره من أهله وأتباعه المؤمنين الذين لم يتعرض لهم إبراهيم عليه السلام في حوارهم (١٠) • وتقديم نجاته على نجات أهله لأنه الأصل في ذلك وهم تبع له ، ولأنه المتحدث عنه والذي دار الحوار بشأنه •

والجملة الثالثة : « الا امرأته » ، وهي استثناء مخرج لها من أهله الناجين ، ومدخل لها في المهلكين المعذبين • وفي الاستثناء إبراز تخروجها منهم ، وإعلان مؤكد له •

ولما كان استثناءها من الناجين محوجا الى بيان مصيرها ، وهشوقنا لمعرفة حالها جاءت الجملة الرابعة مبيحة لذلك « كانت من الغبريين » أى من الباقين في العذاب أو القرية ليقع عليها الهلاك مع المهلكين • وقد سبق الحديث عن الاستثناء وما تلاه في حلقة سورة الحجر •

وبهذا تنتهي هذه الحلقة المتداخلة في ثنايا قصة لوط عليه السلام ليتابع السياق اثرها عرض ما تبقى من قصته •

(٩) ينظر الكشف : ٢٠٥/٣ ، وأبو السعود : ٣٧/٧ •

(١٠) ينظر السابق •

أسرار التشابه والتنويع في النظم

بعد عرضنا للحلقات التي تحكى قصة ابراهيم عليه السلام مع الملائكة ، وتحليلنا للآيات الواردة في كل حلقة منها ، نقف لتأمل نظمها مجتمعة وننظر ما فيه من تشابه وتنوع محاولين الكشف عن الأسرار البلاغية في ذلك .

البدايات :

تبدأ الحلقات الأربع بدايات مشوقة ، فيها اثار ذل للانبيا ، وايقاظ للناسداع وتهيئة للعقول . وان اختلفت درجة التشويق في كل منها .
 فيحلقة « هود » ضمت بدايتها عنصرين من عناصر التاكيد هما اللام وقد « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » . وذلك للاستعارة بأهمية الخبر ، وتأكيد مجيء الملائكة الى ابراهيم عليه السلام ، وتحقيق قدرة الله تعالى على انزال الملائكة الى رساله في الأرض ، تثبيتا للقلب النبى محمد ﷺ ، وردا على مطب المشركين في بداية السورة « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كاز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » (١١) .
 واشتملت من الألفاظ المشوقة على لفظ « البشرى » الذى جاء مطلقا زيادة في التشويق ، وترغيبا في متابعة الحلقة لمعرفة مضمون هذه البشرى .

وترداد درجة التشويق في بداية حلقة « الحجر » من خلال أمر الرسول ﷺ بالتبئىء بهذا الخبر ، وايراد الملائكة بوصف الضيف « ونبئهم عن ضيف ابراهيم » .

وفي بداية حلقة « الذاريات » تعلو نبرة التشويق وتتشد من خلال حشد عدد من عناصره « هل أتتكم حديث ضيف ابراهيم المكرمين » بحيث بدىء بالاستفهام المشوق لما بعده ، وعبر بلفظ الحديث ، وصور بصورة القادر على الاتيان ، وجعل الملائكة ضيوفا ، ووصفوا بالمكرمين ، وفي كل ذلك اثاره للانتباه ، وتشويق الى معرفة هذا الحديث العجيب ، ترغيبا للسامع في متابعتها خصوصا بعد أن عرض عليه مرتين فيما نزل من السور قبل ذلك •

وبداية هذه الحلقة وان كانت تتشابه مع بداية الحلقة الثانية في لفظي « ضيف ابراهيم » الا أنها تختلف عنها في باقى الألفاظ ومن ثم تختلف دلالة البدايتين ، فلأ تكرار بينهما •

« من جوانب الاختلاف بينهما مجيء بداية الحلقة الثالثة مستقلة غير معطوفة على شيء سابق ، بينما جاءت بداية الحلقة الثانية معطوفة على ما سبقها « نبيء عبادى أنى أنا الخفير الرحيم » (١٢) •

وتأتى بداية حلقة « العنكبوت » ملائمة لموضعها في ثانيا قصة أخرى ، فربطت بها ربطا وثيقا عن طريق العطف و « لما » الشرطية وهذا في حد ذاته عنصر من عناصر التشويق يضاف الى لفظ « الشرى » وربطها بأحداث قصة لوط لم يتح فرصة لوجود احساس بفجوات في السرد ، أو شعور بانتقال مفاجيء • وبهذا الربط القوي والاتصال الوثيق ، تختلف عن بداية الحلقة الأولى وأن تشابهتا في أكثر الألفاظ •

إلتقاء السلام :

ويعد البداية تبدأ الحلقات في سرد الحوار الذى دار بين الملائكة و ابراهيم عليه السلام • ويبدأ الحوار بإلقاء الملائكة السلام على ابراهيم

ورده عليهم ، وقد جاء سلام الملائكة في حقة « هود » مباشرة غير مسبق ببيان وقته ، « قالوا سلاما قال سلام » بينما جاء في حقتي « الحجر » و « الذاريات » مسبقا بذكر وقته « اذ دخلوا عليه فقلوا سلاما » .

والسر البلاغي في هذا أن بداية حلقة « هود » ذكرت مجيء الرسل الى ابراهيم عليه السلام ، فأغنى هذا عن ذكر دخولهم عليه ، والا كان تطويلا ينزله النظم الكريم عنه . أما حلقتا « الحجر » و « الذاريات » فلم يذكر في بدايتهما مجيء الرسل الى ابراهيم ، فناسب ذلك ذكر دخولهم عليه .

وذكرت حلقتا « هود » و « الذاريات » رد ابراهيم عليه السلام على الملائكة « قال سلام » وجاء رده أقوى من تحيتهم لكونه جملة اسمية تنفيذ الدوام والثبوت ، بينما وردت تحيتهم جملة فعلية تنفيذ التجدد والحدوث . ولم تذكر حلقة « الحجر » رد ابراهيم عليه السلام اشعارا بشدة وجله وخوفه منهم ، حيث صرح فيها بذلك « انا منكم ورجلون » وكأن الخوف والوجل منهم طغى على رد السلام .

ولم تذكر حلقة « العنكبوت » سلام الملائكة ولا رد ابراهيم عليه السلام ، كما لم تتعرض لشيء من الحوار الا ما يخص قوم لوط بورودها في ثانيا قصته ، لكشف جدال ابراهيم عن لوط عاينهما السلام . وأعقب سلام ابراهيم في حلقة « هود » بأسرعه في انجىء بعجل حنيذ ، وبانكاره لهم وخوفه منهم لما رأى أيديهم لا تمتد اليه « قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » .

وفي حلقة الذاريات عقب سلامه بالانكار ، وذهابه الى الله ومجيئه بعجل سمين ، وتقريبه اليهم ، وعرض الأكل عليهم والخوف

منهم ، « قال سلام قوم منكرون • فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة » •
 وفي حلقة الحجر عقب سلام الملائكة بقوله مباشرة « أنا منكم رجلون » ولم يذكر شيء مما ذكر في حلقتي « هود » و « الذاريات » •
 والذي يبدو لي في سر هذا التنوع أن حلقة « هود » لم تركز على التعجيب من الخبر ، والتشويق اليه ، فلم تبرز الحالة النفسية التي داخلة عقيب سلام الملائكة ، أما حلقة « الذاريات » فمبنية على التعجيب من هذا الحديث العجيب ، والتشويق الى ما فيه من حوار غريب ، فناسب ذلك أن تبرز حالته النفسية المصاحبة للسلام حيث نكروهم من البداية وتملكه الخريف منهم وهذا عنصر مشوق في الخبر • والمختار عند المحققين أن وله عقيب السلام « قرم منكرون » كان حديثا نفسيا لا قولاً لفظياً (١٣) ، إذ لا يابق بالنبي الكريم المضيف أن يواجه ضيفه منذ البداية بمثل ذلك •

كما ناسب قيامها على التعجيب والتشويق وتأخر نزولها أن تتصل فيها جزئيات لم تذكر في حلقة « هود » — « فراغ الى أهله » « فقربه اليهم » « قال ألا تأكلون » — اقتضاء لحق المقام ، إذ النفوس بعد تعجيبها وتشويقها في تعطش لمزيد من التفصيل في سرد الخبر ، وسماع ما لم تسمعه قبل ذلك •

وحلقة « الحجر » وإن بدئت بالتشويق إلا أن نبرته غير عالية ، وقد ركزت على ذكر خوف إبراهيم ووجهه ، وحكاية حوارهم وحده دون إشارة الى أهله وما دار معهم من حوار ، ومن ثم طويت فيها التفاصيل الخاصة بذهابه الى أهله وما تبع ذلك من اعداد الطعام وتقديمه اليهم •

(١٣) بنظر البحر المحيط : ١٣٩/٨ ، ونظم الدرر : ٦٢/١٨ •

والسؤال الذى يطرح نفسه هو أكان انكار ابراهيم لهم بعد
 للسلام مباشرة كما جاء فى حاقة « الذاريات » أم بعد أن قدم لهم
 الطعام ورأى أيديهم لا تصل اليه كما جاء فى حلقة « هود » •

والجواب يتمثل فى الجمع بين الحلقتين ، فيكون قد حصل عنده
 فكر لهم لما دخلوا عليه فى هيئتهم الغريبة التى لم يعهدها ، ثم زاد
 الفكر وتأكد بالخوف بعد أن قدم لهم الطعام ولم تصل أيديهم اليه ،
 وظهر عليه أثر ذلك مما دعاهم أن يقولوا له « لا تخف » •

والذى يدل على هذا أن انكارهم عقيب السلام كان انكارا عاما
 عند جميع من يراهم ولذلك لم يسند ابراهيم الى نفسه بقوله :
 أنكرتكم مثلا ، بل قال « قوم منكرون » أى عند كل أحد منا • ولما
 شاهدهم لا يأكلون اثبت انكاره لهم ومن ثم أسند الانكار اليه فقيل
 « نكرهم » (١٤) •

طمأنة الملائكة ابراهيم عليه السلام :

وتحكى الحاقات الثلاث الأولى ما قاله الملائكة لابراهيم عليه
 للسلام طمأنة له وتثبيتا لقلبه ، وازالة لخوفه على نحو متنوع ، ففى
 « هود » : « قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط » • وفى « الحجر » :
 « قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم » • وفى « الذاريات » : « قلوا
 لا تخف وبشروه بغلام عليم » •

وسر هذا التنوع — فيما يظهر لى — أن حلقة « هود » بدئت
 بخبر مجيء الرسل بالبشرى الى ابراهيم عليه السلام ، فلم يك من
 المناسب أن يكرر تبشير الملائكة له فى هذا الموضع القريب من سابقه
 والا ترتب عليه التطويل ، الذى لا يينق بجزالة التنزيل • ومن ثم

طمأنوه وأزالوا خوفه ، بإعلامه أنهم رسُل الله تعالى أرسلهم الى قوم لوط لانزال العذاب بهم .

وحلقة « الحجر » لم يذكر في بدايتها مجيء الرسل اليه بالبشرى ، ومن ثم طمأنوه وأزالوا وجله بأقرب الأشياء انى نفسه ، وأحبها الى قلبه ، وهى تبشيره بئلام العليم .

وذلك الحال فى حلقة « الذاريات » . الا أنه لما عبر عن خوفه فى « الحجر » بالوجل وجرى ذلك على لسانه « أنا منكم وكنون » أزالوا وجله بمثل ما جرى على لسانه « قالوا لا توجل » وأكدوا له البشرى على نمط تأكيده الوجل « انا نبشرك » ليكون قولهم متناسبا مع قوله ومثلما معه وفى هذا ازالة لخوفه الشديد الذى عبر عنه بالوجل ، ونطق به صراحة على سبيل التأكيد .

ولما جاء التعبير فى « الذاريات » بالخوف « فأرجس منهم خيفة » أزالوا خوفه بمثل ذلك « قالوا لا تخف » ولم يؤكدوا له البشرى « وبشروه بئلام عليم » تناسبا مع عدم تأكيد الخوف ، ولعدم نطقه بالخوف منهم صراحة . وهكذا تنوع التعبير ليتناسب مع نظم الحلقة الوارد فيها مع عدم الاخلال بالمقصود .

وفى الجمع بين الخوف والوجل ذكر العلماء أن هذا تفصيل لارجس يتلو بعضها بعضا ، فقد ظهر عليه الخوف بعد دخولهم عليه على هيئة غير معتادة ، ولما تأكد خوفه بعدم أكلهم واجههم بوجه منهم ، فالخوف كان مرحلة أولى وقد ظهر عليه ولم ينطق به ، وتبعه الوجل الذى صرح به (١٥) .

وجاءت بشرى الملائكة فى « الحجر والذاريات » « بئلام عليم » بينما جاءت فى سورة الصافات « بئلام حلِيم » (١٦) وقد اهتم

(١٥) ينظر حاشية الشهاب : ١١٤/٥ .

(١٦) الصافات : ٢٠١ .

« الغرناطى » ببيان السر في ذلك فذكر أن المبشر به واحد ، والقصة واحدة ، فما موجب اختلاف الصفتين ؟ وأجيب عن ذلك فقال : ان موجب تخصيص آية « الصافات » بصفة الحلم ما اقترن بها من قوله تعالى « فلما بلغ معه السعى قال يا بني انى أرى فى المنام انى آذبحك » وجواب ابنه عليهما السلام بقوله « يا أبت افعل ما تؤمر » واتبعه ذلك تسلياً لأبيه وامثالاً لأمر ربه « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » ، فلما دل جوابه على عظيم حاله ، وتلقيه عظيم هذا الابتلاء بالرضى ، وانصبر التام ، امثالاً لأمر ربه ، وارضاء أبيه ، كان ذلك مبيناً لجليل حلمه ، ووفور كماله فى حاله ، مع وصفه فى سنه بالأولية والابتداء . ، أما آية « الذاريات » وآية « الحجر » فلم يقع فيهما ذكر لهذه القضية ، فورد فيهما وصفه بالعلم المحرز لجليل نبوته . وبذلك ورد فى كل موضع ما ينسب به (١٧) .

وبنا وجهة نظر فى هذا الكلام ، فقد ذكر أن المبشر به واحد وانقصة واحدة ، وهذا غير دقيق ، فالتحقيق أن المبشر به ليس واحداً ، والقصة ليست واحدة ، إذ ان المبشر به فى « الحجر » و « الذاريات » هو « اسحاق » كما صرح بذلك فى « هود » « فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » وقد بشر به فى مجيء الملائكة ابيه وحوارهم معه وكان ذلك بعد أن ولد له اسماعيل وشب (١٨) . بينما المبشر به فى « الصافات » هو اسماعيل عليه السلام كما عليه جمهور المفسرين وأهل العلم (١٩) . وقد بشر به استجابة لدعائه بعد هجرته حيث قال « رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حلیم » .

(١٧) ملاك التأويل : ٢/٨٦٠ وينظر : ٢/٧٢٦ فيها نحو هذا .

(١٨) البحر المحيط : ٥/٤٥٨ .

(١٩) ينظر ابن كثير ٤/١٤ ، والبيضاوى : ٥٨٨ ، وأبو السعود :

٢٠٠/٧ ، وقصص الانبياء ١٩ : ١٦٢ ابن كثير . وقصص القرآن : ٦١ ،

وتاريخ الانبياء : ٩ ، ١٠ .

ومما سبق يتضح لنا أن المبشر به ليس واحداً والقصة ليست واحدة ، ومن ثم فلا مدعاة للتساؤل عن الخلاف بين الوصفين في الآيات المذكورة ، لأن الصفتين لموصوفين مختلفين ، فوصف اسماعيل عليه السلام بالحلم لظهوره فيه في هذا المقام ، لما كان من طاعته المطلقة ، وصبره على البلاء ورضاه بالقضاء ، ووصف اسحاق بالعلم وهو وصف عام للأنبياء . وهذا لا يمنع من أن يكون اسماعيل عليه السلام عليماً ، واسحاق عليه السلام حليماً إلا أن المقام اقتضى التركيز على الصفة المناسبة له .

وقد وقعت البشرى في « الحجر » و « الذاريات » صريحة لابراهيم عليه السلام ، بينما جاءت في « هود » صريحة لامرأته ، وذلك لأن البشارة كانت لهما معا ، فقد تكون حاصلة في رقت واحد ، فهي بشارتان باعتبار المبشر ، وقد تكون حصلت في وقتين ، بشروه بانفراد ، ثم جاءت امرأته فبشروها (٢٠) .

ولعل السر في مجيء البشارة على هذه الطريقة المتنوعة هو ما أشرنا إليه آنفاً من أن البشرى وقعت لابراهيم في مقدمة حلقة « هود » فلم يكن من المناسب تكريرها ، فبشرت امرأته بشارة مفصلة وبشر هو على سبيل الاجمال ، وفي « الحجر » و « الذاريات » بشر ابراهيم عليه السلام صراحة لعدم تقدم ذكر لبشارته .

وخصت حلقة « الحجر » ببيان موقف ابراهيم عليه السلام من البشرى « قال أبشرتهموني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » . ولعل ذلك لأنها خاصة بذكر ما دار من حوار بين الملائكة و ابراهيم دون أهله . كما أن البشرى في حادثة « الحجر »

واردة بصيغة المضارع « نبشرك » الدالة على أن الفعل يحصل حالا أو سيحصل مستقبلا ، وخوطب بها بضمير الخطاب الدال على مواجهته بالبشرى ، فكلن ذلك مناسبا لحكاية حوارهم معهم بشأن هذه البشرى ووردهم عليه .

الملائكة وامرأة ابراهيم عليه السلام :

ورد مشهد الملائكة مع امرأة ابراهيم عليه السلام في حلقتي « هود » و « الذاريات » وقد جاء مفصلا في « هود » على هذا النحو : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت يا ويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيئا ان هذ انشىء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » .

وجاء مجملا في « الذاريات » على هذا النحو : « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » .

ولم يرد هذا المشهد في حلقة « الحجر » حيث ذكر فيها ما يخص ابراهيم عليه السلام دون ما يخص أهله في هذه القصة . وقد فصل موقفه من البشرى ومقابلة الملائكة لهذا الموقف بما لا يوجد في حلقة أخرى من حلقات القصة .

ولعل السر في تفصيل ما دار مع امرأته في حلقة « هود » أن البشرى وقعت لها في هذه الدلقة صراحة ، فبين أثرها عليها وحوار الملائكة معها مفصلا ، أما في حلقة « الذاريات » فلم تقع البشرى لها صراحة ، إنما صرح بها لابراهيم عليه السلام ، فلذلك أجمل موقفها وأوجز في ذكر ما يخصها ، وبهذا الاجمال ام يكرر ما فصل في « هود » .

تتفأ بتفصيله فيها .

والاختلاف في وصف حالها وحكاية قولها في « هود » عنه في « الذاريات » راجع الى التفصيل في بعض المواقف والإيجاز في بعضها اكتفاء بما في المفصل ، ومن العجيب في ذلك أن تختلف العبارة عن الوقائع في حالي الإيجاز والتفصيل مع مطابقة كل من الوصف الموجز والمفصل لما حدث في الواقع على وجه دقيق لا يخاد بوجود في غير القرآن الكريم .

وقيل في « هود » « انه حميد مجيد » وفي « الذاريات » « انه هو الحكيم العليم » فوقع تنوع في ذكر صفات الله تعالى ، وسرد ذلك : أن الحكاية في « هود » أبسط منها في « الذاريات » فذكروا فيها ما يدفع الاستبعاد بقولهم « أتعجبين من أمر الله » ثم لما صدقت آرتدوها الى اقيام بشكر نعم الله تعالى ، وذكروها بنعمته بقولهم « حميد » فان الحميد هو الذي تتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم « مجيد » اشارة الى أن الفائت العالی الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وانما يحمده ويسبح له لنفسه ، ولما لم يقلوا في « الذاريات » « أتعجبين » ، أشاروا الى ما يدفع تعجبها من التنبية على حكمه وعلمه ، وفيه نظيفة، وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بانفعل ، والمجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله كما ينبغي لعلمه قاصداً لذلك الوجه ، بخلاف من ينفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا ، كما ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فانه لا يقال له حكيم ، وأما اذا فعل فعلا قاصدا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها يقال له حكيم فيه ، والعليم راجع الى الذات ، اشارة الى أنه يستحق الحمد بمجده وان لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه وان لم يفعل على وفق القاصد (٢١) .

الحوار بشأن قوم لوط عليه السلام :

حكّت الحلقات الأربع ما دار بين ابراهيم والملائكة بشأن قوم لوط في أساليب متنوعة :

نفى « هود » جاء على هذا النحو « فلما ذهب عن ابراهيم الدعوى وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • ان ابراهيم لحليم آواه منيب • يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيتهم عذاب مردود » •

وفي « النجر » ورد على هذا النحو « قال فما خطبكم أيها المرسلون • قائلوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • الا آل لوط انا لم نجوهم أجمعين • الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » •

وفي « الذاريات » ورد على هذا النحو « قال فما خطبكم أيها المرسلون • قائلوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين • لترسل عليهم حجارة من طين • مسومة عند ربك للمسرفين » •

وفي « العنكبوت » جاء على هذا النحو « ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا قائلوا نحن أعلم بمن فيها لتنجينه وآله الا امرأته كانت من الغابرين » •

ومن المتأمل في نظم هذا المشهد في جميع معارضه نجده يبدأ في « هود » بالتصريح بذهاب الخوف عن ابراهيم عليه السلام ، بينما لم يصرح بذلك في الحلقات الأخرى ، والسبب في ذلك أن حلقة « هود » لم يفصل فيها تبشير ابراهيم ولم يجر فيها حديث معه بهذا الشأن ، فناسب ذلك أن يصرح بذهاب الخوف عنه كلى لا يظن أنه مازال على خوفه وروعاه بدليل عدم وجود حوار معه ، وأما في الحلقات الأخرى فقد بشر ابراهيم صراحة وجرى في بعضها حديث معه ، وهذا كاف في بيان زوال الخوف عنه وذهابه بعد أن بشره وتحدث معهم •

كما نجد أن هذا المشهد يبدأ في « الحجر والذاريات » بسؤال ابراهيم للملائكة عن خطبهم وشأنهم الذي جاءوا من أجله • بينما لم يبدأ في « هود » بهذا السؤال • والسرف في هذا أن حلقة « هود » أشير في بدايتها الى المهمة التي من أجلها أرسل الملائكة « انا أرسلنا الى قوم لوط » فليس من المناسب لجزالة التنزيل ودقته واحكامه أن يسأل عن ذلك مرة أخرى ، لأنه سيكون سؤالاً عن المبين ، ولا بلاغة في السؤال عنه • بينما لم تبين وظيفة الرسل ومهمتهم في بداية حلقتي « الحجر والذاريات » فكان لابد لابراهيم عليه السلام من أن يسألهم عن خطبهم وشأنهم الذي أرسلوا اليه •

ولم يذكر شيء « في الحجر والذاريات » عن جدال ابراهيم بشأن لوط ومن آمن معه ، بينما أشير اليه اشارة موجزة في « هود » وغفل ووضح في « العنكبوت » • ولعل السرف في ذلك : أن الرسل حددوا مهمتهم في « الحجر والذاريات » بأنهم أرسلوا لاهلاك قوم مجرمين ، وهذا التحديد يخرج لوطاً ومن آمن معه من الدخول في المهاكين ، فلم يذكر في هذا المقام مقتضى لذكر جدال ابراهيم عن لوط ومن آمن معه ، لأن أمرهم واضح بهذا التحديد المبين للمهاكين •

أما في « هود » فقد قالوا « انا أرسلنا الى قوم لوط » وفي هذا القول تعميم يبعث على التساؤل والجدال عن مصير المؤمنين من هؤلاء القوم ومن ثم أشير الى جدال ابراهيم عنهم •

وفي العنكبوت « قاتوا انا مهلكوا أهل هذه القرية » وهذا تعميم أكثر دما هو في « هود » فكان هذا المقام مناسباً لتفصيل جدال ابراهيم في لوط ورد الملائكة عليه • أضف الى ذلك أن هذه الحلقة واردة في ثنايا قصة لوط مع قومه ، وهذا مقتضى آخر لتفصيل جدال ابراهيم في شأن لوط عليهما السلام •

ووصف ابراهيم عليه السلام في حلقة « هود » بقـونه
 تعالى : « ان ابراهيم لحليم اواه منيب » ووصف في سورة التوبة
 بقوله تعالى : « ان ابراهيم لأواه حليم » (٢٢) فوصف في « التوبة »
 بصفتين : التأوه والحلم مع تقديم وصف التأوه على الحلم ، ووصف في
 « هود » بثلاث صفات : الحلم والتأوه والادابة ، مع تقديم الحلم على
 التأوه .

بوجه ذلك — والله أعلم — أن الأواه ، الكثير التأود والتفجع ،
 والمراد في آية « التوبة » أن ابراهيم عليه السلام مع غلظة أبيه
 وتساوته طفق يدعو حتى قال له : « لئن لم تنته لأرجمك » و ابراهيم
 عليه السلام يتأوه تأمناً وتحصراً على ابايه عن اجابته واتباعه مع
 تالط ابراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه الى الايمان ، وكان عليه
 السلام ففرط ترحمه ورأفته وحلمه يتعطف على أبيه ويستغفر له ،
 ولم يزل على ذلك الى أن قطع الرجاء من حاله ، وتبين له أنه عدو
 لله فغضب منه ، فأخبر الله تعالى نبيه محمداً بما كان من أبيه ابراهيم
 في ذلك ليقتدى به ، ويهتدى بهديه ، فقال تعالى : « ما كان للنبي
 والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد
 ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢٣) ، وأعلمه تعالى بعدد
 ابراهيم في استغفاره ، وأن ذلك كان عن وعده تقدمت منه لأبيه ،
 فتقدم وصف ابراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه أواه لمناسبة حاله
 الذي تقدم تفصيله .

أما آية « هود » فمؤزنة في مجادلته في قوم لوط حرياً على وصفه

• (٢٢) التوبة : ١١٤

• (٢٣) التوبة : ١١٣

ببطلانه الحلم ، فتان تقديم وصفه هنا بالحلم أنسب وأجرى وروده
على ما بنى عليه . وبذلك جاء في كل موضع ما يناسبه (٢٤) .

هذا ما نقله « الغرناطي » وفحواه أن التأوه قدم في « التوبة »
لمناسبة احاد ابراهيم عليه السلام من التأسف والتحسر على حال أبيه
بعد أن تبين له مصيره باصراره على الكفر ، وقدم الحليم في « هود »
لأنه منسأ جداله عن قوم لوط غيبة الحنم عليه مما بعثه على الرغبة
في عدم التحجيل بالانتقام .

ولم يعرض لبيان السر في زيادة وصف « منيب » في « هود »
ولعل ذلك - والله أعلم - أن في جملة « يجادانا » اشعاراً بتكرار المجادلة
والأخذ والرد ، مما يوحي بشدة حنقه عليهم وحرصه على نجاتهم ،
فناسب ذلك أن يوصف بعدد أكثر من الصفات الدالة على فضيلة ،
والباعثة له على هذا الجدال المتكرر عنهم حتى قيل له « أعرض عن هذا » .
وتتنوع الأساليب التي أخبر بها ابراهيم عن عذاب قوم لوط ،
ففي « هود » أخبر بإشارة موجزة ولكنها صريحة « وانهم آتتهم عذاب
غير مردود » ، وكذلك في « العنكبوت » « انا مهلكوا أهل هذه القرية »
وفي « الحجر » لم يشر إليه صراحة ولكن أخبر بنجاة المؤمنين من أهله
وبقاء امرأته مع هؤلاء « الا آكل لوط انا لمنجـوهم أجمعين . الا
امرأته قدرنا انها لمن الغابرين » . وفي « الذاريات » فصل له العذاب
الذي يقع بقوم لوط « لفرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند
ربك للسرفين » .

والسر في ذلك - حسب علمنا - أن قصة ابراهيم في « هود »
أدقبتها قصة لوط مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً ، وقد ورد في قصة لوط
تفصيل وتوضيح للعذاب الواقع بقرمه « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها

ساقفها وأهطرنا عليها حجارة من سجيل منضود • مسومة عند ربك
وما هي من الظالمين ببعيد » (٢٥) • فلم يك من المناسب لدقة القرآن
واحكامه أن يخبر ابراهيم بهذا العذاب في قصته ، ويكرر ذكره في
قصة لوط التالية لها والمرتبطة بها على أن ذكره في قصة لوط أحق
وأزوم وهي به أولى • لأنها مختصة بقومه ومبينة لجناياتهم ، فيلزم أن
تختتم ببيان عقابهم الشديد الذي ترتب على هذه الجنايات البشعة •

وكذلك الحال في سورتي « الحجر » و « العنكبوت » • بل إن
ما يخص ابراهيم عليه السلام في حلقة « العنكبوت » عارض في ثانيا
قصة لوط نبيان موقف ابراهيم من هؤلاء القوم ، فليس من الجزالة
والدقة أن يفصل العذاب في وسط القصة ، ثم يعاد تفصيله في آخرها •
أما في سورة « الذاريات » فلم تذكر قصة لوط مفصلة عقيب
قصة ابراهيم ، بل اندمجت القصتان في قصة واحدة على نهج بديع ،
من خلال تفصيل العذاب الذي سيقع بقوم لوط لابراهيم عليه السلام ،
وجعل هذا آخر قصته ، مع كونه في ذات الوقت بداية ونهاية لقصة
قوم لوط وما وقع لهم بايجاز فريد ، وبذكره تنتهي قصتهم في السورة ،
فلم تذكر في موضع آخر ، وبذلك كان هذا هو الموضع المناسب اذكر
العذاب وتفصيله •

وفي الاخبار بنجاة لوط وأهله الا امرأته نجسد تنوعا في التعبير ،
ففي « الحجر » قيل : « الا آل لوط انا لمنجوهم أجمعين • الا امرأته
قدردنا انها لمن الغابرين » وفي « العنكبوت » قيل : « لننجينه وأهله
الا امرأته كانت من الغابرين » • ولم يذكر مثل ذلك في حلقة « هود »
ولا في حلقة « الذاريات » •

(٢٥) هود : ٨٢ ، ٨٣ •

(٢٦) هود : ٨١ •

ولعل السبب في ذلك أنه أرجى، ذكر ذلك في « هود » الى قصة نوط المتالية نقتصه ابراهيم فهي الأولى بذكره ، ووحى بعبارة مختلفة حيث قيل « قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر ياهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك انه محبيها ما أصابهم » (٢٦) فدل على وسيلة النجاة والتخلص من العذاب الذي سيقع على القرية وأهلها ، وأعلم بهلاك امرأته مع الهالكين • وفي حلقة « الذاريات » لم يذكر ذلك : لأن اخبار الملائكة برسالة الحجارة عقب بقوله تعالى : « فأخرجنا من كلن فيها من المؤمنين • فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » (٢٧) فكان هذا بيانا لمصير نوط عليه السلام والمؤمنين معه ، وقد أغنى ذلك عن ايراد مره ثانية •

أما في « الحجر » فقد ذكر ذلك لأن قصة « نوط » وردت عقب قصة ابراهيم ولم يذكر فيها ذلك ، وفي « العنكبوت » ورد هذا جوابا من الملائكة عن جدال ابراهيم عليه السلام ، والمقام يقتضى ذكره •

وأكد الكلام بان في « الحجر » دون « العنكبوت » ليتناسب مع الكلام المؤدّد قبله « انا أرسلنا » « انا لنجوههم » وعلى هذا النمط جاء « انها لمن الغابرين » ليتم التناسب • وقيل في « الحجر » : « الا امرأته كانت من الغابرين » • وذكر « الغرناطي » أن « قدرنا » معط من المعنى ما يعطيه « كانت » من غير فرق ، لأن المراد الحاقها بالهالكين واخراجها من الناجين ، وهذا المعنى هو المراد بقدرناها مشددا (٢٨) •

وهذا في رأيي غير دقيق لأنه وان كان المراد كما ذكر الا أن « قدرنا » تشعر بأن هلاكها أمرا مقدرًا محتوما لا دخل لها فيه ، وهي عاجزة عن رده أو عن الهروب منه • أما « كآذت » فتشعر بأنها السبب

(٢٧) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦ •

(٢٨) ملك التأويل : ١/٥٥١ •

في بقائها مع الهائلين . لأنها كانت منهم ، فالفعل مسند اليها وهي
السبب فيه •

وكل كلمة من الكلمتين السابقتين وقعت الموقع الملائم لها في النظم
بحيث لا يمتحن وضع واحدة منهما مكان الأخرى دون تغيير فيه • فتأكدنا
الأسلوب في الحجر بالا لا يناسبه استعمال « كانت » إذ لا يجمع بينها
وبين « أنها » في مثل هذا التركيب • وكذلك لا يحسن استعمال « قدرنا »
في « العنكبوت » مع بقاء التعبير على صورته •

تكمال الحقائق :

وبالتأمل في الحلقات الأربع التي عرضت قصة الملائكة مع ابراهيم
عليه السلام نرى أن كل حلقة منها كافية في موضعها ملائمة له مستقلة
في افادة ما جاءت لوصفه وحكايته ، وهي مع هذا الاستقلال تتكامل
مع باقى الحلقات وتشاركها في استيعاب القصة بأكملها دون نقص أو
خل ، فكل حلقة لا تستغنى عن الأخرى لما في كل منها من تفصيلات
وحكاية جزئيات لا توجد في الأخرى ، قد اقتضاهما المقام ، واستوجبها
انحمال •

وبهذا ينتهي عن هذه الحلقات وهم التكرار الممل ، والاعادة
المزدولة ، حيث تستأثر كل حلقة بتفصيلات لا توجد في الأخرى ، بجانب
تنويع النظم وتلوين الأسلوب كما بيناه آنفا •

ويستطيع التأمل في هذه الحلقات مجتمعة أن ينسج منها قصة
كاملة تفصل ما دار في هذا الخبر العجيب دون تكرار أو زيادة أو حذف ،
مما يبيد ما ذكرناه من تكامل الحلقات مع استقلال كل ماها بالافادة
اللتامة في موضعها •

ويضم هذا النسيج الموحد العناصر التالية :

(٢٢ — خصائص النظم)

- ١ - مجيء الرسل الى ابراهيم عليه السلام ومبادرته بالتحية •
 - ٢ - رد ابراهيم ، ووصف حاله ، وبيان ما فعله •
 - ٣ - تبشيره بالولد وموقفه من ذلك •
 - ٤ - تبشير امرأته وبيان موقفها من ذلك •
 - ٥ - سؤال ابراهيم الرسل عن مهمتهم ، وبيئتهم لها •
 - ٦ - جداله عن قوم لوط ورد الملائكة عليه •
- وعلى هذه العناصر تقوّم قصة الملائكة مع ابراهيم عليه السلام، ولر فصلناها وسلكتناها في نسيج واحد من خلال ضم ما يخص كل عنصر منها في سائر الحلقات لوجدنا قصة مفصلة الجوانب ، ترابطة السياق ، لا تطويل فيها ولا اخلاق •
- والمشاهد المذكورة في الحلقات تأتي في القصة على النحو التالي :
- « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى » هود : ٦٩ •
- « اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ الي أهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون » الذاريات : ٢٥-٢٧
- « فلما رأى أيديهم لا تصل اليه فكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف » هود : ٧٠ •
- « انا نبشرك بغلام عليم • قال أبشرتموني على أن مسنى الكبير هبم تبشرون • قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين • قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » الحجر : ٥٣ - ٥٦ •
- « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » هود : ٧١ •
- « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وتالت عجوز عقيم » الذاريات : ٢٩ •
- « يا ويلنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب • قالوا أتتعجبين من أمر الله » هود : ٧٢ ، ٧٣ •

- « كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » الذاريات . ٣٠ .
- « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد . فلما ذهب عن ابراهيم المروع وجاءته البشرى » هود : ٧٣ ، ٧٤ .
- « قال فما خطبكم أيها المرسلون . قتلوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين + انرسل عليهم حجارة من طين . دسومة عند ربك للمسرفين » الذاريات : ٣١ - ٣٤ .
- « انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين . قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بدن فيها لننجينه وأهله الا امراته كانت من الغابرين » العنكبوت : ٣١ ، ٣٢ .
- « ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيتهم عذاب غير مردود » هود : ٧٦ .
- ومن هذا نرى أن انحلقات الأربع تكون قصة مفصلة انجواب ، لا تكرر في مشاهدتها ، ولا زيادة في أجزاءها ، ولا حذف في مكوناتها ، وهذا من أحق ما أدلك على تكامل الحلقات وتكوينها قصة واحدة . ومن أعجب العجب أنها مع هذا التكمال قد جاءت كل حلقة منها كافية في موضوعها ، مستقلة في افادة ما يباط بها ، ملائمة لمكانها من النظم ، ويتحقق لديك هذا وتتيقن منه بقراءتك لتحليلنا السابق لكل حلقة على حدة .

وصدق الله العظيم القائل « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا » (٢٩)

الفصل الثالث

في رحاب البيت العتيق

أسكن إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وولادهما اسماعيل في هذا الوادي المقنر الخالي من الحياة واسببها عند بيت الله الحرام ، وتركهما في عناية الله تعالى ورعايته ، وليس معهما من الضعام والماء الا الشيء النقييل ، وتوجه الى الله عز وجل بالدعاء طالبا رحمة بهذه اذرية « ربنا انى أسكناك من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) •

ويستجيب الله دعاء إبراهيم وتتبع زمزم ويعمر المكان ، ويغدو إبراهيم عليه السلام على ذريته ، فيحمد الله تعالى على نعمه التي أغدقها عليه وعلى ذريته ، ويأمره الله تعالى برفع قواعد البيت الحرام في المكان الذي بوأه له ، وعمل إبراهيم بمشاركة اسماعيل عليهما السلام هذا العمل الجليل ، وهما يدعوان الله تعالى أن يتقبل عملهما ، ويتوب عليهما ، ويبعث في هذه الأمة من يرشدها ويهديها الى طريق الله المستقيم • وأمر الله تعالى إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج الى بيت الله العتيق ، بعد أن رفع قواعده وطهره للطائفين والمعاكفين والركع السجود • ويواصل إبراهيم الدعوة الى الاسلام حين الله الضعيف ، ويرضى أبناءه بالتمسك بالاسلام ، وتتوارث ذريته هذه الرضى الخاداة من بعده •

(١) إبراهيم : ٢٧ •

هذه الأحداث العظام فصلها النظم القرآني في ثلاث حقائق ،
وترتيبها حسب النزول :

- الأولى : في سورة ابراهيم • وهي سورة مكية •
- والثانية : في سورة البقرة • وهي سورة مدنية •
- والثالثة : في سورة الحج • وهي سور مدنية ، ونزولها متأخر
عن سورة البقرة (٢) •

وسنتناول في هذا الفصل تحليل النظم القرآني في هذه الحلقات
تحليلاً بلاغياً يبرز ما يحويه من أسرار التعبير ، ثم نتبع ذلك بالمقارنة
بين نظمها مبينين ما فيه من تشابه وتنوع مثلما فعلنا في الفصلين
السابقين •

الحلقة الأولى

دعاء ابراهيم في الحرم

قال الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام • رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم • ربنا الى أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أشئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون • ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء • الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء • رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء • ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب • » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه هى الحلقة الأولى من الحلقات التى تتصل بالبيت الحرام ودعاء ابراهيم فيه حسب ترتيب النزول ، وتحكى آيات هذه الحلقة جملة من دعاء ابراهيم عليه السلام ، لعلها صدرت عنه فى أزمنة متفرقة (٢) ، ونظمها القرآن الكريم فى سلك متصل ، للتذكير بها ، واخذ العظة والعبرة منها ، وتوجيه الناس الى الاقتداء بأبى الأنبياء عليه السلام فى الضراعة الى الله تعالى بما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم •

دعا ابراهيم ربه عز وجل للبلد الحرام بالأمن ، ولنفسه وبنيه بالهداية الى عبادة الله الواحد القهار ، واجتناب عبادة الأصنام ، وطلب

(١) ابراهيم : ٣٥ - ٤١ •

(٢) أبو السعود : ٥٤/٥

لذريته التي أسكنها عند البيت الحرام أن يعينهم الله على عبادته وشكره بأعمار المكان والانععام عليهم بالثمرات ، وأثنى على الله تعالى وحمده أن وهبه اسماعيل وإسحاق ، وسأله أن يوفقه وذريته لإقامة الصلاة ، ويغفر لهم وللمؤمنين يوم الحساب .

وقد وردت هذه الحلقة في سورة إبراهيم ، وهذه السورة تدور حول حقيقتين هامتين هما وحدة الرسالات والرسول في مواجهة الكفر والكفار ، فانه عز وجل أرسل الرسل بلغات أقوامهم لدعوتهم إلى توحيد الله تعالى وإسلام الوجه له جل شأنه ، والكفار في كل زمان ومكان ينكرون هذه الدعوة ويعتبرون الرسل بشراً مثلهم لا يتميزون عليهم ، ويعدلون على أيدائهم ، وأخرجهم من أرضهم . وهاتان الحقيقتان تتناسبان مع اسم السورة وعنوانها ، فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، وحامل راية التوحيد وملة الإسلام ، التي بعث بها خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام (٣) .

والآيات التي تسبق هذه الحلقة تشتمل على تعجيب من أمر كفار مكة الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وتذكر بآيات الله ودلائل قدرته ونعمه التي لا تحصى ومقابلة الناس لها بالكفران والجحود : وتأتي عقبها هذه الحلقة من قصة إبراهيم عليه السلام لتذكر هؤلاء بأبيهم إبراهيم الذي استقام على أمر الله تعالى ، وأنكر عبادة الأوثان ، وأعلن شكره وحمده وضاعته لله تعالى على ما آزره من نعم ، وما حباه من كرم ، وفي تذكيرهم بهذه المشاهد حث لهم على الاقتداء بأبيهم الذي يفخرون بالانتساب إليه ، ودعوة لهم إلى اتباع الرسول ﷺ ، وشكر الله تعالى على النعم التي وهبها لهم وأولاهم أياها . ومنها نعمة البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناء ، ورزقهم في رحابيه من جميع الثمرات .

(٣) ينظر في ظلال القرآن : ٢٠٧٩/٤ .

البدائية :

هذه الحلقة كلها دعاء لله تعالى ، وتشاء عليه ، وحمد له من ابراهيم عليه السلام ، وهي تبدأ بدعائين يتعلقان بأمرين لهما شأن عظيم في حياة الناس أولهما : الأمن والطمأنينة ، وثانيهما : العقيدة الصحيحة . قال جن شأنه : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلدا آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » وتقديم الدعاء بالأمن للوطن ، لما أن الانسان اذا عاش في وطن آمن مطمئن ساعده ذلك على معرفة الطريق الصحيح ، والمحافظة على عقيدته ، وعبادة الله تعالى بدون خوف من بطش أحد . ومن ثم هاجر ابراهيم عليه السلام من وطنه الى وطن يأمن فيه على دينه وعبادته وتبليغ دعوته ، وهكذا فعل نبينا محمد ﷺ .

وجملة « واذ قال ابراهيم ... » معطوفة على جملة « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » (٤) والمراد بها تأكيد هذا التعجيب لسانفها ببيان فان آخر من جنائتهم ، فانهم كما بدلوا نعمة الله كفرا أهملوا التمسك على ما بوأهم الله من النعم باجابة دعوة أبيهم ابراهيم عليه السلام وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة : وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالانعام عليهم كفرا بمفويض تلك النعم . ويجوز أن تكون مسطوفة على جملة « الله الذي خلق السموات والأرض » (٥) بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت منتها أهل مكة بحكم العموم الى ذكر النعم التي خص الله بها أهل مكة ، وغير الأسلوب في الامتنان بها الى أسلوب الحكاية

(٤) ابراهيم : ٢٨ .

(٥) ابراهيم : ٣٢ .

عن ابراهيم لانماج التتويه بابراهيم عليه السلام والتعريض بذريته
من المشركين (٦) •

والادماج ثون بديعى عرفه ابن أبى الاصمى بقونه : أن يدمج
المتكلم غرضا له في ضمن معنى قد نصاد من جملة المعانى ، ليؤهم
السامع أنه لم يقصده ، وانما عرض في كلامه لتتمة معناه الذى قصد
أليه ، كقوله تعالى : « وله الحمد فى الأولى والآخرة » (٧) فن هذه
الجملة أدمج فيها المبالغة فى الحمد ضمن المطابقة ، إذ أفرد نفسه
بمجانته بالحمد حيث لا يحمد سواه (٨) •

و « إذ » ظرف زمان والمشهور فى اعرابه أنه منصوب على المعنوية
لفعل محذوف تقديره : اذكر ، أى : وادكر وقت قول ابراهيم :
وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها
تلقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها ، لما أن ذكر الوقت ايجاب
اذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتت علىها ، فاذا
انه تحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا (٩) •

والتعبير يقال دون دعا ، لما فى القول من العموم فيشمل
اندعاء وغيره ، وما قاله ابراهيم عليه السلام منه دعاء رومه ها ليس
بدعاء • و « رب » نادى بحرف نداء محذوف ، وأصله « ربى »
حذفت ياء المتكلم تخفيفا ، وهو كثير فى المنادى المضاف الى الياء •
وفى حذف حرف النداء اشعار بقرب ابراهيم من ربه ، وفى ايثار الرب المتعز
ببتربيته والعناية به ، مع اضافته الى ضميره ايدان باجابه دعائه وتتحققا
رجائه •

(٦) التحرير والتنوير : ٢٣٧/١٣ ، ٢٣٨ • وأبو السعود : ٥٠٧/٥ •

(٧) القصص : ٧٠ •

(٨) بديع القرآن : ١٧٢ • وينظر خزنة الادب : ٤٨٤/٢ •

(٩) أبو السعود : ٧٩/١ •

والبلاد : المكان المحيز من الأرض ، ويطلق على القرية ، واللام فيه للعهد ، والمراد مكة المكرمة ، وابهامه لتعيينه في علم المخاطبين ، وقد بين بعد ذلك بقوله « عند بيتك المحرم » ، والبلد : بدل من اسم الإشارة ، والإشارة لتعظيمه وتفخيمه ، مع تمييزه أكمل تمييز بواسطة الإشارة إليه • و « آمنة » اسم فاعل ، وهذه الصيغة يمكن أن تكون تناسب كلابن وقامر ، أى : ذا آمن ، ويمكن أن يكون الاسناد مجازياً ، على أنه مجاز عقلى علاقته المفعولية •

ويأتى الدعاء الثانى « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » أى بعدنى وأياهم أن نعبد الأصنام • « واجنبنى » أمر من « جنب » الثلاثى ، يقال : جنبته الشيء بفتح النون أى نحيت عنه ، والجنب والجانب الناحية ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جنب غير ما عليه غيرد ، ثم استعمل بمعنى البعد (١٠) •

والتعبير بـ « اجنبى » دون ابعدنى ، لما فى « اجبى » من معنى البعد وزيادة معنى آخر هو جعله فى جانب آخر غير ما هى فيه • واتوصل بين هذا الدعاء وسابقه للتوسط بين الكملين ، لاتحاد الجملتين فى الانشائية مع التناسب • والمراد من الدعاء بالنسبة لابراهيم عليه السلام طلب الثبات والدوام على التوحيد ودين الاسلام ، والبعد عن عبادة الأصنام •

والمراد ببنيه أبناء صلبه ، وهم يوهنئ اسماعيل واسحاق فهو من استعمال الجمع فى انتقائية ، وقيل المراد جميع نسله تعميماً للحير ، فاستجيب له فى البعض (١١) • وأن والفعل فى تأويل مصدر تقديره : عبادة الأصنام ، وفى استعمال الفعل المضارع إشارة الى عدم وقوعهم فى عبادتها ، ويطلب لهم الثبات على ذلك مستقبلاً •

(١٠) الصحاح • مادة : جنب ، وحاشية الشهاب : ٢٧٢/٥ •

(١١) ينظر الالوسى : ٢٣٤/٧ ، ١٣/٧ ، والتحرير والتنوير : ٢٣٨/١٣ •

والأصنام : جمع صنم ، وهو تمثال يصنع من حجارة أو خشب أو غير ذلك • وتأنيت الأصنام لأنها جمع مالا يعقل فيخبر عنه اخبار المؤنث (١٢) •

ولما طلب ابراهيم من ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام علل ذلك الدعاء بأن الأصنام تسببت في ضلال كثير من الناس « رب انهن أضللن كثيرا من الناس » وهذا التعليل يحمل نبرة التحسر والشكوى الى الله تعالى مما فعلته الأصنام بالناس وفي تصديره بدعاء الرب من التأكيد للاعتناء ببيانه ، وتقوية مضمونه ، والاهتمام ببيت الشكوى الى الله تعالى •

وفي اسناد الاضلال الى الأصنام مجاز عقلي علاقته السببية ، فمن الأصنام جمادات لا تفعل شيئا ، واكثها سبب في الضلال ، فأسند الفعل الى سببه ، في ذلك اشارة الى قوة السبب وأثره الكبير في الاضلال كأنه هو الفاعل لذلك •

وفي تقييد الاضلال بكثير دلالة على شيئين : وجود بعض الناس الذين لم تضلهم الأصنام ، وكثرة من أضلتهم الأصنام من الناس • وقد استنبط ابراهيم عليه السلام هذه الكثرة لأنه خرج من بده أور الكلدانيين انكارا على أهلها الذين يعبدون الأصنام ، وذهب الى مصر ووجدهم يعبدون الأصنام ، ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام (١٣) ، وهكذا كلما دخل بلدا وجد أهلها عاكفين على عبادة الأصنام ، حيث كانت عبادتها تسود العالم •

وفرع على هذا التعليل تقسيم الناس قسمين : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم » • و « من » في قوله « مني » يحتمل أن تكون تبعية على التشبيه أي فإنه كبعضي في

(١٢) البحر المحيط : ٤٣١/٥ •

(١٣) ينظر التحرير والتنوير : ٢٣٩/١٣ •

عدم الانفكاك . لفرط اختصاصه بى ، ويحتمل أن تكون اتصالية ، أى فأنه متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين ، كما فى قوله ﷺ لعلى كرم الله وجهه «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» ، وتسميتها اتصالية لأنه يفهم منها اتصال شىء بمجرورها (١٤) • وإلغاء لربط الجواب بالشرط، وتأكيد الجواب لنقوية مضمونه •

وقوله «ومن عصانى» أى وهن لم يتبعنى ، والتعبير عن عدم اتباعه بالعصيان للإيذان بأن عليه السلام مستمر على الدعوة • وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (١٥) • وفيه تأويل للتعبير باستعمال الاتباع ثم العصيان المفيد لعدم الاتباع وبين الاتباع والعصيان طباق معزوى لسا بينهما من تضاد فى المعنى ، فالاتباع طاعة ، وعدم الاتباع عصيان •

وقوله «فإنك غفور رحيم» ينبىء عن كلام مطوى أى : ومن عصانى فليس منى وأفوض أمره اليك فإنك غفور رحيم • وفى هذا التفسير تأدب من إبراهيم عليه السلام فى الدعاء (١٦) حيث ترك أمر العاصى الى الله تعالى ولم يقطع فى شأنه بشىء •

والإتيان بالمغفرة والرحمة إشارة الى أن إبراهيم عليه السلام يود لمن عصاه المغفرة والرحمة • وفى هذا تبدو سمة إبراهيم المطرف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصونه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، وإنما يكلمهم الى غفران الله تعالى ورحمته (١٧) •

(١٤) ينظر انكشاف : ٢/٣٨٠ ، وأبو السعود : ٥/٥١ ، والألوسى

• ٢٣٤/١٣/٧

(١٥) أبو السعود : ٥/٥١ •

(١٦) ينظر التحرير والتنوير : ٢٤٠١٣ •

(١٧) فى ظلال القرآن : ٤/٢١٠٩ •

دعى سوق دعاء ابراهيم عليه السلام بابعاده وبنيه عن عبادة الأصنام ، وتبرئته من عبدتها حيث لم يجعلهم منه ، تعريضاً بمشركي العرب الذين يعبدون الأصنام ويدعون أنهم من نسله وذريته .
دعاء وثناء :

ويتواصل دعاء ابراهيم عليه السلام لذريته الذين أسكنهم عند بيت الله الحرام مقدماً بين يدي دعائه لهم شدة الخوف لهم انى معونة الله عز وجل وعنايته « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وقوله « انى أسكنت من ذريتى ... » تمهيد للدعاء ببيان حال من يدعو لهم من ذريته ، وشدة حاجتهم الى رعاية الله عز وجل . وبدىء بدعاء الرب سبحانه وتعالى زيادة فى التضرع ، واستجاباً للإجابة ، وتأكيدهم للدعاء السابق ، وفي هذا ضرب من الربط بين الجمل المفتحة بالدعاء ربط المثل بمثله (١٨) .

وجيء بصمير الجماعة فى « ربنا » خلافاً لسابقه ، لأن الدعاء المنصوب به ، والتمهيد الذى قدم بين يديه متعلق بذرية ابراهيم عليه السلام ، فأشركهم معه فى الدعاء ، ولأن التضرع لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول إجابة المسئول (١٩) .

ويرى أبو حيان أن مجيء ضمير الجماعة لتقدم ذكر ابراهيم عليه السلام وذكر بنيه فى قوله « واجنبنى وبنى » (٢٠) وهذا غير

• (١٨) التحرير والتنوير : ٢٤٠/١٣

• (١٩) أبو السعود : ٥١/٥

• (٢٠) البحر المحيط ٤٣٢/٥

دقيق لأنه إن كان اذك لحيء بضمير الجماعة في قوله « رب انهن اضلان »
مراجعة له أيضا •

وأكدت الجملة بان لتقوية مضمونها ، و اظهار الاهتمام به •
و « هن » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتي ، والمراد : اسماعيل عليه
السلام وبن سبولد له بدليل الجمع في قوله « ليفيهوا الصلاة » ،
وأسكان اسماعيل حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم (٢١) •
والمرادى : الأرض المنخفضة بين الجبال • و « غير ذى زرع »
صفة له ، واثبته على غير مزروع أو لا يزرع ونحو ذلك ، لما أن
المراد أنه لا يصلح للزرع بسبب تربته الحجرية ، وكلمة « ذو » تدل
على صاحب ما أضيفت اليه ، فإذا قيل : ذو مال ، فالمسال ثابت له ،
وإذا أريد ضد ذلك قيل : غير ذى مال • وعلى هذا جاء قوله تعالى :
« أنا عربيا غير ذى عوج » أى لا يعثره شىء من العوج (٢٢) •
و « عند بيتك » ظرف الأُسْحَدت كقولك : صليت بمكة عند الركن ،
وتين : صفة ثانية لواد ، واختار بعض العلماء الأول لأنه ينزل على أن
المتصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مبادئه لحض التقرب الى
الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان
الحرية المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره (٢٣) • وفى اضافة
أثبت الى الله سبحانه وتعالى تشریف لشأنه ورفع مكانته •

وتسميته بيتا ولم يكن له بناء وقت الدعاء من قبيل اجاز المرسل
باعتبار ما كان عليه من قبل ، فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب
فيه ، أو باعتبار ما نسيئول اليه الأمر من بنائه عليه السلام ، واختصار

(٢١) أبو السعود ٥١/٥ •

(٢٢) الألوسى : ٢٣٧/١٣/٧ ، والتحرير والتنوير ٢٤١٧/١٣ •

(٢٣) الألوسى : ٢٣٧/١٣/٧ •

أبو السعود للتوجيه الأول (٢٤) • والقولان مبنيان على أن دعاء إبراهيم عليه السلام كان رقت أسكانه اسماعيل وأمه حاجر بهذا الوادي قبل بنائه البيت •

ويرى الشيخ ابن عاشور أن هذا الدعاء صدر من إبراهيم عليه السلام بعد زمن من بزاء الكعبة ، وتقرى مكة ، كما دل عليه قوله في دعائه هذا « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل وإسحاق » فذكر إسحاق عليه السلام (٢٥) • وقد ولد بعد اسماعيل بأربع عشر سنة • وما استدلل به لا يدل على ما ذهب إليه ، لأن هذه الأدعية لم تكن في وقت واحد بدليل دعائه فيها لوالديه بالمغفرة ، واستغفاره لأبيه كان قبل اعتزاله ، وقبل انجابيه مطلقا •

و « المحرم » صفة للبيت ، ووصف بهذا الوصف لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه • وقيل غير ذلك (٢٥) • ويشير قوله « عند بيتك المحرم » إلى شرف المكان الذي أسكنهم به ، فهو مكان مجاور لبيت الله الحرام ، وحسه شرقا وبقعة بهذا الجوار •

وعلى أسكانهم في هذا المكان بقوله « ربنا ليقيموا الصلاة » وتكرير النداء وتوسيطه بين العلة والمعلول لتأكيد النداء الأول والتنبيه عليه ولزيادة الضراعة ، ولاظهار كمال العناية بأقامة الصلاة ، وإلاهتمام ببيان أن الغرض من أسكانهم بذلك الوادي البلقع هو ذلك المقدس الأقصى والمطلب الأسنى (٢٦) •

واللام لام كى ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها ، والجار

• (٢٤) أبو السعود : ٥٢/٥

• (٢٥) الكشف : ٣٨٠/٢ وينظر الأوسى ٢٣٧/١٣/٧

• (٢٦) أبو السعود : ٥٢/٥

والمجرور متعلق بأسنت ، أى أسكنتهم لاقامة الصلاة • وتخصيص الصلاة بالذكر من بين شعائر الدين لفضلها ، وتكررها مع الأوقات •

والمعنى - على ما يقتضيه كلام صاحب الكشاف وغيره - قائم على الحصر ، أى : ما أسكنتهم هذا الروادى الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتق الا ليقوموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بذنوبهم وعبادتك (٢٧) • واختلف فى وجه افادة الحصر ، فقيل . ان الحصر مستفاد من السياق ، فإنه عليه السلام لما قال « بواد غير دى زرع » نفى أن يكون أسكانهم للزراعة ، ولما قال : « عند بيتك المحرم » أثبت أنه مكان عبادة ، فلما قال : « ليقوموا الصلاة » أثبت أن الاقامة عنده عبادة ، وقد نفى كونها للكسب ، فجاء الحصر ، مع ما فى « ربنا » من الاشارة الى أن ذلك هو المقصود • وقيل : ان الحصر مستفاد من التعليل ، وقد استدل الامام مالك بقوله تعالى : « لتكبرها » (٢٨) على حرمة أكل الخيل والبغال والحمير • وقيل : ان الحصر مستفاد من تقدير محذوف مؤخر يتعلق به الجار والمجرور ، أى : ليقوموا الصلاة أسكنتهم هذا الاسكان (٢٩) •

وبعد هذا التمهيد الذى قدمه بين يدي دعائه استجابا للاجابة فزرع عليه دعائين لهم :

الأول : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » ولفاء تشير الى أن ما تقدم من بيان حالهم هو من مبادئ اجابة دعائه وتحقق رجائه عليه السلام ، وما بعد اللفاء مترتب ومبنى عليه •

(٢٧) الكشاف : ٢ / ٣٨٠ •

(٢٨) النحل : ٨

(٢٩) الألوسى : ٧ / ١٣ / ٢٣٨ •

والأفتدة : جمع فؤاد ، وهو القلب ، وهي مفعول أول لاجعل ، ومفعوله الثاني جملة « تهوى » ، والمراد : فاجعل أناسا يهون اليهم ، ونظ الأفتدة يشير الى أن يكون مسير الناس اليهم عن شوق ومحبة ، ما حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد (٣٠) .

واختلف في معنى « من » فقيل انها تبعيضية ، أى : أفتدة من أفتدة الناس ، ويدل على ذلك ما روى عن مجاهد : لم قال أفتدة الناس لزمه متكم عليه فارس والروم . وقيل انها ابتدائية ، كقولك انقلب منى سنيم ، تريد قلبى ، فكأنه قيل : أفتدة ناس (٣١) . وقال الشيخ ابن عاشور انها بيانية ، لأن التبعيض هنا لا طائل تحته ، والمعنى : فاجعل أناسا يقصدونهم بحبات قلبهم (٣٢) .

ورى أن اعتبارها بيانية هو ما لا طائل تحته : لأن الأفتدة لا تحتل أن تكون من جنس آخر غير الناس حتى يبين أنها أفتدة من الناس لا من هذا الجنس الآخر ، أما كونها تبعيضية فيفيد أنها أفتدة بعض الناس لا كلهم كما هو مشاهد على مر العصور . و « تهوى » مضارع هوى بفتح الهاء والواو . هوىيا بضم الهاء وكسر الواو : أى سقط الى أسفل (٣٣) . والمراد : تسرع أيهم وتطير نحوهم شرقا ونزاعا (٣٤) ، ولذلك عدى بالى لتضمنه معنى الميل والشوق والنزوع فى استعمال « تهوى » بمعنى تسرع استعارة تبعية ، وإيثار « تهوى » لما فيها من دلالة على نهاية السرعة التى لا يحجبها شيء ، لأنها مسقوط من أعلى الى أسفل .

(٣٠) التحرير والتنوير : ٢٤١/١٣ .

(٣١) الكشف : ٣٨٠/٢ .

(٣٢) التحرير والتنوير : ٢٤٢/١٣ .

(٣٣) الصحاح . مادة : هوى . (٣٤) الكشف : ٣٨٠/٢ .

والتعبير كناية عن محبة الناس لهم ، وشوقهم لزيارتهم ، وفيه
 رقة ورفرفة تصور القلوب رفاة مجنحة ، وهى تهوى الى ذلك البيت
 وأهله ، فى ذلك الوادى الجديب (٣٥) .

والمراد من هذا الدعاء أعمار هذا المكان المجديب بقدم اناس
 اليه ، واختلاطهم بذريته ليأنسوا بهم ، وتقضى حاجاتهم ، ويطيب لهم
 المقام بجوار بيت الله الحرام ويفرغون لعبادة الله رب العالمين .

وقد استجاب الله دعاء ابراهيم عليه السلام ، وكانت أول آثار
 هذه الدعوة ما روى أنه مرت رقة من « جرحم » تريد الشام فرأوا
 الطير تحوم على الجبل ، فقالوا ان هذا الطائر لعائف على اناء ،
 فأشرفوا فإذا عم « بهاجر » فقالوا لها : ان شئت كنا معك وآنسناك
 والماء مأوك ، فأذنت لهم ، وكانوا معها الى أن نسب اسماعيل عليه
 السلام وتزوج منهم (٣٦) .

والدعاء الثانى : « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وهو
 معضوب على الدعاء الأول ، والوصل للتوسط بين الكمالين ، لاتحادهما
 فى الانشائية مع التناسب . و « من » للتبعيض و « دن الثمرات » أى من
 أنواعها ، ومن للتبعيض ، والثمرات جمع ثمرة ، والتعريف للاستغراق
 العرفى ، أى من جميع أنواع الثمرات المعروفة للناس . و « لعلهم
 يشكرون » رجاء داخل فى الدعاء ، جعل تكلمة له تعرضا لاجابة ،
 وزيادة فى الدعاء لهم بأن يكفروا من الشاكرين (٣٧) . وفى طى مفعول
 يشكرون تنزيل للمتعدى منزلة اللازم ، ليوصفهم بالشكر على الاطلاق
 من غير اعتبار تقييده بمفعول معين .

(٣٥) فى ظلال القرآن : ٤ / ٢١١٠ .

(٣٦) أبو السعود : ٥٢ / ٥ .

(٣٧) المحررين والتنوير : ١٣ / ٢٤٢ .

وهذا الدعاء يعنى توفر أسباب الانقطاع للعبادة ، وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب • وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا إنما ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات (٣٨) •

وبهذين الدعائين جمع ابراهيم عليه السلام لذريقته أسباب الحياة في واد خال من الحياة في ذلك الوقت ، وتقديم الدعاء الأول على الثاني لما أن الأول من أسباب الثاني ، فاناس حينما يفدون عليهم سيحملون معهم من خيرات بلادهم ما يستطيعون ، ويتم البيع والشراء وتبادل المنافع ، فتزدهر الحياة ، ويتحقق الخير والرخاء •

وفي دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب ، والمحافظة على قوانين الزراعة ، وعرض الحاجة واستئزال الرحمة واستجواب الرأفة ما لا يخفى ، فانه عليه السلام بذكر الوادى غير ذى ررع بين كمان افتقارهم الى المسئول ، وبذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاصة النعيم ، وبعرض كون ذلك الاسكان - مع كمال اعواز مرافق المعاش - لمحض اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت هد جميع مبادئ اجابة السؤال ، ولذلك قرنت بدعوته عليه السلام بحسن القبول (٣٩) • وأجاب الله دعوته فجعله حرماً أهذا تجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف ، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفي أى بلاد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التى يرىها الله بوادى غير ذى زرع ، وهى اجتماع البواكير وأنفواكه المختلفة الكثر من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب (٤٠) •

(٣٨) السابق • والألوسى : ٢٤٠/١٣/٧

(٣٩) أبو السعود : ٥٣/٥ • (٤٠) الكشاف : ٣٨٠/٢

ويبتذل الدعاء ثناء من ابراهيم عليه السلام على ربه عز وجل بعلمه الكامل الشامل ، لما في الذنن من خفى وجنى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء» وفى ثناء على الله تعالى بعلمه التام لجميع المعنومات اشارة الى انه جن ثناؤه عليم بما ذكره ابراهيم من ضلال كثير من الناس ، وبمن اتبعه وبمن عصاه ، وبذريته التى أسكنها عند البيت الحرام ، وبمراده من اسدانهم فى هذا المكان . وفى هذا تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه فى جميع الأحوال ، ويخلصوا النية اليه (٤١) .

وفى افتتاح هذا الثناء بثناء الرب سبحانه وتعالى أشعار بأن الثناء نظرا لسبق ذكرهم ، وليتم الاتساق مع ما يأتى من أفعال مسندة ويظهر مزيد الصراعة والخشوع لرب العالمين ، وهذا من مقدمات الدعاء ودواعى اجابته . وتكرار نداء الرب عز وجل دليل التضرع والابتهاال الى الله سبحانه وتعالى .

واضافة « رب » الى ضمير الجماعة لاشراك ذريته معه فى عذا الثناء نظرا لسبق ذكرهم ، وليتم الاتساق مع ما يأتى من أفعال مسندة الى ضمير الجماعة ، وبهذا فلا عبرة بما قاله أبو حيان من أنه لا يظهر تفاوت بين اضافة « رب » الى ياء المتكلم وبين اضافته الى جمع المتكلم (٤٢) . وتأكيد الجملة لتقوية ما تثبته من حكم الله تعالى . وخطاب الله تعالى يشعر بحضور ابراهيم عليه السلام فى مقام المشاهدة يخاطب دولاه رب العالمين .

و « ما » موصولة والعاائد محذوف ، وقيل انها مصدرية . وبين « نخفى » و « نعلن » طباق أسبغ على التعبير جمالا بروعة ، وأضفى

(٤١) التحرير والتنوير : ٢٤٣/١٣ .

(٤٢) البحر المحيط : ٤٣٣/٥ .

على المعنى قهراً وشمولاً بما أثبتته الله تعالى من علم بما يخفون وما يعلنون
وتقديم « ما تخفى » على « ما نعلن » لتحقيق المساواة بينهما في تعلق
العلم بهما على أبلغ وجه ، فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن ،
ولأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن ، فما من شيء يعلن
إلا وهو قبل ذلك خفى ، فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى أقدم من
تعلقه بحالته الثانية (٤٣) • وفي عدم تقييد الفعلين « نخفى » و « نعلن »
بمتعلق معين أفادة العموم والشمول ، فعلم الله تعالى بما يخفون
وما يعلنون ليس مقصوراً على شيء محدد ، بل هو شامل لكل ما يخفونه
وبما يعلنونه • ومن هنا فمحل لتقييد الفعلين بمتعلق معين كما شاع
في كثير من كتب التفسير (٤٤) •

وضمير الجماعة في « نخفى » و « نعلن » لأن المراد ليس مجرد
علمه تعالى بصره وعلمه بل بجهيع خفايا الملك والملكوت ، وقد حقق ذلك
بقوله على وجه الاعتراض « وما يخفى على الله من شيء في الأرض
ولا في السماء » ، لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت
الوجود كائن ما كان في زمان من الأزمان إلا بوجوده في ذاته علم
بالنسبة إليه سبحانه (٤٥) •

وهذه الجملة تبيين جر مجرى المثل ، يؤكد الحكم السابق ،
ويثبت علم الله تعالى بجميع المعلومات في الكون • وفيها التفتت من
الخطاب في « انك » التي الغيبة في لفظ الجلالة • وفي الانتفات الى
اسم اندات المستجمة الصفات تربية للمهابة ، واشمار بعة الحكم
على نهج قوله تعالى « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٤٦) •

(٤٣) أبو السعود : ٥٣/٥ •

(٤٤) ينظر الألوسي : ٢٤١/١٣/٧ • رغبه •

(٤٥) أبو السعود : ٥٣/٥ •

(٤٦) الملك : ١٤ •

وايذان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص بابراهيم أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء ، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مسح لبدأ الكل (٤٧) • كما فيه ايذان باستقلال جملة التدبير •

و « من » للاستغراق ، و « شيء » يشير الى العموم والشمول وتكثيره ليتناول كل شيء مهما كان دقيقا • و « في » متعلقة بمحذوف يقع صفة لشيء ، أى من شيء كائن فيهما • وبين الأرض والسماء طابقا يبرز المعنى ويؤكد به بما فيه من تضاد • وتكرار النفي والتجارية مع المعطوف عليه يؤذن باستقلاله في الحكم المنفى ، وليس تابعا فيه لما قبله ، فعلم الله تعالى بما في السماء يستوى مع علمه سبحانه بما في الأرض ، وتقديم الأرض على السماء ترتيب طبعى باعتبار القرب والبعد من البشر ، والمناسبة السماء للفاصلة بما فيها من مد قبل نهايتها •

ومجيء الجملة على طريقة نفى الخفاء دون أن يقال : ويعلم ما في السموات والأرض ، تحقيقا لما عناه بقوله « تعلم ما نخفى » من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى ، كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات (٤٨) • ولما في هذه الطريقة من تحقيق التناسق بين نظم هذه الجملة ونظم الجملة السابقة ، حيث بنيت الجملة السابقة على اثبات علم الله بما يخفون وما يعلنون ، وبنيت هذه الجملة على نفى خفاء شيء عن علم الله تعالى •

وعقب هذا الثناء بثناء آخر وهو اعلان الحمد لله تعالى على أن وهبه اسماعيل واسحاق مع كبر سنه « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء » • ان ابراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه ، يحمده ويشكره على ما أنعم به عليه من نعم

(٤٧) أبو السعود : ٥٣/٥ •

(٤٨) السابق •

سابقة يحيى في ظلالها ، فيذكر أعظمها أثرا في نفسه وهي نعمة الانجاب بعد التبر لما دعا ربه « رب هب لي من الصالحين » (٤٩) • لقد عهد من ربه اجابة دعائه لأنه سميع الدعاء ، ومن ثم فهو مطمئن الى اجابة هذا الدعاء • وفي ذكر هذا الثناء تعليم لذريته أن يحمداوا الله تعالى على ما حباهم من نعم لا تعد ولا تحصى •

والحمد هو الثناء على الجميل • وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور « لله » • وفي تعليق الحمد أولا باسم الذات ، ووصفه تعالى ثانيا بما في حيز الوصول تشبيهه على أنه تعالى مستحق للحمد باعتبار ذاته جل شأنه ، ومستحق له باعتبار صفاته وأفعاله •

وفي اسم الموصول ايماء الى وجه بناء الحمد • وفي التعبير بوجه اشعار بأن هذه النعمة هبة محضه ، وعطاء خالص لا مدخل للأسباب العادية فيه •

و « على الكبر » جار ومجرور في موضع الحال ، و « على » بمعنى « مع » أى مع كبرى ويأسى عن الولد ، كما في قول الشاعر :

انى على ما ترين من كبرى أعرف من أين تؤكل الكتف

ويصح جعل على بمعناها الأصلية ، والاستعلاء مجازى ، ومعنى استعلائه على الكبر أنه وصل غايته فكأنه تجاوزه وعلا ظهره كما يقال : على رأس السنة ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى (٥٠) وتقييد الهبة بكونها على الكبر استعظاما للنعمة ، واذلها لشكرها ، قال الزمخشري وإنما ذكر حال الكبر لأن الملة بهبة الولد فيها أعظم من حيث انها حال وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل

(٤٩) الصفات : ١٠٠ •

(٥٠) الألوسى : ٢٤٢/١٣/٧ •

بأنعم وأحلاها في نفس الظافر ، ولأن الولادة في تلك السن العالية آية
لابراهيم عليه السلام (٥١) .

وعلت الهبة بقوله « ان ربي لسميع الدعاء » وهو تعليل على
طريقة التذييل للهبة المذكورة ، وفيه ايدان بتضاعف النعمة فيها حيث
وقعت بعد الدعاء بقوله « رب هب لي من الصالحين » فاقترنت للهبة
بقبول الدعوة (٥٢) . وفصلت الجملة عما قبلها على نمط الجمل التعليلية
وأكدت بان واللام لتأكيد وتقوية الحكم الذي تثبته لله تعالى . وفي
التعبير برى مضافة الى ضميره - مع سبق التعبير في صدر الآية باسم
الجلالة - اشارة الى عناية الله به ورعايته له ، واجابة دعائه ، فهو مربيه
ومالك أمره ، مع ما في ذلك من تلوين للأسلوب بالمغايرة بين كلماته .
وفي اظهار الرب في موضع الاضمار اشعار باستقلال جملة التذييل ،
بجانب دلالة على المعاني التي أشرنا اليها .

وتوحيد ضمير المتكلم في « ربي » مع كونه مذكورا عقيب ذكر
هبة اسماعيل واسحاق لابراهيم عليه السلام ، لما أن نعمة الهبة
هائضة عليه خاصة ، واسماعيل واسحاق عليهما السلام من النعم لا من
المنعم عليهم (٥٣) .

و « سميع » بناء مبالغة على وزن فعيل ، أضيف الى مفعول وهو
« الدعاء » وهذه الصيغة تدل على القوة والكمال في اثبات معناها ،
كما تفيد الثبوت والاستمرار فوصف الله تعالى بأنه سميع الدعاء ثابت
بومستمر . وفي سميع الدعاء اشعار بقبوله واجابته . وهذه الجملة مع
كونها تعليل على طريق التذييل فهي من نعمة الحمد والشكر لله تعالى
لما فيها من وصفه سبحانه بأن قبول الدعاء سنته المستمرة .

(٥١) الكشاف : ٣٨١/٢ .

(٥٢) أبو السعود : ٥٤/٥ ، والالوسي : ٢٤٣/١٣/٧ .

(٥٣) أبو السعود : ٥٤/٥ .

وتواصل الآيات عرض دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه وذريته
 « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء » • وفي تكرار
 ابتداء زيادة ضراعة وابتهاال الى الله تعالى لاجابه دعائه • وتوحيد ضمير
 فى « رب اجعلنى ••• » مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال « ومن
 ذريتى » للاشعار بأنه المقتدى فى ذلك ، وذريته أتباع له ، وأن ذكرهم
 بطريق الاستطراد ، لا كما فى قوله « ربنا انى أسكنت ••• » فان أسكانه
 مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد
 للدعاء الذى هو مخصوص بذريته (٥٤) •

و « مقيم الصلاة » أى مثابرا عليها ، مستمرا فى أقامتها ، أو
 معدلا لها ، فيكون مجازا ، من أقمت العود اذا فومته وعدلته (٥٥) ،
 وفى صيغة اسم الفاعل اشعار بالدوام والاستمرار على ذلك •

وقوله « ومن ذريتى » صفة لموصوف محذوف معطوف على ياء
 المتكلم والتقدير : واجعل مقيمين للصلاة من ذريتى ، و « من »
 ابتدائية ويجوز أن تكون تبعيضية ، بناء على أن الله أعلمه أن بعضا من
 ذريته لا يكون مقيم الصلاة ، أو يكون علم ذلك من استقرائه سنة الله
 تعالى فى الأمم الماضية (٥٦) ويضرع ابراهيم الى ربه « ربنا وتقبل
 دعاء » وفى المجيء بضمير الجماعة اشعار باشتراك ذريته المذكورين فى
 هذه الضراعة •

انخاتمة :

وتختتم هذه الدعوات الصالحات بدعاء هر غاية أهل الآملين ،
 وهمعقد رجاء الراجون « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم

(٥٤) السابق

(٥٥) الألوسى : ٢٤٣/١٣/٧

(٥٦) التحرير والتنوير : ٢٤٤/٦٣ ، والألوسى : ٢٤٣/١٣/٧

الحساب « ادعا ابراهيم ربه أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين كافة يوم القيامة ، وانما طلب المغفرة لوالديه قبل أن يتبين له أمر والده ، حسبما يفسره قول الله تعالى : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » (٥٧) .

وجيء بضمير الجماعة في « ربنا » للايدان يشترك الكثر في الدعاء بالمغفرة . وبدأ ابراهيم بالدعاء لنفسه ، ثم لأقرب الناس اليه ، ثم لجميع المؤمنين ، جريا على سبيل الأولوية . وتكرار حرف الجر مع المعطوفين للدلالة على أصالة الدعاء بالمغفرة لهما .

و « يقوم الحساب » أي : يثبت ويتحقق ، واستعمال القيام في ذلك اما على سبيل المجاز المرسل ، أو الاستعارة ، كما في قولهم : قامت الحرب والسوق ونحو ذلك ، أو يكون الكلام على سبيل الاستمارة المكنية : شبه الحساب برجل قائم منتصب للعمل ، وأثبت له القيام على سبيل التخيل ، أو يكون على تقدير مضاف محذوف ، أي أهل الحساب ، أو يكون في الكلام مجاز عقلي . حيث أسند الى الحساب ما هو لأهله مجازا (٥٨) ، وهذا من اسناد الفعل الى سببه الغائي أي يقوم أهل الحساب لأجله (٥٩) .

وعلى كل فالجملة لها دلالة قوية على تهويل ذلك اليوم العظيم الذي تنتشر فيه الكتب ، وتتصب الموازين ، ولا تظلم نفس شيئا .
وبهذا الدعاء المشعر بالنهاية تختم الحلقة .

(٥٧) التوبة ١١٤ .

(٥٨) ينظر الكشف : ٢/٢٨٢ ، وحاشية الشهاب : ٥/٢٧٤ .

(٥٩) أنطول : ٥٨ .

الحلقة الثانية بناء البيت الحرام

قال الله تعالى :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظلمين • واد جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقم ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بييتي للطائفين والعاكفين والركع السجود • واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير • واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسامة لك وأرنا مفاسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم • ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين • ووصى بها ابراهيم بنبيه ويعقرب يا بنى لن الله اصطفى لكم الدين فلا تهوتن الا وأنتم مسلمون • أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون • تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (١)

(١) البقرة : ١٢٤ - ١٣٤ •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة البقرة ، وتمثل الحلقة الثانية فيما يتصل بالبيت الحرام وندعاء إبراهيم عليه السلام فيه ، وهي تحكى ابتلاء الله تعالى لإبراهيم بالتكليف وعهده اليه بتطهير البيت الحرام للطائفين والمعاكفين والركوع المسجد • وبناء إبراهيم وأسماعيل عليهما السلام للبيت الحرام ، وودعائهما في ساحته • وتعقب على ذلك ببيان دين إبراهيم عليه السلام ، ووصيته لبنيه وذريته من بعده بالنمسك به •

وهذه الآيات ارادة بعد حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويبين تعصبهم وقولهم «لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى» (٢٨) وذكر اختلافهم وتخاصمهم «وقالت اليهود لبست النصارى على شيء وقالت النصارى لبست اليهود على شيء وهم يتنازرون الكتاب» (٣) •

وتبع ذلك حديث القرآن الكريم عن فداحة ظلم المنعيين من ذكر اسم الله في المساجد ، والسعى في خرابها ، والاشارة الى القبلة وتوجه الناس الى ربهم « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » (٤) ثم الحديث عن ارسال الرسول ﷺ بالحق بشيرا ونذيرا ، وبيان حقد اليهود والنصارى عليه وعدم رضاهم عنه حتى يتبع ملتهم ، وتخذييره من ذلك • « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ماتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (٥)

• (٢) البقرة : ١١١

• (٣) البقرة : ١١٣

• (٤) البقرة : ١١٥

• (٥) البقرة : ١٢٠

وتتجه الآيات إلى بنى إسرائيل شكرهم بنعم الله تعالى ، وتأميرهم بتقواه عز وجل والاستعداد ليوم القيامة حيث « لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة ولا هم ينصرون » (١) .
 وبعد هذا تأتي قصة إبراهيم عليه السلام ، وهي تتناسب مع ما سبقها من حديث عن أهل الكتاب المختلفين في ملته ، والمنتاحرين حول كونه من اليهود أو النصارى ، ومع ما جرى من ذكر المساجد والقبلة ، حيث بينت بناء البيت الحرام ، وأوضحت أن دينه هو الاسلام . وفي ذكر قصته تعريف للمشركين بحقيقة إبراهيم ودينه الصحيح ليقنعوا عما هم عليه من شرك ، ويهتدوا إلى الاسلام الذي كان يدين به نظراً لأنهم كانوا يعظمونه ويعتبرونه أباهم الأعلى .

البداية :

لما كانت هذه الحلقة تشتمل على بعض التكاليف التي كلف بها إبراهيم عليه السلام كبناء البيت الحرام ، وتطهيره للطائفين والعابدین ناسب ذلك أن تبدأ ببيان ابتلاء الله تعالى لإبراهيم بالتكاليف الشرعية ، واختباره بأوامره ونواهيه ، ونجاحه في ذلك . وما ترتب على هذا من جعله اماماً للناس ، فقال تعالى : « واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى بجاءك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين » .

وهذا من براعة الاستمالة ، حيث بدئت الحلقة بحكاية أمر عام ، ترد تفاصيله في سرد مشاهدتها وأحداثها .

و « اذ » ظرف تعددت آراء العلماء في بيان متعلقه : فقيل منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر ، أى : واذ ابتلاه فان دبت وكيت ...

وقية من ضرب بما سيأتى من قوله تعالى « قال انى جاعلك » ، والمشهور
 أن منصوب به ضم مقدم تقديره : اذكر أو اذكروا وقت ابتلائه عليه
 السلام ، وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث
 مع أنها المقسرة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها ، لما أن ايجاب ذكر
 الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق اللفظى ، ولأن الوقت مشتمل
 عليها ، فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا (٧) .
 واختار أبو السعود الرأى المشهور ، وقال انه هو اللائق بجزالة
 التنزيل (٨) وهو يستند فى هذا الى أن الأصل فى المتعلق أن يكون متقدما
 وتأخيره انما يكون لسر يقتضيه المقام ، ولطول الفصل بين الضرف
 ومعلقه فى الاعرابين الأولين .

وعلى هذا تكون جملة « واذا ابتلى ... » معطوفة على ما قبلها
 عطف القصة على القصة ، والجامع بينهما الاتحاد فى المقصد ، فان
 المقصد من تذكير بنى اسرائيل وتخويفهم فى الآيتين السابقتين « يبنى
 اسرائيل اذكروا نعمتى ... » هو تحريضهم على قبول دين الاسلام ،
 واتباع الحق ، وترك التعصب ، وحب الرياسة ، وكذلك المقصد من
 ذكر قصة ابراهيم عليه السلام وشرح أحواله (٩) .

ويمكن أن يكون « اذ » منصوبا بمضمرة معطوفة على « اذكروا »
 فى الآية السابقة التى تأمر بنى اسرائيل بالتذكر ، ويكون الخطاب هنا
 لبنى اسرائيل أيضا : ليتأملوا فيما يحكى عن يثتمون الى ملتته من
 من ابراهيم وأبنائه عليهم السلام ، فيقتدوا بهم ، ويسيروا
 سيرتهم (١٠) .

(٧) أبو السعود : ٧٩/١

(٨) السابق : ١٥٤/١

(٩) الأوسى : ٣٧٣/١/١

(١٠) أبو السعود : ١٥٤/١

والابتلاء : افتعال من البلاء • يقال : بلى الثوب بلى وبلاءه أى خلق • ويراد به الاختبار ، ويلوته : اختبرته ، دَلَّى أخذته من كثرة اختبارى له (١١) ، وإطلاق الابتلاء على الاختبار مجاز مشهور ، لأن الذى يكلف غيره بشيء يكون تكليفه متضمنا لانتظار فعله أو تركه ، فيلزمه الاختبار فهو مجاز على مجاز (١٢) •

قال الراغب : وإذا قيل ابتلى فلان كذا وأبلاه ، فذلك يتضمن أمرين : أحدهما : تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره ، والثانى : ظهور جودته وردائه • • فإذا قيل فى الله تعالى : بلى كذا أو أبلاه ، فليس المراد منه إلا ظهور جودته وردائه دون التعرف على ما يجهل من أمره ، إذ كان الله علام الغيوب ، وعلى هذا قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأثمن » (١٣) •

وقال الزمخشري : واختبار الله عبده مجاز عن تهكيه من اختيار أحد الأمرين كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك (١٤) وفضل الطيبي ذلك فقال : اختبار الله عبده لا يكون بطريق الحقيقة ، لأن الاختبار حقيقة إنما يصح فيمن خفى عليه العواقب ، بل هو مجاز على طريق التهويل ، شبه حال الله والعبد فى تمكيه من الأمرين : الطاعة والمعصية ، وإرادة الطاعة منه ، بحال المختبر مع المختبر ، ثم عبر عنها بالاختبار (١٥) •

وحاصل كلام الزمخشري والطيبي أن المراد بالابتلاء والاختبار التكليف على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وكلام الراغب يشعر بأنه مجاز باعتبار إطلاقه على ما هو الغاية منه (١٦) •

(١١) المفردات : ٦٠ • (١٢) التحرير والتنوير : ٧٠٦/١ •

(١٣) المفردات : ٦١ ، ٦٢ •

(١٤) الكشاف : ٣٠٨/١ •

(١٥، ١٦) حاشية الشهاب : ٢٣٢/٢ •

وفي لفظ الابتلاء اشعار بصعوبة التكليف ومشقتها ، وحاجتها الى صبر وجلد وقوة تحمل ، وفي صيغة الافتعال مبالغة فيما يشعر به لفظ الابتلاء .

و « ابراهيم » مفعول به مقدم ، وهو واجب التقديم عند جمهور النحاة لئلا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة (١٧) • و « ربه » فاعل مؤخر والمهاء مضاف اليه • وفي تقديم المفعول عاياه واهتمام ببيان من وقع عليه الابتلاء ، وتجذب التعقيد اللفظي الذي كان سيحدثه عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة •

وفي ذكر اسم الرب ، و اضافته الى ضمير ابراهيم تشريفا له عليه السلام ، وايدان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح الأمر خطير ينط بابراهيم عليه السلام ، ولو قدم الفاعل ما كان هذا الأسلوب الموجز •

والكلمات : جمع كلمة ، وهي في الأصل اللفظ المفرد ، وتستعمل في الجمل المفيدة أيضا ، وتطلق على معاني ذلك ، لما بين اللفظ والمعنى من العلاقة (١٨) • وتفسير الكلمات أقوال عديدة تبلغ ثلاثة عشر قولا (١٩) والذي أميل اليه أنها التكليف التي كلف الله بها ابراهيم ، وهذا قول جامع تدرج فيه كل الآراء • وأجمت الكلمات هنا لأن الغرض ليس تفصيل شريعة ابراهيم ، ولا بسط القصة والحكاية ، وإنما الغرض بيان فضل ابراهيم ببيان ظهور عزمه وامتناله للتكليف (٢٠) • وعبر بالكلمات عن الوظائف التي كلفها ابراهيم عليه السلام ، لأن تكليفها كان عن طريق الكلام ، فسميت به ، كما سمي عيسى كلمة

(١٧) الفتوحات الالهية ١/١٠٢ •

(١٨) حاشية الشهاب : ٢/٢٣٣ •

(١٩) الأوسى : ١/١/٣٧٤ •

(٢٠) التحرير والتنوير : ١/٧٠٣ •

لأنه صدر عن كلمة وهى « كن » ، وتسمية الشيء بمقدمته أحد قسمي المجاز (٢١) . واطلاق الكلمات على المعانى عند البلاغيين من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الدالية ، وهى كون الشيء يدل على شيء آخر (٢٢) وتكثير الكلمات مع جمعها جمع مؤنث سالم يشعر بغضامتها وعظمتها وحاجتها الى صبر في تنفيذها وان كانت قابلة للعدد .

وتبين الآية هوقف ابراهيم عليه السلام من هذا الابتلاء بجملة موجزة هى قوله تعالى « فأتهمن » أى فقام بهن حق القيام ، وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان (٢٣) . والفاء تشير الى قيامه بهن على الفور ، وعدم توانيه فى اتمامهن . والضمير المنصوب للكلمات ، وتعددية الفعل « أتم » التى ضمير « كلمات » محاز عقلى ، وهو من تعليق الفعل بحاوى المفعول ، لأنه كالمكان له ، فالأفعال هنا بمعنى ايقاع الفعل على الوجه الأتم ، وليس المراد أنه صيرها تامة بعد أن كانت ناقصة . فدل قوله فأتهمن مع ايجازه على الامتثال الفورى ، مع الاتقان والاحسان (٢٤) .

وبهذا نجح ابراهيم عليه السلام فى الابتلاء الذى امتحنه الله تعالى به ليعده لأمر عظيم هو جعله اماما للناس . ومعاملة ابراهيم معاملة المختبر ، وتذكير ذلك للناس لارشادهم الى طريق اتقان الأمور . بينائها على التجربة ، وللايدان بأن بعثة النبى محمد ﷺ أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة ، واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة (٢٥) .

- (٢١) القرطبي : ٤٨٣/١ . (٢٢) عنوم البلاغة : ٢٦٢ .
 (٢٣) الكشاف : ٣٠٩/١ .
 (٢٤) التحرير والتنوير : ٧٠٣/١ .
 (٢٥) أبو السعود : ٦٥٥/١ .

(٢٤ - خصائص الأنظم)

وتبين الآية فضل الله تعالى على ابراهيم عليه السلام بعد نجاحه في الاختبار « قال انى جاعك للناس اماما » فأخبره الله عز وجل أنه اختاره اماما للناس وقدوة لهم ، وهذا شرف عظيم لابراهيم عليه السلام ، لا يبادلُه شرف آخر • ويختلف موقع هذه الجملة تبعا لاعراب الظرف « اذ » في أول الآية ، فعلى القول بأنه منصوب بمضمر ، تكون الجملة مستأنفة ، وفصل بينها وبين سابقتها للاستئناف البيانى ، حيث وقعت جوابا عن سؤال تثيره الجملة السابقة ، كأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات ؟ فقيل : قل : انى جاعك للناس اماما ، وعلى القول بأنه منصوب يقال : تكون الجملة معطوفة على ما قبلها ، والرواق فى المعنى داخل على قال • ويجوز أن تكون الجملة بيانا وتفسيرا لقوله تعالى « ابدئى » ، ويكون المراد بالكلمات ما ذكر من الامامة، وتطهير البيت ورفع قواعده ، وغير ذلك (٢٦) ، وعلى هذا يكون الفصل بينها وبين سابقتها لكامل الاتصال ، لكونها بيانا وتفسيرا لما سبقها •

ولم تعطف على سابقتها بالفاء ، فلم يقل : فقال للاشعار بأن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه ، لا بسبب اتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهى لا تنال بكسب انكاسب (٢٧) وتأكيد الجملة بان اتقوية الحكم المستفاد منها واثبات وقوعه ، وفي التعبير باسم الفاعل « جاعل » دلالة على أن جملة اماما للناس أمر ثابت متقرر •

وفي قوله « انى جاعك » التثنية : الأول فى « انى » حيث عبر عن المولى جل شأنه بضمير المتكلم بعد أن عبر عنه بضمير الغيبة ، والاسم الظاهر « رب » وهو من قبيل الغيبة ، والثانى فى « جاعك » حيث عبر

(٢٦) ينظر الكشاف : ٣٠٩/١ : والبيضاوى : ٥٠ :

(٢٧) التاج : ٣٨٤/١ •

عن ابراهيم عليه السلام بضمير الخطاب بعد التعبير عنه بضمير الغيبة؛ والاسم الظاهر وهو من قبيل الغيبة • وفي الالتفات الأول يشعر ضمير التكلم بأن الله ذو القدرة الغالبة التي لا يعجزها شيء ، هو الذي جعله اماما للناس ، ولا راد لحكمه • وفي الالتفات الثاني يشعر الخطاب بالترقى في الحديث من مقام الغيبة الى مقام المشاهدة والحضور ، ومواجهة ابراهيم عليه السلام بالخطاب ؛ تبشيرا له بالفضل الكبير الذي جعله الله له ، بعد قيامه بما كلف به خير قيام •

و « للناس » اما متعنى بجعل ، أى جاعلك لأجل الناس ، واما متعلق بمحذوف وقع حالا من « اماما » أى اماما كائنا أهم • وتقديم ايجار والمجرور على المفعول الثانى فيه اهتمام ببيان عموم امامته مؤبدة باقية على مر العصور ، ولا يضر مجيء الأنبياء بعده ، لأنه لم يبعث نبي بعده الا كان من ذريته مأمورا باتباع منته في الجملة ، وقيل غير ذلك (٢٨) •

والمراد بالامام هنا الرسول ، فان الرسالة أكمل أنواع الامامة ، والرسول أكمل أفراد هذا النوع ، وانما عدل عن التعبير برسولا الى اماما ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل اليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء (٢٩) •

ويصل الحوار في الآية بين ابراهيم وربه عز وجل ، فبعد أن بين له أنه جاعله اماما للناس سأله ابراهيم أن يمنح هذا الفحص لبعض ذريته « قال ومن ذريتى » أى قال ابراهيم واجعل من ذريتى أئمة للناس • وفي عبارة القرآن الكريم ايجاز بديع • والجملة مفصلة عما قبلها للاستئناف ، كأن سائلا سأل : فماذا قال ابراهيم عندما بشره ربه بجعله اماما للناس ؟ فقيل : قال ومن ذريتى •

(٢٨) الألبوسى : ٢٧٥/١/١ •

(٢٩) التحرير والتنوير : ٧٠٤/١ •

وقوله «ومن ذريتي» معطوف على الكاف في «جاعلك» و «من» تبعيضية متعلقة بجاعل ، أى : وجاعل بعض ذريتي ، أو متعلقة بمحذوف أى واجعل فريقتا من ذريتي اماما (٣٠) . وهذا العطف يسمى عطف الخلقين ، وهو عطف المخاطب كلاما على ما وقع في كلام المتكلم تنزيلا لنفسه منزلة المتكلم فيكمل شئيا تركه المتكلم ، بحيث يلتئم من الكلامين كلام تام في اعتقاد المخاطب ، كما تقول : وزيدا لمن قال : سأكرمك (٣١) . وعلى هذا فجملة «ومن ذريتي» خبر في معنى الطاب ، أى واجعل بعض ذريتي ، وعبارة القرآن الكريم فيها من البلاغة ما فيها ، حيث جعلت تنمة الكلام السابق ، وكأنها مستحقة وواقعة مثل ما عطفت عليه ، وفي العدول عن صيغة الأمر للمبالغة في الثبوت ، ومراعاة الأدب بالاحتراز عن صورة الأمر المشعرة بالاستعلاء ، مع الإيجاز في الكلام ونظير هذا العطف ما روى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اللهم ارحم الملقين» ، قالوا : والمتصرين يا رسول الله . قال : اللهم ارحم الملقين قالوا : والمتصرين يا رسول الله . قال : والمتصرين (٣٢) .

والذرية نسل الرجل وما توألد منه ومن أبنائه وبناته ، ولم ينس إبراهيم ذريته وهو في غمرة فرحه بفضل الله تعالى عليه ، فسأل ربه أن يجعل من ذريته أئمة للناس . وقد جرى عليه السلام في ذلك على سنة الفطرة ، فإن الانسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له ، يجب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها ، ليكون له حظ من البقاء جسداً وروحاً ، كما راعى عليه السلام الأئيب في طلبه ، فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها ، لأنه الممكن ، وفي هذا مراعاة لسنن

(٣٠) أبو السعود : ١٥٦/١ .

(٣١) ينظر التحرير والتنوير : ٧٠٤/١ .

(٣٢) الألوسى : ٣٧٦/١/١ .

الظرة أيضا ، وذلك من شروط الدعاء وآدابه ، فمن خالف في دعائه
 بحن الله في خليقته أو في شريعته فهو غير جدير بالاجابة (٣٣) .

ويجيب المولى عز وجل إبراهيم الى طلبه « قال لا ينال عهدى
 الظالمين » وهذا استئناف مبنى على سؤال مقدر ، ومن ثم فصل عن
 سابقه ، وهذا نهج متبع في حكاية المحاورات في القرآن الكريم . وقد
 أجاب الله إبراهيم اجابة خفية ووعده عدة اجمالية بنشراف بعض ذريته
 عليه السلام بنيل عهد الامامة حسبما وقع في طلبه عليه السلام (٣٤) ،
 ونم يعين هذا البعض تعيينا قاطعا ، انما ذكر الفريق الذى لا تتحقق
 فيه الامامة ، ومنه يفهم الفريق الذى تتحقق فيه هذه الامامة : لأر حكم
 أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر ، وفي ذلك من الايجاز ما لا يخفى (٣٥)
 وذكر الصنف الذى لا تتحقق فيه الامامة دون الصنف الآخر لأنه
 مبهم في دعاء إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من انصنف الذى
 تتحقق فيه الامامة ، وفي ذكره تعريض بأهل الكتاب والمشركين الذين
 يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم ، وهم في الحقيقة بعيدون عنه كل
 البعد ، ومحرومون من دعوته ، وليسوا جديرين بالامامة لظلمهم (٣٦) .
 واثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادئ الامامة من ذريته
 وارسال الباقيين لتلا ينظم المقتدون بالأئمة من الأمة في سلك المدرومين
 وفي تفصيل كل فرقة من الاضباب ما لا يخفى . وأوثر الميل على الجعل
 ايماء الى أن امامة الأبناء عليهم السلام من ذريته ليست بجعل مستقل
 بل هي حاصلة في ضمن امامة إبراهيم عليه السلام ، تقال دلا منهم في
 وقت قدره الله عز وجل (٣٧) .

• (٣٣) المنار : ١/ ٣٧٥

• (٣٤) أبو السعود : ١/ ١٥٦

• (٣٥، ٣٦) ينظر الالوسى : ١/ ٣٧٧ ، والتحرير والتنوير : ١/ ٧٠٦

• (٣٧) أبو السعود : ١/ ١٥٦

وفي العهد وجوه ذكرها العلماء أحدثها : الإمامة ، وقيل . عهدى
 أى رحمتى ، وقيل : طاعتى وقيل : أمانى • والمختار الأقول الأول ،
 لأن قوله « ومن ذريتى » طلب لتلك الإمامة التى وعده الله بها بقوله :
 « انى جاعك لنفاس اماما » فقوله « لا يزال عهدى الظالمين » لا يكون
 جوابا عن سؤال ابراهيم الا اذا كان المراد بهذا العهد تلك الإمامة (٣٨) •
 وتسمية الإمامة عهدا مع اختلافه الى الجليل يشعر بعظمة الإمامة ،
 وعلو مكانتها ، ووجوب المحافظة عليها لأنها عهد من الله تعالى ، يجب
 حفظه ، ومراعاته •

والظلم وضع الشيء فى غير موضعه المخصص به اما بنقصان أو
 بزيادة ، ويقال فى مجاوزة الحق كثيرا أو قليلا (٣٩) • والظلم أنواع
 منها : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس يابغى ••• ومن ظلم أى
 لون من الظالم فقد جرد نفسه من حق الإمامة ، أسقط حقه فيها ••••
 والإمامة المنوعة على الظالمين كل معنى الإمامة والقيادة ، فالعدل
 هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من صورها (٤٠) •

البيت الحرام ومقام ابراهيم :

ويعد أن بدأت الحلقة ببيان مكانه ابراهيم عليه السلام ، وتفضيل
 الله له بجعله اماما للناس ، تمضى فى ذكر بعض فضائل البيت الحرام ،
 وجهود ابراهيم واسماعيل فى تطهيره واعداده للعبادة « واذ جعلنا
 البيت ذنابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى
 ابراهيم واسماعيل أن طورا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » •
 والآية تنسب على ثلاثة أحكام : الأول : « واذ جعلنا البيت

• (٣٨) الرازى : ٤٦٨/١

• (٣٩) المفردات : ٣١٥

• (٤٠) فى ظلال القرآن : ١١٢/١

مثابة للناس وأمنا» والبواو عاطفة على « ابتلى » واذا ظرف ، كثر
 للإشارة الى استقلال القصة ، وأنها جديرة بأن تذكر ويعتبر بها على
 انفراد ، لما حوته من أخبار عظيمة ، ومناقب جليلة .

والبيت : علم غالب على الكعبة ، وهو مفعول أول ، ومثابة :
 مفعول ثان ، وأصل الثوب رجوع الشيء الى حالته الأولى التي كان
 عليها والثوب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله ، فيسمى
 الجزاء ثوبا تصورا أنه هو هو (٤١) .

و « مثابة للناس » أى مباءة ومرجعا للحجاج والعمار ، يتفرقون
 عنه ثم يثوبون اليه ، أى يثوب اليه أعيان الذين يزورونه أو
 أمثالهم (٤٢) . واللام فى الناس للجنس وهو الظاهر ، وقيل للعهد
 أو للاستغراق العرفى (٤٣) . والتعبير بإلفظ « مثابة » دون غيره
 كالتصدي والمزار ، لأنه يتضمن هذا المعنى وزيادة ، فإنه لا يقال : تاب
 المرء الى الشيء الا اذا كان قصده أولا ثم رجع اليه . . . وهذا الوصف
 يصدق برجوع بعض زائريه اليه ، وحزين غيرهم وتمنيهم له عند
 عجزهم عنه (٤٤) .

« وأمنا » عطف على مثابة ، وهو مصدر وصف به البيت بالمبالغة
 فى اثبات الأمنية له على سبيل المجاز ، كأنه نفس الامن ، وهو ذاته آمن
 وطمأنينه وسلام . ويمكن أن يكون من ايقاع المصدر مع اسم الفاعل
 أى آمنا ، فهو مجاز عطفى من اسناد ما للمفعول الى الفاعل أى آمنا من
 حجة وزاره . أو على تقدير مضاف محذوف أى دا آمن (٤٥) . ولم

(٤١) المفردات : ٨٣ .

(٤٢) الكشف : ٣٠٩/١ .

(٤٣) الألوسى : ٣٧٨/١/١ .

(٤٤) المنار : ٣٧٨/١ .

(٤٥) ينظر الشهاب : ٢٣٦/١ ، وأبو السعود : ١٥٧/١ .

يذكر للناس هنا كما ذكر مع « مثابة » اكتفاء به على سبيل الأيجاز ، وفي تركه اشعار بعموم الأمن لكل شيء ، أي أنه أمن لكل شيء كأننا ما كان من الانسان والطير والحيوان ، ويدخل فيه أمن الناس دخولا تولىسا (٤٦) •

وفي التذكير بهذه النعمة الجليلة ما نفيه من الفائدة في تقرير دعوة النبي ﷺ ، وبيان بنائها على أصول ملة ابراهيم عليه السلام الذي تحقرمه قريش وغيرها من العرب (٤٧) • وفي هذا دعوة لهم الى اتباع دعوة الرسول ﷺ ومناصرتة •

ويأتي الحكم الثاني في الآية وهو « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » قرأ نافع وابن عامر واتخذوا بفتح الخاء على أنه فعل ماض معطوف على جعلنا ، وقرأ الباقون بالكسر على أنه أمر ، والواو داخلة على مقدر يقع حالا من فعل « جعلنا » أي وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا ، والمأمور بذلك الناس • وفائدة الأمر استحضار صورة المسأورين حاضرين ، والأمر بوجه اليهم ، فهو تصوير للماضى بصورة الحاضر ، ليقع في نفس مخاطبين بالقرآن أن الأمر يتناولهم ، وأنه بوجه اليهم كما وجه الى سلفهم في عهد أبيهم ابراهيم (٤٨) • والوصل بين جملة « واتخذوا » وجملة قبلها للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجماتان في الخبرية مع انتاسب ، فجملة « واتخذوا » انشائية نفظا خبرية في المعنى (٤٩) •

ومجىء هذه الجملة بصيغة الأمر خلافا للتي قبلها والتي بعدها فيه

(٤٦) الألوسى ١/١/٣٧٨ •

(٤٧) المنار : ١/٣٧٨ •

(٤٨) المنار : ١/٣٧٨ •

(٤٩) ينظر مفتاح العلوم : ٢٦٠ •

إشعار بأهمية ما تتطوى عليه من حكم ، نظرا لأنه يتعلق بعبادة عملية مستحبة من جميع المسلمين •

والمقام : اسم مكن من القيام ، واحتلف في معناه على أقوال منها . أنه الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة ، وهو ما يعرفه الناس اليوم ويصلون عنده ركعتي الطواف ، وقيل : هو الكعبة ، وقيل الحرم كله مقام إبراهيم ، واختار القرطبي الرأي الأول وصححه ، وهو ما عليه جمهور المفسرين (٥٠) • والمصلى : موضع صلاة يصلى عندها ، وقيل غير ذلك (٥١) •

وتوضح الآية التحم الثالث « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ظهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » • والعهد : الأمان واليمين ، والدمه ، والوصية ، وعهدت إليه أى أوصيته (٥٢) • والمراد بالعهد هنا الأمر ، قال الحسن البصرى معناه : أمرهما الله أن يظهراه ، وقال ابن جريج قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره ، وعدى بالي لأنه في معنى أوحينا (٥٣) •

واستعمال العهد في الأمر مجاز على سبيل الاستعارة ، وإيثار العهد على الأهر لأن العهد أقوى من الأمر ، لأنه يقوم على الرضا من الطرفين ، والاتفاق على موضوع العهد وبنواده ، فهو أقوى من الأمر الذي يأتي من طرف واحد • ومن ثم قال أبو السعود : أمرناهم أمرا مؤكدا (٥٤) •

وفسر العهد بـ « أن ظهرا ••• » ويجوز في أن وجهان : أحدهما أنها تفسيرية لقوله « عهدنا » لأنه يتضمن معنى التقبول لأنه بمعنى

(٥١،٥٠) ينظر القرطبي : ٤٩٨/١ ، ٤٩٩ • والألوسى : ٣٧٩/١/١

(٥٢) الصحاح : مادة « عهد » •

(٥٣) ابن كثير : ١٧١/١ • (٥٤) أبو السعود : ١٥٧/١ •

أمره أو وصيا . . . والثاني أن تكون دمجية . والأصل بأن ظهرها
وحذفت الباء (٥٥) .

والمراد بتطهير البيت تنظيفه من كل ما يليق به من الأوثان
والنجاسات الحسية والمعنوية . والأصل في بينى التشريف والتعظيم .
وفي الأسلوب إيضاح بعد ابهام ، وتفسير بعد أجمال . وهو من ألوان
الاطناب ، وفيه تشويق للذفس ، وأثارها للوقوف على تفسير العهد ،
وبوروده عليها يتمكن فيها فضل تمكن .

و « الطائفين » جمع طائف ، اسم فاعل من طاف يطوف ،
و « العاكفين » جمع عاكف . اسم فاعل من عكف يعكف . والعكوف معناه
اللزوم ، والعاكفون : المقيمون فيه المأزموون له . والرکح السجود أى :
المصلين . وفي التعبير عنهم بذلك مجاز مرسل علاقته انجزئية . ويوصفوا
بالركوع والسجود دون غيرهما من سائر أفعال الصلاة لأنها أقرب
أحوال المصلي الى الله تعالى ، وهما الركبان الأعظمان ، وكثيرا ما يكتفى
عن الصلاة بهما . وإيثارهما على لفظ المصلين مع اختصاره للايذان بأن
المعتبر صلاة ذات ركوع وسجود لا صلاة أخرى كصلاة أهل الذناب ،
وقدم الركوع لتقدمه في الزمان . وللتقرب بينهما ذاتا وزمانا وتأثرهما
في الصلاة ترك العاطف بينهما . وللتباين بين الطائفين والعاكفين جيء
بالعاطف بينهما . وجمع الوصفان الأولان جمع سلامة ، وجمع
الأخيران جمع تكسير للمقابلة وتويع الأسلوب والتنفيذ فيه . ورفولف ،
بين جمعي تكسيرهم في الصيغة زيادة في التفتن والتنويع . وآخر وصف
معول على فعل لكونه فاصلة ويتناسب مع الفواصل لما فيه من حرف
المد قبل آخره (٥٦) .

(٥٥) الفتحوات الالهية : ١٠٤/١ .

(٥٦) ينظر أبو السعود : ١٥٨/١ ، والألوسی : ٣٨١/١/١ .

والتحرير والتنوير ٧١٢/١ .

وقد أفادت الجملة القرآنية أن الله عز وجل عهد إلى إبراهيم وإسماعيل أن يقوموا بتطهير البيت الحرام واعداده للطائفين والعاكفين والراكعين والمساجدين ، وفي ذكر ذلك تعريضاً للمشركين • بأنهم ليسوا أهلاً لعمارة المسجد الحرام ، لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه ، ولم يقوموا بما يجب نحوه •

دعاء إبراهيم للبلد الحرام وأهله :

وتمضى الآيات فتذكر بدعاء إبراهيم عليه السلام للبلد الحرام وأهله « واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المدير » •

والآية معطوفة على ما قبلها ، وذكرت اد ليبيان أهمية مضمونها ، وأحقيته بأن يذكر به على انفراد ، ويهدد على سبيل الاستقلال •

وهي تشتمل على دعوتين محكيين عن إبراهيم عليه السلام ، وتعقيب من الله تعالى يبين سعة حرمة ورحمته • فالدعاء الأول هو « رب اجعل هذا بلداً آمناً » • سأل إبراهيم ربه أن يجعل هذا المكان بلداً آمناً ، وهذا غير ما في الآية السابقة التي أثبت الله فيها الأمن للبيت « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » وهنا يسأل إبراهيم ربه الأمن للبلاد كله لا للبيت وحده •

ورب : منادى بحرف نداء محذوف ، وفي حذف حرف النداء اشعار بقرب إبراهيم من ربه ، وناداه بلفظ الرب مضافاً إلى ضميره لما في ذلك من التلطف في السؤال ، واستدعاء الإجابة ، فهو يدعو ربه الذي امتن عليه بتربيته ورعايته •

وهذا : اشارة الى المكان أو البرادى المذكور فى قوله تعالى « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » (٥٧) • والمسئول على هذا شيئين : البلادية والأمن وقيل الاشارة الى البلد ، والمسئول على هذا شىء واحد هو الأمن (٥٨) • والبلد : المكان المتسع من الارض المتحيز عامرا أو غامرا ، ويطلق على الأرض مطلقا ، كما يطلق على القرية أيضا (٥٩) • وتكبير « بلدا » للنوعية ، أى بلدا من نوع البلاد الآمنة • ووصفه بأمن يخرج على وجهين : أما على الحقيقية ، فيكون من باب النسب أى ذا أمن ، أى صاحب أمن لمن فيه ، أما على الاسداد المجازى ، ففيه مجاز عقلى علاقتة المشعولية ، والأصل : مأمونا أو آمننا أهله •

والدعاء الثانى : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » وهو معطوف على اجعل ، والوصل بينه وبين سابقه للتوسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجملتان فى الانشائية مع التاسب بينهما فى كونهما دعاء للمكان وأهله •

ومن للتبويض ، والثمرات : جمع ثمرة ، واللام للاستعراق العرفى ، أى من جميع الثمرات المعروفة للناس (٦٠) • وجمع القلة فيه اظهار لناقاعة والرضا بالقليل • وخص ابراهيم المؤمنين بدعائه فقال « من آمن منهم بالله ، واليوم الآخر » وهو بدل من « أهله » بدل بعض من كل ، وفى تخصيصهم بالدعاء اظهار نشرف الايمان ، وابانة لخطره ، واهتمام بشأن أهله ، ومراعاة لحسن الأدب ، وفيه ترغيب لقومه فى

• (٥٧) ابراهيم : ٣٧

• (٥٨) ينظر الكشاف : ٣١٠/١ والشهاب ٢٣٦/١

• (٥٩) التحرير والتنوير : ٧١٤/١

• (٦٠) السابق : ٧١٥/١

الإيمان ، وزجر عن الكفر ، وفي حكايته ترغيب وترهيب اقريش وغريم
نكى يؤمنوا وبينالوا رزق الله تعالى (٦١) •

ودعوة ابراهيم عليه السلام من جوامع كتم النسوة ، فان آمن
البلاد والسبب يستتبع جميع خصائص سعادة الحياة ، ويستتضي العدل
والعزة والرخاء ، اذ لا أمن بدونها ، وهي يستتبع التعمير ، والانتقال
على ما ينفع ، والثروة ، فلا يختل الأمن الا اذا اختلت الثلاثة الأول ،
وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة (٦٢) •

وقالوا انما خص ابراهيم عليه السلام دعاءه بالمؤمنين ، لأنه
لما قال له الله عز وجل « لا ينال عهدى الظالمين » اخترز من الدعاء
لمن ليس مرضياً عند الله تعالى ، فقيّد دعاءه بالمؤمنين ، ولكن الله تعالى
أرشدته الى كرمه الشامل (٦٣) « قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره
الى عذاب النار وبئس المصير » وفصل هذا عما قبله للاستئناف المبتدئ
على سؤال مقدر ، كأده قيل : فماذا قال له ربه عز وجل حين طلب ذلك؟
فقيل : قال ومن كفر ...

وقوله « ومن كفر » عطف على « من آمن » أى وأرزق من كفر
أيضا فأمتعه بهذا الرزق زمانا قليلا هو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه
الى عذاب النار سوفا اضطراريا لا يقصده هو ولا يعلم أن كفره ينتهى
به اليه • وقد علم من ذلك أن الله تعالى استجاب دعاء ابراهيم فى
المؤمنين فجعل لهم هذا الخير فى الدنيا وأعد لهم ما هو أفضل منه
فى الآخرة (٦٤) • و « قليلا » صفة لمصدر مقدر أو لظرف أى
تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ، وفى هذا ايجاز بحذف المصروف • والتعبين

(٦١) أبو السعود : ١٥٩/١ •

(٦٢) التحرير والتنوير : ٧١٥/١ •

(٦٣) حاشية الشهاب : ٢٣٧/٢ •

(٦٤) المنار : ٣٨٢/١ •

في جانب الكافر بالمنة دون الرزق ونحوه يشمر بأن ما يناله الكافر في الدنيا متعة موقوتة زائلة ، وفي وصفها بالقامة تأكيد لقصر مدتها وسرعة زوالها •

ولما كان الكافر يمكن أن يعتد بما أوتى من نعم دنيوية ، ويعد ذلك من رضوان الله تعالى عليه ، بين الله عز وجل مآله الشنيع احتراسا مما قد ينشأ ، وتبليها على أن تمتيعه في العاجلة لا يمنع تعذيبه في الآجلة ، فقال تعالى «ثم اضطره الذي عذاب النار» والعطف بشم للتراخي الترتيبي ، والاشعار بخون عذابه وتأخرا عن تمتيعه • والاضطرار ضد الاختيار وهو في الأصل : الاحتياج إلى الشيء ، وقد اضطر إلى الشيء أي تجيء إليه (٦٥) • والاضطرار حقيقة في كون الفعل صادرا من الشخص من غير تعلق إرادته به - كمن ألقى من السطح مثلا ، ومجازا في كون الفعل باختياره لكن بحيث لا يملك الامتناع عنه لعارض يقصره على اختياره كمن أكل الميتة حال المنخصة (٦٦) •

وفسر الزمخشري الجملة بقوله : أي فألزمه إلى عذاب النار لزم المضار الذي لا يملك الامتناع بما اضطر إليه (٦٧) • ولز الشيء بالشيء : فرنه به والصقه (٦٨) • وقال الطيبي : ان الاضطراب هنا استعارة ، شبه حال الكافر الذي أدر الله عليه النعمة التي استنداه بها قليلا قليلا إلى ما يهلكه بحال من لا يملك الامتناع مما اضطر إليه ، واستعمل في المشبه ما استعمل في المثبه به ، وقال الشهاب : انه مجاز عن كون العذاب واقعا به وقوعا محققا كأنه مربوط به (٦٩) •

(٦٥) لسان العرب : مادة « ضرر » ،

(٦٦) الألوسى : ٣٨٢/١/١ •

(٦٧) الكشف : ٣١٠/١ •

(٦٨) أساس البلاغة مادة : لز •

(٦٩) حاشية الشهاب : ٢٣٧/٢ ، ٢٣٨ •

والاضافة في عذاب النار للتهويل والتخويف • وذيلت الآية تقوله تعالى « ويئس المصير » وهو تذييل يؤكد سوء مصير الكافرين وشاعة عاقبتهم • والمختصر بالذم محذوف أى : ويئس المصير النار أو عذاب النار • وقد تغير النظم في جانب الكافرين عنه في جانب المؤمنين ففى جانب الكافرين قدم الكفر أولاً ثم ذكر التمتع ، وفى هذا اشعار بأن الكفر هو سبب اضطرابهم الى عذاب النار ، ومن ثم قدم السبب على المسبب أما رزق المؤمنين فهو على سبيل التفضل والاحسان لا على سبيل السبب والمسبب ومن ثم قدم الرزق على وصف الايمان (٧٠) •

رفع القواعد ودعاء ابراهيم واسماعيل :

وبعد بيان دعوة ابراهيم للباد الحرام بالأمن ولأهله بالرزق من الثمرات ، تذكر الآيات ببناء ابراهيم البيت الحرام بمساعدة ابنه اسمعيل ، وتحكى دعاءهما عنده ، ارشاداً للمخاطبين الى الدبر الحق والعبادة الصحيحة ، وحثاً لهم على اتباع نهج ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وهم يفتخرون بالانتساب اليهما ، ويدعون أنهم على دينهما • وتبدأ الآيات بقوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » وهو معطوف على قوله تعالى « واذ قال ابراهيم ••• » وعطفه مع تكرار « اذ » للايدان باستقلاله وبينان أنه بما يشتمل عليه من أخبار هامة جدير بأن يذكر على انفراد • و « اذ » لخصى ، وجيء بعدها بالاضارع لاستحضار الصورة الماضية العجيبة ليتمثلها القارىء وكأنها حاضرة نافذة الآن • وفى التعبير بالاضارع بعد التعبير بالماضى قبله تلوين الاستلزام ، وتنويع النظم حتى لا يسبى على وتيرة واحدة •

والقواعد جمع قاعدة ، وهي الأساس والأصل لما فوقه ، ورفعها ،
 اعلاء البناء عليها ، أو اعلاؤها نفسها (٧١) . وفي ايثار الرفع على البناء
 تشريب وتعظيم لهذا العمل ، واشعار بأن قواعد البيت كانت موجودة ،
 وقام ابراهيم واسماعيل عليهما السلام برفعها والبناء عليها . و «من»
 ابتدائية متعلقة بـ « يرفع » أو حال من القواعد . ولم يكن التعبير :
 قواعد البيت لما في ابهام القواعد أولا ثم تبيينها ثانيا من تفخيم
 شأنها (٧٢) .

قال الشيخ محمد عبده : وفي الكلام نكتة لطيفة ، وهي أن ذكر
 القواعد أولا ينبه الذهن ويحركه الى طلب معرفة القواعد ما هي ؟
 وقواعد أى شيء هي ؟ فاذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعا
 في النفس وأشد تمكنا في الذهن (٧٣) .

واسماعيل معطوف على ابراهيم وفي تأخيره عن المفعول اشارة الى
 أن الأصل في الرفع هو ابراهيم ، واسماعيل تبع له ، وقد ورد أنه
 كان يناوله الحجارة وهو يبنينا ، فهناك تفاوت بين عمل ابراهيم وعمل
 اسماعيل عليهما السلام (٧٤) .

وإنما نحن في انتظار بقية الخبر اذا بالسياق يكشف لنا عن ابراهيم
 واسماعيل عليهما السلام ويرينا اياهما كأنهما حضران نسمع صوتيهما
 يبتهلان الى الله عز وجل « ربنا تقبل منا انك أنت السميع
 العليم . . . » (٧٥) . وبذلك عدل النظم القرآني عن أسلوب حكاية
 قولهما الى ذكر ما نطقا به مسندا اليهما كأنهما يدعوان الآن ، وهذا
 ضرب من استحضار الحالة المحكية ، وتمثيلها شاخصة جلية .

(٧٢) البيضاوي : ٥١ .

(٧١) الكشف : ٣١١/١ .

(٧٣) المنار : ٣٨٦/١ .

(٧٤) ينظر أبو السعود ١٦٠/١ .

(٧٥) في ظلال القرآن ١١٤/١ .

وقد دعوا ربهما عز وجل بثلاثة أدعية جاء كل منها في آية على
حدة :

الأول : دعاء بقبول عملهما •

والثانى : دعاء بهدايتهما وذريتهما الى الدين الصحيح ، وقبولنا
التوبة •

والثالث : دعاء ببعث رسول من ذريتهما يهديهم الطريق المستقيم •
فالدعاء الاول هو « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » وفي
التلالم فعل مقدر أى يقولان ربنا •• والجملة الفعلية فى محض نصب. حال
من فاعل « يرفع » وفى حذفها ايجاز واستحضر بصورة نطقتهما بالدعاء •
و « ربنا » منادى بحرف نداء مذكوف ، وفى حذفه اشعار بقرينهما من
الله عز وجل الذى يجيب دعاءهما • وفى ايثار لفظ الرب المتبىء عن
افاضة ما فيه صلاح المرزوب ، مع الاضافة الى ضميرهما عليهما السلام
لتحريك سلسلة الاجابة (٧٦) •

وتقبل الله العمل أى قبله ورضى به وهو مجاز عن الاثابة والرضاء
لأن كل من يقبله الله تعالى يثيب صاحبه عليه ويرضاه منه (٧٧) • ونم
يذكر مفعول « تقبل » وفى هذا اشعار بالعموم ، فهما يدعوان الله أن
يتقبل دعاءهما وعملهما وكل ما يقدمان من خير • وفى هذا الدعاء اظهار
لخشوعهما وخشيتهما لله عز وجل ، وخوفهما نتيجة العمل ، وتيسير
صيعه التفعّل الى شدة الخوف من وجود قصور فيه ، كما أن فى هذا
الدعاء اشارة الى أن العبرة ليست بالعمل ولكن بقبوله من الله تعالى •
وذيت الآية بقوله تعالى « انك أنت السميع العليم » أى السميع
لجميع المسموعات التى من جملتها دعوانا ، الهذيم بكل المعلومات التى

(٧٦) أبو السعود : ١/١٦٠ •

(٧٧) الالوسى : ١/١/٣٨٤ •

من زمرتها نياتنا في جميع أعمالنا. والجملة تعليل لاستدعاء التقبل (٧٨) •
فهما يدعوان ربهما أن يتقبل دعاءهما ويقدمان بين يدي دعائهما الثناء
الجميل على الله تعالى بصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، وهذا من
دواعي قبول الدعاء ، وعلى هذا جرت سنة نبينا محمد ﷺ في الدعاء •
وتأكيد الجملة بان وضيم الفصل ، يدل على كمال يقينهما بما
نضمنته من تخصيصه تعالى بصفتي السمع والعلم ، وفي الجملة قصر
لهاتين الصفتين على الله تعالى عن طريق تعريف المسند باللام ، وتأكد
هذا القصر بضمير الفصل « أنت » • وقد أفاد القصر اظهار اختصاص
دعائهما بالله عز وجل ، وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية (٧٩) •
والمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتزييل سمع غيره وعلم غيره منزلة
العدم فكأنه هو المختص بهما دون غيره (٨٠) • وعلى هذا فالقصر على
سبيل المبالغة ، ويجوز أن يكون قصرا تحقيقيا باعتبار متعلق خاص ،
أى السمع لدعائنا لا يسمعه غيرك العليم بنياتنا وأعمالنا لا يعلمها
غيرك (٨١) • وفي مجيء صفتي السمع والعلم على صيغة فعيل مبالغة
في أثبات كمال السمع وتمام العلم له جل شأنه • وتقديم صفة السمع
مع تأخر التقبل عن العمل للمجاورة ، ولإحاطة صفة العلم وشمونها لكل
الموجودات من مسوعات ومرئيات وغير ذلك • والدعاء الثاني هو « ربنا
واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا ونب علينا
انك أنت التواب الرحيم » وفي هذا الدعاء يطلبان من ربهما أن يثبتهما
على الاسلام ، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يعلمهم التماسك
والعبادات ، وأن يتوب عليهم فهو سبحانه التواب الرحيم • وبدى

(٧٨) أبو السعود : ١٦١/١ •

(٧٩) السابق نفسه •

(٨٠) الرازي : ٤٧٨/١ ، والتحرير والتنوير : ١/١٩ •

(٨١) التحرير والتنوير : ١/٧١٩ •

الدعاء ببداء الرب سبحانه وتعالى كالدعاء السابق • وتكرير انداء مع ايثار لفظ الرب لايظهر مزيد الضراعة الى الله تعالى، والاشارة الى ان كل دعوة من هذه الدعوات مقصودة بالذات ، ومستقلة في مضمونها عن الدعوات الأخرى •

وقوله « واجعلنا » معطوف على « تقبل » و « مسلمين لك » أي . مخلصين لك ، أو منقادين لك ، وهو يفيد الحصر أي : اجعلنا مسلمين لك لا غيرك ، وهذا يدل على أن كمال سعادة العبد في أن يكون مسلما لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره ، وألا يكون ملتفتا الخاطر الى شيء سواه (٨٢) • وفيه تعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن التوحيد ، وساروا في ظلام الشرك • وطبيهما من الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له معناه طلب الزيادة في ذلك، أو طلب التثبيت والدوام عليه : لأنهما كلنا مخلصين منقادين لله رب العالمين (٨٣) •

ولما سألنا أنفسيهما دوام الاخلاص لله تعالى ، طلبنا لذريتهما النهادية الى الاسلام « وهن ذريتنا أمة مسلمة لك » أي واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك ، وفي الجملة ايجاز بحذف الفعل ، و « من » لتعبض ، والأمة : الجماعة العظيمة • وخصنا ذريتهما بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة كما جاء في قوله تعالى « قوا أنفسكم وأهليكم نارا » (٨٤) ، ولأن الأنبياء اذا صلحوا صلح بهم غيرهم • وشايعوهم على الخير (٨٥) • وفي اضافة الذرية الى ضمير الاثنين اشارة الى أن المراد الذرية التي تنسب اليهما معا ، وهي ما يكون من ولد اسماعيل ، وباللفظ ظاهر في هذا المعنى ، ويرجح الحال والمحل الذي كلنا فيه ،

(٨٢) الرازي : ٤٨٠/١ •

(٨٣) ينظر القرطبي : ٥١١/١ ، والبيضاوي : ٥١ •

(٨٤) التحريم : ٦ •

(٨٥) الكشاف : ٣١١/١ •

وعزم ابراهيم على أن يدع اسماعيل في بلاد العرب داعيا الى توحيد الله واسلام الوجه له ، ويرجع هو الى بلاد الشام ، وكذلك ادعاء نهذه الذرية بأن يبعث الله فيهم رسولا منهم كما في الآية التالية (٨٦) ، وهذا يرجح أن المراد بالأمة أمة محمد ﷺ .

وانما خصا بالدعاء بعضهم لما علما أن في ذريتهما ظلمة وذلك من قوله تعالى « لا يزال عهدى انظالمين » كما أن الحكمة الالهية لا تقتضى الاتفاقى على الاخلاص ، والاقبال التكللى على التقوى (٨٧) .

وبعد أن طلبا من الله تعالى أن يهديهم وذريتهما الى اسلام الوجه له سبحانه ، وهو أصل الدين وجوهره ، طلبا من الله أن يعلمهما الفروع العمية « وأرنا مناسكنا » . أى علمنا اياها علما يكرن كالرؤية البصرية فى الجلاء والاضوح (٨٨) . والمناسك جمع منسك ، والمنسك فى الأصل العبادة ، والمناسك العابد ، وشاع استعمال ذلك فى أعمال النج لما فيها من الكلفة والبعد عن العادة (٨٩) . وازافة المناسك اليهم مع أنها عبادات مطلوبة من جميع المسلمين يشعر باهتمامهم بمعرفتها ، وعنايتهم بتعلمها ، كأنها مختصة بهم ومقصورة عليهم .

ثم طلبا من الله التوبة « وتب علينا » والجملة معطوفة على سابقتها وقد وردت الجمال فى هذه الآية موصولة للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت فى الانشائية مع التناسب بينها ، واختلف العلماء فى معنى طلبهما التوبة وهما نبيان معصومان فقالت طائفة : طلبا الثبات والدوام على التوبة ، وقيل طلبا التوبة لذريتهما ، وحكايتها عنهما لترغيب الكثرة فى

• (٨٦) المنار : ٣٨٧/١

• (٨٧) البيضاوى : ٥١

• (٨٨) المنار : ٣٨٧/١

• (٨٩) المفردات : ٤٩٠ ، ٤٩١ ، وأبو السعود : ١٦١/١

التوبة والايهـان ، وقيل قنلا ذك هضما لأنفسهما ، وارشادا
لذريتهما (٩٠) ٠٠٠٠

والأمر ميسور ، فهذا دعاء ، والدعاء مخ العبد ، ولا يشترط
لطلب التوبة وجبراد ذنب ، فقد كان نبينا ﷺ كثير الاستغفار ، مع أن
الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكان يقول : أفلا أكون عبدا
تسكورا ؟ وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر
من سبعين مرة (٩١) ٠

والتوبة تختلف باختلاف التائبين ، فتوبة سائر المسلمين السدم
والعزم على عدم العود، وورد المظالم اذا أمكن ، ونية الرد اذا لم يمكن ،
وتوبة الخراس الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور فى
الأعمال ، والالتيان بالعبادة على غير وجه الكمال ، وتوبة خواص الخراس
لرفع الدرجات ، والترقى فى المقامات ، وتوبة ابراهيم واسماعيل عليهما
السلام تدخل فى هذا القسم الأخير (٩٢) ٠

وذيلت الآية بتذييل صيغ على نمط لتذليل فى الآية السابقة وهو
قوله تعالى « انك أنت التواب الرحيم » وهو تعليق لدعاء ، وفيه مزيد
استدعاء للاجابة ، ومن آداب الدعاء ودواعى اجابته أن يدعو الانسان
ربه بما يناسبه من أسمائه وصفاته وفصلت هذه الجملة عما قبلها
للاستيف ، فهى تعليق لما قبلها ، وفي فصلها اشعار باستقلال التذيين
فى الافادة ٠ أكدت الجملة بان وجىء بضمير الفصل لتأكيد ايمانها بما
تضمنته من حكم وهو أن الله عز وجل هو التواب الرحيم ٠ وفى الجملة
قصر لصفى التواب الرحيم على الله سبحانه وتعالى ٠ وطريق القصر

(٩٠) ينظر القرطبي : ٥١٦/١ وأبو السعود : ١٦١/١ ٠

(٩١) رياض الصالحين : ٦٠ ٠

(٩٢) الألوسى : ٣٨٦/١/١ ٠

تعريف المسند باللام ، وضمير الفصل يؤكد هذا انقصر ويقويه .
 والمعنى : انك أنت التواب الرحيم لا غيرك .

والتواب : صيغة مبالغة من تاب ، والرحيم صيغة مبالغة من رحم ،
 والصيغتان تدلان على المبالغة في وصف الله عز وجل بهاتين الصفتين ،
 فهو سبحانه كثير التوبة على عبادة ، لا يرد توبة تائب منهم ، واسع
 الرحمة بهم . وتقديم « التواب » على « الرحيم » لمجاورة للدعوة
 بالتوبة ، ولشمول صفة الرحمة للتوبة ، ويكون « الرحيم » مناسبا
 لفاصلة ، ومتلاهما مع فاصلة الآية التي قبلها والتي بعدها .

والدعاء الثالث هو « زينا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم
 آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم »
 وهما يدعوان ربهما عز وجل أن يبعث في الأمة المسلمة النبي الذي
 ذريهما رسولا من أنفسهم ، يقرأ عليهم وحى الله تعالى ويعلمهم أحكام
 شريعته ويظهرهم من الأرجاس الحسية والمعنوية . وفي هذا الدعاء وما
 قبله تقرير للصلة التاريخية المتينة التي تربط النبي محمدا ﷺ وأُمَّته
 بنبيك النبيين الجليلين : ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . انها ليست
 صلة النسبوية فحسب ، بل صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينية
 أيضا ، فهم من ذريتهما ، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما ، وملئهم
 ملتئما وقبلتهم قبلتهما ، وه ثابتهم في حجهم مثابتهما (٩٣) .

وبدئ الدعاء بدعاء الرب سبحانه وتعالى كما سبق في الدعائين
 السالفين ، وتكرير النداء مع ايثار لفظ الرب مضافا الى ضميريهما ،
 لزياد الضراعة والمبالغة في الاستعطاف واستجلاب الاجابة ، والاشارة
 الى استقلال هذا الدعاء وانفراد به بمضمون مغاير لما في الدعائين
 السابقين .

و « فيهم » أى فى الأمة المسلمة المذكورة فى الآية السابقة ، وقيل « فيهم » دون « لهم » لتكون دعوة هذا الرسول دعوة عامة شاملة لهم ولغيرهم ، ولا تكون دعوته اليهم فقط ، وفى حذف متعلق رسولا تأكيد لهذا العموم • وتذكير « رسولا » للتعظيم (٩٤) •

و « منهم » أى من نفس هذه الأمة المذكورة ، وفى تقييد الرسول بهذا الوصف تمحيص كونه من هذه الأمة وبذلك يكون أشفق عليهم ، ويكبروا أعزبه وأشرف وأقرب للملاجابة ، لأنهم يعرفون منشأه وصدقته وأمانته (٩٥) •

ولا يعنى عن هذا القيد قوله « فيهم » فان البعث فيهم لا يستلزم البعث عنهم (٩٦) • وكان هذا الرسول هو خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ : وفى الآية ما يشير الى ذلك ، فانه ﷺ هو الرسول الوحيد من ذرية إبراهيم واسماعيل معا عليهما السلام وغيره من أنبياء بنى اسرائيل ليس من ذرية اسماعيل • وروى الامام أحمد عن العرباض رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : سأخبركم بأول أمرى : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى (٩٧) •

ويعد أن بينت الدعوة أصل هذا الرسول ونسبه بوصفه بأنه منهم بينت وظيفته المنوطة به وعمله الذى سينهض به فوصفته بثلاث صفات : « يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » فوظيفة هذا الرسول العظيم أن يبلغهم ويقرأ عليهم وحى الله تعالى ، الدال على الوهيته ، وصفاته القدسية ، وطريقة المستقيم ، ويفهمهم حقائق

(٩٤) ينظر التحرير والتنوير : ٧٢٢/١ •

(٩٥) الأوسى : ٣٨٦/١/١ •

(٩٦) حاشية الشهاب : ٢٣٩١ •

(٩٧) حاشية الشهاب : ٢٣٩/١ •

وأسرار الكتاب الذى ينتزل عليه ، ويعرفهم أحكام الشريعة ومقاصدها ،
ويضع الأشياء موضعها الصحيح ، ويظهرهم عن دنس الشرك ، وسائر
الأرجاس الحسية والمعنوية (٩٨) •

وهذا الدعاء يتفق مع ما جاء فى وصف رسولنا الكريم محمد ﷺ
فى قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم
آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٩٩) • وهذا دليل آخر
على أن الرسول الذى أجيبت به دعوتها هو خاتم النبيين محمد ﷺ •
وفى التعبير بالمضارع فى « يتلون » و « يعلم » و « يزكى » إشارة
إلى تجدد هذه الأفعال وتكررها بتكرر الوحى الالهى • وفى تقديم الجار
والمجرور « عليهم » على المفعول الصريح عناية واهتمام ببيان من
يتلى عليهم • وفى ذكر « الكتاب » إيذان بأن يكون الرسول المطاوب
صاحب كتاب يخرجهم من الظلمات الى النور ، وكان هذا الكتاب هو
القرآن الكريم • والحكمة تشتمل على ما فى الكتاب وغيره مما يبينه
الرسول ﷺ ، وعطفها على الكتاب من عطف العام على الخاص ، لافادة
العموم والشمول •

وجاءت الجملة الثلاث موصولة للقوسط بين الكمالين • حيث
تتحد فى الخبرية مع التناسب بينها • وقد رتب هذه الجملة فى الذكر
على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرار ، ثم
يكون تعليم معانيه ، ثم العلم تحصن به التركية ، وهى فى العمل بارشاد
القرآن الكريم (١٠٠) •

وذيلت الآية بتذييل مناسب لها ، صيغ على نمط ما ذيلت به
الآيتين السابقتان « اذك أنت العزيز الحكيم » وفى هذا التذييل ثناء على

(٩٨) ينظر الكشاف : ٣١٢/١ •

(٩٩) النجعة : ٢

(١٠٠) التفسير والنويز : ٧٢٣/١ •

الله تعالى بأسمائه وصفاته المناسبة للدعاء، استجاباً للاجابة، واستدعاءً
 لثقله • وقد فصل عما سبقه للاستئناف وفي الفصل السابقة الى
 استقلال جملة انتزيع في الافادة •

و « العزيز » الغالب الذي لا يغلب ولا يقهر على ما يريد ،
 و « الحكيم » الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة
 تدليل للدعاء المذكور واجابة المسئول • فان وصف الحكمة مقتضى لافاضة
 ما تقتضيه الحكمة من الأمور التي من جملتها بعث الرسول ، ووصف
 العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرّة (١٠١) •

وقد أكدت الجملة بان وحىء بضمير الفصل لظهور يقينهما التام
 بضمه ونها ، وقصرت العزة والحكمة على الله تعالى عن طريق تعريف
 المسند باللام ، وأكد القصر بضمير الفصل ، فانه سبحانه وتعالى هو
 العزيز الحكيم لا غيره •

وبهذا تنتهي الأدعية الثلاثة التي حكيت عن ابراهيم واسماعيل
 عليهما السلام عندما كانا بينيان الكعبة المشرفة • وقد وردت هذه
 الأدعية في ثلاث آيات ، وجاءت مرتبة حسب أولويتها ، فاشتملت الآية
 الأولى على دعاء خاص بهما ويتعلق بالحالة التي كانا يدعوان فيها ، وهو
 أن يقبل الله تعالى عملهما ودعاءهما • واشتملت الآية الثانية على دعاء
 يشملهما ويشمل ذريتهما وهو الهداية الى الاسلام ، وتعليم المناسك ،
 وقبول التوبة • واشتمت الآية الثالثة على دعاء خاص بذريتهما في
 المستقبل ، وهو أن يبعث الله عز وجل في ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم
 آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم •

وقد ذلت كل آية من هذه الآيات بتذييل يتناسب مع ما تحويه من
 دعاء ، ففي الآية الأولى دعاء بقبول العمل والدعاء ، وهذا يناسب السمع
 والعلم ومن ثم ذلت الآية بقوله تعالى « انك أنت السميع العليم »

وفي الآية الثانية دعاء بالهداية وقبول التوبة ، وهذا يناسبه التوبة والرحمة ، ومن ثم ذيلت الآية بقوله تعالى « اذك أنت التواب الرحيم » وفي الآية الثالثة دعاء ببعث رسول منهم ، وهذا يناسبه العزة والحكمة ، ومن ثم ذيلت الآية بقوله تعالى « اذك أنت العزيز الحكيم » •

وقد صيغت التذييلات الثلاثة صياغة قوية وعلى نمط تعبيرى واحد ، مشتمل على تأكيدات مختلفة ، ومفيد للتخصيص •

وهنا يتبادر سؤال : هل ترتيب الحوادث المحكية من أول الحلقة ترتيب زمانى ؟ أو غير ذلك ؟ والجواب عن ذلك : أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ يقص الحوادث حسب تاريخ وقوعها ، انما هو كتاب هداية وتشريعات ، وعبر وعظات ، وليس بالضرورة أن تحكى الحوادث فيها وفق ترتيب وقوعها • وقد حاول أبو السعود أن يرتب هذه الحوادث المحكية بناء على الظاهر ، ويبين سر الترتيب الذى وردت عليه فى القرآن الكريم فقال : واعلم أن الظاهر أن أول ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه ، ثم دعاء البلدية والأمن ، وما يتعلق به ، ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه ، ثم جعله مثابة للناس ، والأمر بتطهيره • ولعل تغيير الترتيب الوقوعى فى الحكاية ، لنظم الشئون الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ، ونظم الأمور الواقعة من جهة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال فى سلك آخر • وأما قوله تعالى « ومن كفر ••• » الخ فانما وقع فى تضاعيف الأحوال المتعلقة بابراهيم لاقتضاء المقام ، واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك ، بحيث لم يكن بد منه أصلاً ، كما أن وقوع قوله عليه السلام « ومن ذريتى » فى خلال كلامه سبحانه اذلك (١٠٢) •

ومما يؤيد حجيتها على غير الترتيب الوقوعى بدء كل آية بداية

(١٠٢) أبو السعود : ١٦١/١ •

تشعر بامتثالها في الحكاية ، وانفرادها بالذكير بها ، حيث بددت كئ
آية ماذ « واذ ابتلى ابراهيم ربه » « واذ جعلنا البيت » « واذ قال
ابراهيم » « واذ يرفع ابراهيم القواعد » •

ملة ابراهيم وفضلته :

ويعد بيان ما يتعلق بابتلاء ابراهيم عليه السلام ، وبناء وتطهير
البيت الحرام ، وحكاية دعاء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، تمضى
الآيات في الانكار على من يرغبون عن ملة ابراهيم وهو المصطفى عند
الله تعالى ، والذي أسلم لرب العالمين « ومن يرغب عن ملة ابراهيم
الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين
اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » • وموقع هذه الآيات من
سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل ، فانه لما بين فضائل ابراهيم من
قوله « واذ ابتلى » الى هنا ، علم أن صاحب هذه الفضائل لا يعدد
عن دينه والاعتداء به الا سفيه العقل أفن الرأي (١٠٣) •

والاستفهام في قوله « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفا
نفسه » يفيد الانكار التوبيخي ، واستبعاد أن يكون في العقلاء من يرغب
عن ملة ابراهيم التي هي الحق الواضح ، أي لا يرغب عن ملته الواضحة
الغراء الا من سفه نفسه (١٠٤) •

والرغبة : طلب أمر محبوب ، ورغبة في الشيء اذا أردته ، ورغبة
عن الشيء اذا لم ترده ، وزهدت فيه ، وكرهته (١٠٥) • وملة ابراهيم
دينه ، وقد كان عليه السلام حنيفا مسلما كما قال جل شأنه « ما كان
ابراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما وما كان م

• (١٠٣) التحرير والتنوير : ٧٢٤/١

• (١٠٤) الكشف : ٣١٢/١

• (١٠٥) الصحاح : مادة « رغب »

المشركين» (١٠٦) • وإضافة المانة الى ابراهيم اضافة مجازية ، وذلك لأنه لما أوحى بها اليه ، وآمن بها ، ودعا الناس اليها ، ودافع عنها ، وعذب من أجله على أيدي الكافرين ، نسبت اليه •

وسفه نفسه أى امنتها واستخف بها ، والسفه فى الأصل : خفة فى البدن ، ومنه قيل زمام سفية أى كثير الاضطراب ، واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل فقول : سفه نفسه • وانتصاب نفسه اما على أنها مفعول به أى أهملها واستخفها ولم يبال باضاعتها دنيا وأخرى ، واما على التمييز المحول عن الفاعل ، وأظله سفهت نفسه بالرفع أى خفت وطاشت ، فحول الاسناد الى صاحب النفس على طريقة الجزاء العلقى للملابسة قصدا للمبالغة ، وهى أن السفاهة سرت من النفس الى صاحبها من شدة تمكنها بنفسه حتى صارت صفة لجثمانه ، ثم انتصب الفاعل على التمييز تفسيراً لذلك الابهام فى الاسناد المحازى (١٠٧) • والجملة منية على القصر ، حيث قصرت الرغبة عن ملة ابراهيم على من سفه نفسه ، عن طريق النفى المستفاد من الاستفهام الانكارى والاسئدناء بالا ، وهو قصر صفة على موصوفه على سبيل الحقيقة ، فلا يرغب عن ملة ابراهيم أحد الا من استخف نفسه وامتنها ولم يبال بسلاستها ، وقد أفاد القصر الايجاز ، وأكد الحكم الذى تضمنته الجملة تأكيداً قوياً ، كما أوجد التجانس بين « سفه » و « نفسه » وقعا أخذاً ، وأسبغ على الجملة جزالة تضاف الى ما فى نظمها من تلاؤم وقوة •

وفى الجملة توبيخ لليهود والنصارى ومشركى العرب ، وتعميرىض بهم ، حيث أعرضنا عن دعوة الرسول ﷺ ولم يتبعوه ، مع أن ملته

• (١٠٦) آل عمران : ٦٧ •

(١٠٧) المفردات : ٢٣٤ ، والكشاف : ٣١٢/١ ، والتحرير والنوير

• ٧٢٦/١

هى ملة أبيهم ابراهيم الذى ينسبون اليه ، ويفخرون بذلك ، فكيف يرغبون عنها ؟!

وعلى الحكم الذى تضمنته جملة القصر وقرر بجذاتين : الأولى تبين مكانته فى الدنيا وهى « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » أى اختارناه فى الدنيا بالنبوة والحكمة وامامة الناس • والوارى اعتراضية ، واللام واقعه فى جواب قسم محذوف ، وقد حرف تحقيق أى وبالله لقد اصطفيناه • والجملة تعليل لجملة القصر السابقة ، ومقررة لمضمونها ، وأكدت بالقسم ، اللام وقد لتأكيد اصطفائه فى الدنيا تأكيداً قوياً فى مواجهة من يرغبون عن ملته •

والثانية تبين فضله فى الآخرة وهى « وانه فى الآخرة لمن الصالحين » أى وهو فى الآخرة من المشهود لهم بنجات على الاستقامة والخير والصلاح • والجملة معطوفة على سابقتها داخلية فى حيز القسم ، مؤكدة لمضمونها مقررة لما تقرره • وأكدت بان واللام زيادة على القسم السابق لأنها من الأهور الأخروية ، وهى غيب خفى عن المخاطبين ، فحاجتها الى التأكيد أشد من الأمور التى تشاهد آثارها ، أما الاضواء فى الدنيا فقد شاهدها ونقاه جيل بعد جيل (١٠٨) • وقدم الجار والمجرور « فى الآخرة » على الخبر للعناية والاهتمام ببيان مكان وزمان الحكم الذى تضمنته الجملة ، نظراً لأهمية الآخرة وعلو مكانتها على الدنيا ، وشوق الناس لمعرفة مصيرهم فيها ، وللملاءمة « الصالحين » لافراد انقرآنية •

وايراد الجملة الأولى فعلية ماضوية لمضيها من وقت الاخبار ، ومجىء الثانية اسمية لعدم تقييدها بالزمان ، لأن انتظامه فى زمرة

صالحى أهل الآخرة أمر مستمر في الدارين لا أنه يحدث في الآخرة (١٠٩) •

ومما أوردناه من اختلاف في نظم الجنتين يتجلى لنا تاويل التعبير في القرآن الكريم ، وهذه خاصية من خصائص نظمه المعجز ، تصحح إلى دراسة مفصلة •

وبين الآيات علة اصطفاؤه وجعله من الصالحين « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » أى اصطفاه الله حين أمره بالاخلاص له والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك على الفور (١١٠) • و « إذ » ظرف لاصطفاؤه • ومفعول « أسلم » « أسلمت » ومعلقة محذوفان نظمهما من المقام والتقدير : أسلم وجهك أى ، وقد دل الجواب « أسلمت لرب العالمين » على ذلك ، وفى حذفها إيجاز مع تنزيل المتعدى منزلة الم لازم ، لاثبات أمره بالاسلام على الإطلاق دون اعتبار تعلقه بمن وقع عليه •

وفى الجملة التفتت من التكلم فى « اصطفاؤه » إلى الغيبة فى « قال له ربه » ، الاسم الظاهر من قبيل الغيبة • وفى الالتفات مع التعرض لنعنوان الربوبية وأضافته إلى ضميره عليه السلام لإظهار مزيد اللطافة به ، والاعتناء بتربيته (١١١) وتوجيهه إلى الطريق المستقيم •

وأجاب إبراهيم عليه السلام أمر ربه تعالى على وجه السرعة « قال أسلمت لرب العالمين » والفصل بينه وبين سابقه للاستئناف ، على تقدير سؤال يقتضيه المقام ، أى : فماذا قال إبراهيم حين أمر ربه بالاسلام ؟ وجاء الجواب « قال أسلمت لرب العالمين » • ومجىء

(١٠٩) الألوسى : ٣٨٨/١/١

(١١٠) ابن كثير : ١٨٥/١ - والقرطبي : ٥١٩/١

(١١١) أبو السعود : ١٦٣/١

الانكلام على هيئة الأمر وجوابه مشعر بأنه باذر بالاجابة على الفور دون تزييت • وقل « أسلمت لرب العالمين » دون أن يقول : أسلمت أو أسلمت لك ، ليكون قد أتى بالاسلام وبدليله (١١٢) • واضافة الرب في جوابه عليه السلام الى العالمين للايذان بكمال قوة اسلامه ، حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به (١١٣) •

واختلف في وقت قول الله تعالى ذلك لابراهيم ، فقيل قبل النبوة ، وقيل بعدها ، كما اختلف في هذا القول أهو على سبيل الحقيقة أم على سبيل التمثيل ، فقيل انه على سبيل الحقيقة ، وقيل هذا على سبيل التمثيل ، والمعنى أخطر بباله الدلائل المؤيدة الى المعرفة ، واستدل بها وأدعن بمداوماتها ، الا أنه سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بالقولين تصويراً لسرعة الانتقال بسرعة الاجابة • وعلى هذا فالمراد من القول ليس نفس القول بل دلالة الدليل عليه على حسب مذاهب العرب في هذا تقول الشاعر :

امتلاً الحوض وقال قطنى مهلاً رويدا قد ملأت بطنى
وكما في قوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا
به يشركون » (١١٤) فجعل دلالة البرهان كلاماً (١١٥) •

وصية ابراهيم ابنه :

وتواصل الآيات عرض فضائل ابراهيم عليه السلام ومناقبه ، فتذكر سعيه في هداية غيره الى الاسلام ، وحثهم على التمسك به، بعد

(١١٢) التحرير والتنوير : ١/٧٢٧ •

(١١٣) أبو السعود : ١/١٦٣ •

(١١٤) الروم ٣٥ •

(١١٥) الرازي ١/٤٨٧ ، والألوسي ١/١/٣٨٨ •

أن يبيت أسلامه وتمسكه بالانقياد لرب العالمين « ووصى بها إبراهيم
بنبيه ويعقوب يا بغي إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم
مسلمون » •

والتوصية : التقدم الى الغير بما فيه خير وصلاح ، وأصلها
الوصل من قولهم : وصت الأرض ، اذا اتصل نباتها ، وأرض واصمة :
متصلة انشبات (١١٦) • ووصاه اذا وصله ، كأن الموصى يصبر ، ففعله
بفعل النهى • والوصية أبلغ من الأمر أو النهى ، لأنها تتعلق بصلاح
المخاطب وتحقيق الخير له عن أى طريق أمرا أو نهيا ، فعلا أو قولاً ،
وذلك تطلق حيث يخاف الموت ، ويشيع استعمالها عند توقع الموت ،
وكثيرا ما يوصى الناس حالة الاحتضار ، ووصية إبراهيم عليه السلام
كانت عند توقع الموت كما يدل عليه قوله تعالى في الآية التالية « إذ
حضر يعقوب الموت » (١١٧) ولذلك لم يكن التعبير أمر لما قدمناه ،
ولأن لفظ الوصية تؤكد من الأمر ، لأن الوصية عند الخوف من الموت ،
وفي ذلك الوقت يكون احتياط الانسان لدينه أشد وأتم ، فاذا عرف أنه
عليه السلام في ذلك الوقت كان مهتما بهذا الأمر متشددا فيه كان القوم
الى قبوله أقرب (١١٨) •

والضمير في « بها » عائد لقوله : « أسلمت لرب العالمين » على
تأويل الكلمة والجملة ، أو عائد الى الملة في قوله « ومن يرغب عن ملة
إبراهيم » • وتقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول للعناية
والاهتمام ببيان مضمون الوصية ، كما أن في تقديمه جزالة لا تتحقق
مع تأخيره •

(١١٦) الصحاح مادة : وصى •

(١١٧) ينظر التحرير والتنوير ٧٢٧/١ •

(١١٨) الرازي ٤٨٧/١ •

و« بنيه » مفعول به : « ويعقوب » معطوف على « ابراهيم » داخل في حكمه ، أى : ورضى بها يعقوب بنيه أيضا ، ورضى بالذنب عطا على بنيه أى : ووصى بها ابراهيم بنيه وناقلته يعقوب (١١٩) ، فيكون يعقوب داخلا فيمن أوصاهم ابراهيم عليه السلام ، وفي ذكر يعقوب تذكير لبنى اسرائيل بوصية جدهم ، وفيه تعريض بهم لاعراضهم عن دين الاسلام ، وهو ملة ابراهيم ويعقوب ووصيتهما : وخص بنيه بهذه الوصية لان شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم ، ومن ثم وصاهم بهذه الوصية الخاصة ، وغيرهم من الناس منتظمون في دعوته العامة الى الاسلام .

وتحتى الآية وصية ابراهيم لبنيه ، وهى تشتمل على جملة خبرية وجملة انشائية فأما الجملة الخبرية فسبقت ببناء ، وهى « يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين » وهذه الجملة تتضمن حكما هاما بالنسبة لهم ، وتعتبر مقدمة تترتب عليها الجملة الانشائية التى تأتى بعدها وانكلام على اضمار القول عند البحرين ، أى قال أو قائلا : يا بنى وعند الكوفيين متعلق بوصى لأنه فى معنى القول ، فلا حاجة الى الاضمار ، وعلى اضمار القول يكون التعبير مصورا لابراهيم عليه السلام وهو حاضر يخاطب بنيه ، وناطقا بحديثه اليهم . وفى النداء افت لأسماءهم وعقولهم ، وتبنيه على أن ما يلقى اليهم أمر له شأنه ، فعليهم أن يعوه جيدا ، ويلتزموا بما فيه . وفى ندائهم بأداة البعيد اشارة الى علو منزلتهم عنده ، ورفعة شأنهم اديه . وفى لفظ « بنى » اظهر لشفقته عليهم ، ومزيد لطفه بهم ، وحرصه على مستقبلهم .

والاصطفاء : الاختيار ، والدين : هو الاسلام ، وهو ملة ابراهيم عليه السلام ، وتعرفه بالاسم يدل على كماله وتمامه ، أى الدين

الكامل التام ، كما يشير الى أن الدين أحقاره الله لعباده دين واحد متعين ، وهو دين الاسلام الذى به يتم الاحلاص لله تعالى ، ويتحقق الانقياد له ، وتقديم « اكم » للمسارعة ببيان أن هذا الاصطفاء لهم ، وفائدته عائدة عليهم ، ومن ثم يجب عليهم التمسك به . وتأيد الجملة لتأيد اثبات مضمونها ، كى لا تعرض لبنيه أثاره من ريبة فى عذا الأمر الجليل .

وأما الجملة الانشائية فهي « فلا تهوتن الا وأنتم مسلمون » وهى نتيجة مترتبة عن الجملة الخبرية ومبنية عليها . والفاء السببية المحضة (١٢٠) . ومعنى الجملة : النهى عن مفارقة الاسلام فى جميع أوقات حالهم الى أن يموتوا عليه ، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة لأن الحى لا يدري متى يأتيه الموت ، فنهى أحد عن أن يموت غير مسلم ، أمر بالاتصاف بالاسلام فى جميع أوقات الحياة ، فالمراد من هذا النهى شدة الحرص على ترك المنهى عنه (١٢١) .

وقد بين الزمخشري معنى هذه الجملة ووضحها يشرح جيد فقال: المعنى : لا يكن هوتكم الا على حال كونكم ثابتين على الاسلام ، فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الاسلام اذا ماتوا ، كقولك : لا تصل الا وأنت خاشع ، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته . فان قلت : فأى نكتة فى ادخال حرف النهى على الصلاة وليس بمنهى عنها ؟ قلت : النكتة فيه اظهار أن الصلاة التى لا خشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أيهاك عنها اذا لم تصلها على هذه الحالة ، ألا ترى الى قوله عليه الصلاة والسلام « لا صلاة لجار المسجد الا فى المسجد » فانه كالتصريح بقولك لجار المسجد : لا تصل الا فى المسجد

(١٢٠) معنى اللبيب ١/١٦٧ .

(١٢١) التحرير والتنوير ١/٧٢٩ .

وكذلك المعنى في الآية : اظهر ان موتهم لا على حال الثبات على الاسلام
موت لا خير فيه ، وأنه ليس بموت السعداء ، وأن منحق هذا الموت
ألا يحل فيهم ، وتقول في الأمر أيضا : مت وأنت شهيد ، وليس مرادك
الأمر بالموت ، ولكن بالكون على صفة الشهداء اذا مات ، وانما أمرته
بالموت اعتقادا منك بميئته ، واظهارا لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن
يحث عليها(١٢٢) .

ومن هذا نرى أنه قد يكون النهى عن الفعل دالا على شدة الرغبة
في وقوعه موصوفا بصفة معينة،حتى كأنه بدون هذه الصفة منهى عنه ،
وفي هذه الحالة تكون أداة الاستثناء مع النهى(١٢٣) وهذا سر دقيق
من أسرار النهى يكمن في صياغته على نمط تعبيرى معين مثله الحملة
القرآنية .

والجملة أسلوب قصر طريقته النفي المستفاد من النهى والاستثناء
وهو قصر صفة على موصوف ، وهو يؤكد الحكم الذى تضمنته الجملة
وهو حثهم على التمسك بالاسلام طوال حياتهم وعدم الموت على غيره،
وأكد النهى بدون التوكيد الثقيلة اللاحقة للفعل ، والواو للحال ،
و « أناتم مسلمون » جملة في محل نصب حال ، والتعبير القرآنى أبغرا
من قولنا لا تهوتن الا مسلمين ، لأن المقصور عليه في الآية جملة
اسمية تفيد حكما كاملا نابئا ، وهؤكدة بتكرير الضمير « أنتم » الذى
أكد الضمير المستتر في الفعل .

وصية يعقوب ابنه :

وتعرض الآيات وصية يعقوب عليه السلام ابنه .
وصية جد ابراهيم عليه السلام ، حيث أشير الى يعقوب و

(١١٢) الكشاف ١/٣١٣ .

(١٢٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري ٣١١ .

الآية السابقة « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » وفي بيان الوصية يعقرب جاء قوله تعالى : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آباءك إبراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » •

و « أم » عطفت جملة « كنتم شهداء » على جملة « ووصى بها » والمشهور أنها منقطعة (١٢٤) بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى بنى أكنتم شهداء • فتفديد الأضراب عن الكلام السابق وهو بيان الوصية الى مجادلة اليهود وابطال زعمهم فى ادعائهم اليهودية على يعقوب وبنائه كما تفيد الإنكار والتوبيخ • والخطاب «وجه انى اليهود : حيث كانوا يدعون أن يعقرب مات على اليهودية وأوصى بها بنيه فلزمت ذريته • فأنكر عليهم ذلك • والمعنى : ما كنتم شهداء احتضار يعقوب عليه السلام ووصيته لبنيه ، فلم تدعون ما تدعون؟! ثم أكمل الله تعالى القصة تعليما وتفصيلا واستقصاء فى الحجة بأن ذكر ما قاله يعقوب حين احتضاره ، وما أجابه أبناءه به ، وليس ذلك بداخل فى حيز الإنكار فالإنكار ينتهى عند قوله « الموت » والبقية تكلمة القصص (١٢٥) •

وهذا من الأيجز والاكمال ، إذ جمع الإنكار عليهم فى القول على من لم يشهدوه ، وتعليمهم ما جملوه (١٢٦) •

والشهداء : جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر للأمر والشاهد له وحضور الواقعة أقوى دليل على معرفة ما دار فيها ، ومن ثم كانت الشهادة فى مقدمة طرق الإثبات فى الشرع والقانون • وانقضاء مشاهدة مخاطبين ليعقوب وسمعهم اوصيته عند الموت يثير الشك فيما

(١٢٤) وقيل أنها متصلة • وفيها تفصيلات ، تراجع فى الكشاف ٣١٤/١

والألوسى ٢٩٠/١/١ ، والشهاب ٢٤١/١ وغيرها •

(١٢٥) ينظر الألوسى ٣٩٠/١/١ والتحرير والتنوير ٧٣٠/١ •

(١٢٦) التحرير والتنوير ٧٣١/١ •

يقولونه عندئذ ، ويبتذل زعمهم فيما ينسبونه إليه ، لعدم وجود دليل آخر عليه .

والمراد من حضور الموت هشارفته أو حضور أسبابه وظهور أماراته من العلال والأمراض ، والموت : فاعل مؤخر ، ويعقوب : مفعول مقدم ، ونقديمه للعناية ببيان من حضره الموت ، وفيه تشويق للفاعل لينتمكن في النفس عندما يرد عليها . وفي حضور الموت استعارة مكنية مبنية على تشبيه الموت بمن يحضر ، وحذف المشبه به ، وإثبات لازمه وهو الحضور للمشبه ، وفي هذا تصوير تاموت في صورة شخص قوى يحضر الى الناس ويسلبهم حياتهم .

و « اذ قال لبنيه » بدل اشتمال من « اذ حضر » والبدل والمبدل منه مقصودان بالحكم ، وفي البدل زيادة بيان ليست في المبدل منه . وفي مجيء التعبير على هذه الصورة دون أن يقال : أم كنتم شهداء اذ قال يعقوب لبنيه عند الموت ، يشعر باستقلال الخبر ، وأهمية القصة وتصد حكايته على ترتيب حصولها ، وقصد الاجمال ثم التفصيل ، لأن حالة حضور الموت لا تتجاوز من حدث هام سيحكي بعدها فيترقبها السامع (١٢٧) .

وقوله « ما تعدون من بعدى » أى أى شىء تعدونه بعد موتى ، و « ما » في محذ رفع والعائد محذوف ، وهذا أولى من جعلها في محل نصب على المفعولية ، لأن الرفع مقيد لتقوى المتألم للمقام ، وجرى في السؤال بما الاستهامية دون « من » لأن « ما » هي الأصل عند قصد العموم ، لأنه مسألهم عما يمكن أن يعبدوه . وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستنهام فينظر أولاً مقدار ثباتهم على الدين ويطلع على خالص طريقتهم ، نياقئ اليهم الوصية المناسبة لهم . وفي السؤال

عن حالهم بعد موته دليل على أن الغرض حثهم على ما كانوا عليه حال
حياته من التويعيد والاسلام ، وأخذ الميثاق منهم عليه ، وعلى هذا
فالاستفهام ليس حقيقيا ، وفي مجيء « هي » قبل الضم « بعدى »
تأكيد لمضمونه (١٢٨) •

يحتكى القرآن جوابهم عن سؤال أبيهم « فأنوا نعبد الهك واله
آبائك » . الجملة مفصولة عما قبلها عند البلاغيين للاستئناف البياني
حيث وقعت جواباً لسؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوب ، والتقدير
فماذا قال بنوه ؟ ويرى الشيخ ابن عاشور أن الفصل وقع على طريقة
المحاورات بدون واو وليست الجملة استئنافية، لأن الاستئناف بعد تمام
الكلام ، ولا تمام له قبل حصول الجواب (١٢٩) •

وكلام ابن عاشور فيه وصف لظاهرة دون تعليلها ، فانفصل يقع
في المحاورات وحكايتها • ولكن التعليل لهذه الظاهرة هو ما ذكره
البلاغيون في حديثهم عن الفصل للاستئناف • والاستئناف البياني
لا يشترط فيه تمام الكلام ، لأنه قائم على الاتصال بما قبله اتصال
الجواب بالسؤال •

و « الهك » مفعول به ، وتعريفه بالاضافة دون التعبير بالاسم
المعلم بأن يقولوا نعبد الله ، لأن اضافته الى ضمير يعقوب وآبائه تفيد
انبات جميع الصفات القدسية التي كن يعقرب وآبؤه يثبوتونها لله تعالى
كما أن فيه ايماء الى أنهم مقتدون بسلفهم ، و متمسكون بالملة القيومية
التي ورثوها عنهم • وفي عطف « اله آبائك » على « الهك » دون
الاقتصار على « الهك » اشارة اتفاق الجميع على وجود اله واحد
مستحق للعبادة هو الله عز وجل (١٣٠) •

• (١٢٨) ينظر الألويسى ٣٩١/١/١ التحرير والتنوير ٧٢٢/١

• (١٢٩) التحرير والتنوير ٧٢٣/١

• (١٣٠) ينظر السابق والألويسى ٣٩١/١/١

و « ابراهيم » وما عطف عليه ، عطف بيّن يوضح المقصودين من آبائه ، وهم الأنبياء المذكورون دون غيرهم ، إذ يوجد من آبائه الأقدمين من لم يؤمن بالله تعالى كآزر • وذكر ابن عاشور أن فيه ضرباً من محسن الاطراد تنويها بأسماء هؤلاء الأسلاف (١٣١) • والاطراد عند البلاغيين : أن تطرد للشاعر أسماء منتزئة يزيد المذروح بها تعريفاً ، لأنها لا تكون الا أسماء آبائه تأتي منسوبة صحيحة التسلسل غير منقطعة مع عدم ظهور كلفة على النظم ، ولا تعسف في السبك بحيث يشبه تحدرها باطراد الماء لسهولته وانسجامه • ومثل له ابن أبي اصبح بقوله تعالى : « واتبعت ملة آبتنى ابراهيم واسحاق ذيعقوب » (١٣٢) حكاية عن يوسف عليه السلام (١٣٣) •

وإدراج اسماعيل في آبائه مع أنه عم يعقوب من باب تغليب الأكثر على الأقل • ولأن العم بمنزلة الأب ، وينخرطان في ساك واحد وهو الاخوة ؛ فأطلق عليه لمنزله ، وقدم « اسماعيل » في الذكر على « اسحاق » لكونه أسن منه (١٣٤) •

و « الها واحدا » بدل من « اله آباءك » وفائدته دفع توهم التعدد للناسئء من ذكر الاله مرتين ، وتوضيح صفة الاله الذي يعبدونه • وفي اعادة لفظ الاله ، وعدم الاقتصار على الوصف « واحدا » زيادة ايضاح ، لأن المقام مقام اطناب ففي الاعادة تنويه بالمعاد ، وتوكيد لما قبله • وهذا أسلوب من الفصاحة ، إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ، ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعا ، وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد ، ومنه قوله تعالى : « واذا مروا باللغو مروا كراما » (١٣٥)

• (١٣١) التحرير والتنوير ٧٣٣/١

• (١٣٢) يوسف ٣٨

• (١٣٣) بديع القرآن ١٤١ • وينظر خزنة الادب ٣٥١/١

• (١٣٤) الألوسي ٣٩١/١/١ • (١٣٥) الفرقان ٧٢

• وقوله تعالى (١٣٦) : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم » (١٣٧) •

وقوله « ونحن له مسلمون » جملة في محل نصب حال من ضمير « نعبد » أن من هفوله لرجوع الهاء اليه في « له » ويجوز أن تكون جملة معطوفة على جملة « نعبد » وجرى بها اسمية لافادة ثبوت الوصف لهم ودوامه بعد أن أفيد بالجملة الفعلية المعطوف عليها معنى التجدد والاستمرار ، ويجوز أن تكون اعتراضية مؤكدة أى ومن حالنا انما له مسلمون مخلصون (١٣٨) •

و « نحن » ضمير يؤكد الضمير المستتر في « نعبد » وفي تكريره بارزا اشعر باستقلال الجملة ، وتأيد للحكم الذى تضمنته • وتقديم الجار والمجرور « له » على ما تعلق به يفيد التخصيص ، أى ونحن له مسلمون لا لغيره • وفي مجيء الخبر اسم فاعل يشير الى ثبوت اسلامهم واستمرارهم عليه •

الخاتمة :

وتختتم هذه الحلقة بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » وهى خاتمة تبين مسئلية كل انسان عن عمله ، فعليه يحاسب وبه يجازى ، ولا تنفع الأحساب ولا الأنساب •

وانما جاءت كذلك لأن آيات الحلقة تضمنت الثناء على ابراهيم وبنيه والتنويه بشأنهم ، والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من دريتهم وكان ذلك قد ينتحل منه المرورون عذرا لأنفسهم ، فيقولون نحن وان

• (١٣٦) الاسراء ٧

• (١٣٧) التحرير والتنوير ١/٧٣٤ ، والآلوسى ١/١/٢٩١

• (١٣٨) الكشاف ١/٧٣٤

قصرنا فإن لنا من فضل آبائنا مسلكا لنجاتنا ، فذكرت هذه الآية لافادة
أن الجزاء بالأعمال لا بالانتكال (١٣٩) •

و « تلك » اشارة الى ابراهيم عليه السلام وأولاده ، وثانيته
باعتبار أنهم جماعة ، والاخبار عنهم باسم مؤنث « أمة » ، وفي الاشارة
اليهم بأداة البعيد تعظيم لشأنهم ، وتقخير لمكانتهم •

والأمة : الجماعة ، من أم بمعنى قسدد ، وسميت كل جماعة
يجمعهم أمر ما اما دين واحد ، أو مكان واحد ، أو زمان واحد أمة ،
لأنهم يؤم بعضهم بعضا ويقتصدده (١٤٠) وفي ايثار الأمة على الجماعة
اشعاره بشدة وحدتهم ، وقوة رابطتهم النسبية والدينية ، ولتناسبها
مع ما تقدم في ادعاء ابراهيم عليه السلام « ومن ذريتنا أمة مسلمة
لنك » •

والخاو : المضي ، و « قد خلت » أي : مضت ، و « قد » تحفيق
مضمون الجملة وتأكيده وايثار الخلو على المضي لما فيه من اشارة الى
تجريهم من الحياة ، وترك المكان خاليا لمن قدموا بعدهم (١٤١) وهم
المخاطبون ، الذين عليهم أن يعتبروا بأحوال من خلوا قبلهم ، لأنهم
سيخلون مثلهم ، ويتركون الساحة لغيرهم •

وأصل الخلاء الفراغ ، فأصل معنى « خلت » خلا منها المكان
فأسند الخلو الى أصحاب المكان على طريقة المجاز العقلي لنكتة المبالغة
وهذا الخبر كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة ، والا فإن
لكونها خلت مما لا يحتاج الى الاخبار به (١٤٢) •

(١٣٩) التحرير والتنوير ٧٣٥/١ •

(١٤٠) ينظر مقاييس اللغة مادة : أم ، والألوسي ٣٩١/١/١ •

(١٤١) ينظر مقاييس اللغة مادة : خلو •

(١٤٢) التحرير والتنوير ٧٣٥/١ •

وقوله تعالى « لها ما كسبت وكنتم ما كسبتم » استئناف ، ليعين اختصاص كل أمة بجزء ما عملت ، أو بدل من جملة « خلت » يفصل ما أجملته •

وتقديم المسند على المسند اليه في كل من الجملتين يفيد قصر المسند اليه على المسند ، أى : ما كسبته الأمة مقصور عليها لا يتجاوزها إلى غيرها ، وما كسبتموه مقصور عليكم لا يتجاوزكم إلى غيركم ، وهو قصر موصوف على صفة ، قصرا إضافيا لقلب اعتقاد مخاطبين ، فانهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي ، أو يحمله عنه أسلافهم (١٤٣) •

ويمكن حمل الجملة الأولى على معنى : لها ما كسبته لا يتخذها إلى غيرها ، والثانية على معنى : ولكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فيختلف القصران لاقتضاء المقام ذلك (١٤٤) ، حيث أنهم يظنهم في كسب غيرهم ويتكلمون عليه •

وقد قرر البلاغيون أن من أغراض تقديم المسند على المسند اليه تخصيصه بالمسند اليه ، أى قصر المسند اليه على المسند ، ومن ثم قالوا في قوله تعالى « لكم دينكم ولي دين » (١٤٥) ان معناه دينكم مقصور على الاتصاف بلکم لا يتصف بلى ، ودينى مقصور على الاتصاف بلى لا يتصف بلکم (١٤٦) •

ومادة كسب تدل على ابتغاء وطلب واصابة ، والكسب طلب الرزق (١٤٧) والمراد بالكسب في الآية ثواب الأعمال ، ففى الكلام ايجاز

• (١٤٣) ينظر التحرير والتنوير ٧٣٥/١

• (١٤٤) الألوسى ٣٩١/١/١

• (١٤٥) الكافرون ٦

• (١٤٦) المطول ١٨٤

• (١٤٧) ينظر مقاييس اللغة والصحاح مادة كسب •

بالحذف : أى ها جزاء ما كسبت ولكم جزاء ما كسبتم • أو هو من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالكسب عن الجزاء لما بينهما من سببية وفى التعبير بالكسب لا بجزاء الكسب مسارعة الى بيان أن الجزاء من جنس الكسب ، فكل أمة تأخذ ما كسبته •

وقوله تعالى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » معطوف على ما سبق ، وفى بيان صلته بما قبله قال الأوسى : ان أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، وان أريد به سببه وهو الجزاء فانجملة تذييل لتتميم ما قبله (١٤٨) •

وقال الشيخ ابن عاشور : هو من تمام التفصيل لمعنى « خلت » فان جعلت « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » خاصا بالأعمال الصالحة فقولها « ولا تسألون ... » تكميل للأقسام أى وعلى كل ما عمل من الاثم ، ولذلك عبر هناك بالكسب المتعارف فى الادخار وعبر هنا بالعمل وان جعل « ولكم ما كسبتم » مرادا به الأعمان الذميمة فيكون « ولا تسألون ... » احتراسا واستيفاء لتحقيق معنى الاختصاص ، أى كل فريق مختص به عمله أو تبعته ، ولا يلحق الآخر من ذلك شئ وانما نفى السؤال عن العمل لأنه أقل أنواع المأخذة فان الانسان يسأل ثم يعاقب ، وقد يسأل عن جريمة غيره ولا يعاقب كما يلام القوم على فعل بعضهم ، فنفى أصل السؤال أبلغ وأشمل للأمرين (١٤٩) •

وعلى هذا النحو البديع يأتى ختام هذه الحلقة ، وهو ختام فيه من الحسن والتناسب ما فيه ، حيث يثبىر الى النهاية المحتومة لكل انسان ، ورجوعه الى الله تعالى ليسأل عن عمله فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

• (١٤٨) الأوسى ٣٩٢/١/١

• (١٤٩) التحرير والتنوير ٧٢٦/١

وبعد هذا الختام تأتي آيات تتعلق بإبراهيم عليه السلام وتحت
الرسول ﷺ والمؤمنين على اتباع ملته وهي قوله تعالى « وقالوا كذبوا
هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين •
تملوا آهنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل أنى إبراهيم واسماعيل وإسحاق
ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم
لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١٥٠) كما تأتي آية ترد على
اليهود والنصارى ادعاءهم أن إبراهيم وذريته كانوا هودا أو نصارى
وذلك في قوله تعالى « أم تقولون أن إبراهيم واسماعيل وإسحاق
ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن
أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون » (١٥١) •

• (١٥٠) البقرة ١٣٥ ، ١٣٦ •

• (١٥١) البقرة ١٤٠ •

الحلقة الثالثة وأذن في الناس بالحج

قال الله تعالى :

« واذ برأنا لابراهيم مكان البيت ألا نشرك بى شيئاً وظهر بيتى
للطائفين والقائمين والركع السجود • وأذن في الناس بالحج يأتوك
رجالا وعلى كل صامر يأتين من كل فج عميق • ليتسهّدوا منافع لهم
ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأعمام
فكفروا منها وأطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم
وليطوفوا بالبيت العتيق • » (١)

بين يدى الآيات :

هذه الآيات من سورة الحج ، وهى تمثل الحلقة الثالثة فيما يتصل
بالبيت الحرام من قصة ابراهيم عليه السلام ، وقد سبقت هذه الايات
آية نتحدث عن جريمة الكافرين في ضد الناس عن سبيل الله والمسجد
الحرام — وهى الذى جعله الله مثابة للعابدين — وتبين العقاب — الشديد
الذى ينتظر هؤلاء الكافرين • وينتظر كل من يعدل عن الطريق المستقيم
في هذا المكان المقدس ، قال تعالى : « ان الذين كفروا ويصدون عن
سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد
ومن يرد فيه بالحك بظلم انقه من عذاب أليم » (٢) •
وتأتى هذه الآيات بعد أن جرى ذكر المسجد الحرام ، لتذكر الناس
بتاريخه القديم ، ونشأته على يدى ابراهيم عليه السلام ، وتبين الغرض
من اقامته ، والهدف من دعوة الناس للحج اليه •

(١) الحج ٢٦ - ٢٩ •

(٢) الحج ٢٥ •

ويعنى تحمل في طياتها تعريضا بهؤلاء الكافرين الذين يشركون
 بالله تعالى ، ويصدون الناس عن المسجد الحرام . ثم يدعون انهم
 أحفاد ابراهيم وأولى الناس به ، وهذا الادعاء يفرض عليهم أن يهجروا
 نهجه ، ويسلكوا طريقه في نبذ الشرك، وتطهير البيت الحرام للعابدين .
 وفي الآيات تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من تمريش
 في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده
 لا شريك له (٣) .
 تشریف و تکلیف :

تبدأ الآيات بالذكير بأمر عظمة ، يجب الانتباه انيها ، والانعاط
 بها ، فقد بين الله تعالى مكان البيت الحرام لابراهيم عليه السلام وأمره
 برفعه ليكون مرجعا له وللناس من بعده « واذا بوأنا لابراهيم مكان
 البيت » .

أى : واذا حين جعلنا لابراهيم مكان البيت بماءة أى مرجعا
 يرجع اليه للعمارة والعبادة (٤) . ويؤاه منزلا : أنزله فيه ،
 والمباءة بمعنى المنزل والمرجع ، والتعدية باللام لما فيه من معنى الجعل
 والتميين (٥) .

والمقصود بالبيت : البيت الحرام ، وأطلق لتعيينه ، وشهرته
 بذلك ، اذ هو أول بيت وضع للناس ، واللام بالعهد ، فالبيت معهود
 ومعروف عند المخاطبين (٦) .

(٣) ابن كثير ٣/٢١٥ .

(٤) الكشاف ٣/١٠ .

(٥) حاشية الشهاب ٦/٢٩٢ .

(٦) التحرير والتنوير ١٧/٢٤١ .

وفي اعلام ابراهيم يمكن البيت لرفعه وعمارته تشريف ما بعده
تشريف ، حيث اختصه الله تعالى بهذا الفضل دون سواه ، وذكر به في
كتابه الكريم ، ليكون معلوما للناس حتى يأتي أمر الله .

وبعد التشريف يأتي التكليف ، والتكليف هنا يشتمل على نهى
وأمرين :

أما النهى ففي قوله تعالى : « أن لا تشرك بي شيئا » وقدم
النهى على الأمر لأن النهى موجه الى ابراهيم عليه السلام ، والأمر
سيفعله من أجل الآخرين ، ولأن النهى كف عن فعل محبط للعمل ،
وانتخية مقدمة على التحلية كما أن النهى هنا عن الشرك، والتوحيد هو
أصل العقيدة ، وعليه مدار صلاح الأعمال و « أن » دفسره على مذهب
اليه الرمخشى حيث قال : وأن هي المفسرة ، فان قلت : كيف يكون
النهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوة ؟ قلت : كانت
التبوة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : تعبدنا ابراهيم فقنا له
لاتشرك بالله شيئا وطهر بيتى ٠٠٠ (٧) ويجوز أن تكون «أن» مصدرية
موصولة بالنهى ، أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتى ، وطهر بيتى من
الأوثان والأقذار لمن يطوف ويصلى فيه (٨) ٠٠٠

وياء المتكلم في « بي » تشعر بالوحدانية ، والنون في « بوأنا »
تشعر بالتعظيم وهذا من تلاوين الأسلوب على حسب المعانى والأشوال
ففى مقام التعظيم جىء بنون العظمة ، وفى مقام التوحيد جىء بياء
الوحدة .

ولفظ « شيئا » يفيد العموم بمادته ، وهيئته المنكرة ، وموقعه

(٧) الكشاف ١٠/٣ .

(٨) البيضاوى ٤٥٣ .

في بيان النهي ، أى لا تشرك بى شيئاً من الأشياء، كأننا ما كن ومن أى
جنس، كان •

وأما الأمر الأول فقونه تعالى : « وطهر بيتى للطائفين والقائمين
والركع السجود » وانراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية ،
والمعنى : وطهر بيتى من الأوثان والأقدار لمن يطوف به ويصلى فيه ،
والتعبير عن الصلاة بأركانها — القيام والركوع والسجود — فيه دلالة
على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير، فكيف، وقد اجتمعت (هـ) •
وقد تناولنا نظير هذه الآية بتحليل فى حلقة بناء البيت الحرام
فلا حاجة الى تكراره فى هذا الموضع •

وأما الأمر الثانى فقونه تعالى : « وأذن فى الناس بالحج » أى
نادى فى الناس بدعوة الحج والأمر به والتأدين : رفع الصوت بالاعلام
بشيء ، وأذن بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل ، أى
أكثر الاخبار بالحج ، والكثرة تحصل بالتكرار ، ويرفع الصوت النظم
مقام التكرار (١٠) •

وتقديم الأمر بتطهير البيت على الأمر بالنداء بالحج لأن اعداد
البيت وتجهيزه مقدم على الدعوة لزيارته ، كما أن عدم الاشراف يقتضى
نبذ مظاهر الشرك من الأوثان والأصنام ، فتطهير البيت عنها متصل
بالنهى عن الاشراف بالله تعالى ، فناسب ذلك أن يكون عقبيه •

والواصل بين الأمر الثانى والأول ، وبين الأمر الأول والنهى
لتوسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجملة الثلاث فى الانشائية مع
التناسب بينها •

والمقصود بالناس جميع الناس من كان منهم موجودا فى عصره

(٩) السابق •

(١٠) التحرير والتنوير ١٧/٢٤٢ •

أو غير موجود. على ما جاء في السنة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال: رب قد فرغت يا نقال: نأذن في الناس بالحج، قال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: نأذن وعلى البلاغ، قال: رب كيف أقول؟ قال: قل يزيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فسمعه أهل السماء والأرض ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى البلاد يلبون» (١١) .

ولما أمر إبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج مما يثير في نفسه بعض المخاوف من عدم وصول نداءه إلى كافة الناس، أكدت الآية وصوله ببيان اجابة الناس المفورية المتمثلة في جواب الأمر « يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من دُن فح عميق » وهذا القدر من الآية يصور سعى الناس واسراعهم إلى الحج إلى بيت الله الحرام، حيث يتسابقون في المجيء إليه من فجاج الأرض البعيدة رجالاً وركبانا .

و « يأتوا » مجزوم في جواب الأمر، وإيقاع الايتان على ضمير عليه السلام دون أن يقال: يأتوا البيت، لكونه هو المنادى، وقد أجب بسرعة (١٢) .

و « رجالاً » جمع راجل، أى مشاة وهو في موضع الحال، « وعلى كل ضامر » حال معطوفة على الحال السابقة كأنه قين: رجالاً وركبانا . والضامر: البعير المهزول الذى أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله، وبين رجالاً وعلى كل ضامر طباق بديع، لأنها متضادان في المعنى . والمقصود بالجملة استيذاب أحوان الآتين تحقيقاً للوعد بتيسير الايتان المشير إليه بجعل ايتانهم جواباً للأمر . أى يأتوك

(١١) الألوسى ١٧/٨/١٤٣ .

(١٢) الكشاف ١١/٣ .

من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم(١٣) • وتقديم الراجلين على الراكبين لكون مجيئهم أدل على الاستجابة ، وأقوى في اثبات الطاعة لما في مجيئهم من المشقة الكبيرة التي لم تنتهم عن المجيء إليه •
و « يأتين » صفة لكل ضامر ، والجمع باعتبار المعنى ، كأنه قيل: وركبانا على ضوامر يأتين ، و « كل » هنا تفيد التأكيد لا الإحاطة(١٤)
و « الفج » شقة يكتنفها جبلان ، ويستعمل في الطريق الواسع و « عميق » أى بعيد ، وأصل العمق البعد سفلا ، يقال بئر عميق إذا كانت بعيدة القعر(١٥) •

وفى « فج عميق » قوة وجزالة تشعر ببعد المسافات ، وصعوبة المسالك وهذا يشير الى الشوق الجارف الذى يحدو الناس الى البيت العتيق ، غير عابئين بالمشقات والمصاعب •

حكمة التشريع :

ونظرا لما فى الحج من مشقة ظاهرة ، وتضحيات بدنية ومالية، عرضت الآيات الحكمة من تشريعه ، والفوائد التي تعود على الناس من أدائه ، وقد ذكرت الآيات خمس فوائد :

الفائدة الأولى : « ليشهدوا منافع لهم » و « يشهدوا » متعلق بياترك ، والتعبير به يشير الى أنها منافع محققة وهم يحضرونها ويشهدونها ، وليست من قبيل الترغيب بالأمانى • وتتكبر « منافع » مع جمعها على صيغة منتهى الجموع يدل على أنها منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد ، ويمكن أن يكون التأكيد للتويع أى منافع مختصة بهذه

• (١٣) التحرير والتنوير ١٧/٢٤٣ •

• (١٤) الألوسى ١٧/٩ •

• (١٥) المفردات ٣٧٣ ، ٣٤٨ •

العبادة دينية ودينيوية لا توجد في غيرها من العبادات(١٦) وإطلاق المنافع وعدم تقييدها بمنافع معينة يدل على عمومها ، فتشمل المنافع الدنيوية والدينيوية ، وما أكثرها عند التأمل ووصف المنافع بأنها لهم زيادة ترغيب في أداء الحج لما فيه من منافع تعود على الحجيج أنفسهم والمنافع التي يشهدها الحجيج كثيرة ، فالحج موسم ومؤتمر ، موسم تجارة ، وموسم عبادة ، ومؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون(١٧) .

والفائدة الثانية : « ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » وذكر اسم الله يقتضى ذكر الله تعالى ، وفي جعل الذكر من غايات اتيان البيت اشارة الى أنه الغاية القصوى لأعمال الحج ، لأنها في الأصل تدور على ذكر الله تعالى . والأيام المعلومات هي أيام التحر ، وتخصيص بهيمة الأنعام بالذكر لأنها عماد القربى في هذه الأيام ، وفي النص عليها حث على مواصلة التقرب بها . وحرف « على » متعلق بـ « يذكروا » وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابس والمصاحبة . والمعنى ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام ، وأدمج في هذا الحكم الامتتان بأن الله رزقهم تلك الأنعام . وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق باخلاص العبادة لله تعالى والالتزام بأوامره(١٨) .

ويوجه المولى عز وجل حجاج بيته الى الاستفادة من بهيمة الأنعام « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » وفي الكلام التفتت من الله الى الخطاب يفيد العناية والاهتمام بارشادهم وتوجيههم الى الطريق الأمثل

(١٦) ينظر الكشف ١١/٣ ، وأبو السعود ١٠٤/٦ .

(١٧) في ظلال القرآن ٢٤١٨/٤ .

(١٨) التحرير والتنوير ٢٤٦/١٧ .

حيث خاطبهم الله تعالى خطابا مباشرا بما يعود عليهم بالمنفعة ، ويحقق
 نهم المصلحة •

والفاء في قوله « فكأوا » فصيحة عاطفة لمدحونها على مقدر قد
 خذف للاشعار بأنه أمر محقق غير محتاج الى التصريح به ، أى :
 فاذكروا اسم الله على هداياكم فكأوا من لحومها • والأمر بالأكثر
 للاباحة ، وازاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه ، أو للاندب
 الى مواساة الفقراء ومساواتهم (١٩) • والبائس : الذى أصابه بؤس
 وشدة ، والفقير : المحتاج ، والأمر بالاطعام للوجوب على الصحيح (٢٠)
 ولم يعطف أحد الوصفين على الآخر لكونهما لموصوف واحد ، أو لتقارب
 معنييهما ، وقد قيل : ان البائس هو الفقير ، وانما ذكر البائس مع أن
 الفقير معن عنه أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنه فى بؤس
 وفى حالة تستوجب الاطعام (٢١) وتقديم البائس لما فيه من شدة
 تستدعى العطف والاطعام • وتخصيص البائس الفقير بالاطعام
 للمحث على العناية باطعام هذا الصنف من الناس لشدة حاجتهم اليه ،
 وإن كان يجوز اطعام غيرهم كما يرى العلماء •

الفائدة الثالثة : « ثم ليقضوا تقضهم » والتفت فى الأصل الوسخ
 والقذر ، وقضاء التفت ازالته ، فاستعمل القضاء فى الازالة مجازا لما
 أن القضاء فى الأصل القطع والفصل •

وفى قضاء التفت اشارة الى نظافتهم الحسية ، وظهارتهم المعنوية
 فنقد نظفوا أجسامهم بعد أن كانوا شعنا غربا قبل الاحلال ، كما خرجوا
 بالحج من ذنوبهم ، وعادوا أطهارا كيوم وادتهم أمهاتهم : كما فى الحديث

(١٩) أبو السعود ١٠٤/٦ •

(٢٠) أبو السعود ١٠٤/٦ ، والالوسى ١٤٦/١٧/٩ •

(٢١) التحرير والتنوير ١٧/٧٤٨ •

« من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (٢٢) •

وقيل المراد بالتفتت : المناسك كلها ، وبالقضاء : الأداء والمعنى :
يؤدونها نسكهم (٢٣) • وفي التعبير بالتفتت عن النسك مجاز مرسل علاقته
السببية لأن التفتت مسبب عن المناسك • ورجح ابن عاشور أن التفتت
مناسك الحج ، لأن الفعل « ليقضوا » ينادى على أنه كذلك ، وموقع
« ثم » في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادى على معنى التراخي
الارتبى فيقضى أن المعطوف بـ « ثم » أهم مما ذكر قبلها ، فان أعمال
الحج هي المهم في الاتيان الى مكة (٢٤) • وفي قوله « ليقضوا تفثهم »
الانتفات من الخطاب الى الغيبة يعود به الكلام الى نهجه السالف الذي
كان عليه قبل الأمر بالأكل والاطعام •

وفي التعبير بالمضارع المقرون بلام الأمر تنبيه على أهمية هذه
الأعمال وحث على فعلها •

والفائدة الرابعة : « وليوفوا نذورهم » أي ما يندرونه من أعمال
البر في حجهم ، وقيل : مواجب الحج ، فالنذر بمعنى الواجب مطاب
على سبيل المجاز (٢٥) •

وفي التعبير بالوفاء اشارة الى أن النذر عمل ناقص لا يتمه الا بالوفاء
به ، وأشعار بما في أداء النذر من خلق كريم •

والفائدة الخامسة : « وليطوفوا بالبيت العتيق » قيل طواف
الافاضة وهو طواف الركن الذي يتم به التحلل ، وقيل ضواف

(٢٢) رياض الصالحين: ٤٩٣ •

(٢٣) ينظر الألوسى ١٤٦/١٧/٩ •

(٢٤) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٧ •

(٢٥) الألوسى ١٤٦/١٧/٩ •

الوداع (٢٦) ، ولا مانع من تفسيره بالطوائف ، وفي تشديد اللفظ إشارة إلى كثرة الطوائف ، مما يؤيد ذلك .

والمراد « بالبيت العتيق » الكعبة المشرفة ، و « العتيق » أى انقديم . فانه أول بيت وضع للناس ، وقيل سمي عتيقا لأنه أعتق من الجبارة ، أو أعتق من الغرق وقيل غير ذلك (٢٧) ، والأول أولى بالقبول واللفظ يحتمل ولا مانع من القول بالكل . وفى تسميته عتيقا أشعار بعظمة شأنه وفخامة أمره ، وشرافته .

واختار ابن عثور أن العتيق : المحرر غير المملوك للناس ، شبه بالعبد العتيق فى أنه لا ملك لأحد عليه ، وفيه تعريض بالمشركين ، إذ كانوا يمنعون منه من يشاءون ، حتى جعلوا بابه مرتفعا بدون درج إنما يدخله الا من شاءوا (٢٨) .

وفى بدء الجمل الثلاثة السابقة بلام الأمر الداخلة على الفعل المضارع تناسق بديع فى الأسلوب، وتأكيد على هذه الأعمار، وحث على الإتيان بها ، والوصل بينها للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت فى الإنشائية مع المناسبة بينها . وختتم هذه الأوامر بالطوائف فيه حسن ختام ، حيث يأتى الطوائف ختاماً لأعمال الحج ، وقد جاء ختاماً لهذه الحلقة .

• (٢٦) أبو السعود ١٠٤/٦

• (٢٧) الرازى ١٥٨/٦

• (٢٨) التحرير والتنوير ٢٥٠/١٧

أسرار التشابه والتنوع في النظم

ويعد أن أنتهينا من التحليل البلاغى للنظم انقرآنى فى الحلقات المتى تدور حول البيت الحرام ودعاء ابراهيم عليه السلام ، نأتى الى المقارنة بين نظمها مجتمعة لنقف على ما فيه من تشابه وتنوع . ونكتشف عن الأسرار البلاغية التى تراءت لنا فى ذلك .

الموضوع والنظم :

تدور الحاقات الثلاث فى رحاب البيت العتيق ودعاء ابراهيم عليه السلام الا أن كل حلقة منها تهتم بتفصيل موضوعات تخصها .
فحلقة سورة ابراهيم مختصة ببيان الدعاء الذى صدر عن ابراهيم عليه السلام للمبلد الحرام ، ولفسسه ولذريته وللمؤمنين ، مع ما يتخلل ذلك من ثناء على الله تعالى ، وقد جاءت وسطا بين الحلقات الثلاث فى طولها .

وحلقة سورة البقرة تبين ابتلاء الله تعالى لابراهيم بالتكاليف ، وتفصيل بعضها، وتذكر الدعاء المصاحب لبعضها ، وتوضح دين ابراهيم عليه السلام وهو الاسلام ، وتورد وصيته لأبنائه وذريته بالتمسك به، وبذلك كانت أطول الحلقات الثلاث نظرا لتعدد موضوعاتها .

وحلقة سورة الحج تفصّل بعض ما كلف الله به ابراهيم من نهيه عن الاشرار بالله وأمره بتطهير البيت الحرام ، ودعوة الناس الى حج بيت الله العتيق ، لما فيه من فوائد دينية ودنيوية ، وهى أقصر الحلقات الثلاث .

وتختلف السمة الغالبة على النظم فى كل حلقة تبعا لموضوعها .
ففى حلقة ابراهيم المختصة بالدعاء ، تعلو نبرة الخشوع والخضوع والتضرع لله رب العالمين ، فتبدأ دَل آية فيها بدعاء الرب

سبحانه وتعالى ، فالآية الأولى بعد البداية المذكرة بالوقائع ينادى إبراهيم ربه «رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام» ويستمر في ترديد هذا النداء الخاشع المستجلب للإجابة الى آخر الحلقة آية واحدة بدئت بحمد الله تعالى لذاته ولما أنعم عليه من نعمة الذرية بعد الكبر « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » ومع كون الثناء والدعاء من قبيل واحد ، الا أنه سرعان ما نجد لفظ الرب في تذييل الآية « ان ربي لسميع الدعاء » •

وفى حلقة البقرة وهي فى معظمها تدور حول تعداد أمور جليلة كلف بها إبراهيم عليه السلام أو قام بها اثر التكليف ، تعلقو نبذة التذكير بهذه الأعمال عن طريق « اذ » الذى فيها تذكير بالوقت وما حدث فيه فبداية الآية الأولى « واذ ابتلى » والثانية « واذ جعلنا » والثالثة « واذ قال إبراهيم » والرابعة « واذ يرفع إبراهيم القواعد » • ويأتى الدعاء فتعلقو نبذة الخشوع والخضوع ، ثم تعود نبذة التذكير وان كانت أخف من السابق « اذ قال له ربه أسلم » « أم كنتم شهوداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى » •

وفى حلقة الحج تعلقو نبذة الأوامر الصارمة الصادرة الى إبراهيم عليه السلام ليقوم بتنفيذها وتبليغها للناس « لا تشرك بى شيئاً » « وطهر بيتى للطائفين » « وأذن فى الناس بالحج » ويعقب الأمر الأخير ببيان ما يعود على المأمورين من فوائد ومنافع عند تنفيذه •

البداية :

تتحدد الحقائق الثلاث فى البداية بالتذكير بما حدث فيها عن طريق « اذ » الظرفية التى تذكر بوقت وقوع هذه الأحداث ، وفى التذكير بالوقت تذكير بما وقع فيه من أحداث وتتبع « اذ » بالفعل المناسب لأوضاع كل حادثة •

غنى حلقة ابراهيم تتبع « اذ » بالفعل « قال » « واذا قال ابراهيم
رب اجعل هذا البلد آمنا » لأن هذه الحلقة خالصة للدعاء والثناء ، وكُنْ
مهما قول خاشع يتجه به العبد الى ربه عز وجل سائلا أو هشيا .

وفي حلقة البقرة تتبـع « اذ » بالفعل « ابتلى » « واذا ابتلى
ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن » لأن هذه الحلقة فيها اشارة الى التكليف
التي أوجبها الله تعالى على ابراهيم عليه السلام ابتلاء واختبارا له ،
ونجاحه في القيام بها ، ثم تفصيل لبعض هذه التكليف . فناسب هذا
ذكر الابتلاء .

وفي حلقة الحج تتبـع « اذ » بالفعل « بوا » ، « واذا بوا لابراهيم
مكان البيت » وذلك لاختصاص هذه الحلقة بالدعوة الى شعيرة الحج الى
بيت الله الحرام ، حيث أمر ابراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس
بالحج بعد تطهير البيت واعداده لذلك ، فناسب هذا أن يـبـواه الله
مكان البيت ليعده ويعم على عمارته ، استعدادا لتقدمين اليه .

الدعاء بالأمن :

في سورة البقرة تحكى دعوة ابراهيم بالأمن للبلد على هذا النحو
« واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا بلد آمنا » .
وفي سورة ابراهيم تحكى على هذا النحو « واذا قال ابراهيم رب
اجعل هذا البلد آمنا » .

فاندعرتان متشابهتان في النظم مع وجود تنوع يتمثل في تنكير
لفظ البلد في البقرة وتعريفه بلام العهد في ابراهيم . وقد بين العلماء
سبب هذا التنوع .

فالاستغنى يوضح أنه يخرج على وجهين : أحدهما . أن يقال ان
الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا ، فكأنه قال : اجعل

هذا الوادى بلدا آمنا • وعليه فـ « هذا » مفعول أول ، و « بلدا » مفعول ثان ، و « آمنا » صفة • وان الدعوة الثانية وقعت وقد جعل المكان بلدا فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذى صيرته بلدا ذا أمن على من أوى اليه ، وعليه فـ « هذا » مفعول أول ، و « البلاد » عطف بيان أوصفة ، و « آمنا » مفعول ثان • وبذلك عرف اللفظ حين كان بلدا معربا بالبلدية ، ولاكز حيث كان مكانا من الأمانة غير مشهور بالتمييز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس •

والثانى : أن تكون الدعوتان واقعتين بعد ما صار المكان بلدا ، وانما طلب من الله تعالى أن يجعله آمنا ، وهذا ظاهر فى قوله « اجعل هذا البلد آمنا » فى سورة ابراهيم ، أما فى قوله « اجعل هذا بلدنا » فى سورة البقرة فيكون على تقدير : اجعل هذا البلاد بأدا آمنا وبناء على هذا التقدير يكون المطلوب هو الأمن بعد ما صار بلدا ، وهو مثل المطلوب فى ابراهيم • وهذا جار فى كلامهم ، فالقائل يقول : اجعل ولدك هذا ولدا أدبيا ، وهو لا يأمره بأن يجعله ولدا ، وانما يأمره بتأديبه ، فكأنه قال : اجعله بهذه الصفة • وكما تقول كان اليوم يوما حارا ، فتجعل يوما خيرا كان ، وحارا صفة له ، ولم تقصد أن تخبر عن اليوم بأنه كان يوما ، لأنه يصير خيرا غير مفيد ، وانما القصد أن تخبر عن اليوم اليوم بالحرة ، فكان الأصل أن تقول : كان اليوم حارا وأعدت لفظ يوم لتجمع بين الصفة والوصف ، فكأنك قلت : كان هذا اليوم من الأيام الحارة (١) •

وحاصل كلام الاسكافى : اما أن تكون الدعوتان وقعتا فى وقتين مختلفتين فالتى وردت بالتنكير وقعت قبل جعل المكان بلدا والمسئول فيها سيئان : البنية والأمن • والتى وردت بالتعريف وقعت بعد جعل المكان

(١) ينظر درة التنزيل : ٢٩ •

بإدائها والمسئول فيها شيء واحد من الأمن . وإنما أن تكون الدعوتان
 وقعتا بعد ما صار المكان بإدائها ، والمسئول في كل منهما هو الأمن فقط ،
 والبلدية موجودة في حال التعريف تحريحا وفي حال التثكير تقريرا .
 وقد اعترض الغرناطي على الوجه الأول من كلام الاسكافي وقال انه
 بعيد وليس بهفهوم من لفظ الآي ، وهو ممكن (٢) .

وبين الاسكافي أن هناك من يقول في بيان سر ذلك : أن الأول
 الذي في البقرة جاء نكرة ، فلما أعيد ذكره أعيد بلفظ المعرفة ، كما تقول :
 رأيت رجلا فأكرمت الرجل . وضعف الاسكافي هذا الرأي وقال :
 بليس هذا بشيء ، وليس ما ذكره مثالا لهذا ، ولا هذا المخان مكانه (٣) .
 وقال الزمخشري : فان قلت : أي فرق بين قوله « اجعل هذا بلدا
 آمنا » وبين قوله « اجعل هذا البلد آمنا » قلت : فلا سأل في الأول أن
 يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه
 من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال : هو بلد
 مخوف فاجعله آمنا (٤) .

وبفهم من كلام الزمخشري أن المسئول في حال التثكير شيان :
 البلدية والأمن وفي حال التعريف الأمن وحده .

وبين الشهاب كلام الزمخشري فقال : وتحقيقه أنك اذا قلت :
 اجعل هذا خاتما حسنا فقد أشرت الى المادة أن يسبك منها خاتم
 حسن ، واذا قلت : اجعل هذا الخاتم حسنا فقد قصدت الحسن دون
 الخاتمية ، وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثاني لأنه بمنزلة
 الخبر (٥) . فالمطلوب أولا سبك خاتم موصوف بالحسن . فالخاتم

(٢) ملك التاويل ١/٢٣٥ .

(٣) درة التنزيل ٣٠ . وينظر معترك الاقران ١/٨٩٦ .

(٤) الكشاف ٢/٣٧٩ .

(٥) حاشية الشهاب د/٢٧٠ .

والحسن مطرزيان ، والمطلوب ثانيا تحسين الخاتم الموجود ، فالمطلوب
شيء واحد ، وهذا يؤكد ما فهمناه من كلام الزمخشري •

وتبع الرازي الاسكافي في تحليله وأمثله ، الا أنه صرح بنكتة
المفقد في حال التنكير وهي المبالغة حيث قال في الوجه الثاني: أن تكون
الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلدا، فقلوه « اجعل هذا بلدا آمنا »
تقديره : اجعل هذا البلد بلدا آمنا ، كقولك : كان اليوم يوما حارا ،
وهذا انما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة ، لأن التنكير يدل على
المبالغة ، فقلوه : اجعل هذا البلد بلدا آمنا معناه : أجعله من البلدان
الكاملة في الأمن ، وأما قوله « رب اجعل هذا البلد آمنا » فليس فيه الا
طلب الأمن لا طلب المبالغة (٦) •

وتناول أبو السعود المسألة من ناحية تعدد السؤال ووحدته فقال:
إن حمل على تعدد السؤال : فيكون عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين:
البلدية والأمن فاستجاب له في أحدهما وتأخر الى وقته المتأخر له لما
تقتضيه الحكمة الباهرة ، ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد في الدعاء
والإبتهاال • أو كان المسئول أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى
كما في سائر البلاد ، وقد أجيب الى ذلك ، وثانيا الأمن المعهود ، أو كان
هو المسئول أولا أيضا وقد أجيب اليه لكن السؤال الثاني لاستدامته ،
والاقتضار على سؤاله مع جعل البلاد صفة لهذا لأمره المقصد الأصلي
أو لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن • وان
حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر : فالظاهر أن
المسئول كلا الأمرين ، وقد حكى ذلك في البقرة ، واقتصر في ابراهيم
على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال
جعل أفئدة الناس تهوى اليه ، لما فيه من دلالة على البلدية (٧) •

(٦) الرازي ١/٤٧٧ •

(٧) أبو السعود ١/١٥٨ •

وحاصل كلامه أن السؤال إما أن يكون متعددا ، وإما أن يكون واحدا وتكررت حكايته بأسلوبين مختلفين ، فإن كان متعددا فالمسؤول في البقرة البلدية والأمن وفي إبراهيم الأمن فقط بعد تحتق البلدية ، مع تفريعات أشار إليها .

وان كان السؤال واحدا مع تكرار حكايته فانسئوا في الموضوعين كلا الأمرين وقد ذكرا معا في البقرة ، واكتفى في إبراهيم بذكر الأمن بدلالة الآيات التالية على البلدية .

وبالملاحظ أن هؤلاء جميعا تناولوا المسألة من حيث مفهوم الأسلوب ودلالة كل من التثنية والتعريف في صيغ وحيدة الدعاء أو تعدده ، فجاء كلامهم متشابها في محصله ، وان بدا مختلفا في معرضه ، وقد سار على هذا كثير من العلماء (٨) .

أما الغرناطي فقد تناول المسألة على أساس نحوي رابطا الأسلوب بما سبقه فقال : أما التثنية في سورة البقرة فوجهه — والله أعلم — أن اسم الإشارة الذي هو « هذا » فلم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وآمنا » وقوله « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين . . . » وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد لا سيما بما تقدم من قول إبراهيم عند نزوله بواذه بحرم الله ودعائه أولا بقوله « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » (٩) فتعريف البيت تعريف البلاد ، فورد اسم الإشارة غير مثبتة إلى التابع المبين جنسه كالجارى في أسماء الإشارة ، اكتفاء ما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان، فانتصب « بلدا » مفعلا ثانيا و « آمنا » نعتا له واسم الإشارة

(٨) ينظر معترك الأقران ٨٩/١ ، والفتوحات الإلهية ١٠٥/١ .

(٩) إبراهيم ٣٧ .

منعولا أول غير محتاج الى تابع لقيام ما تقدم مقامه ، ولو تعرف افظ « بند » بالألف واللام ، وجرى على اسم الإشارة لم يكن يحرز بيانا زائدا على ما تحصل مما تقدم ، بل كان يكون كالانترار • فمورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود مع حصول ما كانت التبعية تعطيه ، فجاء على ما يجب •

وأما التعريف في سورة ابراهيم فذلك أنه لم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار اليه . فلم يكن بد من اجراء البلاد عليه تابعا بالألف واللام على المعهود الجارى في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار اليه باسم جامد في الغالب يكون عطف ببيان على قول الخليل أو نعتا على الظاهر من كلام سيوييه ، وانتصب اسم الإشارة المتبع على أنه مفعول أول و « آما » على أنه مفعول ثان ، ولم يكن عكس الوارد ليحسن ولا يناسب (١٠) •

فأساس التذكير والتعريف عند العرناطى ليس سؤاى شىء أو شىئين كما ذكر غيره ، ولكن التذكير في البقرة ورد لعدم الحاجة الى تابع معرف لاسم الإشارة نظرا لتقدم المعرف الذى يقوم لاسم الإشارة مقام التابع فاكتفى به ايجازا ، واورد الاسم معرفا ما أفاد بيانا زائدا على ما فهم مما تقدم •

أما التعريف في ابراهيم فمورد لعدم تقدم ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف كما هو معهود في أسماء الإشارة •
وقال الطاهر بن عاشور : لما جعل البلد مفعولا ثانيا استغنى عن بيان اسم الإشارة ، وفي ابراهيم لما جعل آما منعولا ثانيا بين اسم الإشارة يلفظ البلد (١١) •

(١٠) ملك التأويل ٢٣٤/١ ، ٢٣٥ •

(١١) التحرير والتنوير ٧١٤/١ •

ورأى الغرناطي لا يتعارض مع رأى الاسكافي ومن تبعه لأن كلا منهما ينظر من زاوية مختلفة لا تتعارض مع الأخرى • فالاسكافي وغيره ممن ذكرناهم ينظرون إلى الفرق المعنوي بين الأسلوبين بناء على اختلاف اللفظ بالتكثير والتعريف ، ويرجعون السر في اختلاف اللفظ إلى وقت السؤال وتعدده أو وحدته • والغرناطي لم ينظر إلى الفرق المعنوي بين الأسلوبين ، وإنما اهتم ببيان سر اختلاف الأسلوبين بالتكثير والتعريف ، وهذا على أساس نحوي كما أوضحنا •

الدعاء بالرزق :

جاء في سورة ابراهيم « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وجاء في سورة البقرة « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » • ونسر هذا التنوع فيما نرى : أن ما جاء في سورة ابراهيم ورد في ثنايا الدعاء لذريته وتكلمة له ، فقوله « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » فذاًسب هذا أن يقول : « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » • وأتبع الدعاء برباء الشكر لأن ما تقدمه داعية للشكر ، فقد أسكنهم بواد خال من الحياة « غير ذي زرع » فتوجيه الناس إلى الذهاب اليهم في شوق جارف ، ورزقهم من الثمرات في هذا المكان الخالي من الحياة نعم جليلة تستوجب شكر المنعم عز وجل وأما ما جاء في سورة البقرة فقد ورد ضمن الدعاء للبند الحرام وأهله على العموم ، من ذريته أو من غيرهم « رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات » ومن ثم أتبع هذا بقوله « من آمن منهم بالله واليوم الآخر فخصص الدعاء بالمؤمنين من أهل البلد بعد التعميم السابق ، لأن أهل هذا المكان منهم المؤمنون ومنهم غير المؤمنين • وإنما لم يخص الدعاء في سورة ابراهيم بالمؤمنين ، لأنه كان

خاصا بذريته الذين أسكنهم عاد بيت الله الحرام ، وهم مؤمنون ،
فلا داعى للتخصيص .

الأمر بتطهير البيت :

جاء في سورة البقرة « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن تطهرا
بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . وجاء في سورة الحج
« واذ برأنا لابراهيم مكان البيت ألا تترك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين
والقائمين والركع السجود » .

والتنوع في الآيتين يظهر في أربعة مواضع :

الأول : قيل في البقرة « وعهدنا » وقيل في الحج « واذ برأنا
لابراهيم مكان البيت » وهذا راجع الى أن ما في الحج واقع قبل بناء
البيت ، فناسب هذا أن يدل على مكان البيت ويعرف به ليرجع اليه
ويقوم فيه بما أمر به . أما ما في البقرة فواقع بعد بناء البيت وجعله
مثابة للناس وأمانا كما سبق في الآية « واذ جعلنا البيت مثابة للناس
وأمانا واتخذنوا من مقام ابراهيم مصلى » فناسب هذا أن يعهد اليه
بتطهير البيت والحفاظة عليه .

والثاني : وجه الأمر بالتطهير في البقرة لابيراهيم واسماعيل
عليهما السلام ، وفي الحج وجه الأمر لابيراهيم عليه السلام وحده .
وسر هذا أن ما في الحج واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله
تعالى « واذ برأنا لابراهيم مكان البيت » وكان اسماعيل عليه السلام
حينئذ بمزحل من مثابة الخطاب ، أما ما في البقرة فظاهر أنه كان بعد
بلوغه مبلغ الأمر والنهي وتمام البناء بمباشرة كما يبين . عنه ايراد
اثر حكاية جعله مثابة للناس وأمانا (١٢) .

(١٢) أبو السعود ١/١٥٨ .

والثالث : جاء في البقرة « للطائفين والعاكفين » وجاء في الحج « للطائفين والقائمين » وقد بين الغرناطي السر في تخصيص البقرة بالعاكفين وتخصيص الحج بالقائمين فقال : ان المراد بالقائمين هنا ذوا الإقامة والملازمة على صفة مخصوصة ، واذا أريد القائمين هذا ، فهو بالعكوف مما يصح أن يعبر بأحدهما عن الآخر ، مع أن لفظ العكوف أخص بالمقصود ، فيكون خصوص آية الحج بقوله « القائمين » لتقدم ذكر العكوف قبل هذا في قوله « سواء العاكف فيه والباد » فلما تقدم ذكر العكوف متصلا بالآية وقع الاكتفاء بذلك ، وعدل عن التكرار الذي من شأن العرب العدول عنه الا حيث يراد تعظيم ، أو تهويل وشبه ذلك ، ولما لم يقع ذكر العكوف قبل آية البقرة ولا بعدها وهو مراد لأنه أخص بالمقصود ، لم يكن بد من الافصاح ، وكأنه قد قيل في آية الحج : والقائمين مكثفين ، فأغنى ذكرهم متقدما عن الاينان به حالا هبينة ، وأغنى قوله في آية البقرة « والعاكفين » عن قوله : « والقائمين » لأن العكوف : الملازمة ، وهو المراد بالقيام ، فورد كل على ما يجب ويناسب .

ومن قال ان المراد بقوله « والقائمين » المصلون فوجهه ان ذكر العكوف قد حصل فيما تقدم فاكتفى به ، ولم يكن وقع قبل آية البقرة ولا بعدها فلم يكن بد من ذكره ، وعبر عن المصلين بالرجوع السجود (١٣) وحاصل كلامك أن لفظ « القائمين » بمعناه المراد هنا يصح أن يعبر به عن « العاكفين » ، وإيثار « العاكفين » في البقرة لأنه أخص بالمقصود ، ولم يتقدم ذكره قبل ذلك ، وإيثار « القائمين » في الحج لتقدم العكوف في الآية السابقة ، ولا داعي للتكرار حتى يكرر اللفظ هنا .

والرابع : ورد في الحج نهى لابراهيم عليه السلام عن الشرك

(١٣) ملك التأويل ١/ ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢٨ - خصائص النظم)

« الا تشرك بى شيئاً » ولم يرد مثل هذا فى البقرة • وسر ذلك والله
 أعلم أن آية الحج سبقت بالحديث عن المشركين وصددهم عن سبيل الله
 والمسجد الحرام • وبينان عاقبة الملحدين فى الحرم فى قوله تعالى « ان
 الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس
 سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب
 أليم » (١٤) فناسب ذلك أن يهوى ابراهيم عن الشرك على سبيل
 الالهاب والتهيج ، حثا له على التمسك بالايمان والمداومة عليه ، وذلك
 قبل أن يؤمر بتطهير البيت الذى يذنبه المشركون ويصدون الناس عنه •
 أما فى البقرة فالآيات السابقة على الآية مفعمة بجو الايمان اذ تتحدث
 عن ابتلاء الله تعالى لابراهيم بالتكاليف ونجاح ابراهيم فى ذلك ومكافأة
 الله تعالى له بجعله اماما للناس ، واتخاذ مقامه مصلى • فالجو كله جو
 ايمانى ، لا مجال فيه لانهى عن الشرك لخاوه عنه •

الفصل الرابع

عقيدة ابراهيم عليه السلام ومنزلته

اختلف اليهود والنصارى والمشركون حول عقيدة ابراهيم عليه السلام ، فقال اليهود هو يهودى ، وقال النصارى هو نصرانى ، وزعم المشركون أنهم على دينه . وقد رد القرآن الكريم على هذه المزاعم فى مواضع متعددة ، منها قول الله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنфия مسلما وما كان من المشركين » (١) .

وهذا الفصل يتناول بالتفصيل البلاغى الآيات التى تدور حول بيان عقيدة ابراهيم عليه السلام ، وتبين أنه كان حنфия مسلما ، وبريئا من اليهودية والنصرانية والشرك على السواء وتوضح منزلته عند الله تعالى .

وقد جاءت فى ثمان سور ، هى حسب ترتيب النزول :

١ - ص . وهى سورة مكية وحلققتها تبين منزلته عند الله تعالى هو واسحاق ويعقوب عليهم السلام .

٢ - الزخرف : وهى سورة مكية وفيها بيان ابراءته من عبادة ابيه وقدمه المشركين ، وتمسكه بعبادة الله تعالى خالفه بساديه ، ووصيته لذريته بذلك .

٣ - النحل : وهى سورة مكية ، وفيها بيان لمنزلة ابراهيم عليه السلام ، وكونه حنфия مسلما بريئا من المشركين .

٤ - البقرة : وهى سورة مدنية ، وفيها بيان لايمانه القوى باعتقاده الجازم فى البعث ، من خلال رؤيته لمثهد حتى يوضح كنفية احياء الموتى .

(١) آل عمران ٦٧ .

٥ - آل عمران : وهي سورة مدنية . وفيها ذكر لحاجبة أهل انكباب في ملة ابراهيم عليه السلام وزعمهم بأنه كان يهودياً أو نصرانياً ، مع ابطال مزاعمهم بالدليل .

٦ - الممتحنة : وهي سورة مدنية ، وفيها دعوته الى التماسى بابراهيم عليه السلام في براءته من أبيه وقومه بسبب شركهم ، وإشارة الى استغفاره لأبيه ، وأنه مما لا يؤتسى به فيه .

٧ - النساء ، وهي سورة مدنية ، وحلقها تبين أنه لا أحد أحسن ممن أخلص وجهه لله ، وأتبع ملة ابراهيم وتوضح أن الله تعالى قد اتخذ خليلاً ، وهذه مرتبة ما بعدها مرتبة في الفضل والتكريم .

٨ - التوبة : وهي سورة مدنية ، وتبين علة استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه ، وتبرأه منه بعد أن تبين حقيقته .

ومن النظر في هذه الحلقات نراها تأخذ ثلاثة محاور أساسية :
الأول : يبين دينه وملته . ويتمثل هذا في حلقات البقرة وآل عمران .

والثاني : يبين براءته من أبيه وقومه المشركين وما يعبدون ، ويتمثل هذا في حلقات الزخرف والممتحنة والنوبة .

والثالث : يبين مكانة ابراهيم عليه السلام ومنزلته عند الله تعالى ، والحث على اتباعه .

وبناء على هذا سنتناول النظم القرآني في هذه الحلقات بالتفصيل انبلاغي بادئين بالمحور الأول ثم بالثاني ثم بالثالث .

الحلقة الأولى

ابراهيم عليه السلام والبعث

قال الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن تؤمن فقال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » (١) •

بين يدي الآية :

هذه الآية الكريمة تعرض مشهدا من مشاهد قصة ابراهيم عليه السلام ، يوضح ما دار بينه وبين الله عز وجل ، عندما دعاه أن يريه كيفية احيائه الموتى ، ليزداد ايمانا على ايمانه ، ويقينا فوق يقينه ، وهو يرى البعث ، ماثلا بين عينيه ، ويبصر قدرة الله تعالى على احياء الموتى بعد فنائهم •

ولم يرد هذا المشهد في غير هذا الموضع من كتاب الله انكريم ، وقد عرضته آية واحدة ، هي الثالثة ثلاث آيات وردت متتابعة ، تحكى ثلاثة مشاهد ، تدل على ولاية الله تعالى للمؤمنين ، وتثبيته لهم ، واخراجهم من الظلمات الى النور ، عقيب الحكم الالهي بذلك في قوله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) •

والمشهد الأول من هذه المشاهد الثلاثة يعرض بحاجة «الذميرود» لابراهيم عليه السلام في ربه ، ونصر الله له في هذه المناجاة (٣) ، والمشهد الثانى يروى ما كان من أمر الذى مر على قرية خاوية على عروشها ، فسأل متعجبا : كيف يحيى الله هذذ النقية بعد موتها ؟ ، فأراد الله معجزة في نفسه وطعامه وشرابه وحماره ، فأيقن أن الله على كل شىء قدير (٤) ، وقد اختلف المغسرون في اسم هذا الرجل وأكثر الأتوال على أنه « عزيز بن شرخيا » (٥) .

ويأتى المشهد الثالث الذى نحن بصدد الحديث عنه : وهو يحكى طلب ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وإحابة الله عز وجل طلب ابراهيم عليه السلام ، والمناسبة بين هذا المشهد وبين ما قبله واضحة جلية ، فهو من ناحية أحد أدلة ثلاثة تظهر ولاية الله تعالى للمؤمنين ، وإخراجهم من الظلمات الى النور ، حيث يبين أن الله تعالى تولى ابراهيم بعنايته ورعايته ، وأجابه عن سؤاله ، فاطمأن قلبه ، وثبت قواذه ، وازداد رسوخا ويقينا .

ومن ناحية أخرى يتحدث عن الاحياء والاماتة ، وقدره الله عليهما كما في المشهدين السابقين له ، ثم هو يرتبط ارتباطا وثيقا بالمشهد الذى قبله مباشرة ، اذ يشتركان في اشتغالهما على سؤال عن كيفية احياء الموتى ، والاجابة عنه بأية عملية شاهدة ، تجلى تدره الله تعالى على احياء الموتى ، وبعث الناس بعد فنائهم ، فهما دليلان على قضية البعث، ينبثقانها بواقعتين عمليتين حدثتا وشوهدتا رأى العين .

(٣) البقرة ٢٥٨ .

(٤) البقرة ٢٥٩ .

(٥) ينظر الألوسى ٢٠/٣/٢ .

البداية :

يبدأ هذا المشهة بحكاية طلب لابراهيم عليه السلام ، يدعو فيه ربه أن يريره كيفية احيائه الموتى ، قال تعالى : « واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » ، وهي بداية فيها تنبيهه للاستماع ، ولفته بالذهان ، لتتأهل للوقوف على ما يدور من حوار ، وما يعرض أحداث ، ومن ثم اختلفت عن بداية المشهدين السابقين ، بالمشهد الأول بدىء بقوله تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه » ، والمشهد الثانى بدىء بقوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها » ، فسلك بهما مسلك الاستشهاد والاحتجاج على ولاية الله للمؤمنين ، وبدىء المشهد الثالث ببداية مختلفة ، ولم يسلك به نفس المسلك السابق ، بأن يقال : أو كالذى قال رب أرني كيف تحيي الموتى ، لجريان ذكر ابراهيم عليه السلام في المشهد الأول في أثناء المحاجة ، ولأنه لا دخل لنفسه عليه السلام في أصل الدليل (٦) ، وهذه البداية المخالفة للدايمين السابقين مع اتحاد الكل في الاستدلال على قضية أساسية واحدة ، فيها تاوين للأسلوب بعدم سيره على وتيرة واحدة ، ومن ثم ينبذ الذهن ويجدد نشاطه لاستيعاب ما يعرض عليه .

والظرف « اذ » منصوب على المفعولية بمضمر تقديره : واذكر وقت قول ابراهيم . . . ، ويجوز أن يكون معطوفا على قوله : « ألم تر الى الذى حاج » وتقديره : وألم تر اذ قال ابراهيم : أو معطوفا على قوله : « أو كالذى مر على قرية » وتقديره : أو كابراهيم اذ قال رب أرني . وعلى الاعراب الأول يكون توجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير ، لنمبالغة في ايجاب تذكرها ، لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه ، بالطريق انبرهائى ، ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة ، فاذا استحضرت كانت

(٦) ينظر أبو السعود ٢٥٦/١ .

حاضرة بتفاصيلها ، بحيث لا يشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر ، كأنها مشاهدة عيانا (٧) •

وصرح في هذه الآية باسم السائل وهو ابراهيم عليه السلام ، ولم يصرح في الآية السابقة باسم السائل الذي مر على انقرية ، لأن في سؤال ابراهيم من الأدب مع الله تعالى ، وانثناء عليه ، ما ليس في سؤال ذلك ، فصورة سؤال ذلك صورة الابتكار ، وصورة سؤال هذا صورة الاقرار مع طلب الزيادة في العلم (٨) • والحقيقة أن ابراهيم عليه السلام ليس سائلا ، انما هو طالب على سبيل التضرع ، وطلبه مبنى على أنه مقربا بالبعث ، مؤمن بقدره الله على احياء الموتى ، ولكنه يتوق الى مرتبة المعاينة ، ويهفو الى درجة المشاهدة ، ويود مجاوزة العلم العقلي البرهاني ، الى العلم الحسي الضروري ، ومن ثم قال : « رب أرني كيف تحببى المرتى » ، أما الذى مر على انقرية فكان سائلا سؤال المتعجب الذى تلوح عليه أمارات الشك ، ومن ثم قال : « انى يحيى هذه الله بعد موتها » ، فقال ابراهيم بأدبه مع الله تعالى ، وثباته عليه ، من التشريف بذكر اسمه مالم ينله الآخر •

ويبدأ ابراهيم عليه السلام طلبه بندااء الله تعالى بلفظ الرب الذى يشير الى تربيته تعالى لعبده ، وعنايته به ، واشفاقه عليه ، ليكون ثناء واستعطافا بين يدي تضرعه ، مبالغة في استدعاء الاجابة من الله عز وجل (٩) • ، وحذف الفداء يشعر بقرب ابراهيم عليه السلام من ربه تعالى ، الذى هو مربيه ومالك أمره ، وفى ذلك مزيد طمع فى نجابة دعائه وتحقيق رجائه •

(٧) السابق ٢٥٦/١ •

(٨) ينظر الرازى ٣٢٦/٢ ، والمنار ٤٥/٣ •

(٩) ينظر أبو السعود ٢٥٦/١ ، والمنار ٤٥/٣ •

والرؤية التي طلبها ابراهيم بقوله « أرني » رؤية بصرية ، وعلى هذا فالفعل يتعدى الى مفعول واحد ، ولكن دخول همزة النقل عليه جعلته يتعدى الى مفعولين ، أولهما : ياء المتكلم ، وثانيهما : جملة « كيف تحيي الموتى » ، والتقدير : أرني كيفية احيائك الموتى .
وقد يتبادر سؤال مؤداه : هل يشعر طلب ابراهيم عليه السلام بشيء من الشك ؟

والجواب : لا يشعر بذلك، وبعبارة لا تتجىء عن إثارة من شك ، وذلك لأن الاستفهام بكيف ، انما هو سؤال عن حالة شيء موجود . منقرر الوجود عند السائل والمسئول ، فمتى قلت . كيف زيد ؟ وكيف ثوبك ؟ فاما تسأل عن حال كل منهما ، وكيف في هذه الآية انما هي استفهام عن هيئة الاحياء ، والاحياء منقرر وثابت (١٠) . فابراهيم عليه السلام لم يسأل عن الاحياء وجودا وعدمها ، لأن وجوده منقرر عنده وثابت لديه ، ولكنه يطلب رؤية هيئة الاحياء ومشاهدتها . وهنا دقيقة في معنى « كيف » يجب أن نقف عندها ، وهي أن تكون « كيف » في هذه الآية مجردة عن الاستفهام ، كما في قوله تعالى (١١) : « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء » (١٢) ، وعلى هذا فليس في الآية استفهام عن احياء الموتى ، ولا عن كيفية احيائهم . انما الذي في الآية : طلب على سبيل التضرع ، توجه به ابراهيم الى ربه : أن يريه هيئة احياءه الموتى ، وفرق بين الاستفهام وبين الطلب ، فانك لا تطلب شيئا من أحد على سبيل الحقيقة الا وأنت تعلم قدرته على فعل ذلك الشيء .

(١٠) القرطبي ١١٠٧/٢ .

(١١) آل عمران ٦ .

(١٢) التحرير والتنوير ٢٨/٣ .

ومما يتصل بهذا بيان معنى حديث رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من ابراهيم ٠٠٠ » (١٣) ومعناه : أن ابراهيم لو كان شاكاً لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لا نشك ، فابراهيم عليه السلام آخرى ألا يشك ، فالحديث مبني على نفي الشك عن ابراهيم عليه السلام (١٤) ، وقيل : ان الكلام مع أفعل جاء هنا لنفي المعنى عن الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام ، أى لا شك عندنا جميعاً ، ومن هذا الباب قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبع » (١٥) أى لا خير في الفريقين (١٦) .

امتحان من الله تعالى :

أما طلب ابراهيم من ربه أن يريه هيئة احيائه الموتى ، لم ينتق له ما طلبه مباشرة ، لكن بادره بامتحان يجلي عقيدته ، ويدسه مراده ، وهو سبحانه وتعالى عليم بذلك « قال أو لم تؤمن » وفصلت هذه الجملة عما قبلها للاستغناء البياني ، حيث ان الجملة الأولى تثير سؤالاً فحواه : فبماذا أجابه ربه ؟ وجاءت هذه الجملة جواباً عن هذا السؤال النفسى ، وعلى هذا كل ما وقع في القرآن الكريم من لفظ « قال » مفصلاً عن سابقه ، فالفصل فيه للاستغناء ، قال الامام عبد القاهر : واعلم أن الذى تراه في التنزيل من لفظ « قال » مفصلاً ، غير معطوف ، فذلك على تقدير السؤال والجواب ، كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين اذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقاتلوا كذا ، أن يقولوا : فما قال هو ؟ ، ويقول الجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج .

(١٣) البخارى ١٠٨/٣

(١٤) القرطبي ١١٠٦/٢

(١٥) الدخان ٣٧

(١٦) الالوسى ٢٧/٣/٢

لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه • وسلك بانسخط معهم المسلك الذي يسلكونه (١٧) •

وقال الشيخ ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : «هالوا أتجن فيها من يفسد فيها » (١٨) عذا جواب الملائكة عن قول الله لهم « انى جاعل فى الأرض خليفة » والتقدير فقاؤا ••• وفصل الجواب ولم يعطف بالفاء أو الواو جريا على طريقة متبعة فى القرآن فى حكاية المحاورات ، وهى طريقة عربية قال زهير :

قيىل لهم ألا اركبوا آلاتا قاتوا جميعا كلهم ألقا

أى فاركبوا ولم يقل فقلوا ••• وانما حذفوا العاطف فى أمثاله كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القربل ، فان المحاورة تقتضى الاعادة فى الغالب ، فطردوا الباب فحذفوا العاطف فى الجميع ، وهو كثير فى التنزيل (١٩) •••

وكلام الشيخ جيد فى وصف ظاهرة ترك العاطف فى المحاورات ، ولكنه لم يعلل ذلك بعلة معقولة ، بل أتى بعلة أشبه ما تكون بالعلل النحوية الواهية ، وتعليل عبد القاهر لهذه الظاهرة أدق ولا ينقصه الا ادخال مصطلح المحاورات فيه ، فقد دلنا على السبب المقبول للفصل بين جمل المحاورات ، وهو أن الجملة السابقة فيها تحرك السامعين وتثير فى نفوسهم سؤالا ، فتجىء الجملة التالية جواربا عنه ، ومن ثم يفصلان عن بعضهما كما يفصل الجواب عن السؤال المرح به (٢٠) • كما أن الشيخ عبد القاهر لم يهمل الاشارة الى أن هذا الأسلوب متعارف ومتبع فى الكلام العربى •

(١٧) دلائل الاعجاز ٢٤٠ •

(١٨) البقرة ٣٠ •

(١٩) التحرير والتنوير ٤٠١/١ •

(٢٠) ينظر دلائل الاعجاز ٢٣٥ وما بعدها •

وقوله تعالى : « أو لم تؤمن » معطوف على مقدر ، أي ألم تعلم
 ولم تؤمن ؟ ، أو الواو للجان ، وعامل الحال فعلل مقدر دل عليه
 «أرنى» والتقدير : أريك في حال أنك لم تؤمن ؟ ، والاستفهام تقريري ،
 لدل ابراهيم على الاقرار بما ثبت لديه واستقر عنده من الإيمان
 واليقين ، والمراد بالتقرير هنا : التقرير بما بعد الذنى ، لا التقرير
 بالذنى والمعنى : آمنت ، وهكذا في كل ما دخلت فيه همزة التقرير على
 النفى ، كما في قوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » (٢١) وقوله
 تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » (٢٢) فالمقصود بالتقرير في ذلك :
 التقرير بما دخله النفى ، لا التقرير بالذنى ، فالمعنى : وجدك ضالا
 فهداك ، وشرحنا لك صدرك ، ومن البلاغيين من جعل الهمزة في مثل
 هذا للإنكار ، ومراده الإنكار الذى ينفى النفى فيصير الكلام
 مثبتا (٢٣) ، غائقولان ينتهيان الي مراد واحد ، وأن كنت أستحسن
 لفظ التقرير ، لعدم اشعاره بما يشعر به لفظ الانتار ، فيناسب
 مقامات كثيرة لا يستساغ فيها لفظ الإنكار كالأيتين السابقتين •

ويعرض هنا تساؤل فحواه : ما وجه امتحان ابراهيم بهذا
 السؤال وهو غير شاك ؟ والجواب عن ذلك : أن السؤال بكيب قد
 يستعمل في الشك ، فأراد الله تعالى بالسؤال أن يجيب ابراهيم بما يرفع
 هذا الاحتمال (٢٤) ، وأجاب ابن عطية عن هذا التساؤل اجابة دفصلة
 نقلها عنه القرطبى فقال : بعض المنكرين لوجود شيء ، قد يعبرون عن
 انكاره بالاستفهام عن حالة لدنك الشيء يعلم أنها لاتصح ، فيلزم من ذلك
 أن الشيء في نفسه لا يصح ، مثال ذلك : أن يقول مدع : أنا أرفع

• (٢١) الضحى ٦

• (٢٢) الشرح ١

• (٢٣) ينظر المطول ٢٣٧

• (٢٤) حاشية الشهاب ٢/٣٤٠

هذا الجبل ، فيقول المكذب له : أرني كيف ترفعه ؟ فنهذه طريقة مجاز في العبارة ، ومعناها تسليم جدلي ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه ، فأرني كيف ترفعه ؟ ، فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازي ، خلص الله له ذلك ، وحمله على أن يبين الحقيقة ، فقال له « أَلَمْ تَؤْمِنْ » « قال بلى » فكمّل الأمر وتخلص من ذلك شك (٢٥) .

ولما كان ابراهيم عليه السلام مؤمنا موقنا بانبعث يقينا لا يتزحزح، أجاب ربه عز وجل اجابة واضحة «قال بلى» أى علمت وآمنت بقدرتك على احياء الموتى ، و « بلى » حرف جواب يختص بالنفى ، ويفيد ابطاله واثبات ما بعده ، سواء كان نفيا مجردا أم مقرونا بالاستفهام ، فاذا قيل : لم يقم زيد ، أو ألم يقم زيد ، فنقول اذا أثبت انقيام له : بلى ، ونقول ان نفية عنه : نعم (٢٦) .

وما دام ابراهيم عليه السلام مؤمنا بقدرته الله على احياء الموتى، فما سر طلبه اذا ؟ من هنا كان الاستدراك ، لبيان سر ما طلبه من رؤية كيفية احياء الموتى « ولكن ليطمئن قلبي » أى : طلبت ما طلبت ليطمئن قلبي ، ولكن : حرف ابتداء لمجرد افادة الاستدراك ، وليست عاطفة (٢٧) ، واللام للتعليل ، والفعل المضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، والاطمئنان معناه السكون ، واطمان الرجل اطمئنانا وطمأنينة : سكن (٢٨) ، وهو حقيقة في سكون الأجسام ، وقد أطلق هنا بمعنى استقرار الفكر والنفس : فهو مجاز بتشبيه التردد الفكرى بالاضطراب والحركة ، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويا للحقيقة ، والقباب مراد

• (٢٥) القرطبي ١١٠٧/٢

• (٢٦) مفنى اللبيب ١١٣/١ ، ٣٤٦/٢

• (٢٧) السابق ٢٩٢/١

• (٢٨) الصحاح ملادة « طمن » .

به الفكر ، اذ القلب لا يضطرب عند انشك ، ولا يتحرك عند اقامة
الدليل ، انما ذلك للكثرة (٢٩) •

والتعبير بقوله «ليطمئن قلبي» فيه اشعار بأهمية القلب ، وعظيم
منازته ، فهو موطن العقائد الصحيحة أو فاسدة ، ومنبع الاتجاهات
مستقيمة أو زائفة ، وبهذا نطقت آيات القرآن الكريم ، وأحاديث
الرسول ﷺ ، من ذلك قوله تعالى : « ولما يدخل الايمان في
قلوبكم » (٣٠) وقوله تعالى : « في قلوبهم مرض » (٣١) وقوله
تعالى : « الا من أتى الله بقلب سليم » (٣٢) وقوله ﷺ : « ألا وان في
الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد
كله ألا وهى القلب » (٣٣) ومن دعاء الرسول ﷺ : « اللهم يا مثبت
القلوب ثبت قلبي على دينك » •

وجملة « ليطمئن قلبي » بينت أن طلب ابراهيم عليه السلام كان
على سبيل الاطمئنان ليزول عن قلبه الفكر في كيفية الحياة ، لأنه
اذا شاهدها سكن قلبه عن الجولان في كيفاتها المتخيلة ، وتعينت عنده
بالتصوير المشاهد (٣٤) ، وهو طلب لا يقدر في يقينه وايمانه ، لأنه
للطمأنينة فيما تنزع اليه نفسه من معرفة خفايا أسرار الربوبية ،
لا طلب للطمأنينة في أصل عقد الايمان بالبعث الذي عرفه بالوحي
والبرهان ، دون المشاهدة والعيان (٣٥) •

(٢٩) ينظر التحرير والتنوير ٣٩/٢ •

(٣٠) الحجرات ١٤ •

(٣١) البقرة ١٠ •

(٣٢) الشعراء ٨٩ •

(٣٣) البخارى ١/١٩٠ •

(٣٤) الانصاف (دمامش الكشاف) ١/٣٩٢ •

(٣٥) المنار ٣/٤٦ •

الإجابة :

وبعد أن قرر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بما آمن به من البعث وأقر ابراهيم بذلك ، وبين أن طلبه على سبيل الاطمئنان بالمشاهدة والمعينة ، أجابه المولى سبحانه وتعالى الى ما طلبه ، بأن أمره أن يقوم بتجربة عملية يشاهد منها هيئة احياء الموتى « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل مهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا » •

والفصل بين جملة « قال ••• » وما قبلها للاستئناف البياني ، كما ذكرنا آنفا ، وفاعل القول هو الرب سبحانه وتعالى ، وقد أضمر الفاعل هنا كما أضمر قبل ذلك ، نتمام ظهوره ، بتقديم ذكره صريحا في أول الآية الكريمة ، وهذا من الايجاز في المحاورات ، اذ يضم اسم كل من المتحاورين ، لتعيينه وظهوره في بداية المحاوراة ، وعلى هذا السنن جرت محاورات القرآن الكريم •

وقد بين هذا الجزء من الآية الكريمة مراحل العملية التي كلف الله عز وجل ابراهيم بالقيام بها ، لكي يرى ما طلبه ، وتتمثل في أربع مراحل فصلتها أربعة أوامر : المرحلة الأولى : « فخذ أربعة من الطير » والفاء واقفة في جواب شرط مقدر ، أي : ان أردت ذلك فخذ أربعة من الطير (٣٥) ••• ، وفي حذف الشرط مع ذكر الفاء في الجواب ايجاز بديع مع الحث على المسارعة بعمل المطلوب ، واعتباره أمرا عليه أن يفعله دون تردد ، ليشاهد مطلوبه ، ولأن ذكره يشعر بتوقف ما كلف بعمله على ارادته واختباره ، وقد لا يفعله ، وعند ذلك لا تتحقق له رؤية كيقية احياء الموتى •

والطير : مصدر طار يطير ، سمي به هذا الجنس المعروف •

ويطلق على الواحد والجمع (٣٦) • ، ويذكر ويؤنث ، ومن ثم لحقته
 لاء عدده « أربعة » باعتباره مذكرا ، وتذكير أربعة للإشارة إلى
 تسبوعها وعدم تعيينها في أربعة مخصوصة ، ولعل جعلها أربعة لتكثير
 الأصناف والأجزاء عند التقطيع والخط ، وقال ابن عاشور : ليكون
 وضعها على الجهات الأربع : المشرق ، والمغرب ، والجنوب ، والشمال ،
 لئلا يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأني الأحياء (٣٧) • ولا
 دلالة في الآية على ذلك •

و « من » للتبويض ، وتدل على اختلاف أنواع الطير ، وتخصيص
 انطير بذلك لأنها أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخصوص الحيوان ،
 وبسهولة تأتي ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك (٣٨) •

وعدم تسمية الطير أو تحديد نوعه ، فيه رفق بابراهيم عليه السلام ،
 وتيسير للأمر عليه ، حيث ترك له أن يختار أى طير يستطيع الحصول
 عليه دون عنت ومشقة ، كما أن فيه اظهارا لكمال قدرة الله تعالى على
 احياء أى أنواع من الطيور يأتى بها ، نو كلف ابراهيم يأخذ طير
 مخصوص لربما شق عليه ذلك ، ولم يستطيع الحصول عليه ، أو قاد
 هذا إلى الظن بأن القدرة متعلقة باحياء أنواع مخصوصة ، وهذا
 يظهر شطط بعض المفسرين حينما كفوا أنفسهم بالبحث في أنواع
 الطير التي أتى بها ابراهيم عليه السلام ، وتسميتها دونما اعتماد على
 نقل صحيح ، واختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا ما كان أغناهم عن
 الولوج فيه •

والمرحلة الثانية « فصرهن اليك » أى : أملهن واضمهن اليك : من

(٣٦) ينظر الصحاح مادة « طير » ، •

(٣٧) التحرير والتنوير ٣/٣٩ •

(٣٨) أبو السعود ١/٢٥٦ •

صاره يصوره ويصيره ، واذا أمله (٣٩) ، والعطف بالفاء للإشارة الى أن املتهن اليه مترتبة على أخذهن ، وحاصلة عقب ذلك من غير مهلة . وفائدة املتهن وضمنهن اليه ، أن يتأملهن ، ويعرف صفاتهن مفصلة ، حتى يعلم بعد الاحياء أنهم على حقيقتهم ، لم يتغير جزء من أجزائهم موضعاً أو شكلاً (٤٠) ، وفيه فائدة أخرى هي أن تحدث بينه وبين انطير ألفة ومودة، حتى اذا دعاهن بعد الاحياء عرفته وأسرعن نحوه كما هي عادة الطيور والحيوانات مع من تألفه وتحس بعطفه نحوها .

والمرحلة الثالثة « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً » وهذه المرحلة تقتضى أن تسبقها مرحلة أخرى هي : أن يذبحهن ويقطعهن أجزاء ، وقد طويت هذه المرحلة لدلالة السياق عليها ، حيث ان أمره بأن يجعل على كل جبل جزءاً منهن ، يقتضى أن يذبحهن ويقطعهن الى أجزاء ، ومن ثم يقوم بوضع هذه الأجزاء على الجبال ، ومن ثم قال العكبري وفي الكلام محذوف وتقديره : أملهن اليك ثم قطعهن (٤١) . وقال النبتاعي : عطف بكلمة المهلة تجاوزا بعد تربيتهن عن ذبحهن ودرسهن ، وظلطن حتى صرن لحمه واحدة لا يبين في جملتها شيء من الصور الذاهبة ، كما تصير المواليد تراباً عند موتها وتبددها ، صورة واحدة ترابية ، ليتطابق المثل والمثول مطابقة تامة (٤٢) .

وهذا من الايجاز البديع في القصة القرآنية ، حيث تطوى المشاهد التي تفهم من السياق ، ويدن عليها النظم ، وهو بجانب ما فيه من

(٣٩) ينظر الكشف ١/٢٩٢ ، والصحاح مادة « صير » .

(٤٠) ينظر أبو السعود ١/٢٥٦ .

(٤١) أملاء ما من به الرحمن ١/٥٢٠ . « بهامش الفتوحات » .

(٤٢) نظم الدرر ٤/٦٨ .

ايجاز يبعث على التدبر والتفكر في المشاهد المطوية ، لقتصل أطراف القصة في الذهن ، فيتصورها مرتبة كما حدثت في الواقع .

والعطف « بثم » يدل على وجود مدة زمنية فاصلة بين التعرف عليهن ، وتفريقهن على الجبال ، وهذه المدة مشغولة بالمرحلة المطوية ، وهى ذبحهن ونقطيعهن أجزاء واعدادهن للتفريق وتقديم الجار والمجرور « على كل جبل » على المفعول التصريح « جزءا » يشير الى العناية والاهتمام بتفريقها على الجبال ، لما فى ذلك من تباعد المسافات بين الأجزاء ، وجعل التفريق على الجبال دون غيرها لأنها عادة تكون على مسافات متباعدة ، ومسالكها عسيرة وعرة ، وفى ذلك تقوية لتفريق الأجزاء ، فاذا جمعت وأحييت بعد ذلك فهذا أدل على كمال القدرة ، وتقديم الجار والمجرور « مهن » على « جزءا » مع كونه صفة له لتخصيص التفريق بأجزاء الطير التى تعرف عليها ، وقطعها دون غيرها ، حتى لا يختلط عليه الأمر بعد أحيائها . فلا يستطيع التحقق منها ، وفى تقطيعها الى أجزاء وتفريقها على الجبال اثبات لكمال قدرة الله تعالى على احياء الموتى ، مهما كانت طريقة موتهم ، والهيئة التى ماتوا عليها ، فلو قطعت أجسادهم ، أو أحرقت أبدانهم ، أو فعل بهم ما فعل ، فانه عز وجل قادر على احيائهم .

والمرحلة الرابعة : « ثم ادعوهن يأتينك سعيا » ، أى نادهن يأتين إليك ساعيات مسرعات فى طيرانهن أو فى مشيهن على أرجلهن (٤٣) ، والعطف بثم يدل على التراخى الرتبى والزمنى بين المرحلتين ، و « يأتينك » مضارع مبنى على السكون لاتصاله بنون النسوة فى محل جزم لوقوعه فى جواب الأمر والنون فى محل رفع فاعل ، والكاف فى محل نصب مفعول به ، و « سعيا » حال من فاعل « يأتينك » وفى

تقييد الاتيان به اشارة الى اسراعهن في المجيء اليه ، لأن السعى في الأصل : العدو ، يقال : سعى الرجل يسعى سعياً ، أى : عدا (٤٤) .

وقال ابن عاشور : والسعى من أنواع المشى لا من أنواع الطيران ، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت اليهن حياة مخالفة للحياة السابقة ، فلما يظن أنهن لم يمتن تماماً (٤٥) ، ولنا فيماقله نظر ، إذ لو أعيدت اليهن حياة مخالفة لحياتهن السابقة ، لكان ذلك مثاراً للتساؤل : لماذا لم تعد اليهن الحياة الأولى ؟ أهى غير ممكنة ؟ وما السر في خلقهن على حياة مخالفة للأولى ؟ وإذا كان السعى من أنواع المشى ، فهل كان الطير لا يمشى على رجليه قبل ذبحه وتقطيعه ؟ ؟ حتى نقوله عندما عاد هاشيا : انها حياة مخالفة للأولى ؟ ان المعروف عن الطير أنه كما يطير يمشى أيضاً ، فلا مخالفة بين الحياتين . ونحوه : فلما يظن أنهن لم يمتن تماماً ، فهذا الظن من المحال أن يعرض أن قام بذبح الطير ، وقطعها أجزاء ، وفرق أجزائها في جبال متباعدة . ، والذي أراه أن تفسير الزمخشري الذى سقناه آنفا أدق وأشمل وأولى بالاتباع وفي مجيء المرحلة الرابعة على هيئة الأمر وجوابه ، اشعار بسرعة اتيانهن اليه ، نثر دعائه لهن ، وربط لحيثهن اليه بدعائه لهن ، ليكون مستعداً لمشاهدة أهم خطوة فى عملياته التى قام بها ، فبهذه الخطوة يتحقق له ما رآه ، وقد بينت جملة الجواب نتيجة العملية التى سيقوم بها مقدماً ، فى هذا طمأننة وتسكين له ، بدلالته على نتيجة عمله ، قبل أن يقوم به ، إذ يعرف أنه لن يخيب رجائه ، ولكن سيحصل على مراده .

هذه مراحل العملية التى أمر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام

(٤٤) الصراح مادة « سعى » .

(٤٥) التحرير والتنوير ٣/٤٠ .

بتنفيذها ، ليرى هيئة احياء الموتى ، وبمنظرة أخرى فيها ، نجدها تد-
جاءت بصيغة الأمر ، دلالة على الاهتمام بتنفيذها ، وترتبت ترتيباً عقلياً
لارما ، بحيث تسلم كل مرحلة منها الى التي تليها ، ولا يمكن تقديم
مرحلة على أخرى ، فعليه أن يبدأ أولاً بأخذهم فيتعرف عليهم بضموم
انيه ، ثم يقطعهم ويفرق أجزاءهن على الجبال ثم يناديهم فيأتينهن
مسرعات .

وقد بولغ في تحقيق شيوخ الطير، وتفريق أجزاءها مبالغات شتى .
حيث أمر بأخذ أربعة من الطير ، غير محددة بنوع ولا بصفة ، يختارها
بارادته ، ويتعرف عليها ، ويقطعها أجزاء كبيرة أو صغيرة حسب رغبته ،
ويفرق هذه الأجزاء بالكيفية التي يراها ، وكل ذلك دفعا لمظنة اختصاص
القدرة باحياء نوع دون نوع ، أو ما هو في مكان دون ما هو في مكان
آخر ، أو ما هو على كيفية معينة دون غيره .

ونكليف ابراهيم عليه السلام بتنفيذ هذه العملية بنفسه بدلا
من أن تنفذ أمامه ، يحقق شيئين : أن يكدر ويتعب في سبيل الوصول الى
مراده فيسر اذا عاين الحقيقة ، ويتمكن في ذهنه فضل تمكن لحصوله
عليها بعد تعب ومشقة ، وأن يزداد يقينا واطمئنانا بمباشرة العمل
بنفسه ، واطلاعه على جميع مراحل ، ومشاهدته قدرة الله تعالى ماثلة .
أمام عينيه .

ولم تبين الآية موقف ابراهيم عليه السلام من هذا التكليف ،
ولا ما وصل اليه من نتائج ، ومما لا مرأ فيه أنه امتثل لأمر الله تعالى ،
وقام بتنفيذ ما كلفه به ، فعاين قدرة الله تعالى ، وشاهد كيفية احيائه
الموتى ، كما طالب من ربه عز وجل . وانما اقتصرت الآية على حكاية
أوامره عز وجل من غير تعرض لامثاله عليه السلام ، ولما ترتب
عليه من عجائب آثار قدرته تعالى . . للايذان بأن ترتب تلك الآيات

على الأرواح الجليلة ، واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث
لا حاجة له الى الذكر أصلاً (٤٦) •

وهذا من الايجاز القرآني البليغ ، وقد تمثل هنا في طي ما يدل
عنه الحال : ويهتدى اليه العقل ، اذ لا يتصور عدم استجابة ابراهيم
لما كلف به ، وفائدته في النهاية عائدة اليه ، وهو الذي رجا ربه وطلب
منه أن يريه هيئة احياء الموتى ، كذلك ليس من بلاغة الكلام أن يقال بعد
ذلك : واستجاب ابراهيم لأمر الله تعالى وأخذ الطبر وتعرف عليها ،
وذبها وقطعها أجزاء وفرقتها على الجبال ثم دعاها فأثنته ساعة ، لأن
هذا تكرار همل ، وتطويل مجوج يخرج الكلام عن ساحة البلاغة ، وقد
تهزه عنه القرآن الكريم الذي أعجزت بلاغته الانس والجن •

الختام :

ويختتم هذا المشهد من قصة ابراهيم عليه السلام بأمر خامس
معطوف على الأوامر الأربعة السابقة : « واعلم أن الله عزيز حكيم »
وهو ختام مترتيب علي ما سبقه من أحداث عجيبة ، عاين بها ابراهيم
هيئة احياء الموتى ، ويشاهد فيها دلائل القدرة الالهية ، لأن من يشاهد
هذا الحدث الخارق ، يعلم علماً يقينياً قائماً على المشاهدة أن الله تعالى
« عزيز » غالب على أمره لا يعجزه شيء عما يريد ، « حكيم » ذو حكمة
بالغة في أفعاله (٤٧) و في مجيء الوصفين على صيغة « فعيل » ،
اشعار بكمال عزة الله تعالى ، وتمام حكمته •

وفي التصريح بلفظ الجلالة تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر
اذ أن الظاهر أن يقال : واعلم أنني عزيز حكيم ، كما يقال : قال الشيخ
لتلميذه : أد واجبك واجتهد في دروسك واعلم أنني مكافئك • وهذا من

(٤٦) أبو السعود ٢٥٧/٦ •

(٤٧) ينظر أبو السعود ٢٥٧/٦ •

وضع المظهر موضع الخمر ، وقد أفاد في الجملة القرآنية تربية المهابة ، بذکر لفظ الجلالة ، والاشعار بعلّة الحكم ، فهو عزيز حكيم لأنه الله تعالى وفيها لون آخر من ألوان التواوين في النظم ، حيث عدل عن لفظ « الرب » المتقدم في صدر المشهد الى لفظ الجلالة ، فلم يكن التعبير : واعلم أن الرب أو أن ربك عزيز حكيم ، لما في الاسم الجليل من مهابة وخشية وعظمة ، لاختصاصه بالمولى جل شأنه ، والمقام مقام تقرير حكم عام ، فيناسبه ما يبعث على الخشية والرهبّة لا ما يوحى بالعطف والشفقة كما أن في « ربك » اشعاراً بالخصوصية ، وليس هذا مقامها •

وقد يقال : ما السر في أن الله عز وجل أمره أن يعلم أنه جل شأنه عزيز حكيم ، وإبراهيم عليه السلام يعلم ذلك يقينا ؟
ولنا في الجواب عن ذلك ثلاثة ردود :

أولها : أن يكون الأمر بالعلم على سبيل الهاب والتهديد ، حيث أمر بعلم شيء يعلمه ، كما في قوله تعالى : « يأيها النّبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » (٤٨) ، وفي هذا ما فيه من إثارة الشعور والوجدان والانفعال ، وهز المشاعر ، ودغدغد العواطف ، حيث تكون النفس عند سماعه أحسن تلقيا ، وأكثر تمسكا به (٤٩) •

وثانيها : أن العلم المشهور به هنا قائم على المشاهدة والمعاينة بعد رؤيته هيئة احياء الموتى ، وعلمه السابق قائم على البراهين العقلية وبذلك كمل له العلمان : علم العقل ، وعلم الحس •

وثالثها : تنزيهه وهو عالم بذلك منزلة غير العالم ، رعاية للمقام إذ أنه طلب من الله أن يريه هيئة احيائه الموتى ، مع علمه بأنه قادر على ذلك ، فعومل في الخطاب معاملة غير العالم •

(٤٨) الأحزاب ١ •

(٤٩) مع أسرار التعبير القرآني ٨ •

ويبغى في هذا المقام أن نقارن بين ختام هذه الآية وختام الآية السابقة عليها ، والتي عرضت مشهد « عزيز » فموضوعهما يكاد يكون واحدا ، كما بينا في أول حديثنا عن هذه الآية .

فقد ختم مشهد عزيز بقوله تعالى حكاية عنه : « فلما تبين له أنه أعلم أن الله على كل شيء قدير » وختم مشهد إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : « وأعلم أن الله عزيز حكيم » ، فجاء ختام الآية الأولى أسلوبيا خبريا حاكيا اعتراف « عزيز » واقراره بأن الله على كل شيء قدير ، وجاء ختام الآية الثانية أسلوبيا انشائيا أمرا إبراهيم عليه السلام أن يعلم أن الله عزيز حكيم ، ولعل السر في ذلك : أن سؤال « عزيز » يوحي بالشك ، فترك حتى يشاهد بنفسه آيات الله تعالى ، ويعاين قدرته على احياء الموتى ، فلما تبين له ذلك ورآه ماثلا أمامه ، اعترف ، وأقر بأن الله على كل شيء قدير ، أما طلب إبراهيم عليه السلام فهو على سبيل الدعاء ، ولا ينم عن شك ، ومن ثم أمر بتنفيذ عملية يشاهد من خلالها هيئة احياء الموتى ، كما أمر بأن يعلم أن الله عزيز حكيم وكان هذا قبل أن يقوم بما كلف به ، فلم يترك حتى يشاهد النتيجة ويقر بنفسه ويعترف ، لأنه مقر ومعتزف بقدرته الله على احياء الموتى ، والا يداخله شك في هذا .

وأست فاصلة الآية الأولى على صفة القدرة ، لأن سؤال « عزيز » كان يتعلق بها ، حيث يشعر بشك في القدرة والاستطاعة ، فتناسب ذلك أن يثبت القدرة فيقول كما حكى القرآن عنه « أعلم أن الله على كل شيء قدير » ، بينما أست فاصلة الآية الثانية على صفتي العزة والحكمة ، لأن طلب إبراهيم عليه السلام لم يتعلق بالقدرة فهو مقر ومعتزف بها ، إنما تعلق برؤية الكيفية ، وهي أمر خارق للعادة لا يخضع للأسباب ، فتناسب ذلك وصف العزة والحكمة قاله سبحانه

وتعالى عزيز غالب لا يعجزه شيء يريد من الخوارق ، وحكيم في أفعاله
التي يجريها وفق أسباب عادية أو غير عادية .

وتختتم الآية الكريمة بهذا الأمر المقرر لمبدأ هام من مبادئ العقيدة
وهو العلم بأن الله متصف بصفتي العزة والحكمة ، وبختم هذا المشهد
من مشاهد قصة إبراهيم عليه السلام ، وقد دل فيما دل على فضله ،
وعلو مكانته ، قال أبو السعود : وناهيك بالقصة دليلاً على فضل الخليل
ويمن الضراعة في الدعاء ، وحسن الأدب في السؤال ، حيث أراد الله
تعالى ما سأله في الحال على أيسر ما يكون من الوجوه ، وأرى « عزيزاً »
ما أراه بعدما أماته مائة عام (٥٠) .

الحلقة الثانية

محاجة أهل الكتاب نبي ملة ابراهيم عليه السلام

قال الله تعالى :

« يا أهل الكتاب لم تحتاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون • ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين • ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة آل عمران تحكى مجادلة أهل الكتاب في ملة ابراهيم عليه السلام ، حيث ادعى اليهود أنه يهودى ، وزعم النصارى أنه نصرانى ، وتردد على الطائفتين زعمهما ردا قويا ، وتبين حقيقة دينه وأنه كان حنيفا مسلما • وسورة آل عمران مفعمة بالحديث عن أهل الكتاب : تدعوهم الى الاسلام ، وتبين لهم العقيدة الصحيحة ، وتفنن مزاعمهم حول القرآن الكريم ، ودين الاسلام ، وتبطل مفترياتهم في حق مريم وعيسى عليهما السلام ، وتبين أن عيسى مثل آدم خلقه الله بقدرته ، وجعله بشرا سويا وليس له من صفات الألوهية ما يزعمون • وتأمّر الرسول ﷺ بأن يدعو من يجادله في أمر عيسى بعد اتضاحه الى المباهلة واستنزال لعنة الله على الكاذبين « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم

(١) آل عمران ٦٥ - ٦٨ •

وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (٢) • وفي سبيل ارساء عقيدة الوجدانية ، وبناء الوحدة الانسانية يؤمر ﷺ أن يدعوا أهل الكتاب الى الاتفاق على كلمة واحدة هي عبادة الله وحده لا شريك له ، وبذلك يتحد الجميع في ظل عقيدة التوحيد ، فان أعرضوا عن ذلك فليتمسك هو ومن معه بالاسلام دين الله القويم « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (٣) •

وبعد هذا يساق جدال أهل الكتاب في ابراهيم عليه السلام وذلك في الآيات التي سنعرض لتحايلها ، وهذا الجدل والرد عليه مرتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً ، اذ هو قضية من قضاياهم الهامة التي جادوا فيها الرسول ﷺ ، فقد قدم وفد من نصارى نجران الى المدينة والتقى باليهود واجتمعت الطائفتان عند رسول الله ﷺ ، وجدلوه في عدد من القضايا منها أمر عيسى عليه السلام ، وتنازعت الطائفتان عنده في شأن ابراهيم عليه السلام • أخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : اجتمعت نصارى نجران ، وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان ابراهيم الا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان ابراهيم الا نصرانياً ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات (*) •

ابطال محاجة أهل الكتاب :

تبدأ الآيات بالانكار على أهل الكتاب تنازعهم في ابراهيم ، وتبطل دعوى اليهود والنصارى في شأن ملته بدليل عقلي لا ينكر « يا أحن

(٢) آل عمران ٦١ •

(٣) آل عمران ٦٤ •

(*) جامع البيان ٣/٢١٦ •

الكتاب لم تتعاجون في ابراهيم وما أنزنت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون » •

والنداء لتذبيه أذهانهم وايضا أسماعهم لما يعرض عليهم كي يعقلوه وينتدبروه ، ونداؤهم بأهل الكتاب من اليهود والنصارى لتذكيرهم بالكتاب النازل على كل طائفة منهم مما يقتضى أن يعملوا بما فيه ، ويسيروا على منهجه ، وفي تذكيرهم بذلك مزيد توبيخ لهم على تنازعهم في أمر ابراهيم عليه السلام بالباطل كما يشير هذا الوصف الى أن الفريقين من واد واحد ، ويقفون معا في خندق ضد الاسلام وأهله •

و « ما » استفهامية ، حذف ألفها لدخول الجار عليها فرقا بينها وبين الموصولة ، والاستفهام للانكار والتعجب من تنازعهم في ملة ابراهيم ، ولا محل لهذا التجادل لأنه لا يمكن أن يكون يهوديا أو نصرانيا لتقدمه على نزول الديانتين • وتسمية تنازعهم تحاجا مع عدم قيامه على حجة مبنية على ادعائهم وحكاية أوهامهم • وفي الجملة ايجاز بحذف المضاف والتقدير : لم تتعاجون في ملة ابراهيم ، وفي حذف المضاف اشعار بأن الجدل في حقيقة ابراهيم وماهيته ، لما أن دين الانسان هو المحدد لهويته والمفصح عن حقيقته ، فاعتبر جدالهم في دين ابراهيم جدالا في ابراهيم نفسه •

وجملة « وما أنزات التوراة والانجيل الا من بعده » هي مثارة التعجب ومحط الانكار ، وبها بطلان دعواهم ، إذ لا يعقل ولا يصدق أن يكون ابراهيم يهوديا أو نصرانيا وهو متقدم على نزول التوراة والانجيل بزمن كبير ، حيث كان بينه وبين موسى ما يقرب من ألف سنة (٤) •

(٤) ينظر جامع البيان ٢/٢١٦ •

والنقص بالنفى والاستثناء لتأكيد الحكم الذى تضمنته الجملة ،
وتقرير ما يستفاد منها ، ولما أن الكلام على خلاف ما يريد المخاطب
ويروج له ، مما يترتب عليه أن يمارى فيه •

ولما كان الدليل على بطلان زعمهم من الوضوح بحيث لا يخفى
على ذى عقل ويخهم على اغفاله وعدم تعقله « أفلا تعقلون » وهمزة
الاستفهام التوبيخى داخلة على مقدر هو المعطوف عليه بالفاء ، أى
ألا تتفكرون فلا تعقلون يطلان قولكم ، أو أتقولون ذلك فلا تعقلون
بطلانه • وقيل ان الهمزة مقدمة عن تأخير وموقعها بعد حرف العطف
فقدمت عليه لأن الاستفهام له الصدارة ، أى فألا تعقلون • والأول هو
ما سار عليه الزمخشري ومن تبعه ، والثانى رأى الجمهور (٥) •

وحذف مفعول « تعقلون » مشعر بعموم نفى تعقلهم لموضوع
الكلام وغيره • ويمكن أن يكون الفعل المتعدى منزلاً منزلة اللازم
لوصفهم بعدم العقل على الإطلاق دون تقييده بمفعول معين • وفى كلام
التخريجين من المبالغة فى ذمهم وتجهيلهم ما فيه •

وعقب أبطال زعمهم وتوبيخهم على عدم العقل ببيان كمال حماقتهم
وجهالتهم ، حيث يجادلون فيما لا علم لهم به « ها أنتم هؤلاء حاججتم
فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم » • والهاء حرفة
تشبيه ، ويترد دخولها على ضمير الرفع المنفصل إذا كان مبتدأ مخبراً
عنه باسم الإشارة (٦) • وفائدتها إيقاظ أسماعهم ولفت أذهانهم الى
ما يلتقى اليهم لأهميته لهم • واسم الإشارة « هؤلاء » لتحقيرهم
وتتقيرهم ، وفى تكرار التشبيه بالهاء تأكيد له •

(٥) ينظر الكشاف ٤٣٦/١ • وأبو السعود ٤٨/٢ • ومعنى

• اللبيب ١٦/١

(٦) الجنى الدانى فى حروف المعانى ٣٤٧ •

وبيّنت الجملة الابتدائية بجملة « حاجتكم فيما لكم به علم »
 مما أشير إليه في التوراة والانجيل • والمقصود جدالهم في شأن موسى
 وعيسى عليهما السلام • وابهامه لما أن أنذى قوله في شأنهما ليس كانه
 صحيحا ، فأبهم للدلالة على الجملة لا على التفصيل •

والاستفهام في قوله « فلم تحاجون فيما ليس بكم به علم »
 للانكار والتعجب من حماقتهم وخوضهم فيما يجهلون • والمقصود
 شأن ابراهيم عليه السلام وابهامه لتعميم الانكار عليهم خوضهم
 في كل ما ليس لهم به علم من أمر ابراهيم أو غير ذلك • وتتكير «علم»
 في الموضوعين لبيان ضآلته وقصوره ، أي علم ما بصرف النظر عن مدى
 صحته • ومن ثم قيل : ليس المراد وصفهم بالعلم حقيقة ، وإنما المراد
 «ب أنكم تحاجون فيما تدعون علمه على ما يلوح لكم من خلال كتابكم
 في زعمكم فكيف تحاجون فيما لا علم لكم به ، ولا ذكر ولا رمز له في
 كتابكم البتة (٧) ١٤!

وفي الكلام طباق سلب بين « فيما لكم به علم » و « فيما ليس لكم
 به علم » وفيه إيضاح للمعنى من خلال الجمع بين المتضادين ، وبضدها
 تتميز الأشياء • وذلك بجانب ما فيه من تحسين للأسلوب وتجانس
 فيه •

وذيلت الآية بقوله « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » وهو يؤكد ما
 سبق ويقرره ، وفي اسم الجلالة اشعارا بعلو ما تضمنته الجملة، وتربية
 للمهابة والخشية • وتقدمه على الخبر الفعلي يفيد التخصيص ، وأند
 التخصيص بنفى العلم عنهم بعد اثباته لله تعالى دون سواه ، فجاء
 التخصيص مفهوما من التقديم ، ومصرحا به من البنى بعد الاثبات ،
 وبذلك لا تكون لهم شائبة في فهم المقصود •

وحذف مفعولى « يعلم » و « تعلمون » مفيد لتعميم فى العلم
المثبت لله تعالى ، والمنفى عنهم ، أى والله يعلم كل شىء وأنتم لا تعلمون
شيئا ، ويدخل فى ذلك شأن ابراهيم عليه السلام الذى هو محل الجدل .
ويجوز جعل الفعلين منزلة اللازم ، لوصف الله تعالى بالعلم
المطلق ، ووصفهم بالجهل المطبق . وعلى كل ففى التعبير القرآنى قوة فى
بيان علم الله تعالى وجهل أهل الكتاب . وفى الجملة طباق سلب يوضح
المعنى ويقويه ، وبحسن العبارة ويفخمها .

الذين ابراهيم عليه السلام :

ويعد ابطال زعمهم فى ابراهيم بالدليل العقلى الذى لا يقبل الشك ،
وتوبيخهم على الجدل فيما لا علم لهم به ، صرح بما يفهم مما سبق
من كونه غير يهودى ولا نصرانى ، وبين دينه الحقيقى « ما كان ابراهيم
يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

والآية واردة بأسلوب القصر الذى طريقه العطف بلكن ، فنص
على المنفى والمثبت معا لأن المقام فى حاجة الى ايضاح وتبيين . اذ نفى
عن ابراهيم كونه يهوديا أو نصرانيا ، وأثبت كونه حنيفا مسلما . ولما
كان المقام مقام معارضة فى الصفة التى عليها ابراهيم جاء القصر
قصر موصوف على صفة ، لما يصحبه من الاهتمام بالصفة والتركيز
عليها ، وتأكيد وجودها دون غيرها ، فابراهيم ليس له من الصفات الا
كونه حنيفا مسلما .

واعادة المنفى فى « ولا نصرانيا » للنص على نفى انصرانية عته
على سبيل الاستقلال لا التبعية . وفى نفى اليهود والنصرانية عن
ابراهيم واثبات الحنيفية والاسلام له دلالة على أن الديانتين المنفيتين
لا تمثلان الطريق المستقيم والنهج الحق الذى ارتضاه الله لعباده بعد
أن نالهما من التحريف والتزوير ما نالهما .

وجملة «وما كان من المشركين» ايغال ينفي عنه كونه من المشركين عبدة الأصنام من العرب الذين كانوا يدعون أنهم على ملته ، وفيه تعريض باليهود والنصارى حيث أشركوا بقولهم : عزيز ابن الله والمسيح ابن الله • ولم يكن التعبير : ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا ، لأن المقام مقام حديث مع اليهود والنصارى ، والآيات نزلت بسبب مجادلتهم للرسول ﷺ وتنازعهم أمامه في شأن ابراهيم ، فنفي كونه منهم أولا ، ولما تم المعنى المقصود نفى كونه من المشركين على سبيل الايغال كما قدمنا ، ولأن في هذا أيضا تنصيص على كونه غير مشرك عن طريق نفى هذه الصفة عنه على سبيل الاستقلال ؛ وهذا ما يناسب الرد القوي على مشركى قريش في دعواهم أنهم على ملة • ولم يكن التعبير ؛ وما كان مشركا لأن التعبير القرآني نفى أن يكون من جنس المشركين وفي هذا نفى للشرك عنه وزيادة ، إذ ينفي عنه أن يكون متخالفا بأخلاقهم الذميمة التي لا تدخل في أصل العقيدة •

أولى الناس بابراهيم :

وما دام ابراهيم حنيفا مسلما وليس يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا فمن أقرب الناس اليه وأخصهم به ؟! وتبين الآية الأخيرة ذلك « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا الذبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » •

والتأكيد بان وانلام لتحقيق الحكم وتقريره ، حيث يقال في مواجهة من يعارضون ذلك من اليهود والنصارى والمشركين • وقد بينت الآية أن أحق الناس به وأقربهم اليه ثلاثة :

أولهم : « الذين اتبعوه » أي اتبعوا ملته • وقيل اتبعوه لأنه هو المبلغ عن الله بها فمن تبعه فقد تبع ملته من باب أولى •
 وثانيهم : « هذا الذبي » وهو محمد ﷺ واسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز وتعظيمه وتفخيمه وعطفه على « الذين اتبعوه » من عطف

الخاص على العام ، لأن النبي ﷺ ممن اتبعه في أصول الاسلام
 الصئيف كما جاء في قوله تعالى « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم
 حنيفا » (٨) وفي عطفه عليهم مباشرة اشارة الى أن اليهود والنصارى
 السابقين على النبي ﷺ ليسوا من أتباعه ، وليسوا من أقرب الناس
 اليه .

وثالثهم : « الذين آمنوا » بمحمد ﷺ لأنهم متبعون له أسوة
 بنبيهم . ووصفهم بالايمان فيه تشريف لهم ، واشارة الى أنه
 لا يطلق الا عليهم ، وهم له مستحقون .

وترتيب هؤلاء الأقربين قائم على التسبق الزمنى ، حيث قدم
 الذين اتبعوه لأنهم كانوا في زمانه وعصره ، وأتبعوا بالنبي ﷺ
 لتأخر زمانه عنهم فهو التالي اهم من هذه الناحية . وجاء المؤمنون في
 المرتبة الثالثة لأن اتباعهم له كان عن طريق اتباعهم لنبيهم محمد ﷺ .
 ثم ختمت الآية بتذييل يجمع هذه الطوائف « والله ولي المؤمنين »
 يصرهم . ويجازيهم على ايمانهم بالحسنى . وجمعهم تحت وصف
 الايمان مشير الى أنه أعلى الأوصاف التى ينضوى تحتها الموحدون
 والسائررون في طريق الله المستقيم .

وبهذا الختام الطيب ينتهى حديث الآيات في هذا الموضوع .

الحلقة الثالثة

البراءة من عبادة الأصنام

قال الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون • الا الذى مطرنى فانه سيهدين • وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون • » (١)

بين يدي الآيات :

هذه آيات ثلاث من سورة الزخرف ، وهى تحكى براءة ابراهيم عليه السلام من معبودات أبيه وقومه ، وتبين تمسكه بعبادة الله تعالى الذى خلقه وهده ، ووصيته لذريته بالترام هذه العقيدة •

وتركز سورة الزخرف فى بدايتها على الحديث عن تكذيب السابقين لرسلمهم « وكم أرسلنا من نبي فى الأولين وما يأتيهم من بنى الا كانوا به يستهزئون » (٢) وتذكر اعتراف المشركين بالألوهية مع عبادتهم الأصنام ، وتذكر بعض معتقداتهم وأعمالهم كجعلهم الملائكة بنات الله ، واحتقارهم البنات ، وزعمهم أنه لولا مشيئة الله ما عبدوا ما يعبدون ، وهذا تخرض وافك مبين « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون » (٣) •

وتبين تمسك المشركين بتقليد آباؤهم وهذا ليس جديدا فى مسلك الكافرين فقد تمسك السابقون بتقليد الآباء وكذبوا رسلمهم فيما جاءوا به وكانت نهايتهم انتقام الله منهم ، وجعلهم عبرة للناظرين « فانظرونا منهم فانظر كيف كان عاقبة المذابين » (٤) •

(١) الزخرف ٢٦ - ٢٨ •

(٢) الزخرف ٦ ، ٧ •

(٣) الزخرف ٢٠ •

(٤) الزخرف ٢٥ •

(٣٠ - خصائص النظم)

وبعد الدعوة الى النظر في حال المكذبين تعرض السورة بعض قصص الأنبياء وعاقبة المكذبين من أقوامهم • وتبدأ بموجز لقصة ابراهيم عليه السلام مع قومه ، يحكى براءته مما يعبدون ، ووصيته بنيه وذريته بعبادة الله وحده لا شريك له • وذلك لأن المغام مقام حديث عن مشركى قريش ومعتقداتهم وهم يتصلون بابراهيم حلة نسبية ويفخرون بانتسابهم اليه ، فاذا علموا أنه تبرأ من عبادة الأصنام وأوصى عقبه بعبادة الله الواحد ، كان ذلك دافعا لهم على نبذ عبادة الأصنام ، واتباع الرسول ﷺ في دعوتهم الى توحيد الله تعالى ، والا كانوا عاقبين لأبيهم ابراهيم عليه السلام بمخالفتهم لعقيدته ووصيته •

مع الآيات :

تحتوى الآيات الثلاث على ثلاثة موضوعات : البراءة مما يعبده قومه ، وتمسكه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وغرس عقيدة التوحيد فى عقبه • ونأتى الى تفصيل ذلك :

الموضوع الأول : اعلان البراءة مما يعبده قومه ، وهذا بداية الحلقة ويتضمنه قوله تعالى : « واذا قال ابراهيم لأبيه اننى براء مما تعبدون » • و « اذ » منصوب على المفعولية بمضمرة مقدم خوطب به النبى ﷺ ، أى واذا قال لهم وقت قول ابراهيم لأبيه وقومه ... نيعتبروا بما فيه ، ويقبلوا عن عبادة الأصنام الى عبادة الله وحده لا شريك له • وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكره ، لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ، ولأن الوقت مشتمل عليها ، فاذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا كأنه مشاهد (٥) •

وحكاية قوله « دون وصف فعله بأن يقال : واذا تبرأ ابراهيم مما

يعبدون ونحو ذلك • ما في ذكر قوله من تأكيد لبراءته من معبوداتهم، وحكاية قوله لمشركي قريش كي يتعضوا بمقالة أبيهم الأعلى • وانفراد الأب بالذكر مع دخوله في القوم للتخصيص على أنه قال ذلك لأبيه على وجه الخصوص ، وعطف القوم على الأب من عطف العام على الخاص وفيه بيان لاعلانه البراءة على الجميع دون خوف أو مداراة • وتأكيدا قوله لتحقيق مضمونه أمام قومه والتأكيد لهم بأنه جاد في براءته من معبوداتهم ، ونون الوقاية مشعرة بشدة التأكيد على ذلك •

و « براء » في الأصل مصدر يستوى فيه الواحد والثثني والجمع والمذكر والمؤنث (٦) • وفي الاخبار به مبالغة في وصف نفسه بالبراءة وفي التعبير به « دون ما يؤدي معناه من الألفاظ دلالة على رفضه التام لعبادتهم ومعبوداتهم ، فهو أقوى الألفاظ دلالة على ذلك • وقوله « مما تعبدون » دون : من أصنامكم ونحوه لتحقير معبوداتهم بابهام اسمها الصريح ، واقتناؤا براءته كل ما يعبدون من أصنام وكواكب وغير ذلك • وللاشعار بعلة البراءة منها وهي عبادتهم لها ، وصيغة المضارع « تعبدون » تصور حالتهم الحاضرة في عبادتهم الأصنام واستمرارهم على ذلك •

والموضوع الثاني : تمسكه بعبادة الله وحده لا شريك له ويدل عليه قوله تعالى « الا الذي فطرني فإنه سيهدين » والاستثناء منقطع والمعنى : لكن الذي فطرني فإنه سيهدين • وقيل الاستثناء متصل ببناء على أن « ما » تعم أولى العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله ويشركون به الأوثان • ويمكن أن تكون « الا » صفة بمعنى غير و « ما » نكرة موصوفة ، أي اننى برىء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني (٧) • وفى التعبير بانذى فطرني دون لفظ الجلالة دعوة الى عبادته مع

(٦) الصحاح مادة : برأ •

(٧) ينظر الكشاف ٤٨٠/٣ والبحر المحيط ١١/٨ •

اقامة الدليل على أحقيته بالعبادة فهو الذى خلقه ولا يستحق العبادة .
 الا من خلق عبده • و « سيهدين » أى يثبتنى على الهداية ، فانسين
 للتأكيد لا للاستقبال • وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (٨) •
 ونؤكد الجملة لتحقيق مضمونها وتقريره •

والموضوع الثالث : غرس عقيدة التوحيد فى عقبه • ويدل على ذلك
 قوله تعالى « وجعلنا كلمة باقية فى عقبه نعلمهم يرجعون » • أى وجعل
 ابراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها ، وأشعر بها قوله « اننى براء مما
 تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين » جعلها باقية فى ذريته فلا يزال
 فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو الى توحيدهِ ، وهذا كما فى قوله تعالى (٩) .
 « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم ائدين فلا
 تموتن الا وانتم مسلمون » (١٠) •

والتعبير عنها بالكلمة لقله ألفاظها وان كانت غزيرة المعانى • وهذا
 مشعر فى حد ذاته بالوحدانية ، فهى كلمة واحدة لا كلمات متعددة •
 واسم الفاعل « باقية » يشير الى الثبوت والاستمرار بصيغته ، والى
 الدوام والبقاء بمادته • واثار العقب على الأبناء أو الذرية لما فيه
 من اشعار بالعموم والشمول لكل من أعقبه وتنازل منه •

وعلى النجمل بقوله « لعلمهم يرجعون » أى جعلها باقية فى عقبه رجاء
 أن يرجع اليها من أشرك منهم بدعاء الموحّد • أو بسبب بقائها فيهم ،
 وعلى هذا فالكلام على تقدير مضاف أى لعلى مشركيهم ، أو هو من
 اسناد ما للبعض الى الكل (١١) •

(٨) أبو السعود ٤٥/٨ •

(٩) البقرة ١٣٢ •

(١٠) الكشاف ٤٨٤/٣ •

(١١) أبو السعود ٤٥/٨ ، والألوسى ٧٧/٢٥/١٣ •

الحلقة الرابعة التأسي بإبراهيم

قال الله تعالى :

« قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير • ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم • لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » (١) •

بين يدي الآيات :

هذه الآيات من سورة الممتحنة وهي تعرض جانبا من قصة إبراهيم عليه السلام يحكى براءته من المشركين ومعاداته للكافرين هو والذين آمنوا معه ، وهذا الجانب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع سورة الممتحنة ، إذ تدور حول النهي عن موالات أعداء الله وأعداء المؤمنين ، ونحت على القبرؤ منهم وعدم هودتهم •

وكان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أنه كان رجلا من المهاجرين ، ومن أهل بدر ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد معه ، وأمر بانتهيز لذلك قال : « اللهم عم عليهم خبرنا » وجرى الأمر في سرية فامة • فكتب حاطب كتابا وبعثه مع امرأة من قريش الى أهل مكة ،

يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزورهم ليتخذ بذلك عندهم يدا
فأطلع الله تعالى رسوله على ذلك فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها،
وأرسل إلى حاطب يناقشه ويؤمره على ما فعل ، واعتذر حاطب وتحمس
عمر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ،
فقال رسول الله ﷺ : أنه قد شهده بدرا وما يدريك نعل الله أطلع على
أهل بدر فقال « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) •

وعلى أثر ذلك نزلت الآيات الأولى من السورة تنهى المسلمين عن
موالاة أعداء الله تعالى وأعدائهم من الكافرين الذين أخرجوهم من
ديارهم • وتبين عدم نفع الأرحام والأولاد يوم القيامة فإنه يفصل بين
الناس ولا تغنى نفس عن نفس شيئا •

ويعقب هذا عرض براءة ابراهيم عليه السلام من الكافرين من
قومه ، وترك مودتهم وقطع صلته بهم ، ويجعل في ذلك أسوة للمسلمين
يأتسون بها ويسيروا على منوالها في علاقتهم بالكافرين • وبذلك كان
التناسب تاما بين هذا الجانب من قصة ابراهيم وما سبقه من آيات
اذ هو درس عملى فيه تطبيق لما أمروا به ، وقد طبقه خليل الله
ابراهيم عليه السلام الذى هو أبو المسلمين •

الأسوة وموضعها :

تبدأ الآيات بحكم يقرر وجود قدوة حسنة للمؤمنين في ابراهيم
عليه السلام والذين آمنوا معه « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم
والذين معه » •

والتأكيد يقدر لاثبات الحكم قويا في أذهان المخاطبين ، في مقام
يحتاج الى التأكيد ، لما صاحب نزول الآيات من ملابس تكشف عن
ميل بعضهم لمودة المشركين ، قبل نزول حكم الله تعالى بالنهاى عن ذلك ،

والتعبير بالمصاحي « كانت » يفيد ثبوت الأسوة ووجودها • وتقديم الجار والمجرور « نكم » للاهتمام والمسارة ببيان كون الأسوة لهم • والأسوة . القدوة • ويستعملان بضم الفاء وكسرها • وهى : اسم لما يؤتى ويقتدى به ، •

قال الراغب : الأسوة هى الحالة التى يكون الانسان عليها فى اتباع غيره ان حسنا وان قبيحا ، وان سارا وان خسارا ، ولهذا وصفت بالحسنة (٣) • تقييدا لها بهذا الوصف الجميل •

المقصود بالذين معه • الذين آمنوا بدعوته وصحبوه ، والتعبير بالمعية هفيد لصحبتهم ومآزمتهم له ، كما جاء فى وصف أصحاب رسولنا ﷺ « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٤) •

وفى العبارة تجريد عن طريق « فى » الداخلة على المنتزح منه ، حيث انتزح من ابراهيم والذين معه أسوة حسنة وهم أنفسهم الأسوة ، وذلك للمبالغة فى كمال هذه الصفة فيهم •

ويعد تقرير الحكم بوجود الأسوة ، بين موضع هذه الأسوة ومحلها المقصود فى هذا المقام ، اذ ان ابراهيم عليه انسلام فيه اسوة للمؤمنين فى نواح متعددة ، لكن المقصود هنا الأسوة فى فعل مناسب للمقام ، هو تبرؤ ابراهيم ومن معه ، من الكافرين ومعبوداتهم « اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » •

وتأكيد القول بان لتحقيق مضمونه وتثبيته وبيان أنه قول لا رجعة فيه • و « براء » جمع برىء ، كظريف وظرفاء • والتعبير بصيغة

(٣) المفردات ١٨ •

(٤) الفتح ٢٩ •

التكسير دون جمع المذكر السالم يريثون فيه تكثير لمتبرئين وتعظيم للبراءة • وإبهام ما يعبدون دون التصريح باسمه لتحقيره وإهمال ذكره ، ويشمل كل ما يعبدونه من دون الله تعالى • والفعل المضارع «تعبدون» يصور حالهم واستمرارهم على هذه العبادة الباطلة • والنص على التبرؤ مما يعبدون لأنه أساس البراءة منهم ولولا عبادته ما كانت البراءة • وتقديم البراءة منهم لأنها هي المقصودة ، وفيها موضح الأمانة • وقوله « من دون الله » لتذكيرهم بالاله الحق الذي يجب صرف العبادة اليه دون سواه • وجملة « ومما تعبدون من دون الله » شعرة بعبدة التبرؤ منهم ومن آلهتهم ، فلم يتبرؤا منهم لسبب دنيوى انما تبرؤا منهم لعبادتهم غير الله تعالى •

والفصل بين جملة « كفرنا بكم » وما قبلها اكمال الاتصال ، لأن البراءة منهم تفيد الكفر بهم • والمعنى : جحدناكم ونم نعتد بكم ولا بالهتكم وما أنتم ولا آلهتكم عندنا بشيء • ، وفي لفظ الكفر اشارة الى شدة البراءة وقرة المقاطعة • وقيل ان الكلام على تقدير مضاف أى كفرنا بدينكم أو بمعبودكم (٥) •

و « بدا » أى ظهر بوضوح • يقال : بدا الشيء بدءا وبداء أى ظهر ظهورا • بينا (٦) • وهو معطوف على « كفرنا » مكمل لتفصيل البراءة • والنص على ظهور العداوة والبغضاء بينهم لاختصاصه بأمر ليس فى البراءة • ولم يكن التعبير وعاديناكم وأبغضناكم لافادة أن العداوة والبغضاء من الجانبين ، والاشارة الى أن ابراهيم ومن معه ليسوا أنسب فى ظهور هذه العداوة ولا هى من أخلاقهم وصفاتهم بل فرضتها ملابسات القوم •

(٥) حاشية الشهاب ١٨٧/٨ •

(٦) المفردات ٤٠ •

و «أبدا» يفيد دوام القطعية واستمرار العداوة بينهم مدة انزمان بدون حدود . ومن ثم قيد ذلك بقوله «حتى تؤمنوا بالله وحده» أي وعند ذلك تنقلب العداوة وولاية ، والبغضاء محبة (٧) . وفي «وحده» تشديد وتأكيد على الوحدانية ، فلا يقبل منهم لإنهاء العداوة إلا الإيمان بالله وحده لا شريك له . ويمكن أن يفهم من هذا أنهم كانوا يعرفون الله ولكن يشركون معه آلهة أخرى .

ثم استثنى من الأسوة الحسنة ما ليس ينبغي أن يؤتسى به «الاقول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك» . وهو استثناء من قوله تعالى «أسوة حسنة» فان استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر وان كان جائز عقلا وشرعا لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم كما نطقت به الآية في سورة التوبة ، إلا أنه ليس مما ينبغي أن يؤتسى به أصلا . للنص على منعه ، وتوجيه الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى الاستغفار نفسه لأنها كانت الحاملة له على الاستغفار (٨) .

وتأكيد العدة بالاستغفار بأكثر من مؤكّد لتقريرها في ذهن أبيه لما أنها جاءت بعد مناقشة حامية بينهما بينها سورة مريم . ووقوله «وما أملك لك من الله من شيء» من تمام انقول استثنى ، ومحلّه النصب على أنه حال من فاعل «لاستغفرن لك» أي استغفر لك وليس في طاقتي إلا الاستغفار ، فمورد الاستثناء نفس الاستغفار لاقيده ، الذي هو في نفسه من خصال الخير لكونه ، اظهارة للعجز وتفويضا للأمر إلى الله تعالى (٩) .

وفي الجملة خصائص تدل على عموم النفي رشموله ، حيث عبر بجسء وهو يفيد العموم بمادته وهيئته ، وسبق بمن ، وأوقع في سياق

(٧) البيضاوي ٦٩٢ .

(٨) أبو السعود ٢٣٧/٨ .

(٩) أبو السعود ٢٣٧/٨ .

النفى ، فصار المعنى وما أملك لك من الله شيئاً أثبتة •
 وبعد استثناء ما لا يدخل في الأسوة تتم حكاية ما فيه أسوة من
 قول إبراهيم ومن معه ، « ربنا عليك توكلنا واليك أذينا واليك المصير •
 ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا أنك أنت العزيز الحكيم » •
 والفصل بين هذا وما قبله بالمستثنى من الأسوة لاختلاف موضوعه
 عما سبقه فهو دعاء وما قبله براءة من المشركين وفي هذا عناية واهتمام
 بإبراز المستثنى من الأسوة ، وتأكيد على الالتزام باستثنائه منها ،
 عن طريق توسيطه بين طرفي الكلام •

ويجوز أن يكون هذا الدعاء تعليماً من الله تعالى للمؤمنين غير داخل
 فيما حكى عن إبراهيم والذين معه • قال الزمخشري : فان قلت بم
 اتصل قواه « ربنا عليك توكلنا » قلت : بما قبل الاستثناء وهو من جملة
 الأسوة الحسنة • ويجوز أن يكون المعنى : قوبلوا ربنا ، أمراً من الله
 تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ، وتعليماً منه لهم ، تنميماً لنا رضاهم به
 من قطع العلائق بينهم وبين الكفار والانتساء بإبراهيم وقومه في البراءة
 منهم ، وتبئها على الإنابة إلى الله ، والاستعادة به من فتنة أهل الكفر
 والاستنفار مما فرط منهم (١٠) • وبذلك جعل أنزغشري وجه اتصاله
 بما قبله أنه من جملة الأسوة ، أو هو أمر وتعليماً للمؤمنين ، وقد
 ضعف أبو السعود الرأي الثاني فقال : وأما جعل الآيتين تلغيناً للمؤمنين
 من جهته تعالى وأمرهم لهم ••• فلا يساعده النظم الذريم (١١) •

وذكر الشهاب أنه متصل بما قبله لا على أنه من جملة الأسوة
 ومقول القول بل على أنه كلام مستأنف متصل بحسب المعنى بما مر من
 أول السورة إلى الاستثناء بياناً لحالهم في اظهار عداوة أعداء الله ،
 والالتجاء إلى الله في كفاية شرهم (١٢) •

(١٠) الكشاف ٩١/٤ • (١١) أبو السعود ٢٣٨/٨ •

(١٢) حاشية الشهاب ١٨٧/٨ •

وهذا الثناء يتكون من ست جهل صيغته، الثلاث الأولى منها صياغة واحدة ، حيث قدم فيها الجار والمجرور لافادة التخصيص ، وبذلك قصر التوكل والاناة والمصير على الله تعالى دون سواه . إلا أنه عبر في الأولى والثانية بالفعل المسند اليهم « توكلنا » و « أنبأنا » لكونها أفعالاً صادرة عنهم يصورون بها حالهم في التوكل على الله والاناة اليه ، واستمرارهم على ذلك . وعبر في الثالثة بالاسم « المصير » لكونه حكماً ثابتاً لله تعالى يشملهم ويشمل غيرهم ، وليس فعلاً فعله والقرهوا به .

وجاء الدعاء في الجملة الرابعة عن طريق النهى بآلا يجعلهم الله فتننة للكافرين . وفي الخامسة عن طريق الأمر بأن يغفر الله لهم وهو خاتمة الدعوات وغاية ما يريه المسلم من ربه ، وفي ذلك تلويح للأسلوب وتفنن في التعبير وهو نهج بديع في القرآن الكريم .

أما الجملة السادسة فهي ثناء على الله تعالى يستوجب قبول اندعاء « انك أنت العزيز الحكيم » وهذا تذييل مشعر بعلة ما سبق ، فقد دعوه والتجأوا اليه لأنه عزيز لا يذل من لجأ اليه ولا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم لا يفعل الا ما فيه حكمة بالغة . وتأكيد الجملة لتدقيق مضمونها ، وتعريف المسند باللام يفيد القصر ، فهو سبحانه وتعالى العزيز الحكيم لا غيره . وقد تأكد هذا بضمير الفصل .

والنداء للتوسل والتضرع الى المنادى وهو الله عز وجل ، ونفـظ الرب المضاف الى ضميرهم مشعر بالاستجابة لما فيه من دلالة على تربيته لهم وعنايته بأمرهم ، مع ما في الاضافة من تشريف لهم وتكريم . وحذف حرف النداء مشعر بقربهم من الله تعالى . وتكرير النداء للمبالغة في التضرع والتذلل لله تعالى استجاباً للاجابة .

وقد رثبـ الجمل ترتيبا دقيقا حيث أبرزوا توكأهم على الله تعالى
وانابتهم اليه ، لأن المصير والمرجع اليه ، ثم طلبوا من الله الدوام على
ذلك بألا يفتتهم بالكافرين ، وختموا دعاءهم بطلب المغفرة من الله تعالى
وهذا خاتمة المطاف • ورشح الدعاء بالفناء الذي هو من دواعي قبول
الدعاء •

وتختتم الحلقة بما بدئت به فتكرر وجود الأسوة الحسنة في
ابراهيم ومن معه تأكيدا وتقريرا لما سبق « لقد كان لكم فيهم أسوة
حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى
الحميد » •

وتعلو فبرة التأكيد هنا من خلال التكرير واللام الدالة على القسم
إضافة الى قد التحقيقة التي تقدم نظيرها في الآية الأولى • وفي كل ذلك
يلوغ بالتأكيد عايتة لتحقيق مضمون الجملة وعدم ترك مسرب لشك
أو تساؤل •

وقوله « ان كان يرجو الله واليوم الآخر » بدل من « لكم » فيه
حث وإثارة والنهاب على اتباع هذه الأسوة ، من خلال بيان أن من
يرجو الله واليوم الآخر لا يترك هذه الأسوة ولا يتخلى عنها ، فان تركها
مشعر بالتجرد من هذا الوصف العظيم • ولذلك عقب بقوله « ومن
يتول فان الله هو الغنى الحميد » وهو يؤكد مفهوم ما سبق ، فان من
أعرض عن هذه الأسوة فان الله غنى عنه ، وسـيجازيه عن اعراضه
وتولييه •

وفي الجملة من خصائص التأكيد والتخصيص : ان ، وضمير
الفصل ، وتعريف المسند باللام وفي ذلك من تقوية الحكم وتحقيقه
ما فيه ، فأنه هو الغنى الحميد لا غيره • وتتلام الفاصلة مع ما سبقها
أشد تلاؤم اذ لما كان اعراض المتولي مشعرا بغناه ثبتت الفاصلة أن
الله هو الغنى الحميد لا غيره •

الحلقة الخامسة استغفار ابراهيم لأبيه

قال الله تعالى :

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة ووعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه ذميم » (١) •

بين يدى الآية :

هذه الآية الكريمة من سورة التوبة وموضوعها يتلاءم مع جو السورة العام ، فهي تبين السبب الذى دفع ابراهيم عليه السلام الى الاستغفار لأبيه ، وتبرأه منه بعد أن تبين حقيقة أمره . وسورة التوبة تركز على البراءة من المشركين والانقطاع عنهم ، وتكثف أمر المنافقين وطريقتهم المتروية فى التعامل مع رسول الله ﷺ والمسلمين •

وهذه الآية تقرر وتؤكد ما جاء فى الآية السابقة عليها ، والخاصة باستغفار النبى ﷺ لعمه أبى طالب « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢) • أى ما صح ولا يصح للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين (٣) ، فهي تستبعد حدوث مثل ذلك منهم • وتحت على الانقطاع عن المشركين والبراءة منهم ، وقد جاءت آية ابراهيم عليه السلام بعدها لتقرر هذا الحكم وتبين أنه حكم ماض ومشروع فى دين ابراهيم عليه السلام (٤) الذى هو أبو المسلمين ، وله مكانة خاصة بينهم • وبذلك نتأكد الدعرة الى البراءة من المشركين •

(١) التوبة ١١٤ • (٢) التوبة ١١٣ •

(٣) الفتحاح الالهية ٣٢٢/٢ •

(٤) السابق •

مع الآية :

تبدأ الآية بداية قوية مؤكدة عن طريق القصر بطريق النفي والاستثناء « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها نيا » وهو قصر موصوف على صفة فيه اهتمام بالصفة وتأيد عليها وابرار لها ، أى لم يكن استغفار ابراهيم لأبيه ناشئا عن سبب من الأسباب ، ولأجل شىء من الأثماء الا لأجل موعدة وعدها ابراهيم لأبيه قبل أن يتبين أمره •

وقد ذكرت الموعدة في قوله تعالى « قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بى حفيا » (٥) ، كما ذكر الاستغفار في قوله تعالى « واغفر لأبى انه كان من الضالين » (٦) •

والتعبير بـ « تبين » يفيد انجلاء الأمر له بوضوح لا لبس فيه ، واللاتيان بمفعوله جملة اسمية مؤكدة بأن دون أن يقال : عداوته لله ، تأكيد احرازه واستمراره على هذه العداوة ، مع ما في لفظ « عدو » من قوة في اظهار العداوة الشديدة •

و « تبرأ منه » جواب « لما » واللاتيان بالعبارة في صورة شرط وجواب عن طريق « لما » التعليلية التى هى حرف لوجود أو وجوب لوجوب كما يقال (٧) مشعر بترتب البراءة منه على تبين العداوة ، ووجودها عقبيها من غير مهلة • ويفهم من العبارة أن استغفار ابراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين أمره • وفى لفظ « تبرأ » قوة في بيان ترك الاستغفار له ، وإشارة إلى أنه قاطعه وتجنبه كلى التجنب • وشدته ملازمة لوصف الأب بعداوة الله لأنها أيضا من أقوى العبارات في بابها •

(٥) مريم ٤٧ •

(٦) الشعراء ٨٦ •

(٧) ينظر الجنى الدانى ٥٩٤ •

ثم بين ما حمّله على وعد أبيه بالاستغفار له ، وتنفيذ هذا النوع مع شدة أبيه وغلظته عليه بقوله تعالى « ان ابراهيم لأواه حلِيم » • وهو استئناف يبين ما ذكرناه ، ويوضح أن ذلك في الأصل لصفات جنيلة متمكنة في ابراهيم عليه السلام من رحمة ورقة قلبه وحلمه ، وتأكيده الجملة بان واللام لتحقيق مضمونها ووصلها بما قبلها وصلا خفيا ، على نمط تأكيد العطف المتبع في القرآن الكريم والأسلوب العربي الاصيل ، والمقام في حاجة الى التأكيد القوي ، لبيان أن هذا هو الذي دفع ابراهيم الى هذا الفعل ، وليس شيئا آخر •

والأواه : كثير التأوه ، وهو كناية عن شرب الرحمة ورقة القلب •
 وفعله : أوه ، يقال : أوه الرجل تأويها وتأوه تأوها اذا قال : أوه (٨) •
 وأصل التأوه : أن يسمع للصدر صوت بتنفس الصعداء عند شدة خوف أو حزن ونحو ذلك ، والسبب في ذلك أنه عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشد حرها ، فالانسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخفف بعض ما به من الحزن والشدة (٩) •

والحلِيم . من يصبر على الأذى ، ويصفح عن أساء اليه ، ويجازيه بالحسنى • وفي ذكر هاتين الصفتين ثناء على ابراهيم عليه السلام ، وبيان لسر رحمته المفرطة ولطفه الواسع •

وقد بينت الآية وجه الحقيقة في مسألة استغفار ابراهيم لأبيه ، كى لا يفسر فعله بوجه من الوجوه التي لا يصح تأتيتها من خليل الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام •

(٨) الصحاح مادة : أوه •

(٩) الفتوحات الالهية ٣٢٣/٢ •

الحلقة السادسة

منزلة ابراهيم عليه السلام ونريته

قال الله تعالى :

« واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولى الأيدي والأبصار .
انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وائهم عندنا لمن المصطفين .
الأخيار » (١) •

بين يدى الآيات :

هذه الآيات من سورة ص ، وهى سورة مكية تبدأ ببيان اختلاف الكافرين حول الرسول ﷺ ووصفهم له بأنه ساحر ددات . وعجبهم من دعوته الى التوحيد ، وجعله الآلهة لها واحدا ، وتسمى الرسول ﷺ ببيان تكذيب الأمم السابقة لرسولهم ، وتعرضهم لعقاب الله تعالى جزاء تكذيبهم •

ثم توصى الرسول ﷺ بالصبر ، وتأمره بذكر قصص عدد من الأنبياء من بنى اسرائيل أولهم داود عليه السلام «اصبر على ما يفوتون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب » (٢) وبعد ذكر طرف من قصة داود تنتقل الى ذكر طرف من قصة ابنه سليمان عليه السلام ، ثم تذكر قصة أيوب عليه السلام ، وبعد هذا تأتى الآيات التى ستعرض لها بالتحليل وهى فى التذكير بنبي الله ابراهيم وابنه اسحاق وحفيده يعقوب عليهم السلام •

والسورة كما ذكرنا مقدورة على ذكر قصص عدد من أنبياء بنى اسرائيل ، وبالبدء بقصة داود وسليمان لأن قصتهما أطول المقصص فى

(١) ص ٤٥ - ٤٧ •

(٢) ص ١٩ •

السورة ، وفصل فيها من العظات والعبر ما لم يفصل في غيرها • وتلا ذلك قصة أيرب عليه السلام لأنها في المرتبة الثانية من حيث الطول وذكر التفاصيل ، وأتبع بقصة إبراهيم واسحاق ويعقوب ، لأنها مقصورة على بيان منزلتهم عند الله تعالى ، وجاءت في ثلاث آيات ، وختم القصص بالإشارة إلى اسماعيل وإيسع وذا الكفل في آية واحدة •

مع الآيات :

تبدأ الآيات بأمر الرسول ﷺ بذكر عباد الله إبراهيم واسحاق ويعقوب « واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب » وهو نهج متبع في بداية جميع قصص السورة ، وذكر الثلاثة دون ذكر اسماعيل عليه السلام جريا على ما عهد في معظم حقايق القصة ، ولأن اسماعيل عليه السلام مذكور في الآية التي تلى خبرهم •

ووصفوا بوصف عظيم « أولى الأيدي والأبصار » أي أولى القوة في الطاعة ، والبصيرة في الدين ، فتكون « الأيدي » مجازا مرسلًا عن القوة ، من ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر: مجاز عما يتفرع عليها من العلوم (٣) •

وعلى وصفهم بهذه الصفة العظيمة بقوله تعالى « انا أخلصناهم بخالصة ذكرى ادنار » أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خالصة خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها هي تذكرهم دائما الدار الآخرة • وتأتي الجملة لتحقيق مضمونها ، واسناد اخلاصهم الى نون العظمة فيه تفخيم وتعظيم لشأن هذا الاخلاص ومن وقع عليهم • والباء في خالصة للسببية ، وتكثير « خالصة » لتفخيم والتعظيم ، وتعريف الدار للبعد ، أي الدار الآخرة ، وفيه اشعار بأنها الدار في الحقيقة ، وانما الدنيا دار على سبيل المجاز حيث لا بقاء فيها (٤) •

(٣) الألوسي ٢١٠/٢٣/١٢ • (٤) ينظر السابق •

ثم أثنى الله تعالى عليهم مبينا منزلتهم العظيمة ، واصطفاه لهم بقوله تعالى « وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » وتأكيد الجملة بان واللام لتحقيق مضمونها بقوة ، اذ الخبر يتضمن أمرا خاصا بهم ومن ثم فهو في حاجة الى مزيد من التقوية •

والظرف « عندنا » مشعر بأن هذه المنزلة لهم عند الله تعالى وحسب المؤمن أن ينال ذلك • واللام في « المصطفين الأخيار » للجنس، مهم من هذا الجنس المعروف بهذين الوصفين العظيمين •

الحلقة السابعة

ان ابراهيم كان امة

قال الله تعالى :

« ان ابراهيم كان امة قاننا لله حنيفا ونم يك من المشركين • نساكرا
لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم • وآتيناه في الدنيا حسنة
وانه في الآخرة لمن الصالحين • ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم
حنيفا وما كان من المشركين • » (١) •

بين يدي الآيات :

تأتى هذه الآيات في أواخر سورة الفحل • وهذه السورة تهتم
بإثبات وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث وذلك في مواجهة افتراءات
المشركين وأكاذيبهم من إثبات الشركاء : واتكار البعث والطمع في نبوة
الرسول ﷺ ، وتعرض عددا كبيرا من دلائل قدرة الله تعالى في الكون ،
وفضائله على عباده ، وانعامه عليهم بما لا يحصى من النعم •

وفي خواتيم السورة تركيز على الأمر بالأكل من رزق الله الحلال
انطيب من شكره جل شأنه على نعمه الغزيرة • وبيان ما حرم الله على
المسلمين من الأظعمة ، وتحذير من تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما
حرمه على سبيل الافتراء والكذب •

وفي خلال ذلك تشير الى ما حرم الله على اليهود مما قصه الله في
آيات أخرى « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما
ذلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٢) •

ولما أكدت السورة ابطال مذاهب المشركين من إثبات الشركاء

(١) التحل ١٢٠ - ١٢٣ •

(٢) التحل ١٦٨ •

لله تعالى ، والطعن في نبوة رسول الله ﷺ ، وتحليل ما حرم وتحريم ما أحل ، وعقبت بذكر اليهود وما حرم الله تعالى عليهم جزاء ظلمهم .
أوضحت مكانة ابراهيم عليه السلام وبينت منهاجه وما كان عليه من توحيد الله تعالى ورفض الأصنام ، ليكون ذلك حاملا لقريش على الاقتداء به ، حيث كانوا يجلوته ويفتخرون به لكونه جددهم الاعلى ، ويقرون بحسن طريقته ووجوب الاقتداء به (٣) . وبهذا أيضا يظهر الفرق بينه وبين المشركين الذين ينتسبون اليه ولا يقتدون به ؛ وبينه وبين اليهود الذين يدعون أنه كان على ملتهم .

مكانة ابراهيم عليه السلام :

تسهل الآيات الحديث عن ابراهيم ببيان مكانته وقدره بين الناس « ان ابراهيم كان أمة » . وتأكيد الخبر بتحقيق مضمونه ، نظرا لكونه أمرا لم يعتده الناس في رجل منهم ، فهو وحده أمة كاملة في صفات الخير ؛ وامام يقتدى به في ذلك .

و « أمة » فيه وجهان : أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم تكمله في جميع صفات الخير كقوله :

وليس على الله بمستتكر أن يجمع العالم في واحد

والثاني : أن يكون أمة بمعنى مأموم ، أى يؤمه الناس لياخذوا منه الخير ، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة والخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله تعالى (٤) « انى جاعلك للناس اماما » (٥) .

(٣) البحر المحیط ٥/٤٧ .

(٤) البقرة ١٢٤ .

(٥) الكشاف ٢/٤٢٢ .

واختار ابن المنير الثاني وقال انه يقويه بقوله تعالى بعد ذلك « ثم أوحينا إليك أن انبج ملة إبراهيم حنيفا » أى كان أمة تؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أتت يا محمد على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سيرته (٦) .
وهو على كلا الوجهين فيه مبالغة في وصفه بالامامة للناس ، لأن من يؤتم به لا بد أن يكون جامعا لصفات الامامة نائبا عن مأموميه ، وقد جمع ابراهيم عليه السلام من صفات الخير والكمال ما جعله بمثابة أمة من الناس ، وهىءه لأن يكون اماما لهم . وتتكبر « أمة » للتعظيم والتفخيم ، أى أمة عظيمة كاملة .

ولما أخبر عنه بهذه الصفة الجامعة نعتت هذه النصفة باعتبارها علما عنيه بأربع صفات : أولها « قانتا لله » أى مطبعا له قانما بأوامره . قال ابن فارس : القاف والنون واناء أصل صحيح يدل على طاعة وخير في دين لا يعدو هذا الباب ، والأصل فيه انطاعة ، ثم سمي كل استقامة في طريق الدين قنوتا (٧) . وإيثار « قانتا » على غيره لما فيه من اشعار بالخشوع والخضوع وطول الوقوف بين يدي ربه . وصيغة اسم الفاعل تفيد ثبوته على هذه الصفة واستمراره فيها . وثانيها : « حنيفا » أى مائلا عن الباطل الى الحق غير حائد عنه . وأصله : حنف وهو يدل على الميل . والحنيف المائل الى الدين المستقيم (٨) . والتعبير به دون غيره لما فيه من خصوصية دلالة على الميل الى الطريق المستقيم . وترك العطف بين الحنفين لما أنهما لموصوف واحد ، ووردتان على نمط تعداد الصفات دون مراعاة ما بينها من تعابير .

(٦) الانصاف (حاشية الكشاف) ٤٣٣/٢ .

(٧) مقاييس اللغة مادة : قنت .

(٨) السابق مادة : حنف .

وثالثها : « ولم يك من المشركين » أى ولم يك من المشركين فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا (٩) • وقد اختلفت صياغة هذه الصفة عما قبلها وما بعدها فجاء بها جملة معطوفة على جملة الحبر، لأنها جملتان متقابلتان عند التأمل ، فالأولى تثبت امامته ، واطاعته لله تعالى : والثانية تنفى أن يكون من المشركين ، وبذلك أكد إيمانه مرة بالاثبات ومرة عن طريق النفي • وقيل « ولم يك من المشركين » دون ولم يك مشركا لنفى أن يكون من جنس المشركين ، ونفى كونه من جنسهم فيه نفى لا شراكه بالطريق البرهانى مع زيادة معنى هو نفى أن يكون متصفا بصفة من صفاتهم الذميمة التى لا تدخل فى مجال العقيدة •

وفى التصريح بأنه لم يكن من المشركين تعريض بمشركى قريش واليهود الذين أشركوا بقولهم « عزيز ابن الله » حيث كانوا ينتهسحون به ويدعون أنهم مقتدون به ، فأثبتت الآية أن هؤلاء مشركون وإبراهيم لم يكن من المشركين •

ورابعها : « شاكرًا لأنعمه » والتعبير باسم الفاعل « شاكرًا » مفيد للثبوت والاستمرار فهو ثابت على الشكر مستمر فيه • وصيغة جمع القلة للتبني على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة (١٠) • وفى الجملة تعريض بمشركى قريش حيث كان دينهم كفران النعم كما أشير الى ذلك فى المثل المضروب فى قوله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنهم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١١) • وقد رتب الخبر وما تلاه من نعوت ترتيبا بديعا ، فقدم الوصف العام الجامع وهو كونه أمة وجعل خبرا عنه ، ثم أتبع بأهم ما ينشئ تحتها من صفات اكتسب بها هذا الوصف الجامع ، وهى طاعة الله تعالى :

(٩) أبو السعود ١٤٩/٥ •

(١٠) البيضاوى ٣٨٠ •

وعدم الانحراف ، والتنزّه عن الشرك ، ومداومة الشكر ، وبدىء فيينا بالأصل ثم بما يترتب عليه ، فقدمت طاعته لله تعالى لأنها أساس يترتب عليه عدم انحرافه عن الحق ، وهذا يترتب عليه عدم كونه عن المشركين لأن ذلك من الانحراف عن الحق ، وختمت الدعوات ببيان مداومة شكره لله تعالى ، وهو لا يتأتى الا من طائع لله غير زائغ عن الطريق المستقيم .

نعم الله على ابراهيم :

«بعد بيان مكانة ابراهيم وقدره وأنه كان أمه قانتا حنيفا شاكرا . أتبع ذلك ببيان ما اختصه الله به من نعم جليلة ، وذكر منها أربع نعم : أولها : أن الله تعالى قد «اجتباها» أى اختصه واصطفاه للنبوّة ، وأصل الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء ، ويطلق على تخصيص الله تعالى العبد بفيض الهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى منه ، ويكون للأنبياء عليهم السلام ومن يقاربهم (١٢) .»

وثانيها : « وهداه الى صراط مستقيم » وهو ملة الاسلام ، يسير عليها ، ويدعو الناس اليها ، وينافح عنها ، والصراط فى الأصل : الطريق ، وأصله بالسّين من سرت الشيء اذا ابتلعه سمي بذلك لأنه يتبلع سالكة ويعنيه (١٣) . وأطلق فى الآية على طريق الحق وهو ملة الاسلام على سبيل الاستعارة . وفيها تصوير للدين الحق بالطريق المستقيم المستورى الذى لا يضل سالكة ، ويصل السائر فيه الى الهدف المنشود بيسر وفى أمن واطمئنان . وتقديم الاجتباء على الهداية لما أن الاجتباء سبب الهداية ، فقدم السبب على السبب .»

(١١) النحل ١١٢ .

(١٢) الألوسى ٢٥٠٧/١٤/٧ .

(١٣) مقاييس اللغة مادة : سرت . والكشاف ١ .

وثالثها : « وآتيناه في الدنيا حسنة » أى نعمة حسنة ، وهى الذكر الحسن والثناء الجميل بين الأمم ، ولا مانع من أن تكون شاملة لما أنعم الله به عليه في الدنيا ومن ذلك : الذرية الصالحة ، وانعم الطويل في الطاعة ، وغير ذلك • والالتفات الى التكلم لظهار فضل هذه النعمة الدنيوية ، حيث ان أثرها ممتد الى آخر الزمان ، وتقديم الجار والمجرور للاهتمام ببيان محلّ الحسنة ، فهى في الدنيا كما أن النعمة التى تليها في الآخرة •

ورابعها : « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وقد عرضنا لذلك بالشرح في حلقة العنكبوت • وقد عبر عن النعم الثلاث الأولى بجمل فعلية ماضوية نظرا لوقوعها ، وعبر عن النعمة بجملة اسمية لانفاة ثبوتها واستمرارها مع عدم مجيء زمانها ، وقوى ذلك بالتأكيد بان واللام •

ورتبنا هذه النعم ترتيبا دقيقا فقدم الاجتناب على الهداية لما أنه سبب لها ، فان الله تعالى عندما يصطفى عبده يهديه للتى هى أقوم • وقدمت الهداية على الحسنة الدنيوية لاتصالها بالدين ، ولكونها من أسباب حلول النعم على الانسان • وقدمت نعمة الدنيا على نعمة الآخرة للسبق الزمنى •

نعمة عظيمة القدر :

ويعد تعداد ما سبق من نعم تأتي نعمة عالية القدر رفيعة الشرف، وهى أمر الرسول الخاتم ﷺ باتباع ملته « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » • قال الزمخشري : فى «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ واجلال محله ، والايذان بان أشرف ما أوتى خليل الله ابراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوى من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا

• اذنعت في المرتبة من سائر النعوت التي أثنى الله عليها بها (١٤) •

• فصل ابن المنير وجه افادة « ثم » هذا الأمر فقال : وانما تفيد « تم » ذلك لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان ، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه ، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى يوهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرا ، وأرفع رتبة ، وأبعد رفعة ، وهو أن النبي الأُمى الذي هو سيد البشر متبع ملته ، مأمور باتباعه بالوحي (١٥) •

• والتعبير بـ « أوحينا » ثم الأمر باتباع الملة لا نبع ابراهيم عليه السلام دلالة على أن النبي ﷺ ليس بتابع له ، بل هو مستقل بالأخذ عن الله تعالى كإبراهيم (١٦) • وفي اسناد الايحاء الى نون انعامه تعظيم لشأن الموحى به والموحى اليه • والضمير في « اليك » للرسول محمد ﷺ ، وقد كان الحديث معه قبل قصة ابراهيم عليه السلام في آية « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » (١٧) • و « أن » تفسيرية ، وقد سلك في نظم الآية الاجمال ثم التفسير ، لما في ذلك من تشويق الى الموحى به ، وتأخيدا له من خلال حصوله في النفس بعد شوق اليه وبحث عنه •

• والملة كالدين ، اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء لينوصلوا به الى جوار الله تعالى • والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاعف الا الى النبي الذي تسند اليه ، ولا تكاد توجد مضافة الى الله تعالى ، ولا اثنى آحاد أمة النبي ، ولا تستعمل في جملة السرائع دون

(١٤) الكشاف ٤٣٤/٢ •

(١٤) الانصاف (حاشية الكشاف) ٤٣٤/٢ •

(١٦) الألوسى ٢٥٢/١٤/٧ •

(١٧) النحل ١١٩ •

أحاديها : فلا يقال : ملة الله ، ولا يقال : ملتي وملة زيد ، كما يقال :
دين الله ، ويقال : دين زيد ، ولا يقال : الصلاة ملة الله (١٨) . وفي
إضافة الملة إلى إبراهيم عليه السلام تشریف له وتفخيم لشأنه .

و « حنيفا » حال من المضاف إليه ، لشدة اتصاله به عذبه السلام
جری منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل : رأيت وجه هند
قائمة (١٩) .

وقوله « وما كان من المشركين » تكرر يؤكد عدم كونه من جنس
المشركين ويقرر نزاهته عما هم عليه من عقيدة وعمل . والمقام في حاجة
إلى التأكيد نظرا لما يبدعية مشركوا قريش واليهود من كونهم على ملته ،
وهو منهم برىء . وضاعت من حسنه اختلاف الجملتين في الصياغة
فالأولى « وأم يك من المشركين » بصيغة المضارع المنفى بلم ، والثانية
بصيغة الماضي المنفى بما . إلا أن المعنى في كل منهما على نفي كونه
من المشركين ، لأن « لم » تعقب زمن المضارع إلى الماضي .

الحدث على اتباع ماته :

وقد تكرر الحث على اتباع ملة إبراهيم عليه السلام في آيات
أخرى أظهرها وألحقها بأوضوع ما في سورة البقرة وهي قوله
تعالى « وتقاتلوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم
حنيفا وما كان من المشركين » (٢٠) .

وهي تحكى حث اليهود والنصارى الناس على اعتناق اليهودية
والنصرانية ليكونوا مهتدين . وقد رد عليهم الله تعالى أمرا رسوله ﷺ

(١٨) المفردات ٤٧١ ، ٤٧٢ .

(١٩) أبو السعود ١٥٠/٥ .

(٢٠) البقرة ١٣٥ .

أن يبين لهم أن ملة ابراهيم الحنيفية هي الواجبة الاتباع • وأن يبرأ
ساحة ابراهيم من الشرك والمشركين •

وتشبه هذه الآية ، الآية الواردة في سورة آل عمران وهي
قوله تعالى : « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من
المشركين » (٢١) •

وهذه الآية تأمر الرسول ﷺ بأن يجهر في الناس بصدق الله
تعالى في كل ما أخبر به • ويدخل في ذلك ما ذكره سبحانه وتعالى من
أخبار عن أهل الكتاب ، ومجادلتهم في شأن ملة ابراهيم عليه السلام
في سورة آل عمران • وفي هذا تعريض بكذب أهل الكتاب والمشركين •

كما تأمر الرسول ﷺ بأن يحث الناس على اتباع ملة ابراهيم
عليه السلام التي هي دين الحق ، المائلة عن سائر الأديان الباطلة •
وهذا الجزء من الآية قد مر تحليله في الآية السابقة •

الحلقة الثامنة خليل الله تعالى

قال الله تعالى :

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (١) •

هذه الآية من سورة النساء وهي تبين أنه لا أحد أحسن ديناً ممن أخلص نفسه لله تعالى ، ولم يعرف لها ريباً سواه ، وأتى بالأعمال الصالحات ، واتبع دين إبراهيم عليه السلام الذي هو دين الإسلام ودين الحق المائل عن كل الديانات الباطلة • وتوضح مكانة إبراهيم عليه السلام عند الله عز وجل حيث اتخذته الله خليلاً ، وهذه مرتبة في الفضل لا تعادلها مرتبة أخرى •

والاستفهام انكاري في معنى النفي ، والمقصود مدح من فعل ذلك على أتم وجه • و « ديناً » منصوب على التمييز من أحسن ، وهو تمييز محمول من المبتدأ والتقدير : ومن دينه أحسن من دين من أسلم (٢) •••

و « أسلم وجهه » أي انقاد بكينته لله تعالى وأخلص له دون سواه والتعبير بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ، والتوجه والانقياد يظهر فيه أول ما يظهر • وقوله « وهو محسن » حال من الضمير في « أسلم » (٣) • والمقصود اتيانه بالحسنات وتركه للسيئات •

وقوله « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » تذييل جيء به للترغيب في اتباع ملته عليه السلام ، والايذان بأنها نهاية في الحسن ، وفيه أيضاً

(١) النساء ١٢٥ •

(٢) الألوسي ١٥٤/٥/٣ •

(٣) الفتوحات الانهية ٤٢٨/١ •

تأييد لاتباع ملة ابراهيم عليه السلام لأن من بلغ من الزلفى عند الله
 أن أتخذه خليلاً كان جديراً بأن تتبع ملته (٤) •

واظهار « ابراهيم » في موضع الاضمار لتفخيم شأنه والتنصيص
 على أنه المدوح (٥) ، والتنبيه على استقلال جملة التذييل •

وبهذه الآية التي ختمت ببيان المنزلة العظيمة لابراهيم عليه السلام
 عند الله تعالى : نختم الحديث عن التحليل البلاغى لحقائقه هذا
 الفصل ، لنبدأ الحديث عن أسرار التشابه والتنوع في هذه الجملات •

(٤) السابق •

(٥) الألوسى ١٥٤/٥/٣ •

أسرار التشابه والتنوع في النظم

الموضوع والنظم :

يتضمن هذا الفصل ثمانى حلقات قصيرة تدور حول بيان ملة ابراهيم عليه السلام ، والرد على الممارين فيها ، وبراعته دن الشرك والمشركين ، ومنزلته ومكانته عند الله تعالى . وتختلف لغة النظم فى كل منها تبعا لموضوعها .

فأية البقرة : يسأل فيها ابراهيم ربه أن يريه كيفية احيائه الموتى، وقد أجابه الله تعالى وأراه ما سأل . فجاءت على هيئة حوار بين ابراهيم عليه السلام وربه عز وجل . وصيغ سؤال ابراهيم صياغة هادئة فيها استجلاب للإجابة حيث استهل باسم الرب المشرع بالزبانية والنعانية واللفظ به ، ومن ثم لن يتركه دون اجابة ، ثم كان السؤال عن كيفية الاحياء المفيد لعلمه بقدره الله تعالى على الاحياء واعتقاده فى ذلك ، ولكنه يريد رؤية الكيفية . وجاءت اجابة المولى سبحانه وتعالى شديدة « أو نم تؤمن » كنى يقدره بايمانه ، ازالة لما قد يتوهمه متوهم فى حقه عليه السلام ، وأجاب ابراهيم عن السؤال اجابة موجزة محكمة « بلى » وأردف ذلك ببيان هدفه من ذلك ، وهذا من الاطاب الرقيق الذى يستجلب به طول الكلام مع مولاه تلخذا بمخاطبته ، وتشرفا بوقوفه فى مقام الألوهية . وتأتى الاجابة بجمال طلبية موجزة ، وتسكت الآية عن بيان ما فعنه ابراهيم بعد ذلك ، مهتمة بالتبنيه على موطن العبرة والمعظة « واعلم أن الله عزيز حكيم » ، وهذا من الايجاز البديع الذى يدع النفس فى شوق لمعرفة النهاية .

وحاقة آل عمران : فيها توبيخ لأهل الكتاب بسبب حاجتهم فى منه ابراهيم عليه السلام مع عدم علمهم بحقيقتها ، وتبين لهم وجه الحقيقة فى ذلك فلم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا ولكن كان حنيفا

مسلمًا ، ومن ثم فأولى الناس به هم الذين اتبعوه وانبنى محمد ﷺ والمؤمنون به ، أما أنتم فلا صلة لكم به لعدم اتباعكم مذهبه • والآيات تنهض على الحجة العقلية التي لا تنكر ، وتسلك في محاطبة أهل الكتاب لغة شديدة قوية مفعمة بالاستفهامات التوبيخية التعجبية ، بجانب الجمل الخبرية المؤكدة التي تقر الحقائق ، ومتمككة على الأشارة والتبويه الشديد المشعر بغفاتهم ، ولا مجال للحوار من جهة أهل الكتاب اذا الحجة واضحة للجميع ومفحمة لهم ، ولا تدع مجالًا لنحاور •

وحلقة الزخرف فيها اعلان للبراءة من المشركين وشركهم ، حيث يراجح ابراهيم عليه السلام أباه وقومه بالبراءة منهم ومن شركهم وهذا من أشد الأساليب تعبيرًا عن المجانبية والترك ، وقد ضاعف من تدقته ما فيه من تأكيد قوى ، واستثناء مرشد الى الاله الحق الذي عظمه وهداه لعلهم يثوبون الى رشدهم ، وختمت الحلقة ببيان وصيته لأبنائه بانتمسك بعقيدة التوحيد • وهى على الرغم من ايجازها فقد لخصت مرحلة كبيرة من قصة ابراهيم عليه السلام ، منذ أن عزم على الهجرة الى أن لقي الله تعالى •

وحلقة المنتحنة تحكى موضوع البراءة السابق الا أنها نتجه به اتجاهًا آخر ، حيث تجعل فيه أسوة للنبي ﷺ والمسلمين • حثالهم على اعلان البراءة من المشركين • وذكر جوانب أخرى مما يؤتى بابراهيم عليه السلام فيه وهو اندعاء الضارع الخاشع لله رب العالمين ، ولكنها تفصل بين البراءة والدعاء باستثناء من الأسوة ، وهو وعد ابراهيم لأبيه بالاستغفار له ، نظر لأهمية هذا الاستثناء بعد التأكيد على الأسوة عامة ، وتختتم الآية بالتأكيد القوى على اتخاذ ابراهيم والمؤمنين معه أسوة ، درءًا لما قد يوحى به الاستثناء • ودرجة التأكيد فى الحلقة عالية ، لاستعمالها على أمور هامة يقتضى المقام تأكيدها ، وفيها تكرر لاتخاذ ابراهيم عليه السلام أسوة ، حيث استهلته بذلك وختمت به على نهج

التجريد الذي فيه مبالغة في كمالهم في الأسوة • ولغة الحلقة قوية شديدة في حكاية البراءة ، وفي هذا الختام الذي فيه تهديد ووعيد للدنوي ، بينما هي رقيقة ضارعة في مقام الدعاء •

وحلقة التوبة تكمل حلقة الممتحنة ، حيث تبين السبب في استغفار ابراهيم لأبيه وتوضح براءته منه بعد أن كشف حقيقته وهو مالم تذكره حلقة الممتحنة ، والمقام يقتضى هذا النهج فيها حيث جاءت عتب معاتبه النبي ﷺ والمسلمين على الاستغفار لبعض المشركين من ذوى القربى وأرسل الأيدي في الدفاع عنهم • ولما كان استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه قد يكون فيه مندوحة لفعل ذلك بينت الآية وجه هذا الاستغفار ، وأشارت الى انفكك ابراهيم عن أبيه وبرائه منه بعد وقوفه على حقيقة أمره • ودرجة التأكيد في الحلقة عالية لاثتمالها على موضوع يثير تساؤلات ، ويبعث على استفسارات ، ويظهر فيها جانب الايجاز بطى الموعظة ، والسبيل الذي تبين به عداوة أبيه لله تعالى •

والحلقات الثلاث الأخيرة تبين منزلته ومكانته عند الله تعالى ، وقد انفردت كل منها بما لا يوجد في الأخرى • فحلقة ص تبين اصطفاء الله تعالى له ولبعض من ذريته ، وتشير الى سبب هذه الاصطفاء • وحلقة الذحل تبين أنه أمة كاملة في صفات الخير ، واماما يقتدى به ، وتوضح ملته ودينه ، وجزاءه في الدنيا والآخرة ، وتحت الرسول ﷺ على اتباع ملته ، وفي هذا ربط بين الرسل والرسالات • والتأكيد في هاتين الحلقتين درجته عالية ، عن طريق الأدوات في الحلقة الأولى وعن طريق الأدوات والتكرار في الحلقة الثانية • أما حلقة النساء فتبين أن ابراهيم عليه السلام وصل أعلى مرتبة يتمناها مقرب الى الله تعالى وهي مرتبة الخلة « واتخذ الله ابراهيم خليلا » ، وبجانب ذلك لا تخلو من حث على اتباع ملته •

ملة ابراهيم عليه السلام :

يشترك عدد من الحلقات في بيان ملة ابراهيم عليه السلام التي هي دين الاسلام الحنيف مع وجود تنوع في التعبير عن ذلك .
 ففي « آل عمران » نجد قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » . وبعد ذلك نجد قوله تعالى « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وفي « النساء » نجد قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .
 وفي « النحل » نجد قوله تعالى « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » وقوله تعالى « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وفي حلقة الأنعام وهي من حلقات الدعوة نجد قوله تعالى « انى وجهت وجهى للذى قطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .
 وترتيب هذه الآيات طبقا لترتيب نزول السور الواردة فيها كما يلى :

آية الأنعام ، ثم آيتا النحل ، ثم آيتا آل عمران ، ثم آية النساء .
 وبناء على هذا يمكن لنا بيان سر التنوع فيها .
 فأية الأنعام هي أول الآيات نزولا ، والحلقة التي وردت فيها تحكى مواجهة له مع قومه عباد الكواكب وقد أبطل لهم بالحجة ربوبيتها وبين فساد عبادتها ، وبعد ذلك أعلن البراءة مما يشركون بقوله « انى برىء مما تشركون (١) » ثم أقر أممهم بمنته التي يسمير عليها بقوله

(١) الأنعام ٧٨ .

« انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » ومن هذا الاقرار ثبت أنه أعلم وجهه لله على ملته الحنيفية وليس من المشركين .

وبمقتضى هذا الاقرار جاءت الآيات في الحقائق الأخرى تخبر أن ملته هى الحنيفية الاسلامية ، وتبين براءته من الشرك والمشركين . فجاءت جملة النحل تبين أنه كان « قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » وتأمر النبى ﷺ باتباعه فى ذلك مع التأكيد على حنيفيته وبراءته من المشركين .

وجاءت حلقة آل عمران فى مناسبة خاصة للرد على اليهود والنصارى ، وقد تجادلوا فى ملته ، فبينت أنه لم يكن يهوديا مثلاما يزعم اليهود ، ولم يكن نصرانيا مثلاما يزعم النصارى ، ولكنه كان حنيفا مسالما . وأنبعت ذلك بنفى كونه من المشركين ردا على مزاعم المشركين من أنهم على ملته . والفصل بين الرد على اليهود والنصارى والرد على المشركين ببيان كونه حنيفا مسلما ، لأن زعم المشركين لم يكن مصاحبا لزعم كل من اليهود والنصارى فى هذه الحادثة الخاصة .

ثم جاءت بومها آية أخرى فى نفس السورة تأمر باتباع ملته الحنيفية وتنفى كونه من المشركين « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وبوردت بعد كل ذلك آية النساء موجزة فى الحث على اتباع ملته الحنيفية اعتمادا على ما فصل فى الآيات السابقة .

والملاحظ أن كل الآيات التى سبقناها ما عدا آية النساء تشترك فى إثبات كونه حنيفا مسلما بنفى كونه من المشركين . وفى ذلك تأكيد لهذه الحقيقة وتقرير لها أمام مزاعم المشركين فى عهد الرسول ﷺ ،

حيث كانوا يدعون أنهم على ملته • وقد انفردت حنيفة آل عمران بنفى كونه يهوديا أو نصرانيا بجانب ما سبق ، لنزولها في حادثة معينة تقتضى ذلك كما بينا آنفا •

اتباع ملته :

ويورد في بعض الآيات حث على اتباع ملة ابراهيم عليه السلام بأساليب متنوعة •

ففى النحل « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » وهو أمر مباشر للرسول ﷺ باتباع ملة ابراهيم •
وفى آل عمران « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » وهو أمر للناس باتباع ملة ابراهيم عليه السلام ، وهو يورد عن طريق الأمر من الله تعالى للرسول ﷺ أن يأمر الناس بذلك ، بعدما أمر هو باتباعه في آية الأنحل التي جاءت سابقة في النزول •

وفى النساء دعوة الى اتباع ملته بطريق غير مباشر ، اذ بين أنه لا أحد أحسن ممن أخلص وجهه لله واتباع ملة ابراهيم ، وهذا حثا على اتباع ملته بطريق اللزوم اذ يلزم من كون اتباع ملته في غاية الحسن وجوب اتباعها • ولم يصرح به في هذه الآية نظرا للتصريح به في الآيتين السابقتين •

ويورد في آل عمران دعوة الى اتباعه بطريق غير مباشر في قوله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبی الذین آمنوا » وهذه الصياغة ملائمة للحادثة الخاصة التي نزلت فيها الآية ، فاليهود يزعمون أنهم أولى الناس به ، والنصارى كذلك والمشركون على سائرهم ، فبينت الآية أنه لا أحد من هؤلاء ينطبق عليه هذا الهدف ، فان أولى الناس به من اتبعوه والرسول محمد ﷺ والمؤمنون به لأنهم يدينون بالاسلام الذي هو ملة ابراهيم •

دَمَا ورد في الحج حث على اتباع ملته وذلك في قوله تعالى « وما جعركم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » (٢) حيث ذكر أبو البقاء أن « ملة أبيكم » نصب على الاغراء أى اتبعوا ملة أبيكم ابراهيم (٣) •

وورد في البقرة حث على اتباع ملته عن طريق الرد على اليهود والنصارى في دعواهم وذلك في قوله تعالى « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا ما كان من المشركين » (٤) • فاليهود والنصارى يدعون أن الهداية تتمثل في اتساع اليهودية أو النصرانية ويحثون الناس على ذلك • وقد رد الله تعالى عليهم في ذلك، فأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم ان ملة ابراهيم الحنيفية هي الأولى بالاتباع ومعنى ذلك أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، كما أنه لم يك من المشركين كما صرحت بذلك الآية •

البراءة من المشركين :

وتشروع التعبير عن براءة ابراهيم عليه السلام من قومه ومما يعبدون من دون الله تعالى •

ففى الزخرف « واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون » •

وفى المنتحنه « قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لاقوههم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله » •

• (٢) الحج ٧٨

• (٣) املاء ما من به الرحمن ٤٩/٤

• بهامش الفتوحات

• (٤) البقرة ١٣٥

وفي التوبة « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه الا عن موعدة
وعدها اياه فاما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » •

• وفي الأنعام « قال يا قوم انى برىء مما تشركون » •

وهذا التنوع يتلاءم مع مقتضيات كل موضع ، ففي الزخرف حكى
الكلام على لسان إبراهيم عليه السلام بمفرده دون مشاركة أحد ،
فناسب ذلك « انى برء » ، وفي الأنعام حكى الكلام على لسانه أيضا
ولكن جيء بصيغة المبالغة « برىء » لتناسب مقام الشدة الذى نتج
عن محاورتهم فى أمر الكواكب حتى أظهر بطلان ربه بيئتها بالحجة
النواحة ، وما كان أمامه بعد ذلك الا أن يعلن فى مواجهتهم براءته مما
يشركون بقوة وشدة •

وفي المتحنة جاءت الحكاية على لسان إبراهيم والذين معه ، فناسب
ذلك صيغة الجمع « انا برءاء منكم » واثير صيغة جمع الكثرة لما
فيها من شدة وبالعلة فى البراءة تتناسب مع بقية الآية فى شدتها حيث
جاء تمام كلامهم « كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء
أبدا » •

وفي التوبة لم يرد الكلام محكيا على لسان إبراهيم عليه السلام
انما ورد على سبيل الخبر ، فناسب ذلك صيغة الماضى « تبرأ منه » •
وبعد جاءت ملامة للشرط « تبين » فتم التناسب بين الشرط والجواب
فى انصيغة •

والبراءة تنفرع الى فرعين براءة من القوم وبراءة مما يعبدون •
وقد ذكر من ذلك فى كل موضع ما يناسبه • غفى المتحنة نص على
البراءة من القوم ومما يعبدون ، لأن المقام مقام أسوة ، وهو يقتضى
ذكر البراءة كاملة بفرعها لتعريفهم بموطن الأسوة كاملا غير منقوص ،

حتى يتهجوا نهجه • وفي الزخرف نص على البراءة مما يعبدون ولم ينص على البراءة منهم لأن المقام ليس مقام أسوة فاكتفى فيه بما هو أهم وهو البراءة مما يعبدون •

وفي الأنعام نص على البراءة مما يشركون دون البراءة ، منهم حيث ذكرت البراءة منهم مفردة في الآية التالية « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » •

وفي التوبة نص على براءته من أبيه فقط ، لأن المقام في الحديث عن البراءة من المشركين ولو كانوا أولى قربي ، فذكرت براءة ابراهيم عليه السلام من أبيه وهو أقرب الناس اليه ، لكنى يأتسى به انبى ﷺ والمسلمون في البراءة من أقاربهم المشركين •

استغفار ابراهيم لأبيه :

وورد التعبير عن استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه متنوعا ففى مريم « سأستغفر لك ربى انه كان بى حنيا » و فى الممتحنة « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء » • فأكد الفعل فى مريم بالنسبة فقط ، وهى تنفيذ أن الفعل واقع لا محالة ، لأنها تنفيذ الوعد بحصول الفعل ، فدخلوها على مايفيد الوعد أو الوعيد مقتضى التوكيده ، وتثبيت معناه (٥) ، وأكد الفعل فى الممتحنة بالقسم واللام والنون ، وتعلل السر فى ذلك أنه فى مريم وعد أباه بالاستغفار بعد عذت وقسوة من أبيه وتهديد أنه بالرجم وأمر له بهجره ، فجاء وعده بالاستغفار غير مؤكد تأكيدا قويا من جراء هذه القسوة الشديدة التى أثرت فى نفسه دون شك • أما فى الممتحنة فلم يذكر شىء من قسوة أبيه عليه ، وكان

العدة بالاستغفار جاءت في ساعة هدوء لا ثورة فيها من جهة أبيه ،
، فأتاح ذلك تأكيدها تأكيدا قويا .

وفي مريم أتبعته العدة بالاستغفار بقوله « انه كان بى حنيا »
وهذا مشعر بعلّة الاستغفار ورجاء ابراهيم عليه السلام في قبوله من
أنه تعالى ، فهو كثير البر واللفظ يجيبه اذا دعاه . وفي الممتحنة أتبعته
العدة بالاستغفار بقوله « وما أملك لك من الله من شيء » وهذا يضعف
الأخذ في قبول الاستغفار ، ولعل السر في ذلك أن العدة في مريم جاءت
غير مؤكدة تأكيدا قويا ، ومن ثم أتبعته بهذه الجملة المشعرة بالاستجابة
تقرية لها ، وترغيبا لأبيه فيها ، وفي الممتحنة أكدت بطريقتة قوية بحيث
يتأكد لسامعها أن الاستجابة واقعة لا محالة ، فأزال هذا الودم بقوله
« وما أملك لك من الله من شيء » حيث دل على أن الاستغفار له لن
يكون له أثر الا بارادة الله تعالى ، الذى له أن يعفو عن عبده وأن
يعذبه حسب مشيئته جل شأنه .

وبهذا توازنت العدة في الموضوعين .

جزاء ابراهيم عليه السلام :

ورد في القصة جزاء ابراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة
بأساليب متنوعة ففى البقرة « ولقد اطيناه في الدنيا وانه في الآخرة
لمن الصالحين » .

وفي النحل « وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن
الصالحين » .

وفي العنكبوت « وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن
الصالحين » .

والكلام عن هذه الآيات يتناول الاجابة عن أسئلة ثلاثة :

١ - ما سر اختلاف صيغة التعبير عن الدنيا عن صيغة التعبير عن الآخر ؟

٢ - ما سر تعدد التعبير عن الدنيا ، واتحاد التعبير عن الآخرة ؟

٣ - ما سر التنوع التعبير عن الدنيا ؟

والاجابة عن السؤال الأول - والله أعلم - أن الدنيا واقعة ، والحكاية عما ناله ابراهيم فيها حكاية عن أمور وقعت ، فناسب ذلك التعبير بالجملة الفعلية الماضية للدلالة على تحقق الوقوع . أما الآخرة فلم تقع ، وأمرها في علم الله تعالى ، فناسب ذلك أن يعبر عما سيئاله فيها بالجملة الاسمية المؤكدة للتسارع بأنه أمر ثابت ومحتوم وإن كان لم يقع بعد .

والاجابة عن السؤال الثاني : أن ما ناله في الدنيا أمور متعددة وقعت له في أوقات مختلفة فتعددت العبارة عنها تارة بالاصطفاء وأخرى بآيائه الحسنة أو الأجر ، أما ما سيناله في الآخرة فلم يقع ، والمنازل التي سيرقى اليها لم يشاهدها المخاطبون ، فناسب ذلك أن يعبر عما سيئاله من فضل تعبيرا عاما شاملا لكل ما أعده الله في الآخرة دون تفصيل .

والاجابة عن السؤال الثالث : أن التعبير عن جزائه في الدنيا جاء متنوعا تبعا لمقامات الكلام . فالتعبير الذي في البقرة مسبوق بالحديث عن الذين يرغبون عن ملة ابراهيم « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » وهؤلاء الذين يرغبون عن ملته يجحدون نبوته ، فناسب ذلك ذكر الاصطفاء مؤكدا بتأكيدين « ولقد اصطفيناه في الدنيا » . وآية الفصل مسبوقة ببيان أنه كان قانتا وعبادا لله تعالى وشاكرا لأنعمه ،

وهذا قد يشعر بأنه نال ما نال بعمله من قنوت وعبادة وشكر لله تعالى
 فناسبه أن يقال « وَاَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً » لبيان أن ما له كان حسنة
 من الله تعالى • وفي العنكبوت لم يذكر عمل من أعماله ، ولم ينسب
 إليه سوى الهجرة ، وهذا قد يشعر بأنه نال ما نال من غير جهاد منه،
 فناسب ذلك أن يقال « وَاَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » ليدل على أنه كان
 عاقبته الله تعالى عاملاً لخيري الدنيا والآخرة فنال أجره واستحق جزاءه •

الفصل الخامس

الخصائص البلاغية العامة في القصة

بعد أن انتهينا من تحليل حلقات قصة ابراهيم عليه السلام وبيان ما في نظمها من تشابه وتنوع وأسرار ذلك • نقف في هذا الفصل أمام بعض الخصائص البلاغية الشائعة في حلقات القصة لنتحدث عنها بصفة عامة في جميع الحلقات ، بعد أن تناولنا كثيراً منها بالحديث في مواضعها • وسنهتم هنا بالجانب الاحصائي وما له من دلالات •

وسنقصر الحديث على أهم الخصائص المتصلة بعلم المعاني تاركين النظر في صور البيان والبديع اكتفاء بما تقدمناه عنها في تحليلنا لنظم الحلقات في الفصول السابقة •

الخبر المؤكدة :

تكثر الأسانيب الخبرية المؤكدة في قصة ابراهيم عليه السلام ، حيث جاءت في سبعة وتسعين موضعاً موزعة على النحو التالي (١) :

(أ) من جانب الله تعالى واحد وثلاثون خبراً جاءت كالتالي :

١ - اثنان وعشرون في الحديث عن ابراهيم عليه السلام ، خطاباً له ، أو ثناء عليه ، أو ذكراً لبعض أخباره والتبئيه على جانب العبرة

(١) آثرنا الإشارة الى أرقام الآيات نظر لكثرتها ، وفي كتابتها تطويل لا داعي له ، حيث سبقت كتابتها في الدراسة التحليلية • كما لم نذكر سر التوكيد في كل جملة لأن الحديث عن ذلك سبق مفصلاً في موضعه من الدراسة التحليلية •

فيها • وعددها وهواضعها في السور والآيات حسب ترتيب المصحف :
 خمسة في البقرة : ١٢٤ ، ٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٦٠ • وواحد في آل
 عمران : ٦٨ • وواحد في التوبة : ١١٤ • واثنان في هود : ٦٩ ، ٧٥ •
 واثنان في النحل : ١٢٠ ، ١٢٢ • وواحد في مريم : ٤١ • وواحد في
 الأنبياء : ٥١ • واثنان في العنكبوت : ٢٤ ، ٢٧ • وخمسة في
 الصافات : ٨٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ • واثنان في ص : ٤٦ ، ٤٧ •

٢ - اثنان في خطاب الرسول ﷺ في الأثعم : ٨٣ ، ٨٩ •

٣- واحد في وصف والد ابراهيم في التوبة : ١١٤ •

٤ - ثلاثة لقوم ابراهيم تبين قدرة الله ، وعدم وجود نصير لهم
 في العنكبوت : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ •

٥ - ثلاثة للنبي ﷺ وصحابته والمسلمين عامة • في المتحنة :

٤ ، ٦ •

(ب) حكى عن ابراهيم عليه السلام سبعة وأربعون خبرا مؤكدا
 كما يلي :

١ - ثلاثة عشر في خطاب الله تعالى والثناء عليه جل شأنه ، منها
 ثلاثة في البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ • وستة في ابراهيم : ٢٦ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ • وثلاثة في الشعراء : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ • وواحد في
 المتحنة : ٥ •

٢ - ثمانية في حديثه مع أبيه ، منها خمسة في مريم : ٤٣ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٤٧ • وواحد في الشعراء : ٨٦ • واثنان في المتحنة : ٤ •

٣ - واحد وعشرون في الحوار مع قومه ، منها ستة في

الأثعم : ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ • واثنان في الأنبياء : ٥٧ ، ٥٤ •

- وواحد في الثعراء : ٧٧، وسبعة في العنكبوت : ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ .
- واثنان في الصافات : ٨٩ ، ٩٩ . واثنان في الزخرف : ٢٦ ، ٢٧ .
- وواحد في الممتدنة : ٤ .

٤ -- واحد في حوارهِ مع الثمروذ في البقرة : ٢٥٨ .

٥ -- واحد في بوضيته لبنيه في البقرة : ١٣٢ .

٦ -- واحد في حديثهِ مع الملائكة في الحجر : ٥٢ .

٧ -- واحد في حديثهِ مع ابنهِ اسماعيل عليهما السلام في

الصافات : ١٠٢ .

٨ -- واحد في جدانه مع الملائكة عن قوم لوط في العنكبوت : ٣٢ .

(ج) حكى عن الملائكة ثلاثة عشر خبراً مؤكداً هي :

١ -- ثمانية في حوارهم مع ابراهيم عليه السلام منها ثلاثة في

هود : ٧٠ ، ٧٦ ، وأربعة في الحجر : ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ . وواحد

في الذاريات : ٣٢ .

٢ -- اثنان في حوارهم مع سارة زوج ابراهيم عليه السلام منها

وواحد في هود ٧٢ . وواحد في الذاريات : ٣٠ .

٣ -- ثلاثة في جدالهم مع ابراهيم عن لوط في العنكبوت : ٣٢، ٣١ .

(د) حكى عن سارة خبر مؤكد في هود : ٧١ وذلك في تعجبها

من البشرى باسحاق عليه السلام .

(هـ) حكى عن اسماعيل عليه السلام خبر مؤكد في الصافات : ١٠٢ .

وذلك في حديثهِ مع أبيهِ معلنا طاعته لأمر الله تعالى .

(و) حكى عن والد ابراهيم خبر مؤكداً في مريم : ٤٦ ؛ وذلك في تهديده لابراهيم عليه السلام بالرجم .

(ز) حكى عن قوم ابراهيم ثلاثة أخبار مؤكدة اثنان في الانبياء : ٥٤ ، ٦٤ ، وهما في حديث القوم مع بعضهم . وواحد في ردهم على ابراهيم عليه السلام وهو في الانبياء : ٦٥ .

وبهذا ينتهى حصر الجمل الخبرية المؤكدة وبيان مواقعها في قصة ابراهيم عليه السلام .

ومن تأملنا في هذه الأساليب في مواضعها من الآيات لحدنا ما يلى :

١ - زيادة الأخبار الطلبيية عن الأخبار الانكارية ، حيث يوجد من بينها تسعة وخمسون خبراً طليياً ، بينما يوجد ثمانية وثلاثون خبراً انكاريياً . وذلك لأن الدواعى التى تقتضى الاسلوب الطلبي كثيرة تتعدى حالات الشك الى المقامات التى يكون الكلام فيها مثار تساؤلات ، أو فى حاجة الى بيان علته وسببه ، أو فى حاجة الى الاهتمام به ، وتقوية مضمونه ، أو متضمناً أخباراً غريبة ونحو ذلك .

٢ - أكثر الأخبار الانكارية يشتمل على مؤكدين ، حيث يوجد سبعة وعشرون خبراً من ذلك . بينما توجد عشرة أخبار تشتمل على ثلاثة مؤكدات ، ويوجد خبر واحد يشتمل على أربعة مؤكدات هو قوله تعالى « لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » الانبياء : ٥٤ ؛ فقد عد بالقسم واللام وقد والضمير ، وهو رد حاسم على تعاقب القوم بتقليد آسائهم فى قلوبهم « وجدنا آباءنا لها عابدين » الانبياء : ٥٣ وهى حجة راهية تكرر تمسككم بها ، ومن ثم رد عليهم ابراهيم هذه المة ردداً

عزيفا ، حتى لا يلجئوا اليها بعد ذلك ، وكان لهذا الرد العنيف أثر كبير حيث هزهم وزلزلهم وجعلهم متحيرين في أمره ، متسائلين « آجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » الأنبياء : ٥٥ •

٣ - حلقة الأنبياء هي الحلقة الوحيدة من بين حلقات الدعوه ، التي جاءت كل أخبارها المؤكدة أخبارا انكارية عالية التأكيد ، فهي تستعمل على ستة أخبار مؤكدة ، منها اثنان بتأكيدين ، وثلاثة آذنت بثلاثة ، وواحد أكد بأربعة وهو الذى سبق أنفا • وفي هذه الحلقة يكثر التأكيد القسمى مع ما يصحبه من مؤكدات أخرى سواء أكان الخبر من جانب الله تعالى أم محكيا عن ابراهيم عليه السلام أم محديا عن قومه ، فمن جانب الله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده » وفيما حكى عن ابراهيم « اقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » « وثانئ لأكيدن أصنامكم » ، وفيما حكى عن القوم « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » الأنبياء : ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٥ •

ومرد هذا في نظرى الى أن المواجهة في هذه الحلقة كانت حاسمة. حيث اشتد ابراهيم عليه السلام في توبيخ القوم والتهكم بهم وباصنامهم ، واشتد القوم في الرد عليه ، وتطور الأمر الى تكسيره الأدينام ، ومثوله أمام محكمة علنية ، حاد القوم فيه عن الحق بعد تجليه لهم ، وحكموا باحراقه ، وقد دلت هذه التأكيدات القوية على شدة الثورة ، واحتدام الخصومة ، وعنف الحركة بين الطرفين •

أما حلقة الشعراء فلم يرد فيها خبر انكارى واحد على الرغم من وجود خمسة أخبار طلبية فيها • وحلقتنا العنكبوت والصفات لم يرد فيها خبر انكارى لا من ابراهيم عليه السلام الى القوم ولا من القوم الى ابراهيم • وحلقة الأنعام ورد فيها خبر انكارى واحد اشتدت فيه درجة التوكيد « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » الأنعام : ٧٧ • وهو خبر قاله عن نفسه ، وقد أكده بالقسم واللام والنون ليقرر

بكل قهون أن الهداية من عند الله تعالى ، وأنه جل شأنه ان لم يوافقته الى طريق الصواب فسيذكرون من الضالين • وقد خفت حدة التأكيد في هذه الحلقات لأن الحوار فيها كان هادئا لم يصل الى مرحلة النهاية •

وحلقة مريم فيها من جانب ابراهيم عليه السلام ستة أخبار مؤكدة ، خمسة طلبية وواحد انكاري هو « انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا » مريم ٤٣ ، والسر في علو درجة التأكيد في هذا الخبر هو ما يتضمنه من اظهار تميز ابراهيم عليه السلام وانفراده بعلم لم يأت أباه ، ومن طبيعة الآباء أن يجادلوا أبناءهم عندما يدعون أنهم على علم لم يأتهم ، وعلى معرفة لم يتوصلوا إليها ، ومن ثم كان هذا الخبر في حاجة الى مزيد من التأكيد • وكان من نتيجة هذه الأخبار المؤكدة أن هاج الأب هياجا شديدا وتوعد ابنه « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » مريم : ٤٦ ، فأدّد الكلام بالقسم والالام والنون •

٤ - حلقة العنكبوت في جداله عن قوم لوط كثرت فيها التأكيدات حيث ورد فيها ثلاثة أخبار طلبية وخبر انكاري علما بأنها مكونة من آيتين ، وهذا راجع الى أن المقام مقام جدال بين ابراهيم عليه السلام والملائكة ، وهذا يقتضى التأكيد ، حيث أخبره الملائكة باهلاك أهل القرية مؤكداين كلامهم « انا مهلكوا أهل هذه القرية » ثم علاوا الالهات بخبر مؤكد « ان أهلها كانوا ظالمين » ورد عليهم ابراهيم بخبر مؤكد « ان فيها لوطا » فرددوا عليه مبينين عامهم به وبغيره « نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين » العنكبوت : ٣١ ، ٣٢ فزادوا في التأكيد في الرد عليه لازالة كل ما في نفسه •

٥ - مجيء كثير من الأخبار الانكارية في بيان اصطفاء الله تعالى لابراهيم والثناء عليه في الدنيا والآخرة •

ففي بيان اصطفاء الله تعالى له وهدايته يقول الله تعالى « ولقد اصطفيناد في الدنيا » البقرة : ١٣٠ « ولقد آتينا ابراهيم رشده » الانبياء : ٥١ « وان من شيعته لابراهيم » الصافات : ٨٣ ، « وانهم عندنا لمن المصطفين الأختيار » ص : ٤٧ ، وعلو درجة التأكيد هنا لما أن الأخبار تتضمن أمورا جلية تتصل باصطفائه للنبوة : واختصاصه بالامامة . وهذا يناسبه مزيد من التأكيد والتقوية .

وفي الثناء عليه بعظيم السجايا يقول تعالى « ان ابراهيم لأواه حلیم » التوبة : ١١٤ « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » هود : ٧٥ ، والمقام هنا في حاجة الى هذا التأكيد القوي ، لأن الجملة الأولى تذييل لآية تبين سبب وعده أباه بالاستغفار له ، كي لا يكون في نفس المؤمنين من ذلك شيء ، وحتى لا يقتدوا به في الاستغفار للمشركين . وهذه الظروف تستدعي تأكيد الخبر تأييدا قويا . وانجمله الثانية آية كاملة ذكرت عقيب الاخبار بجدالة في قوم لوط ، فجاءت لبيان مبعث هذا الجدان . هم ما طبع عليه من اللطف والحلم والخوف والانابة ، وأكدت تأييدا قويا لتبين الحقيقة جلية ، كي لا يفهم جداله عن قوم لوط فهما على غير حقيقته .

وفي بيان منزلته في الآخرة يقول تعالى « وانه في الآخرة لمن الصالحين » وقد جاءت هذه الجملة في ثلاث سور : البقرة والنحل والعنكبوت (٢) . وعلو درجة التأكيد فيها مرده الى أنها تتضمن أمورا غيبية لم يطلع عليها الناس ، ومثل ذلك في حاجة الى مزيد من التأكيد ، دفعا لما يقع في نفوس بعض الناس من اهتراء في ذلك .

وفي بيان كونه أسوة للنبي ﷺ والمؤمنين يقول تعالى « لقد كان

(٢) البقرة ١٣٠ ، والنحل ١٢٢ ، والعنكبوت ٢٧ .

لكم فيهم أسوة حسنة» المتحنة : ٦ ، وهذه الجملة واردة بعد بيان اتخاذه أسوة في البراءة من الشرك والمشركين ، وعدم التأسي به في الاستغفار لأبيه ، فجاءت مؤكدة تأكيدا أقوى من نظيرتها التي تبدأ بها الحلقة ، لتقوية النحث على اتخاذه أسوة بعد النهي عن التأسي به في الاستغفار لأبيه ، كي تدفع ما قد يثيره هذا الاستثناء من تساؤلات .

٦ - أكثر الأدوات استعمالا في التأكيد : ان المكسورة الهمزة ، حيث جاءت مفردة في واحد وأربعين خبرا ، وجاءت مشتركة مع غيرها من الأدوات في ستة وعشرين خبرا . وهذا راجع الى أنها من أقوى أدوات التأكيد . وتفيد بجانب التأكيد ربط الجمل بما قبلها ربطا قويا على سبيل التعليل له ، وبيان سببه ، وقد أشار الامام عبد القاهر الى ذلك فذكر أن الجملة عن طريق « ان » ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتنحصر به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغا افرغا واحدا ، وكان أحدهما قد سبق في الآخر (٣) .

وتأتى اللام في المرتبة الثانية بعد « ان » حيث جاءت في خمسة وعشرين خبرا ، ولم تأت مفردة بل مصاحبة لأدوات أخرى . أما قد وهي من الأدوات القوية في التأكيد والتحقيق فجاءت بمفردها في ستة أخبار ، ومصاحبة لغيرها في سبعة أخبار . وجاءت مؤكدة أخرى بنسب قليلة وهي انقسم ، والنون المشددة ، والسين ، وضميم الفصل ، ومن الزائدة في مصطلح النحاة .

التعريف بالاسم الموصول :

ورد التعريف بالاسم الموصول في قصة ابراهيم عليه السلام في أربعة وخمسين موضعا تفصيلها حسب الأدوات كما يلي :

(٣) دلائل الاعجاز ٣١٦ .

١ - الذى : وجاءت فى تسعة مواضع :

هو وضعين من جانب الله تعالى ، وذلك فى قوله « أتم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه » وقوله « فبئس الذى كفر » البقرة . ٢٥٨ . والتعبير بالاسم الموصول فإيهما لتحقير الطاغية باهمال اسمه ، ولعدم حاجة المناطيين الى معرفة شخصه لأن كل الذى يهمهم معرفة عمله الشائن ، وجزائه المهيمن ، وهذا كان فى الموعظة وأخذ العبرة •

وسبعة محكية عن ابراهيم عليه السلام وذلك فى قوله تعالى « الحمد لله الذى وهب لى عليّ الكبر اسماعيل واسحاق » ابراهيم : ٣٩ . وفى اسم الموصول وصلته اشعارا بعلّة الحكم المتقدم وهو تخصيص الله تعالى بالحمد •

وفى قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطعننى ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين • والذى يمينتى ثم يحيين • والذى أطعم أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » الشعراء : ٧٨ - ٨٢ . وفى اسم الموصول وصلته اشعار بعلّة الحكم المتقدم وهو استثناءه الله تعالى من العداوة له فى قوله « فانهم عدو لى الارب العالمين » • فالمراد بصلته اشعار بعلّة الاستثناء ، كما تبين قدرة الله تعالى ولطفه بابراهيم ونعمه عليه ، ليطمع القوم على قدرة الاله الحق مقارنة بعجز آلهتهم المهيمن •

وفى قوله تعالى « ربى الذى يحيى ويميت » البقرة : ٢٥٨ • وتعريف المسند بالاسم الموصول للتوصل بصلته الى تعريف الطاغية بالرب الحق ، عن طريق ما اختص به سبحانه من صفات لا يشتركه فيها أحد من خلقه •

٢ - التى : وجاءت فى موضع واحد من جانب الله تعالى فى قوله

« وونجيناها ولو طأ الى الأرض التي باركنا فيها انعمالين » الأنبياء : ٧٦ ،
 واسم الموصول يفيد تكخيم الأرض وتعظيمها ، ويشير الى معرفتها
 وشهرتها بالبركة الالهية ، من حيث ان جملة الصلة تكون معلومة
 • المخاطبين •

٣ - الذين : وجاءت فى تسعة مواضع :

سبعة من جانب الله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه
 وهذا النبى والذين آمنوا » آل عمران : ٦٨ • وفى اسم الموصول وصلته
 تعظيم لهم وثناء عليهم بالاتباع والايمان حيث عرفوا بذلك وشعروا به •
 وفى قوله تعالى « الذين آمنوا ولم ينسوا ايمانهم بظلم أولئك
 اتم الأمن وهم مهتدون » الأنعام : ٨٢ • وفى اسم الموصول ايماء الى
 وجه بناء الخبر ، وأنه من الأمور العظيمة التى يستحقها بايمانهم
 • الخالص •

وفى قوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة »
 و « أولئك الذين هدى الله » الأنعام : ٨٩ ، ٩٠ • وتعريف المسند فيهما
 بالموصول ادخيم بما فى حيز الصلة ، والاشعار بعة التعظيم المستفاد
 من اسم الاشارة •

وفى قوله تعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه »
 وتعريفهم بالموصول للاشعار بمكانتهم من خلال الصلة التى تفيد
 معيتمهم لابراهيم عليه السلام • وهذا أبلغ فى التعريف بهم من ذكر
 أسمائهم التى قد لاتهم المخاطبين •

وفى قوله تعالى « والدين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك بئسوا
 من رحمتى » العنكبوت : ٢٣ • وفى اسم الموصول وصلته ايماء الى وجه
 بناء الخبر ، وأنه من الأمور المسيئة ، والعذاب المهين •

وموضع محكى عن ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى « ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » العنكبوت : ١٧ • وتعريف المسند اليه بالموصول يومىء الى وجه بناء الخبر وأنه لا ينطوى على خير : لأن المعبودين من دون الله عجزة لا يملكون نفعا ولا ضرا •

وموضع محكى عن ابراهيم عليه السلام والذين معه • في قوله تعالى « رينا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » المتحنة : ٥ • وفي اسم الموصول وصفته اشارة بشهرتهم بهذا الوصف المشين ، فهو وصف يعينهم أكثر من تعريفهم بالعلمية • وفيه ذم لهم بما في حيز الصلة من الكفر •

٤ - من : وجاءت في عشرة مواضع :

سبعة من جانب الله تعالى • وهى في قوله جل شأنه « ومن يرغب عن منة ابراهيم الا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ ، وقوله « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » النساء : ١٢٥ ، وقوله « نرفع درجات من نشاء » و « يهدى به من يشاء » الأنعام : ٨٣ ، ٨٨ ، وقوله « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » العنكبوت : ٢١ • وقوله « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » المتحنة : ٦ •

وموضعين محكيين عن ابراهيم عليه السلام وذلك في قوله تعالى « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » البقرة : ١٢٦ • ونحوه « الا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ •

وموضع محكى عن الملائكة ، في قوله تعالى : « قالوا نحن أعلم بمن فيها » العنكبوت : ٣٢ •

٥ - ما : وجاءت في خمسة وعشرين موضعاً (٤) : ثمانية من جانب الله تعالى ، وستة عشر فيما حكى من إبراهيم عليه السلام . وموضع يحكى عن اسماعيل عليه السلام .

فأما التي ما جانب الله تعالى ففي قوله تعالى « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » البقرة : ١٣٢ . وفي قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ولم تحاجون فيما ليس بكم به علم » آل عمران : ٦٦ . وفي قوله تعالى « لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ . وفي قوله تعالى « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله » مريم : ٤٩ . وفي قوله تعالى « على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » الحج : ٢٨ .

وأما التي حكيت عن إبراهيم عليه السلام :

فأربعة في الأنعام في قوله تعالى « انى برىء مما تشركون » : ٧٨ . وقوله « ولا أخاف ما تشركون به » : ٨٠ ، وقوله « وكيف أخاف ما أشركتم » : ٨١ ، وقوله « ما لم ينزل به عليكم سلطاناً » : ٨١ . و « ما » في هذه المواضع تشير إلى تحقيره لعبودانهم التي يعبدونها من دون الله تعالى ، حيث أبومها ولم يفصح عنها كما تدل على العموم والشمول .

رموضعان في إبراهيم في قوله تعالى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن » : ٣٨ ، و « ما » في الموضعين تشير إلى أن علم الله تعالى عام وشامل لكن ما يخفون وما يعلنون من أمور صغيرها وكبيرها . وثلاثة في مريم في قوله تعالى « لم تعبد ما لا يسمع ولا

(٤) بعض المواضع تحتمل أن تكون « ما » موصولة أو مصدرية . وما ذكرناه هنا رجحنا فيه جانب الموصولية .

ميدصر : « ٤٣ ، ويقول « انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك » : ٤٣ ،
 وقوله « وأعتزلكم يوما تدعون من دون الله » : ٤٨ • و « ما » في الآية
 الثانية تشعر بفخامة هذا العلم ، وعلو شأنه ، بينما هي في الآيتين
 الأولى والثالثة تدل على تحقيره للأصنام بابهامها وترك التصريح باسمها ،
 مع افادة العموم •

وهو مضعان في الأنبياء في قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله
 ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون
 الله » : ٦٦ ، ٦٧ • و « ما » في الموضعين تنبىء بتحقيره للأصنام ،
 ولأن ما يعبدون من دون الله •

وهو مضع في الشعراء في قوله تعالى « أفرأيتم ما كنتم تعبدون » :
 ٧٥ ، وموضعان في الصافات في قوله تعالى « أتعبدون ما تتحتون •
 والله خلقكم وما تعملون » : ٩٥ ، ٩٦ • وهو مضع في الزخرف في قوله
 تعالى « انفى براء مما تعبدون » : ٢٦ ، وهو مضع في الممتحنة في قوله
 تعالى « انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله » و « ما » في كل
 هذه المواضع تشعر بتحقيره لمعبوداتهم ، وعموم ذلك في الأصنام
 وغيرها •

وأما الذى حكى عن اسماعيل عليه السلام نفى قوله تعالى :
 « قال يا أبت افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ و « ما » تشعر برضا
 اسماعيل التام عن كل ما يفعله أبوه به ذبحا أو غير ذبح ، لأن ذلك
 من امر الله تعالى •

ومن التفصيل السابق للمواضع التى ورد فيها الاسم الموصول
 قلحظ ما يلي :

١ - أكثر الأسماء الموصولة استعمالا « ما » يليها « من »

وتساوى « الذى » و « الذين » فى عدد مرات ورودهما ، وأقرب الأسماء استعمالاً « التى » حيث لم ترد الأمرة واحدة ، ولعل هذا راجع إلى ما فى « ما » من إيجاز وخفة ، وما يكتنفها من إبهام يتنوع حسب المقامات إلى تفخيم وتعظيم أو تحقير وتصغير . وما تتضمنه من عموم وبشمول للعقلاء وغيرهم . و « من » وإن كانت فيها بعض الخصائص السابقة إلا أن اختصاصها بالعقلاء يحدد من مساحات استعمالها فى الأساليب . أما « الذى » و « التى » و « الذين » فأسماء طويلة ومعانيها محددة ومن ثم يقل استعمالها .

٢ - جاءت أكثر الأسماء الموصولة فى الأساليب المحكية عن إبراهيم عليه السلام ، حيث وردت فى سبعة وعشرين موضعاً ، وهذا راجع إلى ثنائه على الله عن طريق الموصول وحواره مع قومه لأبطال عبادة الأصنام ، وقد أكثر فى ذلك من استعمال الموصولات المبهمة التى تنصح عن تحقيره لمعبوداتهم .

يلى ذلك ما جاء من جانب الله تعالى ، حيث وردت الأسماء الموصولة فى خمسة وعشرين موضعاً ، وهو عدد كبير أيضاً وقد اقتضت مقامات الحديث عن قدرة الله تعالى ومشيبته فى التعذيب والرحمة والهداية ورفع الدرجات ، وإثابة المؤمنين وطرده الكافرين من رحمته ، والثناء على الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ومواجهة أهل التثاب . والرد على ضلالهم .

٣ - ورد التعريف بالاسم الموصول كثيراً فى حلقات الدعوة إلى الله تعالى ، فقد جاء فى الأنعام فى عشرة مواضع وفى الشعراء فى ستة مواضع وفى العنكبوت فى أربعة مواضع وفى كل من الأنبياء والصفوات والبقرة فى ثلاثة مواضع . وهذا راجع إلى ما فى هذه الحلقات من ثناء

على الله تعالى ، وبيان لقدرته ومشيبته ، وتهكم وتحقير للأصنام
وعابديها •

أما بقية الحطقات فقد ورد الاسم الموصول في دلقة البقرة حول
البيت الحرام في ستة مواضع ، وفي كل من آل عمران والمنتحنة في
أربعة مواضع ، وفي إبراهيم في ثلاثة مواضع ، وفي الزخرف في موضعين
وفي كل من النساء والحج والعنكبوت الخاصة بالحديث مع الملائكة
في موضع واحد •

التعريف باسم الإشارة :

ورد اسم الإشارة في قصة إبراهيم عليه السلام في واحد وثلاثين
موضعا على النحو التالي :

(أ) من جانب الله تعالى في ثلاثة عشر موضعا منها عشرة مواضع
يفيد فيها التعظيم والتفخيم بجانب الإيجاز وتمييز المسار إليه ،
وثلاثة تفيد التحقير والتهمين ، فأما التي يفيد فيها التعظيم فهي :

١ - في آل عمران في قوله تعالى « ان أولى الناس بإبراهيم للذين
اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » آل عمران : ٨٦ ، والإشارة فيها
تعميم للنبي ﷺ ، وتمييز له •

٢ - في الأنعام في أربعة مواضع الأول قوله تعالى « وكذلك نرى
إبراهيم ملكوت السموات والأرض » ٧٥ ، والإشارة على رأى
النمخشري ومن تبعه الى مصدر نرى لا الى اراء أخرى مفهومة مما
سبق • أى ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم وتبصرة ملكوت
السموات والأرض (٥) • واسم الإشارة يفيد التعظيم والتفخيم ،
والكاف الأولى لتأكيد ما أفاده من الفخامة •

والثانى فى قوله تعالى « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده » ٨٨ ، والاشارة الى الهدى وهى مفيدة لتعظيمه وتفخيمه ، والمخاطب بذلك فى الأصل هو الرسول ﷺ .

والثالث فى قوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب » ٨٩ ، والرابع فى قوله تعالى « أولئك الذين هدى الله » ٩٠ ، واسم الاشارة فيهما لتعظيم الاشار اليهم وهم الانبياء المذكورون من ذرية ابراهيم عليه السلام .

٣ - فى العنكبوت فى موضعين ، الأول قوله تعالى « ان ذلك على الله يسير » ١٩ ، والاشارة الى بدء الخلق واعادته ، وتنفيذ التعظيم والتفخيم ، اى ان ذلك الفعل العظيم البالغ الفخامة يسير على الله تعالى . والثانى قوله تعالى « ان فى ذلك لايات لقوم يؤمنون » ٢٤ ، والاشارة الى اتجاء الله تعالى ابراهيم عليه السلام من النار بعد لقائه فيها : والاشارة تدل على فضاة هذا الفعل وعظمته .

٤ - فى الصافات فى ثلاثة مواضع الأول قوله تعالى « انا كذلك نجزي المحسنين » ١٠٥ ، والثانى قوله تعالى « ان هذا لهرى البلاء المبين » ١٠٦ ، والثالث قوله تعالى « كذلك نجزي المحسنين » ١١٠ ، والاشارة فى المواضع الثلاثة تنفيذ التعظيم والتفخيم .

وأما الثلاثة التى ينفذ فيها التحقير فالأول فى آل عمران فى قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » ٦٦ ، والاشارة الى أهل الكتاب وفيها تحقير لهم بسبب ما أقدموا عليه من الجدل فى شأن دين ابراهيم عليه السلام دون علمه . والثانى والثالث فى العنكبوت فى قوله تعالى « والذين كفروا بآيات الله وإلقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم » ٢٣ ،

والإشارة في الموضوعين لتحقيرهم وبيان سوء مصيرهم بسبب كفرهم
• بآيات الله تعالى

(ب) وجاء اسم الإشارة فيهما حكى عن إبراهيم عليه السلام
في عشرة مواضع ، منها ثمانية يفيد فيهما التعظيم وما يتصل به ،
وموضعان يفيد فيهما التحقير •

فأما التي يفيد فيها التعظيم فهي :

١ - أربعة مواضع في الأنعام في قوله تعالى « هذا ربي » ٧٧، ٧٦ ،
٧٨ ، عند رؤية الكوكب ثم القمر ثم الشمس ، وقوله تعالى « هذا
أكبر » ٧٨ ، عند رؤية الشمس • والإشارة في هذه المواطن الأربعة
تشعر بتعظيم المشار إليه ، وهذا مبنى على مجازاة إبراهيم لقومه حتى
يلزمهم بالحجة •

٢ - موضعان متشابهان في البقرة وإبراهيم في قوله تعالى « رب
اجعل هذا بلداً آمناً » ١٢٦ ، وقوله تعالى « رب اجعل هذا انبئاً
آمناً » ٣٥ ، وغرض التمييز هنا ظاهر ، وهو أقوى من غيره •

٣ - موضعان في الأنبياء والعنكبوت الأول في قوله تعالى « بل
ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من
الشاهدين » ٥٦ ، والثاني في قوله تعالى « اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير
لكم » ١٦ ، والإشارة في الآية الأولى للرب سبحانه وتعالى ، وفي
الثانية لعبادة الله وتقواه ، وقد جاءت الإشارة في الموضوعين على نمط
واحد ، وفي كل منهما تفيد التعظيم والتفخيم •

وأما الموضعان اللذان يفيدان التحقير ففي قوله تعالى « ما هذه
التدائيل التي أنتم لها عاكفون » وقوله تعالى « بل فعنه كبيرهم هذا »

والموضعان في سورة الأنبياء : ٥٢ ، ٦٣ ، والاشارة في الأول للأصنام
وفي الثاني لكبير الأصنام الذي تركه دون تكسير • والتحقير واضح
في كل من الاشارتين •

(ج) وورد اسم الاشارة فيما حكى عن الملائكة في ثلاثة مواضع:
الأول في قوله تعالى « يا ابراهيم أعرض عن هذا » هود : ٧٦ ،
والاشارة الى جدال ابراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط ، وواضح
في اسم الاشارة التحقير والتهوين ، أى أعرض عن هذا الجدال الذى
لا فائدة منه فقد جاء أمر الله بعذابهم • والثانى في قوله تعالى « قالوا
كذلك فان ربك انما هو الحكيم العليم » الذاريات : ٣٠ ، واسم الاشارة
يعود الى التبشير بالسلام والمخاطب به سارة حين تعجبت من هذا
وصكت وجهها ، وهو يفيد التعظيم • والثالث : في قوله تعالى « انا
مهلكوا أهل هذه القرية » العنكبوت : ٣١ وفي اسم الاشارة تمييز
القرية واشعار بحقارتها •

(د) وجاء اسم الاشارة فيما حكى عن سارة في موضعين يفيد
فيهما تمييز المشار اليه مع تعظيمه وذلك في قوله تعالى « وهذا يعلى
شيخا ان هذا لشيء عجيب » هود : ٧٢ •

(هـ) وجاء اسم اشارة فيما حكى عن القوم في ثلاثة مواضع
الأول في قوله تعالى « من فعل هذا بالهتتا » الأنبياء : ٥٩ ، وفيه تهويل
لشأن كسر الأصنام وتكبير لهذا الجرم ، والثانى في قوله تعالى « أقعدوا
عابث ما هؤلاء ينطقون » الأنبياء : ٦٥ ، وفيه تعظيم لشأنها حسب
اعتقادهم ، والثالث في قوله تعالى « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »
الشعراء : ٧٤ ، وفيه تعظيم لشأن عبادة الأصنام التى يقلدون فيها
آباءهم •

وبالتأمل في المواضع التي ورد فيها اسم الإشارة نلاحظ ما يلي :

١ - أكثر الأدوات استعمالاً « هذا » وذلك لما فيها من تنبيه وإيتناظ وقد جاءت في ثلاثة عشر موضعاً ، كما وردت مؤنثة في موضعين ويليها « ذا » ولم تأت مفردة وإنما ألحق بها لام البعد وكاف الخطاب في تمانية مواضع ، كما زيد على ذلك ميم الجمع في موضعين • ويليها « أولاء » حيث جاءت في أربعة مواضع ملحقاً بها كاف الخطاب • وتأتي « هؤلاء » في آخر الأدوات حيث وردت في موضعين •

٢ - كثر اسم الإشارة في حلقات الدعوة حيث ورد في الأنعام في ثمانية مواضع وفي كل من الأنبياء والعنكبوت في خمسة مواضع • وفي الصافات ثمانية مواضع ، وجاء في الشعراء في موضع واحد • أما الحلقات الأخرى فقد ورد في هود في ثلاثة مواضع وفي آل عمران في موضعين وفي كل من البقرة وإبراهيم والعنكبوت والذاريات في موضع واحد •

٣ - أكثر المواضع التي ورد فيها اسم الإشارة كان الغرض منه التعظيم والتفخيم بجانب كونه مفيداً للإيجاز ومميزاً للامشار إليه أكمل تمييز • وقد فصلنا في التحليل البلاغى الغرض المستفاد من كل اسم إشارة في موضعه الخاص به •

وأما تقديم الجار والمجرور على الفاعل فورد في تسعة مواضع :
 • موضع في البقرة : ١٣٢ • وثلاثة في الأنعام : ٧٦ ، ٨٨ ، ٨٩ • وموضع
 في كل من : هود : ٧٤ • وإبراهيم : ٣٨ • والحجر : ٥٦ • والأنبياء :
 • ٦٠ • والممتحنة : ٤ •

وأما تقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول معا نفى وموضع
 في سورة البقرة : ١٣١ •

وأما تقديم الجار والمجرور على مثله فورد في تسعة مواضع هي :
 موضع في كل من : البقرة : ١٢٦ • وإبراهيم : ٤١ ، وفيها تقدم الجار
 والمجرور على الظرف • والأنبياء : ٧١ • والذاريات : ٣٤ • وموضعان
 في الحج : ٢٧ ، ٢٨ • وثلاثة في الصافات : ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٨ •
 وأما تقديم المفعول على الفاعل فورد في موضعين في البقرة :
 • ١٢٤ ، ١٣٣ •

وأما تقديم المفعول على ما عطف على الفاعل نفى وموضع في
 البقرة : ١٣٢ •

وأما تقديم بعض المفاعيل على بعض فورد في أربعة مواضع هي
 في مريم : ٥٠ ، وفي الشعراء : ٨٤ • وفي العنكبوت : ٢٧ • وفي
 الصافات : ٨٦ •

وأما تقديم النداء على المفعول فورد في ثلاثة مواضع : في الأنعام :
 • ٧٨ ، وفي الصافات : ١٠٢ •

٢ — تقديم الجار والمجرور على الخبر • وورد في أربعة عشر
 موضعا هي : أربعة في مريم : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ • وموضعان في كل
 من : الأنبياء : ٥١ ، ٥٢ • والعنكبوت : ٢٠ ، ٢٧ • وموضع في كل من :
 البقرة : ١٣٥ • والأنعام : ٨٩ • والشعراء : ٥٢ • والنحل : ١٢٢ •
 والشعراء : ٧١ • وص : ٤٧ •

٣ - تقديم الخبر على المبتدأ • وقد ورد في اثني عشر موضعا
هي : موضحان في كل من : آل عمران : ٦٦ • والصفات : ٨٣ ، ١١٣ •
مختصة في العنكبوت : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢ • وموضع في
الأنعام : ٨٤ •

٤ - تقديم المسند اليه على الفعل • وورد في ثلاثة مواضع :
البقرة : ٢٥٨ • والأنبياء : ٦٢ • والعنكبوت : ٣٢ •

٥ - تقديم المفعول على الفعل • وورد في موضع واحد في
الصفات : ٨٦ •

فهذا بيان عشرة ومائة موضع وقع فيها التقديم في قصة ابراهيم
عليه السلام ، وقد آثرنا الإشارة الى سورها وآياتها نظرا لكثرتها •
ومما هو جدير بالذكر أننا أشرنا في تحليلنا البلاغي لحلقات القصة الى
الأسرار البلاغية في كثير من هذه المواضع ، ومن ثم فلم نرداعيا
لتكرار ما سبق • ولکننا سنقف عند أمور لحظناها من التأمل في مواضع
التقديم مجتمعة وهي :

١ - التزام التقديم في أساليب معينة • من ذلك :

(أ) تأخير مفعول القول وتقديم من يوجه اليه القول ففي الأنعام
« واذ قال ابراهيم لأبيه أزر اتخذ أصناما آلهة » ٧٤ • وفي مريم :
« اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر » ٤٢ ، وفي الأنبياء
« اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » ٥٢ •
وفي الشعراء « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » ٧٠ • ونحو هذا في
العنكبوت والصفات والزخرف والمنتحنة • وفي هذا النهج تشويق القارئ
المؤخر ، واهتمام بالمقدم ، ووجود طول في المفعول به في بعض المواضع
فيخل تقديمه يتجاوب أطراف النظم وتماثلها •

والاهتمام بالمقول له راجع الى شيئين : التأكيد على أنه بلغ الرسالة لأبيه وقومه مرارا وتكرارا ولم يدخر وسعا في ذلك . والتنبيه على خصوصية الرسالة اذ هي لقومه ، وليست عامة كرسالة الرسول محمد ﷺ الذي أمره الله بقوله « قل يأيها الناس انما اذا لكم نذير مبين » الحج : ٤٩ . وقوله « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم » يونس : ١٠٨ ومثل هذا كثير . والأمر باتباع ملة ابراهيم هو في الحقيقة أمر باتباع الاسلام الذي هو دين محمد ﷺ ، وانما أمر باتباع ملة ابراهيم لصلته الوثيقة بالعرب وغيرهم من أهل الكتاب ، ولمكانته العظيمة عندهم ، وفي اتباعه اتباع الرسول ﷺ .

(ب) تقديم الخوف منه على الخيفة . وذلك في حوارته مع الملائكة . ففي هود « فأوجس منهم خيفة » ٧٠ . وفي الحجر « انا منكم وجلون » ٢٢ . وفي الذاريات « فأوجس منهم خيفة » ٢٨ . وفي ذلك مسارعة الى بيان سبب الخوف والوجل وأنه كان من الملائكة وليس من شيء آخر ، فهو لا يخاف من قومه ولا من أعداء دعوته ، لأنه واثق من نصر الله تعالى له . ولعل هذا يشير الى أن التقديم في قوله تعالى « فأوجس في نفسه خيفة موسى » ليس مراعاة للفواصل ، وانما هو نهج مسلوک في وصف ما يعترى الرسل من خوف ، للمسارة ببيان ما هو مهم في الحكاية .

(ج) تقديم المهروب له على الهبة . ففي الأنعام « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٨٤ . وفي مريم « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٥٠ . وفي الأنبياء « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة » ٧٢ . وفي العنكبوت « ووهبنا له اسحاق ويعقوب » ٢٧ . وليس هذا في الاخبار من الله تعالى بل انه واراد على هذا النهج في دعاء ابراهيم عليه السلام ففي الشعراء « رب هب لي حكما » ٨٢ . وفي السجدة « رب هب لي من الصالحين » ١٠٠ . وفي هذا التقديم

مسارعة الى بيان أن الهبة كانت لابراهيم عليه السلام ، حيث كان يتوق الى ذلك من زمن بعيد ، ويتشوق اليه من عهد طويل . كما أن التقديم فيما أخبر الله تعالى به فيه تلاؤم بين السؤال والجواب ، حيث تقدم الموهوب له في سؤال ابراهيم عليه لسالم ، وتقدم الموهوب له في اجابة الله تعالى لضراعته .

(د) تقديم المفعول له على المفعول . ففي مريم « وجعلنا نهم لسان صدق عايا » ٥٠ . وفي العنكبوت « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » ٢٧ . وفي دعاء ابراهيم عليه السلام « واجعل لى لسان صدق في الآخرين » الشعراء : ٨٤ . وفي هذا اهتمام ببيان كون الجعل لهم . وفيه أيضا تلاؤم بين السؤال والجواب كما أسلفنا . ويحصل في هذا قوله تعالى « انى جاعلك للناس اماما » البقرة : ١٢٤ . وان كان المفعول له قد تقدم على المفعول الثانى الذى هو مصب الجعل . وفي هذا اهتمام ببيان من جعل اماما لهم . وقدم المفعول له على ما عطف على المفعول الثانى في قوله تعالى « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » البقرة : ١٢٥ ، وفي هذا مسارعة الى بيان كون البيت مرجعا للناس يتفرقون عنه ثم يثوبون اليه ، وكون البيت مثابة للناس صفة شديدة اللصوق بالبيت لا تنفك عنه في وقت من الأوقات بخلاف الأمن ، ومن ثم فصل بالمفعول له .

(هـ) تقديم محل اجزاء على اجزاء . ففي البقرة « وانه في الآخرة لمن الصالحين » ١٣٠ ، وفي النحل : « وانه في الآخرة لمن الصالحين » ١٢٢ . وفي العنكبوت « وانه في الآخرة لمن الصالحين » ٢٧ . وفي ص « وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » ٤٧ . وفي التقديم اهتمام ببيان محل الجزاء نظرا لفخامته وعظمته ، وحاجة الناس المساسة فيه الى الثواب والجزاء الكريم . وتكرار ذلك في عدد من الحلقات بعارة واحدة لما أن أمر الآخرة أهم والحاجة الى الزجاة (٣٤ - خصائص النظم)

فيها أس فناسب ذلك تكرار الجزء فيها بعبارة واحدة مشتملة على ضروب من التأكيد بخلاف انجزاء في الدنيا فقد اختلف التعبير عنه ، وقد بينا ذلك فيما سبق •

٢ - جاءت أكثر أساليب التقديم في الحلقات من جانب الله تعالى حيث تصل الى أربعة وخمسين أسلوبا ، يلي ذلك ما حكى عن ابراهيم عليه السلام إذ تبلغ ستة وأربعين أسلوبا • وحكى عن القوم خمسة أساليب ، وعن الملائكة ثلاثة أساليب ، وعن اسماعيل عليه السلام أسلوبان • وهذا راجع الى كثرة ما صدر من جانب الله تعالى من أوامر ونواه وتوجيهات وارشادات ، وثناء على ابراهيم عليه السلام وذريته من الأنبياء ، وبيان لنعمه تعالى عليهم وعلى ابراهيم بصفة خاصة ، وذلك لكي تؤدى القصة وظيفتها ، تسلية وطمأنة وتقوية للرسول ﷺ ، وعظة وعبرة للمعتبرين ، وترغيبا وحثا للشاردين على الدخول في ضاعة الله عز وجل •

كما يرجع الى كثرة ما حكى عن ابراهيم عليه السلام من حوار مع قومه في دعوتهم الى عبادة الله تعالى ، وثناء على الله عز وجل وضرعة اليه ، في الوقت الذي لاذ فيه القوم بالصمت كبتا وافحاما •

ألوان أخرى من التقديم :

• وحدثنا السابق كان عن التقديم المبني على أسس نحوية ، وهو تقديم ما حقه التأخير ، وسنتحدث هنا عن ألوان من التقديم لا مدخل فيها بقواعد النحوية ، حيث يتساوى المقدم والمؤخر في الحكم النحوي ، فكل منهما يمكن تقديمه وتأخيره ، ولكن قدم المقدم لأسباب معنوية وأغراض بلاغية يمكن الكشف عنها من خلال التأمل في النظم ومقامات الأعلام • وقد وقفنا في تحليلنا البلاغي لحلقات القصة أمام كثير من

التعبيرات التي فيها تقديم وتأخير من هذا القبيل . مبينين ما وراء ذلك من أسرار البلاغة ولطائف البيان ، ويتضح هذا في حديثنا عن ترتيب النعم التي تروا على ابراهيم عليه السلام من اذن رب العالمين . وترتيب الذنرات التي تضرع بها ابراهيم لربه ، وترتيب الحقائق التي بلغ بها اياه وقومه ، وغير ذلك مما هو مبعوث في ثنايا التحليل البلاغي لنظم حلقات القصة .

ومن خلال استعراضنا لحلقات القصة جميعها سنعرض لبعض الأساليب التي جرى فيها هذا اللون من التقديم مصنفة حسب الأسرار واللفائف :

١ - التقديم للسبق الزمني • حيث يراعى في ترتيب الأسلوب تقديم ما هو أسبق وجودا وزمانا على غيره من ذلك قوله تعالى « ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ فقدم ما في الدنيا على ما في الآخرة للسبق الزمني ، ويكون ما في الدنيا قد تحقق ووقع ، وما في الآخرة آت في المستقبل • ولهذه الآية نظائر في النحل : ١٢٢ • والعنكبوت : ٢٧ • وص : ٤٦ ، ٤٧ • ومن ذلك قوله تعالى « الحمد لله الذي وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » ابراهيم : ٣٩ • وقوله تعالى « قالوا نعبده الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحاق » البقرة : ١٣٣ • فتقديم اسماعيل على اسحاق للسبق الزمني ، وتقديم ابراهيم عليهما لذلك أيضا بجانب ماله من مكانة عظيمة عند الله تعالى ، وكونه أساس وجودهما •

ومن ذلك قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين » وقوله « واذا مرضت فهو يشفين » وقوله « والذى يميمتى ثم يحيينى » الشعراء : ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ • فتقديم الخلق على الهداية والمرض على الشفاء والامانة على الاحياء للسبق الزمني • أما ترتيب الآيات على ما جاءت

عنه في النظم انقرآني فقد بيناه في تحليلنا البلاغي حلقة الشعراء .
ومن ذلك قوله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه
وهذا النبي والذين آمنوا » آل عمران : ٦٨ ، حيث جاء الترتيب بين
المذكورين للسبق الزمني وجودا واتباعا .

٢ - تقديم الداعية والسبب . من ذلك قوله تعالى : « فلما رأى
أيديهم لا يصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة » هود : ٧٠ . فقدم
تكرانهم على التوجس منهم خيفة لأن الأول داعية وسبب للثاني .
وقوله تعالى « انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا
سوييا » مريم : ٤ . قدمت الجملة الأولى على الثانية لأنها داعية لها
فمجيء العلم الى ابراهيم دون أبيه داعية لاتباعه والسير على نهجه .
وقد يقدم السبب المباشر على غيره كما في قوله تعالى « قالت
يا ويلنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » هود : ٧٢ . فالسبب الأول
في ذلك كونها عجوزا ، أما كون بعليها شيخا فيأتى في المرتبة الثانية ، إذ
شيخوخة الرجل لا تمنع قدرته على الأنجاب .

٣ - تقديم التخليّة على التحلية . من ذلك قوله تعالى « قال
يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات
والأرض حنيفا » الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ . حيث قدم براءته من الشرك
على التوجه لله تعالى ، لما أن التخليّة مقدمة على التحلية ، ودرء
المفاسد مقدم على جلب المصالح . ولأن الثانى لا يتأتى دون الأول . وقوله
تعالى « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي » مريم : ٤٨ .
وقوله تعالى « ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين » الحج : ٢٦ .

٤ - تقديم الحاضر على الغائب . من ذلك قوله تعالى « قالوا
نعبد الهك والله آباءك » البقرة : ١٣٣ . قدم « الهك » على ما بعده
مراعاة لحضور يعقوب عليه السلام وعدم وجود آبائه . وقوله تعالى

« انى اراك وقومك فى ضلال مبين » الأنعام : ٧٤ • تقدم مخاطبة
أديه على قومه لأن الكلام موجه له ، والقوم غائبون • وقوله تعالى
« لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » الأنبياء : ٥٤ • خاطبهم أولا
نظرا لحضورهم ، وعدم وجود الآباء • ومثل هذا قوله تعالى « أنرأيتم
ما كنتم تعبدون • أنتم وآباؤكم الأقدمون » الشعراء : ٧٥ ، ٧٦ •

٥ — التقديم للتعظيم والتشريف • من ذلك قوله تعالى « فمن
تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ابراهيم : ٣٦ • تقدم
التشريف الأول تعظيما له وتشريفا ومثله وقوله تعالى « لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » الممتحنة : ٦ •
وقوله تعالى : « وهن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع
ملة ابراهيم حنيفا » النساء : ١٢٥ • فقدم اسلام الوجه لله على اتباع
ملة ابراهيم لما له من العظمة والتشريف • وعدم تأتى الثانى دون
الأول •

٦ — تقديم العام على الخاص • ومن ذلك قوله تعالى « انه كان
صديقا نبيا » مريم : ٤١ وقوله تعالى « اعبدوا الله واتقوه » العنكبوت :
١٦ • وقوله « واعبدوه واشكروا له » العنكبوت : ١٧ فتقديم الأول على
الثانى فى كل ذلك لعمومه ودخول الثانى فيه •

٧ — تقديم ما يناسب المقام • من ذلك قوله تعالى « أولئك لهم
الآمن وهم مؤمنون » الأنعام : ٨٢ • قدم الأمن على الهداية مراعاة
للمقام لأنه مقام حديث عن الخوف والأمن ، وسؤال عن المرفيق
الذحق بالأمن • وقوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن
كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » آل عمران : ٦٧ • تقدم كونه
حنيفا مسلما على نفي أشرك مراعاة للمقام لأن الحديث فى الآية كان
مع اليهود والنصارى : فلما نفي كونه يهوديا أو نصرانيا أتبع ذلك

ببيان كونه مسلماً ثم تلا ذلك نفى كونه من المشركين تنميماً للذلام ،
 وقوله تعالى « يعذب من يشاء ويرجم من يشاء » العنكبوت : ٢١ قدم
 العذاب على الرحمة لأن المقام مقام تخويف وترهيب فالحديث مع
 المكذبين بقدره الله تعالى على البعث ، فناسب تقديم العذاب على
 الرحمة . .

٨ - تقديم ما هو محبوب الى النفس ، وما تتمناه ونتوق اليه .
 من ذلك قوله تعالى « وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » مريم :
 ٤٦ . وقوله تعالى « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه
 وعلى اسحاق » الصافات : ١١٣ . فتقديم الهبة على ما بعدها يكونها
 الأمل الذي ظل يرأوده سنين طويلة . وقوله تعالى « ليشهدوا منافع لهم
 ويذكروا اسم الله » الحج : ٢٨ . فتقديم شهود المنافع على ذكر الله
 تعالى لأن النفس جبلت على حب العاجلة ، والسعى الى ما يعود عليها .
 بالذمع الدنيوى .

٩ - تقديم ما يخص النفس على ما يخص الغير . من ذلك قوله
 تعالى « رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ابراهيم :
 ٤١ . فبدأ فى الدعاء بنفسه ثم بوالديه ثم بالمؤمنين ، وقوله تعالى
 « رب اجعلى مقيم الصلاة ومن ذريتى » ابراهيم : ٤٠ ، فدعا لنفسه
 ثم لذريته . وقوله تعالى « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » الحج :
 ٢٨ ، فأمروا بالأكل منها ثم بالأطعام . وفيه أيضا تسوية بين الغنى
 والفقير ، حيث يبدأ الغنى بالأكل مما يطعم منه الفقراء .

١٠ - تقديم الأول على القدرة . من ذلك قوله تعالى « ربنا انك
 تعلم ما نخفى وما نعلن » ابراهيم : ٣٨ . فقدم علم الخفى على علم
 العلان لأنه أدل على القدرة وأقوى فى الدلالة على شمول علم الله تعالى
 لنا فى الكون ، ومن ذلك تقديم الذم على الضم فى قوله تعالى

« اغتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ •
 وقوله تعالى « أو ينفعونكم أو يضرون » الشعراء : ٧٣ • وذلك لأن
 النفع أدل على القدرة من حيث أنه يتضمن إيجاد غير الموجوده، أما الضرر
 فيقوم على سلب الموجود وهذا أيسر وأسهل • كما أن ما يحقق النفع
 محبوب للنفس وهقدم لديها •

١١ – تقديم الأصغر على الأكبر للتدرج في الاستدلال • يمثل
 ذلك ما حكى في سورة الأنعام عن نظر ابراهيم عليه السلام في الكوكب
 ثم في القمر ثم في الشمس فتدرج من الأصغر الى الأكبر ليفهم قومه
 بالدليل الذي لا يقبل الشك • ومما يتصل بذلك ما حكى عنه في مواجهة
 الذمروذ حيث استدل أولاً بالأحياء والاماتة فلما عارض الذمروذ الدليل
 وأثار حواره الشبهة أتى بما لا يستطيع الخصم أن يثير شبهة فيه •
 « اد قال ابراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال
 ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت
 الذي كفر » البقرة : ٢٥٨ •

١٢ – تقديم الخاص بالشيء على غيره ، من ذلك قوله تعالى
 « أن طهراً بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » البقرة : ١٢٥
 فتقديم الطائفين على غيرهم في الآيتين لاختصاص انبييت الحرام
 بالطواف ، أما العكوف والقيام والركوع والسجود فأمور تؤدي في
 جميع المساجد وفي غير المساجد •

١٣ – تقديم ما يظن فعله على ما لا يمكن فعله • وذلك في قوله
 تعالى « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » العنكبوت : ٢٢
 فوهمهم في الأرض قد يتوهمون فعله ويظنون قدرتهم عليه ، أما في
 السماء فلا يتصورون فعل ذلك لأن صعودهم اليها غير مستطاع لديهم •

وتقديم نفى اعجازهم لله تعالى في الأرض وهم عليها ومتمكتون منها
يسنوجب نفى اعجازهم في السماء من باب أولى •

١٤ - تقديم ما هو أكثر مشقة وكلفة • من ذلك قوله تعالى :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِجَابًا وَاجِبًا عَلَيْهِ أَفْئِدَتُكُمُ الَّذِي تَرَى الرِّجَالَ وَلَا جُنُوحَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ وَلِلسَّلَامَةِ »
الركبان لـ في اثنينهم من مشقة زائدة • ويمكن أن يكون ذلك من تقديم
الأكثر والأغلب •

القصر :

وهو من الأساليب البارزة في قصة ابراهيم عليه السلام . حيث ورد في نحو اثنين وستين موضعا ، تفصيلها حسب طرق القصر كما يلي :

١ - القصر عن طريق تقديم ما حقه التأخير . وهو أكثر الأساليب القصرية ورودا في القصة ، حيث جاء في اثنين وثلاثين (١) موضعا على النحو التالي :

(أ) من جانب الله تعالى واحد وعشرون قصرا :

أربعة تقدم فيها المقول « كلا » على الفعل ، وذلك في قوله تعالى « كلا هدينا » الأنعام : ٨٤ ، وقوله « وكلا جعلنا نبيا » مريم : ٤٩ ، وقوله « وكلا جعلنا صالحين » الأنبياء : ٧٢ . والمقصود عندهما : اسحاق ويعقوب عليهما السلام ، وفي قوله تعالى « وكلا فضلنا على العالمين » الأنعام : ٨٦ . والمقصود عليه فيها الأنبياء المذكورون في صدر الآية من ذرية ابراهيم عليه السلام . والقصر في هذه الآيات الأربعة قصر صفة على موصوف ، فيه اهتمام بالثناء على الموصوفين بالهداية والنبوة والصلاح والتفضيل .

وأربعة تقدم فيها اسم الإشارة الواقع موقع المفعول المطلق على الفعل . وذلك في قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض » وقوله « وكذلك نجزي المحسنين » الأنعام : ٧٥ ، ٨٤ . وقوله « انا كذلك نجزي المحسنين » وقوله « كذلك نجزي المحسنين »

(١) توجد بعض أساليب لم نذكرها يمكن حمل التقديم فيها على

القصر وغيره .

الصفات : ١٠٥ ، ١١٠ والقصر في هذه الأساليب قصر موصوف على صفة وأصل التدوير في الآية الأولى : نرى ابراهيم آراءه مثل تلك الآراء ، وفي الآيات التالية : نجزي المحسنين جزاء مثل ذلك الجزاء • فاسم الإشارة مشار به الى مصدر الفعل الذي بعده • وتقديمه على الفعل لافادة القصر (٢) • وفي هذا القصر اهتمام بابرأز الصفة والتأكيد عليها • وقد ورد هذا الأسلوب كثيرا من سمورتي الأنعام والصفات في غير قصة ابراهيم عليه السلام ، فهو سبيل متبع في كل منهما •

وأربعة تقدم فيها الجار والمجرور على المفعول • وذلك في قوله تعالى « وأرادوا به كيدا » الأنبياء ، ٧٠ ، وقوله « واذا بوأنا لابراهيم مكان البيت » الحج : ٢٦ ، وقوله « وأرادوا به كيدا » وقوله « فلما بلغ معه السعي » الصفات : ٨٩ ، ١٠٢ • والقصر في هذه الأساليب الأربعة قصر صفة على موصوف • وفيه اهتمام بالموصوف والتأيد على اختصاص الفعل به •

واثنان تقدم فيهما الجار والمجرور على الخبير ، وذلك في قوله تعالى « وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ ، وقوله « ان ذلك على الله يسير » العنكبوت : ١٩ • وهما من قصر الصفة على الموصوف • وفيه تأكيد على اختصاص الصفة بالموصوف ، فعبادتهم لله لا لغيره ، والبدء وإعادة أمران يسيران على الله لا على غيره •

واثنان تقدم فيهما الجار والمجرور على الفاعل ، وذلك في قوله تعالى « فبهدهم اقتده » الأنعام : ٩٠ ، وقوله « واليه تقلبون » العنكبوت : ٢١ • والقصر فيهما من قصر الصفة على الموصوف أي اقتدهم لا بغيره ، وتقلبون الى الله تعالى لا الى سواه •

(٢) ينظر أبو السعود ٣/١٥٢ ، ١٥٨ •

وواحد تقدم فيه الجار والمجرور على الفاعل • في قوله تعالى
 « فآمن له لوط » العنكبوت : ٢٦ وهو من قصر الموصوف على الصفة •
 وواحد تقدم فيه المسند اليه على خبره الفعلي • في قوله تعالى
 « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » • آل عمران : ٦٦ وهو من قصر الصفة
 على الموصوف •

وثلاثة تقدم فيها المسند على المسند اليه الأول والثاني في قوله
 تعالى « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » البقرة : ١٣٤ ، أى ما كسبته
 الأمة مقصور عليها لا يتجاوزها إلى غيرها ، وما كسبتموه مقصور عليكم
 لا يتجاوزكم إلى غيركم وهو من قصر الموصوف على الصفة • وتقدم
 الكلام عليهما مفصلاً في التحليل البلاغي لحققة البقرة في بناء البيت
 الحرام • والثالث في قوله تعالى « أولئك لهم الأنعام » الأنعام : ٨٢
 وهو من قصر الموصوف على الصفة •

(ب) جاء القصر بطريق التقديم فيما حكى عن ابراهيم عليه
 السلام في ثمانية مواضع كالتالى :

أربعة تقدم فيها الجار والمجرور على الفعل • وذلك في قوله تعالى
 « لعلمهم اليه يرجعون » الأنبياء : ٥٨ ، وقوله « اليه ترجعون »
 العنكبوت : ١٧ ، وقوله « عليك توكلنا واليك أنبنا » المتحنة : ٤ •
 والقصر في هذه الأساليب الأربعة قصر صفة على موصوف • وفيه
 تأكيد على اختصاص الصفة بالموصوف ونفيها عن غيره •

وواحد في كل من :

تقديم الجار والمجرور على المفعول • في قوله تعالى « فابتغوا
 عند الله الرزق » العنكبوت : ١٧ • وتقديم الجار والمجرور على الخبر
 في قوله تعالى « وأنا على ذلكم من الشاهدين » الأنبياء : ٥٦ • وتقديم

المسند على المسند اليه • في قوله تعالى «واليك المصير» الممتحنة : ٤ •
والقصر في الثلاثة من قصر الموصوف على الصفة •

وواحد تقدم فيه المسند اليه على خبره الفعلى • في قوله تعالى
« والله خلقكم وما تعملون » الصافات : ٩٦ • وهو من قصر الصفة على
الموصوف • أى والله خالقكم وما تعملون لا غيره فخلقهم وخلقما يعملون
مقصور على الله تعالى دون سواه •

(ج) وورد القصر بطريق التقديم فيما حكى عن أبناء يعقوب
عليه السلام في موضع واحد في قوله تعالى « ونحن له مسلمون » •
البقرة : ١٣٣ • وقد تقدم فيه الجار والمجرور على الخبر • وهو من
قصر الصفة على الموصوف •

(د) وورد القصر بطريق التقديم فيما حكى عن القوم في
موضعين :

الأول قدم فيه انجار والمجرور على المفعول وذلك في قوله تعالى
« وجدنا آباءنا لها عابدين » الأنبياء : ٥٣ • والثاني تقدم فيه المفعول
المطلق على الفعل « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » • والقصر فيهما
من قصر الموصوف على الصفة •

٢ - القصر بطريق النفي والاستثناء • وجاء منه عشرة أساليب،
خمس من جانب الله تعالى وخمسة محكية عن إبراهيم عليه السلام •

فالتى من جانب الله تعالى في قوله جل شأنه « ومن يرغب عن ملة
إبراهيم إلا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ • وهو قصر صفة على
موصوف • أى لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم إلا من استخف نفسه
وإمتهنها ولم يبال بهلاكها ، وقد أكد القصر الحكم المستفاد من الجملة
وخصص هذه الصفة المشينة بالموصوف •

وفي قوله تعالى « وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده »
 آل عمران : ٦٥ ، وقوله تعالى « ان هو الا ذكرى للعالمين » الأنعام :
 ٩٠ ، وقوله تعالى « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة
 وعدها اياه » التوبة : ١١٤ ، وقوله تعالى « فما كان جواب قومه الا أن
 قالوا اقتلواه أو حرقوه » العنكبوت : ٢٤ ، والقصر في هذه الأساليب
 الأربعة من قصر الموصوف على الصفة .

والتي حكيت عن ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى « فلا تموتن
 الا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ ، وقوله تعالى « ولا أخاف ما
 تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا » الأنعام : ٨٠ ، اذ المعنى في الأو
 لا يكن موتكم الا على حال كونكم ثابتين على الاسلام (٣) والمعنى في
 الثانى نفى الخوف منها في وقت من الأوقات الا في وقت مشيئته تعالى
 شيئا .

وفي قوله تعالى « قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »
 الحجر : ٥٦ ، وقوله تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله
 بقاب سليم » الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ ، وقوله تعالى « وما على الرسول
 الا البلاغ المبين » العنكبوت : ١٨ ، والقصر فيهما من قصر الصفة على
 الموصوف . والمعنى في الأول نفى صفة القنوط من رحمة الله عن كل
 أحد الا عن الضالين ، وفي الثانى نفى صفة نفع المال والبنين عن كل
 أحد الا عن الذى أتى ربه بقاب سليم ، والمعنى في الثالث قصر مهمة
 الرسول ﷺ على البلاغ ، دون الهداية .

٣ - القصر عن طريق انما . وقد جاء في موضحين محكيين عن

(٢) انكشاف ١/ ٣١٣ .

(٤) ينظر أبو السعود ٣/ ١٥٤ .

ابراهيم عليه السلام ، في قوله تعالى « لنما تعبدون من دون الله آوثانا ونخلفون انكنا » وقوله تعالى « انما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا » • العذكوت : ١٧ ، ٢٥ • والقصر فيهما قصر صفة على موصوف ، حيث قصرت عبادتهم واتخاذهم على الأوثان • والائتان بالقصر عن طريق انما مشير الى أن هذا أمر ظاهر بين لا يجاهه أحد •

٤ — القصر عن طريق العطف بلكن • وقد جاء في موضع واحد من جانب الله تعالى في بيان ملة ابراهيم عليه السلام • وذلك في قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ال عمران : ٦٧ • وهو قصر موصوف على صفة ، حيث قصر ابراهيم عليه السلام على كونه حنيفا مسلما • وفي هذا القصر اهتمام بالصفة وأبراز لها ونفى ما سواها • وقد جاء القصر عن طريق العطف ببيل في بعض الأساليب حسب توجيهات معينة لبعض المفسرين ، ومن ثم أغضينا عنها •

٥ — القصر عن طريق ضمير الفصّل • وقد جاء في أربعة أسانيب واحد من جانب الله تعالى ، وثلاثة محكية عن ابراهيم عليه السلام • فانذى من جانب الله تعالى في قوله جل شأنه « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الأنعام : ٨٢ فالآيتان بالضمير « هم » مفيدة للقصر ، وهو قصر موصوف على صفة ، حيث قصروا على صفة الاهتداء دون غيرها من الصفات •

وانتى حكيت عن ابراهيم في قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين • والذى هو يطمئنى ويسقين • واذا مرضت فهو يشفين » الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ • فالضمير « هو » مفيدة للقصر في الآيات الثلاث •

والقصر فيها من قصر الموصوف على الصفة ، اذ المعنى : فهو يهديني ،
وهو يطعمني ويسقيني ، وهو يشفيني لا غيره •

٦ - القصر عن طريق التعريف • وقد جاء في أربعة مواضع من
جانب الله تعالى وذلك قوله ج شأته « فجعلناهم الأخرين » الأنبياء :
٧٠ • وقوله « فجعلناهم الأسفلين » الصافات : ٩٨ • وقد عرف
المفرد الثاني الذي أصله الخبر بلام الجنس ، والمعرف بلام الجنس
هو المقصور (٥) وعلى هذا فهو من قصر الصفة على الموصوف أي :
فجعلناهم الأخرين والأسفلين لا غيرهم •

وقوله تعالى « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والذبيرة »
وقوله « أولئك الذين هدى الله » الأنعام : ٨٩ ، ٩٠ • وفي الآيتين
عرف المسند اليه بالاشارة ، والمسند بالموصول ، وتعريفهما غيبيد
للقصر (٦) ، وهو قصر موصوف على صفة •

٧ - القصر عن طريق التعريف مع التأكيد بضمير الفصل • وقد
جاء منه تسعة أساليب : اثنان من جانب الله تعالى وذلك في قوله تعالى
« أن هذا لهم البلاء المبين » الصافات : ١٠٦ • وقوله تعالى « فان
الله هو الغنى الحميد » الممتحنة : ٦ • وبناء على ما ذكره المسند من
أن المقصور هو المعرف بلام الجنس (٧) ، يكون القصر فيهما قصر صفة
على موصوف • أي البلاء المبين هذا لا غيره ، والغنى الحميد هو الله
لا غيره •

(٥) بنظر المطول ١٧٨ •

(٦) بنظر التحرير والتنوير ٣٥٥/٧ •

(٧) بنظر المطول ١٧٨ وكلمات في القصر ٤٨ •

وثلاثة محكية عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يرغبان قواعد البيت الحرام وذلك في قوله تعالى « انك أنت السميع العليم » « انك أنت التواب الرحيم » « انك أنت العزيز الحكيم » البقرة : ١٢٧ - ١٢٩ • والقصر فيها قصر صفة على الموصوف كما سبق •

وواحد محكى عن ابراهيم عليه السلام • في قوله تعالى « وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » العنكبوت : ٢٦ • وواحد محكى عنه هو والذين معه في قوله تعالى « ربنا انك أنت العزيز الحكيم » الممتحنة : ٥ • والقصران من قبيل قصر الصفة على الموصوف •

وواحد محكى عن الملائكة في حوارهم مع سارة « كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » الذاريات : ٣٠ • وهو من قصر الصفة على الموصوف كسابقه •

وواحد محكى عن القوم في حديثهم مع بعضهم ، وذلك في قوله تعالى « فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم اذتم الظالمون » الانبياء : ٦٤ • وهو من قصر الصفة على الموصوف كما مر •

وبهذا ينتهى تفصيل أساليب القصر في قصة ابراهيم عليه السلام حسب طرق القصر مع الاشارة الى نوع كل أسلوب باعتبار الطرفين • وقد لاحظنا من هذا التتبع ما يلى :

١ - أكثر طرق القصر مجيئا في القصة هو تقديم ما حقه التأخير، حيث جاء في اثنين وثلاثين ، موضعا • يليه النفي والاستثناء وورد في عشرة مواضع ، يليه التعريف مع الضمير وورد في تسعة مواضع ، ثم يأتي التعريف وحده في أربعة مواضع والضمير وحده في أربعة مواضع وانما في موضعين والعطف بلكن في موضع واحد • وهذا راجع الى أن

طريق التقديم لا يعتمد على أدوات ففيه ايجاز ينفرد به زيادة على ما يحققه أسلوب القصر عامة من ايجاز . كما أنه يكون محققا لمعان أخرى تستفاد في بعض التراكيب ذرعية الفاصلة ، والعناية بالمقدم والتشويقا الى المؤخر ، وترابط النظم وتجاوب أطرافه عندما يكون الترتيب الطبيعي للكلام مؤديا الى الاخلال بذلك بسبب الطول في أحد مكونات الأسلوب .

٢ - جاء قصر الصفة على الموصوف أكثر من قصر الموصوف على الصفة ، حيث ورد في ستة وثلاثين موضعا ، بينما ورد قصر الموصوف على الصفة في ستة وعشرين موضعا ، وهذا راجع الى كثرة المقامات التي تقتضى الاهتمام بالموصوف ثناء عليه ، أو اخبارا عنه ، أو دما له ونحو ذلك ، حيث يأتي القصر في مثل هذه الحالات قصر صفة على موصوف فيجعل الصفة مختصة بالموصوف لا تتجاوزها الى غيره . ولا يمنع من وصفه بصفات أخرى .

٣ - أكثر أساليب القصر ورودا كان من جانب الله تعالى ، حيث جاء القصر في أربعة وثلاثين موضعا . يلي ذلك ما حكى عن ابراهيم عليه السلام فقد ورد في ثلاثة وعشرين موضعا . أما ما حكى عن القوم ففي ثلاثة مواضع ، وما حكى عن الملائكة ففي موضع واحدة . ومن ذلك ما حكى عن أبناء يعقوب عليه السلام .

ومرجع هذا الى كثرة الثناء من الله تعالى على ابراهيم ودرية ، وبيان ما اختصهم الله به من الفضل والتكريم . وكثرة الثناء من ابراهيم عليه السلام ومن معه على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، واهتمام ابراهيم بتوجيه الحقائق الى قومه مؤكدة تأكيدا قويا .

٤ - ورد أسلوب القصر كثيرا في الحقائق التي تحكى دعوته القوم الى عبادة الله تعالى ، حيث اشتملت وبجدها على اثنين وأربعين (٣٥ - خصائص النظم)

أسلوباً قصصياً ، جاء في الأنعام منها أحد عشر أسلوباً ، وفي العنكبوت عشرة أساليب ، وفي الأنبياء ثمانية ، وفي الصافات سبعة ، وفي الشعراء خمسة ، وفي مريم أسلوب واحد .

وهذا راجع الى ما فيها من بيان لفضل ابراهيم عليه السلام وذرئته من جانب الله تعالى ، وايضاح من جانب ابراهيم للحقائق الالهية أمام القوم ، وكشف لضلالهم في عبادتهم ومعبوداتهم . وهذه مقامات في حاجة الى مزيد من التقوية .

أما الحلقات الأخرى فقد جاء في البقرة ثمانية أساليب ، وفي الممتحنة خمسة وذلك لما فيهما من مزيد الثناء على الله تعالى في مقام الدعاء من ابراهيم عليه السلام واسماعيل والمؤمنين معهم . وجاء في آل عمران ثلاثة أساليب وذلك لاشتداد المواجهة فيها مع اليهود والنصارى ، فأكدت الحقائق الموجهة اليهم لكي تدمغهم وتدحض باطلهم . وجاء أسلوب واحد في التوبة في بيان السبب في استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه وهو مقام يقتضى التأكيد .

وجاء أسلوب واحد في الحجر نفي نفيه ابراهيم عليه السلام القنوط عن نفسه بطريق برهاني ، حين نهاه الملائكة عن القنوط ، بقولهم « لا تكن من القانطين » فكان رده عليهم قويا يناسب المقام . ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » ومعلوم أن النفي والاستثناء أقوى طرق القصر .

وجاء أسلوب واحد في الحج ، وأسلوب في الذاريات . والمقام في كل منهما في حاجة الى التأكيد اذ الأول يبين اختصاص الله تعالى ابراهيم بمعرفة مكان البيت في هذا الوادي المجدب المتسع الجوانب . والثاني للرد على سارة حين تعجبت من تبشيرها بالولد .

الاستفهام :

يبرز أسلوب الاستفهام على رأس انخصائص البلاغية الملحوظة في حلقات قصة ابراهيم عليه السلام . وذلك لما له من قدرة على اظهار المعنى الحقيقية كانت أو مجازية . وقد ورد الاستفهام في حلقات قصة ابراهيم عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعا . فمنه ما هو من جانب الله تعالى ، ومنه ما هو محكى عن الملائكة ، ومنه ما هو محكى عن ابراهيم عليه السلام أو زوجه ، أو أبيه ، أو قومه ، أو يعقوب عليه السلام .

(:) ورد من جانب الله تعالى عشرة استفهامات ، تتنوع في أدائها وأغراضها على ما يلي :

١ - المهمة : وجاءت في ثلاثة أساليب :

الأول في قوله تعالى لابراهيم « أولم تؤمن فإني بلى ولكن ليطمئن قلبى » البقرة : ٢٦٠ ، دخلت فيه المهمة على النفى مع توسط واو العطف بينهما . وهو استفهام تقريرى لحمل ابراهيم عليه السلام على الاقرار بما ثبت لديه واستقر عنده من الايمان واليقين، والمراد بالتقرير هنا : التقرير بما بعد النفى لا التقرير بالنفى أى آمنت .

والثانى في قوله تعالى : « أولم يروا كيف بيدى الله الخلق ثم يعيده » العنكبوت : ١٩ ، وهو استفهام لانكار عدم رؤيتهم وتقريرهم بها ، أى قد رأوا ذلك (١) .

والثالث في قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى ابراهيم وما أنزلت النوراد والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون » آل عمران : ٦٥

(١) أبو السعود ٣٤/٧ .

أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم • وهو استفهام انكاري لتوبيخهم بعدم العقل والتفكر ، وفيه شدة في التوبيخ نظرا لمواجهتهم به عن طريق الفعل المبدوء بالتاء • وقد جاء هذا في مقام ارشاد الرسول ﷺ الى ما يقوله لأهل الكتاب في محاجتهم •

٢ - هل : وقد جاءت في آية واحدة هي « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين » الذاريات : ٢٤ والاستفهام يفيد انتشويق ويثير الانتباه ، وقد استعملت فيه « هل » وهي الأداة التي يؤدي بها أغلب الأساليب التشويقية ، لأنها أعلى تنبيها ، وأقوى ايقاظا لما يأتي بعدها

٣ - من : وقد جاءت في موضعين الأول في قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من نسفه نفسه » البقرة : ١٣٠ والاستفهام يفيد الامتكار والاستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذي هو ملة ابراهيم (٢) • وفيه تعريض بالمشركين الذين رغبوا عن دين الاسلام الذي دعاهم اليه الرسول ﷺ ، فهو ملة ابراهيم عليه السلام •

والثاني في قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله » النساء : ١٢٥ والاستفهام انكاري بمعنى النفي أى لا أحد أحسن دينا • وهو مشعر بمدح من أسلم وجهه لله واتبع ملة ابراهيم حنيفا من حيث بيان أفضليته وأحسنيته على من سواه •

٤ - ما : وقد جاءت في موضعين في محاجة أهل الكتاب ، ارشادا من الله تعالى للرسول ﷺ الى ما يقوله لأهل الكتاب في محاجتهم « يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة

والانجيل الا من بعده » و « ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ وهي مسبوقه في الموضع الأول بلام الجر ، وفي الموضع الثاني بالفاء واللام ، والاستفهام للانكار والتعجيب من حماقة أهل الكتاب لخوضهم بأنباطل فيما يجهلون •

٥ - كيف : وقد جاءت في موضعين من حلقة العنكبوت ، الأول : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » ١٩ ، والمعنى : ألم يتأملوا في كيفية بدء الله الخلق ثم اعادته ، والثاني : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ٢٠ ، وفيه جاءت « كيف » وما بعدها معنقة فعل النظر ، وهو أكثر مواقع كيف في القرآن الكريم (٣) ، وفي الاستفهام تنبيه ولفت للأبصار ، وحث على الاطلاع على هذه الكيفية العجيبة •

(ب) وحكى عن الملائكة استفهام واحد في قوله تعالى « قالوا أتعجبين من أمر الله » وقد جاء بالهمزة ، وهو يفيد الانكار لتعجب زوج ابراهيم والتعجب منه . حيث قالت عند تبشيرها باسحاق « أألد وأنا

عجوز وهذا يعلى شيئا ان هذا الشئ عجيب » هود : ٧٢ ، ٧٣ •

(ج) وحكى عن ابراهيم عليه السلام أكثر الأساليب الاستفهامية في القصة ، حيث تبلغ ستة وعشرين استفهاما تتنوع في ادواتها وأغراضها على ما يلي :

١ - الهمزة : وقد جاءت مباشرة للمستفهم عنه في خمسة مواضع •
منها ثلاثة لقومه وواحد لأبيه ، وواحد للملائكة •

(٣) دراسات لاسلوب القرآن الكريم ١/٢/٤١٨ •

فأما التي اقربمه ففي قوله تعالى « أفكنا آلهة دون الله تريدون » وقوله تعالى « أتعبدون ما تضحون » الصافات : ٨٦ ، ٩٥ ، وقوله تعالى « أتتاجونني في الله وقد هدان » الأنعام : ٢٨٠ ، وهي كلها تفتيد الانكار على قومه في عبادة الأصنام ومحاجتهم له ، والتوبيخ لهم على ذلك ، والتعجب من أمرهم في فعل ما يتناقض مع العقل ، حيث اتخذوا أصناما آلهة من دون الله كذبا وبهتاناً ، وعبدوها وهم ينحتقونها بأيديهم وحاجوه في شأن الله تعالى الذي هداه وهم يعبدون عن هداه • وأما الذي لأبيه ففي قوله تعالى « أتخذ أصناما آلهة » الأنعام : ٧٤ ، وهو استفهام ينكر فيه على أبيه اتخاذه أصناما آلهة ، ويوبخه على ذلك ، ويتعجب من أمره في فعل هذا الذي يتنافى مع العقل ، فهو الذي يصنع الأصنام بيديه ، فكيف يتخذها آلهة ؟

وأما الذي للملائكة ففي قوله تعالى « أبشروني على أن مسني الكبر » الحجر : ٥٤ ، والاستفهام هنا للتعجب من تبشيره بالولد مع كونه أمراً مستبعداً في العادة مع هذه السن الكبيرة ، ويجوز أن يكون للانكار على معنى انكم تبشروني بما هو غير متصور في العادة ولا مما ينبغي أن يكون (٤) •

وجاءت الهمزة داخلة على الفاء المباشرة للمستفهم عنه في موضعين مع قومه الأول في قوله تعالى « أفنعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ ، والثاني في قوله تعالى « أفم أبتم ما كنتم تعبدون » الشعراء : ٧٥ ، والاستفهام فيهما للائكار والتوبيخ ، والفاء تشعر بترتب الانكار والتوبيخ على ما سبق من كلامهم ، وهو يحمى في طياته دليل بطلان عبادتهم للأصنام •

(٤) ينظر الكشف ٣٩٢/٢ وحاشية الشهاب ٢٩٨/٥ •

وجاءت الهمزة داخنة على الفاء انتى تعقبها « لا » النافية في مرضعين مع قومه الأرك في قوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » الأنعام : ٨٠ ، والاستفهام فيهما غيبه انكار عليهم عدم التعقل والتذكر ، وتوبيخ لهم على ذلك • وحش لهم على التعقل والتذكر والرجوع الى الحق الواضح •

وجاءت الهمزة مركبة مع « لا » النافية في موضعين : الأول مع الأضنام وذلك في قوله تعالى « فراغ انى آلهتهم فقال ألا تأكلون » الصافات : ٩١ ، والاستفهام هنا يفيد الاستهزاء والتهمك بها والتحقير لها ، حيث لا تستطيع أن تفعل ما يفعله عبادها • والثانى مع الملائكة وذلك في قوله تعالى « فقربه اليهم قال ألا تأكلون » الذاريات : ٢٧ ، وهنا يجوز أن تكون « ألا » أداة عرض ، حيث عرض على الملائكة الأكل مما قدمه لهم ، فان في ذلك تأنيسا للأكل بخلاف من قدم طعاما وام يحش عليه ، ويجوز أن تكون الهمزة للانكار وركبت مع « لا » النافية ، وكأنه ثم محذوف تقديره : فامتنعوا عن الأكل فانكر عليهم ترك الأكل فقال ألا تأكلون(٥) •

٢ - هل : وقد وردت في استفهام واحد في قوله تعالى « هل يسمعونكم اذ تدعون » الشعراء : ٧٢ ، والاستفهام لتوبيخهم وتبكيتهم بعبادة ما لا يسمع ولا يرفع ولا يضر ، وابطال لعبادته نظرا لتجرده من صفات الألوهية ، وهم يقرون بذلك ولا يقدررون على انكاره •

٣ - من : وجاء بها استفهام واحد أجاب فيه ابراهيم عليه السلام على الملائكة وذلك في قوله تعالى « قال ومن يقنط من رحمة ربه الا نذابون » الحجر : ٥٦ ، وهو استفهام انكارى يفيد نفى فتوته من

(٥) البحر المحيط ١٣٦/٨ ، وينظر الكشاف ١٨/٤ •

ورحمة الله بأبلغ وجه (٦) ، فالضالون هم الذين يقنطون من رحمة الله تعالى وهو ليس منهم ، فلا يمكن أن يصيحه قنوط .

٤ - ما : وقد جاءت في عشرة مواضع ، ثلاثة منها مع الملائكة ، وواحد مع اسماعيل عليه السلام ، وواحد مع أبيه ، وأربعة مع قومه ، وواحد مع الأصنام .

فأما التي مع الملائكة ففي قوله تعالى « قال أبشروني على أن مسى الكبر فبم تبشرون » الحجر : ٥٤ وفي قوله تعالى « قال فما خطبكم أيها المرسلون » في الحبر : ٥٧ ومثله في الذاريات : ٣١ .

والأول منها يفيد التعجب ، كأنه قال : فبأي أعجوبة تبشروني ، ويجبوز أن يكون للانكار على معنى : فبأي شيء تبشروني ، يعنى لا تبشروني في الحقيقة بشيء ، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء (٧) . والاستفهام في الموضوعين الثاني والثالث استفهام حقيقي من إبراهيم عليه السلام للملائكة عن سبب مجيئهم .

وأما الذي مع ابنه اسماعيل عليه السلام ففي قوله تعالى « فانظر ماذا ترى » الصافات : ١٠٢ ، والاستفهام مقصود به الاطلاع على رأيه في أمر ذبحه ، وليعلم موقفه من بلاء الله تعالى ، ومدى صبره على تنفيذ .

وأما الذي مع أبيه ففي قوله تعالى « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » مريم : ٤٢ ، والاستفهام يفيد التعجب من شأن أبيه في عبادته ما لا يسمع ولا يبصر ، وفيه توبيخ رقيق له كي يرجع الى نفسه ، ويدرك الخطأ الذي هو فيه .

(٦) أبو السعود ٨٢/٥ .

(٧) الكشاف ٣٩٢/٢ .

وأما التي مع قومه ففي قوله تعالى « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » الأنبياء : ٥٣ ، وقوله تعالى « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » الشعراء : ٢٧٠ وقوله تعالى « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون » وقوله تعالى : « فما ظنكم برب العالمين » الصفات : ٨٧،٨٥ ، وفي الاستفهام الأول انكار لعكوفهم على هذه التماثيل ، وتحقير لسانها ، وسخرية منها ومنهم وفي الثاني والثالث انكار لعبادتهم لها ، وتوبيخ لهم على ذلك . وفي الرابع انكار لظنهم برب العالمين ، وهو يعنى انكار ما يقتضيه الظن ، من الاشراف به ، والصد عن عبادته ، والأمن من عقابه (٨) .

٥ - كيف : وقد وردت في موضعين الأول مع الله عز وجل وذلك في قوله تعالى « رب أرني كيف تحيي الموتى » البقرة : ٢٦٠ ، وهو استفهام حقيقي ، عن حالة شيء متقرر الوجود عند ابراهيم عليه السلام ، فالسؤال عن هيئة احياء الموتى ، أما احياء الموتى نفسه فهو متقرر وثابت في اعتقاد ابراهيم عليه السلام (٩) .

وانثاني مع قومه ، وذلك في قوله تعالى « وكيف أخاف ما أشركتم » الأنعام : ٨١ ، والاستفهام لانكار وقوع الخوف منه ونفيه بالكافية ، وفي توجيه الانكار الى كينونة الخوف من المبالغة ما ليس في توجيهه الى نفسه بأن يقال : أخاف ، لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعا ، فإذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهاني (١٠) .

(٨) ينظر البيضاوي ٥٨٧ .

(٩) ينظر القرطبي ١١٠٧/٢ .

(١٠) أبو السعود ١٥٥/٣ .

٦ - أى : وقد جاء بها سؤال واحد لقومه وذلك في قوله تعالى « ذأى الفريقين أأق بالأمن ان كنتم تعلمون » الأنعام ٨١ ، والاستفهام لتقريرهم والجائهم الى الاعتراف بأن فريقه وحده هو الأحق بالأمن ، وأنهم أولى بالخوف من الله تعالى الذى له انطق والأمر أما آلهتهم فلن يخاف منها لأنها عاجزة لا تملك من أمر نفسها شيئاً . والاتيان بأى دون غيرها من الأدوات لتتمكن من سوق الكلام على سنن الانصاف ، ليلزمهم بالحجة عن طريق اقرارهم بالحقيقة الواضحة .

(د) حكى عن « سارة » زوج ابراهيم عليه السلام استفهام واحد هووجه الى الملائكة عندما بشروها باسحاق عليه السلام « قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » هود : ٧٣ ، وقد جاء الاستفهام بالهمزة ، وهو يفيد التعجب من بشارتهم لها بالولد ، واستبعاد ذلك بناء على ما جرت به العادة ، لابناء على وما تجرى به قدرة الله تعالى .

(هـ) وحكى عن أبيه استفهام واحد بالهمزة ، وموجه الى ابراهيم عليه السلام وذلك في قوله تعالى « أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم » مريم : ٤٦ ، والاستفهام انكارى تعجبى وقد وجه الانكار الى نفس الرغبة ، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلاً عن ترغيب الغير فيها (١١) .

(و) وحكى عن قومه ثلاثة استفهامات ، وقد جاءت كلها في حلقة واحدة هى حلقة الأنبياء ، واستعملت الهمزة فى اثنين منها ، و « من » فى الثالث .

فأما اللذان جاءا بالهمزة فأولهما فى قوله تعالى « قالوا اجئنا

(١١) أبو السعود ٢٦٨/٥ .

بالحق أم أنت من اللاعين» الأنبياء : ٥٥ ، وهو استنهام يفيد التعجب من وصف إبراهيم لهم ولآبائهم بالضلال الذين ، واستبعاد ذلك ، ومن ثم سأئود ان كان ما يقوله على سبيل الجد أم اللعب والمزاح •
ونانيهما في قوله تعالى « أأنت فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم »
الأنبياء : : ٦٢ ، والاستنهام لتقرير بالفاعل ، فقد أرادوا حمله على الاقرار بأنه هو الذى كسر أصنامهم • وقد فصلنا الحديث عنه في موضعه •

وانذى جاء بمن في قوله تعالى « من فعل هذا بالهتتا انه لمن الظالمين » الأنبياء : ٥٩ ، وفي الاستنهام بحث عن الفاعل ، وانكار عليه ما ذمعه . وتتسبب به ، وتحقير له وكأنهم يقولون من الذى تجرأ على الهتتا وفعل بها ما فعل •

(ز) وحكى عن يعقوب عليه السلام استنهام واحد لبنيه وقد جاء بما • وذلك في قوله تعالى : « أم كنتم شهداء » اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى « البقرة : ١٣٣ ، وفي الاستنهام اختبار لنقدار ثباتهم على الدين ، وحث لهم على التمسك بالاسلام الذى كانوا عليه حال حياته •

وبالتأمل في الاستنهامات السابقة نرى أنها باعتبار المستنهم تتوزع على النحو التالي :

- من جانب الله تعالى عشرة استنهامات •
- وحكى عن ابراهيم عليه السلام ستة وعشرون استنهاما •
- وحكى عن قومه ثلاثة استنهامات •
- وحكى استنهام واحد عن كل من أبية وزوجه ويعقوب والملائكة •

فأكثر الاستفهامات محكى عن ابراهيم عليه السلام •
وهي باعتبار الأداة تتوزع على النحو التالي :

• الهمزة : ورد بها عشرون استفهاما

• ما : ورد بها اثنا عشر استفهاما

• كيف : ورد بها أربعة استفهامات

• من : ورد بها أربعة استفهامات

• من : ورد بها استفهامان

• أى : ورد بها استفهام واحد

فأكثر الاستفهامات بالهمزة التي هي أم الباب ويكثر استعمالها في
أساليب الإنكار والتوبيخ ، يليها « ما » التي يكثر استعمالها عند ارادة
التعجيب والتحقير ، والتهمك •

وهي باعتبار حلقات القصص تتوزع على النحو التالي :

في حلقات الدعوة الى الله تعالى ستة وعشرون استفهاما • منها
ثلاثة من جانب الله وتسعة عشر من ابراهيم عليه السلام ، وثلاثة من
قومه وواحد من أبيه •

وفي حلقات نقائه بالملائكة تسعة استفهامات ، منها واحد من
جانب الله تعالى ، وستة من ابراهيم عليه السلام وواحد من زوجه
وواحد من الملائكة •

وفي حلقات البيت الحرام استفهامان واحد من جانب الله تعالى ،
وواحد من يعقوب •

وفي الحلقات التي تبين ملة ابراهيم عليه السلام ستة استفهامات
لخمس من جانب الله تعالى وواحد من ابراهيم عليه السلام •
فأكثر الحلقات التي ورد فيها أسلوب الاستفهام هي حلقات
الدعوة ، وأكثر الاستفهامات فيها من ابراهيم عليه السلام ، حيث

بلغت تسعة عشر استفهاما كما ذكرنا ، ومن هذا العدد الكبير استفهام واحد لأبنة اسماعيل عليه السلام في حلقة الصافات ، والباقي منه موجه لأبيه وقومه ، وهذه الاستفهامات الموجهة لأبيه وقومه كلها تخرج عن معناها الحقيقي الى معانى الانكار والتوبيخ والتعجيب والتهمم والسخرية ، كما فصلنا ذلك آنفا .

وهذا يدلنا على شراسة المعركة الجدلية التي كانت بين ابراهيم عليه السلام وقومه ، حيث كثرت فيها الاستفهامات الانكارية والتوبيخية والتعجبية ، نظرا لعدم جدوى دعوتهم بالحسنى ، وتمسكهم بالضلال والاصرار على العناد .

وهذه الاستفهامات الثمانية عشر التي في حلقات الدعوة منها ستة في الصافات ، وخمسة في الأنعام ، وثلاثة في الأنبياء ، وثلثان في الشعراء ، وواحد في مريم ، ولعل كثرتها في الصافات والأنعام راجعة الى أن المعركة الجدلية فيهما كانت من جانبه هو وحده ، حيث التزم قومه الصمت وأنجسوا عن مواجهته ، فكان هذا دافعا له الى أن تتوالى منه الاستفهامات الانكارية والتوبيخية ، ايضاغف من كبتهم وتبكيتهم .

أما في حلقة الأنبياء فكانت المعركة بينه وبين قومه شديدة ولكنه كان يجد ردودا من قومه ، واستفهامات منهم ، ومن ثم نرى أن له في هذه الحلقة ثلاثة استفهامات ، كما أن لقومه ثلاثة أخرى .

وحلقة الشعراء حلقة هادئة ، وفي مراحل الدعوة الأولى ، وفيها دور لقومه ، ومن ثم قلت فيها الاستفهامات . وحلقة مريم كانت بينه وبين أبيه وهي مبنية على اللطف والرقوة ومن ثم لم تكثر فيها استفهامات ابراهيم عليه السلام فجاء فيها استفهام واحد من جانبه ، وذلك لأن المقام يتناقى مع كثرة الانكار والتوبيخ ، نظرا لأنه يخاطب أباه .

الأمور :

وهو من الأساليب الواضحة في قصة ابراهيم عليه السلام ، حيث ورد في تسعة وستين موضعا • تتوزع على النحو التالي :

(أ) من جانب الله تعالى ثمانية وعشرون أمرا هي كالتالي :

١ - تسعة أوامر لابراهيم عليه السلام منها خمسة في آية احياء الموتى « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » البقرة : ٢٦٠ ، والأربعة الأولى منها أوامر حقيقية ، عليه أن يلتزم بتنفيذها ليصل الى جواب سؤاله بنفسه من خلال التجربة العملية التي يقوم بها ، فيكون ذلك أوضح له ، وأدق وأقوى في بيان قدرة الله تعالى • والأمر الخامس منها فيه حث على الثبات على العلم المطلوب ، والمداومة عليه والازدياد منه • اذ أنه ﷺ يعلم أن الله عزيز حكيم من قبل ذلك •

وهنا أمران في حلقة « الحج » « وظهر بيتي للظالمين » « وأذن في الناس بالحج » ٢٦ ، ٢٧ ، وهما أمران حقيقيان ، وفيهما تشریف لابراهيم عليه السلام حيث أمره الله تعالى بتطهير بيته • ودعوة الناس الى الحج اليه •

كما يوجد أمر في البقرة « اذ قال له ربه أسلم » ١٣١ ، وأمر في العنكبوت « قل سيروا في الأرض » ٢٠ ، والأمر الأول فيه تصوير لهذا الفعل العظيم ، وبيان لسرعة تحققه وكأن اسلام ابراهيم عليه السلام قد تحقق على وجه السرعة فما هو إلا أمر من الله أعقبه جواب من ابراهيم « قال أسلمت لرب العالمين » • والثاني أمره الله فيه أن يأمر قومه بالسير في الأرض والنذر في بدء الخلق واعادته • وانما أمره أن

يأمر قومه بذلك لأنه هو المباشر لدعوتهم ، وحديثه اليهم يكون مواجهة ومشفهة ، وهذا أدعى الى الامتثال •

٢ — أمر واحد لابراهيم واسماعيل معا عليهما السلام وذلك في قوله تعالى « أن طهرا بيتي » البقرة : ١٢٥ ، وقد أمرا معا بذلك لما أسهما كانا مشتركين في رفع قواعد البيت ، ومن ثم أمرا بتطهيره ، وتوجيه الأمر بذلك الى ابراهيم وحده في سورة الحجر لما أن الكلام ماض على أن الله تعالى بوأ له مكان البيت وأمره بتطهيره ، ولم يرد في هذا المقام ذكر لاسماعيل عليه السلام •

٣ — ثمانية أوامر للرسول ﷺ • منها أربعة يأمره الله تعالى فيها بذكر قصة ابراهيم والاحبار بها « واذكر في الكتاب ابراهيم » مريم : ٤١ ، « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب » ص : ٤٥ ، « وانزل عليهم نبأ ابراهيم » الشعراء : ٦٩ ، « ونبئهم عن ضيف ابراهيم » الحجر : ٥١ ، وفي ذلك دلالة على أهمية هذه القصة ، والعناية بتعريف العرب بحقائقها ، فابراهيم جددهم الأعلى وينتسبون اليه ، ويدعون أنهم على نهجه : ففي ذكر حقائقها لهم كشف افسالهم ، ودلالة على خروجهم عن ملة جددهم ، وهذا يبعثهم على سلوك الطريق المستقيم ، واتباع الرسول ﷺ •

ومنها أمران بـ « قل » هما « قل صدق الله » آل عمران : ٩٥ ، « قل لا أسألكم عليه أجرا » الأنعام : ٩٠ وأمره ﷺ بأن يقول ذلك ، لما أنه مباشر بالخطاب للناس ، فتأثرهم بقوله أكبر ، وامتثاله لهم أرجى •

والأمران الأخيران في حثه ﷺ على الاقتداء بابراهيم عليه السلام والأتبياء من ذريته وهما « فبهذا هم اقتنوه » الأنعام : ٢٩٠ و « اتبع

ملة ابراهيم حنيفا « النحل : ١٢٣ ، وهذا يدل على وحدة أصول الدين الذي ارتضاه الله للبشر ، وبلغهم به رسله عليهم السلام .

٤ - تسعة أوامر للناس منها خمسة في الحج « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بببيت العتيق » : ٢٨ ، ٢٩ ، والأمر الأول « فكلوا » لئلا يحاحه ، وازاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التخرج فيه ، والأمر الثاني « وأطعموا » لنوجوبه (١) . وأمرهم بالأكل والاطعام فيه اشعار بمواساة الفقراء باطعامهم ، ومساواتهم بالأكل منها . والأوامر الثلاثة التالية وردت بصيغة المضارع المقرون بلام الأمر : لأنها أوامر عامة للحجيج غنيهم وفقيرهم ، من قدم منهم هديا ومن لم يقدم ، وبصيغة المضارع أكمل في أداء هذا الغرض .

ومنها عمران في الحث على الصلاة في مقام ابراهيم واتباع ملته « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » البقرة : ١٢٥ « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » آل عمران : ٩٥ ، وفيهما تكريم لابراهيم عليه السلام وتشريف له ، وبيان لعلوا منزلته عند رب العالمين .

والأمران الأخيران في الحث على السير في الأرض والنظر في آيات الله تعالى التي تبين قدرته على بدء الخلق واعادته « سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » العنكبوت : ٢٠ ، وهما موجهان الى قوم ابراهيم أو الى قوم النبي ﷺ على خلاف بين المفسرين ، وعلى كل فهما صالحان لكل زمان ومكان ، والناس كافة مأثورون بهما .

(١) أبو السعود ١٠٤/٦ .

٥ - والأمر الثامن والعشرون من أوامر الله تعالى في القصة موجه الى التار « كوني بردا وسلاما على ابراهيم » الأنبياء : ٦٩ ، والأمر هنا يفيد التسخير ، حيث سخرها الله تعالى لأن تتبدل من حال الى حال ، وليس لها في ذلك اختيار .

(ب) حكى عن ابراهيم عليه السلام احدى وثلاثين أمرا تتوزع كالآتى :

١ - الدعاء والتضرع . وجاء ذلك في اثنين وعشرين موضعا .
سبعة بلفظ الجعل ، ففي البقرة « اجعل هذا بلدا آمنا » « واجعلنا مسلمين لك » : ١٢٦ ، ١٢٨ ، وفي ابراهيم « اجعل هذا البلدا آمنا » « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » « اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى » : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، وفي الشعراء « واجعل لى اسان صدق فى الآخريين » « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » : ٨٤ ، ٨٥ .
والنعم التى سألها ابراهيم فى هذه الآيات يظهر فيها معنى التحويل من حال الى حال والتصيير من شىء الى شىء ، ومن ثم ناسبها لفظ الجعل لما يشعر به من تحويل وتصيير .

وثلاثة بلفظ المغفرة « اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ابراهيم : ٤١ ، « واغفر لأبى انه كان من الصالين » الشعراء : ٨٦ ، « واغفر لنا ربنا » الممتحنة : ٥ ، وأكمل لفظ فى الدلالة على طلب عفو الله يوم القيامة هو المغفرة ومن ثم كان هذا اللفظ ناسب شىء بالنعم المطلوبة فى الآيات .

واثنان بلفظ الهبة « رب هب لى حكما » الشعراء : ٨٣ ، « رب هب لى من الصالحين » الصافات : ١٠٠ ، والحكم : كمال العلم والعمل أو الحكمة أو النبوة ، وهذا مما يظهر فيه عطاء الله الخالص ، وتوفيقه (٣٦ - خصائص النظام)

الخص ، وبنعمة الأولاد بعدد الكبر أيضا يبرز فيها جانب العطاء دون
توقف على سبب عادي ، ومن ثم كان لفظ الهبة مناسباً لهاتين
الأنعمتين •

واثنان بلفظ الرزق « وازرق أهله من الثمرات » البقرة : ١٢٦ ،
« وازرقهم من الثمرات » ابراهيم : ٣٧ ، وطلب ما يختص بالطعام
وانفكه ونحو ذلك يناسبه لفظ الرزق حيث يدل على عطاء نوفت، ثم حمل
عليه غير الموقوت (٢) • فكان هو الأنسب بما في الآيتين السابقتين •
ي واثنان بلفظ الرؤية « وأرنا مناسكنا » البقرة : ١٢٨ ، « أرني كيف
تجيب الموتى » البقرة : ٢٦٠ ، والطلب هنا طلب تعليم ومعرفة ، ولفظ
الرؤية أبلغ في الدلالة على ذلك ، لأنه طلب علم قائم على الرؤية
والمشاهدة ، وهي أقوى وسائل العلم والمعرفة •

واثنان بلفظ التقبل « ربنا تقبل منا » البقرة : ١٢٧ ، « ربنا
وتقبل دعاء » ابراهيم : ٤٠ ، والتقبل يشعر بما لا يشعر به غيره
من الاستجابة ونحوه ، حيث يشير الى أن الدعاء عمل جليل مقدم من
العبد الى ربه ، وهو يرجو منه أن يقبله •

وواحد بلفظ التوبة «وتب علينا » البقرة : ١٢٨ ، وواحد بلفظ
التبعت « ربنا وابعث فيهم رسولا » البقرة : ١٢٩ ، وواحد بلفظ الالتحاق
« وألحقني بالصالحين » الشعراء : ٨٣ ، ولفظ التوبة تسع دلالاته
لنفسه رجوع العبد الى ربه ، ومغفرة الله له ، وليس مقصورا على
جانب منهما ، وهذا أعظم ما يدعو به المؤمن لنفسه وذريته ، فما أجدر
خليل الله بأن يدعو ربه به ، ولفظ البعث أدل من الارساق لما فيه من
اشعار بالسرعة والاثارة ، وكأن الرسول ﷺ أثار الناس وأسرع بهم

(٢) ينظر مقاييس اللغة مادة : رزق •

التي طريق النجاة • ولفظ الاحقاق فيه دلالة على السرعة في ادراك
التغير ، فهو يدعو الله تعالى أن يلحقه بالصالحين ليدركهم ويكون معهم •
فالألفاظ الثلاثة معبرة في موضعها خير تعبير •

والتدعاء الأخير في هذه المجموعة « واجنبني وبنى أن نعبد
الأصنام » ابراهيم : ٣٥ ، وفيه يطلب من ربه أن يبعده وينحيه عن
عبادة الأصنام هو وبنيه ، ولفظ « اجنبني » أقوى في الدالة على الابعاد
والتنحية •

٢ - ارشاد قومه • وذلك في سنة أوامر • خمسة منها في حلقة
العنكبوت في قوله تعالى « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه »
وقوله تعالى « غابغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له » :
١٦ ، ١٧ ، وفيها حث على عبادة الله تعالى وتقواه ، وابتغاء الرزق عنده ،
وشكره • وتكرر أمره بالعبادة لأنها الأصل في ذلك وتجه مع التقوى
والشكر ، وهي من أقوى أسباب استجلاب الرزق •

وواحد في حاقة الأنبياء « فاسألوهم ان كانوا ينطقون » : ٦٣ ،
والأمر هنا للتهكم بهم وبأصنامهم ، والسخرية منهم ، حيث يعلم
ويعلمون أنها لا تنطق ومن ثم لا يصح سؤالها •

٣ - ارشاد أبيه • وذلك بأمر واحد في قوله تعالى : « هاتبعني
اعدك سراطا سويًا » مريم : ٤٣ ، وفيه يحث أباه على اتباعه ليهديه
اصراط السوي ، وبعد أن مهد لذلك بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأتته ،
ومن الوجب على الجاهل أن يتبع العالم •

٤ - تحدى النهروذ ، وذلك في قوله تعالى « ان الله يأتي بالشمس
من المشرق فأت بها من المغرب » البقرة : ٢٥٨ ، والأمر هنا يراد به
التحدى والتعجيز ، لأن ابراهيم عليه السلام يعلم أنه لن يستطيع

فعل ذلك مهما أوتى من قوة ، وكذلك لا يدور بخلد هذا الطاغية أنه يقدر على فعل المطلوب •

٥ — اختبار اسماعيل • وذلك في قوله تعالى « فانهذر ماذا ترى » الصافات : ١٠٢ ، وفي أمره بالنظر اشعار بوجوب التأمل والتفكير في الجواب ، لأنه يتعلق بأمر جلال وبلاء مبين •
(ج) أوامر موجهة الى ابراهيم عليه السلام من غير انه تعالى •
وهي ثلاثة :

١ — أمر من الملائكة في قوله تعالى « يا ابراهيم أعرض عن هذا » هود : ٧٦ ، وفيه تظهر الشدة في طلب ترك المجادلة في شأن قوم لوط ، نظرا لمجيء أمر الله تعالى باهلاكهم بالعذاب الشديد •

٢ — أمر من اسماعيل عليه السلام وذلك في قوله تعالى « ياأبتـه افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ ، وفيه تظهر استجابة اسماعيل لما عرضه عليه أبوه ، وهي استجابة قوتها صيغة الأمر « افعل » وأدبتها ، وإم تدع مجالا للتردد في الفعل من جانب الأب الرحيم الحليم • ، والتعبير بإفعل دون اذبحنى لما في لفظ اذبحنى من أثر نفسى ثقيل على الأب والابن معا ، ولتعميم الاستجابة في كل فعل يؤمر به ، فالإبن يعلن استجابته لكل فعل من جانب أبيه ذبحا أو غير ذلك •

٣ — أمر من أبيه وذلك في قوله تعالى « واهجرنى مليا » مريم : ٤٦ وهو أمر فيه غلظة وشدة وقسوة بمادته وصيغته إضافة الى ما تقدمه من توعده وتهديد بالرجم ، وما تبعه من تقييده بأثوقيت الطويل غير المحدد •

(د) أوامر من بعض القوم لبعضهم • وهي سبعة أوامر تدور كلها حول الاتيان بابراهيم عليه السلام للتحقيق معه ، والقضاء عليه

بالحرق ومن ثم وردت في ثلاث حلقات عرضت لهذا المشهد ، ففي الأنبياء « فأتوا به على أعين الناس » « حرقوه وانصروا آلهمكم » : ٦١ ، ٦٨ ، وفي العنكبوت « اقتلوه أو حرقوه » : ٢٤ وفي الصافات « ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » : ٩٧ وأوامر القوم في الأنبياء والصافات صارمة وقاطعة في تنفيذ المطلوب • وفي العنكبوت يظهر معنى الوجوب والتخيير معا ، فالوجوب في حتمية الانتقام منه والتخيير في طريقة الانتقام ، قتلا أو تحريقا وهذا يشعر بأن الانتقام منه سهل وميسر ولا يصعب عليهم تنفيذ ما يختارون اذ لا يقف لنصرته أحد • وعلى الرغم من كثرة صيغة الأمر في قصة ابراهيم عليه السلام، الا أننا نراها قليلة جدا من قبل ابراهيم عليه السلام في حلقات الدعوة الى الله تعالى سوى حلقة العنكبوت ، اذ جاء أمر في مريم لأبيه ، وأمر في الأنبياء لقومه على سبيل التهمك ، وأمر للنمرود في البقرة وهو على سبيل التحدي والاعجاز •

وهذه القلة راجعة الى أن هذه الحلقات تقوم على الحوار والاتناع بالحجة ، وصيغة الأمر قد تؤدي الى الثورة ونفور النفس ومن ثم لم ترد في هذه الحلقات • وحلقة العنكبوت هي الحلقة الوحيدة التي كثرت فيها صيغة الأمر من قبل ابراهيم عليه السلام لقومه • وهي حلقة كما ذكرنا قبل ذلك لا تعتمد على الحوار ، وانما تعتمد على سوق قضايا خبرية ، بجانب توجيحات انشائية ، وليس الحوار فيها نصيب • كما نلاحظ أن القصة كاملة لم يأت فيها أمر من اقوم لابراهيم عليه السلام ، وهذا مشير الى أنهم لم يستطيعوا أمره بشيء لعدم سيطرتهم عليه ، وقيامهم من عدم استجابته لهم ، ومن ثم اكتفوا بالمحاورات القليلة معه •

الذهي :

تقل صيغة النهي في حلقات قصة ابراهيم عليه السلام ، فبجانب

تسعة وستين أمراً نجد ثمانية نواه تتوزع على النحو التالي :

٢ - الدعاء والضرع من قبل إبراهيم عليه السلام . وذلك في موضعين ، في قوله تعالى « ولا تخزنى يوم يبعثون » الشعراء : ٨٧ ، وقوله تعالى « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » الممتحنة : ٥ ، والدعاء الأول مسبوق بدعاء وارد بصيغة الأمر ، والدعاء الثانى يعقبه دعاء وارد بصيغة الأمر وبهذا يتلون أسلوب الدعاء .

٣ - من جانب الملائكة . وذلك في ثلاثة مواضع في قوله تعالى « لا توجل انا نبشرك بغلام عليم » الحجر : ٥٣ ، ، وقوله تعالى « فلا تكن من القانطين » الحجر : ٥٥ ، وقوله تعالى « قالوا لا تخف وبشره بغلام عليم » الذاريات : ٢٨ ، وقد جاء النهى الأول والثالث رداً على وجل اعتراه وخوف تلبس به عندما وجد ضيوفه في هيئة غريبة ولا يمدون أيديهم الى الطعام . وجاء الثانى رداً على تعجبه واستعباده للبشرى بالولد بناء على ما جرت به العادة من استبعاد ذلك في مثل حاه وسنه .

٤ - من إبراهيم عليه السلام لبيته في قوله تعالى « فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ ، وفيه نهى مؤكد لهم عن مفارقة الاسلام في جميع أوقات حالهم ، وحث على أن يحرصوا على الاسلام حتى يلقوا ربهم عليه . وقد فصلنا الحديث عنه في موضعه من الحلقات .

٥ - من إبراهيم عليه السلام لأبيه في قوله تعالى « لا تعبدن الشيطان » مريم : ٤٤ .

ومما سبق نرى أن صيغة النهى على قلبها وقعت في الدعاء . وفي حديثه مع الملائكة ، ومع بنيه وأبيه ، ونم تقع في حواره مع قومه لابطال عبادة الأصنام والكهنة ، وندعوتهم الى عبادة الواحد القهار ، لأن الحوار والحجة العقلية يغنيان عن أسلوب النهى .

النداء :

والنداء أسلوب واضح في القصة ، خصوصا في الحلقات التي فيها دعاء . وقد جاء هذا الأسلوب في خمسة وثلاثين موضعا على النحو التالي :

(أ) نداءات ابراهيم عليه السلام وهي تستولى على معظم نداءات القصة حيث تبلغ سبعة وعشرين نداء نأتى على هذا النحو :

١ - نداء ابراهيم ربه عز وجل . وقد وقع في ثمانية عشر موضعا . كلها في مقام الدعاء ، وأكثرها في حلقتى ابراهيم والبقرة المتصلتين باببيت الحرام حيث ورد فيهما في اثني عشر موضعا ، منها في حلقة ابراهيم ثمانية مواضع (١) ، لأنها بذيت على الدعاء والثناء من أولها . لآخرها . وفي حلقة البقرة أربعة مواضع (٢) نظرا لورود الدعاء في ثنايا التكليف التي أمر بها ابراهيم عليه السلام وما يتصل بها .

ويليهما في الكثرة حلقة الممتحنة ، وقد ورد فيها ثلاث مرات في قوله تعالى « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم » : ٤ ، ٥ ، وهو مقام دعاء وتضرع الى الله تعالى ، وعبر فيه بضمير المتكلمين ، لأن الدعاء محكى عن ابراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه .

ووقع النداء مرة واحدة في حلقة احياء الموتى « رب أرني كيف تحيي الموتى » البقرة : ٢٦٠ ، ولم يرد نداء من ابراهيم لربه عز وجل في حلقات الدعوة الا في موضعين : الأول في الشعراء « رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين » : ٨٣ ، والثانى في الصافات « رب هب لى

(١) ابراهيم الآيات ٣٦ - ٤١ .

(٢) البقرة الآيات ١٢٦ - ١٢٩ .

من الصالحين » : ١٠٠ وهما أيضا في مقام الدعاء بعد الانتهاء من حكاية لدعوته القوم الى عبادة الله تعالى •

وكل النداءات السابقة جاءت بلفظ « رب » أو « رينا » حسب المقامات الواردة فيها ، لما في ذلك من استجلاب للاجابة بما يقتضيه لفظ من دلالة على أن المدعو عز وجل هو مربيه ، ومتولى أمره ، ورحيم به ، ولن يرد دعاءه ، أو يرجعه صفر اليدين • وقد حذف حرف النداء منها للاشعار بقرب ابراهيم عليه السلام من ربه عز وجل ، وهذا ادعى لاستجابة الدعاء •

٢ - نداء ابراهيم الملائكة ، ووقع في موضعين بصيغة واحدة في الحجر والذاريات « فما خطبكم أيها المرسلون » (٣) وفي حذف حرف النداء اشعار بقربه منهم ، واستعمال هذه الصيغة في نداءهم لما فيها من تنبيه ودلالة على المشافهة عن طريق « ها » ، وتشويق وتأكيد عن طريق الايضاح بعد الابهام في « أي » وصفتها •

٣ - نداء ابراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل وهو نداء واحد في حلقة الصافات « يا بني انى أرى في المنام أنى أذبحك » : ١٠٢ ، ونداءه بأداة البعيدة لشدة تنبيهه لهذا الأمر الجلل ، مع ما في ذلك من اشعار بعلو منزلته عنده ، ورشح ذلك بنى الدالة على الرقة والملاطفة ، وشدة الحذب عليه والعناية به •

يضاف الى ذلك نداؤه أبناءه في وصيته لهم « يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ ، وفيه من الأسرار البلاغية ما أشرنا اليه في نداء اسماعيل عليه السلام •

٤ - نداؤه أباه ، وقد ورد في أربعة مواضع في سورة مريم بلفظ

« يا أبت » (٢) وهى حلقة خاصة بدعوة أبيه ، وماضية على سنن التلطف وحسن الأدب من ابراهيم عليه السلام ، ومن ثم ناداه بهذا اللفظ الرقيق الذى هو عنوان أقوى الروابط بينهما ، واستعمل أداة البعيد اشعارا بعلو منزلته ، وعناية بتنبئيه •

٥ - نداؤه قومه • وقد جاء مرة واحدة فى سورة الأنعام « يا قوم انى برىء مما تشركون » : ٧٨ وهو مشعر برفع الصوت بالنداء لينبئهم بشدة ، ويعلن لهم بلا مواربة تبرأه منهم ومن شركهم • وقلة نداؤه لقومه مشيرة الى عدم اعتداده بهم وبما بينه وبينهم من صلة القومية، نظرا لتماديتهم فى الضلال ، واصرارهم على الكفر •

(ب) نداءات الله تعالى • وقد جاءت فى ثلاثة مواضع: الأولى فى سورة آل عمران « يا أهل الكتاب لم تصاجون فى ابراهيم » : ٦٥ ، وهى ارشاد من الله تعالى لنبيه وتعليم له بالحجة التى يوجه بها أهل الكتاب ، ونداؤهم بأداة البعيد فيه اشارة الى بعدهم عن الصواب ، وشرودهم عن الحق ، ومن ثم يهتف بهم الحق ، عز وجل ليرجعوا الى الطريق السوى ، وفى وصفهم بأهل الكتاب تذكيرا لهم بما نزل عليهم من الوحي الذى يجب عليهم اتباعه ، وتوبيخ لهم بمخالفة ما جاء فيه ، وتشنيع عليهم بذلك •

والثانى فى سورة الأنبياء « قلنا يانار كؤنى بردا وسلاما عنى ابراهيم » : ٦٩ ، وهو نداء للنار كى تتنبه للأمر الوارد عليها من القادر الحكيم ، وتستجيب على الفور له ، وقد نزلت فيه النار منزلة العقلاء فهزودت نداء عاليا ثم أمرت أمرا حازما بكونى فكاست على سبيل التسخير •

والثالث في سورة الصافات « وناديناها أن يا ابراهيم قد صدقت
الرؤيا » : ١٠٤ ، ١٠٥ وهو نداء من قبل الله تعالى لابراهيم عليه السلام
باسمه تشريفا له وتكريما ، واستعمال أداة البعيد مشعر بعلو منزلته ،
ومشير الى بعده وشروده بما كان يعانيه من آلام البلاء المبين •

(ج) نداء الملائكة ، وقد جاء في موضعين الأول في سورة هود
في قوله تعالى « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » : ٧٣ وهو نداء
لابراهيم وزوجه ، وفائدته تخصيص أهل البيت بالرحمة والبركات ،
وفي حذف حرف النداء اشعار بالقرب الشديد ، وقوة الصلة ، وعظيم
التقدير ، ورشح ذلك عن طريق الكناية عنهما بأهل البيت •

والثاني في نفس السورة « يا ابراهيم أعرض عن هذا » : ٧٦
وهو نداء من الملائكة لابراهيم عليه السلام لحثه على ترك المجادلة في
سأن تقوم لوط ، ومن ثم نودى بأداة البعيد مع قربه الشديد منهم
لقوة تنبيهه ، وشدة ايقاظه الى الأمر الذي سيوجه اليه ، نظرا لما
يوحى به جداله عنهم من انشغاله بأمرهم ، وانصرافه الى المطالبة
بنجاتهم •

(د) نداء اسماعيل • وورد في موضع واحد في قوله تعالى « قال
يا أبت افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ ، فنادى أباه في أشد ساعات
المحنة بهذا النداء الرقيق اللطيف ، المعبر عن صبره وحلمه وطاعته لأمر
ربه دون انفعال أو غضب ، وفي استعمال أداة البعيد مع قربهما الشديد
مشعر بتعظيمه لأبيه ، ومشير الى انشغال الأب بالمحنة الشديدة التي
يمر بها ، حيث نبهه بأقوى الأدوات تنبيهها •

(هـ) نداء الأب • وجاء في موضع واحد في قوله تعالى : « أرأيت
أنت عن آلتى يا ابراهيم » مريم : ٤٦ وهو نداء شديد اللهجة جاء عقيم
أربعة نداءات لطيفة رقيقة من ابراهيم عليه السلام ، وفي هذا اشعار

بمدي النسوة والغلظة التي كان عليها الأب : وإشارة الى أن اصغائه الى الموعظة أعقبه انفجار شديد ، وكان الصمت الطويل مولد الانفجار .
 (و) نداء سارة زوج ابراهيم عليه السلام وهو في قوله تعالى « قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » هود : ٧٢ ، وأصل الويلى الخزى ثم شاع في كل أمر فظيع ، وخف هذا القول على أفواه النساء اذا طرأ عليهن ما يدعو اليه الدهشة والتعجب ، ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك ، والمقصود بالنداء هنا التعبير عن فرط التعجب والاندھاش (٥) . وأداة البعيد مشعرة بعلو الصوت وشدة الصياح كما جاء في قوله تعالى « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » الذاريات : ٢٩ .

الفصل والوصل :

ويأتيان على رأس الخصائص البلاغية في القصة ، وقد أشرنا الى كثير من أسرارهما في ثنايا تحليلاتنا البلاغية لحلقات القصة .
وسننظر اليهما في هذا الموضع نظرة شاملة تعطى تصورا عاما عن كل منهما في القصة .

وقع الفصل بين الجمل في نحو مائة وخمسة وثمانين موضعا ،
بينما جاء الوصل في نحو مائة وسبعة وأربعين موضعا ، نشير اليها
بإيجاز فيما يلي (١) :

في حلقة البقرة التي تدور حول بناء البيت الحرام ورد الفصل
في تسعة عشر موضعا في الآيات :

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٤ . بينما ورد الوصل في ثلاثة وعشرين موضعا في الآيات : ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

وفي حاقة البقرة التي تحدى فيها النمرود وتحديها الآية ٢٥٨ ،
وقع الفصل في خمسة مواضع بينما وقع الوصل في موضع واحد . وفي
آية السؤال عن كيفية احياء الموتى ٢٦٠ جاء الفصل في ثلاثة مواضع ،
وجاء الوصل في موضعين .

وفي آ ن عمران جاء الفصل في خمسة مواضع في الآيات : ٦٥ ، ٦٦ ،
٦٧ ، ٦٨ . كلما جاء الوصل في خمسة مواضع في الآيات : ٦٦ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٩٥ .

(١) أشرنا الى الآيات ولم نشر الى الجمل ، ليقينا بان النساظر في
عنه الخصائص لا يغيب عنه معرفتها بعد الرجوع الى الآيات فهو غالبا
من المتخصصين .

وفي آية النساء ١٢٥ وقع الموصل في موضعين « ومن أحسن ديننا »
« واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ولم يقع فصل فيها •

وفي الأنعام ورد الفصل في ثلاثة وعشرين موضعاً في الآيات : ٧٤ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ • بينما ورد
الواصل في ثمانية عشر موضعاً في الآيات : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ •

وفي آية التوبة ١١٤ فصل قوله تعالى « ان إبراهيم لأواه حليم »
ووصل قوله « وما كان استغفار إبراهيم » •

وفي هود وقع الفصل في اثني عشر موضعاً في الآيات : ٦٩ ، ٧٠ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ • ووقع الوصل في أربعة مواضع في الآيات : ٦٩ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ •

وفي إبراهيم ورد الفصل في عشرة مواضع في الآيات : ٣٦ ، ٣٧ ،
٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ • بينما جاء الوصل في خمسة مواضع في الآيات :
٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ •

وفي الحجر ، وقع الفصل في أحد عشر موضعاً في الآيات : ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ •

وجاء الوصل في موضع واحد « وثبتهم عن ضيف إبراهيم » ٥١
وفي النحل أتى الفصل في أربعة مواضع في آيتي : ١٢٠ ، ١٢١
وأتى الوصل في أربعة مواضع في الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ •

وفي مريم ورد الفصل في أحد عشر موضعاً في الآيات : ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ •

بينما ورد الوصل في تسعة مواضع في الآيات : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ •

٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ • وأتى الوصل في موضعين في آيتي : ٢٨ ، ٢٩ •

وفي المتنفة جاء الفصل في ثمانية مواضع في الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ • وجاء الوصل في ستة مواضع في الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ • ومن تأملنا في مواضع الفصل والوصل التي أشرنا إليها نلاحظ ما يلي :

١ - أكثر مواضع الفصل بين الجمل سببه الاستئناف البياني الذي هو شبه كمال الاتصال ، حيث جاء في نحو مائة موضع ، وهذا راجع الى شيئين : أولهما : كثرة الجمل التعليلية والتذييلية في مقاطع الآيات ، وهذه الجمل غالبا ما تكون جوابا عن أسئلة تثيرها الجمل السابقة عليها •

وثانيهما : شيوع أسلوب الحكاية الذي يروى ما دار بين الأطراف من حوار ، والفصل بين الأقوال والردود عليها في هذا الأسلوب مؤسس على الاستئناف البياني • وقد نبه الشيخ عبد القاهر على ذلك فذكر أن انذى نراه في التثنية من لفظ « قال » مفصولا غير معطوف جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال كما جرت به العادة في الكلام بين الناس (٢) •

ومن ثم نرى وقوع الفصل للاستئناف كثيرا في الحلقات التي تعتمد أسلوب حكاية الحوار فمن ذلك ما نراه في حلقة البقره في أول آية منها « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك نندس اماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الطالبين » حيث فصل بين قال وما قبلها في المواضع الثلاثة لأنها جاءت جوابا عن سؤال مقدر •

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٤٠ وما بعدها •

وما نراه في السؤال عن كيفية احياء الموتى « واذ قال ابراهيم رب
أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليظمنن قلبي قال
فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ٥٥٥ » البقرة : ٢٦٥ •

وما نراه في حلقات الأنبياء والصفات وغيرهما من مواطن يكثر
فيها الحوار بين ابراهيم عليه السلام وقومه •

كما نراه جليا في الحلقات التي تحكى حديثه مع الملائكة في هود
والحجر والعنكبوت والذاريات • حيث بنيت في غالبها على حكاية
الحوار الذي دار بين الطرفين • بل ان حلقة « الحجر » قد قامت كلها
على هذا الأسلوب ، ومن ثم جاءت جملها مفصولة للاستئناف البياني •

ولقد ضرب الشيخ عبد القاهر بعض آيات حلقة الذاريات مثلا
على الفصل بين حكاية الأقوال للاستئناف البياني ، وكلامه في ذلك
دما ينبغي ذكره ، قال : واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ « قال »
مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه (٣) ، والله أعلم • أعنى
مثل قوله تعالى « هل أتاك حديث ابراهيم المكرمين • إذ دخلوا
عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ النبي أهله نجاء
بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة قائلوا
لا تخف » - الذاريات : ٢٤ ، ٢٨ ، جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين
من السؤال ، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين اذا قيل
نهم : دخل قوم على فلان فقالوا كذا ، أن يقولوا : فما قال هو ؟
ويقول المجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج ، لأن الناس
خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه •
وكذلك قوله « قال ألا تأكلون » وذلك أن قوله « فجاء بعجل سمين فقربه

(٣) يقصد كونه جوابا عن سؤال مقار ، كما سبق في كلامه •

« اليهم » يقتضى أن يتبع هذا الفعل بقول ، فكأنه قيل والله أعلم : فما
قال حين وضع الطعام بين أيديهم ؟ فأنتى قوله « قال ألا تأكلون »
جوابا عن ذلك •

وكذا « قالوا لا تخف » لأن قوله « فأوجس منهم خيفة » يقتضى
أن يكون من الملائكة كلام في تأنيبه وتسكينه مما خاسره ، غذأه قيل :
فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة ؟ فقيل « قالوا لا تخف »
ومما هو في غاية الوضوح قوله تعالى « قال فما خطبم أيها
المرسلون • قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » — الحجر : ٥٧ ، ٥٨ ،
الذاريات : ٣١ ، ٣٢ — وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى
الجواب ، وعلى أن نزل السامعون كأنهم قالوا : فما نال له الملائكة ؟
فقيل : « قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين » (٤) •

٢ — وقع الفصل كثيرا بين انجمل لكمال الانقطاع بصورتيه :
اختلاف انجملتين في الخبرية والانشائية ، وعدم وجود جامع يصحح
العطف بينهما •

ويجدر بنا أن ننبه على أن كمال الانقطاع لا يعنى تفكك الكلام
وعدم ترابطه انما هو مصطلح بلاغى يعنى الاختلاف في الخبرية
والانشائية أو عدم وجود مناسبة خاصة بين الجملتين تستوجب العطف ،
وبعد هذا المعنى المحدد وقبله ، لا بد أن يرتبط الكلام في غرض عام ،
وأن يمتزج بعلاقة معنوية تغنى عن الرابطة اللفظية التى هى الواو (٥) •
ومما يشير الى هذا قول السيد الشريف : الجملتان اذا لم يعطف أحدهما

(٤) دلائل الاعجاز ٢٤٠ ، ٢٤١ •

(٥) ينظر دلائل التراكيب ٣٥٣ وما بعدها ، ومذكرات فى الفصل

والوصل : ٦٠ ، ١١١ •

(٣٧ — خصائص النظم)

على الأخرى فهم اجتماع مضمونيهما في الحصول بدلالة العقل ، ضرورة
 أن الأمور الواقعة في نفس الأمر تكون مجتمعة فيها ، وربما لا تكون هذه
 اندلالة مقصودة للمتكلم ، وإذا عطف بالواو فقد دل على الاجتماع ،
 بدلالة نظية مقصودة (٦) .

ومما وقع الفصل فيه للاشتراك في الغرض العام آيات الدعاء
 في حلقه البقرة وحلقة ابراهيم ، وحلقة الممتحنة . والآيات التي نادى
 فيها أباه وهو يدعو الى عبادة الله تعالى والكف عن عبادة الأصنام في
 حلقة مريم . ويمكن أن يسمى هذا « استئناف المعاني » (٧) ، لأنه
 استئناف لمعان متداعية نظمت في سلك واحد من غير واء العطف .

٣ - وقع الواصل للتوسط بين الكماتين في كثير من مواضع الواصل،
 حيث تتحد الجمل في الخبرية أو الانشائية مع التناسب المصحح للعطف،
 ومن ذلك قوله تعالى « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون .
 هما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من
 دلي ولا نصير » العنكبوت : ٢١ . ٢٢ . حيث وقعت الجمل معطوفة
 في الآيتين وهي متحدة في الخبرية وبينها تناسب قوى يقوم على التضاد
 بين الجملتين ، والتماثل في الجمل التالية .

ومن ذلك قوله تعالى « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين .
 وأجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم .
 واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني بيعثون » الشعراء :
 ٨٣ - ٨٧ . فقد وقع الواصل بين الجمل في الآيات السابقة وهي متحدة
 في الانشائية مع التناسب القائم على التماثل في كونها دعوات تصرع
 بها ابراهيم عليه السلام الى ربه عز وجل راجيا خيري الدنيا والآخرة .

(٦) حاشية السيد علي المطول ٢٥٠ .

(٧) ينظر دلالات التراكيب ٣٤٩ .

وظاهر أن الفصل بين جملة « انه كان من الضالين » وما تبناها للاستئناف
البياني ، حيث جاءت جواباً عن سؤال تثيره الجملة التي قبلها .

٤ - وتمع الوصل بواو الاستئناف بين الجمل المختلفة خبراً
وانشاء كما في قوله تعالى « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » البقرة :
١٢٥ . فقوله « واتخذوا » على قراءة الأمر جملة انشائية، وقد سبقها
جملة خبرية ، وهن وجوه الاعراب فيها أن الواو للاستئناف والجملة
مستأنفة (٨) .

وهذه الواو لعطف القصة على القصة وأشعار انيها الزمخشري
في قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا » البقرة : ٢٥ حيث قال : فان
قالت : علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟
قلت : ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكلة من
أمر أو نهى يعطف عليه ، انما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب
المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول :
زيد يعاقب بالقييد والارهاق ، ويُسّر عمراً بالعمو والاطلاق (٩) .

فهذه الواو تعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، أو
تعطف قصة على قصة سواء كانت بين الخبر والانشاء أو بين خبرين
أو بين انشائين (١٠) ومثل هذا الذلام الذي يعطف بهذه الواو لا يشترط
فيه وجود مناسبة بين أجزاء الكلامين ، بل تعتبر المناسبة بين نفس
المضمونين (١١) .

(٨) املاء ما من به الرحمن هامش الفتوحات الالهية ١/٢٦١ ، وينظر

الفتوحات ١/١٠٣ ، ١٠٤ .

(٩) الكشاف ١/٧٨ .

(١٠) دلالات التراكيب ٣٤٨ .

(١١) مذكرات في الفصل والوصل ٥٢ .

وبهذه الواو عطف آيات كثيرة في حلقات القصة وخصوصاً الآية الأولى في كل حاقة • ففي البقرة « وإذا ابتلى إبراهيم ربه » ١٢٤ • وفي الأنعام « واذ قال إبراهيم لأبيه آزر » ٧٤ ٧٤ • وفي هود « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » ٦٩ ، وفي مريم « واذكر في الكتاب إبراهيم » ٤١ • وفي الأنبياء « ولقد آتينا إبراهيم رشده » ٥١ • وفي الشعراء « واتل عليهم نبأ إبراهيم » ٦٩ • وهكذا في العنكبوت والنصافات والزخرف •

ولا يقتصر وجود هذه الواو في أوائل حلقات القصة بل تأثر بين الآيات في موطن متعددة •

وبعض العلماء يرى تقدير معطوف عليه مناسب للمعطوف ، وبذلك تكون هذه الواو عاطفة وليست للاستئناف (١٢) •

الإيجاز :

وقع الإيجاز بذريعة في قصة إبراهيم عليه السلام في مواطن متعددة •

فأما إيجاز القصر فمنه قوله تعالى « واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن » البقرة : ١٢٤ • اذ يتضمن اختيار الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بالتكاليف الشرعية التي أمره بفعلها ، وقيام إبراهيم بفعلها على وجه التمام والكمال •

ومنه قوله تعالى « قد جاء أمر ربك » هود : ٧٦ • حيث اشتمل على بيان قضاء الله تعالى في قوم لهط بالهلاك ، فلا نفر من وقوعه بهم ، ولا مجال للجدال في شأنهم فأمر الله نافذ لا محالة •

(١٢) ينظر مذكرات في الفصل والوصل ٥٣ والمطول ٢٦٣، ٢٦٤ •

ومنه قوله تعالى « فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم » الأنبياء : ٥٨ ، فقد أوجز ما فعله ابراهيم عليه السلام بالأصنام من تكسير، وبين حجم ما أحاط بالأصنام من ذلك ، وأشار الى استبقائه ذبيرتها دون كسر .

ومنه قوله تعالى « يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » الأنبياء : ٦٩ . اذ بين نجاة ابراهيم عليه السلام من النار دون أن يمسسه سوء ، وفصل الطريقة التي نجاه الله بها حيث تحولت النار بأمره تعالى من جحيم يصهر الجلود الى برد وسلام .

ومنه قوله تعالى « ياأبت افعل ما تؤمر » الصافات : ١٠٢ . فقد أوضح دورقت اسماعيل عليه السلام من ذبحه ، وبين رضاه التام عن ذلك ما يعمل به والده من ذبح أو غيره ، وأشار الى أنه حث والده على تنفيذ ذلك ، ودل على فقه اسماعيل عليه السلام ببيان أن هذا من أمر أمر قدير هو الله تعالى ، فلا سبيل الى مخالفته .
وأما ايجاز الحذف فيدور أكثره حول حذف جزء من أجزاء الجملة أو حذف الجمل والمشاهد .

١ - حذف جزء من الجملة :

ويتبدل أثير ما جاء من ذلك في حذف المفعول ، القصد الى ذات الفعل مطلقا دون تقييده بمفعول به تنزيلا له منزلة اللارم ، أو لافادة العميم والشعور ، وقد جاء من ذلك :

قوله تعالى « اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » البقرة . ١٣١ ، حيث حذف مفعول « أسلم » ومتعلقه ، والتقدير : أسلم وجهك لى . وقد دل الجواب على ذلك . والفعل هنا منزل منزلة اللارم ، لأمره بالانسلام مطلقا عن القيد (١٣) . فعليه أن يحقق الاسلام تحقيقا كاملا .

(١٣) ينظر التحرير والتنوير ١/٧٢٤ .

ومنه قوله تعالى « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » آ. عمران : ٦٦ ،
فقد حذف مفعول العلم من الجملتين تنزيلاً للفعل المنعدي منزلة الملام ،
أوصف الله تعالى بالعلم المطلق ، ونعتهم بعدم العلم مطلقاً . وفي ذلك
أيضاً دلالة على العموم والشمول ، فالله تعالى يعلم كل شيء وهم
لا يعلمون شيئاً .

ومنه قوله تعالى « وارزقهم من الثمرات لئنهم يشكرونا » وقوله
تعالى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن » ابراهيم : ٢٧ ، ٢٨ . حذف
مفعول « يشكرون » ومفعول « نخفى » و « نعلن » لاثبات انفعال
على اطلاقه ، فالله سبحانه وتعالى عليم بما يخفون وما يعلنون على
سبيل الاطلاق . والذرية يرجى اتصافها بالشكر لا تنفك عنه .

ومنه قوله تعالى « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يبصر » مريم : ٤٢ .
حذف مفعول السمع والبصر لوصف معبوداتهم بعدم السمع وعدم البصر .
على الاطلاق ، وفي ذلك دلالة على عموم نقى ذلك وسموئه فهي
لا تسمع ولا تبصر شيئاً البته .

ومنه قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً
ولا يضركم » الأنبياء : ٦٦ أى ولا يضركم شيئاً ، حذف لدلالة الأول عليه ،
وفي حذفه افادة العموم والشمول ، بجانب الايجاز ، وشبيه بهذا قوله
تعالى « هل يسمعونكم اذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون » الشعراء :
٧٢ ، ٧٣ ، فحذفت المفاعيل من « تدعون » و « ينفعونكم » و « يضرون » .
لأفادة العموم والشمول . كما حذف المفعول به من « يضرون » فلم
يخاطبهم بالضر وفيه تطف معهم بعدم توجيه الضر اليهم مباشرة ،
بجانب افادة الشمول والعموم ، فالأصنام لا تضرهم ولا تضر غيرهم .

ومنه قوله تعالى « وان تكذبوا فقد كذب أمم من قدامكم »
العنكبوت : ١٨ . فحذف مفعول « تكذبوا » ومفعول « كذب » والتقدير

وان تكذبونى فتد كذب أمم من قبلكم رسلكم • وفى الحذف وصم لهم بالتدبير المطلق وهذا أبلغ فى ذمهم • ومنه قوله تعالى « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء » العنكبوت : ٢٢ • حذف مفعولته « معجزين » والتقدير : بمعجزين الله ، وفى الحذف نفي لأعجازهم مطلقا ، فهم لا يوصفون بهذه الصفة ، ولا يستطيعون تحقيقها •

ويتصل بهذا حذف مفعول المشيئة لدلالة ما سبق عليه ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى « نرفع درجات من نشاء » وقوله « يهدى به من من يشاء من عباده » الأنعام : ٨٣ ، ٨٨ وقوله تعالى « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » العنكبوت : ٢١ •

حذف المضاف : وقد جاء من ذلك قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى إبراهيم » آل عمران : ٦٥ • والتقدير فى ملة إبراهيم ، فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ، اشعارا بأن الحاجة كادت فى إبراهيم نفسه ، إذ الدين وصاحبه لا ينفصلان ، وفى ذلك مزيد توبيخ لهم وانكار عليهم حيث يحتاجون فى إبراهيم وهو جدتهم الأعلى •

ومنه قوله تعالى « قال أتحتاجونى فى الله وقد هدان » الأنعام : ٨٠ • فدخل « فى » على اسم الجلالة على تقدير مضاف لأن الحاجة لا تكون فى الخوات • أى فى صفات الله تعالى (١٤) • وفى حذف المضاف اشعار بشدة الجرم الذى أقبلوا عليه ، حيث يحتاجون فى الله تعالى ، ويجادلون فيه ، مع عدم خفاء أمره وشأنه على ذى عقل •

حذف جواب الشرط ووقع ذلك فى قوله تعالى « فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » الأنعام : ٨١ • حذف جواب الشرط كما حذف المفعول والتقدير : ان كنتم تعلمون من أحق بذلك فأخبرونى •

ويمكن أن يكون حذف المفعول للقصد الى التعميم ، أى ان كنتم تعلمون شيئاً ، أو لتنزيل الفعل منزلة اللازم أى ان كنتم من أولى العلم (١٥) .
 وعن ذلك قوله تعالى « فلما أسلما وتله للجبين » الصافات : ١٠٣ .
 فجواب « لما » محذوف للاشعار بأنه مما لا تقى به العبارة ، ولا يحيط به المقام ، والتقدير : « فلما أسلما وتله للجبين » وناديتاه أن يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا « كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف ، من استبشارهما واغتباطهما وحمدهما الله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما ، من دفع البلاء العظيم بعدا حاربه ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والاعراض ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب (١٦) » .

حذف المفضل عليه : وذلك في قوله تعالى « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربهى هذا أكبر » الأنعام : ٧٨ • أى أكبر من الكوكب والقمر ، وحذف المفضل عليه للاشعار بالعموم أى أكبر من كل شيء •
 حذف المخصوص بالذم : وذلك في قوله تعالى « ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير » البقرة : ١٢٦ • فالمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبئس المصير النار أو عذابها (١٧) وفي حذفه إشارة الى سوء نهايته على سبيل العموم •

حذف الموصوف : وذلك في قوله تعالى « فأمتعته قليلا » البقرة : ١٢٦ • فالموصوف محذوف وهو المصدر المقدر أى فأمتعته تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا • وفي حذفه اشعار بقلة متعته وعدم دوامها •

• (١٥) أبو السعود ١٠٦/٣

• (١٦) الكشاف ٣٤٨/٣

• (١٧) أبو السعود ١٥٩/١

حذف المسند اليه : وذلك في قوله تعالى « وقالت عجوز عقيم »
الذاريات : ٢٩ فقد حذف المسند اليه والتقدير : أنا عجوز ، وفي حذفه
دلالة على ضيق صدرها وشدة الأمر عليها بعد تبشيرها ، بسبب حالها
التي تتنافى مع ذلك حسب العادة •

حذف المعطوف : وذلك في قوله تعالى « أفتعبدون من دون الله
ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم » الأنبياء: ٦٦، فالمستفهم عنه محذوف دل
عليه ما عطف عليه بحرف العطف والتقدير: أتعلمون ذلك تعبدون من دون
الله ••• وهذه طريقة النزمحشرى ومن تبعه في أمثال ذلك (١٨) • ومنه
قوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » الأنبياء:
٦٧ ، أى ألا تفكرون فلأتعقلون قبح صنيعكم • وقوله تعالى « وسع
ربى كل شيء عما أفلا تتذكرون » الأنعام : ٨٠ ، أى أتعرضون عن
التأمّن في أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفع ولا ضرر فلا
تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى (١٩) • وفي حذف المعطوف تروحيه
الإنكار الى ما يلى الهمزة وهذا أبلغ في توبيخهم وتعنيفهم ، حيث أنكر
عليهم عبادة ما لا ينفع ولا يضر ، وعدم التعقل وعم التذكر ، وتوبيخهم
على ذلك توبيخاً شديداً •

حذف الجار والمجرور : ومن ذلك قوله تعالى « فأثرا به على أعين
الناس نعلمهم يشهدون » الأنبياء : ٦١ • حيث حذف الجار والمجرور
والتقدير : لعالمهم يشهدون عليه بما سمع منه ، أو بما فعله ، ويمكن أن
يكون من قبيل حذف المفعول على معنى : يحضرون عقربتنا له (٢٠) •

(١٨) ينظر الكشف ٥٧٨/٢ • وأبو السعود ٧٦/٦ •

ومعنى اللبيب ١٦/١ •

(١٩) أبو السعود ١٥٥/٣ •

(٢٠) الكشف ٥٧٧/٢ •

وفي الحذف عموم وشمول لكل ذلك ، فاللفظ متسع عليه لكل تأويل .
ومن ذلك قوله تعالى « وجعلها كلمة باقية في عقبه اعلهم يرجعون »
الزخرف : ٢٨ ، فحذف الجار والمجرور والمعنى : رجاء أن يرجع اليها
من أشرك منهم بدعاء المرحد أو بسبب بقائها فيهم ، وهو من اسناد
ما للبعض الى الكل (٢١) . وفي حذف الجار والمجرور وصف لهم
بالفعل على الاطلاق ، فهو يرجو أن يكونوا من الراجعين التائبين عند
التفريط .

ومن ذلك قوله تعالى « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » العنكبوت :
٢٤ . حذف الجار والمجرور والتقدير : يؤمنون بالله تعالى . وفي حذفه
وصف لهم بالفعل على اطلاقه أى لقوم يتحقق فيهم الايمان ، وبسببه
عموم وشمول للايمان بالله تعالى وبقدرته على البعث ، وبما أنزل من
أحكام وتشريعات .

٢ - حذف الجملة :

وجاء حذف الجملة في القصة بنسبة قليلة ، ومن ذلك قوله تعالى
« اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون » الحجر : ٥٢ .
حيث حذف رد ابراهيم عليهم بقوله « سلام » حسبما بين في حلقتي
هود والذاريات . وفي حذف جملة الرد اشعار بشدة الوجع الذي سيطر
عليه من جراء قدومهم على هيئة غريبة ، وعدم الأكل من الطعام الذي
قدمه اليهم . وكان الوجع شغله عن رد السلام .

ومن ذلك قوله تعالى « فقربه اليهم قال ألا تأكلون » فأوجس منهم
خيفة « الذاريات : ٢٧ ، ٢٨ . حيث حذف من الكلام جملة مفادها :
فلم يأكلون ، « فأوجس منهم خيفة » وفي حذفها مسارعة الى وصف
حاله وما ناله من خوف ووجع عندما لم يأكلوا .

(٢١) ينظر الألوسى ٧٧/٢٥/١٢ .

ومن ذلك قوله تعالى « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بإثمه اليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا » البقرة : ١٢٦ ، غفى الكلام ايجاز بحذف جملة عطف عليها قوله « ومن كفر » يفهم منها استجابة الله تعالى دعاء ابراهيم عليه السلام أى : أرزق من آمن ومن كفر فأمتعه قليلا ٠٠٠ (٢٢) وفى حذف الجملة اشعار بتحقيق الاجابة ، ومن ثم ترك النص عليها •

ومن ذلك قوله تعالى « قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يسهرون • قالوا أنت فعلت هذا بالكهنة يا ابراهيم » الأنبياء : ٦١ • ٦٢ • فبين الآيتين جملة محذوفة معاومة من الكلام والتقدير : فأتوا به ، فقالوا أنت فعلت • الخ وفى حذف الجملة دلالة على سرعة مجيئهم به ، حيث لم يمض وقت بين الأمر بالأتين به ، وبين سؤاله •

ومن ذلك قوله تعالى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » البقرة : ١٣٤ • ففى الكلام ايجاز بحذف جملة والتقدير : ولا يسألون عما كنتم تعملون ، ودل على المحذوف قوله تعالى « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » (٢٣) •

٣ - حذف الجدل والمشاهد :

وهذا اللون من الحذف شائع فى القصة فى حلقات الدعوة الى عبادة الله تعالى ، وحديث ابراهيم عليه السلام مع الملائكة ، لاشتمالها على حوادث ومشاهد متعددة ، يطوى بعضها فى موضع ويذكر بعضها فى موضع آخر ، فينتفى التكرار ، ويوجد الجديد فى كل حلقة ، كما تطوى بعض التفصيلات التى تفهم من خلال السياق وتبرز الحوادث الهامة التى

(٢١) المنار ١/ ٣٨٢ •

(٢٣) املاء ما من به الرحمن • همامس الفتوحات الالهية

٢٧٥/١ ، ٢٧٦ •

يقوم عليها بناء القصة ، فتقوى الحبكة القصصية ، وتخلص من مظاهر الترهل والمط والتطويل الذى لا داعى له .

ففى حلقة الأنبياء : نجد قوله تعالى « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ٥٧ . متبوعا بقوله تعالى « فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم » ٥٨ . وبين القولين الكريمين جمل مطوية مفادها أن القوم تركوا ابراهيم وذهبوا الى عيدهم ، فأتى ابراهيم الى الأصنام فى خيفة وتحرش بها ثم قام بتدميرها (٢٤) . وفى طى هذه الجمل مسارة الى بيان قيام ابراهيم عليه السلام بتنفيذ تهديده ، وإشعار بأن التنفيذ أعقب التهديد على وجه السرعة ودون تراخ أو فتور . على أن جل هذه التفاصيل المطوية قد ذكر فى حلقة الصافات « فتولوا عنه مدبرين . فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين » ٩٠ - ٩٣ .

كما نجد قوله تعالى « نجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » ٥٨ ، مشفوعا بقوله تعالى « قالوا من فعل هذا بالهتنا » ٥٩ . وبين الآيتين جمل مطوية تبين أن التقدم فرغوا من عيدهم وعادوا الى آلهتهم فرحين مسرورين فرأوا ما فعل بها ، فغلتهم الدهشة وتساءلوا عن الفاعل منكرين فعلته الشنعاء . وأنت ترى أن هذه الجمل المنطوية تفهم من خلال السياق ، ولو صرح بها أكانت من قبيل التطويل الممل الذى تنزه عنه القرآن الكريم .

كما نجد قوله تعالى « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » ٦٨ ، متلوا بقوله تعالى « قلنا بانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » ٦٩ . وبين الآيتين كلام مطوى مؤداه استعداد التقدير

(٢٤) ينظر البحر المحيط ٦/٣٢٢ .

لتحريقه ببناء البنيان وجمع الأخشاب اللازمة لاشعال جحيم نسيدي لا يترك له أثر عندما يلقى فيه ، وقيامهم باشعال الديران ، والقاء ابراهيم عليه السلام فيها • وهذه التفاصيل بعضها مذكور في حلقة الاضافات ، وبعضها مفهوم من تداعى الحوادث وسياق الكلام • كما ان قولهم : حرقوه ، مسبوق بمشاورات دارت بينهم في كيفية الانتقام من ابراهيم عليه السلام حسبما فصل في حاقة العنكبوت •

بعد بيان نجاته من النار تطوى الحلقة مراحل طريقة من حياة ابراهيم عليه السلام عاد غيبا لدعوى قومه ، ثم اعترلهم وهاجر الى بلاد عديدة حتى استقر به المقام في أرض فلسطين ، تطوى الحلقة هذه السنوات الطويلة وما حدث له فيها لتبين أن الله تعالى نجاه الى أرض مباركة وأنعم عليه بالذرية الصالحة وغيرها من النعم الجليلة •
وفي حاقة الاضافات : تطوى المشاهد المفصلة في الأنبياء ، تجعله الأصنام جذاذا وترك كبيرها ، وتساؤل التوم عن الفاعل ، والانيان بابراهيم عليه السلام ، والتحقيق معه • بينما تذكر قيام القوم ببناء البنيان والقاء ابراهيم في الجحيم وتذكر قصة اسماعيل عليه السلام ، وحادث الفداء العظيم •

ولو ذهينا لاستعراض حلقات الدعوة وحلقات حديث ابراهيم عليه السلام مع الملائكة لوجدنا مظاهر الايجاز بحذف الجمل وطى المشاهد كثيرة وقد فصلنا ذلك في حديثنا عن أسرار التنوع في هذه الحلقات ، ومن ثم لا نرى داعيا لتكراره ، والاكتفاء بالأمثلة التي ذكرناها آنفا •

الاطناب :

جاءت بعض ألوان الاطناب في قصة ابراهيم عليه السلام في مقامات تستدعى بسط الكلام أو تأكيده وتقريره ، وغير ذلك من الأغراض البلاغية ، وأهم هذه الألوان •

١ - التكرير :

وهو من ألوان الاطناب البارزة في حلقات القصصه .

ففى حلقة البقرة فى بناء البيت الحرام نجد تكرير النداء باسم الرب « ربنا تقبّل منا » « ربنا وأجعلنا مسلمين لك » « ربنا وأبعث فيهم رسولا » ١٢٧ - ١٢٩ ، وذلك فى مقام التضرع والدعاء عند رفع البناء استجابا لقبول بهذا النداء الضارع الذى يوحى بمعانى التريية والعناية وتحقيق المطالب ، واجابه الرغائب . ومثل هذا نجده فى حلقة ابراهيم الخاصة بالدعاء وحلقة الممتحنة التى تتضمن دعاء وثناء على الله تعالى بعد البراءة من المشركين .

وفى حلقة الانعام نجد تكرارا لاسم الرب فى قوله تعالى « الا ان يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما » ٠٨٠ وفى تكراره مضافا الى ضميره اشعار بمساندة الله تعالى له ، فهو ان يخاف من آنتهم لانه فى رعاية ربه وخاضع لمشيئته وموجه بآرادته وعلمه الذى وسع كل شىء .

وفى حلقة الحجر نجد تكرارا للفظ البشارة « انا نبشركم بغلام عيم . قال أبشرونى على أن مسنى انكبير فبم تبشرون . قائلوا بشركناك بالحق فلا تكن من القاذبين » ٥٣ - ٥٥ وذلك لما للفظ من أثر نفسى يستجلب السرور ويستدعى الحبور ، خصوصا أن البشرى بغلام عيم ، طالما تآقت نفسه الى مثله دون جدوى .

وفى حلقة مريم نرى تكرير النداء لأبيه بلفظ « بأبى » فى أربع آيات متواليات وذلك لمزيد تنبيهه الى ما يعرضه عليه . واستمالة لجانبه بلفظ الأبوة الذى يدل على تمام بوره به وأخلاص النصيح له ، وكتمان الشفقة عليه . كما نجد تكرارا للفظ « الشيطان » « يا أبى لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا » ٤٤ . وفى ذلك مزيد تحذير

لأبيه منه ، فاللفظ مخيف يشيع في النفس الرعب والاسمئزاز بما وقر
في النفوس عنه من نزعات الشر ، ونزعات الهلاك .

ونلتقى فيها أيضا بتكرار اعتزال القوم وما يدعون من دون الله
تعالى « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » فلما اعتزتهم وما يعبدون
من دون الله « ٤٨ ، ٤٩ . وهذا مشعر بأن ابراهيم عليه السلام نفذ
ما عزم عليه كاملا غير منقوص ، رغم شدته على نفسه ، ومشير الى أن
هذا الشيء نفسه كان فاتحة خيرات وبركات توالت عليه ، حسبما فصل
في جواب الشرط .

وفي حلقة الأنبياء نقف أمام تكرير لجملة « تعبدون من دون الله »
وذلك في قوله تعالى « قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفذكم شيئا
ولا يضركم . أف لكم وما تعبدون من دون الله » ٦٦ ، ٦٧ . وفي
هذا التكرار تقوية لذمهم والتشجب منهم ومن آلهتهم لكونه كاشفا عن
سبب ذلك ، ومبينا لجريماتهم الشنعاء ، فهو دم مشفوع بسببه .

وفي حلقة الشعراء نرى تكرار « انذى » مع تنوع صلتها ، وذلك
في مقام الثناء على الله تعالى بزعمه التي لا تحصي في الآيات : ٧٨ ،
٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ . وفي هذا التكرار مزيد تعظيم لرب العالمين ، بوصفه
بصفات معلومة لا تنكر ، لما أن الشأن في جملة الصلة أن تكون معلومة
للخاطبين ، كما أن فيه اشعارا باستقلال كل جملة في الثناء على الله
تعالى ، وانفرادها عن الأخرى .

وفي حلقة العنكبوت يطالعنا التكرير في قوله تعالى « انما نعبدون
من دون الله اوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله
لا يملكون لكم رزقا » ١٧ . حيث كررت جملة « تعبدون من دون الله »
وفي تكرارها مزيد تشنيع عليهم بهذه للجريمة النكراء وذلك باظهارها
في موضع الاختصار . كما نجد التكرار في قوله تعالى « أولئك يتسوا من

رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم» ٢٣ • حيث كرر اسم الإشارة للتأكيد
تمييزهم ، وتقرير تحقيرهم وبعده منزلتهم في الشر • وللاشعار
باستقلال كل جملة عن الأخرى في وصفهم بما تضمنته ، مع مخاطبتهم
بذلك •

وفي حلقة الصافات نلاحظ تكريرا متباعدة حيث يأتي قوله تعالى
« انا كذلك نجزي المحسنين » ١٠٥ ثم يأتي قوله تعالى « كذلك نجزي
المحسنين » بعد أربع آيات • والتكرير هنا لتعدد المتعلق ، حيث أن
كل آية منهما مذكورة عقيب جزاء يختلف عن الآخر ، فالآية الأولى
أعقبت نداء الله تعالى له بالكف عن ذبح ولده ، فقد صدق الرؤيا ونفذ
أمر الله تعالى فاستحق جزاء المحسنين • وفي الآية الثانية أعقبت منه الفداء
وابقاء السلام على ابراهيم في الآخرين ، فهو محسن يستحق جزاء
المحسنين • والسورة كلها ماضية على هذا النهج، حيث ختمت القمص
فيها بمثل ذلك •

ونجد تكرارا آخر فيها في قوله تعالى « وباركنا عليه وعلى
اسحاق » ١١٣ • حيث كرر الجار وفي تكراره اشعار باستقلال كل منهما
في نيل البركة من الله تعالى ، فابراهيم عليه السلام قد نال بظنه الذي
يخصه من البركة وكذلك اسحاق عليه السلام •

وفي حلقة الممتحنة تبدأ الحلقة بقوله تعالى « قد كانت آدم أسوة
حسنة في ابراهيم والذين معه » ٤ • وتنتهي بمثل ذلك • وفي هذا
التكرير تأكيد على الناسي بهم ، بعد أن تقدم استثناء عن الأسوة في
الآية الأولى ، يجعل المقام في حاجة الى التأكيد وتكرير المنص على
الناسي بهم •

تكرار المشاهد :

وأما تكرار المشاهد في قصة إبراهيم عليه السلام فقد تحدثنا عنه في نهاية كل من الفصلين الأول والثاني في حديثنا عن أسرار التشابه والتنوع فبيننا أنه لا توجد مشاهد مكررة بنصها وفصها ، وأن المشهدين المكررين في حلقات الدعوة هما : تكسيره للأصنام وتحريقه بالنار وقد اختلف التعبير عنهما في كل حلقة وردا فيها بالزيادة في ذكر التفاصيل ، وتلوين الأسلوب مما جعل كل موضع ذكرا فيه مغاير للآخر في شكله ومضمونه •

كما أن الحلقات التي تحكى حوارا مع الملائكة وإن كانت تعبر عن قصة واحدة إلا أن تلوين الأسلوب وإضافة تفصيلات جديدة في كل حلقة جعل القصة في كل حلقة كأنها شيء جديد في هيئته ومحتواه ، وقد بينا ذلك بإفانسة وأشرنا إلى تكامل الحلقات ونسجنا منها قصة كاملة الجوانب لا تكرار فيها وهذا يرد ما قد يثار عن تكرار القصة في القرآن الكريم •

٢ - التذييل :

وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد (٢٥) ، وهو أكثر ألوان الاطناب وجودا في قصة إبراهيم عليه السلام ، حيث تختتم به آيات كثيرة تأكيدا لما فيها من معانٍ وتعليلا لها • وقد أولينا التذييل عناية كبيرة في تحليلنا البلاغي لحلقات القصة ، ومن ثم فسنتحدث عنه هنا حديثا مختصرا يوضح معالما في القصة • وقد وقفت في حلقات القصة أمام خمسين تذييلا: منها سبعة في البقرة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ٢٥٨ • وخمسة في آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ • وتذييل في النساء : ١٢٥ •

وثمانية في الأنعام : ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ . وتذليل
 في التوبة : ١١٤ . وثلاثة في هود : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ . واثنان في ابراهيم
 : ٣٨ ، ٣٩ . واثنان في النحل : ١٢٠ ، ١٢٣ ، وثلاثة في مريم :
 ٤١ ، ٤٤ ، ٤٧ . وثلاثة في الأنبياء : ٥١ ، ٥٩ ، ٦٧ . وتذليل في الشعراء :
 ٨٦ . وتسعة في العنكبوت : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ،
 ٢٦ ، ٣١ . وثلاثة في الصافات : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ . وتذليل في الذاريات
 : ٣٠ . ومثله في المتحنة : ٥ .

وهذه التذييلات منها خمسة وثلاثون تذييلاً لا تجرى مجرى الأمثال
 لأنها غير مستقاة بالافادة حيث ربطت بما قبلها بالضعيف أو الاشارة،
 وخمسة عشر تذييلاً تجرى مجرى الأمثال لاستقلالها في الافادة ،
 بوقيامها بذاتها .

فمن التذييلات الجارية مجرى الأمثال ما في قوله تعالى « وتلك
 حجتنا آييناه ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم
 عليم » الأنعام : ٨٣ ، ففي الآية تذييلان أولهما قوله تعالى « نرفع
 درجات من نشاء » وهو يؤكد ما سبق من اعلاء مكانة ابراهيم على قومه
 ونصره عليهم بايتائه الحجة المفحمة التي رفعته وحطتهم . وثانيهما قوله
 تعالى « ان ربك حكيم عليم » وهو بجانب ما تضمنه من اخبار مؤكد
 بحدثة الله تعالى وعلمه يؤكد ما سبق فانه تعالى حكيم في كل ما فعله
 من رفع وخفض وعلية بقال من يرفعه (٢٦) ، كما أنه تعليل له : فهو
 سبحانه يرفع من يشاء ويخفض من يشاء لأنه حكيم عليم فهو تذييل
 تعليلي . والتذييلان جاريان مجرى المثال في استقلالهما بالامادة .
 ومنها قوله تعالى « قلما ذهب عن ابراهيم الرواع وجانته البشري

يجادنا في قوم لوط « ان ابراهيم لحايم اواه منيب » هود : ٧٤ ، ٧٥ .
فالأية الثانية تذييل جار مجرى المثل ، وهو تذييل تعليلي ، يعمل جدال
ابراهيم عليه السلام في شأن قوم لوط ، بجانب ما ينسقل عليه من
وصف لابراهيم عليه السلام بصفات عظيمة .

ومنها قوله تعالى « ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى
على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » ابراهيم : ٣٨ . فجملة
« وما يخفى على الله من شيء . . » تذييل يؤكد علم الله سبحانه وتعالى
بما يخفون وما يعلنون . بجانب ما أثبتته من علم الله تعالى بكل شيء
في الكون . وهو تذييل جار مجرى المثل لاستقلاله في الافادة .

ومنها قوله تعالى « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق
ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير » العنكبوت : ٢٠ .
فجملة « ان الله على كل شيء قدير » تذييل تعليلي ، يؤكد ما قبله ويعتله
فان قدرة الله تعالى على كل شيء تستوجب قدرته على البدء والاعادة ،
حيث لا يستعصى على قدرته شيء ما من الأشياء .

ومن التذييلات التي لا تجرى مجرى الأمثال قوله تعالى « قلت
يا ويانا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب » هود :
٧٣ . فجملة « ان هذا لشيء عجيب » تذييل يؤكد تعجبها واستبعادها
النسابق ، وهو غير جار مجرى المثل لارتباطه بما قبله عن طريق الاشارة
التي تفتقر الى حضور المشار اليه وهو في الجملة السابقة .

ومنها قوله تعالى : « فأندجاء الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم
يؤمنون » العنكبوت ٢٤ . فجملة « ان في ذلك لآيات . . » تذييل
غير جار مجرى المثل لأنه كسابقه في ارتباطه بما قبله عن طريق
الاشارة .

ومنها قوله تعالى : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » مريم : ٤١ •

فجمله « انه كان صديقا نبيا » تذييل غير جار مجرى المثـ لارتباطه بما قبله عن طريق الضمير الذي يحتاج الى تفسير، وتفسيره في الجملة السابقة ، وهو تذييل تعليلي يؤكد الأمر بذكر ابراهيم ويعلله •

ومنها قوله « قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » البقرة : ١٣٢ • فجمله « ونحن له مسلمون » تذييل يؤكد ما سبق من عبادتهم لله تعالى الواحد ، وهو مرتبط بما قبله بالضمير فهو غير جار مجرى المثـ •

ومنها قوله تعالى « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » الأنبياء : ٦ • فجمله « أفلا تعقلون » تذييل يؤكد ما سبق من توبيخ لهم ، وتضجر منهم ومن آلهتهم • وينكر عليهم عدم تعقلهم ، وهو تذييل غير جار مجرى المثـ ، لارتباطه بما قبله ، حيث ان الإنكار والتوبيخ فيه مبني على ما سبق من عبادتهم ما لا ينفع ولا يضر ، والفاء تشير الى ذلك (٢٧) •

ومنها قوله تعالى « وفسدنياء بذبح عظيم • وتركنا عليه في الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين » الصافات : ١١٠ • فالآية الأخيرة تذييل غير جار مجرى المثـ ، لارتباطه بما قبله عن طريق الكاف والاشارة « كذلك » • وهو مؤكـ لجزاء ابراهيم السابق ، ويشير الى أنه جار على سنة الله تعالى في مجازاته المحسنين باحسنهم •

(٢٧) ينظر مواهب الفتاح ٣/٢١٨ •

٣ - الايضاح بعد الابهام :

ومن أمثنته في القصة قوله تعالى «وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» البقرة : ١٢٥ ، وقوله تعالى « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » البقرة : ١٢٢ ، فقوله تعالى « أن طهرا . . . » ايضاح للعهد الذى عهده الله تعالى الى ابراهيم واسماعيل . وقوله تعالى « يا بنى ان الله اصطفى . . . » ايضاح لوصية ابراهيم ويعقوب عليهما السلام . ومنه قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما . . . » الاذاريات : ٢٤٠ فقوله تعالى « اذ دخلوا عليه » الى آخر القصة ايضاح لحديث ضيف ابراهيم المجل في الآية الأولى . ويشبه هذا قوله تعالى « ونبئهم عن ضيف ابراهيم . اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما . . . » الحجر : ٥١ ، فقوله « اذ دخلوا عليه » الى آخر القصة تنصيح لنبا ابراهيم عليه السلام .

ومنه قوله تعالى « واتد عليهم نبا ابراهيم . اذ قال لآبيه وقومه ما تعبدون » الشعراء : ٧٠ . فقوله تعالى « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتى . . . » الحج : ٢٦ ، فان هى المفسرة ، والنهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسير للتبوءة ، لأن التبوءة كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل : تعبدنا ابراهيم فقلنا : نه لا تشرك بالله شيئا وطهر بيتى . . . » (٢٨) .

وفي الايضاح بعد الابهام : تأكيد وتقوية للمعنى حيث يرى في صورتين مختلفتين صرورة مبهمة وأخرى موضحة . وتمكين للمعنى في

النفس لوقوعه فيها بعد شوق اليه ، ولهفة عليه ، واكمال لذة العلم به
لحصوله للنفس بعد حرمان منه وألم بسبب جهله . وتفخيم للألم -
وتعظيم له حسب المقامات . وقد فصل الخطيب هذه الأغراض الدقيقة
بكلام طيب فقال في بيان فائدة الايضاح بعد الابهام : أن يرى المعنى
في صورتين مختلفتين ، أو ليتمكن في النفس فضل تممين ، فان المعنى
إذا ألقى على سبيل الاجمال والابهام تشوقت نفس السامع الى معرفته
على سبيل التفضيل والايضاح ، فتتوجه الى ما يرد بعد ذلك ، فإذا
ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم . أو لتكمل
اللذة بالعلم ، فان الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول
اللذة به أتم وإذا حصل الشعور به من وجه تشوقت النفس الى العلم
بالمجهول ، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة وبسبب حرمانها من السابق
ألم ، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقيب
الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم . أو لتفخيم الأمر
وتعظيمه (٢٩) .

وهذا بصر دقيق بأسرار الأساليب ، وتأثيرها النفس .
ومن الايضاح بعد الابهام ما في قوله تعالى « ثم اضطره الى عذاب
النار ، وبئس المصير » البقرة : ١٢٦ . فقوله « وبئس المصير » فيه
ايضاح بعد ابهام على رأى من يجعل المخصوص بالذم خبر مبتدأ محذوف
أو مبتدأ محذوف الخبر . أى وبئس المصير النار أو عذابها . وانما
لكن هذا من قبيل الايضاح بعد الابهام لأنه أبهم المفاضل أولاً ثم فسر
ثانياً بالمخصوص (٣٠) . ولو قصد الاختصار لكفى : بئس النار .
ووجه حسن هذا الاسلوب زيادة على ما تقدم في فائدة الايضاح بعد
الابهام أمران :

• (٢٩) الايضاح ١٣٣/٢ .

• (٣٠) ينظر المطول ٢٩١ .

أحدهما : إبراز الكلام في معرض الاعتدال نظراً الى اطنابه من وجه حيث لم يكن : بئس الذار ، والى اختصاره من آخر وهو حذف المبتدأ في جواب السؤال المقدر ، لأن جملة المخصوص بالذم استثنائية .

وثانيهما : ايهام الجمع بين المنافقين وهما الايجاز والاطناب ، ولاشك أن الجمع بين المتنافيين من الأمور الغربية المستطرفة التي يظهر في النفس عند وجدانها تأثر وانفعال عجيب (٣١) .

٤ - عطف العام على الخاص ، والخاص على العام :

ومن أمثلة النوع الأول قوله تعالى « ربنا اغفر لى ولوالدى ولنمؤمنين يوم يقوم الحساب » ابراهيم : ٤١ . فقوله « وللمؤمنين » من عطف العام على الخاص وهو يفيد العموم والشمول في الدعاء ، ويشعر بحرص ابراهيم عليه السلام على جماعة المؤمنين ، واهتمامه بما ينفعهم في الدنيا والآخرة .

ومنه قوله تعالى « انى أراك وقومك فى ضلال مبين » الأنعام ٧٤ وكذلك ما بدئت به بعض الحلقات من قوله تعالى « اذ قال لأبيه وقومه » . فعطف القوم على الأب من عطف العام على الخاص لأن أباه داخل فى قومه ، وفى هذا العطف بياح لعموم دعوته ﷺ لجميع القوم ، وإشارة الى عدم تقصيره فى ذلك .

ومن أمثلة النوع الثانى قوله تعالى « وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة » الأنبياء ٧٣ . فعطف اقام الصلاة وايتاء الزكاة على فعل الخيرات من عطف الخاص على العام

(٣١) بغية الايضاح ١٣٤/٢ ، والمطول ٢٩٢ . وينظر مفتاح

ادخولهما في فعل الخيرات دخولا أوليا ، وفي عطفهما عليه اشعار بأهميتهما وأناقتهما على سائر أفعال الخير ، واختصاصهما بأهمور لا توجد فيها ، ومن ثم نص عليهما دون سائر الأعمال حتى كأنهما شيطان آخران مغايران لفعل الخيرات ، تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات (٣٢) .

ومنه قوله تعالى « اعبدوا الله واتقوه » وقوله « واعبدوه واشكروا له » العنكبوت : ١٦ ، ١٧ . فعطف التقوى والشكر على العبادة من عطف الخاص على العام لعموم العبادة وخصوص كل منهما . ودخوله في العبادة ، وفي هذا إشارة الى فضل التقوى ، والشكر ، وترغيب في تحقيقهما .

٥ - التكميل أو الاحتراس :

وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع الابهام (٣٣) . ومن أمثلته في قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى « قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار » البقرة ١٢٦ فقوله « ثم اضطره . . . » احتراس يدفع اغترار الكافر بأن تخذله النعم في الدنيا يؤذن برضا الله تعالى عنه (٣٤) .

ومنه قوله تعالى « ومن أحسن حينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » واتبع ملة ابراهيم حنيفا « النساء : ١٢٥ . فقوله « وهو محسن » احتراس يدفع ما قد يتوهمه بعض الناس من أن الدين هو اسلام الوجه لله تعالى فقط ، فبين هذا الاحتراس أن احسان العمل شرط لا بد من تحققه في التدين الصحيح .

(٣٢) المطول ٢٩٢ .

(٣٣) المطول ٢٩٥ .

(٣٤) التحرير والتنوير ٧١٧/١ .

ومنه قوله تعالى « الا قول ابراهيم لأبيه أستعفرن لك » فهذا احتراس قائم على الاستثناء من الحث على التأسى بابراهيم في قوله تعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه » الممتحنة : ٤ • وقد دفع هذا الاحتراس ما قد يفهم من أن التأسى بابراهيم عليه السلام في جميع أفعاله وأقواله ، حيث بين أن قوله لأبيه لاستعفرن لك خارج من الأسوة •

ومنه قوله تعالى « قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم » الأنبياء : ٦٩ • فقوله تعالى « وسلاما على ابراهيم » احتراس يفصله ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : لو لم يقل وسلاما لهلك ابراهيم من البرد ، ولو لم يقل على ابراهيم لما أحترقت نار بعدها ولا اتقدت (٣٥) •

٦ - التتميم :

وهو أن يؤتى في كلام لا يؤهم خلاف المقصود بفضلة نسكته كالمبالغة وغيرها (٣٦) ، ومن أمثله في القصة قول الله تعالى « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » ابراهيم : ٣٩ فقوله « على الكبر » تتميم يفيد عظيم الهبة التى وهبها الله تعالى لابراهيم عليه السلام ، حيث امتن عليه بالذرية فى سن تستبعد العادة حصـولها فيه • قال الزمخشري : وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم من حيث أنها حال وقع اليأس من الولادة ، وانحسر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها فى نفس الظافر. ولأن الولادة فى تلك السن العالية آية لابراهيم عليه السلام « (١٦) •

• (٣٥) البحر المحيط ٦/٢٢٨

• (٣٦) المطول ٢٩٦

• (٣٧) الكشاف ٢/٣٨١

ومنه قوله تعالى « قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى
فطرهن » الأنبياء : ٥٦ ، فقوله : « الذى فطرهن » على أن الضمير
للسموات والأرض تتميم يبين أن الرب الحقيقى هو الذى خلق
السموات والأرض وأن ما لا يكون كذلك بمعزل عن الربوبية .

وهذه صفة أساسية تتمم وصفه تعالى بأنه رب السموات
والأرض .

ومنه قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به
عالمين » الأنبياء : ٥١ . فقوله « من قبل » تتميم يبين سبق ابراهيم
لموسى وهارون عليهما السلام زمانا وهداية .

٧ - الاعتراض :

وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى
بجملة أو أكثر لا محل لها من الاعراب لنكتة سوى دفع الأيهام (٣٨) .

وقد وقع الاعتراض فى قصة ابراهيم عليه السلام فى مواضع
متعددة ، ومنه ما هو بجملة ومنه ما هو بآية ومنه ما هو بآيات
كثيرة . وكثيراً ما جاء تذييلاً للآيات وهو ما يعرف بالاعتراض
التذييلى .

فما جاء بجملة ما فى قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده
من قبل وكنا به عالمين » اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم
لها عاكفون » الأنبياء : ٥١ ، ٥٢ .

فقوله « وكنا به عالمين » جملة معترضة على اعراب « اذا » ظرف

لآتيننا ، أو لرشده • وهو اعتراض تذييلي يزيد من غشامة الرشد الذي آتاه الله ابراهيم ويؤوه بشأنه ، أى آتيناها رشداً عظيماً على علم منا بابراهيم بأنه أهل لهذا الرشد (٣٩) •

ويشبهه هذا ما فى قوله تعالى « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً • اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع بولا يبيص ولا يعنى عنك شيئاً » مريم : ٤١ ، ٤٢ • فقوله « انه كان صديقاً نبياً » اعتراض على اعراب « اذ قال لأبيه » بدل اشتغال من ابراهيم وهو اعتراض تذييلي مقرر لما قبله ومعمل له ، فان كونه عليه السلام صديقاً نبياً موجب للأمر بذكره (٤٠) •

ومنه قوله تعالى « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » هود ٧٣ فهو اعتراض يفيد الدعاء بالرحمة والبركات لأهل البيت الابراهيمى ، بعد تعجبهم من البشرى بالولد ، وفيه تشبيه على أن البشارة ليست غريبة على هذا البيت فرحمة الله تعم أهله ، وبركاته تنرى عليهم •

والاعتراض الذى وقع بأية قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين » الأنعام : ٧٥ • فإنه الآية معترضة بين الآية التى قبلها والتى بعدها ، اذ ان قوله تعالى « فلما جن عليه الليل » معطوف على قوله « قال ابراهيم لأبيه » وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق ما لحق (٤١) •

والاعتراض الذى وقع بآيات قوله تعالى « وان تكذبوا فقد كذبتم أمم من قبلكم » الى قوله تعالى « فما كان جواب قومه » العنكبوت :

(٣٩) ينظر الكشاف ٥٧٥/٢ • والتحرير والتنوير ٩٣/١٧ •

(٤٠) ينظر أبو السعود ٢٦٦/٥ •

(٤١) ينظر الكشاف ٣٠/٢ ، وأبو السعود ١٥٢/٣ •

١٨ - ٢٣ . فان هذه الآيات محتملة أن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم للتبليس عن الرسول ﷺ وتسلية ببيان أن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بفونه « وان تكذبوا » على معنى أنكم يا معشر قريش وان تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه ، وكل أمة نبيها ، وبذلك كان الاعتراض متصلا بما قبله (٤٢) .

وقد وقع الاعتراض في أربعة مواطن في ثنايا تعدد الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في طرفة الأنعام وذلك بقوله تعالى « كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل » وقوله تعالى « وكذلك نجري المحسنين » وقوله تعالى « كل من الصالحين » وقوله تعالى « وكلا فضلنا على العالمين » الأنعام : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ . وفي هذه الاعتراضات مسارعة إلى الثناء على كل طائفة بوصف من الأوصاف العظيمة تنويها بشأنهم ، وتفخيما لأمرهم .

بسط الكلام :

وقد يكون الاطاب ببسط الكلام دون وجود زيادة فيه مما سبق من ألوان الاطاب ، وقد أشار السكاكي الى ذلك ، حيث قال : والاطاب هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارات متعارف الأوساط ، سواء كانت الكثرة راجعة الى الجهل أو الى غير الجمل (٤٣) . وجعل من ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم « قالوا نعبد أصناما فنظلل لها عاكفين » الشعراء : ٧١ ، فقد جاء ذلك في جواب سؤال

(٤٢) الكشف ٢٠١/٣ .

(٤٣) مفتاح العلوم ٢٧٧ .

ابراهيم عليه السلام « ما تعبدون » ولو أريد الإيجاز لكفى أن يقولوا :
 أصناما • وإنما بسطوا الكلام ابتهاجا منهم بعبادة الأصنام ، واقتضرا
 به، واطبعتها ، منحرفين عن الجواب المطابق المختصر وهو : أصناما (٤٤) •
 وقد أشار الزمخشري الى ذلك (٤٥) •

وقد بسط التعبير في بعض مواطن من القصة كتسفا للحقائق ،
 وإظهارا لضلال القوم وبياناً لعقابهم وسوء مصيرهم ، وتفصيلاً لثناء
 ابراهيم على ربه وغير ذلك •

ففي دعوة ابراهيم لأبيه بسط للعبارة وتقليباً لوجوه الأساليب تارة
 بالنداء والاستفهام ، وأخرى بالأمر والنهي ، وثالثة بالنخبة والتأكيد ،
 ورابعة باظهار الخوف والشفقة وذلك في سبيل كشف الحقيقة لأبيه ،
 وبيان ما هو عليه من الخطأ ، واستجلاب طاعته لأمر الله تعالى •

وفي بيان عداوة الآلهة لابراهيم ، وثنائه على الله بنعمه ودعائه
 والتضرع اليه في حلقة الشعراء نجد بسطاً واتساعاً في الأسلوب حيث
 يستغرق ذلك ما يزيد عن عشر آيات ، عرف القوم فيها بربه الكريم رب
 العالمين ، وما له من نعم عظيمة على ابراهيم ، وتضرع فيها اليه طالباً
 الرحمة والمغفرة •

وفي بيان سوء مصير القوم يوم القيامة نجد بسطاً في بعض
 المواطن بتصوير البلاقة القرية بينهم وبين الأصنام في الدنيا ، وتحول
 هذه العلاقة في الآخرة الى كفران وتلاعن مراعاة لزيادة التحذير من
 الأصنام وعبادتها ، والتخويف من سوء العاقبة بسبب الضلال من ذلك
 قوله تعالى : « وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً هوداً بينكم في»

(٤٤) السابق ١٧٨ ، ٢٨٣ •

(٤٥) ينظر الكشاف ١٩٦/٣ •

الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا
وما أواكم النار وما لكم من ناصرين « العنكبوت : ٢٥ •

وفي حديث ابراهيم عليه السلام مع أبيه عن ابرؤيا نرى بسطا في
العبرة توضيحا للحقائق وتأكيدا لموقف الابن الطامع « قال يا بني انى
أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر
ستجدنى ان شاء الله من الصابرين « الصافات : ١٠٢ • واو توخى
الذبيح لقال ان الله يأمرنى بذبحك ، وقال الابن : نفذ ما أمرك الله به ،
ولكن بسطت العبرة القرآنية ببيان أن هذا كان من الوحي عن طريق
الرؤيا المنامية : ودعوة الابن الى النظر فى هذا الأمر ، وايضاح موقف
الابن ، مع زيادة بيان لصبره وتعليقه الصبر على مشيئة الله تعالى ،
هضما للنفس ، واستعدادا للمعونة من رب العالمين •

ويتضح بسط العبرة عند مقارنة حكاية الأحداث فى مواطن مختلفة ،
فى الأنبياء يحكى موقفه مع الأصنام بقوله تعالى « فجعلهم جذاذا
ألا كبيرا لهم « ٥٨ ، وفى الصافات يحكى هذا الموقف فى ثلاث آيات
« فمراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون • مالكم لا تنطقون • فمراغ عليهم
ضربا باليمين « ٩١ - ٩٣ •

وبراءته من قومه تحكى فى الزخرف بقوله تعالى « اننى براء مما
تعبدون « ٢٦ ، بينما تحكى فى المنتحة ببسط وتوسع « اذا براء منكم
ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء
أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده « ٤ • وقد بينا فى أسرار التنوع ما فى ذلك
من لطائف البيان ودقائق البلاغة ، وإنما غرضنا هنا أن نشير الى اختصار
العبرة وبسطها •

البناء القصصي في الحلقات :

بيان في التمهيد أن القصص القرآني لا ينبغي أن يقاس بمقاييس الفن القصصي في تراث البشر ، فهو قصص له سماته الخاصة التي تتحدد في ضوء أهدافه الدينية العالية ، وأغراضه الوعظية السامية .

وهذا لا يمنع من أن نرى في القصة القرآنية أصولاً عامة تجرى عليها ، وهذه الأصول نجد ما يشبهها في مقاييس القصة الأدبية .

ولو تأملنا في حلقات قصة إبراهيم عليه السلام نجد أن معظم حلقاتها تكون كل منها قصة على حدة ، لها بداية وقمة ونهاية . ويظهر هذا جلياً في حلقات الدعوة ، وحديثه مع الملائكة .

وانقصة في هذه الحلقات يمكن أن تسمى قصة المشاهد والحوار ، حيث تعتمد في طريقة عرضها على المشاهد ، وفي طريقة التعبير على الحوار ، وفي تنسيق الحوادث على تصوير أبرز المواقف ، تاركة بين المشاهد كثيراً من التفاصيل التي يتصورها العقل (١) .

وأسلوب انعرض القصصي في هذه الحلقات يعتمد طريقة الرواية ، التي تؤذذك دائماً بأنك تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها في التاريخ ، وانتهى دورهم في الحياة وأنها في هذا العرض إنما هي في بعث جديد قد جاءت تسعى اليك ، تحدثك بلسانها ، وتسمعك أقوالها ، وتطلعك على ما حدث لها (٢) .

والحوار في القصة القرآنية يرسم معالم الشخصيات الانسانية بالتعبير عن خواطهم النفسية وآرائهم ومواقفهم وما نسج بينهم من

(١) ينظر منهج القصة في القرآن ٤٤ .

(٢) ينظر القصص القرآني ٨٠ .

صراع على طريقة الحكاية عنهم ونقل أقوالهم نقلا أميناً ، لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أساليب اعجازها لا على التصيغة التي صدرت فيها ، ولو كان المنقول عنهم من العرب ، حتى يكون الاعجاز البياني للأقوال المحكية اعجازاً للقرآن لا لتلك الأقوال (٣) .

وقد أشار أبو والسعود الى هذا حين قال : وجميع المقالات المنقولة في القرآن الكريم انما تحكى بكيفيات واعتبارات لا يكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما ، والا لأمكن صدور الكلام الممجز عن البشر فيما اذا كان المحكى كلاما (٤) .

وقدرة القرآن على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر ، وبراغته في العرض والأداء ، وواعجازه في التعبير المركز المشع بالايحاءات تبعث الحياة في هذا اللون من القصص ، وتحولته الى صور حية وشخص متحركة ومشاهد تتبض بالحياة (٥) .

خذ مثلا حلقة الأنبياء : تجدها قصة على انفرادها • ترى بدايتها في سؤال يطرحه ابراهيم عليه السلام على أبيه وقومه في تهكم وتوبيخ « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » ، ويحييه القوم اجابة فيها مراوغة « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » • ويمتد الحوار بين الفريقين مصورا ما حدث بينهما ، وكأنك تراه رأى العين ، ويتدرج الحوار الى تهديد ووعيد ، وتتصاعد الأحداث ، وينفذ ابراهيم عليه السلام تهديده فيكسر الأصنام ، ويجن جنون القوم ، ويبحثون عن الفاعل

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن ٤١١ •

(٤) أبو السعود : ٢١٨/٣ •

(٥) مزيج القصة في القرآن ٥٤ •

الظالم ، ويشيرون بأصابع الاتهام الى ابراهيم، ويأتون به اى المحامدة .
وهنا نلتقى بقمة الحدث فى حكم المحكمة الظالمة سائقاه فى النار ،
ابها عقدة القصة ، وقمة الاثارة فيها ، كيف يلقى انسان فى نار
الجحيم ؟ وما مصيره فى هذد النار المتأججة ؟ وما ٠٠٠ وما ٠٠٠ .
استفهامات عديدة • تملأ القلوب أسى ولوعة ، ورحمة وسفقه على هذا
النبي العظيم ، وتفجرها غيظا وحقدا على قومه الظالمين •

وبسرعة ينجلي الموقف بالحل المفرح والنهية السعيدة ، لقد أنجاه
الله من النار ، وأسبغ عليه نعمه العظيمه •

وحلقة الأنعام : انها قصة أخرى تجرى أحداثها فى وضع مختلفا
من حيث الموضوع والزمان والمكان والأشخاص : فبدايتها تتمثل فى
رؤية الكوكب والقمر والشمس ساطعات ثم يعترىها الأقوال ليتخذها
ابراهيم عليه السلام دليلا على بطلان ربوبيتها ، وعندها يجهر فى
فى قومه « انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر
السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » •

وتطالعنا قمة الحدث فى جدال قومه له وتضويمه بالآتهم ، ورده
عليهم ردا مفحما ، انها معركة كلامية حامية بين الحق والباطل ، بين
المؤمنين والظالمين ، من المتصر فيها ؟ ••• وتجبب النهاية بانتصار
ابراهيم عليه السلام ، وعلو درجته بين العالمين •

والحلقات التى تعرض حديثه مع الملائكة كل منها قصة على حدة،
تتمثل بدايتها فى مجيء الملائكة الى ابراهيم عليه السلام فى هيئة غريبة
فيتبادلون التحية معه ويسرع ابراهيم بتقديم أطيب الطعام . لكنهم
لا يأكلون ، ويستد خوفه ووجهه منهم •

(٣٩ - خصائص النخلة)

وتبرز قمة الحدث في البشرى وكشفهم عن هويتهم ، ايطدئن ابراهيم عليه السلام ، ويأتس اليهم ، ويسألهم عن المهمة التي جاءوا من أجلها ، وهذا ما يؤذن بنهاية القصة .

وربما اشتملت الحلقة الواحدة على قصتين منفصلتين الا أنهما ربطتا في النظم برباط متين ، مثلما ترى في حلقة الصافات ، فالقسم الأول منها يفصل قصة الدعوة الى الله تعالى وانتهائها بالقائه في النار ونجاته منها . والقسم الثاني منها يحكى قصة اسماعيل عليه السلام وما كان من أمر الابتلاء المبين والفداء العظيم .

ونجد في بعض الحلقات والمشاهد ما يشبه القصة القصيرة ، وهي في موازين النقاد تعرض حدثا واحدا في صورة سريعة ذات تأثير قوى ، لتؤدى الغرض في أقصر وقت ومن أقرب طريق (٦) .

وهم يقولون ان من أهم شروطها : وحدة الزمان بحيث لا يتناول تطاوله في الرواية . ووحدة الموضوع فهي تتناول جانبا واحدا من الحياة . وقللة الأشخاص ، وأن تكون لها بداية وقمة ونهاية مع التركيز والايجاز (٧) .

ومما يمثل ذلك : الحلقة التي تعرض تحديه لطاغية عصره النمرود ، « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ... » البقرة : ٢٥٨ . انها آية واحدة ، والقصة فيها لا تتجاوز ثلاثين كلمة فهي في غاية التركيز والايجاز ، وقد توحد فيها الزمان والمكان والموضوع ، وتقوم على شخصين لا ثالث لهما ، وتمثل بدايتهما في قول ابراهيم عليه السلام « ربى الذى يحيى ويميت » ورد الطاغية عليه « أنا احىي

(٦) ينظر منهج القصة في القرآن ٤٢ .

(٧) ينظر السرد القصص في القرآن الكريم ٥١ ، ٥٢ .

وأमित » • ورأتى قممتها في التحدى الثانى « ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » انه تعدد مثير ، واختبار عجيب ، يدع النفوس متلذذة لسماع النهاية « فبهت الذى كفر » وتأتى الموعدة عقيب النهاية « والله لا يهدى القوم الظالمين » •

ومشهد اسماعيل عليه السلام في حلقة الصافات يمثل قصة قصيره بأدق موازين النقاد وهو يأتى على النحو التالى :
 « رب هب لى من الصالحين • فبشرناه بسلام حليم • عاماً بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين • فلما أسلما وبناه للجبين • وناديناه أن يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين • ان هذا نهي البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم • » •

يقول الأستاذ ثروت أباطة : في ستين كلمة اكتملت قصة معجزة • من ناحية الزمن لحظة • • أب يهيم بقتل ابنه ويطلب للجبين : فوحى اليه ربه قد صدقت الرؤيا فينقذ الابن • ومن ناحية الموضوع واحد لم يتغير ، أب يقول لابنه أنه أوحى اليه أن يقتله فيقول الابن في روعة الايمان وعظمته ، وأمنة المطمئن افعل ما تؤمر ، لم تحدد القصة عن موضوعها قيد أنملة •

ومن ناحية الأشخاص اثنان لا ثالث لهما • وليس أقل من الاثنين الا الواحد : وما أحسب أن الواحد يستطيع وحده أن يصنع قصة •

ومن ناحية الأشخاص اثنان لا ثالث لهما ، وليس أقل من الاثنين الصالحين « والقمة » افعل ما تؤمر « » وتله للجبين « ، والنهاية « وفديناه بذبح عظيم » • البداية أروع ما تكون البداية ، فالقصة تبدأ منذ أن كان اسماعيل دعاء يتوجه به ابراهيم عليه السلام الى ربه ، والقمة أروع ما تكون القمة ، أب يقتل ابنه وابن يرحب أن يقتل في

سبيل الله ، والنهائية أروع ما تكون النهائية ، لقد وضع الله نبيه وابنه في بلاء عظيم يمتحن صبرهما ، حتى اذا أبادياه واضحا جلجا عفا . . . وأعاد الابن الى أبيه ، والحياة الى الابن ، فكلهما جميعا في فرح مقيم . . . ألم أقل لك انه الاعجاز (٨) .

وقد ينسع الزمان قليلا في القصة على الرغم من وحدة الموضوع نظرا لما يقتضيه تنفيذ المطلوب ، الا أن القصة لاتعبر عن ذلك، تعامدا على أنه مقصور في العقل، ويمثل ذلك في حلقة السؤال عن كيفية احياء الموتى « واذا قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى » البقرة : ٢٦٠ . والنقصة هنا تعبر عنها آية واحدة تقرب كلماتها من أربعين كلمة ، وتحكى تجربة عملية علم منها ابراهيم عليه السلام كيفية احياء الموتى ، وقد حدثت القصة المطلوب من ابراهيم عليه السلام ، وطوت مرحلة التنفيذ التي يختلف زمانها عن زمان الطلب ، اعتمادا على حركة الفكر، وقدرة العقل على تصورهما .

ويستطيع المتأمل أن يجد مثلا للقصة القصيرة في حلقة هريم التي تحكى دعوته لأبيه خاصة حيث تتضح فيها وحدة الزمان والمكان والموضوع وقلة الأشخاص . مع بنائها على بداية وقمة ونهاية وفي ختام حديثنا عن هذا الموضوع نؤكد ما قلناه أننا من أن القصة القرآنية لا يحكم عليها بالمقاييس البشرية وان كنا نرى في مقاييس القصة البشرية ما يشبه أصول القصة القرآنية ، ومثل هذه الموضوعات تحتاج الى دراسات مفصلة .

الختامة :

تناولنا في المفاصول السابقة تحليل النظم القرآني في قصة ابراهيم عليه السلام ، تحليلا بلاغيا موسعا يكشف عن خصائصه اللغوية وأساره البيانية ، ويبين ما فيه من تشابه وتنوع .

وقد بدأنا بتمهيد نحدثنا فيه عن القصة في القرآن الكريم ، وعن سيرة ابراهيم عليه السلام ، ومعالم قصته في كتاب الله تعالى .

وأبعناه بالفصل الأول الذي تناولنا فيه تحليل الآيات التي تحكي دعوة ابراهيم الى عبادة الله تعالى ، وإبطال عبادة الأصنام والكواكب . وتلاه الفصل الثاني وتحدثنا فيه عن الآيات التي تحدثى حواراً مع الملائكة عندما دخلوا عليه مبشرين بالسلام ، ومخبرين بهلاك قوم لوط .

وجاء الفصل الثالث وفيه تحليل للآيات التي تحدثى أخباره في رحاب البيت العتيق ودعاءه فيه . وتبعه الفصل الرابع وفيه تحليل للآيات التي تهتم ببيان عقيدته وبرأته من الشرك والمشركين ، وثوضح منزلته الكريمة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة .

ثم كان الفصل الخامس وعرضنا فيه لأهم الخصائص البلاغية الشائعة في قصة ابراهيم عليه السلام .

وبعد هذه المسيرة العطرة في ظلال قصة ابراهيم عليه السلام نقف لنرصد الحقائق التالية :

— لاقصة القرآنية نهج متميز في بنائها المحكم ، وصياغتها الدقيقة، التي تقوم على الايجاز البديع بطى المشاهد الجزئية ، والتفصيلات التي لا يتعلق بها غرض ، اعتمادا على فهمها من السياق ووحى العبارات ، وهذا راجع الى أنها تركز على جانب العظة والعبرة، ومن ثم فلا تسرد الأحداث سردا تاريخيا ، ولا تراعى ذكر كل صغيرة وكبيرة .

— تعد قصة ابراهيم عليه السلام من أطول القصص في القرآن الكريم ، وقد تعددت حلقاتها وتنوعت مشاهداتها ، وانتمت على ضروب

من العظات ، وألوان من الدلائل البيّنات على وحدانية الله تعالى وقدرته
وإسائر صفاته القدسية .

— سلك النظم القرآني مسلكا معجزا في حكاية المشاهد المكررة في
الحلقات ، وذلك بتلوين الأسلوب وتوحيه ، وإضافة أحداث لم تذكر ،
وبتفصيل وقائع لم تفصل طبقا لمقتضيات المقام ، وبذلك يبدو المثل -جد
جديدا في شكله ومضمونه ، ويرى المتأمل أنه لا تكرار في القصص
القرآني .

— تعددت مظاهر التنوع في الأساليب المتشابهة والمواقف المتقاربة
وقد وقفنا في دراستنا لهذا الجانب على أسرار دقيقة في النظم القرآني
تقرر ما ذكره العلماء من أن لكل كلمة فيه موقعا خاصا تتلاءم معه ،
وتلاءم معنا ، ولا تصاح في غيره ، ولا يصلح لغيرها .

— للخصائص البلاغية في القصة جانب كبير في إبراز المعاني
المقصودة ، وإظهار الأغراض المرادة ، ومن ثم برزت هذه الخصائص
في ثنايا القصة فلم يخل منها تعبير ولا أسلوب ، بل لم تخل منها كلمة
ولا لفظة .

— تعددت الموضوعات وتتنوع في الحلقات ما بين عرض أحداث
وتصوير مشاهد ، ومواعظ وعبر ، وأحكام وتشريعات ، وحمد وثناء ،
وتضريح ودعاء ، وتذكير بالثعم والأفضال ، والنظم في كل ذلك على درجة
واحدة من السمو والعلو والرفعة ، لا تقل درجته في موضوع عن
موضوع ، ولا تضعف في معنى عن معنى آخر .

وبعد : فقد تم لنا بحول الله تعالى إنجاز ما قصدناه في الختام
فتوجه الى الله العليّ القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم
« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا أصرا كمال
نحملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به راعف عنا
واعقر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على الكافرين » .

المراجع

- ١ - الاتقان في علوم القرآن - السيوطي - ط هـ صطفي الحلبي •
- ٢ - أساس البلاغة - الزمخشري - ط دار اشعب •
- ٣ - الاسلام في عصر العلم - د. محمد الغمراوي - دار الكتبة الحديثة •
- ٤ - اعجاز القرآن - الباقلائي - ت السيد صقر - دار المعارف •
- ٥ - اعجاز القرآن ونبلاغة النبوية - الراقعي - دار الكتاب العربي - بيروت •
- ٦ - أملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب وانقراءات في جميع القرآن - العكبري - بهامش الفتوحات الالهية - المكتبة التجارية •
- ٧ - الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - ابن المنير - بهامش الكشاف الحلبي •
- ٨ - بديع القرآن - ابن أبي الأصبع - ت د • حفني شرف - نهضة مصر •
- ٩ - البرهان في علوم القرآن - الزركشي - ت محمد أبو الفضل - عيسى الحلبي •
- ١٠ - البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن • ابن الزماكاني - ت د • خديجة الحديثي و د • أحمد مطلوب بغداد •
- ١١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الفيروز بادي محمد علي النجار المجلس الأعلى للثقافة الاسلامية •
- ١٢ - بغية الايضاح - القرظيني والصعدي ط - سبيح •

- ١٣ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري - د. محمد أبو موسى -
دار الفكر •
- ١٤ - تاريخ الأنبياء • د. محمد الطيب النجار - مكتبة المعارف -
الرياض •
- ١٥ - التصوير الفني في إنقرآن - سيد قطب - دار الشروق •
- ١٦ - التعريض في القرآن الكريم - د. ابراهيم الخولي - نوزيع
دار المعارف •
- ١٧ - تفسير ابن كثير - للحافظ ابن كثير - عيسى الحنبلي •
- ١٨ - تفسير أبي السعود - أبو السعود العمادى - دار احياء
التراث العربى - بيروت •
- ١٩ - تفسير الألوسى - شهاب الدين الألوسى - دار الفكر -
بيروت •
- ٢٠ - تفسير البحر المحيط - أبو حيان الأندلسى - دار الفكر -
بيروت •
- ٢١ - تفسير البيضاوى - القاضى البيضاوى - مكتبة الجمهورية •
- ٢٢ - تفسير التحرير والتنوير - الطاهر بن عاشور - ادار التونسية
للنشر •
- ٢٣ - تفسير القرآن الحكيم « المنار » - رشيد رضا - الهيئة العامة
للكتاب •
- ٢٤ - تفسير القرطبى - دار الشعب - القاهرة •
- ٢٥ - التفسير الكبير - الرازى - دار الفكر - بيروت •
- ٢٦ - تلخيص المفتاح - القزوينى - شرح البرقوقى - دار الفكر •

- ٢٧ - جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - المطبعة الأميرية - القاهرة .
- ٢٨ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور - ابن الأثير - ت مصطفى جواد ، ود . جميل سعيد - بغداد .
- ٢٩ - الجنى الدانى في حروف المعانى - المرادى - ت د . فخرى الدين قباوة ومحمد نديم - دار الآفاق - بيروت .
- ٣٠ - حاشية زادة على البيضاوى - محى الدين زادة - المكتبة الاسلامية - تركيا .
- ٣١ - حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى - الشهاب الخفاجى - دار طادر - بيروت .
- ٣٢ - خزافة الأدب - ابن حجة الحميرى ت عصام شعيتو - مكتبة الهالك - بيروت .
- ٣٣ - خصائص التراكيب - د . محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة .
- ٣٤ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم - محمد عبد الخانق عزيمة - دار الحديث - القاهرة .
- ٣٥ - درة التنزيل وغرة التأويل - الاسكافى - بيروت .
- ٣٦ - دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجانى - ت دحمود شاذل - الخانجى .
- ٣٧ - رياض الصالحين - النووى - دار المأمون - دمشق .
- ٣٨ - السرد القصصى في القرآن الكريم - ثروت أبانلة - دار نهضة مصر .

- ٣٩ - سيكولوجية القصة في القرآن - التهامي زهرة - الشركة التونسية للتوزيع •
- ٤٠ - شرح الأشهرنى وحاشية الصبان على الألفية - الأشهرنى والصبان - عيسى الحلبي •
- ٤١ - شروح التلخيص - التفتازانى وآخرون - عيسى الحلبي •
- ٤٢ - الصحاح - الجوهري - ت أحمد عطار - القاهرة •
- ٤٣ - فتح البيان في مقاصد القرآن • صديق حسن خان - القاهرة •
- ٤٤ - الفنوحات الالهية « حاشية الجمل » - سليمان العجيل - المكتبة التجارية •
- ٤٥ - في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق •
- ٤٦ - قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار - مؤسسة الحامى - القاهرة •
- ٤٧ - قصص الأنبياء - ابن كثير - دار عمر بن الخطاب - الاسكندرية •
- ٤٨ - قصص القرآن - محمد أحمد جاد المولى وآخرون - دار
- ٤٩ - القصص القرآنى في منطقته ومفهومه • عبد الكريم الخطيب - دار المعرفة •
- ٥٠ - اكتشاف عن حقائق التنزيل - الزمخشري - مصطفى الحلبي •
- ٥١ - لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف - القاهرة •
- ٥٢ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ابن الأثير - ت د • أحمد الحوقى ود • بدوى طبانة - نهضة مصر •

- ٥٥ — مذكرات في انفصل والوصل والقصر — سليمان نوار — مطبعة العلوم •
- ٥٦ — المطول على التلخيص — سعد الدين التفقازاني — ط أحمد كامل •
- ٥٧ — معترك الأقران في اعجاز القرآن — السيوطي ت علي البجاوي — دار الفكر •
- ٥٨ — معجم المصطلحات البلاغية — د • أحمد مطلوب — بغداد •
- ٥٩ — مع القرآن الكريم في دراسة مستهمة — عليّ النجدي ناصف — دار المعارف •
- ٦٠ — مغنى اللبيب عن كتب الأعراب — ابن هشام — ت محمد محيي الدين عبد الحميد — ط صبيح •
- ٦١ — مفتاح العلوم — السكاكي — ت نعيم زرزور — دار الكتب بيروت •
- ٦٢ — المفردات في غريب القرآن — الراغب الأصفهاني — دار المعرفة بيروت •
- ٦٣ — مقاييس اللغة — ابن فارس — ت عبد السلام هارون ط — مصطفى الحلبي •
- ٦٤ — ملك التأويل القاطع بذوى الالحاد والتطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل — الغرناطي — ت سعيد الفلاح دار الغرب الاسلامي •
- ٦٥ — من أسرار التعبير القرآني — د • محمد أبو موسى — دار الفكر العربي •

- ٦٦ - منهج القصة في القرآن - محمد شديد - عكاظ للنشر
والتوزيع •
- ٦٧ - النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز - دار القلم -
الكويت •
- ٦٨ - النبوة والأنبياء - محمد علي الصابوني - دار القلم - دمشق •
- ٦٩ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - البقاعي - حيدر آباد -
الهند •
- ٧٠ - نهاية الأيجاز في دراية الإعجاز - الرازي - مكتبة الآداب •

محتويات الكتاب

٣	تقديم
٧	تمهيد
٢٢	الفصل الأول : الدعوة الى عبادة الله تعالى
٢٥	الحلقة الأولى : دعوة ابراهيم عليه السلام لأبيه
٢٨	بين يدي الآيات : ٢٥ البداية : ٢٧ دعوته لأبيه : ٢٩ رد الأب ٢٨
	موقف ابراهيم عليه السلام : ٤٢ الخاتمة : ٤٨
	الحلقة الثانية : واتل عليهم نبأ ابراهيم : ٥٥
٥٧	بين يدي الآيات : ٥٥ البداية : ٥٧ حوار ابراهيم مع قومه : ٥٧
	ثناء على الله تعالى : ٦٥ الخاتمة : ٧٣
٨١	الحلقة الثالثة : وان من شيعته لابراهيم
٨٦	بين يدي الآيات : ٨١ البداية : ٨٣ انكار عبادة الأصنام : ٨٦
٩٧	تدمير وتدمير : ٨٨ مواجهة وانتقام : ٩٣ الهجرة والبشرى : ٩٧
	ابتلاء ونداء : ١٠١ الخاتمة : ١٠٨
١١٢	الحلقة الرابعة : ولقد آتينا ابراهيم رشده
١١٨	بين يدي الآيات : ١١٣ البداية : ١١٦ جدال مع النصارى : ١١٨
١٣٧	رد ابراهيم : ١٢٦ البحث عن الفاعل : ١٣٣ المدح ماكرة : ١٣٧
	الحكم النجاة : ١٤٩ الخاتمة : ١٥٣
١٥٩	الحلقة الخامسة : اعبدوا الله واتقوه
١٦٣	بين يدي الآيات : ١٦٠ ابديا : ١٦١ ابطال عبادة الأصنام : ١٦٣
١٨٣	الدعوة الى السير والنظر : ١٧٤ جواب القوم : ١٨١ مواصلة الدعوة : ١٨٣
	الهجرة وتوالي النعم : ١٨٦ الخاتمة : ١٨٨
١٩٠	الحلقة السادسة ابراهيم عليه السلام والنمرود
١٩٥	بين يدي الآية : ١٩٠ البداية : ١٩١ ما دار في الحاجة : ١٩٥
	الخاتمة : ٢٠٢
٢٠٤	الحلقة السابعة : ابطال عبادة الكواكب

بين يدي الآيات : ٢٠٥ البداية : ٢٠٦ الاستدلال على بطلان ربوبية الكواكب : ٢١٠ مجادلة القوم وجواب ابراهيم : ٢٢٠ الخاتمة : ٢٣٠
أسرار التشابه والتنوع في النظم : ٢٤١
الموضوع والنظم : ٢٤١ البدايات : ٢٤٦ التعلل بتقليد الآباء : ٢٥٦
ابطال علتهم : ٢٥٧ تكسير الأصنام : ٢٥٨ القأوه في النار ونجانه : ٢٦٣
فرار الاعتزال : ٢٦٧ ختام الحلقات : ٢٦٩

٢٧١ الفصل الثاني : ابراهيم عليه السلام والملائكة

٢٧٣ الحلقة الأولى : مجيء الرسل بالبشرى
بين يدي الآيات : ٢٧٣ تحية وحوار : ٢٧٦ جداله عن قوم لوط ورد
الملائكة ٢٨٥

٢٩٥ الحلقة الثانية : ونبتهم عن ضيف ابراهيم
بين يدي الآيات : ٢٩٠ البداية : ٢٩١ تحية وحوار : ٢٩٢

٣٠٤ الحلقة الثالثة : حديث ضيف ابراهيم
بين يدي الآيات : ٣٠٤ تحية وحوار : ٣٠٧

٣١٦ الحلقة الرابعة : جدال ابراهيم عن لوط عليهما السلام
بين يدي الآيات : ٣١٦ بداية وحوار : ٣١٧
أسرار التشابه والتنوع في النظم ٣٢١

البدايات : ٣٢١ لقاء السلام : ٣٢٢ طمأنة الملائكة والبشرى : ٣٢٥
الملائكة وامرأة ابراهيم عليه السلام ٣٢٩ . الحوار بشأن قوم لوط : ٣٣١
تكامل الحلقات : ٣٣٧

٣٤٠ الفصل الثالث : في رحاب البيت العتيق

٣٤٢ الحلقة الأولى : دعاء ابراهيم في الحرم

بين يدي الآيات : ٣٤٢ البداية : ٣٤٤ دعاء وثناء : ٣٥٢ الخاتمة ٣٦١

٣٦٣ الحلقة الثانية : بناء البيت الحرام

بين يدي الآيات : ٣٦٤ البداية : ٣٦٥ البيت الحرام ومقام ابراهيم ٣٧٤

دعاؤه لتبديد الحرام وأهله : ٣٧٩ رفع القواعد ودعاء ابراهيم

واسماعيل : ٤٠٨

ملة ابراهيم وفضله : ٣٩٥ وصيته لبنيه : ٣٩٩ وصية يعقوب : ٤٠٣
الخاتمة : ٤٠٨

٤١٣ الحلقة الثالثة وأذن في الناس بالحج
بين يدي الآيات : ٤١٣ تشریف وتكليف : ٤١٤ حكمة التشريع : ٤١٨
أسرار التشابه والتنوع في النظم : ٤٢٣
الموضوع والنظم : ٤٢٣ البدايات : ٤٢٤ ادعاء بالامن : ٤٢٥ الدعاء
بالرزق : ٤٣٢ الأمر بتطهير البيت ٤٣٢

٤٣٥ الفصل الرابع : عقيدة ابراهيم عليه السلام ومنزلته

٤٣٧ الحلقة الأولى : ابراهيم والبعث
بين يدي الآيات : ٤٣٧ البداية : ٤٣٩ امتحان من الله تعالى : ٤٤٢
الاجابة : ٤٤٧ الخاتمة : ٤٥٣

٤٥٧ الحلقة الثانية : محاجة أهل الكتاب
بين يدي الآيات : ٤٥٧ ابطال المحاجة : ٤٥٨ ملة ابراهيم : ٤٦٢
أولى الناس بابراهيم : ٤٦٣

٤٦٥ الحلقة الثالثة : البراءة من عبادة الأصنام
بين يدي الآيات : ٤٦٥ مع الآيات : ٤٦٦

٤٦٦ الحلقة الرابعة : التأسى بابراهيم
بين يدي الآيات : ٤٦٩ الأسوة وموضعها : ٤٧٠

٤٧٧ الحلقة الخامسة : استغفار ابراهيم لأبيه

٤٨٠ الحلقة السادسة : منزلة ابراهيم وذريته

٤٨٣ الحلقة السابعة : ان ابراهيم كان أمة

بين يدي الآيات : ٤٨٣ مكانة ابراهيم : ٤٨٤ نعمة عظيمة المفسد : ٤٨٨
البحث على اتباع ملته : ٤٩٠

٤٩٤ الحلقة الثامنة : خليل الله تعالى

٤٩٤ أسرار التشابه والتنوع في النظم

الموضوع والنظم : ٤٩٤ مئة ابراهيم ٤٩٧ اتباع ملته ٤٩٩ البراءة من
المشركين ٥٠٠ استغفار ابراهيم لأبيه : ٥٠٢ جزاء ابراهيم عليه السلام ٥٠٣
الفصل الخامس : الخصائص البلاغية العامة في القصة ٥٠٦

الخبر المؤكد : ٥٠٦ التعريف بالاسم الموصول : ٥١٣ التعريف
بالاشارة : ٥٢٠

التقديم والتأخير : ٥٢٥ القصر : ٥٣٧ الاستفهام : ٥٤٧ - الأمر ٥٥٨
النهى : ٥٦٦ النداء : ٥٦٧ الفصل والوصول : ٥٧٢ الايجاز ٥٨٠
الاطناب : ٥٨٩ التكرير ٥٩٠ التذييل : ٥٩٣ الايضاح بعد الابتهام : ٥٩٧
عطف العام على الخاص والخاص على العام : ٥٩٩ التكميل : ٦٠٠
الانتميم : ٦٠١ الاعتراض : ٦٠٢ بسط الكلام : ٦٠٤ البناء القصصى فى
الحلقات : ٦٠٧

٦١٣

الخاتمة

فهرس المراجع : ٦١٦ فهرس الموضوعات : ٦٢١

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩١/٧٦٢٥